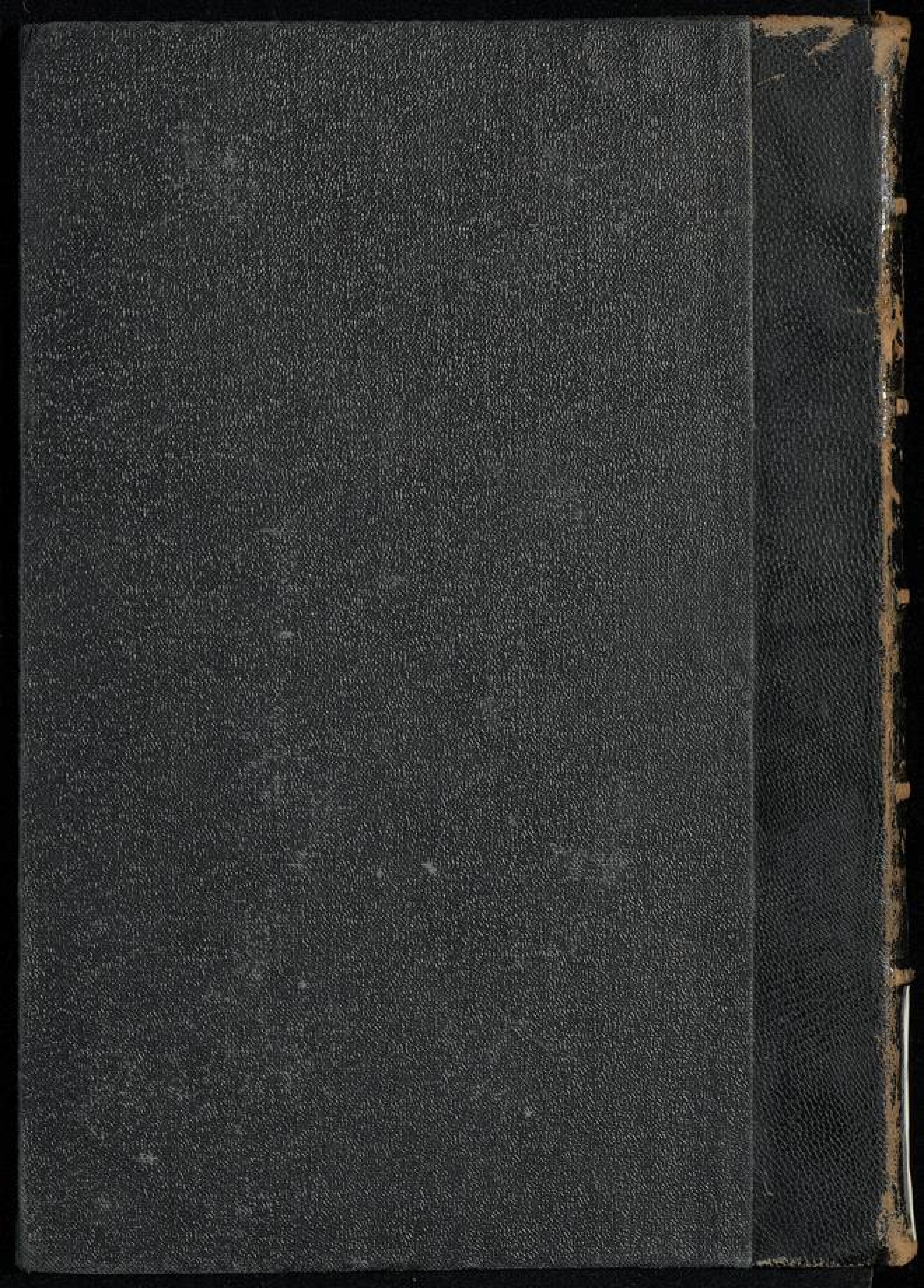
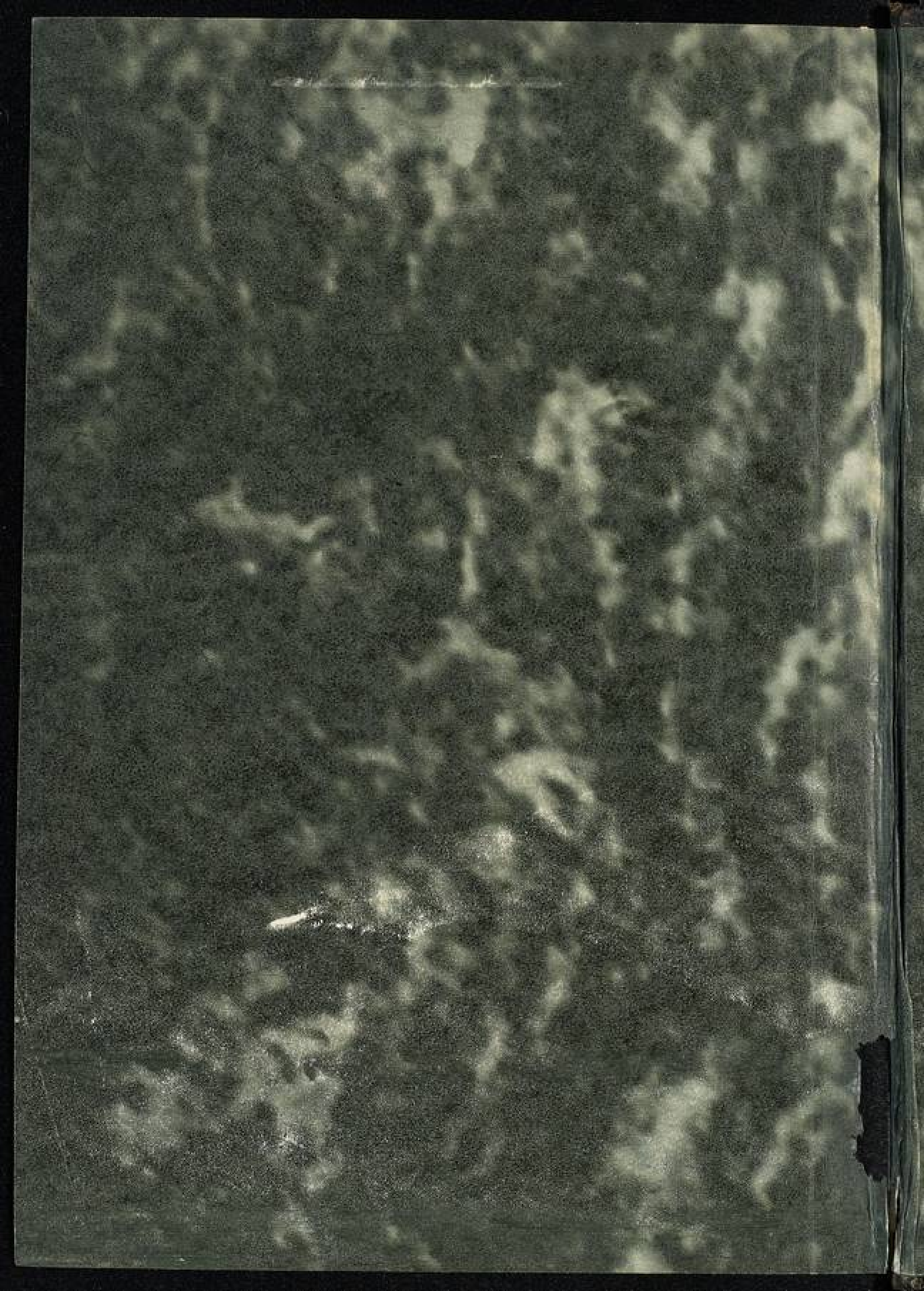
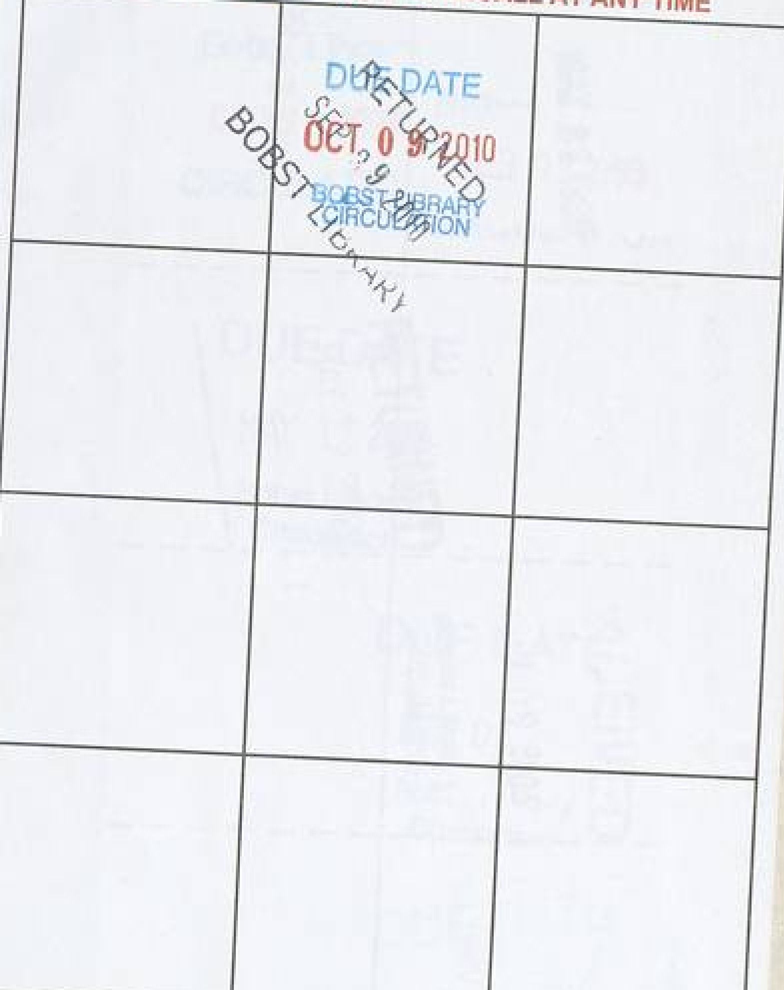










قصص الأنبياء

المسمى

عرائس المجالس

تأليف

أبى إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابورى

المعروف بالثعلبى

المتوفى سنة ٤٢٧ هجرية

الطبعة الرابعة

تمتاز بضبط الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة

١٣٧٤ هـ - ١٩٥٤ م

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

كذلكَ نقُصُّ عليكَ مِنْ أنباءِ ما قدْ سبَقَ ؛

[قرآن كريم]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده ، والصلاة على محمد وآله .

قال الأستاذ أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبيّ رحمه الله تعالى : هذا كتاب يشتمل على قصص الأنبياء المذكورة فى القرآن بالشرح ، والله المستعان ، وعليه التكلان .

باب فى ذكر بعض وجوه الحكمة فى تقصيصه تعالى أخبار الماضين على سيد المرسلين

قال الله تعالى (وكُلاًّ نقُصُّ عليكَ مِنْ أنباءِ الرسُلِ ما نُثَبِّتُ به فُؤادَكَ) .

قالت الحكماء : إن الله تعالى قصّ على المصطفى صلى الله عليه وسلم أخبار الماضين من الأنبياء والأمم الخالية لخمسة أمور : أى حِكَم .

الحكمة الأولى منها : أنه إظهار لنبوّته صلى الله عليه وسلم ودلالة على رسالته ، وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان أميا لم يختلف إلى مؤدّب ولا إلى معلم ، ولم يفارق وطنه مدة يمكنه فيها الانقطاع إلى عالم يأخذ عنه علم الأخبار ، ولم يعرف له طلب شىء من العلوم إلى أن كان من أمره ما كان ، فنزل عليه جبريل عليه السلام ولقّنه ذلك ، فأخذ يحدث الناس بأخبار ما مضى من القرون ، وسير الأنبياء الماضين والملوك المتقدمين . فمن كان من قومه عاقلا موفقا صدق بما يوحى الله إليه وإخباره إياه بذلك فآمن به وصدقه ، وكان ذلك معجزة له ، ودليلا على صحّة نبوته . ومن كان منهم عدوا معاندا حسده وجحده وأنكر ما جاء به ، وقال كما أخبر الله تعالى (وقالوا أساطيرُ الأوّلينَ اكْتَتَبَها فهىَ تُمْلَى عليهِ بُكْرَةً وأصيلاً) قال الله تعالى تكذيبا لهم وتصديقا للنبى عليه الصلاة والسلام (قُلْ أنزلَهُ الّذى يَعلمُ السّرَّ فى السّمواتِ والأرْضِ) .

والحكمة الثانية : أنه إنما قص عليه القصص ليكون له أسوة وقدوة بمكارم أخلاق الرسل والأنبياء المتقدمين والأولياء الصالحين فيما أخبر الله تعالى عنهم وأثنى عليهم ، ولتنتهى أ[illegible] عن أمور عوقبت أمم الأنبياء بمخالفتها عليها ، واستوجبوا من الله بذلك العذاب والعقاب

فتمم الله له بذلك معالى الأخلاق ، فلما امتثل أمر الله تعالى واستعمل أدب الأنبياء أثنى الله عليه ، فقال تعالى (وإنَّكَ لعلَى خُلُقٍ عظيمٍ) ولذلك قالت عائشة رضى الله تعالى عنها حين سئلت عن خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان خلقه القرآن .

والحكمة الثالثة : أنه إنما قص عليه القصص تثبيتا له وإعلاما بشرفه وشرف أمته وعلو أقدارهم ، وذلك أنه لما نظر إلى أخبار الأمم قبله ، علم أنه عُوفى هو وأمته من كثير مما امتحن الله به الأنبياء والأولياء وخفف عنهم فى الشرائع ورفع عنهم الأثقال والأغلال التى كانت على الأمم الماضية ، كما قال بعض المتأولين فى تفسير قوله تعالى (وأسْبَغَ عليكُمْ نِعَمَهُ ظاهرَةً وباطنَةً) إن النعمة الظاهرة تخفيف الشرائع ، والباطنة تضعيف الصنائع ، قال الله تعالى (يُرِيدُ اللهُ بكمُ اليُسرَ ولا يُريدُ بكمُ العُسرَ) . وقال تعالى (وَما جعلَ عليكُمْ فى الدّينِ مِنْ حَرَجٍ) . وقال تعالى (يُرِيدُ اللهُ أنْ يُخفِّفَ عنكمْ وَخُلِقَ الإنسانُ ضَعيفًا) . فلما قص الله تعالى هذه القصص على نبيه رأى فضل نفسه وفضل أمته ، وعلم أن الله خصه هو وأمته بكرامات لم يخصّ بها أحدا من الأنبياء والأمم ، فوصل قيام ليله بنهاره ، وصيامه بقيامه ، لا يفتر عن عبادة ربه أداء لشكره حتى تورّمت قدماه « فقيل يا رسول الله أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكونُ عبدًا شكورًا . ثم افتخر عليه الصلاة والسلام فقال : بُعِثْتُ بالحنيفيَّةِ السَّمْحَةِ » .

والحكمة الرابعة : أنه إنما قص الله تعالى عليه القصص تأديبا وتهذيبا لأمته ، وذلك أنه ذكر الأنبياء وثوابهم ، والأعداء وعقابهم ، ثم ذكر فى غير موضع تحذيره إياهم عن صنع الأعداء ، وحثهم على صنع الأولياء ، فقال تعالى (لقَدْ كانَ فى يوسُفَ وإخْوَتِهِ آياتٌ للسَّائلينَ) . وقال (لقَدْ كانَ فى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولى الألبابِ) . وقال (وهُدًى وَموعِظَةٌ للمُتَّقينَ) ونحوها من الآيات .. وكان الشبلىّ رحمه الله تعالى يقول فى هذه الآيات : اشتغل العامّ بذكر القصص ، واشتغل الخاصّ بالاعتبار من القصص .

والحكمة الخامسة : أنه قص عليه أخبار الأنبياء والأولياء الماضين ، إحياء لذكرهم وآثارهم ليكون المحسن منهم فى إبقاء ذكره مثبتا له تعجيل جزاء فى الدنيا حتى يبقى ذكره وآثاره الحسنة إلى قيام الساعة ؛ كما رغب خليل الله إبراهيم عليه السلام فى إبقاء الثناء الحسن فقال (واجْعَلْ لى لسانَ صِدْقٍ فى الآخِرِينَ) والناس أحاديث ، يقال : ما مات ميت والذكر يحييه ؛ وقال : ما أنفق الملوك والأغنياء الأموال على المصانع والحصون والقصور إلا لبقاء الذكر . وأنشدنا ناصر بن محمد المَرْوَزىّ قال : أنشدنى الدُّريدىّ :

وإنما المرءُ حديثٌ بعدهُ ... فكن حديثا حسنا لمن وَعَى

مجلس فى صفة خلق الأرض

قال الله تعالى (الَّذى جَعَلَ لكمُ الأرْضَ فِراشًا والسَّماءَ بِناءً) الآية ، ونظائرها كثيرة فى القرآن . واعلم أن الكلام فى نعت خلق الأرض على سبعة أبواب :

الباب الأول : فى بدء خلق الأرض وكيفيتها

روت الرواة بألفاظ مختلفة ومعان متفقة أن الله تعالى لما أراد أن يخلق السموات والأرض خلق جوهرة خضراء أضعاف طباق السموات والأرض ثم نظر إليها نظر هيبة فصارت ماء ، ثم نظر إلى الماء فغلا وارتفع منه زَبَد ودخان وبخار ، وأرعد من خشية الله ، فمن ذلك اليوم يرعد إلى يوم القيامة ، وخلق الله من ذلك الدخان السماء ، فذلك قوله تعالى (ثُمَّ استوَى إلى السَّماءِ وهيَ دُخانٌ) أى قصد وعمد إلى خلق السماء وهى بخار ، وخلق من ذلك الزبَد الأرض ، فأول ما ظهر من الأرض على وجه الماء مكة ، فدحا الله الأرض من تحتها ، فلذلك سميت أم القرى ، يعنى أصلها ، وهو قوله تعالى (والأرْضَ بعدَ ذلكَ دَحاها) . ولما خلق الله الأرض كانت طبَقا واحدا ، ففتقها وصيرها سبعا ، وذلك قوله تعالى (أوَلمْ يرَ الَّذينَ كفرُوا أنَّ السَّمواتِ والأرْضَ كانتا رَتْقًا ففتَقْناهُما) ثم بعث الله تعالى من تحت العرش ملكا فهبط إلى الأرض ، حتى دخل تحت الأرضين السبع ، فوضعها على عاتقه ، إحدى يديه فى المشرق والأخرى فى المغرب ، باسطتين قابضتين على قرار الأرضين السبع حتى ضبطها ، فلم يكن لقدميه موضع قرار ، فأهبط الله تعالى من أعلى الفردوس ثورا له سبعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة ، وجعل قرار قدمى الملك على سنامه ، فلم تستقر قدماه ، فأحدر الله يا قوتة خضراء من أعلى درجة من الفردوس ، غلظها مسيرة خمس مئة عام ، فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه ، فاستقرت عليها قدماه ، وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض وهى كالحسكة تحت العرش ، ومنخر ذلك الثور فى البحر ، فهو يتنفس كل يوم نفسا ، فإذا تنفس مَدَّ البحر ، وإذا رد نفسه جزَر ، ولم يكن لقوائم الثور موضع قرار ، فخلق الله تعالى صخرة خضراء ، غلظها كغلظ سبع سموات وسبع أرضين ، فاستقرت قوائم الثور عليها ، وهى الصخرة التى قال لقمان لابنه (يا بُنَىَّ إنَّها إنْ تَكُ مِثْقالَ حبَّةٍ منْ خرْدَلٍ فتَكُنْ فى صخْرَةٍ أوْ فى السَّمواتِ أوْ فى الأرْضِ يأْتِ بها اللهُ) الآية .

روى أن لقمان لما قال له هذه الكلمة انفطرت من هيبتها مرارته ومات ، وكانت آخر موعظته . فلم يكن للصخرة مستقر ، فخلق الله تعالى نونا وهو الحوت العظيم ، اسمه لُوتيا وكنيته بلهوت ولقبه بهموت ، فوضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال ، قال :

والحوت على البحر ، والبحر على متن الريح ، والريح على القدرة ، وثقل الدنيا وما عليها حرفان من كتاب الله تعالى ، قال لها الجبار : كونى فكانت ، فذلك قوله عز وجل : (إنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) ولذلك قال بعض حكماء الشعراء :

لاتخضعن لمخلوق على طمع ۝ فإن ذلك نقص منك فى الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه ۝ فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما ۝ استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال كعب الأحبار : إن إبليس تغلغل إلى الحوت الذى على ظهره الأرض ، فوسوس إليه وقال له : أتدرى ما على ظهرك يا لوتيا من الأمم والدواب والشجر والجبال وغيرها ؟ لو نفضتها أو ألقيتهم عن ظهرك أجمع لكان ذلك أريح لك . قال : فهم لوتيا أن يفعل ذلك ، فبعث الله تعالى إليه دابة ، فدخلت فى منخره فوصلت إلى دماغه ، فعج الحوت إلى الله تعالى منها ، فأذن الله تعالى لها فخرجت . قال كعب الأحبار : فوالذى نفسى بيده إنه لينظر إليها وتنظر إليه إن هم بشىء من ذلك ، عادت كما كانت . وهذا الحوت الذى أقسم الله تعالى به فقال (ن والقلم وما يسطرون) ثم قالوا إن الأرض كانت تتكفأ على الماء كما تتكفأ السفينة على الماء ، فأرساها الله تعالى بالجبال ، وذلك قوله تعالى (والجبال أرساها) وقوله تعالى (والجبال أوتادا) وقوله تعالى (وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم) يعنى : لكيلا تتحرك بكم .

قال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : أول ما خلق الله الأرض عجت وقالت : يارب تجعل على بنى آدم يعملون على الخطايا ، ويلقون على الخبائث ، فاضطربت ، فأرساها الله تعالى بالجبال فأقرها ، وخلق الله تعالى جبلا عظيما من زبرجدة خضراء ، خضرة السماء منه ، يقال له جبل قاف ، فأحاط بها كلها ، وهو الذى أقسم الله به فقال (ق والقرآن المجيد) ؛

وقال وهب : إن ذا القرنين أتى على جبل قاف ، فرأى حوله جبالا صغارا ، فقال له من أنت ؟ قال : أنا قاف ، قال : فأخبرنى ماهذه الجبال التى حولك ؟ فقال : هى عروقى ، فإذا أراد الله أن يزلزل أرضا أمرنى ، فحركت عرقا من عروقى ، فتزلزل الأرض المتصلة به ، فقال يا قاف أخبرنى بشىء من عظمة الله تعالى ، فقال : إن شأن ربنا لعظيم ، تقصر عنه الصفات ، وتنقضى دونه الأوهام ، قال : فأخبرنى بأدنى ما يوصف منها ، قال : إن ورائى أرضا مسيرة خمس مئة عام من جبال الثلج يحطم بعضها بعضا ، ومن وراء ذلك جبال من البرد مثلها ، لولا ذلك الثلج والبرد لاحترقت الدنيا من حر جهنم . قال : زدنى ، فقال : إن جبريل عليه السلام واقف بين يدى الله تعالى ترعد فرائصه ، فيخلق الله من كل رعدة مئة ألف ملك ، وهم صفوف بين يدى الله تعالى منكسو رءوسهم ، لا يؤذن لهم فى الكلام إلى يوم القيامة ، فإذا أذن الله تعالى لهم فى الكلام قالوا : لا إله إلا الله ، وهو

قوله تعالى (يَوْمَ يَقومُ الرّوحُ والملائكةُ صَفًّا لايتكلّمونَ إلاّ مَنْ أذِنَ لهَ الرّحمنُ وقالَ صَوابًا) يعنى : لاإله إلا الله .

وروى يزيد بن هارون عن العوّام بن حوشب عن سليمان بن أبي سليمان عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما خلق الله تعالى الأرض جعلت تميد ، فخلق الجبال وألقاها عليها فاستقامت ، فعجبت الملائكة من شدة الجبال ، فقالت : يارب هل من خلقك شىء أشد من الجبال ؟ ، قال : الحديد ، فقالت : يارب هل من خلقك شئ أشد من الحديد ؟ قال : نعم النار ، فقالت : يا رب هل من خلقك شىء أشد من النار ؟ قال : نعم ، الماء ، فقالت يا رب هل من خلقك شىء أشد من الماء ؟ قال : نعم ، الريح ، فقالت : يا رب هل من خلقك شىء أشد من الريح ؟ قال : نعم الإنسان ، يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله .

الباب الثانى : فى حدود الأرض ومسافتها وأطباقها وسكانها

روَى عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « بَيْنَ كُلِّ أرْضٍ إلى الّتى تليها مَسيرَةُ خمْسمائةِ عامٍ ، وهيَ سبْعةُ أطباق : الأرضُ الأُولى هذه ، فيها سكّانُها . والأرضُ الثانيةُ مَسكَنُ الرّيحِ ، ومنها تخرُجُ الرّياحُ المختلفةُ ، كما قال تعالى (وتَصْريفِ الرّياحِ) وفى الأرضِ الثّالثةِ خَلْقٌ وُجوهُهُمْ مِثلُ وُجوهِ بنى آدمَ ، وأفواهُهُمْ مثلُ أفواهِ الكلابِ ، وأيديهِمْ كأيْدى الإنسِ ، وأرْجلُهُمْ كأرْجلِ البقرِ ، وآذانُهمْ كآذانِ المَعزِ ، وأشْعارُهم كأصْوافِ الضأْنِ لايَعْصُونَ اللهَ طَرْفةَ عَيْنٍ ، ليسَ لهُمْ أثوابٌ ، ليلُنا نَهارُهمْ ونَهارُهمْ ليلُنا . والأرْضُ الرّابعةُ فيها حِجارَةُ الكِبريتِ الّتى أعدّها اللهُ لأهْلِ النّارِ تُسْجَرُ بها جَهَنّمُ . قال النبى صلى الله عليه وسلم : والّذى نفسِي بيدِهِ إنّ فيها لأوْدِيَةً مِنْ كِبريتٍ لوْ أُرْسِلَتْ فيها الجبالُ الرّواسِي لانْماعَتْ » قال وهب بن منبه : هى مثل الكبريت الأحمر ، الصخرة منها مثل الجبل العظيم ، وهى التى قال الله تعالى فيها (وَقودُها النّاسُ والحِجارَةُ) .

أخبرنا أبو بكر بن عبدوس بن المزنىّ قال : أخبرنا أبوعبد الله محمد بن يونس المقرئ قال : حدثنا محمد بن منصور قال : حدثنا أحمد بن الليث قال : حدثنا أبوحفص عمر بن حفص القشيرىّ قال : حدثنا على بن الحسين قال : سمعت منصور بن عمار يقول : بينما أنا أردت الحج ، إذ دفعت إلى الكوفة ليلا ، وكانت ليلة مدلهمّة ، فانفردت من أصحابى ثم دنوت إلى زُقاق باب دار ، فسمعت بكاء رجل وهو يقول فى بكائه : إلهى وعزّتك وجلالك ما أردت بمعصيتى مخالفتك ، ولكنى عصيتك إذ عصيتك بجهلى ، وخالفتك إذ خالفتك لشقوتى ، فالآن من عذابك من ينقذنى ، وبحبل من أتصل إذا انقطع حبلك عنّى ؟ واذنوباه واغوثاه يا ألله . قال منصور : فأبكانى والله ، فوضعت فمى على شق الباب ، وقلت :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم (بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ يا أيها الَّذينَ آمَنوا قُوا أنفُسَكُمْ وأهلِيكُمْ ناراً وَقُودُها النَّاسُ والحِجارَةُ) الآية، قال: فسمعت عند ذلك اضطرابا شديدا، ثم خمد الصوت، فوضعت حجرا على الباب لأعرف الموضع، فلما أصبحت، غدوت إليه فإذا بأكفان أصلحت وعجوز تدخل الدار باكية وتخرج باكية، فقلت لها: يا هذه ما هذا الميت لك؟ فقالت إليك عنى يا عبد الله لاتجدّد علىّ أحزانى، فقلت إنى أريد هذا لوجه الله الكريم، لعلك تستودعينى دعوة، فإنى منصور بن عمار واعظ أهل العراق، قالت: يا منصور هذا ولدى، قلت: فما كانت صفته؟ قالت: كان من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم، يكتسب ما يكتسب فيجعله أثلاثا، ثلثا لى، وثلثا للمساكين، وثلثا يفطر عليه، وكان يصوم النهار ويقوم الليل، حتى إذا كان آخر ليلة أخذ فى بكائه وتضرُّعه، فمر رجل فى هذه الليلة وتلا آية من كتاب الله تعالى، فلم يزل حبيبى يضطرب، حتى أصبح وقد فارق الدنيا رحمه الله تعالى.

وقال منصور بن عمار: دخلت يوما خَرِبة، فوجدت شابا يصلى صلاة الخائفين، فقلت لنفسى إن لهذا الفتى لشأنا عظيما لعله من أولياء الله تعالى، فوقفت حتى فرغ من صلاته، فلما سلم سلَّمت عليه فردّ علىّ، فقلت له: ألم تعلم أن فى جهنم واديا يسمى لَظَى، نَزَّاعة للشوى، تدعو من أدبر وتولى، وجمع فأوعى. فشهق شهقة وخرّ مغشيا عليه، فلما أفاق قال: زدنى، فقلت (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة) الآية، فخرّ ميتا، فلما كشفت ثيابه عن صدره، رأيت عليه مكتوبا بقلم القدرة (فَهُوَ فى عِيشَةٍ راضِيةٍ فى جَنَّةٍ عالِيَةٍ قُطُوفُها دانِيَةٌ). فلما كانت الليلة الثانية نمت، فرأيته فى المنام جالسا على سرير وعلى رأسه تاج، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: آتانى ثواب أهل بدر وزادنى، فقلت له لم؟ قال: لأنهم قتلوا بسيف الكفار وأنا قتلت بسيف الملك الجبار. والأرض الخامسة فيها عقارب أهل النار كأمثال البغال لها أذناب كأمثال الرماح لكل ذَنَب منها ثلثمائة وستون فِقارا، فى كل فقار ثلثمائة وستون فرقا من السمّ كل فرق منها ثلثمائة وستون قُلة من سم لو وضعت قلة من ذلك السم فى وسط الأرض لمات جميع أهل الدنيا من نتنه وفسد منه كل شىء، وفيها أيضا حيات أهل النار كأمثال الأودية، لكل حية منها ثمانية عشر ألف ناب، كل ناب منها كالنخلة الطويلة، فى أصل كل ناب ثمانية عشر ألف قلة من السم، لو أمر الله حية منها أن تضرب بناب من أنيابها أعظم جبل فى الأرض لهدته حتى يعود رميا، وإنها لتلقى الكافر، فتسمه فتقطع مفاصله. والأرض السادسة فيها دواوين أهل النار وأعمالهم وأرواحهم الخبيثة، واسمها سجين، قال الله تعالى (كَلّا إنَّ كِتابَ الفُجّارِ لَفِى سِجِّينٍ). والأرض السابعة جعلها الله مسكنا لإبليس وجنوده

وفيها عشه ، فى أحد جانبيه سموم ، والآخر زمهرير وقد احتوشته جنوده من المَرَدة ، وعتاة الجن ، ومنها يبث سراياه وجنوده ، فأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة لبنى آدم .

وروى سلمة بن كهيل عن أبى الزرقاء عن عبد الله قال : الجنة اليوم فى السماء السابعة ، فإذا كان غد جعلها الله حيث يشاء ، والنار اليوم فى الأرض السفلى ، فإذا كان غد جعلها الله حيث يشاء . وأما بُعد قعر الأرض فكافيك به حديث قارون حيث خسف الله به وبداره وبأمواله ، فى الخبر إنه يخسف به كل يوم مقدار قامة ، فلا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة . وقال النبىّ عليه الصلاة والسلام « بينما رَجلٌ يَتبختَرُ فى بُرْدَيْهِ ويَنظُرُ فى عِطْفَيْهِ وقدْ أعجبتْهُ نفسُهُ ، فخسَفَ اللهُ بهِ الأرْضَ فهوَ يتجلْجلُ فيها إلى يَوْمِ القيامَةِ » .

الباب الثالث : فى ذكر الأيام التى خلق الله تعالى فيها الأرض

قال الله تعالى (قُلْ أئِنّكمْ لَتكفرُونَ بالّذى خلَقَ الأرْضَ فى يَوْمَيْنِ) الآية ، قال أبو إسحاق قال : شبك بيدى إبراهيم بن يحيى ، قال : شبك بيدى صفوان بن سليم ، قال : شبك بيدى أيوب بن خالد الأنصارىّ ، قال : شبك بيدى عبد الله بن أبى رافع ، قال : شبك بيدى أبو هريرة ، قال : شبك بيدى أبو القاسم محمد صلى الله عليه وسلم فقال « خلَقَ اللهُ الأرضَ يومَ السّبْتِ ، والجبالَ يومَ الأحدِ ، والأشْجارَ يومَ الاثنينِ ، والظُّلُماتِ يومَ الثّلاثاءِ ، والنّورَ يومَ الأرْبعاءِ ، والدّوابَ يومَ الخميسِ ، وآدمَ يومَ الجُمُعَةِ » .

الباب الرابع : فى ذكر أسمائها وألقابها

قال وهب بن منبه : الأولى من الأرض تسمى أديما ، والثانية بسيطا ، والثالثة ثقيلا ، والرابعة بَطيحا ، والخامسة متثاقلة ، والسادسة ماسكة ، والسابعة ثَرَى .

وأما أسماؤها المذكورة فى القرآن ، فهى سبعة أيضا : سمّاها الله فراشا فقال (الّذى جعَلَ لكمُ الأرْضَ فِراشًا) وسماها قرارا فقال (أمْ منْ جعَلَ الأرْضَ قرارًا) وسماها رَتْقا فقال (أوَلمْ يرَ الّذينَ كفرُوا أنّ السّمواتِ والأرْضَ كانتا رَتْقا) وسماها بساطا فقال (واللهُ جعلَ لكمُ الأرْضَ بِساطاً) وسماها مهادا فقال (ألمْ نجعَلِ الأرْضَ مِهادًا) وسماها ذات الصّدْع فقال (والأرْضِ ذاتِ الصّدْعِ) يعنى بالنبات ، وسماها كِفاتا فقال (ألمْ نجعَلِ الأرْضَ كِفاتا) قال خالد بن سعيد : كنت أمشى مع الشعبىّ بظهر الكوفة ، فنظر إلى بيوت الكوفة فقال : هذه كِفات الأحياء ، ثم نظر إلى المقبرة فقال : هذه كِفات الأموات .

« ويحكى أن عبد الله بن طاهر لما قدم نيسابور صحبه من أولاد المجوس شاب متطبب ، يدّعى تحقيق الكلام ، وأظهر مسئلة تحريق الأنفس بالنار ، وكان يزعم أن الجسد كثيف منتن فى حال الحياة ، فإذا مات فلا حكمة فى دفنه ، والتسبب إلى زيادة نتنه ، وأن الواجب إحراقه

وإذراء رماده ، فقيل لبعض الفقهاء : إن الناس قد افتتنوا بمقالة هذا المجوسىّ ، فكتب الفقيه إلى عبد الله بن طاهر : أن اجمع بيننا وبين هذا المجوسى لنسمع منه ، فاجتمعوا عند عبد الله . فلما تكلم المجوسى بمقالته تلك ، قال له الفقيه : أخبرنا عن صبى تدعيه أمه وحاضنته أيهما أولى به ؟ فقال له الأم ، فقال : إن هذه الأرض هى الأم منها خلق الخلق ، فهى أولى بأولادها أن يردوا إليها ، فأفحم المجوسىّ . وأنشد فى معناه لأمية بن أبى الصلت :

والأرض معقلنا وكانت أمنا　　فيها مقابرنا وفيها نولد

وسئل يحيى بن معاذ الرازىّ : إن ابن آدم يدرى أن الدنيا ليست بدار قرار ، فلِمَ يطمئنّ إليها ؟ قال : لأنه منها خلق فهى أمه ، وفيها نشأ فهى عشه ، ومنها رزق فهى عيشه ، وإليها يعود فهى كفاته ، وهى ممر الصالحين إلى الجنة .

الباب الخامس : فى ذكر ما زين الله به الأرض

وهى سبعة أشياء : الأزمنة ، وزيّن الأزمنة بأربعة أشهر ، قال الله تعالى (إنَّ عِدَّةَ الشُّهورِ عندَ اللهِ اثْنا عشَرَ شَهْرًا فى كِتابِ اللهِ يومَ خلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ منها أرْبعَةٌ حُرُمٌ) فالأربعة الأشهر الحرم منها ثلاثة سَرْد وواحد فرد ، فالثلاثة السرد : ذوالقعدة وذوالحجة والمحرم ، والفرد رجب . والأمكنة ، وزيّنها بأربعة أشياء : مكة والمدينة وبيت المقدس ومسجد العشائر . وزينها أيضا بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وزين الأنبياء بأربعة : إبراهيم الخليل وموسى الكليم وعيسى الوجيه ومحمد الحبيب صلوات الله عليهم أجمعين ، وهم أهل الكتب وأصحاب الشرائع وأولو العزم . وزينها أيضا بآل محمد صلى الله عليه وسلم . وزينهم أيضا بأربعة : علىّ وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم .

وروى يزيد الرقاشىّ عن أنس بن مالك قال « صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر ، فلما انفتل من الصلاة أقبل علينا بوجهه الكريم فقال : يا معاشِرَ المُسلمينَ ، مَنِ افْتَقَدَ الشَّمسَ فلْيستمسِكْ بالقمرِ ، ومَنِ افتقدَ القمرَ فلْيستَمسِكْ بالزُّهرَةِ ، ومَنِ افتقدَ الزُّهرَةَ فلْيستمسِكَ بالفرْقَدَيْنِ ، فقيل يا رسول الله : ما الشمس وما القمر وما الزهرة وما الفرقدان ؟ فقال : أنا الشَّمسُ وعلىٌّ القمرُ وفاطمةُ الزُّهرَةُ والحسنُ والحسَيْنُ الفرْقدانِ فى كِتابِ اللهِ تعالى لايفترِقانِ حتّى يرِدا علَى الحوْضِ » .
وزينها أيضا بالصحابة ، وزينهم أيضا بأربعة : أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وهم الخلفاء الراشدون ، والأئمة المرضيون ، رضى الله عنهم أجمعين .

وروى عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يجْتمِعُ

حُبّ هؤلاءِ الأربعةِ إلاّ في قلبِ مؤمنٍ » قال أنس: قد اجتمع حبهم في قلبي والحمدلله. وزينها أيضا بالمؤمنين ، وزينهم بأربعة : العلماء والقراء والغزاة والعبّاد . وزينها أيضا بأنواع الحيوانات والنباتات والجمادات .

الباب السادس : في عاقبتها ومآلها وآخر حالها

اعلم أن الله تعالى وعدها بسبعة أشياء : أحدها التبديل ، وهو قوله تعالى (يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ) وفي الخبر « يُؤْتَى بأرضٍ بيضاءَ من فضةٍ كالخبزِ النقيّ الحُوارَى لم يُعْصَ اللهُ عليها قطُّ طَرْفَةَ عينٍ ، ولا وَصْمَ فيها ولاقصمْ ، مُستويةً كالصُّلبِ المُهنّدِ » . والثاني الزلزلة قال الله تعالى (إذا زُلزِلَتِ الأرضُ زلزالها) الآية . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتقومُ السّاعةُ حتّى يُقبضَ العِلمُ ، وتكثُرَ الزّلازلُ وتظهرَ الفتَنُ ، ويكثُرَ الهرْجُ ، قيل: وما الهرجُ يا رسولَ الله ؟ قال : القتلُ ، فإذا أكلتْ أُمّتِي الرّبا كانتِ الزّلزلةُ ، وإذا جارُوا في الحُكمِ اجترأ عليهمُ العدُوُّ ، وإذا ظَهرَتِ الفاحِشةُ كانَ الوَباءُ والموتُ ، وإذا منَعُوا الزّكاةَ قُحِطوا ، ولولا البهائمُ لم يُمطَرُوا » وفي الحديث إن الأرض تزلزلت على عهد عمر رضي الله عنه ، فأخذ بعضادتي منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا أهل المدينة ، إنكم رجفتم ، وإن الرجفة من كثرة الربا والزنا ، ونقصان الثمر من قلة الصدقة ، وإنكم أحدثتم أشياء حتى أعجلتم ، فهل أنتم منتهون ؟ أو يفر عمر من بين أظهركم . والثالث البروز ، قال الله تعالى (وترى الأرضَ بارِزَةً) يعني لفصل القضاء . والرابع الرجّ ، قال الله تعالى (إذا رُجّتِ الأرضُ رجّاً). قال المفسرون : كما يرتجّ الصبيّ في المهد حتى ينكسر كل شيء عليها فرقا من ربها . والخامس الرجْف ، قال تعالى (يَوْمَ ترْجُفُ الأرضُ والجبالُ) . والسادس المدّ حتى تتخلى وتلقى ما في بطنها ، قال تعالى (وإذا الأرضُ مُدّتْ وألقَتْ ما فيها وتخلّتْ) . والسابع الدكّ ، قال تعالى (إذا دُكّتِ الأرضُ دكّاً دكّاً) وقال تعالى (فدُكّتا دكّةً واحدةً) . ويحكى أن الربيع بن خيثم كان إذا قرأ هذه الآية أخذ يجلد ذراعيه ويقول : ياحماه ويا دماه أين أنتما يومئذ ؟ .

الباب السابع : في وجوه الأرض المذكورة في القرآن

وهي سبعة : أولها مكة خاصة ، قال الله تعالى في الرعد والأنبياء (أوَلمْ يروْا أنّا نأتي الأرضَ ننقُصُها مِنْ أطرافِها) يعني أرض مكة . والوجه الثاني أرض المدينة ، قال الله تعالى (ألمْ تكنْ أرضُ اللهِ واسِعةً فتُهاجِرُوا فيها) يعني : أرض المدينة ، وقال تعالى

(إنَّ أرْضِي واسِعَةٌ) وقال تعالى (وإنْ كادُوا ليَستفزُّونكَ منَ الأرْضِ ليُخرِجوكَ منها) . والثالث أرض الشام ، وذلك قوله تعالى (ادْخُلوا الأرْضَ المُقدَّسةَ) الآية ؛ يعنى بلاد الشام ، وقال تعالى (ونَجَّيْناه ولُوطاً إلى الأرْضِ الَّتى بارَكْنا فيها للعالَمينَ) . والوجه الرابع أرض مصر ، قال تعالى (وكذلكَ مكَّنَّا ليُوسُفَ فى الأرْضِ) أى أرض مصر ، وقوله تعالى (اجْعلنى علَى خزائنِ الأرْضِ إنى حفيظٌ عليمٌ) وقوله (فلَنْ أبْرَحَ الأرْضَ) أى أرض مصر . وقوله تعالى (إنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فى الأرْضِ) وقال (ويَستخلفَكمْ فى الأرْضِ) أى أرض مصر . والخامس أرض المشرق ، فذلك قوله تعالى (إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ مُفْسِدونَ فى الأرْضِ) والسادس الأرَضون كلها ، وذلك قوله تعالى (ومَا مِنْ دابَّةٍ فى الأرْضِ إلاَّ عَلى اللهِ رِزْقُها) وقوله تعالى (ومَا منْ دابَّةٍ فى الأرْضِ ولا طائِرٍ يَطيرُ بجَناحَيْهِ إلاَّ أُممٌ أمثالُكمْ) يعنى بالأمم فى التصاوير أمثالكم فى التسخير ، وقال تعالى (ولوْ أنَّ ما فى الأرْضِ منْ شَجَرَةٍ أقْلامٍ) وقال تعالى (الَّذى جعلَ لكمُ الأرْضَ فِراشاً) . والسابع أرض الجنة ، فذلك قوله تعالى (ولقدْ كتبْنا فى الزَّبورِ منْ بعد الذِّكْرِ أنَّ الأرْضَ يَرِثُها عِبادىَ الصَّالِحونَ) وقوله تعالى (وأوْرَثَنا الأرْضَ نَتَبَوَّأُ منَ الجنةِ حيثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أجْرُ العامِلينَ) .

مجلس فى ذكر خلق السموات وما يتصل به

وترتيب الكلام فى هذا المجلس أيضا على سبعة أبواب ، لقول وهب بن منبه : كادت الأشياء أن تكون سبعا ؛ فالسموات سبع ، والأرضون والجبال سبع ، والبحار سبع ، وعمر الدنيا سبعة آلاف ، والأيام سبعة ، والكواكب سبعة ، وهى السيارة ، والطواف بالبيت سبعة أشواط ، والسعى بين الصفا والمروة سبعة ، ورمى الجمار سبعة ، وأبواب جهنم سبعة ، ودركاتها سبعة ، وامتحان يوسف عليه السلام سبع سنين ، قال تعالى (فلَبِثَ فى السِّجنِ بِضْعَ سِنينَ) . وإيتاؤه ملك مصر سبع سنين (وقَالَ المَلِكُ إنى أرَى سَبْعَ بقَراتٍ سِمانٍ) . وكرامة المصطفى صلى الله عليه وسلم سبع ، قال الله تعالى (ولقدْ آتيْناكَ سَبْعاً منَ المثانى والقُرآنَ العظيمَ) . والقرآن سبعة أسباع ، وتركيب ابن آدم على سبعة أعضاء ، وخلقه من سبعة أشياء ؛ قال الله تعالى (ولقدْ خلَقْنا الإنسانَ منْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ) إلى قوله (فَتبارَكَ اللهُ أحْسَنُ الخالِقينَ) . ورزق الإنسان وغذاؤه من سبعة أشياء ، قال الله تعالى (فلْينظُرِ الإنْسانُ إلى طَعامِهِ) إلى قوله (مَتاعاً لكُمْ ولأنْعامِكُمْ) . وأمر بالسجود على سبعة أعضاء .

الباب الأول : فى بدء خلق السموات

يروى فى الأخبار المشهورة المأثورة : أن الله سبحانه وتعالى لما أراد أن يخلق السموات والأرض خلق جوهرة مثل السموات السبع والأرضين السبع ، ثم نظر إليها نظرة هيبة فصارت ماء ، ثم نظر إلى الماء فغلى وارتفع وعلاه زَبَد ودخان ، فخلق من الزبَد الأرض ومن الدخان السماء ، وذلك قوله تعالى (ثُمَّ استوَى إلى السَّماءِ وهيَ دُخانٌ) أى قصد ، ثم فتقها بعد أن كانت طبقة واحدة ، فصيرها سبع سموات ، قال الله تعالى (أوَلمْ يرَ الَّذينَ كفرُوا أنَّ السَّمواتِ والأرْضَ كانتا رَتقًا ففتَقْناهُما) .

الباب الثانى : فى جواهرها وأجناسها

قال الربيع بن أنس : سماء الدنيا موج مكفوف . والثانية من صخرة ، والثالثة من حديد ، والرابعة من نحاس ، والخامسة من فضة ، والسادسة من ذهب ، والسابعة من ياقوتة بيضاء .

الباب الثالث : فى هيئتها وحدودها

قال الله تعالى (ولقَدْ خلَقنا فوقَكمْ سبْعَ طرائقَ) . قال ابن عباس رحمه الله تعالى خلق الله السموات مثل القباب ، فسماء الدنيا قد شدَّت أقطارها بالثانية ، والثانية بالثالثة ، وكذلك إلى السابعة ، والسابعة بالعرش ، فذلك قوله تعالى (بغيرِ عَمَدٍ ترَوْنَها) وعمادها من فوقها . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يتفكرون فقال : فيمَ أنتمْ تتفكرُونَ ؟ قالوا : نتفكر فى الخالق ، فقال لهم : تفكرُوا فى الخلْقِ ولا تتفكرُوا فى الخالِق فإنَّهُ لا تُحيطُ بهِ الفِكْرَةُ ، تفكرُوا فى أنَّ اللهَ خلقَ السَّمواتِ سبْعًا والأرَضينَ سبْعا ، وتحْتَ كلِّ أرْضٍ خمْس مئةِ عام ، وبينَ السَّماءِ والأرْضِ خمس مئةِ عامٍ وتحْتَ كلِّ سماء خمس مئةِ عامٍ ، ومابينَ كلِّ سماء ينِ خمس مئةِ عامٍ ، وفى السَّماءِ السَّابعةِ بحرٌ عُمقُهُ مثلُ ذلكَ كله وفيهِ ملكٌ قائمٌ لا يُجاوِزُ الماءُ كَعْبَهُ » .

الباب الرابع : فى أسمائها وألقابها

قال وهب بن منبه : أولها سماء الدنيا ديناح ، والثانية ديقا ، والثالثة رقيع ، والرابعة فيلون ، والخامسة طفطاف ، والسادسة سمساق ، والسابعة إسحاقائل .

وأما أسماؤها المذكورة فى القرآن فسبعة : أولها البناء ، قال الله تعالى (والسَّماءَ بِناءً) . والسقف ، قال الله تعالى (وجعلْنا السَّماءَ سقْفًا محْفوظا) والطرائق ، قال الله تعالى

(وجعلنا فوقكم سبع طرائق) والطباق ، قال الله تعالى (الذى خلق سبع سموات طباقا) والشداد ، قال الله تعالى (وبنينا فوقكم سبعا شدادا) والرتق والفتق ، قال الله تعالى (كانتا رتقا ففتقناهما) والدخان ، قال الله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) .

وروى أن الملائكة قالت : يارب لو أن السماء والأرض حين أمرتهما عصتاك ، ما كنت صانعا بهما ؟ قال : كنت آمر دابة من دوابى فتبتلعهما ، قالت : يا رب فأين تلك الدابة ؟ قال : فى مرج من مروجى ، قالت : يا رب : فأين ذلك المرج ؟ قال : فى علم من علومى ، قالت الملائكة : سبحان ذى البسط القوى .

وقد ورد عن الضحاك بن مزاحم الهلالى حديث غريب حسن ، جامع لما تقدم من الأبواب فى صفة السموات وحدودها وهيئتها وما فيها وأهلها وسكانها وأسمائها وألقابها ، وهو ما أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحسين العدل ، حدثنا محمد بن جعفر قال : أخبرنا الحسن بن علويه قال : حدثنا إسمعيل بن عيسى قال : حدثنا إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك ومقاتل قالا : خلق الله عز وجل سماء الدنيا وزينها ، وهى ماء ودخان ، وغلظها مسيرة خمس مئة عام ، وبينها وبين الأرض مسيرة خمس مئة عام ، ولونها كلون الحديد المجلى واسمها برقيعا ، وبينها وبين السماء الثانية مسيرة خمس مئة عام ، وفيها ملائكة خلقوا من نار وريح ، وعليهم ملك يقال له الرعد ، وهو ملك موكل بالسحاب والمطر يقول : سبحان ذى الملك والملكوت . وخلق السماء الثانية على لون النحاس ، وغلظها مسيرة خمسمائة عام ، وبينها وبين السماء الثالثة مسيرة خمسمائة عام ، وفيها ملائكة على ألوان شتى صفوف ، لو قيست شعرة بين مناكبهم لما انقاست ، رافعون أصواتهم ، يقولون : سبحان ذى العزة والجبروت ، واسمها قيدوم ، وخلق الله فيها ملكا يقال له حبيب ، نصفه من نار ونصفه من ثلج ، وبينهما رتق ، فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفئ النار ، وهو يقول : يامن ألف بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك . ومنها إلى السماء الثالثة مسيرة خمس مئة عام ، ولون السماء الثالثة كلون الشبة ، وغلظها مسيرة خمس مئة عام واسمها الماعون ، وفيها ملائكة ذوو أجنحة ، الملك منهم له جناحان وله أربعة أجنحة وله ستة أجنحة ووجوه شتى رافعون أصواتهم بالتسبيح يقولون : سبحان الحى الذى لايموت أبدا ، صفوف قيام كأنهم بنيان مرصوص ، لو قيست شعرة بين مناكبهم ما انقاست ، لايعرف أحد منهم لون صاحبه من خشية الله تعالى . وخلق الله السماء الرابعة وبينها وبين السماء الثالثة مسيرة خمس مئة عام ، وغلظها خمسمائة عام ، ولونها كلون الفضة البيضاء واسمها فيلون ، وفيها ملائكة يضعفون على ملائكة السماء الثالثة . وكذلك أهل كل سماء أكثر عددا من السماء التى تليها إلى الضعف . وفى السماء الرابعة ملائكة لايحصى عددهم إلا الله تعالى ، وهم كل يوم فى زيادة ، وذلك

قوله تعالى (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ) قال : وهم قيام وركوع وسجود على ألوان شتى من العبادة ، يبعث الله تعالى الملك منهم فى أمر من أموره ، فينطلق الملك ثم ينصرف ، فلا يعرف صاحبه الذى إلى جانبه من شدة العبادة ، وهم يقولون : سُبُّوح قُدُوس ، ربنا الرحمن الذى لا إله إلا هو . قال : وخلق الله السماء الخامسة وغلظها مسيرة خمس مئة عام ، ولونها على لون الذهب واسمها اللاحقوق ، ومنها إلى السماء السادسة مسيرة خمس مئة عام ، وفيها ملائكة يضعفون على ملائكة الأربع سموات ، وهم ركوع وسجود لم يرفعوا أبصارهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة قالوا : ربنا لم نعبدك حق عبادتك . وخلق الله السماء السادسة وغلظها مسيرة خمس مئة عام ، ومنها إلى السماء السابعة مسيرة خمس مئة عام ، وفيها جند الله الأعظم الكروبيون لا يحصى عددهم إلا الله تعالى ، وعليهم ملك جنده سبعون ألف ملك ، وكل ملك منهم جنوده سبعون ألف ملك ، وهم الذين يبعثهم الله فى أموره إلى أهل الدنيا ، رافعون أصواتهم بالتهليل والتسبيح ، واسمها عاروس ، وهى من يا قوتة حمراء . ثم خلق الله السماء السابعة غلظها مسيرة خمس مئة عام ، فيها جنود الله تعالى من الملائكة ، وعليهم ملك وهو على خمس مئة ألف ملك ، كل منهم له من الجنود مثل قطر السماء وتراب الثرى والسهل والرمل وعدد الحصى والورق ، وعدد كل خلق فى سبع سموات وسبع أرضين ، ويخلق الله سبحانه وتعالى فى كل يوم ما يشاء ، واسمها الرقيع وهى من درة بيضاء ؛ ومن السماء السابعة إلى مكان يقال له مرهوثا مسيرة خمس مئة عام ، وعليه جنود الله من الملائكة ، وهم رؤساء الملائكة وهم أعظمهم ، سوى الروح وحملة العرش ، الملك منهم له وجوه شتى وأجنحة شتى وأنوار شتى فى جسده ، لا يشبه بعضهم بعضا ، رافعون أصواتهم بالتهليل ، ينظرون إلى العرش لا يطرفون ، لو أن الملك منهم نشر جناحيه لطبق الدنيا بريشة من جناحه ، ولا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، ومن فوق ذلك غمامة غلظها كغلظ سبع سموات وسبع أرضين ، ومن السماء السابعة إليها كما بين سبع سموات وسبع أرضين ، والعرش فوق ذلك فى عليين ، لا يعلم منتهاه إلا الله تعالى .

الباب الخامس : فى ذكر الأيام التى خلق الله الأشياء فيها

روت الرواة أن الله تعالى ابتدأ خلق الأشياء يوم الأحد إلى يوم الخميس ، وخلق فى يوم الخميس ثلاثة أشياء : السموات والملائكة والجنة إلى ثلاث ساعات بقيت من يوم الجمعة . فخلق فى الساعة الأولى الأوقات والآجال ، وفى الثانية الأرزاق ، وفى الثالثة آدم عليه الصلاة والسلام ، وذلك قوله عز وجل (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) الآية .

الباب السادس : فى ذكر ما زين الله به السموات

وهى عشرة أشياء : الشمس ، قال الله تعالى (وَجعلَ الشَّمسَ سِراجًا) وقال تعالى (سِراجًا وَهَّاجًا) . والقمر ، قال الله تعالى (وجعَلَ القمرَ فِيهِنَّ نورًا) . والكواكب ، قال الله تعالى (إنَّا زيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بزِينَةٍ الكَواكِبِ) وهى على ضربين : منها معلق كتعليق القناديل فى المساجد ، ومنها مركب كتركيب الفص فى الخاتم ، وهى مع كثرتها مختلفة الصور ، ما خلق الله تعالى منها كوكبا على مثال كوكب . وفى بعض الأخبار : ما يكون من حيوان فى الأرض ولا دابة تدب دون العرش إلا وفى خلق الكواكب مثلها .

والعرش ، قال الله تعالى (رَفيعُ الدَّرَجاتِ ذُو العرْشِ) . روى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال : فى العرش تمثال جميع ما خلق الله تعالى البر والبحر ، وقال : هذا تأويل قوله تعالى (وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ عِندَنَا خزائِنُهُ) وإن ما بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية لخفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام ؛ والعرش يكسى كل يوم سبعين ألف لون من النور ، لايستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله تعالى ، والأشياء كلها فى العرش كحلقة ملقاة فى فلاة ، وإن لله ملكا يسمى حزقيائيل له ثمانية عشر ألف جناح ، مابين الجناح إلى الجناح مسيرة خمس مئة عام ، فخطر له خاطر هل يقدر أن ينظر إلى العرش فزاده الله تعالى فى الأجنحة مثلها ، فكان له ستة وثلاثون ألف جناح ما بين الجناح إلى الجناح مسيرة خمس مئة عام ، ثم أوحى الله تعالى إليه : أيها الملك طرفطار مقدار عشرين ألف سنة فلم يبلغ قائمة من قوائم العرش ، ثم ضاعف الله تعالى له فى الأجنحة والقوة ، وأمره أن يطير فطار مقدار ثلاثين ألف سنة ، فلم يبلغ رأس قائمة من قوائم العرش ، فأوحى الله تعالى إليه : أيها الملك لوطرت إلى أن ينفخ فى الصور مع أجنحتك وقوتك ما تبلغ ساق عرشى ، فقال الملك : سبحان ربى الأعلى ، فأنزل الله سبحانه وتعالى (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعْلَى) فقال النبى صلى الله عليه وسلم « اجْعَلُوها فى سُجودِكُمْ » .

وقال كعب الأحبار : لما خلق الله تعالى العرش قال : لم يخلق الله تعالى شيئا أعظم منى فاهتز ، فطوّقه الله بحية لها سبعون ألف جناح ، فى كل جناح سبعون ألف ريشة ، فى كل ريشة سبعون ألف وجه ، فى كل وجه سبعون ألف فم ، فى كل فم سبعون ألف لسان ، يخرج من أفواهها كل يوم من التسبيح عدد قطر المطر وورق الشجر وعدد الحصى والثرى وعدد أيام الدنيا والملائكة أجمع ، فالتفت الحية بالعرش فالعرش إلى نصف الحية وهى ملتوية .

والكرسىّ ، قال الله تعالى (وسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمواتِ و الأرْضَ) . وروى عن على ابن أبى طالب كرم الله وجهه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « الكُرْسِيُّ لُؤْلُؤَةٌ طولُها حيثُ لايعْلَمُهُ العالِمونَ ، وقدْ جعلَ اللهُ آيةَ الكُرْسِىِّ أمانًا لأهلِ الإيمانِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطانِ » .

وروى إسمعيل بن مسلم عن أبي المتوكل الباجى عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه كان معه مفتاح بيت الصدقة وكان فيه تمر فذهب يوما ففتح الباب ، فإذا التمر قد أخذ منه ملء الكف ، ثم دخل يوما آخر ، فإذا هو قد أخذ منه مثل ذلك ، ثم دخل يوما آخر ، فإذا هو قد أخذ منه مثل ذلك ، فذكر ذلك أبو هريرة رضى الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له عليه الصلاة والسلام « أَيَسُرُّكَ أَنْ تأخُذَهُ ؟ قال : نعم ، قال : إذا فَتَحْتَ البابَ فقُلْ : سُبحانَ مَنْ سَخَّرَكَ لمحمَّدٍ ، فذهب وفتح الباب فقال ذلك ، فإذا هو قائم بين يديه ، فقال له : يا عدو الله أنت صاحب الفعل ؟ قال : نعم ، ثم قال : لاأعود ، ماكنت أخذت منه إلا لأهل بيت فقراء من الجن ، فتركه ثم عاد ، فذكر ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : أَيَسُرُّكَ أَنْ تأخُذَهُ ؟ قال : نعم ، قال : فإذا فتَحتَ البابَ فقُلْ مثلَ ذلكَ أيضًا ، ففتح الباب وقال : سبحان من سخرك لمحمد ، فإذا هو قائم بين يديه ، فقال له : يا عدو الله أليس قد عاهدتنى أن لاتعود ؟ فقال : دعنى هذه المرة فإنى لاأعود ، فتركه ثم عاد ، فأخذه الثالثة ، فقال : أليس قد عاهدتنى أن لاتعود ، لاأدعك اليوم حتى أذهب بك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : لاتفعل ، فإنك إن تدعنى علمتك كلمة إذا قلتها لم يقربك أحد من الجن لا صغير ولا كبير ولا ذكر ولا أنثى ، قال له : لتفعلنّ إن تركتك ؟ قال : نعم ، قال : فما هى ؟ قال : (اللهُ لاإلهَ إلاّ هُوَ الحَىُّ القَيُّومُ) حتى ختمها ، فتركه فذهب فلم يعد بعد ذلك ، فذكر ذلك أبو هريرة للنبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : أما علِمتَ يا أبا هُرَيْرَةَ هذهِ ؟ إنّه كذلكَ صَدَقَ الخَبيثُ » .

واللوح والقلم ، قال الله تعالى (وكلَّ شَيْءٍ أحصَيْناهُ فى إمامٍ مُبينٍ) وقال تعالى (نَ والقلَمِ ومَا يَسْطُرُونَ) وقال ابن عباس : إن مما خلق الله تعالى لوحا محفوظا من درة بيضاء ، دفتاه من ياقوتة حمراء ، كتابته نوروقلمه نور ، عرضه كما بين السماء والأرض ، ينظر الله تعالى فيه كل يوم ثلاث مئة وستين نظرة منها يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويفعل مايشاء ، فذلك قوله تعالى (كلَّ يَوْمٍ هُوَ فى شأْنٍ) .

ويروى أن أول ما خلق الله القلم ، فنظر إليه نظرة هيبة ، وكان طوله كما بين السماء والأرض ، فانشق نصفين وقال : اكتب ، فقال : يا رب وما أكتب ؟ قال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم قال له : اجر بما هو كائن إلى يوم القيامة .

ويحكى أن ابن الزيات دخل على بعض الخلفاء فوجده مغموما فقال له : روِّح عنى يا ابن الزيات ، فأنشأ يقول :

الهمُّ فضل والقضاء غالبٌ   وكائن ما خُط فى اللوحِ
فالتمس الرُّوح وأسبابه   أيأس ما كنت من الروح

والبيت المعمور ؛ وروى الزهرىّ عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة ، قال : قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم « إنَّ فى سماءِ الدُّنيا بيتًا يُقالُ له البيت المعمورُ بحيالِ الكعبةِ » وإنَّ فى السماءِ السابعةِ بحرًا من نورٍ يُقالُ لهُ الحيوانُ، يدخلُ فيهِ جبريلُ عليهِ السلامُ كلَّ غداةٍ، فينغمسُ فيهِ انغماسةً ثمَّ يخرجُ فينتفضُ انتفاضةً فيخرجُ منها سبعونَ ألفَ قطرةٍ من نورٍ فيخلقُ اللهُ تعالى من كلِّ قطرةٍ ملكًا، فيؤمرونَ أنْ يأتوا البيتَ المعمورَ فيصلُّونَ فيهِ، فيأتونهُ فيدخلونهُ ويصلُّونَ فيه، ثمَّ يخرُجونَ فلا يعودُونَ إليهِ إلى يومِ القيامةِ ».

وسدرة المنتهى : قال الله تعالى (عندَ سِدْرَةِ المُنْتَهى عندَها جنَّةُ المأْوَى) : قال كعب وغيره : دخل حديث بعضهم فى بعض : هى شجرة فى السماء السابعة مما يلى الجنة، أصلها ثابت فى الجنة وعروقها تحت الكرسى وأغصانها تحت العرش، إليها ينتهى علم الخلائق، كل ورقة منها تظل أمة من الأمم، يغشاها ملائكة كأنهم فراش من ذهب، وعليها ملائكة لايعلم عددهم إلا الله تعالى، ومقام جبريل عليه السلام وسطها، والله أعلم.

والجنة : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجنة كيف هى ؟ قال : مَنْ يدخلِ الجنَّةَ حىٌّ لايموتُ، ومُنعَّمٌ لاييأس، لاتبلَى ثيابُهُ ولا يفْنَى شبابُهُ، قيل يا رسول الله كيف بناؤها ؟ قال : لَبِنَةٌ من ذهبٍ ولَبِنَةٌ من فِضَّةٍ، مِلاطُها مِسْكٌ أذفَرُ، وحَصْباؤُها اللؤلُؤُ والياقوتُ، وتُرابُها الزَّعْفَرَانُ ».

وروى مجاهد عن مسروق عن أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن السَّماءَ أطَّتْ وحُقَّ لها أنْ تئِطَّ، ليسَ منها موْضِعُ أربعِ أصابعَ إلاَّ وفيه مَلَكٌ ساجِدٌ أو راكعٌ أو قائمٌ أو قاعدٌ يذكُرُ اللهَ تعالى. ولوْ تعلَمونَ ما أعلمْ لضحِكتم قليلا، ولبكيْتم كثيرًا ولخرجْتم إلى الصَّحراءِ تجأرُونَ إلى اللهِ تعالى ».

الباب السابع : فى ذكر مآلها وآخر حالها

اعلم أن الله تعالى وعد السماء بسبعة أشياء : أحدها : المَوْر، قال الله تعالى (يومَ تمُورُ السَّماءُ مَوْرًا) : يعنى تدور كدوران الرحى من هول يوم القيامة. والثانى : أخبر أنها تصير كالمُهْل، فقال تعالى (يومَ تكُونُ السَّماءُ كالمُهْلِ) يعنى دُرْدِىَّ الزيت. والثالث : أخبر أنها تصير وردة كالدهان قال الله تعالى (فإذا انْشقَّتِ السَّماءُ فكانَتْ وَرْدَةً كالدِّهانِ) : والرابع : الانشقاق قال الله تعالى (إذا السَّماءُ انشقَّتْ). والخامس : الانفطار، قال الله تعالى (إذا السَّماءُ انفطرَتْ) و (السَّماءُ مُنفَطِرٌ بهِ) والانفطار أكثر من الانشقاق :

والسادس: الانفراج ، قال الله تعالى (وإذا السَّماءُ فُرِجَتْ) . والسابع: الكَشْط ، قال الله تعالى (وإذا السَّماءُ كُشِطَتْ) أى نزعت من مكانها وطويت طيا ، قال الله تعالى (يَوْمَ نَطْوِى السَّماءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ للكُتُبِ) الآية . وأحسن الشاعر حيث قال :

إذا قيل من ربُّ هذى السما فليس سواه له مضطربْ
ولو قيــل رب سوى ربنا لقال العباد جميعا كذبْ

مجلس فى ذكر خلق الشمس والقمر

وصفة سيرهما ، وبدء أمرهما ومعادهما

وهو ما أخبرنا به أبو سعيد محمد بن عبد الله بن حمدون الثقة الأمين بقراءتى عليه فى صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة، قال: أخبرنى أبو حامد أحمد بن محمد بن الحسن الشرقى الحافظ قال : حدثنا أبو الحسن أحمد بن يوسف السلمى قال : حدثنا أبو عصمة يحيى بن أبى مريم الخراسانى قال: أنبأنا مقاتل عن عكرمة عن ابن عباس ،رضى الله عنهما قال: بينما هو جالس ذات يوم من الأيام إذ أتاه رجل فقال : يا ابن عباس إنى سمعت العجب من كعب الأحبار يذكر فى الشمس والقمر ، وكان ابن عباس متكئا فاحتفز ثم قال: وماذا قال؟ قال زعم كعب الأحبار : أنه يجاء بالشمس والقمر يوم القيامة كأنهما ثوران عقيران فيقذفان فى النار ، قال عكرمة : فطارت من ابن عباس شظية ووقعت أخرى غضبا ، ثم قال : كذب كعب الأحبار قالها ثلاثا ، بل هذه يهودية يريد إدخالها فى الإسلام ، والله تعالى أكرم وأجلّ من أن يعذب أهل طاعته ، ألم تر إلى قوله تعـالى (وَسَخَّرَ لكمُ الشَّمسَ والقَمرَ دائِبَيْنِ) يعنى دأبهما فى طاعته ، فكيف يعذب عبدين أثنى عليهما أنهما دائبان فى طاعته ؟ قاتل الله هذا الحبر ،وقبح حديثه ، ما أجرأه على الله وأعظم فريته على هذين العبدين المطيعين لله تعالى ، ثم استرجع مرارا ثم أخذ عودا من الأرض ، فجعل ينكت به فى الأرض وظل كذلك ما شاء الله ، ثم إنه رفع رأسه ورمى بالعود وقال : ألا أحدثكم بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى الشمس والقمر وبدء خلقهما ومصير أمرهما ؟ قلنا بلى يرحمك الله تعالى ، فقال « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك،فقال : إن الله تعالى لما أتقن خلقه إحكاما ولم يبق إلا آدم خلق شمسين من نور عرشه ، فأما ما كان من سابق علم الله تعالى أن يدعها شمسا ، فإنه خلقها مثل الدنيا من مشارقها ومغاربها ؛ وأما ما كان من سابق علم الله أن يطمسها ويُحوِّلها قمرا ، فإنه خلقها دون الشمس فى العظم ، ولكن إنما يرى صغرها من شدة ارتفاع السماء وبعدها عن الأرض ، فلو ترك الله تعالى الشمس كما كان فى بدء الأمر لم يعرف الليل من النهار ولا النهار من الليل ، ولا يدرى الأجير متى يعمل ولا متى يأخذ أجرته ، ولا يدرى الصائم إلى متى يصوم وإلى متى يفطر ، ولا

تدرى المرأة كيف تعتدّ ، ولا يدرى المسلمون متى وقت صلاتهم ومتى وقت حجهم ؛ ولا يدرى المدينون متى يحل دينهم ، ولا يدرى الناس متى يزرعون ومتى يسكنون راحة لأبدانهم . وكان الله أنظر لعباده وأرحم بهم ، فأرسل جبريل عليه السلام ، فأمرّ جناحه على وجه القمر ، وهو يومئذ مثل الشمس ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقى فيه النور ، فذلك قوله تعالى (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً) فالسواد الذى فى جوف القمر مثل الخطوط فيه إنما هو أثر المحو . ثم خلق الله تعالى الشمس من ضوء نوره ، ثم خلق الله تعالى للشمس عجلة فيها ثلثمائة وستين عروة ، ووكل بالشمس وعجلتها ثلاثمائة وستين ملكا من الملائكة من أهل سماء الدنيا ، قد تعلق كل منهم بعروة من تلك العرا ، وخلق الله تعالى مشارق ومغارب فى أقطار الأرض وكنفى السماء ثمانين ومائة عين فى المشرق من طينة سوداء وثمانين ومائة عين فى المغرب مثل ذلك من طينة سوداء يفور غليانها كغليان القدر إذا ما اشتد غليانها وذلك قوله تعالى (وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ) ومعنى حمئة سوداء من طين ، فكل يوم وليلة لها مطلع جديد ومغرب جديد ، ما بين أولها مطلعا وأولها مغربا أطول ما يكون النهار فى الصيف ، وآخرها مطلعا مشرقا ومغربا أقصر ما يكون النهار فى الشتاء ، فذلك قوله تعالى (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) يعنى آخرها ههنا وأولها ههنا ، وترك ما بين ذلك من المشارق والمغارب ، ثم جمعها بعد ذلك فقال (رَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ) فذلك عدة تلك العيون كلها : ثم خلق الله تعالى بحرا دون سماء الدنيا بمقدار ثلاثة فراسخ ، فهو موج مكفوف قائم فى الهواء بإذن الله تعالى لا يقطر منه قطرة والنجوم كلها ساكنة فى ذلك البحر ، وهو جار فى سرعة السهم وانطلاقه ، فهو فى الهواء مستو كأنه جبل ممدود ما بين المشرق والمغرب ، وتجرى الشمس والقمر والخُنَّس فى سرعة دوران الرحى من أهوال يوم القيامة وزلازلها فى ذلك البحر ، فذلك قوله تعالى (كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) والفلك فى دوران العجلة فى لجة غمرة ماء ذلك البحر ، والذى نفس محمد بيده لو بدت الشمس من دون ذلك البحر لأحرقت كل شىء على وجه الأرض حتى الصخور والحجارة ، ولو بدا القمر من دون ذلك البحر لافتتن به أهل الأرض حتى يعبدونه من دون الله تعالى إلا ما شاء الله أن يعصمه من أوليائه وأهل طاعته . قال ابن عباس رضى الله عنه : قال على ابن أبى طالب رضى الله عنه : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ذكرت مجرى الخنس مع الشمس والقمر وقد أقسم الله تعالى بالخنس فى القرآن مثل ما كان ذكرك اليوم ، فما الخنس ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : ياعلىّ هن الكواكب الخمسة : البرجيس وهو المشترى ، وزحل ، وعطارد ، وبهرام ، والزهرة ، فهذه الكواكب الخمسة الطالعات الجاريات مع الشمس والقمر فى الفلك . وأما سائر الكواكب فكلها معلقات فى السماء كتعليق القناديل فى المساجد وهى تدور مع السماء دورانا بالتسبيح والتقديس والصلاة لله تعالى ، ثم قال النبى صلى الله

عليه وسلم : وإن أحببتم أن تستبينوا ذلك فانظروا دوران الفلك مرة من ههنا ومرة من ههنا ، وإن لم تستبينوا الفلك فالمجرّة وبياضها مرة من ههنا ومرة من ههنا ، فذلك دوران الشمس والقمر ودوران الكواكب معا كلها سوى هذه الخمسة ودورانها اليوم كما ترون فذلك صلاتها ، ودورانها يوم القيامة فى سرعة دوران الرحى من أهوال يوم القيامة ، فذلك قوله تعالى (يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْرًا) يعنى تدور دورانا (وتَسِيرُ الجبالُ سَيْرًا) ، فإذا طلعت الشمس فإنها تطلع من بعض تلك العيون على عجلتها ومعها ثلثمائة وستون ملكا ناشرى أجنحتهم يجرونها فى الفلك بالتسبيح والتقديس لله تعالى على قدر ساعات النهار ، والقمر كذلك على قدر ساعات الليل ما بين الطول والقصر فى الشتاء كان ذلك أو فى الصيف أو ما بينهما من الخريف والربيع ، فإذا أحب الله أن يبتلى القمر والشمس ويرى العباد آية من الآيات يستعتبهم رجوعا عن معاصيه وإقبالا على طاعته تحركت الشمس عن العجلة ، وقال مرة خرت الشمس عن العجلة فتقع فى غمر ماء ذلك البحر وهو الفلك ، فإذا أراد الله تعالى أن يعظم تلك الآية ليشتد خوف العباد وقعت الشمس كلها فلا يبقى على العجلة شىء منها ، فذلك حين يظلم النهار وتبدو النجوم ، وذلك هو المنتهى من كسوفها ، فإذا أراد الله أن يجعل آية دون آية وقع النصف منها أو الثلث أو الثلثان فى الماء ويبقى سائر ذلك على العجلة وهو كسوف دون كسوف ابتلاء الشمس والقمر ، وذلك تخويف للعباد واستعتاب من الله تعالى ، فأى ذلك كان صارت الملائكة الموكلة بعجلتها فرقتين : فرقة منهم يقبلون على الشمس فيجرونها نحو العجلة ، والفرقة الأخرى تقبل على العجلة فتجرها إلى الشمس ، وهم فى ذلك يقودونها فى الفلك على مقادير ساعات النهار أو ساعات الليل ليلا كان أو نهارا لكيلا يزيد فى طولها شىء ، وقد ألهمهم الله تعالى علم ذلك وجعل لهم تلك القوة ، فالذى ترون من خروج الشمس والقمر بعد الكسوف قليلا قليلا من ذلك السواد الذى يعلوه فهو من غمر ماء ذلك البحر وهو خروجها من ذلك الماء ، فإذا أخرجوها كلها اجتمعت الملائكة كلهم فاحتملوها حتى يضعوها على العجلة وذلك حين تنجلى للعالم حتى يحمدوا الله تعالى على ما قواهم لذلك ، ويتعلقون بعرا العجلة حتى يجروها بإذن الله تعالى فى لجة ذلك البحر حتى إذا بلغوا بها المغرب أدخلوها من بعض تلك العيون فتسقط من أفق السماء فى العين . ثم قال صلى الله عليه وسلم : عجبت من خلق الله ، وما بين من القدرة فيما لم يخلق أعجب منه . ومن ذلك قول جبريل عليه السلام لسارة (أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ) وذلك أن الله تعالى خلق مدينتين إحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب على كل مدينة منهما عشرة آلاف باب ، ما بين كل باب إلى الآخر مسيرة فرسخ ؛ فأهل المدينة التى بالمشرق من بقايا عاد من نسل مؤمنيهم الذين كانوا آمنوا بهود عليه السلام ، واسمها بالسريانية برقيشا ، وبالعبرانية جابلق ، واسم المدينة التى بالمغرب بالسريانية برجيسا وبالعبرانية جابرسانيوت ؛ على كل

باب من هاتين المدينتين كل يوم عشرة آلاف رجل فى الحراسة عليهم السلاح ومعهم الكراع ، لاتنوبهم تلك الحراسة بعد ذلك اليوم إلى يوم ينفخ فى الصور ، والذى نفس محمد بيده ، لولا كثرة هؤلاء القوم وضجيج أصواتهم لسمع أهل الدنيا وقع هذه الشمس حين تطلع وحين تغرب . ومن ورائهم ثلاث أمم لايعلم عددهم إلا الله تعالى وهم : منشك وتارس وتاويل ، ومن ورائهم يأجوج ومأجوج ، وإن جبريل عليه السلام انطلق بى إليهم ليلة أسرى بى إلى السماء ، فدعوت يأجوج ومأجوج إلى الله تعالى وإلى دينه وعبادته ، فأبوا أن يجيبونى ، فهم فى النار مع من عصى الله من ولد آدم وولد إبليس ، ثم انطلق بى إلى هاتين المدينتين ، فدعوتهم إلى الله تعالى وإلى دينه وعبادته ، فأجابوا وأنابوا ، فهم إخواننا فى الدين ، من أحسن منهم فهو مع المحسنين ، ومن أساء فهو مع المشركين ، ثم انطلق بى إلى الأمم الثلاث ، فدعوتهم إلى دين الله وعبادته فأبوا علىّ وكفروا بالله وكذبوا برسله ، فهم مع يأجوج ومأجوج ، وسائر من عصى الله تعالى فى النار ، فإذا ما غربت الشمس رفع بها إلى السماء السابعة فى سرعة طيران الملائكة ، وتحبس نحو العرش ، فتستأذن من أين تؤمر بالطلوع من مغربها أم من مطلعها وتكسى ضوءا ، وإن كان القمر فنورا على قدر ساعات الليل والنهار ، ثم ينطلق بها إلى ما بين السماء السابعة وما بين أسفل درجات الجنان فى سرعة طيران الملائكة ، فتنحدر حيال المشرق من سماء إلى سماء ، فإذا وصلت إلى هذه السماء فذلك حين ينفجر الفجر عن الصبح ، فإذا انحدرت من بعض تلك النواحى فذلك حين يضىء الصبح فإذا وصلت إلى هذا الوجه من السماء فذلك حين يضىء النهار ، فتلك مطالعها ومغاربها ما بين أولها عينا إلى آخرها عينا فى الطلوع والغروب ، فذلك تمام ستة أشهر ، ثم إذا رجعت كذلك من عين إلى عين فى الطلوع والغروب إلى آخرها عينا فذلك تمام السنة ، فعدة أيامها ولياليها ثلثمائة وستون ليلة . وخلق الله تعالى عند المشرق حجابا من الظلمة ، فوضعه على البحر السابع مقدار عدة الليالى فى الدنيا منذ خلقها الله تعالى إلى يوم تنصرف ، فإذا كان عند غروب الشمس أقبل ملك من الملائكة الذين قد وكلوا بالليل ، فيقبض قبضة من ظلمة ذلك الحجاب ثم يستقبل المغرب ، فلا تزال تلك الظلمة تخرج من خلال أصابعه قليلا قليلا وهو يراعى الشفق ، فإذا غاب الشفق أرسل الظلمة جميعا ، ثم ينشر جناحيه فيبلغان أقطار الأرض وكنفى السماء ، ويجاوزان ما شاء الله خارجا فى الهواء ، فيسوق ظلمة الليل بجناحيه بالتسبيح والتقديس حتى يبلغ المغرب على قدر ساعات الليل ، فإذا بلغ المغرب أسفر الصبح من المشرق فضم جناحيه ثم يضم الظلمة كلها بعضها إلى بعض فيقبضها بكفيه ، ثم يقبض عليها بكف واحد نحو قبضته التى تناولها من الحجاب بالمشرق ثم يضعها عند المغرب على البحر السابع ، فمن هناك ظلمة الليل إذا ما نقل ذلك الحجاب إلى المشرق وإلى المغرب ، فإذا نفخ فى الصور انقضت أيام الدنيا ، فنور النهار من ضوء الشمس ، وظلمة الليل من قبل ذلك الحجاب ، فلا تزال الشمس والقمر كذلك من مطلعهما إلى مغربهما إلى ارتفاعهما

إلى السماء السابعة إلى محبسهما تحت العرش ، حتى يأتى الوقت الذى وقته الله تعالى لتوبة العباد ، وتكثر المعاصى فى الأرض ، ويذهب المعروف ولا يأمر به أحد ، ويفشو المنكر فلا ينهى عنه أحد ، فإذا فعلوا ذلك حبست القمر مقدار ليلة تحت العرش ، وكلما سجدت واستأذنت ربها من أين تطلع ، فلا يؤذن لها ولا يرد لها جواب حتى يوافيها القمر فيسجد معها ويستأذن من أين يطلع فلا يؤذن لهما ولا يرد لهما جواب ، حتى يحبسا مقدار ثلاث ليال للشمس وليلتين للقمر ، فلا يعرف طول تلك الليلة إلا المتهجدون فى الأرض ، وهم يومئذ عصابة قليلة فى الأرض فى كل بلد من بلاد المسلمين ، فى هوان بين الناس وذلة فى أنفسهم ، فينام أحدهم تلك الليلة مقدار ما كان ينام قبلها من الليل ثم يقوم فيتوضأ ويدخل مصلاه فيصلى ورده ولا يصبح نحو ما كان يصبح كل ليلة قبل ذلك ، فينكر ذلك ويخرج فينظر إلى السماء ، فإذا هو بالليل مكانه والنجوم قد استدارت فى السماء وصارت فى أماكنها من أول الليل ، فينكر ذلك ويظن فيها الظنون ويقول : أخففت قراءتى أم قصرت صلاتى أم قمت قبل حينى ؟ قال : ثم يقوم فيعود إلى مصلاه فيصلى نحو صلاته ، ثم ينظر فلا يرى الصبح ، فيخرج أيضا فإذا هو بالليل مكانه ، فيزيده ذلك إنكارا ويخالطه الخوف ويظن فى ذلك الظنون من السوء ، ثم يقول : لعلى قصرت صلاتى أو خففت قراءتى أو قمت فى أول الليل ؛ ثم يعود وهو وجل خائف مشفق لما يتوقع من هول تلك الليلة ، فيقوم فيصلى أيضا مثل ورده كل ليلة قبل ذلك ، ثم ينظر فلا يرى الصبح ؛ فيخرج الثالثة فينظر إلى السماء فإذا هو بالنجوم قد استدارت مع السماء فصارت فى أماكنها أول الليل ، فيشفق عند ذلك شفقة المؤمن العارف لما كان يحذر فيلحقه الخوف وتلحقه الندامة ، ثم ينادى بعضهم بعضا وهم قبل ذلك كانوا يتعارفون ويتواصلون ، فيجتمع المتهجدون من أهل كل بلدة فى تلك الليلة فى مسجد من مساجدهم يجأرون إلى الله تعالى بالبكاء والصراخ بقية تلك الليلة ، فإذا ما تم لهما مقدار ثلاث ليال أرسل الله جبريل عليه السلام إليهما فيقول لهما : إن الرب تعالى يأمركما أن ترجعا إلى مغربكما فتطلعا منه ، إنه لاضوء لكما عندنا ولا نور ، فيبكيان عند ذلك وجلا من الله تعالى وخوف يوم القيامة بكاء يسمعه أهل السبع سموات ومن دونها ، وأهل سرادقات العرش ومن فوقها ، فيبكون جميعا لبكائهما لما خالطهم من خوف الموت وخوف يوم القيامة ، فترجع الشمس والقمر فيطلعان من مغربهما . قال : فبينما المتهجدون يبكون ويتضرعون إلى الله تعالى والغافلون فى غفلتهم ، إذ نادى مناد : ألا إن الشمس والقمر قد طلعا من مغاربهما ، فينظر الناس فإذا هم بهما أسودان لاضوء للشمس ولا نور للقمر مثلهما فى كسوفهما قبل ذلك ، فذلك قوله تعالى (وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) وقوله تعالى (إذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) فيرتفعان كذلك مثل البعيرين القرنين ينازع كل واحد منهما صاحبه استباقا ، ويتصارخ أهل الدنيا وتذهل الأمهات عن أولادها والأحبة عن ثمرات فؤادها ، فتشتغل كل نفس بما كسبت ؛

فأما الصالحون والأبرار فإنه ينفعهم بكاؤهم يومئذ ويكتب لهم ذلك عبادة . وأما الفاسقون والفجار فلا ينفعهم ويكتب عليهم حسرة ، فإذا ما بلغ الشمس والقمر سرة السماء وهى منتصفها ، جاءهما جبريل عليه السلام فيأخذ بقرونهما ويردهما إلى المغرب فلا يغربهما من مغاربهما من تلك العيون ، ولكن يغربهما من باب التوبة ، فقال عمر : بأبى أنت وأمى يا رسول الله : وما باب التوبة ؟ فقال : يا عمر خلق الله تعالى بابا للتوبة خلف المغرب له مصراعان من ذهب مكللان بالدر والجوهر ، ما بين المصراع إلى المصراع أربعون سنة للراكب المسرع ، فذلك الباب مفتوح منذ خلق الله تعالى الدنيا إلى صبيحة تلك الليلة عند طلوع الشمس والقمر من مغربهما ، ولم يتب عبد من عباد الله تعالى توبة نصوحا منذ خلق الدنيا إلى ذلك اليوم إلا ولجت تلك التوبة فى ذلك الباب ، ثم ترفع إلى الله تعالى . فقال معاذ بن جبل : بأبى أنت وأمى يا رسول الله وما التوبة النصوح ؟ قال : أن يندم العبد على الذنب الذى أصاب فيعتذر إلى الله تعالى ثم لايعود إليه كما لايعود اللبن إلى الضرع . قال : فيغربهما جبريل عليه السلام من ذلك الباب ثم يرد المصراعين ، ثم يلتئم مابينهما فيصير كأنه لم يكن فيما بينهما صدع قط ، وإذا أغلق باب التوبة لم يقبل للعبد بعد ذلك توبة ولا تنفعه حسنة يعملها فى الإسلام إلا من كان قبل ذلك محسنا ، فإنه يجرى عليه ما كان يجرى عليه قبل ذلك اليوم ، فذلك قوله تعالى (يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا) فقال أبى بن كعب : بأبى أنت وأمى يا رسول الله فكيف بالشمس والقمر بعد ذلك وكيف بالناس والدنيا ؟ فقال يا أبىّ : إن الشمس والقمر يكسيان النور والضوء بعد ذلك ثم يطلعان ويغربان كما كانا قبل ذلك ، وأما الناس فإنهم ما رأوا من فظاعة تلك الآية وعظمها يلحون على الدنيا ويجرون فيها الأنهار ويغرسون فيها الأشجار ويبنون فيها البنيان . وأما الدنيا فلو نتج للرجل منهم فيها مهر لم يركبه حتى تقوم الساعة من لدن طلوع الشمس من مغربها إلى أن ينفخ فى الصور ، فقال حذيفة جعلنى الله فداءك يا رسول الله فكيف بهم عند النفخ فى الصور ؟ قال : يا حذيفة والذى نفسى بيده لينفخن فى الصور ولتقومن الساعة والرجل قد لاط حوضه فلا يشرع فيه الماء ، ولتقومن الساعة وقد أخذ لبن لقحته من تحتها فلا يشربه ، ولتقومن الساعة والثوب بين الرجلين فلا ينشرانه ولا يطويانه ولا يبيعانه ، ولتقومن الساعة والرجل قد رفع لقمته إلى فيه فلا يطعمها ، ثم تلا هذه الآية (وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) فإذا قامت الساعة قضى الله تعالى بين أهل الدارين وميز بين الفريقين أهل الجنة والنار ، وقبل أن يدخلوهما يدعو الله تعالى بالشمس والقمر ، فيجاء بهما أسودين لانور لهما مكدرين قد وقعا فى الزلازل والبلايا وفرائصهما ترعد من هول يوم القيامة وهول ذلك اليوم ومن مخافة الرحمن تعالى ، فإذا كانا حذاء العرش خرا ساجدين لله تعالى ويقولان :

يا إلهنا قد علمت طاعتنا لك ودأبنا فى طاعتك وسرعتنا للمضى فى أمرك أيام الدنيا فلا تعذبنا بعبادة المشركين إيانا ، فقد علمت أنا لن ندعوهم إلى عبادتنا ولم نذهل عن عبادتك ، فيقول الله تعالى : صدقتما إنى قد قضيت على نفسى أن أبدئ وأعيد ، إنى أعيدكما إلى مابدأتكما منه فارجعا إلى ما خلقتكما منه، فيقولان ربنا مم خلقتنا ؟ فيقول : خلقتكما من نور عرشى فارجعا إليه ، فيلمع من كل واحد منهما برقة تكاد تخطف الأبصار نورا فيختلطان بنور العرش ، فذلك قوله تعالى (يُبْدِئُ وَيُعِيدُ) قال عكرمة : فقمت مع النفر الذين حدثوا عن كعب ما حدثوا به من أمر الشمس والقمر حتى أتيناه ، فأخبرناه بغضب ابن عباس وما وجده من حديثه ، وبما حدثنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهما مما بين مبدئهما إلى معادهما ، فقال كعب الأحبار : إنى حدثت عن كتاب دارس منسوخ قد تداولته الأيدى ، وابن عباس حدث عن كتاب حديث العهد بالرحمن جلّ جلاله ناسخ للكتب ، وعن سيد الأنبياء والمرسلين خير البشر ، ثم قام فمشى إلى ابن عباس فقال : بلغنى ما كان من وجدك من حديثى وما حدثت به من كتاب الله تعالى ومن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا وإنى أستغفر الله من ذلك مع أنى لم أتقوّله من تلقاء نفسى ، ولكن حدثت عن كتاب دارس ، فلا أرى ما كان فيه من تبديل الكفار واليهود ، وأنت حدثت ما حدثت عن كتاب حديث العهد بالرحمن ناسخ للكتب وعن سيد المرسلين ، وأنا أحب أن تحدثنى بما حدثت به أصحابك من حديث الشمس والقمر ، فأحفظ عنك الحديث ، فإذا حدثت بشىء من أمر الشمس والقمر فيما بعد هذا اليوم كان هذا الحديث الذى تحدثنى به مكان حديثى الأول . قال عكرمة : فوالله لقد أعاد عليه ابن عباس الحديث ، وإنى لأستقرئه فى قلبى بابا بابا ، فما زاد شيئا ولا نقص شيئا ولا قدم ولا أخر ، فزادنى ذلك فى ابن عباس رغبة وللحديث حفظا ، والله أعلم .

مجلس فى قصة آدم عليه الصلاة والسلام

وهو يشتمل على أبواب كثيرة

الباب الأول : فى ذكر وجوه من الحكمة وخلق آدم عليه الصلاة والسلام

قال الحكماء: خلق الله تعالى الخلق ليظهر وجوده، ولو لم يخلق لما عرف أنه موجود ، وليظهر كمال علمه وقدرته بظهور أفعاله المتقنة المحكمة لأنها لاتتأتى إلا من قادر حكيم ، وليعبد فإنه يحب عبادة العابدين ويثيبهم عليها على قدر فضله لاعلى قدر أفعالهم وإن كان غنيا عن عبادة خلقه، لاتزيد فى ملكه طاعة المطيعين ولا تنقص من ملكه معصية العاصين، قال الله تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ) وليظهر إحسانه لأنه محسن فأوجدهم ليحسن إليهم وليتفضل عليهم فيعامل بعضا بالعدل وبعضا بالفضل ، وخلق

المؤمنين خاصة للرحمة كما قال عز وجل (وَكَانَ بِالمُؤْمِنِينَ رَحِيماً) وقال تعالى (وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) . قال جعفر بن محمد الصادق والضحاك بن مزاحم : أى للرحمة خلقهم وليحمدوه لأنه يحب الحمد .

ويروى أن آدم عليه السلام لما خلقه الله تعالى وعرض عليه ذريته وجد فيهم الصحيح والسقيم والحسن والقبيح والأسود والأبيض ، فقال يا رب هلا سويت بينهم ؟ فقال الله تعالى : إنى أحب أن أشكر .

قال أبو الحسن الفتال : خلق الله تعالى الملائكة للقدرة وخلق الأشياء للعبرة وخلقك للمحنة ، قال تعالى (الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) .

قال العلماء : خلقكم لإظهار القدرة ، ثم رزقكم لإظهار الكرم ، ثم يميتكم لإظهار القهر والجبروت ، ثم يحييكم لإظهار العدل والفضل والثواب والعقاب . ومنهم من قال : خلق الخلق جميعهم لأجل محمد صلى الله عليه وسلم .

عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قال : أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا عيسى آمن بمحمد وأمر أمتك أن يؤمنوا به ، فلولا محمد ما خلقت آدم ولا الجنة ولا النار ، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب ، فكتبت عليه : لاإله إلا الله محمد رسول الله فسكن . وقيل خلقهم لأمرعظيم غيبه عنهم ، لايجليه حتى يحل بهم ماخلقهم له ، قال الله تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاتُرْجَعُونَ) .

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : يا أيها الناس اتقوا الله فما خلق امرؤ عبثا فيلهو ولا أهمل سدى فيلغو . وقال الأوزاعىّ : بلغنى أن فى السماء ملكا ينادى كل يوم : ألا ليت الخلق لم يخلقوا ، وليتهم إذ خلقوا عرفوا ما خلقوا له . وقال بعضهم : إذا ماتوا ثم خلقوا علموا ماذا خلقوا له وجلسوا فتذاكروا ماذا عملوا . وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول فى مناجاته : إلهى غيبت عنى أجلى ، وأحصيت علىّ عملى ، ولاأدرىّ إلى أىّ الدارين منقلبى ، لقد أوقفتنى وقفة المحزونين أبدا ما أبقيتنى .

وقال أبو القاسم الحكيم : إن الله تعالى جعل ابن آدم بين البلوى والبلى ، فما دام الروح فى جسده فهو فى البلوى ، فإذا فارق الروح الجسد فهو فى البلى ، فأنى له السرور وهو بين البلوى والبلى .

وقال بعض الحكماء : يا بن آدم انظر إلى خطر مقامك فى الدنيا إن ربك حلف فقال (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) وإن إبليس حلف فقال (فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ) وأنت يا مسكين بين الله تعالى وبين إبليس مطروح ساه لاه ، والله أعلم .

الباب الثانى : فى خلق آدم عليه الصلاة والسلام وكيفيته وصفته

قال المفسرون بألفاظ مختلفة ومعان متفقة : إن الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه الصلاة والسلام أوحى الله إلى الأرض : إنى خالق منك خلقا منهم من يطيعنى ومنهم من يعصينى ، فمن أطاعنى منهم أدخلته الجنة ، ومن عصانى أدخلته النار ، ثم بعث إليها جبريل عليه السلام ليأتيه بقبضة من ترابها ، فلما أتاها جبريل ليقبض منها القبضة قالت له الأرض : إنى أعوذ بعزة الله الذى أرسلك أن تأخذ منى شيئا يكون فيه غدا للنار نصيب ، فرجع جبريل عليه السلام إلى ربه ولم يأخذ منها شيئا وقال : يا رب استعاذت بك فكرهت أن أقدم عليها ، فأمر الله عز وجل ميكائيل عليه السلام ، فأتى الأرض فاستعاذت بالله أن يأخذ منها شيئا ، فرجع إلى ربه ولم يأخذ منها شيئا ، فبعث الله تعالى ملك الموت ، فأتى الأرض فاستعاذت بالله أن يأخذ منها شيئا ، فقال ملك الموت : وإنى أعوذ بالله أن أعصى له أمرا ، فقبض قبضة من زواياها الأربع من أديمها الأعلى ومن سبختها وطينها وأحمرها وأسودها وأبيضها وسهلها وحزنها ، فكذلك كان فى ذرية آدم الطيب والخبيث والصالح والطالح والجميل والقبيح ، ولذلك اختلفت صورهم وألوانهم ، قال الله تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمواتِ والأَرْضِ واخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وأَلْوانِكُمْ) ثم صعد بها ملك الموت إلى الله تعالى ، فأمره أن يجعلها طينا ويخمرها ، فعجنها بالماء المرّ والعذب والملح حتى جعلها طينا وخمرها ، فلذلك اختلفت أخلاقهم ، ثم أمر جبريل عليه السلام أن يأتيه بالقبضة البيضاء التى هى قلب الأرض وبهاؤها ونورها ليخلق منها محمدا صلى الله عليه وسلم ، فهبط جبريل عليه السلام فى ملائكة الفردوس المقربين الكروبيين وملائكة الصفح الأعلى ، فقبض قبضة من موضع قبر النبى صلى الله عليه وسلم وهى يومئذ بيضاء نقية ، فعجنت بماء التسنيم ورعرعت حتى صارت كالدرة البيضاء ، ثم غمست فى أنهار الجنة كلها ، فلما خرجت من الأنهار نظر الحق سبحانه وتعالى إلى تلك الدرة الطاهرة ، فانتفضت من خشية الله تعالى ، فقطر منها مائة ألف قطرة وأربعة وعشرون ألف قطرة ، فخلق الله سبحانه وتعالى من كل قطرة نبيا ، فكل الأنبياء صلوات الله على نبينا وعليهم من نوره خلقوا صلى الله عليه وسلم ، ثم طيف بها فى السموات والأرض ، فعرفت الملائكة حينئذ محمدا صلى الله عليه وسلم قبل أن تعرف آدم ، ثم عجنها بطينة آدم عليه الصلاة والسلام ، ثم تركها أربعين سنة حتى صارت طينا لازبا لينا ، ثم تركها أربعين عاما حتى صارت صلصالا كالفخار ، وهو الطين اليابس الذى إذا ضربته بيدك صلصل : أى صوّت ليعلم أن أمره بالصنع والقدرة لا بالطبع والحيلة فإن الطين اليابس لا ينقاد ولا يتأتى تصويره ، ثم جعله جسدا وألقاه على طريق الملائكة التى تهبط إلى السماء وتصعد منه أربعين سنة ، فذلك قوله تعالى (هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسانِ حِينٌ

مِنَ الدَّهْرِ) الآية . قال ابن عباس : الإنسان آدم ، والحين أربعون سنة كان آدم جسدا ملقى على باب الجنة .

وفى صحيح الترمذى بالإسناد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تفسير أول البقرة «إنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ بيَدِهِ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَميعِ الأَرْضِ مِنَ السَّهْلِ والجَبَلِ والأسْوَدِ والأبيضِ والأحمرِ ، فجاءَتِ الأوْلادُ عَلَى ألوانِ الأرْضِ» . وسأل عبد الله ابن سلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف خلق الله آدم عليه السلام ؟ فقال : «خَلَقَ رأسَ آدَمَ وجَبْهَتَهُ مِنْ تُرابِ الكعبةِ ، وَصَدْرَهُ وظَهْرَهُ مِنْ بيتِ المَقْدِسِ ، وفخِذَيْهِ مِنْ أرْضِ اليَمَنِ ، وساقَيْهِ مِنْ أرْضِ مِصْرَ ، وقَدَمَيْهِ مِنْ أرْضِ الحجاز ، ويدَهُ اليُمْنَى مِنْ أرْضِ المَشْرِقِ ، ويدَهُ اليُسْرَى من أرْضِ المَغْرِبِ ثمَّ ألقاهُ عَلَى بابِ الجنَّةِ ، فكلَّما مرَّ عليه مَلأٌ مِنَ الملائكةِ عَجِبوا مِنْ حُسْنِ صُورَتِهِ وطولِ قامتِهِ ، ولمْ يكونوا قبْلُ رأوْا شيْئًا يُشْبِهُهُ مِنَ الصُّوَرِ ، فمَرَّ بِهِ إبليسُ فرآهُ فقال : لأمْرٍ ما خُلِقْتَ ، ثمَّ ضَرَبَهُ بيدِهِ فإذا هُوَ أجْوَفُ ، فدخَلَ فى فيهِ وخَرَجَ مِنْ دُبُرِهِ وقال لأصحابه الذين معه من الملائكة : هذَا خَلْقٌ أجْوَفُ لايَثْبُتُ ولا يَتَماسَكُ ، ثمَّ قالَ لَهُمْ : أرأيْتُمْ إنْ فُضِّلَ هذا عليكُمْ فَما أنْتُمْ فاعِلونَ ؟ قالوا : نُطيعُ رَبَّنا ، فقالَ إبليسُ فى نفْسِهِ واللهِ لَئِنْ فُضِّلَ هذا علَىَّ لأعْصِيَنَّهُ ولِئِنْ فُضِّلْتُ عليهِ لأُهْلِكَنَّهُ ، فذلك قوله تعالى (وأعْلَمُ ما تُبْدُونَ وما كُنتُمْ تَكْتُمونَ)» يعنى ما أظهرت الملائكة من الطاعة وأسرَّ إبليس من المعصية ، وقوله تعالى (إلاَّ إبليسَ أبَى واسْتَكْبَرَ وكانَ مِنَ الكافِرينَ) وفى الخبر : إن جسد آدم عليه الصلاة والسلام كان ملقى أربعين سنة يمطر عليه مطر الحزن ، ثم أمطر عليه السرور سنة واحدة ، فلذلك كثرت الهموم فى أولاده ، وتصير عاقبتها إلى الفرح والراحة ، وأنشدنا فى هذا المعنى أبو عوانة المهرجانى :

يقولون إن الدهر يومان كله　　فيوم محبات ويوم مكارهِ
وما صدقوا فالدهر يوم محبة　　وأيام مكروه كثير البدائهِ

وأنشد ابن الأعرابىّ فقال :

مِحَن الزمان كثيرة لاتنقضى　　وسروره يأتيك بالفلتات

وأنشد أبو بكر الصولى لابن المعتز :

أى شىء يكون أعجب من ذا　　لو تفكَّرت فى صروف الزمان
حادثات السرور توزن وزنا　　والبلايا تكال بالقُفْزان

الباب الثالث : فى صفة نفخ الروح

قال العلماء : فلما أراد الله أن ينفخ فى آدم عليه السلام الروح أمرها أن تدخل فى فيه ، فقالت الروح : مدخل بعيد القعر مظلم المدخل ، فقال للروح ثانية ، فقالت مثل ذلك ، وكذلك ثالثة ، إلى أن قال فى الرابعة ادخلى كرها واخرجى كرها ، فلما أمرها الله تعالى بذلك دخلت فى فيه ، فأول ما نفخ فيه الروح دخلت دماغه ، فاستدارت فيه مقدار مائتى عام ثم نزلت فى عينيه . والحكمة فى ذلك أن الله تعالى أراد أن يرى آدم بدء خلقه وأصله حتى إذا تتابعت عليه الكرامات لايدخله الزهو ولا العجب بنفسه ، ثم نزلت فى خياشيمه فعطس ، فحين فراغه من عطاسه نزلت الروح إلى فيه ولسانه ، فلقنه الله تعالى أن قال : الحمد لله رب العالمين ، فكان ذلك أول ما جرى على لسانه ، فأجابه ربه عز وجل فقال : يرحمك ربك يا آدم للرحمة خلقتك ، قال تعالى « سَبَقَتْ رَحْمَتِى غَضَبِى » ثم نزلت الروح إلى صدره وشراسيفه ، فأخذ يعالج القيام فلم يمكنه ذلك ، وذلك قوله تعالى (وَكَانَ الإنْسَانُ عَجولاً) وقوله تعالى (خُلِقَ الإنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ) . فلما وصلت الروح إلى جوفه اشتهى الطعام ، فهو أول حرص دخل جوف آدم عليه الصلاة والسلام .

وفى بعض الأخبار : إن آدم عليه السلام لما قال له ربه يرحمك ربك يا آدم مدَّ يده ووضعها على أم رأسه وقال : أوَّه ، فقال الله : مالك يا آدم ؟ فقال : إنى أذنبت ذنبا ، فقال من أين علمت ذلك ؟ فقال : لأن الرحمة للمذنبين ، فصارت تلك سنة فى أولاده إذا أصاب أحدهم مصيبة أو محنة وضع يده على رأسه وتأوَّه . ثم انتشرت الروح فى جسده كله ، فصار لحما ودما وعظاما وعروقا وعصبا ، ثم كساه الله تعالى لباسا من ظفر وجعل يزداد كل يوم حسنا ، فلما قارف الذنب بدل بهذا الجلد ، وبقيت منه بقية فى أنامله ليتذكر به أول حاله .

قال عبد الله بن الحارث : كانت الدواب تتكلم قبل خلق الله تعالى آدم عليه السلام ، وكان النسر يأتى الحوت فى البحر فيخبره بما فى البر ، ويخبره الحوت بما فى البحر . فلما خلق الله تعالى آدم عليه السلام جاء النسر إلى الحوت فقال : لقد خلق الله اليوم خلقا ورأيت اليوم شيئا لينزلنى من وكرى وليخرجنك من البحر :

فلما أتم الله خلق آدم عليه الصلاة والسلام ونفخ فيه الروح قرَّطه وشنَّفه وسوَّره وختَّمه ومنطقه وألبسه من لباس الجنة ، وزينه بأنواع الزينة يخرج من ثناياه نور كشعاع الشمس ونور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى جبينه كالقمر ليلة البدر ، ثم رفعه على سرير وحمله على أكتاف الملائكة وقال لهم : طوفوا به فى سمواتى ليرى عجائبها وما فيها فيزداد يقينا ، فقالت الملائكة لبيك ربنا سمعنا وأطعنا ، فحملته الملائكة على أعناقها وطافت به السموات مقدار مائة عام ، حتى وقف على كل شىء من آياتها وعجائبها ، ثم خلق الله فرسا من المسك

الأذفر يقال له الميمون ، له جناحان من الدر والجواهر ، فركبه آدم عليه الصلاة والسلام وجبريل آخذ بلجامه وميكائيل عن يمينه وإسرافيل عن شماله ، فطافوا به السموات كلها وهو يقول : السلام عليكم يا ملائكة الله ، فيقولون وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، فقال الله تعالى : يا آدم هذه تحيتك وتحية المؤمنين من ذريتك فيما بينهم إلى يوم القيامة ، ثم علمه الله تعالى الأسماء كلها . واختلف العلماء فى هذه الأسماء ، فقال الربيع بن أنس : أسماء الملائكة كلهم ؛ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أسماء ذريته ؛ وقال ابن عباس وأكثر الناس: علمه اسم كل شيء حتى القصعة والقصيعة . ثم أمر الله الملائكة بالسجود له كما قال الله تعالى (فإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحِي فقَعُوا لهُ ساجِدِينَ) وأكثر العلماء على أن الأمر بالسجود لآدم إنما توجه على الملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون سائر الملائكة ، وكان ذلك سجود تعظيم وتحية ، لاسجود صلاة وعبادة ، فلما أمرهم بالسجود سجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين .

الباب الرابع : فى صفة خلق حواء عليها السلام

قال المفسرون : لما أسكن الله تعالى آدم الجنة كان يمشى فيها وحيدا لم يكن له من يجالسه ويؤانسه ، فألقى الله تعالى عليه النوم ، فنام ، فأخذ الله ضلعا من أضلاعه من شقه الأيسر يقال له القُصَيْرَى ، فخلق منه حواء من غير أن أحس آدم بذلك ولا وجد له ألما ، ولو أولم آدم من ذلك لما عطف رجل على امرأة ، ثم ألبسها من لباس الجنة وزينها بأنواع الزينة وأجلسها عند رأسه ، فلما هبَّ آدم من نومه رآها قاعدة عند رأسه ، فقالت الملائكة لآدم يمتحنون علمه : ما هذه يا آدم ؟ قال : امرأة ، قالوا : وما اسمها ؟ قال : حواء ، قالوا : صدقت ، ولم سميت حواء بذلك ؟ قال : لأنها خلقت من شيء حيّ ، قالوا : لماذا خلقها الله تعالى ؟ قال : لتسكن إلىَّ وأسكن إليها ، وذلك قوله تعالى (هُوَ الَّذى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحدَةٍ وجعَلَ مِنها زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إليها) قال النبى صلى الله عليه وسلم « خُلِقَتِ المرْأةُ مِنْ ضِلَعٍ أعْوَجَ ، فإِنْ تُقِمْها تَكْسِرْها وإِنْ تَتْرُكْها تَسْتَمْتِعْ بِها عَلَى عِوَجِها » وقيل الحكمة فى أن الرجال يزيدون على مرور الأيام والأعوام حسنا وجمالا ، لأنهم خلقوا من التراب ، والطين يزداد كل يوم حدة وجمالا . والنساء يزددن على مرور الأيام قبحا لأنهن خلقن من اللحم ، واللحم يزداد على مرور الأيام فسادا . وفى بعض الأخبار أن آدم عليه السلام لما رأى حواء مد يده إليها فقالت الملائكة : مَهْ يا آدم ، فقال: ولم وقد خلقها الله تعالى لى ؟ فقالت الملائكة : حتى تؤدى مهرها ، قال : وما مهرها ؟ قالوا : أن تصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، قال : ومن محمد ؟ قالوا : آخر الأنبياء من ولدك ، ولولا محمد ما خلقت .

وروى سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أَرادَ اللهُ أَنْ يَخْلُقَ جارِيَةً بَعَثَ إليها مَلَكَيْنِ أَصْفَرَيْنِ مُكَلَّلَيْنِ بالدُّرِّ والياقُوتِ فَيَضَعُ أَحدُهما يَدَهُ عَلى رأسِها ، وَيَضَعُ الآخَرُ يَدَهُ عَلى رِجلِها وَيَقولانِ باسْمِ رَبِّنا وَرَبِّكِ الله ، ضَعيفَةٌ خُلِقَتْ مِنْ ضَعيفَةٍ ، المُنْفِقُ عليها مُعانٌ إلى يَوْمِ القِيامَةِ » .

الباب الخامس
فى ذكر امتحان الله تعالى آدم عليه السلام وما كان منه فى ذلك

قال أهل التاريخ : لما أسكن الله تعالى آدم وحواء عليهما السلام الجنة أباح لهما نعيم الجنة كلها إلا شجرة واحدة ، وذلك قوله تعالى (وَقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ) إلى قوله (فَتَكونا مِنَ الظّالِمينَ) . واختلفوا فى هذه الشجرة التى هى شجرة المحنة ماهى ؟ فقال على رضى الله عنه : هى شجرة الكافور . وقال قتادة : هى شجرة العلم وفيها من كل شئ علامة ؛ وقال محمد بن كعب ومقاتل : هى السنبلة ، وقيل هى الحنطة ، وقيل هى الكرمة . فوسوس لهما الشيطان حتى زين لهما الشجرة فأكلا مانهاهما ربهما عن أكله من ثمرة تلك الشجرة ، وحسَّن لهما معصية الله تعالى فى ذلك حتى أكلا منها ، وكان وصول عدو الله إبليس إليهما وتزيينه ذلك لهما على ما ذكره أصحاب الأخبار ، أن إبليس أراد أن يدخل الجنة ليوسوس لآدم وحواء ، فمنعه الخزنة من ذلك ، فأتى الحية وكانت من أحسن الدواب التى خلقها الله تعالى ، لها أربعة قوائم كقوائم البعير ، وكانت من خزان الجنة وكانت لإبليس صديقة ، فسألها أن تدخله الجنة فى فيها ، فأدخلته فى فمها ومرت به على الخزنة وهم لايعلمون فأدخلته الجنة ، وكان قد دخل مع آدم الجنة ، ولما دخل الجنة ورأى ما فيها من النعيم والكرامة ، فقال : طيب لو كان خلدا ، فاغتنم ذلك الشيطان منه فأتاه من قبل الخلد ، وقيل إن إبليس لما سمع بدخول آدم الجنة حسده وقال : يا ويلاه أنا أعبد الله منذ كذا وكذا ألف سنة ولم يدخلنى الجنة ، وهذا خلق خلقه الله تعالى الآن فأدخله الجنة ، فاحتال فى إخراج آدم عليه السلام من الجنة ، فوقف على باب الجنة وتعبد ثلثمائة سنة هنالك حتى اشتهر بالعبادة وعرفوه بها ، وهو فى كل ذلك ينتظر خروج خارج من الجنة يتوصل به إلى آدم ، فمكث على باب الجنة ثلثمائة سنة لايأذن الله تعالى فى خروج خلق منها ، فبينما هو كذلك إذ خرج إليه الطاوس وكان سيد طيور الجنة ، فلما رآه إبليس قال له : أيها الخلق الكريم من أنت وما اسمك ، فما رأيت من خلق الله أحسن منك ؟ قال : أنا طائر من طيور الجنة اسمى طاوس ، فبكى إبليس ، فقال له الطاوس : من أنت ومم بكاؤك ؟ فقال له إبليس : أنا ملك من الملائكة الكروبيين ، وإنما بكيت تأسفا على ما يفوتك من حسنك وكمال خلقتك ، فقال له الطاوس أيفوتنى ما أنا فيه ؟ قال : بلى ، وإنك تفنى وتبيد وكل الخلائق يبيدون

إلا من تناول من شجرة الخلد فإنهم المخلدون من تلك الخلائق ، فقال الطاوس : وأين تلك الشجرة ؟ قال إبليس : هى فى الجنة ، قال الطاوس : ومن يدلنا بمكانها ؟ قال إبليس : أنا أدلك عليها إن أدخلتنى الجنة ، قال الطاوس : كيف لى بإدخالك الجنة ولا سبيل إلى ذلك لمكان رضوان فإنه لايدخل الجنة أحد ولا يخرج منها أحد إلا بإذنه ، ولكن سأدلك على خلق من خلق الله تعالى يدخلكها ، فإنه إن قدر على ذلك أحد فهو هو دون غيره ، فإنه خادم خليفة الله تعالى آدم ، قال : ومن هو ؟ قال : الحية ، قال له إبليس : فبادر إليها فإن لنا فيه سعادة الأبد لعلها تقدر على ذلك . فجاء الطاوس إلى الحية وأخبرها بمكان إبليس وما سمع منه ، وقال : إنى رأيت بباب الجنة ملكا من الكروبيين من صفته كيت وكيت ، فهل لك أن تدخليه الجنة ليدلنا على شجرة الخلد ، فأسرعت الحية نحوه ؛ فلما جاءته قال لها إبليس نحوا من مقالته للطاوس ، فقالت : كيف لى بإدخالك الجنة ورضوان إذا رآك لم يمكنك من دخولها ؟ فقال لها : أتحوّل ريحا فتجعلينى بين أنيابك ، قالت : نعم ؛ فتحوّل إبليس لعنه الله ريحا ودخل فى فم الحية فأدخلته الجنة . فلما دخل إبليس الجنة أراها الشجرة التى نهى الله تعالى عنها آدم ، وجاء حتى وقف بين يدى آدم وحواء عليهما السلام وهما لايعلمان أنه إبليس ، فناح عليهما نياحة أحزنتهما فبكيا ، وكان أول من ناح ، فقالا له : ما يبكيك ؟ فقال : أبكى عليكما ، تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعيم والكرامة ، فوقع ذلك فى أنفسهما واغتما لذلك ، وبكى إبليس ومضى : ثم إن إبليس أتاهما بعد ذلك وقد أثر قوله فيهما ، ف(قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى)؟ قال : نعم ، قال : كل من هذه الشجرة شجرة الحنطة ، فقال : نهانى ربى عنها ، ف(قال)إبليس :(ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) فأبى أن يقبل منه ، فأقسم لهما بالله إنه لهما لمن الناصحين ، فاغترا بذلك وما كانا يظنان أن أحدا يحلف بالله كاذبا ، فبادرت حواء إلى أكل الشجرة ، ثم زينت لآدم حتى أكلها .

روى محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط قال : سمعت الحسن بن محمد بن الحسين يقول : سمعت أبى يقول : سمعت جدى يقول : سمعت سعيد بن المسيب يحلف بالله ولا يستثنى ، أن آدم ما أكل من الشجرة وهو يعقل ، ولكن حواء سقته الخمر حتى إذا سكر قادته إليها فأكل ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الخَمْرُ مَجْمَعُ الخَبَائِثِ وأمُّ الذُّنوبِ » ويقال : لما قال الله تعالى لآدم وحواء (لاتقربا هذه الشجرة) قالا نعم لانقربها ولا نأكل منها ، ولم يستثنيا فى قولهما بمشيئة الله تعالى ، فوكلهما الله تعالى إلى أنفسهما حتى أكلا المنهىَّ عنها . وقال : سمعت الحسن بن محمد بن الحسين يقول : سمعت إبراهيم بن الأشعث يقول : سمعت إبراهيم بن أدهم يقول : لقد أورثتنا تلك الأكلة حزنا طويلا . وقال الشبلى : أول الدنّ دردىّ ، هذا أبونا آدم باع ربه بكف من حنطة ، فلما أكل

عن الشجرة المنهى عنها ابتلاه الله بعشرة أشياء : الأولى معاتبته إياهما على ذلك بقوله (أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ) ؛ والثانية الفضيحة ، فإنه لما أصابا الذنب بدت لهما سوآتهما وتهافت عنهما ما كان عليهما من لباس الجنة ، فتحير آدم وصار هاربا فى الجنة فتلقته شجرة العناب ، فأخذت بناصيته وناداه ربه أفرارا منى يا آدم ؟ قال : بلى يارب ولكن حياء منك ، ولذلك قيل : كفى بالمقصر حياء يوم القيامة ؛

ويروى أن آدم لما بدت سوأته وظهرت عورته طاف بأشجار الجنة يسأل منها ورقة يغطى بها عورته ، فزجرته أشجار الجنة حتى رحمته شجرة التين ، فأعطته ورقة ، فطفقا : يعنى آدم وحواء (يخصفان عليهما من ورق الجنة) فكافأ الله التين بأن سوّى ظاهره وباطنه فى الحلاوة والمنفعة ، وأعطاه الله ثمرتين فى كل عام . والثالثة أوهن جلده وصيره مظلما بعد أن كان جلده كله كالظفر وأبقى عليه من ذلك قدرا يسيرا على أنامله ليتذكر بذلك أول حاله . والرابعة أخرجه من جواره ونودى إنه لاينبغى أن يجاورنى من عصانى ، فذلك قوله تعالى (اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ) الآية : يعنى آدم وحواء وإبليس والحية والطاوس . فهبط آدم بسرنديب من أرض الهند ، وقيل على جبل من أرض الهند يقال له نود ، وقيل : واسم . وحواء بجدة بلد من أرض الحجاز ؛ وإبليس بالأبلة من أرض العراق وهى بالبصرة ، وقيل مَشّان . والحية بأصبهان . والطاوس بأرض بابل .

ويقال : إن الحكمة فى إخراج آدم من الجنة أنه كان فى صلبه من لايستحق الولاية ولا يصلح لحظيرة القدس ، فإذا أخرجهم من صلبه أعاده الله إليها خالدا فيها . ويقال إن الله تعالى أخرج آدم من الجنة قبل أن يدخله فيها ، وذلك قوله تعالى (إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً) ولم يقل فى الجنة . أخبرنى نافل بن أذفر بن أحمد بإسناده عن عثمان بن علية قال : سمعت الوضين بن عطاء يذكر أن آدم قال : كنا نسلا من نسل الجنة فسبانا إبليس بالخطيئة إلى الأرض ، فلا ينبغى لنا الفرح فى الدنيا ، ولكن الحزن والبكاء ما دمنا فى دار السباء حتى نردّ إلى الدار التى سبينا منها . وقال الشاعر :

يا ناظرا يرنو بعينى راقدٍ ... ومشاهد الأيام غير مشاهدِ
منتك نفسك وصلة فأبحتها ... سبل الرجاء وهن غير قواصد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى ... درج الجنان بها وفوز العابد
ونسيت أن الله أخرج آدما ... منها إلى الدنيا بذنب واحد

والخامسة : الفُرقة ، فرق بينه وبين حواء مائة سنة هذا بالهند وهذه بجدة ، فجاء كل واحد منهما يطلب صاحبه حتى قرب أحدهما من صاحبه فازدلفا فسميت المزدلفة ، واجتمعا بجمع فسمى جمعا ، وتعارفا بعرفة فى يوم عرفة ، فسمى الموضع عرفات واليوم عرفة . السادسة: العداوة، التى بينهم العداوة والبغضاء كما قال الله تعالى (بعْضُكمْ لبَعض عدوٌّ) فالإنسان عدوّ الحية يشدخ رأسها حيث يراها ، والطاوس عدوه ، والحية عدوته تلدغه إذا أمكنها ، وإبليس عدو لهم جميعا . وفيه إشارة إلى أن الأحباب إذا اجتمعوا وتعاونوا على معصية أعقبت معصيتهم عداوة، كما قال الله تعالى (الأخلاَّءُ يَوْمَئذٍ بَعْضُهمْ لبَعْض عَدُوٌّ إلاَّ المُتَّقينَ) والسابعة : النداء عليهم باسم العصيان قال الله تعالى (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) .

وروى أن إبراهيم عليه السلام تفكر ذات ليلة من الليالى فى أمر آدم فقال : يارب خلقت آدم بيدك ونفخت فيه من روحك وأسجدت له ملائكتك وأسكنته جنتك بلا عمل ، ثم بزلة واحدة ناديت عليه بالمعصية وأخرجته من جوارك من الجنة ، فأوحى الله تعالى إليه : يا إبراهيم أما علمت أن مخالفة الحبيب على الحبيب أمر شديد ؟ والثامنة : تسليط العدو على أولاده ، وهو قوله تعالى (وأجْلبْ عليهمْ بخَيْلكَ ورَجلكَ وشاركْهُم) الآية . والتاسعة: جعل الدنيا سجنا له ولأولاده وابتلاؤه بهواء الدنيا ومقاساة البرد والحر فيها، ولم يكن له بهما عهد لتعوّد هواء الجنة ، وهو كما قال الله تعالى (لايَرَوْنَ فيها شمْساً ولا زَمْهَريراً) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الجَنَّةُ سَجْسَجٌ لاحَرٌّ فيهَا ولا قَرٌّ » .العاشرة التعب والشقاء ، وذلك قوله تعالى (إنَّ هذَا عَدُوٌّ لكَ ولزَوْجكَ فَلا يُخْرِجَنَّكما منَ الجَنَّة فتَشْقَى) فهو أول خلق عرق جبينه من التعب والنصب .

(فصل) وابتليت حواء وبناتها بهذه الخصال، وبخمس عشرة خصلة سواهن : الأولى الحيض ، يروى أنها لما تناولت الشجرة دميت الشجرة ، قال الله تعالى : إن لكِ علَىَّ أن أدميك أنت وبناتك فى كل شهر مرة كما أدميت هذه الشجرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحيض « إنَّ هذَا شَىْءٌ كتبَهُ اللهُ تَعالى علَى بنات آدَمَ » . الثانية: ثقل الحمل . الثالثة: الطلق وألم الوضع ، قال الله تعالى (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً ووَضَعَتْهُ كُرْهاً) وفى الخبر : لولا الزلة التى أصابت حواء كان النساء لم يحضن ولكنّ حليمات ، وكن يحملن سرا ويضعن سرا . الرابعة : نقصان دينها . الخامسة : نقصان عقلها . عن أبى سعيد فى حديث ذكره قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما رأَيْتُ منْ ناقصَات عقْل ودين أذْهَبَ للُبِّ الرَّجُل الحازم منْ إحْداكُنَّ ، فقُلْنَ لهُ : ومَا نُقْصَانُ عقْلنا

ودينِنا يارسولَ الله ؟ قال : أليسَ شهادةُ المرأةِ بنصفِ شهادةِ الرَّجُلِ ، فذلكَ نقصانُ عقلِها ، أوَ ليسَ إذا حاضتِ المرأةُ لمْ تُصلِّ ولمْ تَصُمْ ؟ قلن بلى ، قال : فذلكَ نقصانُ دينِها » . السادسة : أن ميراثها على النصف من ميراث الرجل ، قال الله تعالى (للذَّكَرِ مثلُ حظِّ الأنثيَيْنِ) . السابعة : تخصيصهم بالعدة . الثامنة : جعلهن تحت أيدى الرجال كما قال تعالى (الرِّجالُ قوَّامونَ علَى النِّساءِ) وقال عليه الصلاة والسلام : « استوْصُوا بالنِّساءِ خيْرًا فإنَّهنَّ عوَّار عندَكمْ » . التاسعة : ليس لهن من الطلاق شيء ولا يملكن ذلك وإنما هو للرجال . العاشرة : حرمهن الجهاد . الحادية عشرة : ليس منهن نبى . الثانية عشرة : ليس منهن سلطان ولا حاكم . الثالثة عشرة : لاتسافر إحداهن إلا مع ذى رحم محرم . الرابعة عشرة : لاتنعقد بهن الجمعة . الخامسة عشرة : لايسلم عليهن .

وعاقب إبليس لعنه الله تعالى بعشرة أشياء : أولها : عزله من الولاية ، وكان له ملك الأرض وملك سماء الدنيا وكان خازن الجنة . الثانية : أخرجه من جواره وأهبطه إلى الأرض . الثالثة : مسخ الله صورته فصيره شيطانا بعد ما كان ملكا . الرابعة : غير اسمه وكان اسمه عزازيل فسماه إبليس ، لأنه أبلس من رحمة الله تعالى . الخامسة : جعله إمام الأشقياء . السادسة : لعنه الله . السابعة : نزع منه المعرفة . الثامنة : أغلق عنه باب التوبة . التاسعة : جعله مَرِيدا : أى خاليا من الخير والرحمة . العاشرة : جعله خطيب أهل النار .

وعاقب الحية بخمسة أشياء : قطع قوائمها وأمشاها على بطنها ومسخ صورتها بعد أن كانت أحسن الدواب ، وجعل غذاءها التراب ، وجعلها تموت كل سنة بالشتاء ، وجعلها عدوة بنى آدم ، وهم أعداؤها حيثما يرونها يقتلونها ، وأباح رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلها فى الصلاة وفى حال الإحرام ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « ما سالمْناهُنَّ مُنذُ حارَبْناهُنَّ ، مَنْ تركَ شيْئًا منهُنَّ خيفةً منهُ فليسَ منِّى » يعنى الحيات ، أخبرنا ابن (١) قال : حدثنا عبد الله بن يونس قال : أخبرنا داود عن محمد عن أبى الأعين المعبدىّ عن أبى الأحوص الحسنى ، قال : بينما ابن مسعود يخطب ذات يوم فاذا هو بحية تمشى على الجدار فقطع خطبته ثم ضربها بقضيب حتى قتلها ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مَنْ قتلَ حيَّةً فكأنَّما قتلَ رَجُلاً مُشْرِكاً قدْ حلَّ دَمُهُ » .

الباب السادس : فى حال آدم بعد هبوطه إلى الأرض وما كان منه

قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما أهبط آدم إلى الأرض على جبل سرنديب وذكر أن ذروته أقرب من ذرا جبال الأرض إلى السماء وكانت رجل آدم على الجبل ورأسه

---

(١) بياض بالأصل .

فى السماء يسمع دعاء الملائكة وتسبيحهم ، وكان آدم يأنس بذلك فهابته الملائكة واشتكت إلى ربّها ، فحطت قامته إلى ستين ذراعا ، وكان قبل ذلك يمس رأسه السحاب ، فصلع وأخذ أولاده الصلع ، فلما نقص من قامته ذلك قال : رب كنت جارك فى دارك ليس لى ربّ سواك ولا رقيب دونك ، آكل فيها رغَدا وأسلك حيث أحببت ، فأهبطتنى إلى هذا الجبل ، وكنت أسمع أصوات الملائكة وأراهم كيف يحفون بعرشك وأجد ريح الجنة وطيبها ، ثم أهبطتنى إلى الأرض وحططتنى إلى ستين ذراعا ، فقد انقطع عنى الصوت والنظر وذهبت عنى رائحة الجنة ، فأجابه الله تعالى « بمعصيتك يا آدم » فقال آدم: ذلك بك يا رب .

وقال وهب بن منبه : لما أهبط الله آدم من الجنة واستقر جالسا على الأرض عطس عطسة فسال أنفه دماً ، فلما رأى سيلان الدم من أنفه ولم يكن رأى قبل ذلك دماًهاله ما رأى ولم تشرب الأرض الدم ، فاسود على وجهها كالُحمم ، ففزع آدم من ذلك فزعا شديدا ، فذكر الجنة وما كان من الراحة فخرّ مغشيا عليه وبكى أربعين عاما ، فبعث الله إليه ملكا فسح ظهره وبطنه ، وجعل يده على فؤاده فذهب عنه الحزن والغشى ، فاستراح مما كان يصيبه من الغم . قال شهر بن حوشب : بلغنى أن آدم عليه الصلاة والسلام لما أهبط إلى الأرض مكث ثلثمائة سنة لايرفع رأسه حياء من الله تعالى . وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : بكى آدم وحواء على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتى سنة ، ولم يأكلا ولم يشربا أربعين سنة ، ولم يقرب آدم حواء مائة سنة ، فلما أراد الله تعالى أن يرحم عبده آدم لقنه كلمات كانت سبب قبول توبته كما قال تعالى (فَتلقّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كلِماتٍ فَتابَ عليهِ) الآية ؛ واختلفوا فى تلك الكلمات ما هى ؟ فقال ابن عباس : هى أن آدم عليه السلام قال : يا رب ألم تخلقنى بيدك ؟ قال بلى ، قال : ألم تنفخ فىّ من روحك ؟ قال بلى ، قال : ألم تسبق لى رحمتك قبل غضبك ؟ قال بلى ، قال : ألم تسكنى جنتك ؟ قال بلى ، قال : فلم أخرجتنى منها ؟ قال : لشؤم معصيتك ، قال : أى رب أرأيت إن أنا تبت وأصلحت ترجعنى إلى الجنة فهى الكلمات . وقال عبد الله بن عمر : إن آدم قال : يا رب أرأيت ما أتيته شىء ابتدعته من تلقاء نفسى ، أو شىء قدرته علىّ قبل أن تخلقنى بيدك ؟ قال : لابل شىء قدرته عليك قبل أن أخلقك ، قال : يا رب فكما قدرته علىّ فاغفرلى . وقال محمد بن كعب القرظى : هنّ قول: لاإله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك ، عملت سوءا وظلمت نفسى ، فتب علىّ إنك أنت التوّاب الرحيم ، لاإله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك، ربّ عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم ،لاإله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك، رب عملت سوءا وظلمت نفسى فارحمنى إنك أنت خير الراحمين. وقال سعيد بن جبير والحسن ومجاهد وعكرمة : هى قوله تعالى (رَبّنا ظَلَمْنا أنفُسَنا)

الآية ، ثم أنزل الله تعالى ياقوتة من يواقيت الجنة ووضعها موضع البيت على قدر الكعبة لها بابان : باب شرقيّ ، وباب غربيّ ، وفيها قناديل من نور ، ثم أوحى الله تعالى إلى آدم : إن لى حرما بحيال عرشى فأته فطف به كما يطاف حول عرشى ، وصلّ عنده كما يصلى عند عرشى ، فهنالك أستجيب دعاءك ، فانطلق آدم من أرض الهند إلى أرض مكة لزيارة البيت ، وقيض الله له ملكا يرشده ، فكان كل موضع يضع عليه قدمه عمرانا وما تعداه مفاوز وقفارا . فلما وقف بعرفات وكانت حواء طلبته وقصدته من جدة ، فالتقيا بعرفات يوم عرفة ، فسمي ذلك الموضع عرفات ، فلما انصرفا إلى منى قيل لآدم تمنّ ، فقال : أتمنى المغفرة والرحمة ، فسمى ذلك الموضع منى وغفر ذنبهما وقبل توبتهما ، ثم انصرفا إلى أرض الهند . قال مجاهد : حدثنى ابن عباس : أن آدم حج من أرض الهند : أربعين حجة على رجليه فقيل لمجاهد : يا أبا الحجاج ألا كان يركب ؟ قال : وأى شيء كان يحمله ، فوالله إن خطوته لمسيرة ثلاثة أيام . وقال ابن عمر : لما حج آدم عليه السلام البيت وقضى المناسك كلها تلقته الملائكة يهنئونه بالحج وقبول التوبة ، فقالوا بَرَّ حَجُّكَ يا آدم ، فداخله من ذلك شيء ، فلما رأت الملائكة منه ذلك قالوا : يا آدم إنا قد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام فتقاصرت إلى آدم نفسه . وقال أبو العالية : خرج آدم من الجنة ومعه عصا من شجرة الجنة وعلى رأسه تاج من شجر الجنة ، فلما صار إلى الأرض يبس ذلك الإكليل وتحاتّ الورق فنبت منه أنواع الطيب ، فلذلك كان أصل كل طيب بالهند . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : نزل آدم من الجنة ومعه طيب ، فزرع آدم شجر الهند فى أوديتها ، وكان أصله من الجنة ، فامتلأ ماهنالك طيبا ، فمن ثم يؤتى بالطيب من الهند وأصله من ريح آدم عليه السلام ، وريحه من ريح الجنة ، وأنزل الله معه الحجر الأسود وكان أشد بياضا من الثلج ، وعصا موسى عليه السلام وكانت من آس الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى ، وقيل كانت من البان .

وروى سفيان عن منصور بن معمر عن ربعيّ بن خراش عن حذيفة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لما أهبط آدم من الجنة إلى أرض الهند وعليه ذلك الورق الذى كان لباسه من الجنة ، فيبس وتطاير بأرض الهند ، فعبق شجر العود والصندل والمسك والعنبر والكافور من ذلك الورق ، فقالوا يا رسول الله : المسك هو من الدواب أم من الشجر ؟ قال : أجل ، إنما هى دابة تشبه الغزال رعت من ذلك الشجر ، فصير الله المسك فى صُرتها ، فإذا رعت الربيع جعله الله مسكا وتساقط فينتفع به الآدميون ، قالوا : يا رسول الله ، فأين يقع ؟ قال : قال لى جبريل فى ثلاث كور لايكون فى شيء من الأرض إلا فيها : أرض الهند ، وأرض السُّغْد [1] ، وأرض التُّبَّت ، قالوا يا رسول الله العنبر إنما هى دابة فى البحر ؟ قال : أجل كانت هذه الدابة بأرض الهند ترعى فى البر ، فبعث

(١) فى التاج : السغد : هى بساتين نزهة ، وأماكن مشجرة بسمرقند . قاله ابن الأثير ، وهو أحد متنزهات الدنيا على ما حكاه المؤرخون ، من فتوح قتيبة بن مسلم .

الله إليها جبريل عليه السلام فساقها وما معها ، فقذفها فى البحر ، وهى أعظم ما تكون من الدواب غلظها ألف ذراع ، وإنما ترمى به كما ترمى البقر أخثاءها ، فربما يخرج من جوفها العنبرة ، وزنها ألف رطل وخمسمائة رطل ونحو ذلك . ثم إن آدم وجد ضَرَبانا فى رأسه وجسده ، فشكا ذلك إلى الله تعالى ، فنزل عليه جبريل بشجرة الزيتون ، فأمره أن يأخذ ثمرها ويعصره ، فقال : إن فى هذه الشجرة شفاء من كل داء إلا السام ، ودلَّه جبريل عليه السلام على شجرة الإهليلج الأبيض والأسود والأصفر ، فقال له : إن ربك يقرئك السلام ويقول لك : كل من هذه ، فإنك لن تتداوى أنت وذريتك بدواء أفضل منها فيها شفاء من كل داء ، إن بقى فى جوفك لم تخف منه ، وإن خرج أخرج الداء كله وأبرأه ، فأكله آدم فبرئ .

قال أهل الأخبار : إن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض وأصاب جسده أذى الهواء وأحسّ به اشتكى وحشة بجسده ، وكان قد اعتاد هواء الجنة ، فشكا ذلك إلى جبريل ، فقال : إنك تشكو العرى ، فأنزل الله عليه ثمانية أزواج المذكورة فى سورة الأنعام (من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين) ، ثم أمره أن يذبح كبشا منها فذبحه ثم أخذ صوفه فغزلته حواء ونسجه آدم ، فجعل منه جبة لنفسه وجعل لحواء درعا وخمارا ، لبساه وبكيا على ما فاتهما من لباس الجنة ، فحواء أول من غزل ، وآدم أول من نسج ولبس الصوف .

عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : « جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ما تقول فى حرفتى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما حرفتك ؟ فقال : أنا رجل حائك ، قال : حرفتك حرفة أبينا آدم عليه السلام . وكان أول من نسج آدم ، وكان جبريل يعلمه وآدم تلميذه ثلاثة أيام ، وإن الله عزّ وجلّ يحب حرفتك ، فإنها حرفة يحتاج إليها الأحياء والأموات ، فمن قال منكم القبيح فأبونا آدم خصمه ، ومن أنف منكم فقد أنف من آدم ، ومن لعنكم فقد لعن آدم ، ومن آذاكم فقد آذى آدم ، وهو خصمهم يوم القيامة ، فلا تخافوا وأبشروا فإن حرفتكم حرفة مباركة ، ويكون آدم قائدكم إلى الجنة » .

وعن أبى أمامة الباهلىّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عليكم بلباس الصوف تجدون قلة الأكل ، عليكم بلباس الصوف تعرفون به فى الآخرة ، وإن النظر فى الصوف ليورث القلب التفكر ، والتفكر يورث الحكمة ، والحكمة تجرى فى الجوف مجرى الدم ، فمن كثر تفكره قلّ طمعه ، وكل من قل تفكره كثر طمعه وعظم بدنه وقسا قلبه ، والقلب القاسى بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار » .

قالوا : ثم إن آدم عليه الصلاة والسلام بعد ستر عورته اشتكى ، فقال له جبريل : ما الذى أصابك ؟ فقال : أجد فى نفسى قلقا واضطرابا لا أجد إلى العبادة منه سبيلا ، وإنى

أجد بين لحمي وجلدي دبيبا كدبيب النمل ، فقال له جبريل : ذلك يسمى الجوع ، قال : وكيف الخلاص من ذلك ؟ قال : سوف أهديك إلى ذلك، فغاب عنه ثم جاء بثورين أحمرين والعلاة : يعني السندان والمطرقة والمنفخة والكلبتين ، ثم جاءه بشرر من جهنم ، فوقع في يد آدم ، فطار منه شرارة فوقعت في البحر ، فدخل جبريل إليها وأتى بها ، فدفعها إلى آدم فطارت منه أيضا حتى فعل ذلك سبع مرات ، فذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم « إِنَّ نَارَكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ بَعْدَ أَنْ غُسِلَتْ بِالْمَاءِ سَبْعَ مَرَّاتٍ » . فلما جاء بها في الثامنة نطقت النار فقالت : يا آدم إني لا أطيعك ، وإني منتقمة من عصاة أولادك يوم القيامة ، فقال جبريل : يا آدم إنها لن تطيعك و لكني أسجنها لك ولأولادك ، ليكون لك ولأولادك فيها المنافع ، فسجنها في الحجر والحديد ، فذلك قوله تعالى (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ءَأَنْتُمْ) ... الآية . ويروى أن آدم لما أخذ النار احترقت يده ، فخلى عنها ، فقال لجبريل : مالها تحرق يدي ولا تحرق يدك ؟ قال : لأنك عصيت الله وإني لم أعصه ، ثم أمره جبريل باتخاذ آلة الحرث ، فهو أول من عمل الحديد ثم أتاه بصُرّة من حنطة فيها ثلاث حبات من الحنطة ، فقال يا آدم : لك حبتان ولحواء حبة ، فلذلك صار للذكر مثل حظ الأنثيين ، وكان وزن الحبة مائة ألف درهم وثمانين ألف درهم ، فقال آدم : ما أصنع بذلك كله ؟ فقال : يا آدم خذها فإنها سبب سدّ جوعتك وبها أخرجتَ من الجنة وبها تحيا في الدنيا وبها تلقى الفتنة أنت وأولادك إلى أن تقوم الساعة ، ثم أمره أن يشد الثورين ويكسر من الخشب ويضعه عليهما ففعل ذلك وجعل يحرث الأرض عليهما ، فهو أول من حرث الأرض ، وبكى الثوران على ما فاتهما من راحات الجنة ، فقطرت دموعهما على الأرض فنبت منها الجاورس ، وبالا فنبت منه الحمص ، وراثا فنبت منه العدس ، ثم كسر جبريل تلك الحبوب حتى كثرها ثم بذرها ، فنبتت من ساعته فقال آدم عليه الصلاة والسلام : آكله ؟ فقال : لا، اصبر حتى يدرك ، فلما سنبل وأفرك قال : آكله ؟ قال لا ، وعلمه الحصاد ، فلما حصد قال : آكله قال لا ، وعلمه الدّياس ، فلما داس قال : آكله ؟ قال : لا ، وعلمه التنقية ، فلما نقاه قال : آكله ؟ قال : لا ، وجاءه بحجرين وعلمه الطحن ، فلما طحنه قال : آكله ؟ قال : لا ، وعلمه العجن ، ويقال إن آدم عليه الصلاة والسلام لما نخل دقيقه أمره جبريل أن يبث النُّخالة في الأرض المستحصدة ، فنبت فيها الشعير . فلما عجن قال آكله ؟ قال : لا ، فأمره أن يحفر حفيرة ويضع الحطب فيها ويوقد عليها نارا ، ففعل ذلك ، ثم وضع عجينه عليه ، فخبز حتى جعله خبز مَلَّة ، فهو أول من خبز ، فلما أخرجه قال : آكله ؟ قال : لا ، حتى يبرد ، فلما برد أكله ، فلما أكله دمعت عينا آدم عليه السلام وقال : ما هذا التعب والنصب ؟ قال له : هذا وعد الله الذي وعدك ، فذلك قوله تعالى (إن هذا عدوّ لك ولزوجك فلا يخرجنكما

من الجنة فتشقى) أما آن لك أن تأكل من كدّ يمينك وعرق جبينك أنت وذريتك ؟ فلما استوفى آدم من الطعام شكا من بطنه ولم يدر ما هو ، فشكا ذلك إلى جبريل عليه السلام ، فقال : ذلك العطش ، قال : فبم أسكنه ؟ فغاب عنه ثم عاد إليه ومعه المعول وقال له : احفر الأرض ، فما زال يحفر حتى بلغ إلى ركبتيه ، فنبع الماء من تحت رجليه ماء زلالا أبرد من الثلج وأحلى من العسل ، و قال : يا آدم اشرب منه شربة ، فشربها فاطمأن ، ثم إنه بعد ذلك وجد تشكيا أشد من الأول والثانى ، فقال لجبريل : ماهذا الذى أجده ؟ قال : لاأدرى ، فبعث الله إليه ملكا ففتق قبله ودبره ، ولم يكن قبل ذلك للطعام مخرج ، فلما خرج منه ما آذاه ووجد ريحه بكى على ذلك سبعين سنة .

قالوا : لما أنزل الله إلى آدم الحديد نظر إلى قضيب من حديد نابت على الجبل فقال : هذا من هذا ، فجعل يكسر أشجارا قد عتقت ويبست ، فأوقد على ذلك الحديد حتى ذاب وكان أول شيء ضرب منه مدية ، فكان يعمل بها ثم ضرب التنور الذى ورثه نوح عليه الصلاة والسلام ، وهو الذى فار بالعذاب بالهند .

قالوا : لما أهبط الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام أخرج معه من الجنة قطعة من ذهب فلذلك يبقى الذهب لايبلى بالثرى ولا يصدأ من الندى ولا تنقصه الأرض ولا تأكله النار، لأنه من الجنة حمل .

قيل إن الله تعالى زوّد آدم حين أهبطه إلى الأرض من الثمار ثلاثين نوعا : عشرة منها فى القشور ، وعشرة لها نوى ، وعشرة لاقشور لها ولا نوى . فأما التى هى فى القشور ؛ فالجوز واللوز والفستق والبندق والخشخاش والبلوط والشاه بلوط والنارنج والرمان والموز ، وأما التى لها نوى : فالخوخ والمشمش والإجاص والعناب والفرسك والرطب والغبيراء والنبق والزعرور والمقل . وأما التى لاقشر لها ولا نوى : فالتفاح والسفرجل والكمثرى والعنب والتوت والتين والأترج والخرنوب والخيار والبطيخ .

وقال ابن جريج : أهبط الله تعالى آدم عليه السلام ومعه آنية فيها بزر عريشة من عنب وريحانة ، فغرس آدم العريش . فلما طلعت جاء إبليس فسرق ثمرها ، فقال له آدم : ويلك أخرجتنى من الجنة ولا تريد أن تجعل لى رزقا ؟ فقال له : إن لى فيها حقا ، قال : وما حقك ؟ قال : نشوها ولكم سائرها .

وقال ابن عباس : هبط آدم من الجنة بثلاثة أشياء : بالآسة وهى سيدة رياحين الدنيا ، وبالسنبلة وهى سيدة طعام أهل الدنيا ، وبالعجوة وهى سيدة ثمار الدنيا .

وروى ابن عباس وعائشة وأبوهريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنَّ العَجْوَةَ مِنْ غِراسِ الجَنَّةِ وفِيها شِفاءٌ وإنَّها تِرْياقٌ أوَّلُ البُكْرَةِ وعَلَيْكُمْ بالتَّمرِ البَرْنِىِّ فَكُلُوهُ فإنَّهُ يُسَبِّحُ فى شَجَرِهِ ويَسْتَغْفِرُ لآكِلِهِ » :

وقال ابن عباس : لما هبط آدم إلى الأرض كان أول شيء أكله من الثمار التين . وقال كعب: أول من ضرب الدينار والدرهم آدم، وقال: لاتصلح المعيشة إلا بهما . وقال وهب ابن منبه : إن آدم لما أهبط إلى الأرض ورأى سعتها ولم ير فيها أحدا غيره ، فقال : يا رب أما لأرضك هذه من عامر يسبحك ويحمدك ويقدسك غيرى ، قال الله تعالى : سأجعل فيها من ولدك من يسبحني ويحمدنى ويقدسنى ، وسأجعل فيها بيوتا تُرفع بذكرى ويسبح فيها خلقى ويذكر فيها اسمى ، وسأجعل من ولدك يا آدم من يعبدنى حق عبادتى ، وسأجعل من تلك البيوت بيتا أخصه بكرامتى وأُوثره باسمى ، فأسميه بيتى وأنطقه بعظمتى وعليه وضعت جلالى ، وأجعل ذلك البيت حرما آمنا يحرم بحرمته ما حوله وما فوقه وما تحته ، فمن حرّمه بحرمته استوجب بذلك كرامتى ، ومن أخاف أهله فيه فقد خفر ذمتى وأباح حرمتى واستوجب بذلك عذابى وعقابى ، وسأجعل هذا البيت أول بيت وضع للناس ببطن مكة مباركا يأتونه شُعْثا غُبرا (وعلى كلِّ ضامرٍ يأْتِينَ منْ كلِّ فجٍّ عميقٍ) يرجُّون بالتلبية رجيجا ويضجون بالبكاء ضجيجا ويعجون بالتكبير عجيجا ، فمن اعتمره لايريد غيره فقد وفد إلىَّ وزارنى واستضافنى ، فحق على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه وأن يسعف كلا بحاجته ؛ يا آدم تعمره ما دمت حيا ، ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن . ثم إن الله تعالى مسح ظهر آدم بيده وأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة كالذّر بنعمان من عرفة: قرية بمكة ، ثم أخذ عليهم الميثاق وكلمهم (وقالَ: ألَسْتُ بربِّكم ؟ قالوا بلى شهِدْنا أنْ تقولوا يومَ القيامةِ إنَّا كُنَّا عنْ هذا غافلِينَ) . وسئل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن هذه الآية فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنَّ اللهَ خلقَ آدمَ ومسحَ ظهْرهُ ، فاستخْرجَ ذُرِّيَّةً منهُ وقالَ : خلقْتُ هؤلاءِ للجنَّةِ وبعملِ أهلِ الجنَّةِ يعملُونَ ، ثمَّ مسحَ ظهْرهُ فاستخْرجَ ذُرِّيَّةً ، وقالَ : خلقْتُ هؤُلاءِ للنَّارِ ، وبعملِ أهلِ النَّارِ يعملُونَ ، فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل ؟ فقال : إنَّ اللهَ تعالى إذا خلقَ العبْدَ للجنَّةِ استعْملهُ بعملِ أهلِ الجنَّةِ فيدخُلُ الجنَّةَ ، وإذا خلقَ العبْدَ للنَّارِ استعْملهُ بعملِ أهلِ النَّارِ حتى يموتَ على ذلكَ فهوَ منْ أهْلِ النَّارِ » .

وقال وهب بن منبه رحمه الله : أوحى الله إلى آدم بعد ما تاب عليه : يا آدم، إنى أجمع لك العلم كله فى أربع كلمات : واحدة لى ، وواحدة لك ، وواحدة بينى وبينك ، وواحدة فيما بينك وبين الناس . فأما التى لى : فتعبدنى لاتشرك بى شيئا . وأما التى لك : فأجزيك بعملك أحوج ماتكون إليه . وأما التى بينى وبينك : فمنك الدعاء ومنى الإجابة . وأما التى بينك وبين الناس : فأن ترضى لهم ما ترضى لنفسك ، فقال آدم : يارب شغلت بطلب المعيشة والرزق عن التسبيح والعبادة ، ولست أعرف ساعات التسبيح فى أيام الدنيا ، فأهبط الله تعالى إليه

ديكا فأسمعه أصوات الملائكة بالتسبيح ، فهو أول داجن اتخذه آدم من الخلق ، فكان الديك إذا سمع التسبيح فى السماء سبح فى الأرض فيسبح آدم بتسبيحه .

ويروى أن الله تعالى أوحى إلى آدم لما أراد أن يهبطه إلى الأرض : يا آدم إنى منزلك أنت وذريتك دارا مبنية على أربع قواعد : أما الأولى فإنى أقطع ما تصلون : وأما الثانية فانى أفرق ما تجمعون . وأما الثالثة فإنى أخرب ما تبنون . والرابعة أميت ما تلدون ،ولذلك قيل :

لدوا للموت وابنوا للخراب وكلكمُ يصير إلى ذهاب

الباب السابع : فى ذكر هبوط إبليس لعنه الله إلى الأرض وحاله فيها بعد اللعنة

قال الله تعالى (قالَ اهْبِطوا بَعْضُكمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) الآية .

قال الشَّعبىّ : أنزل إبليس من السماء عليه عمامة ليس تحت ذقنه منها شىء ، أعور ، فى إحدى رجليه نعل .

وروى ابن المبارك عن خالد عن حميد بن هلال : إنما كره أن يتخصر فى الصلاة لأن إبليس هبط متخصرا .

وروى حماد عن ثابت وحميد عن عبد الله بن عبيد بن عمير : أن إبليس قال : يا رب أخرجتنى من الجنة من أجل آدم ، وإنى لاأستطيعه إلا بسلطانك ، قال : فإنك مسلط عليه ، قال : يا رب زدنى ، قال : لايولد له ولد إلا ولد لك مثلاه ، قال : يا رب زدنى ، قال : صدورهم مساكن لك وتجرى منهم مجرى الدم ، قال : يا رب زدنى ، قال : (وأجْلِبْ عليهِمْ بخيْلِكَ ورَجِلِكَ ، وشارِكْهُمْ فى الأمْوالِ والأوْلادِ وعِدْهُمْ ، ومَايعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إلاَ غرُورًا) . قال آدم : يا رب قد سلطته علىّ وإنى لاأمتنع منه إلا بك ،قال : لايولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قُرناء السوء ، قال : يا رب زدنى ، قال : الحسنة بعشر أمثالها وأزيدها ، والسيئة بمثلها واحدة وأمحوها ، قال : يا رب زدنى ، قال (قُلْ يا عِبادِىَ الّذينَ أسْرَفُوا على أنْفُسِهِمْ لاتَقْنَطوا منْ رَحْمَةِ اللهِ)... الآية ، قال : يا رب زدنى ، قال : التوبة لاأنزعها من ولدك ما كانت الروح فيهم ، قال : يا رب زدنى ، قال : أغفر ولا أبالى ، قال : حسبى .

وروى أن إبليس قال : يا رب لعنتنى وأخرجتنى من الجنة وجعلتنى شيطانا رجيما مذموما مدحورا ، وبعثت فى بنى آدم الرسل ، وأنزلت عليهم الكتب ، فما رسلى ؟ قال : الكَهَنة ، قال : فما كتبى : قال: الوشم ، قال : فما حديثى ؟ قال : حديثك الكذب ، قال فما قراءتى ؟ قال : قراءتك الشعر ، قال : فما مُؤَذِّنى ، قال : مؤذنك المِزمار ، قال : فما مسجدى ؟ قال : مسجدك السوق ، قال : فما بيتى ؟ قال : بيتك الحمام ، قال : فما طعامى ؟ قال : طعامك ما لم يذكر اسمى عليه ، قال : فما شرابى ؟ قال : شرابك كل مسكر ، قال : فما مصايدى ؟ قال : مصايدك النساء .

وروى مقاتل وجويبر عن الضحاك عن ابن عباس : أن إبليس لما خرج من الجنة ألقى الله عليه الحرقة والغُلمة ، فنكح نفسه فباض أربع بيضات فمنها ذريته .

وروى إسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق : بلغنى أن إبليس تزوج الحية التى دخل فى فيها حين كلم آدم عليه السلام بعد ما أخرج من الجنة فمنها ذريته .

الباب الثامن : فى ذكر ما روى من الأخبار فيمن تراءى له إبليس فرآه عيانا وكلمه شفاها

يروى أن آدم التقى بإبليس فى أرض فلاة ، فلامه على صنيعه وقال له : يا ملعون أى شىء هذا الذى أحللت بى ، غررتنى وأخرجتنى من الجنة ، وفعلت بى ما فعلت ، قال : فبكى إبليس وقال : يا آدم إنى فعلت بك ما تقول وأنزلتك هذه المنزلة ، فمن فعل بى ما أنا فيه وأحلنى هذه المنزلة ؟

ويروى أن إبليس تصور لفرعون فى صورة الإنس بمصر فى الحمام، فأنكره فرعون ، فقال له إبليس : ويحك أما تعرفنى ؟ فقال : لا ، قال : فكيف وأنت خلقتنى ، ألست القائل : أنا ربكم الأعلى ؟ .

ويروى أن سليمان عليه الصلاة والسلام سأل إبليس فقال : أى الأعمال أحبّ إليك وأبغض إلى الله تعالى ، فقال : لولا منزلتك عند الله تعالى ما أخبرتك ، إنى لست أعلم شيئا أحبّ إلىّ وأبغض إلى الله تعالى من استغناء الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة .

ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « مامِنْ آدمىّ إلاّ وَقدْ عَمِلَ خَطيئةً أوْ همّ بِها إلاّ يَحْيى بْنَ زَكَرِيّاَ ، فإنّه ما عَمِلَ خَطِيئةً ولا همّ بِها ، ولقَدْ قال : رَبّ أرِنى إبْليسَ كما هُوَ ، واعزِمْ عليه أنْ لايكتُمَنى شيْئا سألتُهُ عنه ، فأوْحَى اللهُ تَعالى إلى إبليسَ أنِ ائْتِ عَبْدى يَحْيى بْنَ زَكَرِيا كما هَبَطْتَ إلى الأرْضِ ولا تكْتُمه شيْئاً يسألُكَ عنهُ ، فأتاهُ وقالَ : يا يحْيى أنا إبلِيسُ أمَرنى ربى أنْ آتِيَكَ كما هَبَطْتُ إلى الأرْضِ ، فنظرَ إليهِ يَحْيى فإذا على رأسِهِ خَطاطِيفُ تطيرُ وحِقْواهُ مخفوفتانِ بأكْوارٍ : كُورٍ هَهنا وكورٍ هَهنا ، وفى رِجلَيْهِ خلاخِيلُ ، فقالَ ما هذهِ الخَطاطيفُ الّتى تطيرُ على رأسِكَ ؟ قال : بِها أخْطَفُ عقُولَ بنى آدمَ ، فقالَ : فَما هذهِ الخَلاخيلُ الّتى فى رِجلَيْكَ ؟ قالَ أُحرّكها لبنى آدمَ حتّى يُغَنّى أوْ يُغَنّى له ، قال : فأىُّ ساعةٍ أنْتَ على ابْنِ آدمَ أقْدَرُ ؟ قال حينَ يمتلئُ شِبعاً وَرِيّاً ، قال : فَهَلْ وَجَدْتَ فى نَفْسِى شيْئاً ؟ قال : لا ، قال : ولا على حالٍ ؟ قالَ : نعمْ قُدّمَ إليكَ طَعامُكَ ذاتَ ليلَةٍ وكُنْتَ قدْ صُمْتَ فشهّيْتُهُ إليكَ حتّى أكلتَ أكثَرَ منْ عادَتِكَ فتثاقلْتَ عنْ وِرْدِكَ وعبادتِكَ ، فقالَ يَحْيى : لاجرَمَ لاأشْبَعُ أبداً ، فقالَ إبلِيسُ : لاجرَمَ لاأنْصَحُ آدمِيّاً أبداً » .

وقيل لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذوا فى جهازه وخرج الناس وخلا الموضع ، قال ابن عباس : قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لما وضعته صلى الله عليه وسلم على المغتسل ، إذا بهاتف يهتف من زاوية البيت : يا علىّ لاتغسلوا محمدا فإنه طاهر مطهر ، قال : فوقع فى قلبى من ذلك شىء ، وقلت : ويلك من أنت فإن النبى صلى الله عليه وسلم أمرنا بهذا ، وهذه سنته ؟ وإذا بهاتف آخر يهتف بأعلى صوته : غسله يا علىّ فإن الهاتف الأول كان الشيطان حسد محمدا صلى الله عليه وسلم أن يدخل قبره مغسلا ، قال علىّ : جزاك الله خيرا ، قد أخبرتنى أن ذلك إبليس ، فمن أنت ؟ قال : أنا الخضر ، حضرت جنازة محمد صلى الله عليه وسلم .

ويحكى أن قوما من بنى إسرائيل تراءى لهم إبليس ، فقالوا له : قف موقفا كنتَ تقفه بين يدى الله تعالى حسبما كنت تقف قبل أن عصيت ربك، فقال : إنكم لاتطيقون رؤية ذلك فألحوا عليه ، فوقف وقفة ، فلما نظروا إليه وإلى خشوعه وخضوعه ماتوا عن آخرهم .

ويروى أن رجلا كان يلعن إبليس كل يوم ألف مرة ، فبينما هو ذات يوم نائم إذ أتاه شخص فأيقظه ، وقال : قم فإن الجدار ها هو يسقط ، فقال له : من أنت الذى أشفقت علىّ هذه الشفقة ؟ فقال له أنا إبليس ، فقال : كيف هذا وأنا ألعنك كل يوم ألف مرة ، فقال : هذا لما علمت من محل الشهداء عند الله تعالى ، فخشيت أن تكون منهم فتنال معهم ما ينالون .

الباب التاسع : فى قصة قابيل وهابيل

قال الله تعالى (واتْلُ عَلَيهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدمَ بالحَقّ إذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا) إلى آخر القصة .

قال أهل العلم بقصص النبيين وأخبار الماضين : إن حواء كانت تلد لآدم توءمين فى كل بطن غلاما وجارية ، إلا شيثا فإنه ولدته منفردا ، وكان جميع من ولدته حواء أربعين من ذكر وأنثى فى عشرين بطنا : أولهم قابيل وتوأمته إقليما ، وآخرهم عبد المغيث وتوأمته أمة المغيث ، ثم كثّر الله فى نسل آدم كما قال (يا أيُّها النَّاسُ اتَّقوا رَبَّكُمُ الَّذى خلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ) . . . الآية .

قال ابن عباس : لم يمت آدم حتى رأى من ولده وولد ولده أربعين ألفا ، ورأى آدم فيهم الزنا وشرب الخمر والفساد .

واختلف العلماء فى وقت مولد قابيل وهابيل ؛ فقال بعضهم : غشى آدم حواء بعد مهبطهما إلى الأرض بمائة سنة ، فولدت له قابيل وتوءمته « إقليما » فى بطن ، ثم هابيل وتوءمته « لبودا » فى بطن واحد .

وقال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول : إن آدم كان يغشى حواء فى الجنة قبل أن تهبط إلى الأرض، فحملت له بقابيل وتوءمته ، فلم تجد عليهما وَحَمًا ولا

نصبا ولا طلقا حين ولدتهما ولم تر معهما دما لطهارة لبنه، فلما هبطا إلى الأرض واطمأنا بها تغشاها فحملت بهابيل وتوءمته لبودا ، فوجدت فيها الوحم والنصب والطلق والدم، حتى إذا شب أولاده زوّج غلام هذا البطن جارية البطن الآخر ، وزوّج جارية هذا البطن غلام البطن الآخر ، وكان الرجل منهم يتزوج أيّ أخواته شاء إلا توءمته التي ولدت معه ، فإنها لاتحل له ، وذلك أنه لم يكن نساء يومئذ إلا أخواتهم وأمهم حواء . فلما ولد قابيل وتوءمته إقليما فى بطن واحد، وهابيل وتوءمته لبودا فى بطن واحد، وكان بينهما سنتان فى قول الكلبي ، وأدركوا أمر الله تعالى أن ينكح لبودا أخت هابيل قابيل ، وينكح هابيل إقليما أخت قابيل ، وكانت أخت قابيل من أجمل النساء وأحسنهن خلقا ، فذكر آدم ذلك لولده هابيل فرضى ، وسخط قابيل وقال: هى أختى ولدت معى فى بطن ، وهى أحسن من أخت هابيل، فأنا أحق بها ونحن من أولاد الجنة وهما من أولاد الأرض، فأنا أحق بأختى ، فقال له أبوه : إنها لاتحل لك ، فأبى أن يقبل ذلك منه وقال : إن الله تعالى لم يأمره بذلك وإنما هو من رأيه ، فقال لهما آدم : قرّبا قربانا فأيكما يقبل قربانه فهو أحق بها .

وقال معاوية بن عمار : سألت جعفرا الصادق أكان آدم زوّج ابنته من ابنه ؟ فقال : معاذ الله ، لو فعل ذلك آدم لما رغب عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا كان دين آدم إلا دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، إن الله تعالى أهبط آدم وحواء إلى الأرض وجمع بينهما ، وولد له بنت فسماها عناق ، فبغت ، وهى أول من بغى فى الأرض ، فسلط الله عليها من قتلها ، فولد لآدم على أثرها قابيل ثم ولد له هابيل ، فلما أدرك قابيل أظهر الله تعالى جنية من الجن يقال لها عمالة فى صورة إنسية وخلق لها رحما ، وأوحى الله إلى آدم أن زوّجها من قابيل فزوجها منه ، فلما أدرك هابيل أهبط الله إلى آدم حوراء فى صورة إنسية وخلق لها رحما وكان اسمها تركة ، فلما نظر إليها هابيل ورمقها أوحى الله إلى آدم أن زوّجها من هابيل ففعل ، فقال قابيل : يا أبت ألست أكبر من أخى وأحق بما فعلت به منه ؟ فقال : يا بنيّ إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، فقال لا ، ولكنك آثرته على بهواك ، فقال له : إن كنت تريد أن تعلم ذلك فقربا قربانا فأيكما يقبل قربانه فهو أولى بها من صاحبه . قالوا : وكانت القرابين حينئذ إذا قبلت نزلت نار من السماء فأكلتها ، وإذا لم تقبل لم تنزل نار لأكلها وتأكلها السباع ، فخرجا ليقربا ، وكان قابيل صاحب زرع ، فقرب صُبْرة من الطعام من أردإ زرعه، وأضمر فى نفسه ما أبالى أيقبل منى أم لا، لايتزوج أختى أبدا ، وكان هابيل راعيا صاحب ماشية ، فقرب كبشا سمينا من خيار ماشيته ولبنا وزبدا ،وأضمر فى نفسه الرضا بالله والتسليم لأمره . وقال إسماعيل بن رافع إن هابيل نتج له كبش فى غنمه ، فلما كبر لم يكن له مال أحب إليه منه ، وكان يحمله على ظهره ، فلما أُمر بالقربان قربه . قال: فوضعا قربانهما على الجبل فنزلت نار من السماء فأكلت الكبش

والزبد واللبن ، ولم تأكل من قربان قابيل حبة لأنه لم يكن بزاكى القلب ، وقبل قربان هابيل لأنه كان زاكى القلب ، فما زال الكبش يرتع فى الجنة حتى فدى به ابن إبراهيم ، فذلك قوله تعالى (فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما ولَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ) إلى قوله (مِنَ المُتَّقِينَ) فنزلوا عن الجبل وتفرقوا ، وقد غضب قابيل لما ردّ الله قربانه ، وظهر فيه الحسد والبغى ، وكان يضمرهما قبل ذلك فى نفسه إلى أن أتى آدم مكة ليزور البيت ، فلما أراد أن يأتى مكة قال للسماء : احفظى ولدى بالأمانة فأبت ، فقال ذلك للأرض والجبال فأبيا ، فقال ذلك لقابيل ، فقال : نعم ترجع وتراه كما يسرك ، فرجع آدم وقد قتل قابيل هابيل ، فذلك قوله تعالى (إنَّا عَرَضْنا الأَمانَةَ عَلى السَّمواتِ والأَرْضِ والجِبالِ فأَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَها وأَشْفَقْنَ منها وحَمَلَها الإنْسانُ إنَّهُ كانَ ظَلوما جَهولاً) يعنى قابيل حين حمل أمانة أبيه ثم خانه . قالوا : فلما غاب آدم أتى قابيل إلى هابيل وهو فى غنمه فقال : لأقتلنك ؟ قال : ولم ؟ قال : لأن الله قبل قربانك ولم يقبل قربانى وتنكح أختى الحسناء وأنكح أختك الدميمة ، فيتحدث الناس أنك خير منى وأفضل ، ويفتخر ولدك على ولدى فقال له هابيل : وما ذنبى ؟ (إنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينَ . لَئِنْ بَسَطْتَ إليَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى ما أنا بِباسِطٍ يَدِىَ إلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّى أخافُ اللهَ رَبَّ العالَمِينَ) .

قال عبد الله بن عمر : إن المقتول كان أشد ولكنه منعه التحرج أن يبسط إلى أخيه يده . قال الله تعالى (فَطَوَّعَتْ له نَفْسُهُ قَتْلَ أخِيهِ فقَتَلَهُ) الآية : أى طاوعته وساعدته فقتله . قال السدىّ : لما قصد قابيل قتل هابيل زاغ هابيل فى رءوس الجبال ، ثم أتاه يوما من الأيام وهو نائم ، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات . وقال ابن جريج : لم يدر قابيل كيف يقتل أخاه ، فتمثل له إبليس وأخذ طيرا فوضع رأسه على حجر ثم شدخه بحجر آخر ، وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة .

واختلفوا فى مصرعه وموضع قتله ، فقال ابن عباس : على جبل نود ، وقال بعضهم : على عقبة حراء . وحكى محمد بن جرير الطبرىّ قال جعفر الصادق بالبصرة فى موضع المسجد الأعظم ، فلما قتله تركه ولم يدر ما يصنع به ، لأنه كان أول ميت على وجه الأرض من بنى آدم ، فقصدته السباع ، فحمله فى جراب على ظهره سنة حتى تروّح ، وعكفت عليه الطير والسباع ينظرون أين يرمى به فتأكله ، فبعث الله غرابين فاقتتلا ، فقتل أحدهما صاحبه ، ثم حفر له بمنقاره ورجليه حتى مكن له فى الأرض ، ثم ألقاه فى الحفرة وواراه وقابيل ينظر إليه ، فلما رأى ذلك قال (يا وَيْلَتا أعَجَزْتُ أنْ أكونَ مِثْلَ هذا الغُرابِ فأُوارِىَ سَوْأةَ أخِى؟ فأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) يعنى على حمله ، لا على قتله :

وروى عن الأوزاعىّ قال : حدثنى المطلب بن عبد الله المخزومىّ : لما قتل ابن آدم أخاه رجفت الأرض بما عليها سبعة أيام ، ثم شربت الأرض دمه كما تشرب الماء ، فناداه

الله : أين أخوك هابيل ؟ قال : ما أدرى ، ما كنت عليه رقيبا ؟ فقال الله تعالى : إن دم أخيك ليناديني من الأرض ، فلم قتلت أخاك ؟ قال : فأين دمه إن كنت قتلته ؟ فحرم الله على الأرض من يومئذ أن تشرب دماً بعده أبدا .

وعن الضحاك عن ابن عباس قال : لما قتل قابيل هابيل وآدم بمكة اشتاك الشجر ، وتغيرت الأطعمة ، وتحمضت الفواكه، ومرّ الماء، واغبرت الأرض ، فقال آدم : قد حدث فى الأرض حدث ، فأتى الهند ، فإذا قابيل قد قتل هابيل ، فأنشأ يقول ، وهو أول شعر قيل :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبرّ قبيح
تغير كل ذى طعم ولون وقل بشاشة الوجه الصبيح

وروى عن ابن عباس أنه قال : من قال إن آدم قال الشعر فقد كذب على الله ورسوله ورمى آدم بالمأثم ، وإن محمدا صلى الله عليه وسلم والأنبياء كلهم فى النهى عن الشعر سواء، قال الله تعالى (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ) ولكن لما قتل قابيل هابيل رثاه آدم وهو سريانىّ ، وإنما يقول الشعر من تكلم بالعربية ، فلما قال آدم مرثيته فى ابنه هابيل وهو أول شهيد على وجه الأرض ، قال آدم لشيث : يا بنى إنك وصيى ، فاحفظ هذا الكلام ليتوارثه الناس ، فلم يزل ينقل حتى وصل إلى يعرب بن قحطان بن هود عليه السلام، وكان يتكلم بالسريانية والعربية ، وهو أول من ركب الخيل وتكلم بالعربية وقال الشعر ، فنظر فى المرثية فإذا هو سجع فقال : إن هذا ليقوّم شعرا ،فردّ المقدم إلى المؤخر والمؤخر إلى المقدم ، فوزنه شعرا ، فما زاد فيه ولا نقص حرفا من ذلك فقال :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبرّ قبيحُ [1]
تغير كل ذى طعم ولون وقلّ بشاشة الوجهُ الصبيحُ
وقابيل أذاق الموت هابيـــل فواحزنا لقد فقد المليح
ومالى لا أجود بسكب دمع وهابيل تضمنــه الضريح
وجاءت شُعْلة ولها رنين لهابلها وقابلها يصـيح
لقتل ابن النبى بغير جُرم فقلبى عنـد قتلته جريح
وجاوَرَنا لعين ليس يفنى عـدو لايموت فنستريح

وقالت حواء :

دع الشكوى فقد هلكا جميعا بموت ليس بالثمن الربيـح
وما يغنى البكاء عن البواكى إذا ما المرء غيب فى الضريح
فابك النفس وانزل عن هواها فلست مخلدا بعـد الذّبيح

فأجابهما إبليس لعنه الله شامتا بهما :

---

(١) الأشعار التى وردت فى قصة قتل ابن آدم أخاه : كلها منحولة . فما كانوا يعرفون الشعر ولا الوزن ولا القافية حينئذ ، ولم يكن لسانهم العربية . والله أعلم .

تنحَّ عن البلاد وساكنيها ... فنى الجنات ضاق بك الفسيح
وكنتَ بها وزوجَك فى رخاء ... وقلبك من أذى الدنيا مريح
فما زالت مكايدتى ومكرى ... إلى أن فاتك الثمن الربيح
فلولا رحمة الجبار أضحى ... بكفك من جنان الخلد ريح

وقال سالم بن أبى الجعد : لما قتل قابيل هابيل مكث آدم مائة سنة لايضحك ، ثم أتى له فقيل له : حياك الله وأضحكك ولا أبكاك . قال : ولما مضى من عمر آدم مائة وثلاثون سنة ، وذلك بعد ما قتل قابيل هابيل بخمس سنين ولد له شيث ، وتفسيره : هبة الله ، يعنى أنه خلف الله من هابيل ، وعلمه الله ساعات الليل والنهار وعبادة الخلق فى كل ساعة منها ، وأنزل الله عليه خمسين صحيفة ، وكان وصىّ آدم وولى عهده . وأما قابيل فقيل له اذهب ، فذهب طريدا شريدا فزعا مرعوبا لايأمن من رآه ، فأخذ بيد أخته إقليما وذهب بها إلى عدن من أرض اليمن ، فأتى إليه إبليس وقال له : إنما أكلت النار قُربان أخيك لأنه كان يخدم النار ويعبدها ، فانصب أيضا أنت نارا تكون لك ولعقبك ، فبنى بيت النار ، فهو أول من نصب النار وعبدها . قال : وكان لايمر بواحد من ولده إلا رماه ، وكان لقابيل ولد أعمى ومعه ابن له ، فقال ابن الأعمى لأبيه ، هذا أبوك قابيل ، فرمى الأعمى أباه قابيل فقتله ، قال : فقال ابن الأعمى إنه أبوك ، فرفع يده فلطمه فمات ، فقال الأعمى : ويل لى قتلت أبى برميتى وقتلت ابنى بلطمتى. قال مجاهد : فعلقت إحدى يدى قابيل إلى فخذها وساقها ، وعلقت من يومئذ إلى يوم القيامة ، ووجهت إلى الشمس حيث دارت عليه فى الصيف حظيرة نار وفى الشتاء حظيرة ثلج . قالوا : واتخذ أولاد قابيل آلات اللهو من أنواع الطبول والمزامير والطنابير ، وانهمكوا فى اللهو وشرب الخمر والزنا وعبادة النار والأوثان والفواحش حتى أغرقهم الله بالطوفان فى زمن نوح عليه السلام ، وبقى نسل شيث عليه السلام ، والله أعلم .

الباب العاشر : فى ذكر وفاة آدم عليه السلام

ذكر أهل التاريخ وأصحاب الأخبار أن آدم عليه السلام مرض قبل موته أحد عشر يوما وأوصى إلى ابنه شيث ، وكتب وصيته ودفعها إلى شيث وأمره أن يخفى ذلك من ولد قابيل لأن قابيل كان قد قتل هابيل حسدا منه له حين خصه آدم بتزويج أخته إقليما ، فخاف عليه أيضا أن يقتله حين خصه آدم بالعلم ، فأخفى شيث وولده ما عندهم من الوصية ، فلم يكن عند قابيل وولده علم ينتفعون به .

وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لمَّا أخْرَجَ اللهُ ذُرِّيَّةَ آدمَ مِنْ ظَهرِهِ فجَعَلَ يَعْرِضُهُمْ على آدمَ ، فإذَا قومٌ عليهِمُ النُّورُ ، فقالَ يا رَبِّ مَنْ هؤلاءِ الَّذينَ عليهِمُ النُّورُ ؟ قالَ : هؤلاءِ الأنبياءُ والرُّسُلُ ، وإذَا فيهِم رجلٌ يَزْهو وهُوَ أضْوَؤُهمْ نوراً ، فقالَ : يارَبِّ مَنْ هذا ؟ فقالَ ذلكَ دَاودُ ، فقالَ

يا رَبِّ كَمْ عُمْرُهُ ؟ قالَ سِتُّونَ سنةً ، قال : يا ربِّ زِدْهُ فى عُمْرِهِ ، قال : لا ، إلا أنْ تَزِيدَهُ أنْتَ مِنْ عُمُرِكَ ، فقدْ جَفَّ القلمُ بأعمارِ بَنِى آدمَ ،وكانَ عُمُرُ آدمَ ألفَ سنة ، فوَهَبَ لهُ منْ عُمُرِهِ أرْبعينَ سنةً ، فكَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ بذلكَ كِتابًا وأشْهَدَ عليهِ المَلائكَةَ ، فلمَّا مضَى منْ عُمُرِهِ تسعْمائةٍ وستُّونَ سَنَةً جاءَ إليهِ مَلَكُ المَوْتِ لِيَقْبِضَهُ ، فقالَ آدمُ : عَجِلْتَ عَلَيَّ يا مَلكَ المَوْتِ ، قالَ : ما فعلْتُ بَلْ أنتَ اسْتَوْفَيْتَ أجلَكَ ، قالَ آدمُ : قدْ بَقِىَ مِنْ عُمُرِى أرْبعونَ سنةً ، قالَ : إنَّكَ قدْ وَهَبْتَها لابنكَ داوُدَ ، قالَ : ما فَعَلْتُ ولا وَهَبْتُ لهُ شيئا ، فأنزلَ اللهُ الكِتابَ وأقامَ المَلائكةَ شُهودًا ، ثمَّ إنَّ اللهَ أكمَلَ لآدمَ ألْفَ سنة وأكمَلَ لداوُدَ مائةَ سنة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نَسِيَ آدمُ فنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، وجَحَدَ فجحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، فأمَرَ اللهُ بالكِتابِ والشُّهودِ مِنْ يوْمئِذٍ » .

قال ابن إسحاق وغيره : ثم إن آدم مات واجتمعت عليه الملائكة لأنه صفىّ الرحمن ، فدفنته الملائكة وشيث وإخوته فى مشارق الفردوس عند قرية هى أول قرية كانت فى الأرض وكُسِفت عليه الشمس والقمر ستة أيام بلياليهن . فلما اجتمعت عليه الملائكة بعث الله إليه بحنوط وكفن من الجنة ، ووليت الملائكة غسله ودفنه ، فغسلته بالسدر والماء وترا ، وكفنوه فى ثلاثة ثياب ، ثم لحدوا له ودفنوه ، ثم قالوا: هذه سنة ولد آدم من بعده. قال ابن عباس: فلما مات آدم قال شيث لجبريل صلّ على آدم، فقال له جبريل: تقدم أنت فصلّ على أبيك ، فصلى عليه وكبر ثلاثين تكبيرة ، فأما خمس فهى الصلاة ، وأما خمس وعشرون فهى تفضيل لآدم . وقد اختلف فى موضع قبره ، فقال ابن إسحاق فى مشارق الفردوس ، وقال غيره : دفن بمكة ، وقيل فى غار أبى قُبيس ، وهو غار يقال له الغار الكبير .

وروى أبو صالح عن ابن عباس أنه قال : مات آدم على جبل نود بالهند ، وقال ابن عباس : لما كان أيام الطوفان حمل نوح تابوت آدم فى السفينة ، فلما خرج من السفينة دفن آدم ببيت المقدس ، وكانت وفاة آدم يوم الجمعة ، وعاشت حواء بعده سنة ، ثم ماتت فدفنت مع آدم عليهما السلام ، والله أعلم .

باب فى الخصائص التى خص الله بها آدم عليه السلام

قال الأستاذ : خلق الله آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وجعله خاتمة خلقه ، وخلقه فى أحسن صورة ، وأقسم عليه فقال عز من قائل (والتِّينِ والزَّيْتونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهذَا البَلَدِ الأمِينِ لقدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فى أحْسَنِ تَقْوِيمٍ) ولقنه الحمد حين عَطَس ثم قال له يرحمك ربك ، فسبقت له رحمتُه غضبَه ، وأسكنه بعد خلقه الجنة بلا عمل ،

وأباح له جميع الجنة إلا شجرة واحدة ، وعلمه الأسماء كلها ، وأمر ملائكته بالسجود له وأمرهم بالتلقين ، وجعله أبا البشر ، وجعله خليفته فى الأرض ، وعرّف الملائكة فضله عليهم ، ولعن إبليس من أجله مع كثرة عبادته ، وعاتب الملائكة بسببه ،وهو أول حامد، وأول تائب ،وأول مجتبى ، وأول مصطفى ،وأول خليفة لله فى الأرض ،وهو المميز للأرواح الخبيثة من الطيبة ، وهو الباعث يوم القيامة بعث النار من ذريته ، فهذه ثلاث وعشرون خصلة من خصائصه صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ، والله أعلم .

مجلس فى ذكر نبى الله إدريس عليه السلام

قال الله تعالى (واذْكُرْ فى الكِتابِ إدْرِيسَ إنَّهُ كانَ صِدِّيقا نَبِيًّا) قال أهل العلم بأخبار الماضين وقصص النبيين : هو إدريس بن برد ، وقيل يارِيد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم ، واسمه أخنوخ ، وسمى إدريس لكثرة درسه الكتب وصحف آدم وشيث ، وأمه أشوت ، وكان إدريس أول من خط بالقلم ، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وأول من نظر فى علم النجوم والحساب ، بعثه الله إلى ولد قابيل ثم رفعه إلى السماء ؛ وكان سبب رفعه إلى السماء على ما قاله ابن عباس وأكثر الناس، أنه سار ذات يوم فأصابه وهج الشمس ، فقال : يا رب إنى مشيت فى الشمس يوما فتأذيت ، فكيف بمن يحملها خمسمائة عام فى يوم واحد ، اللهم خفف عنه ثقلها، واحمل عنه حرها . فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لايعرف ، فقال : يا رب خففت عنى حر الشمس ، فما حال الذى قضيت علىّ فيه ، فقال تعالى : إن عبدى إدريس سألنى أن أخفف عنك ثقلها وحرها فأجبته إلى ذلك ، فقال : يا رب اجمع بينى وبينه واجعل بينى وبينه خلة ، فأذن الله له ، فكان إدريس يسأله ، وكان مما سأله أن قال : أخبرت أنك أكرم الملائكة على ملك الموت وأمكنهم عنده ، فاشفع لى إليه ليؤخر أجلى فأزداد شكرا وعبادة ، فقال الملك (لايُؤَخِّرُ اللهُ نَفْسا إذَا جاءَ أجَلُها) قال : قد علمت ذلك ، ولكنه أطيب لنفسى ، فقال : أنا مكلمه لك ، وما كان يستطيع أن يفعل لأحد من بنى آدم فهو فاعله لك ، ثم حمله الملك على جناحه حتى رفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس ؛ ثم إنه أتى إلى ملك الموت فقال له : لى إليك حاجة ، فقال له أفعل لك كل شىء أستطيعه ، فقال: لى صديق من بنى آدم تشفع بى إليك لتؤخر أجله ، فقال : ليس ذلك إلىّ ، ولكن إن أحببت أعلمته أجله ومتى يموت ، فيتقدم فى نفسه ، قال نعم ، فنظر فى ديوانه فأخبره باسمه ، وقال : إنك كلمتنى فى إنسان ما أراه يموت أبدا ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : إنى لأجده يموت عند مطلع الشمس ، قال : فإنى أتيتك وتركته هناك ، فقال له : فانطلق فلا أراك تجده إلا وقد مات ، والله مابقى من أجل إدريس شىء ، فرجع الملك فوجده ميتا .

قال وهب بن منبه : كان يرفع له كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لأهل الأرض جميعهم فى زمانه ، فتعجبت منه الملائكة، واشتاق إليه ملك الموت ، فاستأذن الله فى زيارته فأذن له ، فأتاه فى صورة بنى آدم ، وكان إدريس يصوم الدهر ، فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه ، فأبى أن يأكل، وفعل ذلك ثلاث ليال ، فأنكره وقال له فى الليلة الثالثة : إنى أريد أن أعلم من أنت ؟ قال : أنا ملك الموت استأذنت ربى أن أزورك وأصاحبك فأذن لى فى ذلك ، فقال له إدريس : لى إليك حاجة ، قال : وما هى ؟ قال : اقبض روحى ، فأوحى الله تعالى إليه أن اقبض روحه، فقبض روحه ثم ردها الله عليه بعد ساعة ، فقال له ملك الموت : فما الفائدة فى سؤالك قبض الروح ؟ قال : لأذوق كرب الموت وغمه فأكون له أشد استعدادا ، ثم قال له : لى إليك حاجة أخرى ، قال : وما هى ؟ قال : ترفعنى إلى السماء لأنظر إليها وإلى الجنة ، فأذن له فى ذلك ، فلما قرب من النار قال : لى إليك حاجة ، قال : وما تريد ؟ قال: تسأل رضوان يفتح لى أبواب الجنة حتى أراها ، ففعل ذلك ثم قال : فكما أريتنى النار فأرنى الجنة ، فذهب به إلى الجنة ، فاستفتحها ففتحت له أبوابها فدخلها ، فقال له ملك الموت : اخرج لتعود إلى مقرك ، فتعلق بشجرة وقال : لاأخرج منها ، فبعث الله ملكا حكما بينهما ، فقال له الملك مالك لا تخرج ؟ قال : لأن الله تعالى قال (كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ) وقد ذقته ، وقال تعالى (وإنْ منكُمْ إلاّ وارِدُها) وقد وردتها ، وقال تعالى (وَما هُمْ مِنها بمُخْرَجِينَ) فلست أخرج ، فقال الله تعالى لملك الموت دعه ، فإنه بإذنى دخل الجنة وبأمرى لايخرج ، فهو حى هناك ؛ فتارة يعبد الله فى السماء الرابعة ، وتارة يتنعم فى الجنة ، والله أعلم .

قصة هاروت وماروت

قال الله تعالى (واتَّبَعوا ما تَتْلُوا الشَّياطينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ) الآية . قال أهل التفسير : إن الشياطين كتبوا السحر والنيرنجيات على لسان آصف فى مدة زوال ملك سليمان: هذا ماعلم آصف بن برخيا سليمان الملك ، ثم دفنوها تحت مصلاه ولم يشعر بذلك سليمان ، فلما مات سليمان استخرجوها من تحت مصلاه وقالوا للناس : ما ملككم سليمان إلا بهذه . قال السدىّ : وذلك أن شيطانا تمثل على صورة إنسان ، فأتى نفرا من بنى إسرائيل فقال : هل أدلكم على كنز لاينفد أبدا ؟ قالوا نعم ، قال : فاحفروا تحت كرسى سليمان وذهب معهم فأراهم المكان ، وقام ناحية فقالوا له : ادن ، فقال لا ، ولكنى ههنا فإن لم تجدوه فاقتلونى ، وذلك أنه لم يكن أحد من الشياطين يدنو من الكرسىّ إلا احترق ، فحفروا فوجدوا تلك الكتب ؛ فلما أخرجوها قال الشيطان : إن سليمان كان يضبط الجن والإنس والشياطين والطير بهذا ، ثم طار الشيطان وذهب . فأما علماء بنى إسرائيل

وصلحاؤهم فقالوا: معاذ الله أن يكون هذا علم سليمان ، فإن كان هذا علمه فقد هلك سليمان . وأما الجهال والسفلة فأقبلوا على تعلمه ورفضوا كتب أنبيائهم ، فأنزل الله هذه الآية ، إظهارا لعذر سليمان وبيانا لبراءته ، فهذه قصة الآية .

(وأما قصة هاروت وماروت) فقال المفسرون : إن الملائكة لما رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بنى آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة وذلك فى زمن إدريس النبى عليه السلام ، عيروهم بذلك وأنكروا عليهم وقالوا : هؤلاء الذين جعلتهم خلفاء فى الأرض واخترتهم فهم يعصونك ، فقال تعالى : لو أنزلتكم إلى الأرض وركبت فيكم ما ركبت فيهم لفعلتم مثل ما فعلوا ، قالوا : سبحانك ربنا ما كان ينبغى لنا أن نعصيك ، قال الله تعالى : اختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض ، فاختاروا هاروت وماروت ، وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم . قال الكلبى : قال الله تعالى : اختاروا ثلاثة منكم فاختاروا عزا وهو هاروت وعزابيا وهو ماروت وعزرياثيل ، وإنما غير اسمهما لما اقترفا من الذنب كما غير الله اسم إبليس وكان اسمه عزازيل ، فركب الله تعالى فيهم الشهوة التى ركبها فى بنى آدم وأهبطهم إلى الأرض ، وأمرهم أن يحكموا بين الناس بالحق ونهاهم عن الشرك والقتل بغير الحق والزنا وشرب الخمر .

فأما عزرياثيل فانه لما وقعت الشهوة فى قلبه استقال ربه وسأله أن يرفعه إلى السماء فأقاله ورفعه وسجد أربعين سنة ثم رفع رأسه ، ولم يزل بعد ذلك مطأطئا رأسه حياء من الله تعالى .

وأما الآخران فإنهما ثبتا على ذلك يقضيان بين الناس يومهما ، فاذا أمسيا ذكرا اسم الله تعالى الأعظم وصعدا إلى السماء . قال قتادة : فما مر عليهما شهر حتى افتتنا ، وذلك أنه اختصم إليهما ذات يوم الزهرة ، وكانت من أجمل النساء . قال على رضى الله عنه : كانت من أهل فارس ، وكانت ملكة فى بلدها ، فلما رأياها أخذت بقلوبهما ، فراوداها عن نفسها فأبت وانصرفت ، ثم عادت فى اليوم الثانى ففعلا مثل ذلك ، فقالت لا ، إلا أن تعبدا ما أعبد وتصليا لهذا الصنم وتقتلا النفس وتشربا الخمر . فقالا : لاسبيل إلى هذه الأشياء فإن الله قد نهانا عنها ، فانصرفت ثم عادت فى اليوم الثالث ومعها قدح من خمر وفى نفسها من الميل إليهما ما فيها ، فراوداها عن نفسها فأبت وعرضت عليهما ما قالت بالأمس فقالا : الصلاة لغير الله أمر عظيم ، وقتل النفس عظيم ، وأهون الثلاثة شرب الخمر ، فشربا الخمر فانتشيا ووقعا بالمرأة وزنيا بها فرآهما إنسان فقتلاه . قال الربيع بن أنس : وسجدا للصنم ، فسخ الله الزهرة كوكبا . وقال على رضى الله عنه والسدى والكلبى : إنها قالت لاتدركانى حتى تعلمانى الذى تصعدان به إلى السماء ، فقالا : نصعد باسم الله الأعظم ، فقالت : فما أنتما بمدركىّ حتى تعلمانيه ، قال أحدهما لصاحبه : علمها ، فقال : إنى أخاف الله ، فقال الآخر : فأين رحمة الله تعالى ؟ فعلماها ذلك ، فتكلمت به وصعدت إلى السماء فمسخها الله تعالى كوكبا . قال الأستاذ: فعلى قول هؤلاء هى الزهرة بعينها. وقال آخرون: هى

هذا الكوكب الأحمر ، واسمها بالفارسية ناهيد ، وبالقبطية بادخت . يدل على صحة هذا القول ما أخبرنا به يحيى بن إسمعيل باسناده عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا رأى سهيلا قال « لَعَنَ اللهُ سُهَيْلاً إنَّهُ كانَ عَشَّاراً باليَمَن ، ولَعَنَ اللهُ الزُّهَرَةَ فإنَّها فَتَنَتْ مَلَكَيْنِ هارُوتَ ومارُوتَ » :

وقال مجاهد : كنت مع ابن عمر ذات ليلة فقال لى : ارمق الكوكب : يعنى الزهرة ، فإذا طلعت فأيقظنى ، فلما طلعت أيقظته ، فلما نظر إليها سبها سبا شديدا ، فقلت: يرحمك الله تسبّ نجما ساطعا مطيعا؟فقال: إن هذه كانت بغيًا فلقى الملكان منها ما لقيا،وكذلك قال ابن عباس . وأنكر الآخرون هذا القول وقالوا:الزهرة من الكواكب السبعة السيارة التى جعلها الله تعالى قِواما للعباد وأقسم بها فقال تعالى(فَلا أُقْسِمُ بالخُنَّسِ الجَوَارِى الكُنَّسِ) وإنما كانت التى فتنت هاروت وماروت امرأة تسمى زُهْرة لجمالها ، فلما زنت مسخها الله شهابا ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الزهرة ذكر تلك المرأة الموافقة لهذا الاسم فلعنها ، وكذلك سهيل العشار كان رجلا ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا النجم الموافق اسمه لاسم هذا الرجل لعنه ، يدل عليه ما روى قيس بن عباد عن ابن عباس فى هذه القصة قال : كانت امرأة فضلت على النساء بالحسن والجمال كما فضلت هذه الزهرة على سائر الكواكب ، قالوا : فلما أمسى هاروت وماروت بعد ما قارفا الذنب همّا بالصعود إلى السماء فلم تطاوعهما أجنحتهما ، فعلما ما حل بهما ، فقصدا إلى إدريس عليه السلام،فأخبراه بأمرهما وسألاه أن يشفع لهما إلى الله تعالى وقالا له: إنا رأيناك يصعد لك من العبادة مثل مايصعد لجميع أهل الأرض ، فاشفع لنا إلى الله تعالى ،قال: ففعل إدريس ذلك ، فخيرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا لأنه ينقطع ، فهما ببابل يعذبان .

واختلف العلماء فى كيفية عذابهما ، فقال ابن مسعود : هما معلقان بشعورهما إلى قيام الساعة . وقال مقاتل : كبلا من أقدامهما إلى أصول أفخاذهما . وقال مجاهد : ملئ جب نارا فجعلا فيه . وقال عمرو بن سعيد : هما معلقان منكسان فى السلاسل يضربان بسياط الحديد .

وروى أن رجلا قصدهما لتعلم السحر ،فوجدهما معلقين بأرجلهما مزرقة أعينهما مسودّة وجوههما ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلا أربعة أصابع وهما يعذبان بالعطش ، فلما رأى ذلك هاله مكانهما ، فقال : لاإله إلا الله ، فلما سمعا كلامه قالا : لاإله إلا الله من أنت ؟ قال : رجل من الناس ، قالا له : ومن أى أمة أنت ، قال : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، قالا : أو بعث محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، فحمدا الله تعالى وأظهرا الاستبشار ، فقال الرجل : وممّ استبشاركما ؟ قالا : إنه نبى الساعة، وقد دنا انقضاء عذابنا .

وروى هشام عن عائشة أنها قالت : قدمت امرأة من دومة الجندل جاءت تبتغى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته، تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر وما تعمل به، فقالت عائشة لعروة : يا بن أختى فرأيتها تبكى حين لم تجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت تبكى حتى رحمتها ، ثم قالت : إنى أخاف أن أكون قد هلكت ، ثم قالت : كان لى زوج غاب عنى ، فدخلت علىّ عجوز فشكوت لها ذلك ، فقالت : إن فعلت ما آمرك به جعلته يأتيك ، فلما كان الليل جاءتنى بكلبين أسودين ، فركبت أحدهما وركبت هى الآخر ، فلم يكن كثير حتى وقفنا ببابل ، وإذا برجلين معلقين بأرجلهما ، فقالا : ما جاء بك ؟ فقلت : أتعلم السحر ، فقالا : إنما نحن فتنة فلا تكفرى فارجعى من حيث أتيت ، فقلت لا ، قالا : فاذهبى إلى ذلك التنور فبولى فيه ، فذهبت لأبول ففزعت فلم أفعل ، فرجعت ، فقالا : فعلت ؟ قلت نعم ، فقالا هل رأيت شيئا ؟ فقلت: لم أر شيئا ، فقالا : لم تفعلى شيئا، فارجعى إلى بلادك ولا تكفرى ، فأبيت ، فقالا : اذهبى إلى ذلك التنور فبولى فيه ، فذهبت فاقشعر جلدى وخفت ، ثم رجعت إليهما فقلت : قد فعلت ، فقالا : ما رأيت ؟ قلت : لم أر شيئا ، قالا كذبت لم تفعلى ، فارجعى إلى بلادك ولا تكفرى فإنك على رأس أمرك ، فقلت لا ، فقالا لى : اذهبى إلى ذلك التنور فبولى فيه ، فذهبت إليه فبلت فيه ، فرأيت فارسا مقنعا بحديد خرج منى حتى ذهب فى السماء وغاب حتى ما أراه ، فجئتهما فقلت : قد فعلت ، قالا : فما رأيت ؟ قلت : رأيت فارسا مقنعا بالحديد خرج منى وذهب فى السماء فلم أره ، قالا: صدقت، ذلك إيمانك خرج منك فاذهبى ، فقلت للمرأة: والله ما أعلم شيئا ولا قالا لى شيئا ، فقالا : لاتريدين شيئا إلا كان . خذى هذا القمح فابذريه فبذرته ، ثم قلت له اطلع فطلع ، فقلت له انحصد فحصد ، فقلت انفرك ففرك ، ثم قلت انطحن فطحن ، ثم قلت انخبز فخبز . فلما رأيت أنى لاأريد شيئا إلا كان سُقِطَ فى يدى فرجعت وندمت ، والله يا أم المؤمنين ما فعلت شيئا قط ولا أفعله أبدا .

قال الأوزاعىّ : بلغنى أن جبريل عليه السلام أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا جبريلُ صِفْ لى النَّارَ ، فقال : إن الله تعالى أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت ، فهى سوداء مظلمة لايطفأ جمرها ولا يخمد لهبها ، والذى بعثك بالحق لو أن ثوبا من ثياب أهل النار ظهر لأهل الأرض لماتوا جميعا ، ولو أن ذَنوبا من شرابها صب فى ماء الأرض جميعا لقتل من ذاقه ، ولو أن حلقة من السلسلة التى ذكرها الله وضعت على جبال أهل الأرض جميعا لذابت وما استقلت ،ولو أن رجلا دخل النار وخرج لمات أهل الأرض من نتن ريحه وتشويه خلقه وعظمه ، فبكى النبى صلى الله عليه وسلم وبكى جبريل لبكائه وقال : أتبكى يا محمد وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ، وبكى جبريل ، فقال : يا جِبريلُ

أتبكى وأنتَ الرُّوحُ الأمينُ ، أمينُ اللهِ علَى وَحْيِهِ ، قال : أخاف أن أبتلى بما ابتلى به هاروت وماروت ، فهذا الذى منعنى من اتكالى على منزلتى عند ربى فأكون قد أمنت مكره ، فلم يزالا يبكيان حتى نوديا من السماء : يا جبريل ويا محمد إن الله تعالى قد أمنكما من غضبه فلا يعذبكما ، وإنّ فضل محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء كفضل جبريل على سائر الملائكة » .

مجلس فى قصة نوح عليه السلام

قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام (واتْلُ عليهِم نبأَ نُوحٍ إذْ قالَ لقومِهِ) الآية. وهو نوح بن لَمَك بن متوشلخ بن أخنوخ بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث عليه السلام ، وأمه قينوش بنت راكيل ، وقيل بنت كابيل بن مخوئيل بن أخنوخ ، أرسله الله تعالى إلى ولد قابيل ومن تابعهم من ولد شيث .

قال ابن عباس : وكان بطنان من ولد آدم أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل ، وكان فى رجال الجبل صباحة وفى نسائهم دمامة ، وكان فى نساء السهل صباحة وفى الرجال دمامة ، وإن إبليس أتى رجلا من أهل السهل فى صورة غلام ، فآجر نفسه منه وكان يخدمه ، واتخذ إبليس شيئا مثل الذى يزمر به الرعاة ، فجاء منه بصوت لم يسمع الناس مثله ، فبلغ ذلك من حولهم ، فأتوهم مستمعين إليه ، واتخذوه عيدا يجتمعون إليه فى السنة ، فتتبرج النساء للرجال والرجال لهن ، وإن رجلا من أهل الجبل هجم عليهم وهم فى عيدهم فرأى النساء وصباحتهن ، فجاء إلى أصحابه فأخبرهم بذلك ، فتحولوا إليهم فنزلوا معهم وظهرت الفاحشة فيهم ، وهو قوله تعالى (ولا تَبرَّجْنَ تَبرُّجَ الجاهليةِ الأُولى) .

قال ابن عباس : كان آدم أوصى أن لا يناكح بنو شيث بنى قابيل ، فجعل بنو شيث آدم فى مغارة وجعلوا عليه حفاظا لئلا يقربه أحد من أولاد قابيل ، وكان الذى يأتونه ويستغفر لهم بنو شيث . فقال مائة من بنى شيث ، صباح الوجوه : لو نظرنا مافعل بنو عمنا : يعنون بنى قابيل ، فهبطت المائة إلى نساء السهل صباح الوجوه من بنات قابيل ، فاحتبس النساء الرجال ثم مكثوا ما شاء الله . فقال مائة أخرى : لو نظرنا ما فعل إخوتنا ؟ فهبطوا من الجبل إليهم فاحتبستهم النساء ، ثم هبط بنو شيث كلهم فظهرت المعصية وتناكحوا واختلطوا وكثر بنو قابيل حتى ملئوا الأرض وأكثروا الفساد ، فبعث الله إليهم نبيهم نوحا وهو ابن خمسين سنة ، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله تعالى ويخوفهم بأسه ويحذرهم سطوته ، كما أخبر الله تعالى بقوله (رَبِّ إنى دَعوْتُ قَوْمى ليْلاً وَنهاراً فلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائى إلاّ فِراراً) وقال تعالى (وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إنّهُمْ كانُوا هُمْ أظْلَمَ وأطْغَى) وقال تعالى (وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إنّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ) .

وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال : إن نوحا كان يضرب ثم يلف فى لبد ، ثم يلقى فى بيته فيرون أنه قد مات ، ثم يخرج فيدعوهم حتى أيس من إيمان قومه ، فبعد ذلك جاء رجل ومعه ابنه يتوكأ على عصا ، فقال : يا بنى انظر إلى هذا الشيخ إياك أن يغرك ، فقال : يا أبت مكنى من العصا ، فأعطاه العصا ، فقال ضعنى فى الأرض ، فوضعه فمشى إليه ، فضربه بالعصا ، فقال نوح : رب قد ترى ما يصنع بى عبادك ، فإن يكن لك فى عبادك حاجة فاهدهم ، وإن يكن غير ذلك فصبرنى إلى أن تحكم بينى وبينهم وأنت خير الحاكمين ، فأوحى الله إليه (أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) فآيسه من إيمان قومه ، وأخبره أنه لم يبق فى أصلاب الرجال ولا أرحام النساء مؤمن ، فعند ذلك دعا عليهم وقال (رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي) الآية ، إلى قوله (ولا تَذَرُنَّ وَدًّا ولا سُوَاعًا ولا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا) وهى أسماء أصنام لهم كانوا يعبدونها من دون الله ، وقوله تعالى (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) وقوله تعالى (ولا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا) : أى هلاكا ودمارا ، فأجاب الله دعاءه وأمره أن يصنع الفلك كما قال تعالى (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا) الآية . قال نوح : يا رب وما الفلك ؟ قال : بيت من خشب يجرى على وجه الماء حتى أُغرِقَ أهل المعصية وأريح أرضى منهم ، قال نوح : يا رب أين الماء ؟ قال : يا نوح إنى على ما أشاء قدير ، قال نوح : يا رب وأين الخشب ؟ قال : اغرس الشجر ، فغرس الساج ، وأتى على ذلك أربعون سنة ، وكف فى تلك المدة عن الدعاء ، فلم يدعهم ، فأعقم الله تعالى أرحام نسائهم فلم يولد لهم ولد ، فلما أدرك الشجر أمره ربه أن يقطع الشجر فقطعه وجففه ثم قال : يا رب كيف أتخذ هذا البيت ؟ قال : اجعله أزور على ثلاثة صور : رأسه كرأس الديك ، وجوفه كجوف الطير ، وذنبه كذنب الديك مائلا ، واجعلها مطبقة ، واجعل أبوابها فى جنبيها ، واجعلها ثلاث طبقات ، واجعل طولها ثمانين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا وطولها فى السماء ثلاثين ذراعا ، والذراع إلى المنكب ، هذا قول أهل الكتاب ؛ ثم بعث الله جبريل يعلم نوحا صنعة الفُلك ، وكان نوح يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيئ عدة الفلك من القار وغيره ، وكان قومه يمرون عليه وهو فى عمله فيسخرون منه ويقولون : يا نوح قد صرت نجارا بعد النبوة ، ثم يقولون : ألا ترون إلى هذا المجنون يتخذ بيتا يسير به على الماء ويضحكون منه ، وذلك قوله تعالى (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ) فيقول نوح (إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ . فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ

عليهِ عذابٌ مقيمٌ) وأوحى الله تعالى إلى نوح أن عجل صنعة الفلك ، فقد اشتد غضبي على من عصاني ، فاستأجر نوح أجراء يعملون معه ، وأولاده سام وحام ويافث ينحتون معه السفينة ، فجعل السفينة طولها ستمائة وستون ذراعا ، وعرضها ثلاثمائة وثلاثون ذراعا وطولها فى السماء ثلاثة وثلاثون ذراعا ، هذا قول ابن عباس فى رواية الضحاك ، وطلاها بالقار داخلها وخارجها ، وشدها بالدسر وهى مسامير الحديد ، وذلك قوله تعالى (وحملناهُ على ذاتِ ألواحٍ ودُسُرٍ) وفجر الله له عين القار بجنب السفينة تغلى غليانا حتى طلاها به ؛ فلما فرغ من صنع السفينة أوحى الله إليه : أن احمل فيها من كل زوجين اثنين من أنواع الحيوانات كلها حتى لاينقطع نسلهم ، وحشرها الله إليه من البر والبحر والسهل والجبل ، وقد جعل الله فوران التنور آية بينه وبين نوح ، وعهد الله إليه فقال : إذا رأيت التنور فار ، فاركب أنت ومن معك على الفلك واحمل فيها من كل زوجين اثنين كما قال الله تعالى (حتّى إذا جاءَ أمرُنا وفارَ التنّورُ) أى عذابنا وهو الطوفان (قُلْنا احمِلْ فيها مِنْ كُلٍّ زوجَيْنِ اثنَيْنِ) الآية .

واختلف العلماء فى قوله تعالى (وفار التنور) قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : يعنى طلع الفجر ونوّر الصبح . وقال ابن عباس : انبجس الماء من وجه الأرض ، والعرب تسمى وجه الأرض تنورا . وقال قتادة : التنور أشرف موضع فى الأرض وأعلى مكان فيها . وقال الحسن : أراد بالتنور الذى يخبز فيه ، وكان تنورا من حجارة ، وكان لآدم ثم انتقل إلى نوح ، فقيل له : إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك فنبع الماء من التنور ، فعلمت به امرأته فأخبرته ، واختلفوا فى موضعه ، فقال مجاهد : كان ذلك فى ناحية الكوفة .

وروى السدىّ عن الشعبىّ أنه كان يحلف بالله ما فار التنور إلا فى ناحية الكوفة ، وقال : اتخذ نوح السفينة فى جوف مسجد الكوفة ، وكان التنور عن يمين الداخل مما يلى باب كندة وكان فوران الماء علما لنوح ودليلا على هلاك قومه . وقال مقاتل : ذلك تنور آدم وإنما كان بالشام فى موضع يقال له عين ورد . وقال ابن عباس : كان التنور بالهند ، والفوران هو الغليان ، فلما رآه نوح أيقن بنزول العذاب ، فحمل من كل زوجين اثنين من أنواع الحيوانات كما أمره الله تعالى .

قال ابن عباس : أرسل الله المطر أربعين يوما وليلة ، فأقبلت الوحوش والطير والدواب إلى نوح حين أصابها المطر وسخرت له ، فحمل منها من كل زوجين اثنين ؛ فكان أول ما حمل نوح فى الفلك من الدواب الذّرّة وآخر ما حمل الحمار ، فلما دخل الحمار بصدره تعلق إبليس بذنبه فلم تستقل رجلاه ، فجعل نوح يقول ادخل ، فينهض فلا يستطيع ، حتى قال : ويحك ادخل وإن كان الشيطان معك كلمة زل بها لسانه ، فلما قالها نوح خلى

الشيطان سبيله ، فدخل ودخل الشيطان معه ، فقال له نوح : ما أدخلك يا عدو الله ؟ فقال : ألم تقل ادخل ولو كان الشيطان معك ؟ قال : اخرج يا عدو الله ، قال : ما أخرج وما كان بد لك أن تحملنى معك ، وكان فيما يزعمون على ظهر الفلك .

قال مالك بن سليمان الهروى : إن الحية والعقرب أتيا نوحا فقالا : احملنا ، فقال : إنكما سبب الضر والبلايا فلا أحملكما ، قالا : احملنا ونحن نضمن لك أن لانضر أحدا ذكرك ، فمن قرأ حين يخاف مضرتهما (سَلَامٌ عَلَىَ نُوحٍ فِى العَالَمِينَ إنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المُحْسِنِينَ إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُؤْمِنِينَ) ، لم يضراه .

عن وهب بن منبه قال : لما أمر الله تعالى نوحا أن يحمل من كلٍّ زوجين اثنين قال : كيف أصنع بالأسد والبقر ، وكيف أصنع بالعناق والذئب، وكيف أصنع بالحمام والهر ؟ قال الله تعالى له : من ألقى بينهم العداوة ؟ قال : أنت يا رب ، قال : فأنا أؤلف بينهم حتى لايتضاروا ، فحمل نوح السباع والدواب فى الطبقة الأولى ، فألقى الله على الأسد الحمى وشغله بنفسه عن الدواب والبقر ولذلك قيل :

وما الكلب محموما وإن طال عمره   لعمرك ما المحموم دوما سوى الأسد

وجعل الوحوش فى الطبقة الثانية وركب هو ومن معه من أولاد آدم فى الطبقة العليا وجعل الذرة معه فى الطبقة العليا شفقة عليها لئلا يقتلها شئ .

واختلفوا فى أهل السفينة الذين ذكرهم الله تعالى فى قوله تعالى (وأهْلَكَ إلاَّ مَنْ سَبَقَ عليهِ القَوْلُ مِنْهُمْ) . قال الضحاك: كان نوح إذا أراد أن ترسو السفينة قال : بسم الله فرست ، وإذا أراد أن تجرى قال : بسم الله فجرت على الماء ، فذلك قوله تعالى (بِسْمِ اللهِ مَجْرِيها وَمُرْسَاها) الآية (وَمَنْ آمَنْ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلاَّ قَلِيلٌ) من هم وكم هم ؟ قال قتادة : لم يكن فى السفينة إلا نوح وامرأته وثلاثة من بنيه سام وحام ويافث ونساؤهم ، فجميعهم ثمانية ، فأصاب حام امرأته فى السفينة ، فدعا نوح ربه ، قال : فتغيرت نطفته فجاء بالسودان .

قال الكلبى : أمر نوح أن لايقرب ذكر أنثى ما دام فى السفينة فوثب الكلب على الكلبة فدعا عليه نوح ، فقال نوح : اللهم اجعله عسرا . وقال الأعمش : كانوا سبعة : نوح وثلاثة بنين وثلاث كنائن له .وقال ابن إسحاق كانوا عشرة سوى نسائهم وهم : نوح وبنوه سام وحام ويافث ، وستة إناث ممن كانوا معه وأزواجهم جميعا . وقال مقاتل : كانوا سبعين ونوح وامرأته وبنوه الثلاثة ونساؤهم ، فكان الجميع ثمانية وسبعين نفسا نصفهم نساء ونصفهم رجال . وقال ابن عباس : كانوا ثمانين إنسانا ، وحمل نوح جسد آدم معه وجعله معه ضا حاجزا بين الرجال والنساء .

قالوا : فلما ركب نوح فى الفلك وأدخل معه كل من آمن كان ذلك فى شهر آب بالرومية ، فلما دخل وحمل معه من حمل تحركت ينابيع الأرض والغوط الأكبر ، وأمطرت السماء كأفواه القرب كما قال تعالى (فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنا الأَرْضَ عُيُونا فالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ) يعنى التقى ماء السماء وماء الأرض فجعل الماء ينزل من السماء وينبع من الأرض حتى كثر واشتد ، وكان بين إرسال الماء وبين احتمال الماء الفلك أربعين يوما وليلة ، ثم احتمل الماء الفلك ، وكان كنعان بن نوح تخلف عن أبيه . قال قتادة : لم يركب السفينة فناداه نوح (وَكانَ فى مَعْزِلٍ يا بُنَىَّ ارْكَبْ مَعَنا ولا تَكُنْ مَعَ الكافِرِينَ قالَ سآوِى إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الماءِ قالَ لاعاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إلاَّ مَنْ رَحِمَ) وكان عهد كنعان بالجبال أنها تحصن من المطر فظن ذلك كما كان ، فقال نوح (لاعاصِمَ اليومَ مِنْ أمرِ اللهِ إلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحالَ بينهُما المَوْجُ فكانَ مِنَ المُغْرَقِينَ) وكثر الماء فارتفع فوق الجبال . قال ابن عباس : ارتفع على أعلى جبل فى الأرض خمسة عشر ذراعا .

وروت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إنه لَوْ رَحِمَ اللهُ أحَدًا مِنْ قَوْمِ نُوحٍ لَرَحِمَ المَرأةَ أمَّ الصَّبِىِّ » وذلك أنها خشيت عليه من الماء وكانت تحبه حبا شديدا ، فخرجت به إلى الجبل حتى بلغت قلته ، فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل وحملت الصبى ، فلما بلغ رقبتها رفعته بيدها حتى ذهب بهما الماء ، فلو رحم الله أحدا منهم لرحم هذه . قالوا : ثم طافت السفينة بأهلها الأرض كلها فى ستة أشهر لاتستقر على شىء ، حتى أتت الحرم فلم تدخله ، ودارت بالحرم أسبوعا ، وقد رفع الله البيت الذى كان يحجه آدم صيانة له من الغرق ، وهو البيت المعمور ، وخبأ جبريل الحجر الأسود فى جبل أبى قبيس . فلما طافت السفينة بالحرم ذهبت فى الأرض تسير بهم حتى انتهت إلى الجودى ، وهو جبل حصين من أرض الموصل ، فاستقرت عليه . قال مجاهد : تشامخت الجبال وتطاولت لئلا ينالها ماء ، فعلا الماء فوقها خمسة عشر ذراعا ، وتواضع لأمر ربه الجودى ، فلم يغرق ، فأرست السفينة عليه ، فذلك قوله تعالى (واسْتَوَتْ عَلَى الجُودِىِّ) .

وقال ابن عباس : استوت السفينة على الجودى ، وقد باد ما على وجه الأرض من الكفار كل شىء فيه الروح والأشجار ، فلم يبق شىء من الحيوانات إلا نوح ومن معه فى الفلك وإلا عَوْجُ بن عُنُق ، فذلك قوله تعالى (وَقِيلَ بُعْدًا لِلقَوْمِ الظّالِمِينَ) أى هلاكا . قال ابن عباس : كان عَوْجٌ يحتجز بالسحاب ويشرب منه من طوله ، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها ثم يأكله ، فقال لنوح : احملنى معك فقال : اخرج يا عدو الله ، فإنى لم أومر بحملك ، وطبق الله الماء على وجه الأرض والجبال

وما بلغ ركبتى عوج بن عنق . فلما استوت السفينة على الجودى (قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ) أى انشقى (ويا سَماءُ أَقْلِعِي) أى احبسى ماءك (وغِيضَ المَاءُ) أى ذهب ونقص ، فصار ما نزل من السماء هذه البحور التى فى الأرض ، لأنها آخر ما بقى فى الأرض من ماء الطوفان ، وبقى فى الأرض أربعين سنة ثم ذهب .

وروى عن على بن زيد بن جُدْعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : قال الحواريون لعيسى بن مريم عليه السلام : لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها ، فانطلق بهم حتى انتهى بهم إلى كثيب من تراب ، فأخذ كفا من ذلك التراب ، فقال : أتدرون ما هذا ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : هذا سام بن نوح ، قال : ثم ضرب الكثيب بعصاه وقال له : قم بإذن الله ، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب ، فقال له عيسى : أهكذا هلكت ؟ قال : لا ، بل مت وأنا شاب ، ولكننى ظننت أنها الساعة فمن ثمَّ شبت ، فقال له : حدثنا عن سفينة نوح ، قال : كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات : طبقة فيها الدواب والوحوش وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير ، فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله إلى نوح أن اغمز ذنب الفيل ، فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة ، فأقبلا على الروث فأكلاه ، فلما كثرت الفأر فى السفينة وجعل يقرض حبالها ، وذلك أنه توالد فى السفينة أوحى الله تعالى إلى نوح أن اضرب بين عينى الأسد ، فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة ، فأقبلا على الفأر فأكلاه . فقال له عيسى : كيف علم نوح أن البلاد قد يبست ؟ قال : بعث نوح غرابا يأتيه بالخبر ، فوجد جيفة فوقع عليها واشتغل عن الرجوع ، فدعا عليه نوح بالخوف فلذلك لا يألف البيوت ، ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجليها ، فعلم أن البلاد قد جفت ، قال : فطوَّقها بالخضرة التى فى عنقها ، ودعا لها أن تكون فى أنس وأمان ، فمن ثم تألف البيوت ، فقالوا : يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلنا فيجلس معنا ويحدثنا ؟ قال : كيف يتبعكم من لا رزق له ؟ ثم قال له عُدْ بإذن الله تعالى ، فعاد ترابا .

قال أهل التاريخ : أرسل الله الطوفان لثلاثة عشر يوما خلت من آب ومضى ستمائة سنة من عمر نوح ، ولتتمة ألفى سنة ومائة سنة وست وخمسين سنة من لدن أهبط آدم إلى الأرض وركب نوح ومن معه فى السفينة لعشر خلون من رجب ، وخرجوا منها فى العاشر من المحرم ، فلذلك سمى يوم عاشوراء ، وأقاموا فى الفلك ستة أشهر . فلما هبط نوح ومن معه من الفلك سالمين ، صام نوح وأمر جميع من معه من الإنس والوحوش والدواب والطير فصاموا شكرا لله تعالى . ويقال : إن نوحا وقومه كانت قد أظلمت عليهم أعينهم فى السفينة من دوام النظر إلى الماء ، فأمروا بالاكتحال يوم عاشوراء الذى خرجوا فيه من السفينة .

عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنِ اكْتَحَلَ بالإِثْمِدِ يَوْمَ عاشُوراءَ لَمْ تَرْمَدْ عَيْنُهُ أَبَدًا » . فلما خرج نوح ومن معه من السفينة اتخذ

فى ناحية من أرض الجزيرة موضعا وابتنى هناك قرية سموها سوق ثمانين لأنه كان ابتنى فيها لمن آمن معه وهم ثمانون فهى اليوم تسمى سوق ثمانين ، فأوحى الله تعالى إلى نوح إنه لايعود الطوفان إلى الأرض أبدا ، وعاش نوح بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة ، فكان جميع عمره ألف سنة إلا خمسين عاما ، ثم قبضه الله تعالى إليه ، هذا هو أكثر أقاويل العلماء وكذلك هو فى التوراة . وقال عون بن أبى شداد : عاش نوح بعد الطوفان ألف سنة إلا خمسين عاما ، وقبله ثلثمائة وخمسين سنة ، فعلى هذا القول يكون مبلغ عمر نوح ألفا وثلثمائة سنة .

ويروى أنه قيل لنوح لما احتضر كيف وجدت الدنيا ؟ قال : كبيت له بابان : دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر . ولما حضرته الوفاة أوصى ابنه ساما وجعله ولى عهده ، وكان وُلِدَ له سام قبل الطوفان بثمان وسبعين سنة . وقيل لما حضرته الوفاة دعا ابنه ساما وهو بكره فقال : يا بنى أوصيك باثنتين وأنهاك عن اثنتين . فأما اللذان أنهاك عنهما فالإشراك بالله والكبر ، فإنه لايدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة من الشرك والكبر . وأما اللذان أوصيك بهما فإنى رأيتهما يكثران الولوج إلى الله تعالى : قول لاإله إلا الله وسبحان الله ، فإن قول لاإله إلا الله لو جمعت السموات السبع والأرضون السبع لخرقتهما حتى تبلغ إلى ربها ، ولو جعلت لاإله إلا الله فى كفة ميزان لرجحت بالسموات السبع والأرضين السبع وما فيها ، وأوصيك بسبحان الله ، فإنها صلاة الخلق وبها يرزقون .

ذكر خصائص نوح عليه السلام

وهى خمس عشرة خصلة : لم يسمَّ أحد من الأنبياء باسمه ، وسمى بذلك لكثرة نوحه على نفسه ، وكان أول نبى من أنبياء الشريعة ، وأول داع من الله تعالى ، وأول نذير عن الشرك ، وأول من عذبت أمته لردهم دعوته ، وأهلك أهل الأرض كلهم بدعائه . ويقال إن الله تعالى أوحى إليه بعد الطوفان : إنى خلقت خلقى وأمرتهم بطاعتى ، فانتهكوا معصيتى فاشتد لذلك غضبى ، فعذبت بذنوب العاصين من لم يعصنى ، وعذبت بذنوب بنى آدم جميع خلقى ، فبى حلفت إنى لاأعذب مثل هذا العذاب أحدا من خلقى بعدها ، ولكن أجعل الدنيا دولا بين عبادى ثم أجزيهم بأعمالهم إذا اجتمعوا عندى . وكان عليه السلام أطول الأنبياء عمرا ، وقيل له أكبر الأنبياء وشيخ المرسلين ، وجعل معجزته فى نفسه لأنه عمر ألف سنة ، ولم ينقص له سن ولم ينقص له قوة ، ولم يبالغ أحد من الرسل فى الدعوة مثل ما بالغ ، وكان يدعو قومه ليلا ونهارا وإعلانا وإسرارا ، ولم يلق نبى من أمته من الضرب والشتم وأنواع الأذى والجفاء ما لقى ، فلذلك قال الله تعالى (وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ) وجعل ثانى المصطفى صلى الله عليه وسلم فى الميثاق والوحى ، قال الله تعالى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ) وقال تعالى

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ) . وفى البعث هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، وأعطاه الفلك وعلمه صنعته وحفظه بما فيه وأجراه فوق الماء وسماه شكورا ، فقال تعالى (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) وأكرمه بالسلامة والبركة ، فقال تعالى (يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ) الآية .

قال محمد بن كعب القرظى : دخل فى ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة ، وجعل ذريته هم الباقين ، فهو أول البشر وأصل النسل .

وروى عن الحسن عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وُلِدَ لِنُوحٍ ثَلَاثَةٌ سَامٌ وَحَامٌ وَيَافِثٌ ، فَسَامٌ أَبُو الْعَرَبِ وَفَارِسَ وَالرُّومِ ، وَحَامٌ أَبُو السُّودَانِ ، وَيَافِثُ أَبُو التُّرْكِ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ » .

قال عطاء : ودعا نوح على حام أن لايعدو شعر ولده آذانهم ، وحيثما كان ولده يكونون عبيدا لولد سام ويافث . فلما هبط نوح وذريته من الفلك قسم الأرض بين ولده أثلاثا ، فجعل لسام وسط الأرض ، ففيها بيت المقدس والنيل والفرات ودجلة وسيحون وجيحون ، وذلك ما بين قيسون إلى شرقى النيل ، وما بين مجرى الجنوب إلى مجرى الشمال . وجعل لحام قسمه غربى النيل ، وما بين مجرى ريح الجنوب وماوراءه إلى سيحون إلى مجرى ريح الدبور . وجعل قسم يافث من قيسون فما وراءه إلى مجرى الصبا ، فذلك قوله تعالى (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ . إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) .

مجلس فى قصة هود عليه السلام

قال الله تعالى (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا) إلى (تَتَّقُونَ) وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وهو عاد الأولى كانوا ينزلون اليمن ، وكانت منازلهم منها بالشحر والأحقاف كما قال الله تعالى (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ) الآية ، وهو رمال يقال لها رمل عالج ، وهو ما بين عمان إلى حضرموت ، وكانوا مع ذلك قد فشوا فى الأرض وكثروا وقهروا أهلها لفضل قوتهم التى آتاهم الله تعالى ، وكان قد أعطاهم الله من القوة والقامة مالم يعط غيرهم كما قال الله تعالى (وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً) أى عظما وطولا وقوة وشدة . قال أبوحمزة اليمانى : كان طول كل رجل منهم سبعين ذراعا . وقال ابن عباس : ثمانين ذراعا . وقال الكلبى : كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعا . وقال وهب : كان رأس أحدهم كالقبة العظيمة ، وكانت عين الرجل منهم تفرخ فيها

السباع ، وكذلك مناخرهم ، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله تعالى ، فمنها صنم يقال له صدى وصنم يقال له هرد وصنم يقال له هبا ، فبعث الله إليهم هودا نبيا ، وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا ، وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص ابن إرم بن سام بن نوح . وقال محمد بن إسحاق بن يسار : وهود بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح ، وولد لشالخ عابر بعد أن مضى من عمره ثلاثون سنة ، فأمرهم هود أن يوحّدوا الله تعالى ولا يجعلوا معه إلها غيره ، وأن يكفوا عن ظلم الناس ، ولم يأمرهم فيما يذكر بغير ذلك ، فأبوا ذلك عليه وكذبوه ، وقالوا : من أشد منا قوة ، وبنوا المصانع وبطشوا فيها بطش الجبارين ، كما قال الله تعالى (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ) فلما فعلوا ذلك أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى أضرّ بهم ذلك، وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء وجهد طلبوا من الله تعالى الفرج ، وكان طلبهم ذلك من الله تعالى عند بيته الحرام بمكة مسلمهم وكافرهم ، فيجتمع بمكة ناس كثير شتى مختلفة أديانهم ، وكلهم معظم لمكة عارف بحرمتها ومكانتها عند الله تعالى وأهل مكة يومئذ العماليق . وإنما سموا العماليق لأن أباهم عمليق بن سام بن نوح ، وكان سيد العماليق إذ ذاك بمكة رجلا يقال له معاوية بن بكر ، وكانت أم معاوية اسمها ناهدة بنت الجبيرىّ رجل من عاد . فلما قحط المطر عن عاد جهدوا وقالوا : جهزوا منكم وفدا إلى مكة فليستسقوا لكم ، فبعثوا منهم قيل بن عنز ولقيم بن هزال بن هزيل وعبيل بن ضد بن عاد الأكبر ومرثد بن سعد بن عفير وكان مسلما كتم إسلامه ، وجلهمة بن الخبيرىّ خال معاوية بن بكر ، ثم بعثوا أيضا لقمان ابن عاد بن ضد بن عاد الأكبر ، فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم ومعه رهط من قومه حتى بلغ عدد وفدهم سبعين رجلا ، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارج الحرم ، فأنزلهم وأكرمهم ، وكانوا أخواله وأصهاره ، فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمور وتغنيهم الجرادتان وهما قينتان لمعاوية بن بكر ، وكان مسيرهم شهرا ومقامهم شهرا . فلما رأى معاوية طول مقامهم وقد بعثهم قومهم يستغيثون من البلاء الذى أصابهم شق ذلك عليه وقال : هلك أخوالى وأصهارى وهؤلاء مقيمون عندى وهم ضيفى ، والله ما أدرى كيف أصنع بهم ، فأستحيي أن آمرهم بالخروج إلى ما بعثوا إليه ، فيظنون أنه ضيق منى بمقامهم عندى ، وقد هلك مَن وراءهم قومهم جهدا وعطشا ، فشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين ، فقالتا له : قل شعرا نغنيهم به ولا يدرون من قاله ، لعل ذلك يحركهم ، فقال معاوية بن بكر :

ألا ياقيلُ وَيْحكَ قم فهينمْ   لعلّ الله يمنحنا غماما
فتُسقَى أرضُ عادٍ إنّ عادا   قدَ امسوا لايُبِينُونَ الكلاما

من العطش الشديد فليس نرجو · به الشيخَ الكبيرَ ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخيرٍ · فقد أمست نساؤهمُ عيامى
وإن الوحشَ يأتيهم جهاراً · ولا يخشى لعاديٍّ سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم · نهاركمُ وليلكمُ تماما
فقُبِّحَ وفدكُمْ من وفد قوم · ولا لُقُّوا التحيةَ والسلاما

فلما غنتهم الجرادتان بهذا قال بعضهم لبعض : يا قوم إنما بعثكم قومكم يستغيثون بكم من هذا البلاء الذى نزل بهم وقد أبطأتم عليهم ، فادخلوا هذا الحرم فاستسقوا لقومكم ، فقال مرثد بن سعد وكان قد آمن بهود عليه السلام سرا : إنكم والله لاتُسقَون بدعائكم ، ولكن إن أطعتم نبيكم وأنبتم إلى ربكم سقيتم ، فأظهر إسلامه عند ذلك . قال جلهمة بن الخيبرى خال معاوية حين سمع قوله وعرف أنه قد تبع دين هود عليه السلام :

أبا سعد فإنك من قبيلٍ · ذوى كرم وأمكَ من ثمودِ
فإنا لانطيعك ما بقينا · ولسنا فاعلين لما تريد
أتأمرنا لنترك دين رفد · ورمل وآل ضد والعبود
ونترك دين آباء كرام · ذوى رأى ونتبع دينَ هودِ

ثم قال لمعاوية بن بكر وأبيه بكر وكان شيخا كبيرا : احبسا عنا مرثد بن سعد حتى لايقدم معنا مكة ، فإنه قد تبع دين هود وترك ديننا ، ثم دخلوا إلى مكة يستسقون لعاد بها . فلما دخلوا مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية حتى أدركهم بمكة قبل أن يدعوا الله بشىء مما خرجوا إليه . فلما انتهى قام يدعو الله ووفد عاد قد أخذوا يدعون ، فجعل يقول اللهم أعطنى سؤلى وحدى ولا تدخلنى فى شىء مما يدعو به وفد عاد . وكان قَيل بن عنز رأس وفد عاد قد أمرهم أن يؤمنوا عليه ، فقال وفد عاد : اللهم أعط قيلا ما سألك واجعل سؤالنا مع سؤاله ، وكان تخلف عن وفد عاد لقمان بن عاد ولم يدخل فى دعوتهم ، فقال : اللهم إنى جئتك وحدى فى حاجتى فأعطنى سؤلى . وقال قَيل بن عنز حين دعا واستسقى : اللهم لم أجئ لمريض فأداويه ولا لأسير فأفاديه ، اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم يا إلهنا إن كان هود صادقا فاسقنا فإنا قد هلكنا ، فأنشأ الله سحائب ثلاثا : واحدة بيضاء ، وواحدة حمراء ، وواحدة سوداء ، ثم ناداه مناد من السحاب ألا يا قيل اختر لنفسك واحدة من هذه السحب الثلاث ، فقال قيل : اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء ، فناداه المنادى يقول : اخترت ياقيل رمادا رمددا لم تبق من آل عاد أحدا لاولدا تتركه ولا والدا إلا جعلتهم رميا همدا إلا بنى اللويدة المهداى . وبنو اللويدة رهط من هزال بن هزيل بن بكر ، وكانوا سكانا بمكة مع أخوالهم ، لم يكونوا مع عاد بأرضهم فهم عاد الآخرة . فساق الله السحابة السوداء التى اختارها قَيل بما فيها من النقمة إلى عاد حتى خرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث . فلما رأوها استبشروا بها (وَقَالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا)

فقال الله تعالى (بَلْ هُوَ ما استعجلتُم بِهِ رِيحٌ فيها عذابٌ أليمٌ . تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها) أى كل شىء مرت به ، وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح مهلكة امرأة من عاد يقال لها مهدد ، فلما تبينت ما فيها من العذاب صاحت ثم صعقت ، فلما أفاقت قالوا : ما رأيت ؟ قالت : رأيت ريحا فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها .

أخبرنا الحسن بن محمد بن الحسين ، أنبأنا محمد بن جعفر ، أنبأنا الحسن بن علوة ، أنبأنا إسمعيل بن عيسى ، أنبأنا إسحاق بن بشر ، أخبرنى المثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : أوحى الله تعالى إلى الريح العقيم أن تخرج على قوم عاد فتنتقم له منهم ، فخرجت بغير كيل ولا وزن على قدرمنخر ثور حتى رجفت الأرض مما يلى المشرق والمغرب ، قال : فقال الخزان : يا رب لن يطيقوها ولو خرجت على حالها لأهلكت ما بين مشارق الأرض ومغاربها ، فأوحى الله إليها أن ارجعى فاخرجى على قدر خرمة الخاتم وهي الحلقة ، قال : فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما : أى دائمة متتابعة ، فلم تدع أحدا من عاد إلا أهلكته ، وكان هود ومن معه قد اعتزلوا فى حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما يلين جلودهم وتلذّ به الأنفس ، وإنها من عاد لطن فتحملهم ما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة حتى هلكوا .

قال محمد بن إسحاق والسدى : بعث الله على عاد الريح العقيم ، فلما دنت منهم نظروا إلى الإبل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والأرض ، فتبادروا البيوت ، فلما دخلوها دخلت عليهم الريح فأخرجتهم منها فهلكوا ، فلما أهلكهم الله تعالى أرسل عليهم طيورا سودا لتلقيهم فى البحر فألقتهم فيه .

قال ابن بشار : لما خرجت الريح على عاد من الوادى قال تسعة رهط منهم أحدهم الخلجان وكان رئيسهم وكبيرهم فى ذلك الزمان تعالوا حتى نقوم على رأس الوادى فنردها ، فجعلت الريح تدخل تحت الواحد منهم ، فتحمله ثم ترمى به فيندقّ عنقه ، وكانت الريح تقلع الشجرة العظيمة بعروقها وتهدم عليهم بيوتهم وتقلعهم فتتركهم كما قال الله تعالى (كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ) حتى لم يبق منهم إلا الخلجان ، فمال إلى الجبل ، فأخذ بجانب منه فهزه ، فاهتز فى يده ثم أنشأ يقول :

لم يبق إلا الخلجان نفسه   يا لك من يوم دهانى أمسه
ثبت الوطء شديدا بطشه   لو لم يجئنى جئته وحبسته

فقال له هود : ويحك يا خلجان أسلم تسلم ، فقال له : ما لى عند ربك إذا أسلمت ؟ قال : الجنة ، قال : فما هؤلاء الذين أراهم فى السحاب كأنهم البُخْت ؟ قال هود : ذلك الملائكة ، قال : إن أسلمت أيَقيدنى ربك منهم لقومى ؟ قال : ويحك هل رأيت ملكا يتقيد من جنوده ؟ فقال : لو فعل ما رضيت ، فجاءت الريح فألحقته بأصحابه وأهلكته ، وأفنى الله عادا سوى من بقى من قومهم بمكة ونواحيها .

أخبرنا الحسين بن محمد الدينوري، أخبرنا أحمد بن محمد بن إسحاق السني، أخبرنا أبو يعلى الموصلي، أخبرنا إسحاق بن أبي إسرائيل وعبد الله بن عمر القواريري، أخبرنا جعفر ابن سليمان الضبيعي، أخبرنا فرقد السَّبَخِيّ، عن عاصم، عن عمرو البجلي، عن أبي أمامة الباهلي، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يَبِيتُ قَوْمٌ مِنْ هذِهِ الأُمَّةِ عَلَى طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَلَهْوٍ، فيُصْبِحُونَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ، ويُصِيبُهُمْ خَسْفٌ وَقَذْفٌ، فَيقولونَ لَقَدْ خُسِفَ اللَّيْلَةَ بِبَنِي فلانٍ، ولَيُرْسَلَنَّ عليهِم الرِّيحُ العَقِيمُ الَّتِي أهْلَكَتْ عاداً بِشُرْبِهِمُ الخمْرَ وأكْلِهِمُ الرِّبا واتِّخاذِهِمُ القَيْنَاتِ ولبْسِهِمُ الحَرِيرَ وقطْعِهِمُ الأرْحَامَ». قالوا: وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر فنزلوا عليه، فبينما هم عنده، إذ أقبل رجل على ناقة له في ليلة مقمرة من أمصار عاد، فأخبرهم بهلاك عاد، فقالوا له: أين فارقت هودا وأصحابه، قال: فارقتهم بساحل البحر، فكأنهم شكّوا فيما حدثهم به، فقالت هرملة بنت بكر: صدق ورب الكعبة، ومنوّر بن يعفر ابن أخي معاوية ابن بكر معهم. قالوا: وقد قيل لمرثد بن سعد ولقمان بن عاد، وقيل بن عنز حين دعوا بمكة: قد أعطيتم مناكم فاختاروا لأنفسكم. فقال مرثد: اللهم أعطني برا وصدقا فأعطى ذلك. وقال قيل: أختار أن يصيبني ما أصاب قومي، فقيل له هلاك؟ فقال: لا أبالي، لاحاجة لي في البقاء بعد قومي. فأصابه الذي أصاب عادا من العذاب فهلك. وقال لقمان: يا رب أعطني عمرا، فقيل له: اختر لنفسك بقاء سبع بعرات سمر من أظب عفر لا يمسها القطر، أو عمر سبعة أنسر إذا مضى نسر حُوِّلْتَ إلى نسر آخر، فاستحقر بقاء الأبعار واختار النسور، فعمر عمر سبعة أنسر، فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من بيضته، فيأخذ الذكر منها لقوته، فيربيه حتى إذا مات أخذ غيره، فلم يزل يفعل مثل ذلك حتى أتى إلى السابع، وكان كل نسر يعيش ثمانين سنة، فلما لم يبق غير السابع قال ابن أخ للقمان: يا عم لم يبق من عمرك إلا هذا النسر، فقال لقمان: يا بن أخي هذا لُبَد، ولُبَد بلسانهم الدهر. فلما انقضى عمر لبد طارت النسور غداة من رأس الجبل، ولم ينهض لُبَد فيها، وكانت نسور لقمان لا تغيب عنه. قال: فلما رأى لبدا لم ينهض مع النسور قام إلى الجبل لينظر ما فعل لبد، فوجد لقمان في نفسه وَهْنا لم يكن يجده قبل ذلك، فلما انتهى إلى الجبل رأى نسره لبدا واقفا بين النسور، فناداه: انهض لبد، فذهب لينهض فلم يستطع، فسقط ومات لقمان معه. وفيه جرى المثل: أتى أبد، على لُبَد. وقال النابغة الذبياني:

أضحت قفارا وأضحى أهلها احتملوا ... أخنى عليها الذى أخنى على لُبَـد

وقال محمد بن إسحاق: قال مرثد بن سعد حين سمع قول الراكب الذى أخبر بهلاك عاد:

عصتْ عاد رسولهم فأمسوا ... عطاشا ما تبلُّهـم السماءُ
وسيَّر وفدُهم شهرا ليُسقوا ... فأردفهم مع العطش العناءُ

بكفرهم بربهم جهارا ... على آثارهم عادَ العفاءُ
ألا نزعَ الإلهُ حلوم عاد ... فإن قلوبهم قفر هواءُ
من الرب المهيمن إذ عصَوه ... وما تغنى النصيحة والشقاءُ
فنفسى وابنتاى وأم وُلْدِى ... لنفس نبينا هود فداءُ
أتانا والقلوب معميات ... على ظلم وقد ذهب الضياءُ
لنا صنم يقال له صَمود ... يقابله صُدَىّ والهناءُ
فأبصره الذين له أنابوا ... وأدرك من يكذبه الشقاءُ
وإنى سوف ألحق آل هود ... وإخوته إذا جُنّ المساءُ

ثم إنه لحق بهود ومن آمن معه ، وبقى هود ما شاء الله ، ثم مات وعمره مائة وخمسون سنة . وقال أبو الطفيل عامر بن واثلة : سمعت عليا رضى الله عنه يقول لرجل من أهل حضرموت : هل رأيت كثيبا أحمر يخالطه مَدَرَة حمراء وأراك وسِدْر كثير بناحية كذا وكذا من حضرموت ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين إنك لتنعته لى نعت رجل قد رآه ، قال لا ، ولكننى قد حدثت عنه ؛ فقال الحضرمىّ : وما شأنه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : فيه قبر النبى هود عليه السلام . أخبرنا أبو عمرو أحمد بن أبى العرابى ، أنبأنا المغيرة بن عمرو بن الوليد بمكة فى المسجد الحرام بين الركن والمقام ، أنبأنا الفضل بن يحيى الجندى ، أنبأنا يونس بن محمد ، أنبأنا يزيد بن أبى حكيم عن سفيان الثورىّ عن عطاء عن السائب عن عبد الرحمن بن سابط أنه قال : بين الركن والمقام وزمزم قبور تسعة وتسعين نبيا ، وإن قبر هود وصالح وشعيب وإسمعيل عليهم السلام فى تلك البقعة . وفى رواية أخرى كان النبى من الأنبياء إذا هلك قومه ونجا هو والصالحون معه يأتى مكة هو ومن معه يعبدون الله تعالى حتى يموتوا . والله أعلم .

مجلس فى قصة صالح عليه السلام

قال الله تعالى (وإلى ثَمُودَ أخاهُمْ صَالِحًا) وهو ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جَدِيس ، وأراد ههنا القبيلة . قال أبو عمرو بن العلاء : سميت ثمودا لقلة مائها ، والثمد : الماء القليل ، وكانت مساكن ثمود الحِجر بين الحجاز والشام . وكان من قصتهم على ما ذكره محمد بن إسحاق بن يسار والسُّدّىّ والكلبى ووهب بن منبه وكعب وغيرهم من أهل الكتب دخل كلام بعضهم فى بعض : أن عادا الأولى لما أهلكهم الله تعالى وانقضى أمرهم عمرت ثمود بعدهم ، واستخلفوا فى الأرض ، فحلوا فيها وكثروا وعمروا حتى جعل بعضهم يبنى المسكن من الحجر والمدر فينهدم وهو حى ، فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتا ، فنحتوا منها وجابوها وجوّفوها ، وكانوا فى سعة من معايشهم كما قال الله تعالى (واذْكُرُوا إذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عاد وَبَوَّأكُمْ فى الأرضِ تَتَّخِذُونَ

مِنْ سُهُولِهَا قُصورًا وَتَنْحِتونَ الجِبالَ بُيُوتا فاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ ولا تَعْثَوْا فى الأرْضِ مُفْسِدِينَ) فخالفوا أمر الله وعبدوا غيره وأفسدوا فى الأرض ، فبعث الله إليهم صالحا نبيا ، وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ، وكانوا قوما عربا ، وكان صالح من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا ، فبعثه الله تعالى إليهم رسولا ، فدعاهم إلى الله تعالى وإلى عبادته ، فلم يتبعه إلا قليل مستضعفون ، فلما ألحّ عليهم صالح بالدعاء والتبليغ ، وأكثر عليهم التخويف والتحذير، سألوه أن يريهم آية تكون مصداقا لما يقول ، فقال : اللهم أرهم آية ليعتبروا بها ، ثم قال لهم : أىّ آية تريدون ؟ قالوا : تخرج معنا إلى عيدنا، وكان لهم عيد يخرجون إليه بأصنامهم فى يوم معلوم من السنة فتدعو إلهك وندعو آلهتنا، فإن استجيب لك اتبعناك ، وإن استجيب لنا اتبعتنا، فقال لهم صالح : نعم ، فخرجوا بأوثانهم إلى عيدهم ذلك ، وخرج صالح معهم ، فدعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح فى شىء مما يدعو به؛ ثم قال جُنْدَع بن عمرو بن جوّاس وهو يومئذ سيد ثمود: يا صالح، أخرج لنا من هذه الصخرة، يعنى الصخرة المنفردة عن الجبال فى ناحية الحِجر يقال لها الكاثبة ، ناقةً مخترجة جوفاء وبْراء عشراء ، والمخترجة: ما شاكلت البُخْتَ من الإبل ، فإن فعلت ذلك صدّقناك وآمنا بك ، فأخذ عليهم صالح الميثاقَ أنه إن فعل ذلك صدقوه وآمنوا به . ثم إن صالحا عليه السلام صلى ودعا الله تعالى بذلك ، فتمخضت الصخرة تمخض النَّتوج بولدها ، ثم تحركت الهضْبة فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما سألوه، لايعلم ما بين جنبيها إلا الله تعالى عِظَما وهم ينظرون، ثم نُتِجَت سقبا مثلها فى العظم، فآمن به جندع بن عمرو ورهط من قومه ، وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا بصالح ويتابعوه ، فنهاهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحبا أوثانهم ورباب بن صمعر، وكانوا من أشراف ثمود، وكان لجندع بن عمرو ابن عم يقال له شهاب ابن خليفة ، فأراد أن يسلم فنهاه أولئك الرهط فأطاعهم ، فقال رجل من ثمود :

وكانت عصبة من آل عمرو … إلى دين النبىّ دَعوا شهابا
عزيزَ ثمـودَ كلهم جميعا … فهمت أن يجيب ولو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزا … وماعـدلوا بصاحبهم ذُؤابا
ولكن الغواة من آل حجر … تولوا بعد رشدهم ذُبابا

فلما خرجت الناقة قال صالح : (هذهِ ناقَةٌ لهَا شِرْبٌ وَلكم شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلومٍ)، فكثت الناقة ومعها سَقْبها فى أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء،فكانت ترد الماء يوما ولهم يوم ، فإذا كان يومها وضعت رأسها فى بئر بأرض الحِجر يقال لها بئر الناقة ، فيرتفع الماء إليها، فما ترتفع رأسها إلاوقد شربت جميع ما فيها ولا تدع قطرة ماء فيها، فتتفجج ثم تروح عليهم ، فيحلبون من لبنها ما شاءوا ،فيشربون ويدّخرون ويملئون أوانيهم ، لكن تصدر من غير الفجّ الذى وردت منه ، لأنها لاتقدر أن تصدر من حيث وردت لأن

تضيق عليها . قال أبو موسى الأشعرى : أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعا . فإذا كان الغد من يومهم شربوا من الماء وقد أخرجه الله تعالى لهم من البئر وادّخروا ما شاءوا قدر كفايتهم فى يوم الناقة ، وكانوا من ذلك فى سعة ودعة ، وكانت الناقة فى الصيف إذا كان الحر تطلع ظهرَ الوادى فتهرب منها أغنامهم وبقرهم وإبلهم ، وتهبط إلى بطن الوادى فى حره وحدته ، فكانت المواشى تنفر منها إذا رأتها ، وإذا كان الشتاء سبقت الناقة فى بطن الوادى فتهرب مواشيهم إلى ظهر الوادى فى البرد والحدة ، فأضر ذلك مواشيهم للبلاء والاختبار ، فكان مراتعها الجبال ، فكبر ذلك عليهم حتى حملوا على عقر الناقة ، فاحتالوا فى عقرها ، وكانت امرأة من ثمود يقال لها عنيزة بنت غنم بن مخلد وتكنى أم غنم ، وهى من بنى عبيد بن المهلّ ، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو ، وكانت عجوزا مسنة ولها بنات حسان ومال كثير من الإبل والبقر والغنم ، وامرأة أخرى يقال لها صدوق بنت المحيا بن مهر ، وكانت غنية جميلة ذات مواش كثيرة ، وكانتا هاتان المرأتان من أشد الناس عداوة بصالح ، وكانتا تحتالان فى عقر الناقة من كفرهما بصالح بما أضرت مواشيهما ، وكانت صدوق عند ابن خال لها يقال له صنيم بن هراوة بن سعد بن الغطريف بن هلال فأسلم وحسن إسلامه ، وكانت صدوق قد فوضت إليه مالها ، فأنفقه على من أسلم معه من أصحاب صالح عليه الصلاة والسلام حتى نفد المال ، فاطلعت صدوق على إسلامه فعاتبته على ذلك ، فأظهر لها دينه ودعاها إلى الله تعالى فأبت عليه وأخذت أولادها فغيبتهم فى بنى عمها الذين هى منهم ، فقال لها زوجها : ردّى علىّ أولادى ، فلما ألحّ عليها قالت : حتى أحاكمك إلى بنى عمى ، وذلك أن بنى عم زوجها كانوا مسلمين فأبت أن تحاكمه إليهم ، فقال لها بنو عمها : والله لتعطنه ولده طائعة أو كارهة ، فلما رأت ذلك أعطته أولاده ، ثم إن صدوق وعنيزة احتالتا فى عقر الناقة للشقاء الذى كتب عليهما ، فدعت صدوق رجلا من ثمود يقال له الحباب فأمرته بعقر الناقة وعرضت عليه نفسها إن هو فعل ذلك ، فأبى عليها ، ثم إنها دعت ابن عم لها يقال له مصدع بن مهرج وجعلت له نفسها إن هو عقر الناقة ، وكانت من أوفر الناس جمالا وأكثرهم مالا وأحسنهم كمالا ، فأجابها إلى ذلك ، ودعت عنيزة قُدار بن سالف من أهل قدح ، واسم أمه قديرة ، وكان رجلا أشقر أزرق قصيرا ويزعمون أنه كان لزنية رجل يقال له صفوان ، ولم يكن لسالف ولكنه قد ولد على فراشه . فقالت له : ياقدار أعطيك من بناتى أيما شئت على أن تعقر الناقة وكان قدار عزيزا فى قومه وذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم « (إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاها) رَجُلٌ عَزِيزٌ فى قَوْمِه مِثْلُ أَبى زَمْعَةَ » قالوا : فانطلق قدار ومصدع ، فاستعانوا بمن استعانوا من ثمود فاتبعهم سبعة نفر ، وكانوا تسعة رهط كما قال الله تعالى (وكانَ فى المَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فى الأَرْضِ ولا يُصْلِحُونَ) فلقيهم هديات بن مبلغ خال قدار ، وكان عزيزا من أهل الحجر ،

ودعر بن غنم بن داعرة أخى مصدع وخمسة لم تذكر أسماؤهم ، فاجتمعوا على عقر الناقة :
قال السدى وغيره : أوحى الله إلى صالح أن قومك سيعقرون الناقة ، فقال لهم ذلك ، فقالوا : ما كنا لنفعل ذلك ، فقال : إنه سيولد فى شهركم هذا غلام يعقرها ويكون هلاككم على يديه ، فقالوا : لاجرم لايولد لنا فى هذا الشهر ولد إلا قتلناه ، فولد لتسعة منهم فى ذلك الشهر تسعة بنين فذبحوا أولادهم ، وولد للعاشر ابن فأبى أن يذبح ابنه ، وكان بِكْرَه لم يولد له قبل ذلك شىء ، وكان ابن العاشر أزرق أحمر ، فنبت نباتا سريعا ، وكان إذا مر بالتسعة ورأوه ندموا على ذبح أولادهم وقالوا : لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا ، فغضب التسعة على صالح لأنه كان سبب قتل أولادهم ، فتقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ، قالوا : نخرج فترى الناس أنا قد خرجنا لسفر ، فنأتى الغار فنكمن فيه ، حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فنقتله ، ثم نرجع إلى الغار فنكمن فيه ثم ننصرف بعد ذلك إلى رحالنا فنقول : (ماشَهِدْنا مَهْـلِكَ أهلِهِ وَإنَّا لصَادِقُونَ) فيصدقوننا ويظنون أنا قد خرجنا إلى سفر ، وكان صالح لاينام الليل معهم فى القرية ، وكان يأوى إلى مسجد يقال له مسجد صالح يبيت فيه فى الليل ، فإذا أصبح أتاهم ووعظهم وذكرهم ، فإذا أمسى خرج إلى المسجد فبات فيه . فلما دخلوا الغار وأضمروا أنهم يخرجون بالليل فيقتلونه سقطت عليهم صخرة من الغار فقتلتهم ، فانطلق رجال ممن كان قد اطلع على ذلك إلى الغار ، فإذا هم رضخ ، فرجعوا يصيحون فى القرية : يا عباد الله ما قنع صالح أن أمرهم بقتل أولادهم حتى قتلهم ، فأجمع أهل القرية على عقر الناقة .

وقال ابن إسحاق : إنما كان تقاسم التسعة على تبييت صالح عليه السلام بعد عقرهم الناقة وإنذار صالح إياهم بالعذاب ، وذلك أن التسعة الذين عقروا الناقة قالوا : هلم فلنقتل صالحا ، فإن كان صادقا كنا عجلنا قتله ، وإن كان كاذبا ألحقناه بناقته ، فأتوه ليلا ليبيتوه فى أهله ، فرمتهم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطئوا على أصحابهم أتى أصحابهم منزل صالح فوجدوهم مشدوخين قد رُضخوا بالحجارة ، فقالوا لصالح : أنت قتلتهم وهموا به ، فقامت عشيرته دونه وأخذوا السلاح ، وقالوا لهم : والله لاتقتلونه أبدا ، فقد وعدكم بأن العذاب نازل بكم فى ثلاث ، فإن كان صادقا لم تزيدوا ربكم عليكم إلا غضبا ، وإن كان كاذبا فأنتم من وراء ما تريدون ، فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك .

قال السدى وغيره : فلما ولد ابن العاشر يعنى قُدارا ، وكان يشب فى كل يوم شباب غيره فى الجمعة ، ويشب فى الجمعة شباب غيره فى الشهر ، ويشب فى الشهر شباب غيره فى السنة . فلما كبر جلس مع أناس يصيبون من الشراب ، فأرادوا ماء يمزجون به شرابهم ، وكان ذلك اليوم شرب الناقة ، فوجدوا الماء قد شربته الناقة ، فاشتد عليهم ذلك وقالوا : ما نصنع باللبن لو كنا نأخذ الماء الذى تشربه هذه الناقة فنسقيه أنعامنا وحرثنا كان خيرا لنا ، فقال ابن العاشر : هل لكم أن أعقرها ؟ قالوا : نعم .

وقال كعب : كان سبب عقرهم الناقة امرأة يقال لها ملكا كانت قد ملكت ثمود ، فلما أقبل الناس على صالح وصارت الرياسة إليه حسدته ، فقالت لامرأة يقال لها قطام ، وكانت معشوقة قدار بن سالف ، ولامرأة يقال لها قبال ، وكانت معشوقة مصدع بن مهرج ، وكان قدار ومصدع يجتمعان معهما كل ليلة يشربون الخمر ، فقالت لهما ملكا : إن أتاكما الليلة قدار ومصدع فلا تطيعاهما ، وقولا لهما إن الملكة حزينة لأجل صالح وناقته ، فنحن لانطيعكما حتى تعقرا الناقة ، فإن عقرتماها أطعناكما ، فلما أتياهما قالتا لهما هذه المقالة ، فقالا : نحن نعقرها .

قال ابن إسحاق وغيره ، فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما السبعة فرصدوا الناقة حتى صدرت عن المـاء ، وقد كمن لها قدار فى أصل شجرة على طريقها ، وكمن لها مصدع فى أصل شجرة أخرى ، فرت الناقة على مصدع فرماها بسهم ، فانتظم به عضلة ساقيها وخرجت أم غنم وعنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن النساء وجها ، فتراءت لقدار وأسفرت له عن وجهها وحرضته على عقر الناقة ، فشد عليها بالسيف فكشف عرقوبها فأرداها وطعن فى لَبَّتِها فنحرها ، وخرج أهل البلدة واقتسموها وأكلوا لحمها ، وكانت لما عقرها رغت . فلما رأى سَقْبُها ذلك انطلق حتى أتى جبلا منيعا يقال له ضوء وقيل اسمه قارة ، وروى ذلك مسندا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث شهر بن حوشب عن عمر بن خارجة ، فأتى صالح عليه السلام فقيل له : أدرك ناقتك فقد عقرت ، فأقبل وخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه ويقولون : يا نبى الله إنما عقرها فلان ولا ذنب لنا ، فقال لهم صالح : انظروا هل تدركون فصيلها ، فإن أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب ، فخرجوا يطلبونه ، فلما رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه ، فأوحى الله إلى الجبل فتطاول فى السماء حتى ما تناله الطير ، وجاء صالح عليه السلام ، فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ، ثم رغا ثلاثا وانفجرت الصخرة فدخلها ، فقال صالح عليه السلام : لكل أمة أجل فتمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ثم يأتيكم العذاب ذلك وعد غير مكذوب .

قال محمد بن إسحاق بن يسار : اتبع الفصيل أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة وفيهم مصدع وأخوه ذؤاب ولد مهرج ، فرماه بسهم مصدع فانتظم قلبه ثم جر برجله فأنزله وألحقوا لحمه مع لحم أمه ، فقال لهم صالح عليه السلام : انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله تعالى ونقمته ، فقالوا مستهزئين به : ومتى ذلك يا صالح ، وما آية ذلك ؟ وكانوا يسمون الأيام ، فيوم الأحد الأول ، والاثنين أهون ، والثلاثاء دُبار ، والأربعاء جُبار ، والخميس مؤنس ، والجمعة العروبة ، والسبت شبار ، وفيه يقول الشاعر :

أؤمل أن أعيش وإن يومى بأول أو بأهون أو جبار
أو المردى دُبار فإن أفتــه فمؤنس أو عروبة أو شبار

قالوا : وكان عقر الناقة يوم الأربعاء ، فقال لهم صالح عليه السلام حين سألوه عن

وقت العذاب وآيته : إنكم تُصْبِحون غُرَّةَ مؤنس ووجوهكم مصفرة ، ثم تصبحون يوم العروبة ووجوهكم محمرة ، ثم تصبحون يوم شبار ووجوهكم مسودة ، ثم يصبحكم العذاب يوم الأول ، فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرة كأنما طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم ، فأيقنوا بالهلاك وعرفوا أن صالحا قد صدقهم ، فطلبوه ليقتلوه، فخرج صالح عليه السلام هاربا منهم حتى لحق إلى بطن من ثمود يقال لها بنوغنم فنزل على سيدهم رجل منهم يقال له نفيل ويكنى أبا هدب وهو مشرك ، فغيبه عنهم فلم يقدروا عليه، فغدوا على أصحاب صالح يعذبونهم ليدلوهم عليه ، فقال رجل من أصحاب صالح يقال له مبدع بن هرم: يانبي الله إنهم ليعذبوننا لندلهم عليك، أفندلهم ؟ قال نعم ، فدلهم عليه مبدع فأتوا أبا هدب فكلموه فى ذلك ، فقال : نعم هو عندى ، وليس لكم إليه سبيل ، فأعرضوا عنه وتركوه ، وشغلهم عنه ما أنزل الله تعالى بهم من عذابه ، فجعل بعضهم يخبر بعضا بما يرون فى وجوههم ، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألاقد مضى يوم من الأجل . فلما أصبحوا اليوم الثانى إذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدم، فصاحوا وضجوا وبكوا وعرفوا أن العذاب واقع بهم ، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب . فلما أصبحوا اليوم الثالث إذا وجوههم مسودةٌ كأنما طليت بالقار ، فصاحوا جميعا ألا قد حضركم العذاب . فلما كان ليلة الأحد خرج صالح عليه السلام من بين أظهرهم وخرج معه من آمن به حتى جاءوا الشام فنزلوا رملة فلسطين . فلما أصبح القوم تكفنوا وتحنطوا ، وكان حنوطهم الصبر والمر ، وكانت أكفانهم الأنطاع ، ثم ألقوا أنفسهم بالأرض فجعلوا يقلبون أبصارهم إلى السماء مرة وإلى الأرض مرة ، لايدرون من أين يأتيهم العذاب ، فلما اشتد الضحى من يوم الأحد أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شىء له صوت فى الأرض ، فقطعت قلوبهم فى صدورهم ، فلم يبق فيهم صغير ولا كبير إلا هلك كما قال الله عز وجل (فَأَصْبَحُوا فى دارِهِمْ جاثِمِينَ كأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فيها ألا إنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ألا بُعْداً لِثَمُودَ) ولم ينج منهم إلا جارية مقعدة يقال لها ذريعة بنت شاف ، وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح ، فأطلق الله لها رجليها بعد ما عاينت العذاب أجمع ، فخرجت كأسرع شىء يكون حتى أتت قرحا وهو وادى القرى، حد ما بين الحجاز والشام، فأخبرتهم بما عاينت من العذاب وما أصاب ثمود ، ثم استسقت من الماء فسقيت ، فلما شربت ماتت .

وروى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله قال : لما مر النبى صلى الله عليه وسلم بالحجر فى غزوة تبوك قال لأصحابه « لايَدْخُلَنَّ أحدٌ منكُمْ هذهِ القَرْيَةَ ولا تَشْرَبوا مِنْ مائها ولا تدْخُلوا على هؤُلاءِ المُعَذَّبِينَ إلاَّ أنْ تكونوا باكِينَ أنْ يُصِيبَكُمْ مثل الّذى أصابَهُمْ » ، ثم قال : أمَّا بَعْدُ فلا تسْئلوا رَسولكُمُ الآياتِ ، هؤُلاءِ قَوْمُ

صالح سألوا رسولهم الآية فبعث الله لهم الناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فتشرب ماءهم يوم ورودها ، وأراهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتقى الفصيل حين ارتقى فى الغار فعتوا عن أمر ربهم وعقروها ، فأهلك الله تعالى من تحت أديم السماء منهم فى مشارق الأرض ومغاربها إلا رجلا واحدا يقال له أبورغال وهو أبو ثقيف كان فى حرم الله تعالى ، فمنعه حرم الله من عذاب الله تعالى ، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه ودفن معه غصن من ذهب ، وأراهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أبي رغال ، فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم وبحثوا عليه ، فاستخرجوا ذلك الغصن من الذهب ، ثم تقنع رسول الله صلى الله عليه وسلم بثوبه وأسرع السير حتى جاوز الوادى».

وقال أهل العلم : توفى صالح عليه السلام بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة ، وذلك أنه انتقل من الشام إلى مكة بعد ما أهلك الله تعالى قومه ، وكان يعبد الله تعالى هناك حتى مات وكان قد أقام فى قومه عشرين سنة .

أخبرنا محمد بن عبد الله بن حمدون قال : أخبرنا عبد الله بن محمد بن الحسن قال : حدثنا عبد الله بن هاشم حدثنا وكيع بن الجراح حدثنا قتيبة أبو عثمان عن أبيه عن الضحاك ابن مزاحم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا علي أتدرى ما أشقى الأولين ؟ قال : قلت الله ورسوله أعلم ، قال : عاقر الناقة ، قال : يا علي أتدرى من أشقى الآخرين ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : قاتلك » . والله أعلم .

مجلس فى قصه إبراهيم عليه السلام ، والنمروذ

وهو إبراهيم بن تارح بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان ابن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وكان اسم أبي إبراهيم الذى سماه به أبوه تارح ، فلما صار مع النمروذ قيما على خزائن آلهته سماه آزر . وقال مجاهد : إن اسم آزر ليس اسم أبيه ، وإنما هو اسم صنم ، وقال ابن إسحاق : ليس هو اسم صنم ، بل هو لقب عيب به ، وهو بمعنى معوج ، وقيل هو بالنبطية الشيخ الهرم ، وولد لناحور تارح بعد ما مضى من عمره سبع وعشرون سنة ، وهذا المجلس يشتمل على أبواب ، والله أعلم .

الباب الأول : فى مولد إبراهيم عليه السلام

اختلف العلماء فى الموضع الذى ولد فيه ، فقال بعضهم : كان مولده بالسوس من أرض الأهواز ، وقال بعضهم : كان مولده ببابل من أرض السواد بناحية يقال لها كوثا ، وقال بعضهم : كان مولده بالوركاء: ناحية فى حدود كسكر ، ثم نقله أبوه إلى الموضع الذى كان به نمروذ من ناحية كوثا . وقال بعضهم : كان مولده بحران ، ولكن أبوه نقله إلى أرض بابل . وقال عامة السلف من أهل العلم : ولد إبراهيم عليه السلام فى زمن نمروذ بن

كنعان ، وكان بين الطوفان وبين مولد إبراهيم عليه السلام ألف ومائتان وثلاث وستون سنة ، وذلك بعد خلق آدم عليه السلام بثلاثة آلاف وسبع وثلاثين سنة . ونمروذ الذى ولد فى ملكه إبراهيم : هو نمروذ بن كنعان بن سنحاريب بن كورش بن حام بن نوح . وفى الحديث « مَلَكَ الأَرْضَ أَرْبَعَةٌ : مُؤْمِنانِ وكافِرانِ : فأمَّا المُؤْمِنانِ فَسُلَيْمانُ ابْنُ داوُدَ وَذُو القَرْنَيْنِ عليهما السَّلامُ ، وأما الكافِرانِ فَنَمْرُوذُ وبُخْتَنَصَّرَ » وكان نمروذ أوّل من وضع على رأسه التاج وتجبر فى الأرض ، ودعا الناس إلى عبادته ، وكان له كهان ومنجمون ، فقالوا له : إنه يولد فى بلدك فى هذه السنة غلام يغير دين أهل الأرض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه ، ويقال : إنهم وجدوا ذلك فى كتب الأنبياء .

وقال السدىّ : رأى نمروذ فى منامه كأن كوكبا طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ، ففزع من ذلك فزعا شديدا ، ودعا السحرة والكهنة والقافة ، وهم الذين يخبطون فى الأرض وسألهم عن ذلك فقالوا : هو مولود يولد فى ناحيتك هذه السنة يكون هلاكك وهلاك أهل بيتك على يديه ، قال : فأمر نمروذ بذبح كل غلام يولد فى تلك الناحية تلك السنة ، وأمر بعزل الرجال عن النساء ، وجعل على كل عشرة رجلا رقيبا أمينا ، فإذا حاضت المرأة خلى بينه وبينها إذا أمن المواقعة ، فإذا طهرت عزل الرجل عنها ، فرجع آزر أبو إبراهيم فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فوقع عليها فى طهرها فحملت بإبراهيم عليه السلام .

وقال محمد بن إسحاق : بعث نمروذ إلى كل امرأة حبلى بقريته فحبسها عنه إلا ما كان من أم إبراهيم ، فإنه لم يعلم بحبلها ، وذلك أنها كانت جارية حديثة السن لم تعرف الحبل ولم يبن فى بطنها .

وقال السدىّ : خرج نمروذ بالرجال إلى العسكر ونحاهم عن النساء تخوّفا من ذلك المولود أن يكون ، فمكث كذلك ما شاء الله ، ثم بدت له حاجة إلى المدينة ، فلم يأتمن عليها أحدا من قومه إلا آزر ، فدعاه وقال له : إن لى إليك حاجة أحب أن أوصيك بها ، ولم أبعثك إلا لثقتى بك ، فأقسمت عليك أن لاتدنو من أهلك ولا تواقعها ، فقال آزر : أنا أشحّ على دينى من ذلك ، فأوصاه بحاجته ثم بعثه ، فدخل المدينة وقضى حاجته ، ثم قال : لو دخلت إلى أهلى فنظرت إليهم ؟ فلما نظر إلى أم إبراهيم لم يتمالك حتى وقع عليها ، فحملت بإبراهيم عليه السلام .

قال ابن عباس : لما حملت أم إبراهيم قال الكهان للنمروذ : إن الغلام الذى أخبرناك به قد حملت به أمه فى هذه الليلة ، فأمر نمروذ بذبح الغلمان ، فلما دنت ولادة أم إبراهيم وأخذها المخاض خرجت هاربة مخافة أن يطلع عليها فيقتل ولدها ، فوضعته فى نهر يابس

ثم لفته فى خرقة ووضعته فى حلفاء ورجعت، فأخبرت زوجها بابنها، وأنها قد ولدت، وأن الولد فى موضع كذا ، فانطلق أبوه فأخذه من ذلك المكان وحفر له سردابا عند نهر ، فواراه وسدّ عليه بابه بصخرة مخافة السباع ، وكانت أمه تختلف إليه فترضعه .

وقال السدىّ : لما عظم بطن أم إبراهيم خشى آزر أن تذبح ، فانطلق بها إلى أرض بين الكوفة والبصرة، يقال لها وركاء ، فأنزلها فى سرب من الأرض وجعل عندها مايصلحها وجعل يتعهدها ويكتم ذلك من أصحابه ، فولدت إبراهيم عليه السلام فى ذلك السرب ، فشبّ فكان وهو ابن سنة كابن ثلاث سنين، وصار من الشباب بحالة أسقطت عنه طمع الذباحين، ثم ذكر آزر لأصحابه أن له ابنا كبيرا ، فانطلق به إليهم .

قال ابن إسحاق : لما وجدت أم إبراهيم الطلْق خرجت ليلا إلى مغارة وكانت قريبا منها، فولدت فيها إبراهيم عليه السلام ، وأصلحت من شأنه ما يصلح بالمولود ، ثم سدت عليه المغارة ورجعت إلى بيتها ، ثم كانت تطالعه فى المغارة فتجده حيا يمصّ إبهامه .

قال أبو زريق : كانت أم إبراهيم كلما دخلت على إبراهيم عليه السلام وجدته يمصّ إبهامه، فقالت ذات يوم لأنظرنّ إلى أصابعه، فوجدته يمص من أصبع ماء ، ومن أصبع لبنا ، ومن أصبع عسلا ، ومن أصبع سمنا .

قال ابن إسحاق : وكان آزر سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل ، فقالت : ولدت غلاما فمات، فصدقها، وسكت عنها،وكان اليوم على إبراهيم عليه السلام فى الشباب كالشهر، والشهر كالسنة ، فلم يمكث إبراهيم عليه السلام فى المغارة إلا خمسة عشر يوما حتى جاء إلى أبيه آزر فأخبره أنه ابنه ، وأخبرته بما كانت صنعت فى شأنه، فسر آزر بذلك وفرح فرحا شديد .

الباب الثانى : فى خروج إبراهيم عليه السلام من السَّرَب ورجوعه إلى قومه
ومحاجته إياهم فى الدين وإلقائهم إياه فى النار وما يتعلق بذلك

قال أهل العلم بسير الماضين: لما شبّ إبراهيم عليه السلام وهو فى السَّرَب، قال لأمه : من ربى ؟ قالت : أنا ، قال : فمن ربك ؟ قالت : أبوك ، قال : فمن رب أبى ؟ قالت له: نمروذ، قال: فمن رب نمروذ؟ قالت له: اسكت، فسكت، ثم رجعت إلى زوجها فقالت: أرأيت الغلام الذى يحدث أنه يغير دين أهل الأرض فإنه ابنك ، ثم أخبرته بما قال لها، فأتاه أبوه آزر ، فقال له إبراهيم عليه السلام : يا أبتاه من ربى ؟ قال : أمك ، قال : فمن رب أمى ؟ قال : أنا ، قال : فمن ربك ، قال : نمروذ ، قال : فمن رب نمروذ ؟ فلطمه لطمة وقال: اسكت ، وذلك قوله عز وجل (وَلَقَدْ آتَيْنَا إبراهيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وكُنَّا بِهِ عالِمِينَ) . ثم قال لأبويه أخرجانى ، فأخرجاه من السَّرَب ، فانطلقا به حتى غابت الشمس ، فنظر إبراهيم عليه السلام إلى الإبل والبقر والغنم والخيل يُراح بها ، فسأل أباه ما هذه ؟ فقال : إبل وخيل وبقر وغنم ، فقال : ما لهذه بدّ من أن يكون لها رب خالق .

ثم نظر وتفكر فى خلق السموات والأرض وقال : إن الذى خلقنى ورزقنى وأطعمنى وسقانى لَرَبِّى ، مالى إله غيره ، ثم نظر فإذا المشترى قد طلع ، ويقال الزهرة ، وكانت تلك الليلة فى آخر الشهر ، فرأى الكوكب قبل القمر فقال : هذا ربى ، فذلك قوله تعالى (فَلَمَّا جَنَّ عليهِ اللَّيْلُ رأى كَوْكَبًا قالَ : هذَا ربى، فلَمَّا أفَلَ قالَ لاأُحِبُّ الآفِلِينَ . فلَمَّا رأى القَمَرَ بازِغًا قالَ: هذَا ربى. فلَمَّا أفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى ربى لأكونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ. فلَمَّا رأى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ: هذَا ربى، هذَا أكبَرُ) لأنه رأى ضوءها أعظم (فلَمَّا أفَلَتْ قالَ ياقَوْمِ إنى برىءٌ مِمَّا تُشْرِكونَ، إنى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذى فَطَرَ السَّمواتِ والأرضَ حَنِيفا وَما أنا مِنَ المُشْرِكِينَ) . قالوا : وكان أبوه يصنع الأصنام ، فلما ضم إبراهيم إلى نفسه، جعل يصنع الأصنام ويعطيها إبراهيم ليبيعها، فيذهب بها إبراهيم عليه السلام فينادى من يشترى ما يضر ولا ينفع ، فلا يشترى أحد منه ، فإذا بارت عليه، ذهب بها إلى نهر فضرب رءوسها، وقال لها : اشربى كسدت ، استهزاء بقومه، وبما هم عليه من الضلالة والجهالة ، حتى فشا عيبه إياها واستهزاؤه بها فى قومه وأهل قريته، فحاجه قومه فى دينه ، فقال لهم (أتحاجُّونِّى فى اللهِ وَقَدْ هَدَانِ) الآيات ـ إلى قوله عز وجل (وتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إبراهيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) حتى خصمهم وغلبهم بالحجة ، ثم إن إبراهيم عليه السلام دعا أباه آزر إلى دينه فقال: (يا أبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لايَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولايُغْنِى عنكَ شَيْئًا) إلى آخر القصة ، فأبى أبوه الإجابة إلى ما دعاه . ثم إن إبراهيم عليه السلام جاهر قومه بالبراءة مما كانوا يعبدون، وأظهر دينه فقال (أفرَأيْتُمْ ماكنتُمْ تَعْبُدُونَ أنتُمْ وآباؤُكُمُ الأقدَمونَ، فإنَّهمْ عَدُوٌّ لِى إلاَّ رَبَّ العالَمِينَ) قالوا فمن تعبد أنت؟ قال ربَّ العالمين، قالوا تعنى نمروذ؟ فقال لا . (الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ) إلى آخر القصة، ففشا ذلك فى الناس حتى بلغ نمروذ الجبار ، فدعاه فقال له : يا إبراهيم ! أرأيت إلهك الذى بعثك وتدعو إلى عبادته ، وتذكر من قدرته التى تعظمه بها على غيره ما هو ؟ قال إبراهيم عليه السلام: ربى الذى يحيى ويميت ، قال نمروذ : أنا أحيى وأميت ، قال إبراهيم : كيف تحيى وتميت؟ قال: آخذ رجلين قد استوجبا القتل فى حكمى ، فأقتل أحدهما فأكون قد أمته ، ثم أعفو عن الآخر فأتركه فأكون قد أحييته ، فقال له إبراهيم عند ذلك : إن الله يأتى بالشمس من المشرق فائت بها من المغرب ، فبهت عند ذلك نمروذ، ولم يرجع إليه شيئا، ولزمته الحجة، فذلك قوله عز وجل (فَبُهِتَ الَّذى كَفَرَ) الآية . ثم إن إبراهيم عليه السلام أراد أن يرى قومه ضعفَ الأوثان التى كانوا يعبدونها من دون الله ، وعجزها ، إلزاما للحجة عليهم ، فجعل ينتهز لذلك فرصة ، ويحتال فيه إلى أن حضره عيد لهم .

قال السدى : كان لهم فى كل سنة عيد يخرجون إليه ويجتمعون فيه ، فكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ، ثم عادوا إلى منازلهم ، فلما كان ذلك العيد قال أبو إبراهيم : يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا ، فخرج معهم إبراهيم ، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال : إنى سقيم أشتكى رجلى ، فتولوا عنه وهو صريع فلما مضوا نادى فى آخرهم وقد بقى ضعفاء الناس (وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) ، فسمعوها منه .

وقال مجاهد وقتادة : إنما قال إبراهيم عليه السلام هذا فى سرّ من قومه ولم يسمع ذلك إلا رجل واحد منهم ، وهو الذى أفشاه عليه . قالوا : ثم رجع إبراهيم عليه السلام من الطريق إلى بيت الآلهة ، فإذا فى البيت بَهو ، مستقبل باب البَهو صنم عظيم يليه أصغر منه إلى باب البَهو ، وإذا هم قد جعلوا طعاما فوضعوه بين يدى الآلهة وقالوا : إذا كان حين رجوعنا رجعنا وقد باركت الآلهة فى طعامنا أكلنا ، فلما نظر إبراهيم عليه السلام إلى الأصنام وإلى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء : ألا تأكلون ؟ فلما لم تجبه قال (مَالَكُمْ لَاتَنْطِقُونَ ؟ - فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ) وجعل يكسرهنّ بفأس فى يده حتى لم يبق إلا الصنم الأكبر ، فعلق الفأس فى عنقه ثم خرج ، فذلك قوله عز وجل (فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ) فلما جاء القوم من عيدهم إلى بيت آلهتهم ورأوها بتلك الحالة (قَالُوا مَنْ فَعَلَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) هو الذى نظنه صنع هذا ، فبلغ ذلك نمروذ الجبار وأشراف قومه، فـ (قَالُوا: فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ) عليه أنه هو الذى فعل ، وكرهوا أن يأخذوه بغير بينة، قاله قتادة والسدى، وقال الضحاك: لعلهم يشهدون بما نصنع به ونعاقبه . فلما أحضروه قالوا له (أَأَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا يا إِبْرَاهِيمُ) قال إبراهيم (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا) غضب أن تعبدوا معه هذه الأصنام الصغار وهو أكبر منها فكسرهن (فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) قال النبى صلى الله عليه وسلم « لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ كُلُّهَا فِى اللهِ تَعَالَى: قَوْلُهُ إِنِّى سَقِيمٌ ، وَقَوْلُهُ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا ، وَقَوْلُهُ لِلْمَلِكِ الَّذِى عَرَضَ لِسَارَةَ هِيَ أُخْتِى » . فلما قال لهم إبراهيم ذلك رجعوا إلى أنفسهم فقالوا : إنكم أنتم الظالمون هذا الرجل فى سؤالكم إياه ، وهذه آلهتكم التى فعل بها ما فعل حاضرة ، فاسألوها وذلك قول إبراهيم عليه السلام (فاسألوهم إن كانوا ينطقون) فقال قومه ما نراه إلا كما قال . وقيل إنكم أنتم الظالمون بعبادتكم الأوثان الصغار مع هذا الكبير ، ثم نكسوا على رءوسهم متحيرين فى أمره ، وعلموا أنها لا تنطق ولا تبطش، فقالوا : لقد علمت ما هؤلاء

ينطقون ، فلما اتجهت الحجة عليهم لإبراهيم عليه السلام قال لهم (أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا ينفعُكُمْ شَيْئاً ولا يضُرُّكُمْ أُفٍّ لكُمْ ولِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أفلا تَعْقِلُونَ) فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) قال عبد الله بن عمر : إن الذى أشار عليهم بتحريق إبراهيم عليه السلام بالنار رجل من الأكراد ، قال شعيب الجبائى : اسمه هينون ، فخسف الله تعالى به الأرض ، وهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

قال : فلما أجمع نمروذ وقومه على إحراق إبراهيم عليه السلام حبسوه فى بيت وبنوا له بنيانا كالحظيرة ، فذلك قوله عز وجل (قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِى الْجَحِيمِ) ثم جمعوا له من أصلب الحطب وأصناف الخشب حتى إن كانت المرأة لتمرض فتقول : لئن عافانى الله تعالى لأجمعن حطبا لإبراهيم ، وكانت المرأة تنذر فى بعض ما تطلب مما تحب أن تدرك لئن أصابته لتحتطبنّ حطبا وتجعله فى النار التى يحرق بها إبراهيم احتسابا فى دينها .

قال ابن إسحاق : كانوا يجمعون الحطب شهرا حتى إذا كثر الحطب وجمعوا منه ما أرادوا أشعلوا النار فى كل ناحية بالحطب ، فاشتعلت النار حتى إن كان الطير ليمر بها فيحترق من شدة وهجها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام فرفعوه على رأس البنيان وقيدوه ، ثم اتخذوا منجنيقا بإشارة إبليس لعنه الله تعالى ، حيث لم يتمكنوا من إلقائه فى النار من شدة حرها ، فاتخذوا المنجنيق ووضعوه فيه مقيدا مغلولا صلوات الله عليه ، فضجت السموات والأرض والجبال ومن فيها من الملائكة وجميع الخلق إلا الثقلين ضجة واحدة، وقالوا: أى ربنا إبراهيم ليس فى أرضك أحد يعبدك غيره يحرق فى النار ؟ فأذن لنا فى نصرته . فقال الله تعالى لهم : إن استعان بشىء منكم أو دعاه فلينصره ، فقد أذنت لكم فى ذلك ، وإن لم يدع غيرى فأنا أعلم به وأنا وليه ، فخلوا بينى وبينه . فلما أرادوا إلقاءه فى النار أتاه ملك المياه ، فقال له : إن أردت أخمدت النار ، فإن خزائن المياه والأمطار بيدى ، وأتاه خازن الريح فقال : إن شئت طيرت النار فى الهواء ، فقال إبراهيم عليه السلام : لاحاجة لى إليكم ، ثم رفع رأسه إلى السماء فقال : اللهم أنت الواحد فى السماء وفى الأرض ، ليس فى الأرض أحد يعبدك غيرى . وروى المعتمر عن أبىّ بن كعب عن أرقم أن إبراهيم عليه السلام حين أوثقوه ليلقوه فى النار قال : لاإله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك لاشريك لك ، ثم رموا به بالمنجنيق إلى النار فى موضع شاسع ، فاستقبله جبريل عليه السلام فقال يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ، قال جبريل : فاسئل ربك ، فقال إبراهيم عليه السلام : حسبى من سؤالى،علمه بحالى ، حسبى الله ونعم الوكيل . وفى الخبر أن إبراهيم عليه السلام إنما نجا بقوله : حسبى الله ونعم الوكيل ، قال الله عز وجل (يَا نَارُ كُونِى بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ) .

قال السدى : كان جبريل عليه السلام هو الذى ناداها بأمر الله تعالى . قال على بن أبى طالب رضى الله عنه وابن عباس : لو لم يقل وسلاما لمات إبراهيم من بردها ، ولم يبق حينئذ نار فى الأرض إلا طفئت ، ظنت أنها تعنى .

قال كعب الأحبار : روى قتادة والزهرىّ : ما انتفع أحد من الأرض يومئذ بنار ولا أحرقت النار يومئذ شيئا إلا وثاق إبراهيم عليه السلام، ولم يبق يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار إلا الوَزَغ ، فلذلك أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله وسماه فويسقا .

قال السدىّ : فأخذت الملائكة بضبعى إبراهيم، فأقعدته على الأرض ، فإذا عين ماء وورد أحمر ونرجس ، قالوا : فأقام إبراهيم فى النار سبعة أيام ، قال المنهال بن عمرو : قال إبراهيم خليل الله : ما كنت أياما قط أنعم منى عيشا فى الأيام التى كنت فيها فى النار .

قال ابن إسحاق وغيره : وبعث الله ملك الظل فى صورة إبراهيم عليه السلام فقعد فيها إلى جنب إبراهيم وهو يؤنسه ، فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير وقال له : يا إبراهيم إن ربك يقول : أما علمت أن النار لاتضر أحبابى ؟ وألبسه القميص ، ثم أشرف نمروذ من صرح له عال، ونظر إلى إبراهيم عليه السلام ، وما يشك أنه قد هلك ، فرآه جالسا فى روضة ورأى الملك قاعدا إلى جنبه ، وحوله نار تحرق ماجمعوا من الحطب، فناداه نمروذ يا ابراهيم كبيرٌ إلهك الذى بلغت قدرته أن حال بينك وبين النار حتى لم تضرك ، يا إبراهيم فهل تستطيع أن تخرج منها ؟ قال نعم ، قال : فهل تخشى إن أقمت فيها أن تضرك ؟ قال لا، قال : قم فاخرج منها ، فقام إبراهيم عليه السلام يمشى فيها حتى خرج منها . فلما خرج إليه قال له : يا إبراهيم من الرجل الذى رأيت معك فى مثل صورتك قاعدا إلى جنبك ؟ قال : ملك الظل أرسله إلىّ ربى ليؤنسنى فيها ، فقال نمروذ : يا إبراهيم إنى مقرب إلى إلهك قربانا لما رأيت من قدرته وعزمه فيما صنع بك حين أبيت إلا عبادته وتوحيده ، إنى ذابح له أربعة آلاف بقرة، فقال له إبراهيم: لايقبل الله منك شيئا ما كنت على دينك هذا حتى تفارقه إلى دينى ، فقال يا إبراهيم لاأستطيع ترك ملكى ، ولكن سوف أذبحها له ، فذبحها وقربها ومنع العذاب عن إبراهيم ، ثم إنه قال لإبراهيم : نعم الرب ربك يا إبراهيم .

قال الشعبى : أُلقى إبراهيم عليه السلام فى النار وهوابن ست عشرة سنة، وذُبح إسحاق وهو ابن سبع سنين ، وولدته سارة رضى الله عنها وهى ابنة تسعين سنة ، وكان مذبحه من بيت المقدس على ميلين . ولما علمت سارة بما أراد بإسحاق بقيت يومين وماتت فى اليوم الثالث .

قال ابن إسحاق : استجاب لإبراهيم عليه السلام رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله عز وجل به من جعل الله النار عليه بردا وسلاما على خوف من نمروذ وملئهم، فآمن به لوط ، وكان ابن أخيه، وهو لوط بن هاران بن تارخ، وهاران هو أخو إبراهيم عليه السلام وكان لهما أخ ثالث يقال له ناحور بن تارخ، فهاران أبولوط ، وناحور أبوتنويل ، وتنويل أبولابان ، ورفقا بنت تنويل امرأة إسحاق بن إبراهيم أم يعقوب ، وليا وراحيل زوجتا

يعقوب عليه السلام، وهما ابنتا لابان ، وآمنت أيضا به سارة وهى بنت عمه ، وهى سارة بنت هاران الأكبر عم إبراهيم عليه السلام .

وقال السدىّ : كانت سارة بنت ملك حران ، وذلك أن إبراهيم ولوطا عليهما السلام انطلقا قِبَل الشام، فلقى إبراهيم سارة وهى بنت ملك حران، وكانت قد طعنت على قومها فى دينهم ، فتزوجها إبراهيم عليه السلام على أن لايضرها .

قال ابن إسحاق: خرج إبراهيم عليه السلام من كُوثَى من أرض العراق مهاجرا إلى ربه عز وجل ، وخرج معه لوط وسارة عليهما السلام كما قال الله تعالى (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى) فخرج حتى نزل حران ، فمكث بها ما شاء الله تعالى أن يمكث، ثم خرج منها حتى قدم مصر ، ثم خرج من مصر إلى الشام، فنزل السَّبْع من فلسطين وهى برية الشام ، ونزل لوط بالمؤتفكة وهى من السبع على مسيرة يوم وليلة ، فبعثه الله تعالى نبيا، فذلك قوله عز وجل (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) يعنى الشام ، وبركتها أن بعث منها أكثر الأنبياء ، وهى الأرض المقدسة ، وأرض المحشر والمنشر، وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام ، وبها يهلك الله تعالى المسيخ الدجال بباب لدّ، وهى أرض خصبة كثيرة الأشجار والأنهار والثمار، يطيب فيها العيش للغنى والفقير .

قال أبىّ بن كعب : ما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التى ببيت المقدس ثم يتفرق فى الأرض ، والله أعلم .

الباب الثالث : فى ذكر مولد إسماعيل وإسحاق عليهما السلام ونزول إسمعيل وأمه هاجر الحرم ، وقصة بئر زمزم

قال أهل العلم بسير الماضين : لما نجى الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام آمن به من آمن وتابعوه على فراق قومهم وإظهار البراءة منهم ، فقالوا : إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم أيها المعبودون من دون الله وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أيها العابدون حتى تؤمنوا بالله وحده ، ثم خرج إبراهيم عليه السلام مهاجرا إلى ربه ، وخرج معه لوط عليه السلام وتزوج إبراهيم عليه السلام بابنة عمه سارة ، فخرج بها يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادته لربه حتى نزل حران ، فمكث بها ما شاء الله أن يمكث ، ثم خرج منها مهاجرا حتى قدم مصر ، وبها فرعون من الفراعنة الأولى ، وكانت سارة من أحسن النساء وأجملهن ، وكانت لاتعصى إبراهيم عليه السلام فى شىء ، وبذلك أكرمها الله تعالى . قال : فأتى الجبارَ رجل وقال له : إن ههنا رجلا معه امرأة من أحسن النساء ، ووصف له حسنها وجمالها ، فأرسل الجبار إلى إبراهيم عليه السلام ، فجاءه ، فقال له : ما هذه المرأة منك ؟ فقال هى أختى ، وتخوّف إن قال هى امرأتى أن يقتله ، فقال له : زينها وأرسلها إلىّ حتى أنظر إليها ، فرجع إبراهم إلى سارة عليها السلام وقال لها : إن هذا الجبار قد سألنى عنك

فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى عنده ، فإنك أختى فى كتاب الله عز وجل ، وإنه ليس فى هذه الأرض مسلم غيرى وغيرك ، ثم أقبلت سارة إلى الجبار ، وقام إبراهيم عليه السلام يصلى ، فلما دخلت عليه ورآها أهوى إليها يتناولها بيده فيبست يده إلى صدره . فلما رأى الجبار ذلك أعظم أمرها ، وقال لها : سلى ربك أن يطلق يدى فوالله لا آذيتك ، فقالت سارة : اللهم إن كان صادقا فأطلق له يده ، فأطلق الله تعالى يده .

وفى بعض الأخبار المسندة أنه فعل ذلك ثلاث مرات يقصد أن يتناولها فتيبس يده ، فلما رأى ذلك ردها إلى إبراهيم ووهب لها هاجَر وهى جارية قبطية ، فأقبلت إلى إبراهيم، فلما أحس بها إبراهيم انفتل من صلاته قال مَهْيَم؟ فقالت : كفى الله كيد الفاجر وأخدمنى هاجَر. قال محمد بن سيرين : كان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فتلك أمكم يا بنى ماء السماء .

وفى بعض الأخبار : أن الله تعالى رفع الحجاب بين إبراهيم وسارة ، حتى كان ينظر إليها من وقت خروجها من عنده إلى وقت انصرافها إليه كرامة لها وتطييبا لقلب إبراهيم عليه السلام . قالوا : وكانت هاجَر ذات هيئة ، فوهبتها سارة لإبراهيم ، فقالت : إنى أراها امرأة وضيئة ، فخذها لعل الله تعالى أن يرزقك منها ولدا ، وكانت سارة قد مُنِعت الولد حتى أسنَّت ، فوقع إبراهيم على هاجر فولدت له إسمعيل عليه السلام .

روى محمد بن إسحاق عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك الأنصارى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِذَا افْتَتَحْتُمْ مِصْرَ فاسْتَوْصُوا بأَهْلِها خَيْراً فإنَّ لَهُمْ ذِمَّةً ورَحِماً » قال ابن إسحاق: فسألت الزهرى ما الرحم الذى ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : كانت هاجَر أم إسمعيل منهم .

قالوا : ثم خرج إبراهيم من مصر إلى الشام ، وهاب ذلك الملك الذى كان بها وأشفق من شره ، فنزل السَّبْع من أرض فلسطين واحتفر بها بئرا واتخذ بها مسجدا، وكان ماء تلك البئر معينا ظاهرا ، وكانت غنمه تردُها ، فأقام إبراهيم عليه السلام بالسبع مدة ، ثم إن أهلها آذوه فيها ببعض الأذى ، فخرج منها حتى نزل بناحية من أرض فلسطين بين الرملة وإيليا ببلد يقال لها قطة . فلما خرج من بين أظهرهم نضب ماء تلك العين وذهب ، فندم أهل السبع جميعا على ما صنعوا وقالوا : أخرجنا من بين أظهرنا رجلا صالحا ، فاتبعوا أثره حتى أدركوه وسألوه أن يرجع ، فقال : ما أنا براجع إلى بلد أخرجت منه ، قالوا : إن الماء الذى كنت تشرب ونشرب معك قد نَضَب وذهب ، فأعطاهم سبعة أعنز من غنمه وقال : اذهبوا بها معكم ، فإنكم إذا أوردتموها البئر ظهر الماء حتى يكون معينا ظاهرا كما كان فاشربوا منها ولا تقربنها امرأة حائض ، فخرجوا بالأعنز . قال : فلما وقفت على البئر ظهر الماء، فكانوا يشربون منها وهى على تلك الحال حتى أتتها امرأة طامث، فاغترفت منها فركد ماؤها إلى الذى هو عليه اليوم .

وأقام إبراهيم عليه السلام ببلده ، وكان يضيف من نزل به ، وقد وسع الله تعالى عليه ، وبسط له من الرزق والمال والخدم .

فلما أراد الله تعالى هلاك قوم لوط عليه السلام ، بعث إليه رسله يأمرونه بالخروج من بين أظهرهم ، وأمرهم أن يبدءوا بإبراهيم عليه السلام ويبشروه وسارة بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ، فلما نزلوا على إبراهيم عليه السلام وكان الضيف قد حبس عنه خمسة عشر يوما حتى شق عليه ذلك ، وكان لايأكل إلا مع ضيف ما أمكنه ، فلما رآهم على صورة الرجال سرّ بهم ، ورأى ضيوفا لم يضيف مثلهم حسنا وجمالا ، فقال : لايخرج لهؤلاء القوم إلا أنا ، فخرج فجاء بعجل سمين حَنِيذ ، وهو المشوىّ بالحجارة ، فقربه إليهم ، فأمسكوا أيديهم عنه ، (فقَالَ لَهم) : ألا تأكلون ؟ (فلَمَّا رأى أيْدِيَهُمْ لاتَصِلُ إليهِ نَكِرَهُمْ وأوْجَسَ مِنْهُمْ خيفَةً) حيث لم يأكلوا من طعامه ، فقالوا يا إبراهيم : لانأكل طعاما إلا بثمن ، قال : فإن لهذا ثمنا ، قالوا : وما ثمنه ؟ قال : تذكرون اسم الله تعالى على أوله ، وتحمدونه على آخره ، فنظر جبريل إلى ميكائيل عليهما السلام وقال : يحق لهذا أن يتخذه ربه خليلا ، ثم قالوا له : لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته سارة قائمة تخدمهم وإبراهيم قاعد معهم ، فلما أخبروه بما أرسلوا به وبشروه بإسحاق ويعقوب ضحكت سارة .

واختلف العلماء فى العلة الجالبة لضحكها ما هى ؟ فقال السدىّ : إنما ضحكت سارة حيث لم يأكلوا من طعامهم ، وقالت : يا عجبا لأضيافنا هؤلاء إنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم وهم لايأكلون طعامنا ! وقال قتادة : ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم . وقال مقاتل والكلبى : ضحكت من خوف إبراهيم من ثلاثة وهم فيما بين خدمه وحشمه . وقال ابن عباس : ضحكت تعجبا من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسنّ زوجها ، وكانت هى بنت تسعين سنة ، وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة .

قال السدىّ : قالت سارة لجبريل عليه السلام لما بشرها بالولد على حالة الكبر : ما آية ذلك ؟ فأخذ بيده عودا يابسا فلواه بين أصابعه فاهتز أخضر ، فقال إبراهيم : هو لله إذن ذبيح . وقال مجاهد وعكرمة : فضحكت ، أى حاضت فى الوقت ، تقول العرب : ضحكت الأرنب إذا حاضت . وقال السدىّ وابن يسار وغيرهما من أهل الأخبار : فحملت سارة بإسحاق ، وقد كانت حملت هاجر بإسماعيل فوضعتا معا ، فشب الغلامان ، فبينما هما يتناضلان ذات يوم وقد كان إبراهيم عليه السلام سابق بينهما ، فسبق إسماعيل فأخذه وأجلسه فى حجره ، وأجلس إسحاق إلى جانبه وسارة تنظر إليه ، فغضبت وقالت : عمدت إلى ابن الأمة فأجلسته فى حجرك ، وعمدت إلى ابنى فأجلسته إلى جنبك وقد حلفت أن لاتضرنى ولا تسوءنى ، وأخذها ما يأخذ النساء من الغَيْرة ، فحلفت لتقطعنّ بَضْعة منها ولتغيرنّ خلقها ، ثم ثاب إليها عقلها فبقيت متحيرة فى ذلك ؛ فقال لها إبراهيم عليه السلام : اخفضيها واثقبى أذنيها ، ففعلت ذلك فصارت سنة فى النساء . ثم إن إسمعيل وإسحاق عليهما

السلام اقتتلا ذات يوم كما تفعل الصبيان ، فغضبت سارة على هاجر وقالت : لاتساكنيني في بلد واحد ، وأمرت إبراهيم عليه السلام أن يعزلها عنها ، فأوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام أن يأتي بهاجر وابنها مكة ، فذهب بهما حتى قدم مكة وهي إذ ذاك عِضاه وسَلَم وسَمُر ، وبحواليها خارج مكة ناس يقال لهم العماليق ، وموضع البيت يومئذ ربوة حمراء . فقال إبراهيم عليه السلام لجبريل عليه السلام : هِهنا أُمرتُ أن تضعها ؟ قال : نعم . فعمد بها إلى موضع الحجر فأنزلهما فيه ، وأمر هاجر أم إسمعيل أن تتخذ عريشا ، ثم قال (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) ثم انصرف ، فاتبعته هاجر وقالت : إلى من تكلنا ؟ فجعل لايرد عليها شيئا ، فقالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، فقالت : إذن لايضيعنا . ثم انصرف راجعا إلى الشام ، وكان مع هاجر شنة فيها ماء ، فنفد الماء فعطشت وعطش الصبي ، فنظرت أيّ الجبال أدنى من الأرض ، فصعدت الصفا ، وتسمّعت : هل تسمع صوتا أو ترى إنسيا ؟ فلم تسمع شيئا ولم تر أحدا ، ثم إنها سمعت أصوات سباع الوادي نحو إسمعيل ، فأقبلت إليه بسرعة لتؤنسه ، ثم سمعت صوتا نحو المروة فسعت وما تريد السعي كالإنسان المجهود ، فهي أول من سعى بين الصفا والمروة ، ثم صعدت إلى المروة فسمعت صوتا كالإنسان الذي يكذّب سمعه حتى استيقنت ، وجعلت تدعو اسمع إيل : تعني : الله قد أسمعتني صوتك فأغثني فقد هلكتُ وهلك من معي ، فإذا هي بجبريل عليه السلام ، فقال لها : من أنت ؟ فقالت : سُرِّيَّة إبراهيم عليه السلام تركني وابني ههنا ، قال : وإلى من وكلكما ؟ قالت : وكلنا إلى الله تعالى ، قال : لقد وكلكما إلى كريم كاف ، ثم جاء بهما وقد نفد طعامهما وشرابهما حتى انتهى بهما إلى موضع زمزم ، فضرب بقدمه ففارت عين ، فلذلك يقال لزمزم ركضة جبريل عليه السلام ، فلما نبع الماء أخذت هاجر شنة لها وجعلت تستقي فيها وتدخره ، فقال لها جبريل عليه السلام : إنها رِيٌّ ، وجعلت أم إسماعيل تحبسها حبسا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَوْلا أَنَّها عَجِلَتْ لكانَتْ زَمْزَمُ عَيْناً مَعِيناً » وقال لها جبريل : لاتخافي الظمأ على أهل هذه البلدة ، فإنها عين يشرب منها ضيفان الله تعالى ، وقال لها : أما إن أبا هذا الغلام سيجيء فيبنيان لله تعالى بيتا هذا موضعه . قالوا : ومرت رُفقة من جرهم تريد الشام ، فرأوا الطير على الجبل ، فقالوا : إن هذا الطير لحائم على ماء ، فأشرفوا فإذا هم بالماء ، فقالوا لهاجر : إن شئت كنا معك فآنسناك والماء ماؤك ، فأذنت لهم ، فنزلوا معها ، وهم أول سكان مكة ، فلذلك كانت العرب تقول في تلبيتها :

لاهمّ إن جرهما عبادك ... الناس طارف وهم تلادك ... وهم قديما عمروا بلادك

فكانوا هناك حتى شب إسمعيل وماتت هاجر ، فتزوج إسمعيل امرأة من جرهم وأخذ

لسانهم فتعرّبَ بهم ، فأولاده العرب المتعربة . ثم إن إبراهيم عليه السلام استأذن سارة أن يزور هاجر وابنها، فأذنت له ، واشترطت عليه أن لاينزل، فقدم إبراهيم عليه السلام مكة وقد ماتت هاجر ، ويقال إنه قدمها راكبا البراق . فلما قدمها ذهب إلى بيت إسمعيل فقال لامرأته : أين صاحبك ؟ قالت : ليس ههنا ، ذهب يتصيد، وكان إسمعيل يخرج من الحرم يتصيد ثم يرجع ، وكان مولعا بالصيد فخص بالقنص والفروسية والرمى والصراع ،فقال لها إبراهيم عليه السلام : هل عندك ضيافة ، هل عندك طعام أو شراب ؟ قالت : ليس عندى شيء وما عندى أحد . فقال لها إبراهيم : إذا جاء زوجك فأقرئيه منى السلام وقولى له فليغير عتبة بابه . فذهب إبراهيم عليه السلام ودخل إسمعيل فوجد ريح أبيه ، فقال لامرأته : هل جاءك أحد ؟ فقالت : جاءنى شيخ صفته كذا وكذا كالمستخفة بشأنه ، قال : فما قال لك ؟ قالت قال : أقرئى زوجك السلام وقولى له فليغير عتبة بابه ، فطلقها وتزوج أخرى . فلبث إبراهيم عليه السلام ما شاء الله ، ثم استأذن سارة أن يزور إسمعيل ، فأذنت له واشترطت عليه أن لا ينزل ، فجاء إبراهيم عليه السلام حتى انتهى إلى باب إسمعيل ، فقال لامرأته : أين صاحبك ؟ قالت : ذهب يتصيد ، وهو يجيء الآن إن شاء الله تعالى ، فانزل يرحمك الله ، قال لها : هل عندك ضيافة ؟ قالت : نعم ، فجاءت باللبن واللحم ، فدعا لهم بالبركة ، فلو جاءت يومئذ بخبز أو بر أو شعير أو تمر لكانت مكة أكثر أرض الله برًّا وشعيرا وتمرا ، ثم قالت له : انزل حتى أغسل رأسك وشعثك ، فلم ينزل ، فجاءته بالمقام فوضعته عند شقه الأيمن ، فوضع قدمه عليه ، فبقى أثر قدمه فيه ، فغسلت شق رأسه الأيمن ثم جعلت المقام إلى شقه الأيسر فغسلت شق رأسه الأيسر ، فقال لها : إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولى له : قد استقامت عتبة بابك . فلما جاء إسمعيل وجد ريح أبيه ، فقال لامرأته : هل جاءك أحد ؟ قالت : نعم جاءنى شيخ أحسن الناس وجها وأطيبهم ريحا ، فقال لى كذا وكذا ، وقلت له كذا وكذا وغسلت له رأسه وهذا موضع قدميه على المقام ، فقال : ذلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

قال أنس بن مالك: رأيت فى المقام أثر أصابع إبراهيم عليه السلام وعقبيه وأخمص قدميه غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم .

وأخبرنا محمد بن أحمد بن عبدون قال : أخبرنا محمد بن حمدون بن خالد حدثنا محمد ابن إبراهيم ، حدثنا هدبة بن خالد ، حدثنا أبو يحيى بن جابر بن مسح القرشى قال : سمعت مسافر بن شيبة يقول : سمعت عبد الله بن عمر يقول : أشهد ثلاث مرات أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الرُّكْنُ والمَقامُ ياقُوتَتانِ مِنْ يَواقيتِ الجَنَّةِ ، طَمَسَ اللهُ نُورَهُما ، ولَوْلا أنْ طَمَسَ اللهُ نُورَهُما لأضاءا ما بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ » :

الباب الرابع : فى القول على بقية قصة زمزم

روت الرواة عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال عبد المطلب بن هاشم : بينما أنا نائم فى الحجر إذ أتانى آت فقال لى : احفر طيبة ، قلت : وما طيبة ؟ فذهب عنى ولم يجبنى ؛ فلما كانت الليلة الثانية جاءنى فقال : احفر دُرة ، قلت : ومادرة ؟ فذهب عنى ولم يجبنى . فلما كانت الليلة الثالثة أتانى فقال : احفر المضنونة ، قلت : وما المضنونة ؟ فذهب عنى ؛ فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعى فنمت ، فجاءنى فقال : احفر زمزم ، فقلت : وما زمزم ؟ وكانت قد درست وغار ماؤها لما مضت أيام إسمعيل عليه السلام ، قال : بئر يستقى الحجيج منه عند منحر قريش عند نقرة الغراب وقرية النمل ؛ فلما تبين له قام فدلّ على موضعه وعرف أنه قد صدق ، فغدا بمعوله ومعه الحارث ابنه وليس له ولد يومئذ غيره . فلما علمت به قريش قاموا إليه فقالوا : يا عبد المطلب إنها من آثار أبينا إسمعيل وإن لنا فيها حقا فأشركنا فيها ، فقال : ما أنا بفاعل إن هذا شىء خُصصت به دونكم وأُعطيته من بينكم ؛ قالوا له : فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك ، قال : فاجعلوا بينى وبينكم من شئتم أخاصمكم إليه ، قالوا : كاهنة بنى سعد بن هذيل ، قال نعم ، وكانت فى أطراف الشام ، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى عبد مناف ، فركب من كل قبيلة من قريش نفر ، قال : والأرض إذ ذاك مفاوز ، فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز نفد ما كان معهم من الماء حتى أيقنوا بالهلكة ، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش فأبوا عليهم وقالوا : إنا بمفازة وإنا نخشى على أنفسنا أن يصيبنا مثل ما أصابكم . فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم قال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : إن رأينا تبع لرأيك ، فأمرنا بما شئت ، قال : فإنى أرى أن يحفر كل رجل منكم لنفسه حفرة بما يجد من القوة ، فكل من مات منا دون صاحبه دفنه فى حفرته . قال : فحفروا وجلسوا ينتظرون الموت ، ثم قال عبد المطلب : وما لنا لانضرب فى الأرض ، فعسى الله تعالى أن يرزقنا ماء ، فارتحلوا ومن معهم من قريش ينظرون إليهم ما هم فاعلون ؟ وتقدم عبدالمطلب إلى راحلته فركبها ، فلما أن انبعثت به انفجرت من تحت حوافر دابة عبد المطلب عين ماء عذب ، فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه ، ثم نزل فشرب منه وشرب أصحابه حتى رَوُوا وملئوا أسقيتهم ، ثم دعا القبائل من قريش فقال : هلموا إلى الماء فقد سقانا الله تعالى وإياكم فشربوا وسقوا . ثم قالوا : قد والله قضى الله لك علينا يا عبد المطلب ، والله لانخاصمك فى زمزم أبدا ، إن الذى سقاك هذا الماء فى هذه الفلاة فهو ساقيك زمزم فارجع ، فرجع ورجعوا معه حتى وافوا مكة وخلوا بينه وبين زمزم . ولما جنّ الليل رأى عبد المطلب فى منامه كأن قائلا يقول له :

يا أيها المدلج احفر زمزمْ ... إنك إن حفرتها لم تندمْ
وهى تراث من أبيك الأعظمْ ... تسقى الحجيج حافلا لم ينقمْ

فلما سمعه عبد المطلب قال : وأين موضع زمزم ؟ قيل له : عند قرية النمل حيث ينقر الغراب الأعصم . قال : فغدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث ، فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عند الوثنين : إساف ونائلة، اللذين كانت قريش تعبدهما وتنحر عندهما، فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أُمر ، فقامت قريش إليه وقالوا : والله لانتركك أن تحفرها وثنانا ومنحرنا عندها . وكانت قريش حسدوه على ذلك ،لأنهم أخبروا أن جرهما لما سكنت مكة أودعت فى زمزم أموالا وأسلحة للمصطفى صلى الله عليه وسلم لما أخبرت أن الله تعالى باعث فى هذه القرية نبيا من صفته وحاله كيت وكيت، ولم يكونوا عرفوا موضعها. فلما أخبر بذلك عبد المطلب نازعوه فى ذلك ، فقال بعضهم لبعض : دعوه يحفر فربما يخطئ الموضع ، فحفر غير بعيد فظهرت له العلامات فكبر ، فعرفوا أنه لم يخطئ ، فتمادى حتى بلغ إلى تمثالين من ذهب ، وهما الغزالان اللذان دفنهما جرهم ، ووجد فيها سيوفا ودروعا ، فقالت له قريش : يا عبد المطلب ، لنا معك فى هذا شركة ، قال : لا ، ولكن نضرب بالقداح عليه ، قالوا : وكيف نصنع ؟ قال : اجعلوا للكعبة قِدْحين ولى قِدْحين ولكم قِدْحين ، فمن خرج قِدْحاه على شىء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شىء له؛ قالوا أنصفت ، فجعل قِدْحين أصفرين للكعبة، وقِدْحين أسودين لعبد المطلب ، وقِدْحين أبيضين لقريش؛ ثم أعطَوا القداح التى تضرب بها عند هُبَل ، وقام عبد المطلب يدعو ، فخرج السهمان الأصفران على الغزالين للكعبة ، وخرج الأسودان على الأسياف والأدرع لعبد المطلب، وتخلف قدحا قريش . قال : فعلق عبد المطلب الأسياف والأدرع بباب الكعبة ، وضرب فى الباب الغزالين الذهب ، فكان أول ذهب حليت به الكعبة ، وكانت الرياسة والتقدمة لعبد المطلب قبل حفر زمزم ، فلما حفرها وأخرج منها ما أخرج ازداد بذلك فى قريش عِظَما وجاها ومنزلة ، وعافت الحجيج المياه التى كانت بمكة ونواحيها وأقبلوا على زمزم لما كان من عذوبة مائها لكونها من أثر إسمعيل عليه السلام ، وافتخرت بذلك بنو عبد مناف على قريش وعلى سائر العرب ، والله أعلم .

الباب الخامس : فى صفة بناء الكعبة وبدء أمرها إلى وقتنا هذا

أخبرنا أبو عمرو أحمد بن أبى أحمد الفراتى ، أخبرنا الحسن بن المغيرة بن عمر بن الوليد المغربىّ بمكة ، حدثنا أبو سعيد المفضل بن محمد بن إبراهيم بن المفضل ، حدثنا عبد الله بن أبى غسان اليمانىّ ، حدثنا أبو همام ،حدثنا محمد بن زياد عن ميمون بن مهران عن ابن عباس، قال : قال اليمانىّ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كانَ البيْتُ قبلَ هُبُوطِ آدَمَ عليهِ السَّلامُ ياقُوتَةً منْ يَواقيتِ الجَنَّةِ ، والبيتُ المَعْمورُ الّذى فى السَّماءِ يدخلُهُ كُلَّ يوم سَبْعونَ ألفَ مَلَك ثمَّ لايَعُودونَ إليه إلى يومِ القيامَةِ حذاءَ الكَعْبَةِ الحَرامِ ، وإنَّ اللهَ تَعالى أهْبطَ آدَمَ عليهِ السَّلامُ إلى موضِعِ الكَعْبَةِ وهومِثلُ الفُلْكِ مِنْ شِدَّةِ رِعْدَتِهِ ، وأنزَلَ عليهِ الحَجَرَ الأسْوَدَ وهُوَ يتلألأ كأنَّهُ لُؤلُؤةٌ

بَيْضاءُ ، فأخذهُ آدمُ فضمّهُ إليه استئناساً به ، ثمّ أخذَ اللهُ تعالى مِنْ بنِي آدمَ مِيثاقَهُمْ ، فجعلَهُ في الحجرِ ، ثمّ أنزلَ اللهُ تعالى على آدمَ العَصا ، ثمّ قالَ يا آدمُ تخطَّ ، فتخطّى فإذا هوَ بأرضِ الهندِ فمكثَ هُناكَ ما شاءَ اللهُ أنْ يمكُثَ ، ثمّ استوحشَ إلى البيْتِ ، فقيلَ لهُ حُجَّ يا آدمُ ، فأقبلَ يتخطّى ، فصارَ موضِعَ كلِّ قدمٍ قريةً ، وما بينَ ذلكَ مفاوزُ حتّى قدِمَ مكّةَ فلقيتْهُ الملائكةُ فقالتْ : برَّ حجُّكَ يا آدمُ ، لقدْ حججْنا هذا البيْتَ قبلَكَ بألفَيْ عامٍ ، ثمّ قالَ : فما كُنتمْ تقولونَ حولَهُ ؟ قالوا : كُنّا نقولُ : سُبْحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلهَ إلاّ اللهُ واللهُ أكبرُ ، فكانَ آدمُ إذا طافَ بالبيْتِ قالَ هذهِ الكلماتِ ، وكانَ آدمُ يطوفُ بالبيتِ سبعةَ أسابيعَ ، خمسةَ أسابيعَ باللّيْلِ وبالنّهارِ أسبوعانِ ، فقالَ آدمُ : يا ربِّ اجْعلْ لهذا البيتِ عُمّاراً يعمرُونه منْ ذُرّيّتي ، فأوحى اللهُ تعالى إليه إنّي مُعْمِرُهُ بنَبِيٍّ منْ ذُرّيّتكَ اسمُهُ إبراهيمُ أتّخذهُ خليلاً أقضي على يديْهِ عمارتَهُ وأُنبِطُ لهُ سِقايتَهُ ، أُورثُهُ حِلَّهُ وحرمَهُ ومواقفَهُ وأُعلّمُهُ مشاعرَهُ ومناسكَهُ ، فلمّا فرغَ منْ بنائهِ نادى : يا أيّها النّاسُ إنّ اللهَ تعالى بَنى بيْتاً فحُجّوهُ ، فأسمعَ ما بينَ الخافقَيْنِ ، فأقبلَ منْ يحُجُّ هذا البيتَ منَ النّاسِ يقولونَ : لبّيْكَ لبّيْكَ وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إنّ آدمَ عليهِ السّلامُ سألَ ربّهُ عزَّ وجلَّ فقالَ : يا ربِّ أسألُكَ لمَنْ ماتَ في هذا البيتِ منْ ذُرّيّتي لايُشْرِكُ بكَ شيْئاً أنْ تُلْحِقَهُ بي في الجنّةِ ، فقالَ اللهُ تعالى : يا آدمُ مَنْ ماتَ في الحرمِ لايُشْرِكُ بي شيْئاً بعثْتُهُ آمِنا يوْمَ القيامةِ » .

ــ وروت الرواة بأسانيد مختلفة : أن آدم عليه السلام لما أُهبط إلى الأرض كان رجلاه فى الأرض ورأسه فى السماء يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم وتسبيحهم ويأنس إليهم ، فهابته الملائكة واشتكت ذلك إلى الله عز وجل ، فنقصه الله تعالى إلى ستين ذراعا بذراع آدم ؛ فلما فقد آدم عليه السلام ما كان يسمع من أصوات الملائكة وتسبيحهم استوحش وشكا ذلك إلى الله عز وجل ، فأنزل الله تعالى ياقوتة من يواقيت الجنة ، فكانت على موضع البيت الآن ، ثم قال : يا آدم إنى أهبطته لك بيتا تطوف به كما يطاف حول عرشى وتصلى عنده كما كنت تصلى عند عرشى ، فتوجه آدم عليه السلام إلى مكة ورأى البيت فطاف به .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : أوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام : إن لى حرما بحيال عرشى ، فانطلق فابن لى بيتا فيه ، ثم حفّ به كما رأيت الملائكة يحفون بعرشى ، فهنالك أستجيب لك ولولدك من كان منهم فى طاعتى ، قال آدم : رب كيف لى بذلك ولاأقوى عليه ولا أهتدى إليه ؟ فقيض الله له ملكا ، فانطلق نحو مكة ، فكان آدم عليه السلام إذا مرّ

بروضة وبمكان يعجبه ، قال للملك : انزل بى ههنا ، فيقول له الملك : مكانك حتى قدم مكة ، فكان كل مكان نزل فيه عمرانا ، وكل مكان تعداه مفاوز وقفارا ، ثم بنى البيت ؛ فلما فرغ من بنائه خرج به الملك إلى عرفات ، فأراه المناسك كلها التى يفعلها الناس كلها اليوم ، ثم قدم به مكة وطاف بالبيت أسبوعا ، ثم رجع إلى أرض الهند فمات على نور .

قال أبو يحيى بائع القت : قال لى مجاهد : لقد حدثنى عبد الله بن عباس أن آدم نزل حين نزل بالهند ، ولقد حج منها أربعين حجة على رجليه ، فقلت له : يا أبا الحجاج ألا كان يركب ؟ قال : وأى شىء كان يحمله ؟ والله إن خطوته مسيرة ثلاثة أيام .

وقال وهب بن منبه : إن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض فرأى سعتها ولم يرفيها أحدا غيره ، قال : يا رب أما لهذه الأرض عامر يسبح بحمدك ويقدسك غيرى ؟ قال الله تعالى : إنى سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدى ويقدسنى ، وسأجعل فيها بيوتا ترفع بذكرى ويسبح فيها خلقى ويذكر فيها اسمى ، وسأجعل من تلك البيوت بيتا أخصه بكرامتى وأوثره باسمى وأسميه بيتى ، أنطقه بعظمتى ، وعليه وضعت جلالى ، ثم أجعل ذلك البيت حرما آمنا يحرم بحرمته من حوله ومن تحته ومن فوقه ، فمن حرمه بحرمته استوجب بذلك كرامتى ، ومن أخاف أهله فقد ضيع دينى وخفر ذمتى وأباح حرمتى ، أجعله أول بيت وضع للناس يأتونه شعثا غبرا (وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) يضجون بالتلبية ضجيجا ، ويثجون بالبكاء أجيجا ، ويعجون بالتكبير عجيجا ؛ فمن آثره لا يريد غيره فقد وفد إلىّ وزارنى وضافنى ، وحقّ على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه وأن ينعم ويتفضل ويسعف كلا بحاجته ، تعمره يا آدم ما كنت حيا ، ثم يعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن ، فهكذا كان بدء أمر الكعبة حرسها الله تعالى ، ثم كانت على ذلك إلى أيام الطوفان ، فلما كان أيام الطوفان رفعه الله تعالى إلى السماء الرابعة ، وبعث جبريل عليه السلام حتى خبأ الحجر الأسود فى جبل أبى قبيس صيانة له من الغرق ، فكان موضع البيت خاليا إلى زمان إبراهيم عليه السلام ، ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم بعد ما ولد له إسمعيل وإسحاق عليهما السلام ببناء بيت له يعبد فيه ويذكر اسمه ، فلم يدر إبراهيم فى أى موضع يبنيه ، فسأل الله عز وجل أن يبين له ذلك .

واختلف العلماء فى كيفية بيان ذلك ، فقال قوم : بعث الله إليه السكينة لتدله على موضع البيت كما حدث سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة أن رجلا قام إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : ألا تخبرنى عن البيت ؟ أهو أول بيت وضع للناس ؟ فقال : لا ولكنه أول بيت وضع فيه البركة ، ووضع فيه مقام إبراهيم عليه السلام ، ومن دخله كان آمنا ، وإن شئت أنبأتك كيف بنى : إن الله عز وجل أوحى إلى إبراهيم عليه السلام أن ابن لى بيتا فى الأرض ، فضاق بذلك إبراهيم ذرعا ، فأرسل الله عز وجل السكينة وهى ريح

تحجوج ولها رأسان ، فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهيا إلى مكة فتطوّقت على موضع البيت كتطوق الحجفة ، وأمر إبراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة فبنى بيتا .

وقال آخرون : أرسل الله تعالى إليه سحابة على قدر الكعبة ، فجعلت تسير معه إلى أن قدم مكة ، فوقفت فى موضع البيت ونودى : يا إبراهيم ابن على ظلها لاتزد ولا تنقص .

وقال بعضهم : إن الذى خرج مع إبراهيم عليه السلام من الشام لدلالته على موضع البيت جبريل عليه السلام ، وذلك قوله عز وجل (وإذْ بَوّأنا لإبراهيمَ مكانَ البيْتِ) الآية .

قالوا : فجعل إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجارة ، وكان إبراهيم عبرانيا وإسمعيل عربيا ، فألهم الله تعالى أحدهما لسان صاحبه ، فكان إبراهيم عليه السلام يقول : هب لى كينا : يعنى هات لى حجرا ، فيقول له إسمعيل : هاك فخذه ، فبنيا الكعبة من خمسة أجبل : طور سينا وطو زيتا ولبنان والجودى ، وبنيت قواعده من حراء . قال فبقى حجر فذهب إسمعيل يبتغيه ، ثم رجع فوجده قد ركب الحجر فى مكانه ، فقال : يا أبت من أتاك بهذا الحجر ، فقال له : أتانى به من لم يكلنى إليك ، ثم قال إبراهيم لإسمعيل : ائتنى بحجر حسن أضعه على الركن ليكون علما للناس ، فناداه أبو قبيس : يا إبراهيم إن لك عندى وديعة فهاك فخذها ، فأخرج إبراهيم عليه السلام الحجرَ الأسود من جبل أبى قبيس وركبه فى موضعه .

فلما فرغ إبراهيم وإسمعيل من بناء البيت وأتماه دعوا ربهما ، فذلك قوله تعالى (وإذْ يَرْفَعُ إبراهيمُ القواعدَ منَ البيْتِ وإسمعيلُ ربَّنا تقبَّلْ منا إنكَ أنتَ السَّميعُ العليمُ) إلى قوله (وأرِنا منا سِكنا وتُبْ علينا إنكَ أنتَ التوّابُ الرّحيمُ) فأجاب الله تعالى دعاءهما وأرسل جبريل عليه السلام إليهما ليعلمهما مناسك الحج ، فخرج بهما يوم التروية إلى منى ، فصلى بهما الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ثم بات بهما حتى أصبح فصلى بهما الصبح ، ثم غدا بهما إلى عرفة فقام بهما هناك ، حتى إذا مالت الشمس جمع بين الصلاتين الظهر والعصر ، ثم راح بهما إلى الموقف من عرفة ، فوقف بهما على الموضع الذى يقف عليه الناس اليوم ، فلما غربت الشمس دفع بهما إلى المزدلفة ، فجمع بين الصلاتين المغرب والعشاء ، ثم بات بهما حتى طلع الفجر ، ثم صلى بهما صلاة الغداة ، فوقف بهما على قُزَح حتى إذا أسفر الصبح أفاض بهما إلى منى ، فأراهما كيف يرميان الجمار ، ثم أمرهما بالذبح ، وأراهما المنحر من منى وأمرهما بالحلق ، ثم أفاض بهما إلى البيت ، فأوحى الله تعالى إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (أنِ اتّبِعْ مِلّةَ إبراهيمَ حنيفاً وما كانَ منَ المُشْركينَ) ثم أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يؤذن فى الناس بالحج ، فقال : يا رب وما يبلغ صوتى ؟ فقال عليك الأذان وعلىَّ البلاغ ، فعلا ثبيرا ونادى : يا عباد الله إن ربكم قد بنى بيتا فحجوه وأجيبوا داعى الله ، فسمعه ما بين السماء والأرض وما بين الأبحر ، ومن فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ، فأجابه كل من آمن بالله ممن سبق فى علم الله تعالى أن يحج إلى يوم القيامة : لبيك اللهم لبيك ؛

وقال عبد الله بن الزبير لعبيد بن عمير : استقبل إبراهيم عليه السلام اليمن والمشرق والمغرب والشام فدعا إلى الحج ، فأجيب: لبيك اللهم لبيك ،وذلك قوله عز وجل (وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) الآيات . فلم يزل البيت على ما بناه إبراهيم عليه السلام إلى سنة خمس وثلاثين من مولد نبينا صلى الله عليه وسلم ، وذلك قبل مبعثه بخمس سنين ، فهدمت قريش الكعبة ثم بنتها . وكان السبب فى ذلك على ما ذكر محمد بن إسحاق وغيره من أهل الأخبار أن الكعبة كانت رضمة فوق القامة ، فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت ، فأخذوا خشبها فأعدوه لسقفها ، وكان بمكة رجل قبطى نجار فهيأ لهم فى أنفسهم بعض ما يصلحها ، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التى يطرح فيها ما يهدى لها كل يوم فتشرف على جدار الكعبة وكانوا يهابونها ، وذلك أنه كان لايدنو منها أحد إلا كشرت وفتحت فاها ، فكانوا يهابونها ، فبينا هى ذات يوم على جدار الكعبة كما كانت تصنع ، فبعث الله طائرا فاختطفها فذهب بها ، وقالت قريش : إنا لنرجو أن الله تعالى قد رضى ما أردناه من عمارة بيته ، وإن عندنا عاملا رفيقا وخشبا ، وقد كفانا الله تعالى الحية ، وذلك بعد حرب الفِجَار بخمس عشرة سنة .

فلما أجمعوا أمرهم على هدمها وبنائها قام أبو وهب بن عمرو بن عمير بن عامر بن عمرو ابن مخزوم ، وتناول من الكعبة حَجَرا فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه فقال: يا معشر قريش لاتدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيبا ، ولا تدخلوا فيها من مهر بغىّ ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس . ثم إن الناس هابوا هدمها ، فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدأ لكم فى هدمها ، فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : اللهم لانريد إلا الخير ، ثم هدم من ناحية الركنين ، فتربص الناس به تلك الليلة وقالوا : ننتظره فإن أصيب لم نهدم منها شيئا ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شىء فقد رضى الله تعالى بما فعلنا ، فأصبح الوليد من ليلته غاديا على عمله ، فهدم وهدم الناس معه حتى انتهى الهدم إلى الأساس ، فأفضوا إلى حجارة خضر كأنها أسنمة الإبل آخذ بعضها ببعض ، فأدخل رجل من قريش عتلة بين حجرين منها ليقلع أحدهما ، فلما تحرك الحجر تحركت مكة بأسرها ، فعلموا أنهم قد انتهوا إلى الأساس ، وقالوا : إن القبائل قد اجتمعت لبنائها ، فجعلت كل قبيلة تجمع على حدتها ثم بنوا ، فلما بلغوا فى البنيان إلى موضع الركن اختصموا فيه ، فكل قبيلة أرادت أن تضعه فى صُفَّة دون الأخرى ،حتى تخالفوا وتحالفوا وتوا عدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى هذا الدم فسموا لَعَقَة الدم بذلك، فمكثوا أربع ليالى أو خمس ليال على ذلك، ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد وتشاوروا وتناصفوا ، فزعم بعض الرواة أن أبا أمية بن المغيرة كان حينئذ أسنّ قريش كلها ، فقال لهم : يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل عليكم من باب

هذا المسجد يقضى بينكم فيه، فرضوا بذلك وتوافقوا عليه ،فكان أول من دخل عليهم: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا : هذا محمد الأمين قد رضينا به ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ،قال: هلموا إلىّ ثوبا ، فأتوا به ، فأخذ الحجرَ فوضعه فيه بيده ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ، ففعلوا ذلك حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه بيده ثم بنوا عليه . قالوا فكانت الكعبة كذلك على ما بنته قريش إلى سنة أربع وستين من الهجرة حتى حاصر الحُصين بن نمير السَّكُونى عبد الله بن الزبير فقذفوا البيت بالمنجنيق ، وأخذوا يرتجزون ويقولون :

خطارة مثل الفنيق المزبد ترمى بها عيدان هذا المسجد

وقال آخر منهم :

كيف ترى صنيع أم فروهْ تأخــذهم من الصفا والمروهَ

أم فروة : اسم منجنيق ، فمالت حيطان الكعبة مما رميت به من حجارة المنجنيق ، وإنها مع ذلك احترقت ، وكان السبب فيه أنهم كانوا يوقدون حولها ، فأقبلت شرارة هبت بها الريح فأحرقت باب الكعبة واحترق خشب البيت .

وقال الواقدى : حدثنى عبد الله بن زيد قال : حدثنى عروة بن أذينة ، قال : قدمت مكة مع أبى يوم احترقت الكعبة وقد خلصت إليها النار ، ورأيت الركن قد اسودّ وانصدعت منه ثلاثة أمكنة ، فقلت : ما أصاب الكعبة؟ فأشاروا إلى رجل من أصحاب ابن الزبير ،قالوا : احترقت بسبب هذا ، أخذ قبسا فى رأس ريح له ، فطارت الريح به ، فضربت أستار الكعبة ما بين الركن اليمانى والحجرَ الأسود .

وقال بعضهم : كان السبب فى ذلك أن امرأة كانت تبخر البيت ، فطارت شرارة من النار فاحترق البيت ، وكان أول ما تكلم الناس فى القدر يومئذ ، فقال قوم : هو من قدرة الله ، وقال قوم : ليس من قدرة الله . قالوا : فهدم عبد الله بن الزبير الكعبة حتى سواها بالأرض ، وكان الناس يطوفون بها من وراء الأساس ويصلون إلى موضعها ، وجعل الحجرَ الأسود عنده فى تابوت فى خرقة من حرير ، وجعل ما كان من حلى البيت وما وجد فيه من ثياب وطيب عند الحَجَبة فى خزانة البيت ثم أعاد بناءه، وقال : إن أمى أسماء بنت أبى بكر حدثتنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة: «لَوْلا حَدَاثَةُ عَهْدِ قَوْمِكِ بالكُفْرِ لَرَدَدْتُ الكَعْبَةَ عَلى أساسِ إبراهِيمَ فأزِيدُ فى الكَعْبَةِ الحِجْرَ ، وإنَّ قُرَيْشا أعْوَزَتْهُمُ النَّفَقَةُ فأخْرَجُوا الحِجْرَ مِنَ البَيْتِ ، ولجَعَلْتُ لَهَا بابَيْنِ: باباً شَرْقِيّاً وَباباً غَرْبِيّاً». فأمر به ابن الزبير فحفر ،فوجدوا قِلاعاً أمثال الإبل ، فحركوا منها صخرة فبرقت برقة ، فقال : أقروها على أساسها ، فبناها ابن الزبير وأدخل فيها الحِجْر ، وجعل لها بابين يدخل من أحدهما ويخرج من الآخر ، فكانت الكعبة على ما بناها ابن الزبير إلى سنة أربع وسبعين حتى قتل الحجاج بن يوسف الثقفى عبد الله بن

الزبير ، وولى الحجاز من قِبَل عبد الملك بن مروان ، فنقض الحجاج بنيان الكعبة الذى كان بناه ابن الزبير ، بأمر عبد الملك وأعادها إلى بنائها الأول بمشهد من مشايخ قريش ، فهى اليوم على ما بناها الحجاج ، إلا ما كان من قلع القرمطى صاحب البحرين لعنه الله - الحجرَ الأسود عام أوقع بالحجيج بمكة ، فذهب به مع من أسر من الحاج إلى البحرين ، ثم أُخِذَ منه ورُدَّ إلى موضعه ، وذلك على يد شيخنا أبى إسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيى البرمكى النيسابورىّ رحمة الله عليه .

الباب السادس : فى ذكر أمر الله تعالى خليله عليه السلام بذبح ولده

قال الله تعالى (فلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إنى أرَى فى المَنامِ أنى أذبحُكَ فانْظُرْ ماذا تَرَى قالَ يا أبَتِ افْعَلْ ماتُؤْمَرُ ستَجِدُنِى إنْ شاءَ اللهُ منَ الصَّابرِين).

واختلف السلف من علماء المسلمين فى الذى أُمر إبراهيم عليه السلام بذبحه من ابنيه بعد إجماع أهل الكتاب ، على أنه كان إسحاق عليه السلام ؛ فقال قوم : هو إسحاق ، وإليه ذهب من الصحابة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعلى بن أبى طالب ، ومن التابعين وأتباعهم كعب الأحبار وسعيد بن جبير والقاسم بن أبى برة ومسروق بن الأجدع وعبد الرحمن بن أبى سابط وأبو الهذيل والزهرى والسدىّ .

روى شعبة عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص قال : افتخر رجل عند عبد الله بن مسعود قال : أنا فلان ابن فلان ابن الأشياخ الكرام ، فقال عبد الله : ذاك يوسف بن يعقوب ابن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله .

وروى سفيان عن زيد بن أسلم عن عبيد الله بن عبيد بن عمير عن ابيه عن جده قال : قال موسى عليه السلام : يا رب يقولون : يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فلم قالوا ذلك ؟ فقال : إن إبراهيم لم يعدل بى شيئا قط إلا اختارنى عليه ، وإن إسحاق جاد لى بالذبح ، فهو بغير ذلك أجود ، وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادنى حسن ظنّ .

وروى حمزة بن الزيات عن أبى إسحاق عن أبى ميسرة قال : قال يوسف عليه السلام لملك مصر : أترغب أن تأكل معى ، وأنا والله يوسف بن يعقوب نبى الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله . وقال الآخرون : هو إسماعيل ، وإلى هذا القول ذهب عبد الله بن عمر وأبو الطفيل عامر بن واثلة وسعيد بن المسيب والشعبى ويوسف بن مهران ومجاهد . وكان الشعبىّ يقول : رأيت قرنى الكبش منوطين بالكعبة .

وروى عمر بن عبيد عن الحسن البصرى أنه كان لايشك فى أن الذى أُمر بذبحه من بنى إبراهيم هو إسمعيل ، وهى رواية عطاء بن أبى رباح عن عبد الله بن عباس قالا : المفدّى إسمعيل ، وزعمت اليهود أنه إسحاق ، وكذبت اليهود .

وروى محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظى أنه كان يقول : إن الذى أَمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه إسمعيل ، وإنا لنجد ذلك فى كتاب الله تعالى فى قصة الحق عن

إبراهيم عليه السلام ، وما أمر به من ذبح ابنه أنه إسمعيل ، وذلك أن الله عز وجل يقول حين فرغ من قصة المذبوح من ابنى إبراهيم (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) وقال تعالى (فَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ) يقول بابن وابن ابن . فلم يكن يأمره بذبح إسحاق ، وله فيه من الله تعالى من الموعود ما وعده ، وما الذى أمر بذبحه إلا إسمعيل . قال محمد بن كعب القُرَظى : فذكرت ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة ، إذ كنت معه بالشام ، فقال لى عمر : إن هذا الشىء ما كنت أنظر فيه ، وإنى لأراه كما قلت ، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام ، وكان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه ، وكان يرى أنه من علماء اليهود ، فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك وأنا عنده ، فقال له : أى ابنَىْ إبراهيم الذى كان أمر بذبحه ؟ فقال : إسمعيل ، ثم قال : والله يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذى كان أمر الله بذبحه ، لما فيه من الفضل الذى ذكر أنه كان منه ، بصبره على ما أمر به ، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا القولين ، ولو كان فيهما قول صح بالإجماع لم يعزه أبو عبد الله إلى غيره .

فأما الرواة التى روت عنه أن الذبيح إسحاق ، فأخبرنى عبد الله بن الحسين بن محمد عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الَّذى أَرَادَ إبراهيم أَنْ يَذْبَحَهُ إِسْحَاقُ » وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « الَّذى فَدَاهُ اللهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ إِسْحَاقُ » . وأخبرنا أبو عبد الله ، أخبرنا أحمد بن جعفر بن حمدان أخبرنا يوسف ابن عبد الله بن ماهان ، أخبرنا موسى بن إسمعيل ، أنبأنا المبارك عن الحسن عن الأحنف ابن قيس عن العباس بن عبد المطلب عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَشْفَعُ إِسْحَاقُ بَعْدِى فَيَقُولُ يارَبِّ صَدَّقْتُ نَبِيَّكَ وَجُدْتُ بِنَفْسِى لِلذَّبْحِ فَلَا تُدْخِلِ النَّارَ مَنْ لايُشْرِكُ بِكَ شَيْئًا . قال : فيقول اللهُ : وَعِزَّتِى لأُدْخِلُ النَّارَ مَنْ لايُشْرِكُ بِى شَيْئًا » . وأخبرنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد ابن إسحاق المزنى قراءة عليه سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة ، أنبأنا جدّى أبو بكر محمد بن إسحاق ابن خزيمة إمام الأئمة ، أنبأنا على بن حجر ، أنبأنا عمر بن حفص عن أبان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللهَ خَيَّرَنِى بَيْنَ أَنْ يَغْفِرَ لِنِصْفِ أُمَّتِى ، وَبَيْنَ أَنْ أَخْتَبِىَ شَفَاعَتِى ، فاخْتَرْتُ شَفَاعَتِى وَرَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ ذلكَ أَعَمَّ لأُمَّتِى وَلَوْلَا الَّذى سَبَقَنِى إليهِ العَبْدُ الصَّالِحُ لَتَعَجَّلْتُ منها دَعْوَتى » . وذلك أن الله تعالى لما فرج عن إسحاق كرب الذبح قيل له يا إسحاق سَلْ تُعطَ ، فقال : أما والذى نفسى بيده لأتعجلنها قبل نزغة الشيطان ، اللهم من مات لايشرك بك شيئا فاغفر له وأدخله الجنة .

وأما الرواة التى روت عنه صلى الله عليه وسلم أن الذبيح إسماعيل ، فروى عمر بن عبد الرحمن الحطانى بإسناده عن الصباحى قال : كنا عند معاوية بن أبى سفيان ، فذكروا أن الذبيح إسمعيل أو إسحاق ، فقال : على الخبير سقطتم، « كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءه رجل فقال : يا رسول الله أعد علىّ ما أفاء الله عليك يا بن الذبيحين ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل يا أمير المؤمنين ومن الذبيحان ؟ فقال : إن عبد المطلب لما حفر زمزم نذر لربه إن سهل الله عليه أمرها ليذبحنّ أحد ولديه ، قال : فخرج السهم على عبد الله ، فمنعه أخواله وقالوا له : افد ولدك بمائة من الإبل ، ففداه بمائة من الإبل . والثانى إسمعيل » . فهذا ما ورد من الأخبار ، وفى القرآن ما يدل على صحة كل واحد من القولين . فأما الدليل على أنه إسحاق ، فهو أن الله تعالى أخبر عن إبراهيم عليه السلام حين فارق قومه مهاجرا إلى الشام مع سارة ولوط (وقال : إنى ذَاهِبٌ إلى ربى سَيَهْدِينِ) أنه دعا فقال (رَبِّ هَبْ لى مِنَ الصَّالِحِينَ) يعنى ولدا صالحا من الصالحين ، وذلك قبل أن يعرف هاجر ، وقبل أن تصير له أم إسمعيل ، ثم أتبع ذلك الخبر عن إجابة دعوته وتبشيره إياه بغلام حليم ، وعن رؤيا إبراهيم أن يذبح ذلك الغلام الذى بشر به حين بلغ معه السعى ، وليس فى القرآن أنه بشر بولد ذكر إلا بإسحاق . وأما الدليل على أنه إسمعيل ، فما ذكرناه من حديث القرنين ، وقد صح الخبر أن قرنى الكبش كانا معلقين بالكعبة إلى أن احترق البيت فاحترق القرنان فى أيام ابن الزبير والحجاج ، وهذا أدل دليل على أن الذبيح إسمعيل .

قصة الذبح وصفته وفعل إبراهيم بابنه عليهما السلام

قال السدىّ بإسناده : لما فارق إبراهيم الخليل عليه السلام قومه مهاجرا إلى الشام هاربا بدينه كما قال تعالى (وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) دعا الله أن يهب له ابنا من الصالحين من سارة ، فقال (رب هب لى من الصالحين) . فلما نزل به أضيافه من الملائكة المرسلين إلى المؤتفكة بشروه بغلام حليم ، فقال إبراهيم لما بشر به : هو إذن لله ذبيح . فلما ولد الغلام وبلغ معه السعى قيل له : أوف بنذرك الذى نذرت قربانا إلى الله تعالى ، وكان هذا هو السبب فى أمر الله خليله إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه ، فقال إبراهيم عند ذلك لإسحاق : انطلق نقربْ قربانا إلى الله تعالى ، وأخذ سكينا وحبلا ثم انطلق معه حتى ذهب به بين الجبال ، فقال له الغلام : يا أبت أين قربانك ؟ فقال : يا بُنَىَّ إنى أرى فى المنام أنّى أذْبحُكَ) أى رأيت : لفظه مستقبل ومعناه الماضى (فانْظُرْ ماذا تَرَى ؟ قالَ يا أبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصابِرِينَ) .

قال ابن إسحاق : كان إبراهيم إذا زار هاجر وإسمعيل ، حمل على البُراق ، فيغدو من الشام فيقيل بمكة ويرجع من مكة فيبيت عند أهله بالشام ، حتى إذا بلغ إسمعيل معه السعى وأخذ بنفسه ورجاه لما كان يأمل فيه من عبادة ربه وتعظيم حرماته ، رأى فى المنام أن

يذبحه ، فلما أمر بذلك قال لابنه : يا بنيّ خذ الحبل والمدية ثم انطلق بنا إلى هذا الشعب لنحتطب ، فلما خلا إبراهيم بابنه فى شعب ثَبِير أخبره بما أمر به وقال : يا بنيّ إنّى أرى فى المنام أنى أذبحك الآية ، فقال له ابنه : الذى أراد أن يذبحه : يا أبت اشدد رباطى حتى لاأضطرب ، واكفف عنى ثيابك حتى لاينتضح عليها دمى فينتقص أجرى وتراه أمى فتحزن واشحذ شفرتك وأسرع بمرّ السكين على حلقى ليكون أهون للموت علىّ فإن الموت شديد ، فإذا أتيت أمى فأقرئها منى السلام ، فإن رأيت أن تردّ قميصى إليها فافعل ، فإنه عسى أن يكون أسْلى لها عنى ،فقال له إبراهيم : نعم العون يا بنيّ أنت على ما أمر الله به ، ففعل إبراهيم ما أمره ابنه ، ثم إنه أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهو يبكى والابن يبكى حتى استنبع الدموع تحت خده ، ثم إنه وضع السكين على حلقه فلم يجزع ولم يعمل السكين شيئا . قال السدىّ : وضرب الله تعالى صفيحة من نحاس على حلقه ، فقال عند ذلك الابن : يا أبت كبنى على وجهى ، فإنك إن نظرت إلى وجهى رحمتنى وأدركتك علىّ رقة تحول بينك وبين أمر الله ، ففعل إبراهيم ذلك، فذلك قوله تعالى (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ). ثم إنه وضع السكين على قفاه فانقلبت (وَنُودِىَ يا إبراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرؤْيا) الآية ، هذه ذبيحتك فداء لابنك فاذبحها دونه ، فنظر إبراهيم عليه السلام،فإذا هو بجبريل عليه السلام ومعه كبش أعين أملح أقرن ، فكبّر الكبش وكبر إبراهيم وكبر ابنه ، فذلك قوله تعالى (وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ) قال سعيد بن جبير وغيره عن ابن عباس : خرج عليه الكبش من الجنة قد رعى فيها أربعين خريفا . وروى عنه أيضا أن الكبش الذى فدى به عن إبراهيم عليهما السلام هو الكبش الذى قرّبه هابيل بن آدم، فتقبل منه ، فأرسل إبراهيم ابنه ، وأخذ الكبش وأتى به المنحرمن منى فذبحه ، فوالذى نفس ابن عباس بيده لقد كان أول الإسلام وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه فى ميازيب الكعبة قد وَحُش يعنى يبس . وروى عمرو بن عبيد عن الحسن عن أبيه أنه كان يقول :ما فُدِى إسمعيل إلا بكبش من الأروى، أهبط عليه بثَبِير، وهى رواية أبى صالح عن ابن عباس قال : كان وعلا .

وروى أبوهريرة عن كعب الأحبار وابن إسحاق عن رجال قالوا :لما رأى إبراهيم فى المنام أن يذبح ابنه،قال الشيطان: والله لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم،وإلا لم أفتن أحدا منهم أبدا ، فتمثل لهم الشيطان رجلا ، فأتى أم الغلام فقال لها أتدرين أين ذهب إبراهيم بابنك ؟ قالت: ذهب به ليحتطب من هذا الشعب، فقال : لاوالله ما ذهب به إلا ليذبحه ، قالت : كلا،هو أرحم به منى ، وأشد حبا له من ذلك، فقال لها :إنه يزعم أن الله أمره بذلك، فقالت له: إن كان أمره بذلك فقد أحسن فى امتثال طاعة ربه،وفى استسلامه لأمر الله تعالى، فخرج الشيطان من عندها هاربا حتى أدرك الابن وهو يمشى على أثر أبيه ، فقال له يا غلام هل تدرى أين يذهب بك أبوك ؟ قال : نحتطب لأهلنا من هذا الشعب ، قال : لا والله

ما يريد إلا ذبحك ، قال : ولم ؟ قال : يزعم أن الله أمره بذلك ، قال له : فليفعل ما أمره الله به ، فسمعا وطاعة لأمر الله تعالى ، فلما امتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم فقال له : أين تريد أيها الشيخ ؟ قال : أريد هذا الشعب لحاجة لى ، فقال : والله إنى لأرى الشيطان قد جاءك فى منامك يأمرك بذبح ابنك هذا ، فعرفه إبراهيم ، فقال له : إليك عنى يا ملعون فوالله لأمضينّ لأمر ربى ، فرجع إبليس لعنه الله بغيظه لم يصب من إبراهيم وأهله شيئا مما أراد ، وقد امتنعوا منه بعون الله وتأييده .

وروى أبو الطفيل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن إبراهيم عليه السلام لما أُمر بذلك عرض له إبليس عند المشعر الحرام فسابقه ، فسبقه إبراهيم عليه السلام ثم ذهب إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم أدركه عند الجمرة الكبرى ، فرماه بسبع حصيات حتّى ذهب ، ثم مضى إبراهيم عليه السلام لأمر الله تعالى ، فهذه قصة الذبح وقال أمية بن أبى الصلت الثقفى فى ذلك شعرا :

ولإبراهيم الموفىّ بنذر ... احتسابا وحامل الأجزال
بكره لم يكن ليصبر عنه ... لو رآه فى معشر أقتال
أبُنَىَّ آنى نذرتك لله ... شحيطا فاصبر فذلك حالى
واشدد العضد عند جبذى للسكين جبذ الأسير للأغلال
وله مدية تخايل فى اللحم غلاما جبينه كالهلال
بينما يخلع السراويل عنه ... فكه ربه بكبش جُلال
فخذن ذا فدى لإبنك إنى ... للذى قد فعلتما غير قالى
ربما تجزع النفوس من الأمر له فرْجَة كحل العقال

الباب السادس : فى هلاك النمروذ بن كنعان
وما أحل الله تعالى به من نقمته وقصة الصَّرْح

قال الله تعالى (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ القَوَاعِدِ فَخَرَّ عليهمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وأتاهمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لايَشْعُرُونَ) .

روت الرواة بأسانيد مختلفة أن أول جبار كان فى الأرض النمروذ بن كنعان ، وكان الناس يخرجون إليه ويمتارون من عنده الطعام ، فخرج إليه إبراهيم يمتار مع من يمتار ، وكان النمروذ إذا مر به الناس قال لهم : مَن ربكم ؟ قالوا : أنت ، حتى مر به إبراهيم فقال له من ربك ؟ قال : ربى الذى يحيي ويميت ، قال : أنا أحيي وأميت ، قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ، وردّ إبراهيم بغير طعام ، فرجع إبراهيم إلى أهله ، فمر بكثيب أعفر فقال : لآخذنّ من هذا فآتى به أهلى فتطيب به

قلوبهم حين أدخل عليهم ، فأخذ إبراهيم منه فأتى به أهله ، فوضع متاعه ثم نام ، فقامت امرأته إلى متاعه ففتحته ، فاذا هو بأجود دقيق رأته ، فأخذته وصنعت منه طعاما ، فلما أفاق قدمته إليه ، وكان عَهِد أهله أن ليس معهم شيء ولا عندهم طعام ، فقال لهم : من أين هذا ؟ فقالت من الطعام الذى جئت به ، فعلم إبراهيم أن الله رزقه فحمِد الله وشكره ، ثم إن النمروذ الجبار لما حاجّه إبراهيم عليه السلام فى ربه قال : إن كان ما يقول إبراهيم حقا فلا أنتهى حتى أعلم من فى السماء ، فبنى صَرْحا عظيما عاليا ببابل ، ورام منه الصعود إلى السماء لينظر إلى إله إبراهيم فيما يزعم .

قال ابن عباس ووهب : كان طول الصرح فى السماء خمسة آلاف ذراع . وقال مقاتل وكعب : كان طوله فرسخين ، ثم عمد إلى أربعة أفراخ من النسور فعلفها اللحم والخبز وربّاها حتى شبت واستفحلت ، ثم قعد فى تابوت ومعه غلام وقد حمل قوسه ونشابه ، وجعل لذلك التابوت بابا من أعلاه وبابا من أسفله ، ثم ربط التابوت بأرجل النسور وعلق اللحم على عصا فوق التابوت ثم خلى عن النسور فطارت وصعدت طمعا فى اللحم حتى أبعدت فى الهواء ، فقال النمروذ لفتاه : افتح الباب الأعلى وانظر إلى السماء هل قربنا منها ، ففتح الباب ونظر فإذا السماء على هيئتها ، ثم قال : افتح الباب الأسفل فانظر إلى الأرض كيف تراها ؟ ففتح فقال : أرى الأرض مثل اللجة البيضاء والجبال كالدخان ، وطارت النسور وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران ، فقال لغلامه : افتح البابين ، ففتح الأعلى فإذا السماء كهيئتها ، وفتح الباب الأسفل ، فإذا الأرض سوداء مظلمة ، ونودى : أيها الطاغى الباغى : أين تريد ؟ قال عكرمة : فأمر عند ذلك غلامه فرمى بسهم فعاد إليه السهم متلطخا بالدم فقال : كفيت شغل إله السماء .

واختلفوا فى ذلك السهم من أىّ شيء تلطخ ؛ فقال عكرمة : من سمكة فى بحر معلق فى الهواء بين السماء والأرض قربت نفسها لله تعالى ، وقال بعضهم : أصاب السهم طائرا من الطير فتلطخ من دمه . ثم أمر النمروذ غلامه أن يصوّب العصا وينكس اللحم ، ففعل ذلك فهبطت النسور بالتابوت ، فسمعت الجبال خفيق التابوت والنسور ففزعت وظنت أنه أمر حدث فى السماء ، وأن الساعة قد قامت ، فذلك قوله تعالى (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ) أى جزاء مكرهم (وإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبالُ) وقرأ علىّ وعمر وابن مسعود (وإن كان مكرهم لتذلّ منه الجبال) بالذال . ثم إن الله تعالى أرسل ريحا على صرح النمروذ فألقت رأسه فى البحر فخر عليهم الباقى وانقلبت بيوتها ، وأخذت النمروذ رعدة ، وتبلبلت ألسن الناس حين سقط صَرْح النمروذ من الفزع ، فتكلموا بثلاث وسبعين لسانا ، فلذلك سميت بابل لتبلبل الألسنة فيها ، فذلك قوله تعالى (فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وأتاهُمُ العَذابُ مِنْ حَيْثُ لايَشْعُرُونَ) وذلك أن الله

تعالى بعث إلى النمروذ ملكا أن آمن حتى أتركك على ملكك ، قال : فهل ربٌ غيرى ؟ فجاءه الثانية والثالثة فأبى عليه ، فقال له الملك : اجمع جموعك إلى ثلاثة أيام ، فجمع النمروذ جموعه وجنوده ، فأمر الله تعالى الملك أن يفتح عليه بابا من البعوض ففعل ، فطلعت الشمس ذلك اليوم فلم يروها من كثرة البعوض ، فبعثها الله تعالى على النمروذ وقومه ، فأكلت لحومهم وشربت دماءهم ، فلم يبق منهم إلا العظام ، والنمروذ كما هو لم يصبه شيء من ذلك ، فبعث الله إليه بعوضة فدخلت فى مَنخِره حتى وصلت إلى دماغه ، فمكث أربعمائة سنة تضرب رأسه بالمطارق ، فأرحم الناس به من جمع يديه ثم يضرب بهما رأسه ، وكان جبارا أربعمائة سنة ، فعذبه الله أربعمائة سنة كمدة ملكه ، ثم إن البعوضة أكلت دماغه ، وأهلكه الله سبحانه وتعالى وخذله .

الباب السابع : فى ذكر وفاة سارة وهاجر ، وذكر وفاة أزواج إبراهيم وولده

قال الله تعالى (أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ) الآية . قال أهل العلم بأخبار الماضين : ماتت سارة وهى ابنة مِئه وسبع وعشرين سنة بالشام بقرية الجبابرة من أرض كنعان فى جبرون فى مزرعة اشتراها إبراهيم عليه السلام ودفنت بها ، وكانت هاجر ماتت قبل سارة بمكة فدفنت فى الحجر . فلما ماتت سارة تزوج إبراهيم بامرأة من بعدها من الكنعانيين ، يقال لها قطور بنة يقطان ، فولدت له ستة نفر : يقشان وزمران ومدان ومد وأشيق ووشوخ ، وتزوج أيضا بامرأة أخرى من العرب اسمها حجون بنت أهيب ، فولدت له خمسة بنين : كيسان وفروخ وأهيم ولوطان ونافس ، فكان جميع بنى إبراهيم مع إسحاق وإسمعيل ثلاثة عشر ، وكان إسمعيل بكره وأكبر أولاده ، فأنزل إسمعيل بأرض الحجاز وإسحاق بأرض الشام ، وفرق سائر ولده فى البلاد ، فقالوا لإبراهيم : يا أبانا أنزلت إسحاق معك وإسمعيل بقربك ، وأمرتنا أن ننزل بأرض الغربة والوحشة؟ قال: بذلك أمرت ، ثم علمهم اسما من أسماء الله تعالى ، فكانوا يستسقون به ويستنصرون .

الباب الثامن : فى ذكر وفاة إبراهيم عليه السلام

قال أهل التاريخ والسير : لما أراد الله تعالى قبض روح إبراهيم عليه السلام أرسل إليه ملك الموت فى صورة شيخ هرم . قال السدىّ بإسناده : وكان إبراهيم كثير الإطعام يطعم الناس ويضيفهم ، فبينما هو يطعم الناس إذا هو بشيخ كبير يمشى فى الجادّة ، فبعث إليه بحمار فركبه ، فلما أتاه قدّم إليه الطعام ، فجعل الشيخ يأخذ اللقمة ويريد أن يدخلها فاه فيدخلها فى عينه مرة وفى أذنه مرة ، ثم إذا أدخلها فى فيه وحصلت فى جوفه ، خرجت من دبره ، وكان إبراهيم قد سأل ربه ألاّ يقبض روحه حتى يكون هو الذى يسأله الموت ، فقال للشيخ حين رأى حاله : مابالك ياشيخ تصنع هكذا ؟ فقال يا إبراهيم من الكبر ، قال : ابن كم أنت ؟ قال: كيت وكيت ، فحسب إبراهيم عمره فوجده يزيد على عمر إبراهيم بسنتين

فقال له إبراهيم : إنما بينى وبينك سنتان ، فإذا بلغت عمرك صرت مثلك ؟ قال : نعم ، فقال إبراهيم : اللهم اقبضنى قبل ذلك ، فقام الشيخ فقبض نفسه ، وكان الشيخ ملَكَ الموت ، وكان عمر إبراهيم مائتى سنة ، وقيل مئة وخمس وتسعون سنة ، ودفن عند قبر سارة فى مزرعة جبرون .

الباب التاسع فى ذكر خصائص إبراهيم عليه السلام

هو إبراهيم خليل الرحمن ، قال الله تعالى (وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً) وهو سيد الفتيان . روى فى الحديث « أنه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم : يا سيد البشر ، قال : ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ » وهو أبو الضيفان ، وكان لايتغدى ولا يتعشى إلا مع ضيف ، وربما مشى ميلين أو أكثر حتى يجد ضيفا ، وضيافته قائمة إلى يوم القيامة ، وهى الشجرة المباركة التى قال الله تعالى : (يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ)الآية . وصح أنه دعا الله تعالى أن يجعل النبوة فى نسله ، فاستجاب له وجعل النبوّة فى شِعْبَى إسمعيل وإسحاق. عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بُعِثْتُ عَلَى ثَمَانِيَةِ آلافِ نَبِيٍّ : أَرْبَعَةِ آلافٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ » . وهو المجعول له لسان الصدق فى الآخرين، فليس من نبى تجرى ألسنة الخلق كلهم بتصديقه، وتفضله وتبجله كل أمة غيره، وذلك بدعائه عليه السلام (وَاجْعَلْ لِى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الآخِرِينَ) . وهو المبتلى بأنواع البلاء والمشهود له بالوفاء ، قال الله تعالى (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) وقال (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى) أى بما أمر به . وهو الأمة القانت، قال الله تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) إلى آخر الآية، ومعنى الأمة أنه كان معلّما للخير ، وقد اجتمع فيه من خلال الخير وأنواع الفضل ، ما يجمع فى أمة كما قال الشاعر :

ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم فى واحد

وهو الذى أوتى رشده من قبل بلوغه ، وهو إمام الموحدين ، وجعل له لسان الحجة فى التوحيد ، فدعا الخلق إلى الحق بلسان الحجة من صغره إلى كبره ، قال تعالى (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ) ...الآية، وأول من سماه الله حنيفا مسلما، قال تعالى (وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً) وبرّأه من دعاوى اليهود والنصارى، وشهد له بالإسلام والإخلاص فقال تعالى (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا) . . . الآية ، وهو أول من اختتن .

قال أبو منصور الحمشارى : حدثنا أبو عباس المعقلى ، أخبرنا عبد الحكيم ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنا يحيى بن نصر ، قال : قرأ علىّ ابن وهب ، أخبرنا ابن سمعان، عن محمد بن المنكدر، عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: اختتن إبراهيم عليه السلام بالقَدوم ، وهو ابن مئة وعشرين سنة ، ثم عاش بعد ذلك ثمانين سنة .

وأخبرنا الحسين بن محمد بن فتحويه ، أخبرنا محمد بن مخلد بن جعفر ، أخبرنا الحسن

ابن علوية ، أخبرنا إسمعيل بن عيسى ، أخبرنا إسحاق بن بشر عن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال : إن إبراهيم أول من أضاف الضيف ، وأول من ثرد الثريد ، وأول من لبس النعلين ، وأول من قسم الفيء ، وأول من قاتل بالسيف ، وأول من اختتن ، واختتن على رأس مائة وعشرين سنة من ميلاده ، ختن نفسه فى موضع يقال له القدوم بالقدوم ، وهو الفأس ، وذلك أنه كان وقع بينه وبين العمالقة وقعة عظيمة ، فقتل من الفريقين خلق عظيم ، فلم يعرف إبراهيم أصحابه ليدفنهم ، فجعل الختان علامة لأهل الإسلام ، فاختتن يومئذ بالقدوم ، وهو أول من اتخذ السراويل .

أخبرنا الحسن الدينورىّ ، أخبرنا أحمد بن شداد بن عمر بن أحمد القطان ، أخبرنا محمد ابن إسمعيل بن حسان ، أخبرنا وكيع ، أخبرنا جرير بن حازم عن واصل مولى ابن عيينة قال : أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام : يا إبراهيم إنك أكرم أهل الأرض علىّ ، فإذا سجدت فلا ترى الأرض عورتك ، فاتخذ السراويل . وهو أول من شاب ، فلما رآه هاله ذلك ، فقال : يا رب ما هذا ؟ قال : الوقار ، فقال : يا رب زدنى وقارا . وهو أول من أقام المناسك ، وذلك بدعوته حيث قال : (وأرِنا مَناسِكَنا) فاستجيب له . وهو أول من ضحى ، وهو الذى بوّأ الله له مكان البيت ، وأراه ذلك بعد دروسه حتى بناه ، قال الله تعالى (وإذْ بَوّأنا لإبراهيمَ مَكانَ البَيْتِ)... الآية . وهو أول من ألقى فى النار فى الله ، فجعلت النار عليه بردًا وسلاما . وهو أول نبىّ أحيا الله له الموتى بسؤاله حيث قال (رَبِّ أرِنى كيْفَ تُحْيِي المَوتى)... الآية . وهو الذى كان إذا سافر وتمنى سارة واشتاق إليها رفع الله الحجاب بينه وبينها ، حتى يراها حيث كان . وهو الذى يكسى حلة بيضاء يوم القيامة ويوضع له منبر عن يسار عرش الرحمن . قال النبى عليه الصلاة والسلام « تُحْشَرُ النَّاس يَوْمَ القِيامَةِ حُفاةً عُراةً غُرْلاً بُهْماً ، وَأَوّلُ مَنْ يُكْسَى إبراهيمُ خَليلُ الرَّحمنِ » . وهو الكفيل لأطفال المسلمين ، والقائد لأهل الجنة . وهو أول من قصّ شاربه ، وأول من قلم أظفاره ، وأول من استحدّ ، وأول من نتف الإبط ، وأول من استاك ، وأول من فرق شعره ، وأول من تمضمض ، وأول من استنشق ، وأول من استنجى بالماء ، وأول من هاجر لله ، قال الله تعالى (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقالَ إنى مُهاجِرٌ إلى ربىّ) ، وجعل مقامه قبلة للناس ، قال الله تعالى (واتّخِذُوا مِنْ مَقامِ إبراهيمَ مُصَلّى) وجعله إماما للناس ، قال الله تعالى (إنى جاعِلُكَ للنّاسِ إماماً) ، وقال تعالى (قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فى إبراهيمَ) . وأمر محمدا خير الأنبياء وأمته خير الأمم باتباع ملته ، قال تعالى (ثُمَّ أَوْحَيْنا إليكَ أنِ اتّبِعْ مِلّةَ إبراهيمَ حَنيفاً) وقال (قُلْ بَلْ مِلّةَ إبراهيمَ حَنيفاً) . وسماه حليما منيبا أوّاها ، قال تعالى (إنّ إبراهيمَ لَحَليمٌ أوّاهٌ مُنيب) الحليم : السيد الذى يملك

نفسه عند الغضب ، والأوّاه : الذى يكثر التأوّه عند ذكر الذنوب ، والمنيب : المقبل بقلبه إلى ربه ، فهذه ستة وأربعون خصلة من خصاله التى أكرمه الله بها .

ويروى أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم : يا إبراهيم إنك لما سلمت مالك إلى الضيفان ، وابنك إلى القربان ، ونفسك إلى النيران ، وقلبك إلى الرحمن ، اتخذناك خليلا .

وروى أبو إدريس الخولانى عن أبى ذر الغفارى قال : قلت : يا رسول الله كم كتابا أنزل الله تعالى ؟ قال : « مِئة صَحيفةٍ وأَرْبعَة كُتُبٍ ، أَنْزَلَ اللهُ عَلَى آدمَ عَشْرَ صَحائِفَ ، وَعلى شيث خَمْسِينَ صَحِيفَةٍ ، وَعَلَى إدْرِيسَ ثَلاثِينَ صَحِيفةً ، وعَلَى إبراهِيمَ عَشْرَ صَحَائِفَ ، وأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ والإِنْجِيلَ والزَّبُورَ والفُرْقانَ . قال : فقلت : يارسول الله فما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : كانَتْ أَمْثالاً كُلُّها : أَيُّها المَلِكُ المُبْتَلَى المُسَلَّطُ المَغْرُورُ ، إنى لمْ أَبْعَثْكَ لِتَجْمعَ الدُّنْيا بَعْضَها على بعضٍ ، ولكِنِّى بَعَثْتُكَ لِتَرُدَّ عَنِّى دَعْوَةَ المَظْلومِ ، فإنِى لاأَرُدُّها وَلَوْ كانَتْ مِنْ كافِرٍ . وكانَ فيها أَمْثالٌ : عَلَى العاقِلِ مالمْ يَكُنْ مَغْلوباً عَلَى عَقْلِهِ أَنْ يكونَ لهُ أَرْبعُ ساعاتٍ : ساعةٌ يُناجى فيها رَبَّهُ ، وَساعَةٌ يتفكَّرُ فِيها فى صُنْعِ اللهِ تَعالى ، وساعَةٌ يُحاسِبُ فِيها نَفْسَهُ عَلَى ما قدَّمَ وأخَّرَ ، وساعَةٌ يَخْلو فِيها لِحاجَتِهِ مِنَ الحَلالِ والحَرامِ فى المَطْعَمِ والمَشْرَبِ وغيرِهما . وَعلَى العاقِلِ أَنْ لايكونَ ظاعِناً إلاَّ فى ثَلاثٍ : تَزَوُّدٍ لِمَعادِهِ ، وَمُؤْنَةٍ لِمَعاشِهِ ، وَلَذَّةٍ فى غيرِ مُحَرَّمٍ . وَعلَى العاقِلِ أَنْ يَكونَ بَصِيراً بِزَمانِهِ مُقْبِلاً عَلَى شانِهِ حافِظاً للسانِهِ . وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ كَلامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كلامُهُ فِيما لايعْنِيهِ ، واللهُ عَنْ كُلِّ مَحْذورٍ يُغْنِيه » .

مجلس فى ذكر بعض أخبار إسماعيل وإسحاق ابنى إبراهيم عليهم السلام

وقد ذكرنا سير إبراهيم الخليل بابنه إسمعيل وهاجر إلى مكة وإسكانه إياهما بها ، ولما كبر إسمعيل وبلغ النكاح تزوج امرأة من جُرهم ، فكان من أمرها ما قدمنا ذكره ، ثم طلقها بأمر أبيه ، ثم تزوج بامرأة أخرى ، يقال لها السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمى ، وهى التى قال لها إبراهيم حين قدم مكة : إذا جاء زوجك فأقرئيه منى السلام ، وقولى له : قد استقامت عتبة بابك ، فولدت السيدة لإسمعيل اثنى عشر رجلا : نابتا وقيذار وأدبيل وبسام ومسمع وذوما ومسا وحرا وقيما وبطرر ونافس وقيدما ؛ ومن نابت وقيذار ابنى إسمعيل نشر الله تعالى العرب ، ثم نبأ الله تعالى إسمعيل فبعثه إلى العماليق وقبائل اليمن ، فلما حضرت إسمعيل الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق أن يزوج ابنته من عيص بن إسحاق ، وعاش إسمعيل مئة وسبعا وثلاثين سنة ، ودفن بالحِجر عند قبر أمه هاجَر .

وروى عمر بن عبد العزيز أنه قال: شكا إسمعيل إلى ربه تعالى حرّ مكة، فأوحى الله تعالى إليه: إنى فاتح لك بابا من الجنة يجرى عليك روحها إلى يوم القيامة، وفى ذلك المكان دفن.

وأما حديث إسحاق عليه السلام، فإنه نكح رفقا بنت بتويل، فولدت له عيصا ويعقوب بعد ما مضى من عمره ستون سنة، ولهما قصة عجيبة على ما ذكره السدىّ. قال: حملت رفقا فى بطن واحد بغلامين، فلما أرادت أن تضع اقتتل الغلامان فى بطنها، فأراد يعقوب أن يخرج قبل عيص، فقال عيص: والله لئن خرجت قبلى لأعترضن فى بطن أمى فأقتلها، فتأخر يعقوب وخرج عيص قبله، فسمى عيصا لأنه عصى، فخرج قبل يعقوب، وسمى الآخر يعقوب لأنه خرج آخرا بعقب عيص، وكان يعقوب أكبرهما فى البطن، ولكن عيصا خرج قبله، فلما كبر الغلامان كان عيص أحبهما إلى أبيه، ويعقوب أحبهما إلى أمه، وكان عيص صاحب صيد. فلما كبر إسحاق وعمى قال لعيص: يا بنى أطعمنى لحم صيد واقترب منى أدع لك بدعاء دعا لى به أبى، وكان عيص رجلا أشعر، ويعقوب رجلا أجرد، فخرج عيص يطلب الصيد، فسمعت أمه الكلام فقالت ليعقوب: يا بنى اذهب إلى الغنم فاذبح منها شاة واشوها والبَس جلدها، ثم قدمها إلى أبيك وقل له: أنا ابنك عيص، ففعل ذلك وأتى إلى أبيه وقال: يا أبتاه كل، فقال: من أنت؟ قال: أنا عيص، فمسه وقال: المس مسّ عيص والريح ريح يعقوب، فقالت له امرأته: هو ابنك عيص، فادع له، فقال: قدم طعامك، فقدمه فأكل منه، ثم قال له: ادن منى، فدنا منه، فدعا له أن يجعل فى ذريته الأنبياء والملوك، ثم قام يعقوب من عنده، وجاء عيص بعده، فقال: يا أبت قد جئتك بالصيد الذى أردته، فقال: يا بنى قد سبقك أخوك يعقوب، فغضب عيص وقال: والله لأقتلنه، فقال: يا بنى قد بقيت لك دعوة، فهلمّ أدع لك بها، فتقدم إليه فدعا له فقال: أن تكون ذريتك عدد التراب ولا يملكهم أحد غيرهم. ثم إن أمّ يعقوب قالت ليعقوب: الحق بخالك فكن عنده خشية عليه أن يقتله عيص، فانطلق يعقوب إلى خاله، وكان يسير فى الليل ويكمن فى النهار، ولذلك سماه الله إسرائيل، وهو أول من سرى بالليل، فأتى يعقوب إلى خاله، وكان إسحاق أمره أن لاينكح امرأة من الكنعانيين، وأمره أن ينكح امرأة من بنات خاله ليان بن ناهر، وإن يعقوب لما مكث عند خاله، فخطب ابنته راحيل، وكان له ابنتان: ليَّا وهى الكبرى، وراحيل وهى الصغرى، فقال له: هل لك من مال فأزوجك عليه؟ فقال: لا، ولكن أخدمك أجيرا حتى تستوفى صداق ابنتك، فقال له: إن صداقها أن تخدمنى سبع حجج، فقال يعقوب: تزوجنى راحيل، لأنها أصغر، ولأجلها أخدمك، فقال له خاله: ذلك بينى وبينك، فرعى له يعقوب سبع سنين، فلما وفى له شرطه دفع له ابنته الكبرى ليا، وأدخلها عليه ليلا، فلما أصبح وجد غير ماشرط، فجاءه يعقوب وهو فى ناد من قومه فقال له: غررتنى وخدعتنى، واستحللت عملى سبع سنين، ودلست علىّ غير

امرأتى ، فقال له خاله : يا بن أختى أردت أن لايدخل علىَّ فى ذلك العار ، وألبسه وأنا خالك ووالدك ، متى رأيت الناس يزوجون الصغرى قبل الكبرى ؟ فهلم فاخدمنى سبع سنين أخرى حتى أزوجك الأخرى ، وكان الناس يومئذ يجمعون بين الأختين إلى أن بعث موسى وأنزلت التوراة ؛ فرعى له يعقوب سبع سنين أخرى ، فدفع إليه راحيل ، فولدت له ليا أربعة أسباط : روبيل ، وكان أكبرهم ، ويهوذا ، وشمعون ، ولاوى ؛ وولدت له راحيل : يوسف وبنيامين ، وهو بالعربية شداد ، وإنما سمى بنيامين لأن أمه راحيل ماتت فى نفاسها ، ويامين بالعربية الشكل ، وكان ليان دفع إلى ابنتيه حين جهزهما إلى يعقوب أمتين يقال لإحداهما زلفة وللأخرى بلهة ، فوطئْ الأمتين يعقوب فولدت كل واحدة منهما ثلاثة أسباط ، فولدت زلفة ليعقوب : دان ونفتالى وروبالون ، وولدت له بلهة : جاد ويشجر وآشر ، فكان بنو يعقوب اثنى عشر رجلا : اثنان من راحيل ، وأربعة من ليا ، وثلاثة من زلفة ، وثلاثة من بلهة ، وهم الذين سماهم الله تعالى الأسباط ؛ وسموا بذلك لأن كل واحد منهم ولد قبيلة . والسبط فى كلام العرب الشجرة الملتفة الكثيرة الأغصان ، والأسباط من بنى إسرائيل كالشعوب من العجم ، والقبائل من العرب . ثم إن يعقوب فارق خاله ليان وانصرف بولده وامرأتيه وجاريتيه المذكورات إلى منزل أبيه من فلسطين على تخوّف شديد من أخيه عيص ، فلم ير منه إلا خيرا ، فنازل أخاه وتألفه وتلطفه حتى ترك له البلاد وتنقل فى الشام وصار إلى السواحل ، ثم عبر إلى الروم فاستوطنها ، فصار ذلك له ولولده من بعده .

وقال ابن إسحاق : تزوج عيص بن إسحاق بنت عمه نسيمة بنت إسمعيل بن إبراهيم ، فولدت له الروم بن عيص ، فكل بنى الأصفر من ولده ، وكان عيص فيما يذكر يسمى آدم لأدمته ولذلك سمى ولده بنى الأصفر . قالوا : وعاش إسحاق بعد ما ولد له عيص ويعقوب مئة سنة ، وتوفى وله مئة وسبعون سنة ، ودفنه أبناؤه عند قبر أبيه عليهما السلام فى مزرعة جبرون ، والله أعلم .

مجلس فى قصة لوط عليه السلام

وهو لوط بن هاران بن تارح ابن أخى إبراهيم عليه السلام ، وإنما سمى لوطا لأن حبه لاط بقلب إبراهيم عليه السلام ، أى تعلق به ولصق . ومنه حديث أبى بكر رضى الله عنه حين ذكر عمر « اللهم غفرا لولا ذاك أَلْوَط » أى ألصق بالقلب ، وكان إبراهيم يحبه حبا شديدا . وكان من أمر لوط فيما ذكر أهل العلم بأخبار الأنبياء وذكر وهب فى المبتدإ له : أنه شخص من أرض بابل مع عمه إبراهيم مؤمنا به متبعا له على دينه ، مهاجرا معه إلى الشام ومعهما سارة بنت ناحور ، وشخص معه تارح أبو إبراهيم مخالفا لإبراهيم فى دينه ومقيما على كفره إلى أن وصلوا إلى حران ومكثوا بها ، فمات تارح وهو آزر أبو إبراهيم بحران على كفره ، وشخص إبراهيم ولوط وسارة إلى الشام ، ثم مضوا إلى مصر ، فوجدوا بها فرعونا من فراعنتها يقال له سنان بن عاران بن عبيد بن عوج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح

عليه الصلاة والسلام ، فرجعوا عودا إلى أرض الشام ، فنزل إبراهيم فلسطين ، وأنزل لوطا الأردن ، فبعثه الله تعالى إلى أرض سدوم وما يليها ، وكانوا أهل كفر بالله وركوب فواحش كما أخبر الله عنهم بقوله تعالى (أَتَأْتُونَ الفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ العالَمِينَ . أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ) . قال عمرو بن دينار : ما كان يُرى ذَكَر على ذَكَر حتى كان قوم لوط ، وقال تعالى (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فى نادِيكُمُ المُنْكَرَ) . فكان قطعهم السبيل فيما ذكر أهل التأويل أن إتيانهم الفاحشة مع من ورد بلدهم وإتيانهم المنكر فى ناديهم . قال المفسرون : هو أنهم كانوا يجلسون فى مجالسهم على الطريق فيحذفون من مرّ بهم ، ويتضارطون فى مجالسهم ، وينكح بعضهم بعضا فى الطريق . وقال مجاهد : كانوا يجامعون الرجال فى مجالسهم على الطريق .

وروى أبو صالح عن أم هانئ قالت : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقال : كانُوا يَجْلِسُونَ عَلَى الطَّرِيقِ فَيَحْذِفُونَ مَنْ مَرَّ بِهِمْ وَيَسْخَرُونَ بِهِ ، وهُوَ المُنْكَرُ الَّذى كانُوا يَأْتُونَهُ ، وكانَ لُوطٌ يَنْهاهُمْ عَنْ ذلكَ وَيدعُوهُمْ إلى عِبادَةِ اللهِ تَعالى ، وَيَتَوَعَّدُهُمْ عَلى إِصْرارِهِمْ عَلى ما هُمْ عليهِ وَيأْمُرُهُمْ بِالتَّوْبَةِ مِنْهُ ، وَيُخَوِّفُهُمْ مِنَ العَذابِ الأَلِيمِ ، فَلا يَزْجُرُهُمْ عَنْ ذلكَ وَعْدُهُ ، ولا يَزِيدُهُمْ وَعْظُهُ إلاَّ تَمادِياً وَعُتُوّاً واسْتِعْجالاً بعذابِ اللهِ تَعالى وإنكاراً وتكذيباً ، ويقولونَ لَهُ (ائْتِنا بعذابِ اللهِ إنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ) حَتَّى سأَلَ لُوطٌ رَبَّهُ أَنْ يَنْصُرَهُ عليهِمْ ، فقالَ (رَبِّ انْصُرْنِى عَلَى القَوْمِ المُفْسِدِينَ) فأجابَ اللهُ دُعاءَهُ وَبَعَثَ جبريلَ وميكائيلَ وإسْرافِيلَ عليهِمُ السَّلامُ لإهْلاكِهِمْ وبِشارَةِ إبراهِيمَ عليهِ السَّلامُ بالوَلَدِ ، فأقْبَلُوا مُشاةً فى صُورَةِ رِجالٍ مُرْدٍ حِسانٍ حَتَّى نَزَلُوا على إبراهِيمَ عليهِ السَّلام ، فَتَضَيَّفُوهُ وبَشَّرُوهُ بإسحاقَ » وقد مضت القصة . فلما فرغوا من ذلك وأخبروا إبراهيم أن الله تعالى بعثهم لإهلاك قوم لوط ، ناظرهم إبراهيم وحاجهم فى ذلك كما قال الله تعالى (فَلَمّا ذَهَبَ عَنْ إبراهِيمَ الرَّوْعُ وجاءَتْهُ البُشْرَى يُجادِلُنا فى قَوْمِ لوطٍ) وكان جداله إياهم على ما ذكر ابن عباس وغيره أنهم لما قالوا له (إنا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذهِ القَرْيَةِ) قال لهم : أتهلكون قرية فيها أربع مئة مؤمن ؟ قالوا : لا ، قال : أفتهلكون قرية فيها ثلاث مئة مؤمن ؟ قالوا : لا ، قال : أفتهلكون قرية فيها مئتا مؤمن ؟ قالوا : لا ، قال : أفتهلكون قرية فيها مئة مؤمن ؟ قالوا لا ، قال : أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنا ؟ قالوا : لا ، قال : أفتهلكون قرية فيها أربعة عشر مؤمنا ؟ قالوا : لا ، وكان إبراهيم بعدّهم أربعة عشر بامرأة لوط ، فسكت عنهم واطمأنت نفسه .

وروى سعيد عن ابن عباس قال : قال الملك لإبراهيم : إن كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب ، فلما عرف إبراهيم حال قوم لوط ، قال للرسل : إن فيها لوطا ، قالها إشفاقا منه عليه ، فقالت له الرسل : (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها ، لَنُنَجِّيَنَّهُ وأَهْلَهُ إِلاَّ امرأَتَهُ) .

قال قتادة : فى هذه الآية لاترى المؤمن إلا يحوط المؤمن ، ثم مضت رسل الله تعالى نحو سدوم ؛ فلما انتهوا إليها لقوا لوطا فى أرض له يعمل فيها. قال قتادة راويا عن حذيفة: إن الله تعالى قال للملائكة لاتهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات ، فأتوه فقالوا : إنا متضيفوك الليلة ، فانطلق بهم ، فلما مشى ساعة التفت لهم ، وقال : أوما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا : وما أمرها ؟ قال : أشهد بالله إنها لشرّ قرية فى الأرض ، وما أعلم على وجه الأرض أناسا أخبث منهم ، قال ذلك : أربع مرات ، فدخلوا معه منزله ؛ وعلم لوط أنه سيحتاج إلى المدافعة عن أضيافه ، وخاف عليهم من قومه ، فذلك قوله تعالى (ولَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ، وَقالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ) أى شديد .

قال السدىّ بإسناده : لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط أتوها نصف النهار ، فلما بلغوا سدوم لقوا بنت لوط تستسقى الماء لأهلها ، وكان له ابنتان : اسم الكبرى ريثا ، والأخرى غيثا ؛ فقالوا لها : يا جارية هل من منزل ؟ قالت : نعم مكانكم لاتدخلوا حتى آتيكم ، ففزعت عليهم من قومها ، ثم أتت أباها فقالت : يا أبتاه أدرك فتيانا على باب المدينة ، ما رأيت وجوه قوم قط أحسن منهم ، لئلا يأخذهم قومك فيفضحوك ؛ وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجالا ، وقالوا له : خلّ عنا ، فلنضيف الرجال ، فذلك قوله تعالى (أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العالَمِينَ) فجاء بهم لوط إلى منزله ، مايعلم بهم أحد إلا أهل بيت لوط ، فخرجت امرأته ، فأخبرت قومها بذلك وقالت : إن فى بيت لوط رجالا ما رأيت مثلهم حسنا قط .

قال أبو حمزة الثمالى : بلغنا أن العلم الذى كان بين امرأة لوط وقومه إذا أتتهم الضيفان يقول رسولها : هيئوا لنا مِلْحا ، تدعوهم بذلك إلى الفاحشة بأضياف لوط ، فبلغنا أن الله تعالى مسخها ملحا . قالوا : فلما أخبرت امرأة لوط قومها بأضياف زوجها جاءه قومه يهرعون إليه : أى يسرعون ويهرولون ، فلما أتوه قال لهم لوط : يا قوم (اتَّقُوا اللهَ ولا تُخْزُونِ فى ضَيْفِى أَلَيْسَ منكمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ) وقال لهم (هؤُلاءِ بَناتى هُنَّ أَطْهَرُ لكمْ) قالوا (أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العالَمِينَ) أن تضيف الرجال ، وقالوا (لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فى بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وإِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ) فلما لم يقبلوا منه ما عرض عليهم (قالَ لَوْ أَنَّ لى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِى إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ) قالوا : فما بعث الله نبيا بعده إلا فى شرف من قومه ومنعة من عشيرته . وقال صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية

«رَحِمَ اللهُ أخى لُوطا، لَقَدْ كانَ يأْوِى إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ» . قال ابن عباس وغيره : وغلق بابه والملائكة معه فى الدار وهو يناظرهم ويناشدهم من وراء الباب وهم يعالجون تسوّر الدار، فلما رأت الملائكة ما لقى لوط من الكرب والنصَب والتعب بسببهم، قالُوا له : يا لوط إن ركنك لشديد (وإنهُمْ آتيهِمْ عذابٌ غيرُ مرْدود - إنّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلوا إليكَ فأسْرِ بأهْلِكَ بقِطعٍ مِنَ اللّيْلِ) الآية ، ثمّ قالوا له : افتح الباب ودَعْنا وإياهم، ففتح الباب فدخلوا ، فاستأذن جبريل عليه السلام ربه فى عقوبتهم ، فأذن له ، فقام فى الصورة التى يكون فيها ، فنشر جناحيه ، وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم، وهو براق الثنايا، أجلى الجبين، ورأسه حُبُك مثل المرجان كأنه الثلج بياضا، وقدماه إلى الخضرة ، فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم ، فذلك قوله تعالى (ولَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فطَمَسْنا أعيُنَهُمْ) الآية ، فصاروا لايعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم ، ثم إنهم انصرفوا وهم يقولون : النجاءَ النجاءَ ، إن فى بيت لوط أسحر قوم فى الأرض ، وقالوا للوط : جئتنا بقوم سحرة سحرونا ، كن كما كنت حتى نصبح، يتوعدونه ؛ فلما علم لوط أن أضيافه رسل ربه ، وأنهم أرسلوا بهلاك قومه، قال لهم : أهلكوهم الساعة ، فقال له جبريل (إنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ، أليسَ الصُّبْحُ بقَرِيبٍ) ثم أمره أن يسرى بأهله بقطع من الليل ولا يلتفت منهم أحد إلا امرأته . فلما كان السحر خرج لوط وأهل بيته ومعه امرأته ، فذلك قوله تعالى (إلاّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ، نِعمَةً مِنْ عِنْدِنا كذلكَ نَجْزِى مَنْ شَكَرَ) . فلما أصبحوا أدخل جبريل جناحه تحت أرضهم ، فاقتلع قرى قوم لوط الأربع ، وكان فى كل قرية مائة ألف ، فرفعهم على جناحه بين السماء والأرض حتى سمع أهل سماء الدنيا صياح ديوكهم ونباح كلابهم ، ثم كفأها وقلبها، فجعل عاليها سافلها ، كما قال الله تعالى (فجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها) ثم أتبع شاردهم ومسافرهم بالحجارة ، فذلك قوله تعالى (وأمْطَرْنا عليهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُود. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وماهِىَ مِنَ الظّالِمينَ ببَعِيدٍ) أى ممن يفعل كفعلهم .

أخبرنا الحسين بن محمد بن فنجويه ، أخبرنا مخلد بن جعفر الباقرىّ ، أخبرنا الحسين بن علويه ، أخبرنا إسمعيل بن عيسى ، أخبرنا إسحق بن بشر ، أخبرنى جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس عن على بن أبى طالب رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنى لأسْمَعُ العَواصِفَ والقَواصِفَ مِنَ الرَّعْدِ، فأخْشَى أنَّها الحِجارَةُ التى أعِدَّتْ لِقَوْمِ لُوطٍ أوْ مَنْ يفْعَلُ بفِعْلِهِمْ» :

وأخبرنا أبو بكر بن محمد بن أحمد بن عقيل القطان ، أخبرنا أبو الفضل عبدوس بن الحسين بن منصور ، أخبرنا أبو حاتم الرازى ، أخبرنا أبو اليمان الحكم بن نافع الحمصى عن

صفوان بن عمرو ، قال : كنت عند عبد الملك بن مروان إلى أن أتى شعيب قاضى حمص، وكان رجلا عالما، فسأله عن عقوبة اللوطى ، قال: أن يرموه بالحجارة كما رجم قوم لوط ، فإن الله تعالى قال(وأَمْطَرْنا عليهِمْ مَطَرًا فساءَ مَطَرُ المُنْذَرِينَ)وقال تعالى(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ)فقبل عبد الملك ذلك منه واستحسنه. قالوا: وكان الرجل منهم يتحدث فى قريته التى يكون فيها ، فيأتيه الحجر فيقتله . قال : وسمعت امرأة لوط الهدة فالتفتت وقالت : واقوماه ! فأدركها حجر فقتلها ، فذلك قوله تعالى (إلاَّ امْرأَتَهُ كانَتْ مِنَ الغابِرِينَ) أى الباقين فى العذاب ،وقال تعالى (إنَّهُ مُصِيبُها ما أصابَهُمْ)...الآية.

أخبرنا الحسين بن محمد بن الحسين ، أخبرنا موسى بن محمد بن على ، أخبرنا الحسين ابن علويه ،أخبرنا إسمعيل بن عيسى قال: أخبرنا المسيب قال: سمعت أباروْق يقول: (إلاَّ امرَأَتَهُ كانَتَ مِنَ الغابِرِينَ): أى خلقت فسخت حجرا،وكانت تسمى هلسفع ،وقال غيره : اسمها واعلة . قالوا :وكانت قرى قوم لوط خمسا: سدوم وعامورا ودومة وساعورا؛ فأما سدوم فهى القرية العظيمة ، وكان فى هذه القرية أربعة آلاف،فاحتملها جبريل على جناحه فقلبها ، فلذلك سميت المؤتفكات : أى المنقلبات ؛ وأما القرية الخامسة فإنها تسمى صفرة ونجت من العذاب لأن أهلها آمنوا بلوط .

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام « إنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالى سَمَّاكَ بأسْماء فَفَسِّرْها لى ،قال : وصفك فى قوله تعالى (ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى العَرْشِ مَكِينٍ مُطاعٍ ثَمَّ أمِينٍ) قال : فأخْبِرنى عَنْ قُوَّتِكَ ؟ قال : يا محمد رفعتُ قرى قوم لوط من تخوم الأرض على جناحى فى الهواء،حتى سمعتْ ملائكةُ سماء الدنيا أصواتهم وأصوات الدِّيَكة، ثم قلبتها ظهرا لبطن ، قال : فأخْبِرنى عَنْ قَوْلِهِ تَعالى (مُطاعٍ) قال : إن رضوان خازن الجنان ومالكا خازن النيران متى قلت لهما أو كلفتهما فتح أبواب الجنان أو النيران فتحاها ، قال : فأخْبِرنى عَنْ قَوْلِهِ تَعالى (أمِينٍ) قال : إنَّ الله تعالى أنزل من السماء مئة وأربعة كتب على أنبيائه لم يأتمن عليها غيرى » .

أخبرنا عبد الله بن الحسين بن محمد الثقفى ، أخبرنا أبو عثمان بن أحمد بن سمعان البرارى، أخبرنا عبد الله بن قحطبة ، أخبرنا ياسر بن ثوبة ، أخبرنا محمد بن راموز ، أخبرنا أبو بكر بن عياش قال : سألت أبا جعفر : أعذَّب الله النساء من قوم لوط بعمل رجالهم ؟ فقال : الله تعالى أعدل من ذلك ، بل استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء ، فوجب عليهم العذاب جميعا .

أخبرنا ابن فتحويه ، أخبرنا مخلد بن جعفر ، أخبرنا لحسين بن علوية ، أخبرنا إسمعيل ابن عيسى ، أخبرنا إسحق بن بشر ، حدثنى مقاتل بن سليمان قال: قلت لمجاهد : يا أبا الحجاج

هل بقى من قوم لوط أحد ؟ قال : لا، إلا رجل بقى أربعين يوما وكان بمكة ، فجاءه حجر ليصيبه فى الحرم ، فقام إليه ملائكة الحرم فقالوا للحَجَر : ارجع من حيث جئت ، فإن الرجل فى حرم الله ، فوقف الحجر خارج الحرم أربعين يوما بين السماء والأرض حتى قضى الرجل حاجته ، فلما خرج أصابه الحجر خارج الحرم فقتله .

عن مقاتل عن أبى نضرة عن أبى سعيد قال : ما عمل ذلك قوم لوط إنما كانوا ثلاثين رجلا ونيفا لايبلغون الأربعين فأهلكهم الله جميعا . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ ولتنهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ ، أَوْ لَتَعُمَّنَّكُمُ العُقُوبَةُ جَمِيعا » .

مجلس فى قصة يوسف بن يعقوب وإخوته عليهم الصلاة والسلام

قال الله تعالى (نَحْنُ نَقُصُّ عليْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ) . . . الآية قال سعد بن أبى وقاص : قالت الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو حدثتنا ، قال : فأنزل الله تعالى (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً) ... الآية، فقالوا: يارسول الله لو قصصت علينا ! فأنزل الله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص بِما أَوْحَيْنا إليكَ هذَا القُرآنَ) . . . الآية ، فدلهم الله تعالى فى هذه الآية على أحسن القصص .

واختلف العلماء فى سبب تسمية الله تعالى قصة يوسف عليه السلام من بين الأقاصيص أحسن القصص ؛ فقال بعض أهل المعانى : معنى الآية قصة حسنة،لفظه لفظ المبالغة ، وحكمه حكم الصفة كقوله تعالى (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) قال الشاعر :

إن الذى سمك السماء بنى لنا   بيتا دعائمــه أعزّ وأطول

أراد عزيزة طويلة ، وأجراه الباقون على الظاهر فقالوا : هى أحسن القصص ؛ ثم اختلفوا فى وجهها ، فروى مقاتل عن سعيد بن جبير قال : اجتمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سلمان الفارسىّ فقالوا : يا سلمان حدثنا عن التوراة بأحسن ما فيها ، فأنزل الله تعالى(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ)يعنى أن قصص القرآن أحسن مما فى التوراة ، وقيل سمى الله هذه القصة أحسن القصص،لأنها ليست قصة فى القرآن تتضمن من العبر والحكم والعجائب واللطائف ما تضمنت هذه القصة ، ولذلك قال الله تعالى (لَقَدْ كانَ فى يُوسُفَ وإخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ) وقال تعالى (لَقَدْ كانَ فى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولى الأَلْبابِ).وقيل سماها أحسن القصص،لحسن مجازاة يوسف إخوته وصبره على أذاهم وإغضائه عند الالتقاء بهم عن ذكر ما تعاطوه معه وكرمه فى العفو عنهم حيث قال (لا تَثْرِيبَ عليْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لكُمْ) . وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والإنس والأنعام والطير وسير الملوك والمماليك

والعلماء والتجار والعقلاء والجهلاء وحال الرجال والنساء ومكرهن وحيلهن، وفيها أيضا ذكر العفة والتوحيد وعلم السير وتعبير الرؤيا وآداب السياسة والمعاشرة وتدبير المعاش، فصارت أحسن القصص لما فيها من المعانى الجزيلة والفوائد الجليلة التى تصلح للدين والدنيا وتجمع خيرى الدنيا والعقبى . قال أهل الإشارة : سماها الله أحسن القصص لما فيها من ذكر المحب والمحبوب .

الباب الأول : فى ذكر نسبه عليه الصلاة والسلام

هو: يوسف الصديق ابن يعقوب الصفىّ ابن إسحاق الذبيح ابن إبراهيم الخليل عليهم السلام. بذلك سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم كريما وآباءه كرماء . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنَّ الكَرِيمَ ابْنَ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ : يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إسْحَاقَ بْنِ إبراهِيمَ ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيهِمْ » .

واختلفوا فى معنى اسم يوسف ؟ فقال أكثر الفقهاء : هو اسم عبرى ، فلذلك لايجرى. وقال بعضهم : هو اسم عربىّ سمعت الأستاذ أبا القاسم الحبيبىّ يقول : سمعت أبى يقول : سمعت أبا الحسن الأقطع ، وكان حكيما ؟ فسئل عن يوسف فقال : الأسف فى اللغة : الحزن ، والأسيف : العبد ، واجتمعا فيه ، فلذلك سمى يوسف .

الباب الثانى : فى صفة يوسف عليه الصلاة والسلام وحليته ونعت خلقه وصفة صورته

قال الله تعالى (فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ) . . . الآية .

أخبرنا أبو عبد الله الثقفىّ ، أخبرنا عمر بن أحمد بن عثمان ، أخبرنا محمد بن محمد بن سليمان ، أخبرنا محمد بن حميد الرازىّ ، أخبرنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق عن روح ابن القاسم ، قال : حدثنى عمارة عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِى إلى السَّماءِ فرأيْتُ يُوسُفَ ، فقُلْتُ : يا جبريلُ مَنْ هذَا ؟ فقالَ هذَا يُوسُفُ ، قالوا : فكيف رأيتَه يا رسول الله ؟ قال : كالقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ » . وأخبرنى الحسن بن محمد ، أخبرنا أحمد بن جعفر بن حمدان ، أخبرنا حامد بن سعدان ، أخبرنا أبى ، أخبرنا يعقوب ، أخبرنا الوليد بن مسلم عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أُعْطِيَ يُوسُفُ وأُمُّهُ شَطْرَ الحُسْنِ » . وعن أبى إسحاق ابن عبد الله بن أبى فروة قال : كان يوسف إذا سار فى أزقة مصر يُرى تلألؤ وجهه على الجدران ، كما يرى نور الشمس والقمر على الجدران . قال كعب الأحبار : إن الله تعالى مثل لآدم ذريته بمنزلة الذرّ ، فأراه الأنبياء عليهم السلام نبيا نبيا ، وأراه فى الطبقة السادسة يوسف متوّجا بتاج الوقار ، متزرا بحلة الشرف ، مرتديا برداء الكرامة ، مقمصا بقميص البهاء ، وفى يده قضيب الملك ، وعن يمينه سبعون ألف ملك ، وعن يساره سبعون ألف ملك ، ومن خلفه أمم الأنبياء لهم زجل بالتسبيح والتقديس ، وبين يديه شجرة السعادة تزول معه حيثما

زال وتحول معه حيثما حال ؛ فلما رآه آدم قال : إلهي من هذا الكريم الذى أبحت له بحبوحة الكرامة ، ورفعته الدرجة العالية ؟ قال : يا آدم هذا ابنك المحسود على ما آتيته ، يا آدم انحله ، قال آدم : قد أنحلته ثلثي حسن ذريتي ، ثم إن آدم ضم يوسف إلى صدره وقبّله بين عينيه وقال : يا بني لاتأسف فأنت يوسف ، فأول من سماه يوسف آدم ، فقسم الله تعالى ليوسف من الجمال الثلثين ، وقسم بين العباد الثلث ، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله تعالى بيده ، وصوّره ونفخ فيه من روحه ، قبل أن يصيب المعصية ، وقد كان الله أعطى آدم الحسن والجمال والبهاء يوم خلقه ، فلما عصى نزع ذلك منه ، وأعطاه يوسف عليه السلام ، ثم لما تاب عليه وهبه ثلث الجمال الذى كان انتزعه منه ، وذلك أن الله تعالى أحب أن يرى العباد أنه قادر على ما يشاء ، فأعطى يوسف من الحسن والجمال ما لم يعطه أحدا من الناس ، ثم أعطاه العلم بتأويل الرؤيا ، وكان يخبر بالأمر الذى يرى فى المنام أنه سيكون كذا وكذا من قبل أن يكون ذلك الأمر ، علمه الله ذلك كما علم الأسماء كلها لآدم ، فكان حسن يوسف كضوء النهار . وكان يوسف أبيض اللون جميل الوجه ، جعد الشعر ، ضخم العينين ، مستوى الخلقة ، غليظ الساقين والعضدين والساعدين ، خميص البطن ، أقنى الأنف صغير السرة ، وكان بخده الأيمن خال أسود ، وكان ذلك الخال يزين وجهه ، وكان بين عينيه شامة بيضاء كأنها القمر ليلة البدر ، وكانت أهداب عينيه تشبه قوادم النسور ، وكان إذا تبسم رُئى النور من ضواحكه ، وإذا تكلم رأيت شعاع النور يشرق من بين ثناياه ، لايقدر بنوآدم ولا أحد على وصف يوسف عليه الصلاة والسلام ؛ ويقال إنه ورث الحسن من جده إسحاق بن إبراهيم ، وكان أحسن الناس ، وإسحاق هو الضاحك بالعبرانية ، وهو ورث الحسن من أمه سارة ، فإن الله تعالى صوّرها على صورة الحور العين ، ولكن لم يعطها صفاءهن ، وأعطى يوسف من الحسن والجمال وصفاء اللون ونقاء البشرة ما لم يعطه أحدا من العالمين ، وإنه كان ليأكل البقول والفواكه فترى حين يزدردها فى حلقه وفى صدره ، حتى تصل إلى بطنه ، وورثت سارة الحسن من جدتها حواء .

وقال وهب : الحسن عشرة أجزاء : ليوسف تسعة ، وواحد بين سائر الناس .

وعن عبد الله بن مسعود عن النبي عليه الصلاة والسلام قال « هَبَطَ جبريل عليهِ السَّلامُ فقالَ : يا مُحَمَّدُ إنَّ اللهَ تعالى يقولُ لكَ كَسَوْتُ حُسْنَ يُوسُفَ مِنْ نُورِ الكُرْسِيِّ ، وكَسَوْتُ وَجْهَكَ مِنْ نُورِ عَرْشِي » . وقيل لبعض الحكماء : أيوسف أحسن ، أم محمد ؟ فقال : كان يوسف من أحسن الناس ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أحسن الناس . ويدل عليه حديث جابر بن عبد الله قال : « نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه حلة حمراء ، ونظرت إلى القمر ليلة البدر ، فلهو أحسن فى عيني من القمر » .

القول فى القصة

قال أهل العلم بقصص الأنبياء وأخبار الماضين : كان ابتداء أمر يعقوب ويوسف عليهما السلام، وبدء محبة يعقوب له، وإيثاره على سائر ولده ، أن الله تعالى أنبت ليعقوب شجرة فى صحن داره ، فكان كلما ولد له ولد، أخرج الله تعالى من تلك الشجرة غصنا ، فكان كلما كبر الغلام وشبّ طال ذلك الغصن وغلظ ، فإذا بلغ ذلك الغلام قطع يعقوب ذلك الغصن ودفعه إليه ، فولد له عشرة بنين ، فأخرج الله تعالى من تلك الشجرة عشرة قضبان ؛ فلما ولد له يوسف لم يخرج الله تعالى من الشجرة شيئا ، فلما كَبر وشبّ قال لأبيه : يا نبىّ الله إنه ليس أحد من إخوتى إلا وله غصن إلا أنا ، فادع الله تعالى أن يخصنى بغصن من الجنة ، فرفع يعقوب يديه إلى السماء، وقال: اللهم إنى أسألك أن تهب ليوسف غصنا من الجنة يفتخر به على جميع إخوته ، فهبط جبريل عليه الصلاة والسلام ومعه قضيب من الجنة من الزبرجد الأخضر ، فقال ليوسف : خذ هذا ، فكان يوسف يأخذه ويخرج به مع إخوته ، قال : فرأى يوسف فيما يرى النائم، وهو إذ ذاك صبىّ كأن قضيبه غرس فى الأرض فعلق وتدلت أغصانه وأثمر من كل ثمرة، ثم أتى بأغصان إخوته فغرست حوله فلم تعلق ولم تفرع ولم تثمر ، وإذا بغصن يوسف أقصرها وأصغرها ، فلم يزل يتعالى فى السماء ويطول حتى طال على أغصان إخوته ، ثم هبت الريح فاقتلعت أغصان إخوته من أصولها وألقتها فى البحر، وثبت غصن يوسف فى الأرض قائما ، فانتبه فزعا مرعوبا ، فقال له أبوه : ما الذى دهاك يا بنىّ ، فقص عليه رؤياه فبلغ إخوته ، فقالوا : يا بن راحيل لقد رأيت عجبا، يوشك أن تدعى أنك مولانا ونحن عبيدك ، فشق عليهم رؤياه وحسدوه بعض الحسد . قال وهب : رأى يوسف هذه الرؤيا : يعنى الغصن و هو ابن سبع سنين ، ثم إنه رأى وهو ابن اثنتى عشرة سنة الرؤيا التى قصها الله علينا فى كتابه، إذ قال تعالى (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً) الآية، وكان ينومه إلى جانبه، فبينما يوسف نائم عند أبيه ليلة من الليالى إذ رأى الرؤيا التى ذكرها الله تعالى فى كتابه العزيز، وكانت ليلة الجمعة ، فانتبه من منامه فزعا مرعوبا ، فالتزمه يعقوب وضمه إلى صدره، وقبّل بين عينيه وقال: يا حبيب أبيه، ما الذى أصابك؟ فقال: يا أبت رأيت رؤيا أفزعتنى، فقال : يا بنىّ خيرا رأيت ، ما الذى رأيت ؟ قال يوسف : رأيت كأن أبواب السماء فتحت وقد أشرق منها النور ، فاستنارت النجوم، وأشرقت الجبال، وزخرت البحار، وعلت أمواجها وسبحت الحيتان بأنواع اللغات ، ورأيت كأنى ألبست رداء أشرقت الأرض من حسنه ونوره ، ورأيت كأن مفاتيح خزائن الأرض ألقيت بين يدىّ ، فبينما أنا كذلك إذ رأيت أحد عشر كوكبا انقضت من السماء ومعها الشمس والقمر ، فخروا لى ساجدين، فقال يعقوب (يا بُنَىَّ لاتَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ)... الآية ثم عبر رؤياه فقال (وكذلكَ يَجْتَبِيكَ

رَبُّكَ ويُعلِّمُكَ مِنْ تأويلِ الأحاديثِ) الآية . قال : فسمعت امرأة يعقوب ما قال يوسف لأبيه ، فقال لها يعقوب : اكتمى ما قال يوسف ولا تخبرى أولادى بذلك ، فقالت ، نعم ، فلما أقبل أولاد يعقوب من مراعيهم أخبرتهم بالرؤيا التى أمرها يعقوب بكتمها فانتفخت أوداجهم ، واقشعرت جلودهم غضبا على يوسف وقالوا : ما عنى بالشمس غير أبينا ، ولا بالقمر غيرك ، ولا بالكواكب غيرنا ؛ ثم قالوا : إن ابن راحيل يريد أن يتملك علينا فيقول : أنا سيدكم وأنتم عبيدى ؛ فحسدوه على ذلك ، فلذلك قيل فى الحكمة : لاتأمنن قارئا على صحيفة ، ولا شابًا على امرأة ، ولا امرأة على سرّ .

وروى الحكم بن ظهير عن إسمعيل السدىّ عن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله ، قال : « جاء رجل من اليهود ، يقال له نستار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أخبرنى عن النجوم التى رآها يوسف ساجدة له ، ما أسماؤها ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبه بشىء ، حتى نزل جبريل عليه السلام فأخبره بأسمائها ، فأرسل إلى اليهودى ودعاه وقال له : إنْ أخبرتُكَ بأسمائها أتُسْلِمُ ؟ قال : نعم ، فقال له : جَرَيانُ والطَّارِقُ والذَّيال وذُو الكَتِفَيْنِ والفرغُ ووثابُ وعَمودانُ وقابِسُ والمصبِحُ والفَليقُ والضَّرُوحُ ، رآها يوسف فى أفُقِ السَّماءِ ساجِدَةً لهُ ، فلمَّا قصَّ رُؤْياهُ على أبيهِ قالَ : أرَى شَيْئًا مُشتَتًا ويَجْمَعُهُ اللهُ لكَ ، فقال اليهودىّ : هذه والله أسماؤها » ويقال كان بين رؤيا يوسف فى الغصن ورؤياه فى الكواكب سبع سنين ، فلما كان من أمر رؤيا يوسف ما كان ، وانضاف إلى ذلك تخصيص أبيه يعقوب إياه بالمحبة والقربة حسده إخوته ، وحملهم الحسد على أن تآمروا بينهم فى أن يفرقوا بينه وبين أبيه بضرب من الاحتيال ويهلكوه فيما بينهم كما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله : (إذْ قالُوا لَيُوسُفُ وأخُوهُ أحَبُّ إلى أبِينا مِنّا ونَحْنُ عُصْبَةٌ إنَّ أبانا لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ) أى خطأ بيّن فى إيثاره يوسف وأخاه علينا (اقْتُلُوا يوسُفَ أوِ اطْرَحُوهُ أرْضًا يَخْلُ لكُمْ وَجْهُ أبيكُمْ وتكونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صالِحِينَ) أى تائبين ، فاستعدوا للتوبة قبل وقوع الذنب ، قال قائل منهم ، وهو يهوذا ، وكان أفضلهم وأعقلهم : لاتقتلوا يوسف ، فان القتل عظيم ، وألقوه فى غيابة الجب ، وهو البر غير المطوية يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين . قيل للحسن : أيحسد المؤمن ؟ فقال للسائل : ما أنساك بنى يعقوب ! ، ولهذا قيل : الأب جلّاب والأخ سلّاب ، فعند ذلك أجمعوا رأيهم أن يدخلوا على يعقوب ويكلموه فى إرسال يوسف معهم إلى البرّية ، فقال لهم روبيل ، وهو أكبر ولد يعقوب : إن أباكم لايأمنكم على يوسف ، ولكن انطلقوا بنا إلى يوسف حتى نلعب بين يديه ، فإذا نظر إلينا كيف نمرح ونلعب ، اشتاق إلى ذلك ، فأقبلوا على يوسف وهو قاعد يسبح فجعلوا يتلاعبون ويتضاحكون بين يديه ، فلما رأى يوسف ذلك اشتاق إلى اللعب معهم ، فأقبل عليهم وقال : يا إخوتاه

أهكذا تلعبون فى مراعيكم ؟ فقالوا : نعم يا يوسف ، إنك لو رأيتنا ونحن نلعب فى مراعينا لتمنيت أن تكون معنا ، فشوّقوه إلى ذلك حتى كان هو الطالب إليهم ، فقال لهم : يا إخوتاه انطلقوا إلى أبى واسألوه أن يرسلنى معكم ، فأقبلوا إلى يعقوب ووقفوا بين يديه صفا ، وكانوا يفعلون هكذا إذا أرادوا أن يسألوه حاجة ، فلما رآهم بين يديه وقوفا صفوفا ، قال لهم : ما حاجتكم ؟ قالوا : يا أبانا مالك لاتأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ؟ نحوطه ونحفظه حتى نرده إليك، أرسله معنا غدا يرتع ويلعب فى الصحراء وإنا له لحافظون : فقال لهم يعقوب : إنى ليحزننى أن تذهبوا به ،وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لاتشعرون بذلك . قال ابن عباس وغيره : إنما قال ذلك يعقوب ،لأنه رأى فى منامه كأن يوسف على رأس جبل ، وكأن عشرة من الذئاب قد شدوا عليه ليأكلوه ، وإذا ذئب منها يحمى عنه ، وكأن الأرض قد انشقت فدخل فيها يوسف فلم يخرج منها إلا بعد ثلاثة أيام . فلما رأى يعقوب هذه الرؤيا خاف على يوسف من الذئب ، فلذلك قال لهم : وأخاف أن يأكله الذئب .

أخبرنا الحسين بن محمد بن فتحويه ، أخبرنا عبد الله بن شبة ، أخبرنا أبو نعيم وعبد الرحمن ابن قريش ، أخبرنا محمد بن عمرو بن الحكم الهروىّ ، أخبرنا مالك بن سليمان القروىّ ، أخبرنا عبيد الله بن عمر العمرىّ عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتُلَقِّنُوا النَّاسَ الكَذِبَ فيَكْذِبوا ، فإنَّ بَنِى يَعْقُوبَ لَمْ يَعْلَموا أنَّ الذِّئْبَ يأْكُلُ الإنْسانَ حَتَّى لَقَّنَهُمْ أبُوهُمْ ، فلَمَّا لقَّنهم ،وقال : إنى أخافُ أنْ يأْكُلَهُ الذِّئْبُ ،قالُوا أكَلَهُ الذِّئْبُ ، فقال بنوه (لئِنْ أكَلَهُ الذِّئْبُ ونَحْنُ عُصْبَةٌ) أى عشرة رجال (إنَّا إذًا لخاسِرُونَ) »عَجَزَة مغلوبون ،ثم قالوا : يا نبىّ الله كيف يأكله الذئب؟وفينا شمعون إذا غضب لايسكن غضبه حتى يصيح ،فإذا صاح لاتسمعه حامل إلا وضعت ما فى بطنها ، وفينا يهوذا إذا غضب شق السبع نصفين ، فلما سمع يعقوب منهم ذلك اطمأنّ إليهم ، وأقبل يوسف حتى وقف بين يدى أبيه ، ثم قال له : يا أبت أرسلنى معهم ، قال : أو تحب ذلك يا بنىّ ؟ قال : نعم ، قال : إذا كان غد أذنت لك فى ذلك . فلما أصبح يوسف لبس ثيابه وشد عليه منطقته وأخذ قضيبه وخرج مع إخوته ،ثم عمد يعقوب إلى السّلة التى حمل فيها إبراهيم زاد إسحاق، فحمل فيها زادا ليوسف وخرج ليشيعهم ، فقالوا : يا نبىّ الله ارجع ، فقال يعقوب : يا بَنِىّ أوصيكم بتقوى الله وبحبيبى يوسف ، أسألكم بالله ، إن جاع فأطعموه ، وإن عطش فاسقوه ، وقوموا عليه ولا تتعبوه ولا تخذلوه ، وكونوا متواصلين متراحمين ، قالوا : نعم يا أبانا كلنا لك ولد وهو أخونا كأحدنا ، بل له الفضل علينا بحبك إياه ، فقال : نعم يابَنِىّ ، الله خليفتى عليكم مع أنى خائف أن أكون قد ضيعته ، ثم إنه أقبل على يوسف ، فالتزمه وضمه إلى صدره ، وقبّل بين عينيه ، ثم قال : استودعتك الله رب العالمين وانصرف راجعا .

وروى السدى ورجاء عن ابن مسعود وابن عباس وناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وإسحاق بن بشر بن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ومقاتل عن ابن بحيرة عن كعب الأحبار عن سعيد بن أبى عروبة عن الحسن، دخل كلام بعضهم فى بعض قالوا : أرسل يعقوب يوسف مع إخوته ، فأخرجوه مظهرين له الكرامة ، فلما برزوا به إلى البرّية أظهروا له العداوة وضربوه ، فجعل يستغيث بهم واحدا بعد واحد وهم يضربونه فلا يرى منهم رحيما ، وأخذوا ما كان زوّده يعقوب وأطعموه الكلاب وضربوه حتى كادوا يقتلونه وعطش عطشا شديدا ، فقال لهم : اسقونى جرعة من ماء قبل أن تقتلونى فلم يسقوه ، فعند ذلك بكت الملائكة رحمة ليوسف . فلما رأى يوسف أن ليس أحد منهم يعطف عليه جعل يصيح ويقول : يا أبتاه يا يعقوب لو تعلم ماتصنع بابنك بنو الآباء ، فلما همّوا بقتله قال لهم يهوذا ، وكان ابن خالة يوسف وأحسنهم فيه رأيا : أليس إنكم قد أعطيتمونى موثقا أن لاتقتلوه ، فعند ذلك أجمعوا على إلقائه فى الجب ، كما قال الله تعالى (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَةِ الْجُبِّ) فانطلقوا به إلى الجب ليطرحوه فيه ، وكان ذلك الجب فى الأردن بين مدين ومصر ، وقيل بين طبرية والقدس على قارعة الطريق فى واد من أوديتها على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب ، وكانت بئرا وَحْشة مظلمة أسفلها واسع وأعلاها ضيق ، يهلك من طرح فيها من سعة أسفلها ، لايمكنه الصعود وكان ماؤها ملحا ، وكان الجب من حفر سام بن نوح ويسمى جبّ الأحزان . فلما أرادوا أن يلقوه فيه ، جعلوا يدلونه فى البئر فيتعلق بشفير البئر ، فربطوا يديه إلى عنقه ونزعوا قميصه ، فقال : يا إخوتاه ردوا علىّ قميصى أستر به عورتى ويكون لى كفنا بعد مماتى ، وأطلقوا يدىّ أطرد بهما عنى هوامّ الجب ، فقالوا له : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا تلبسك وتؤنسك ، فدلوه فى البئر بحبل ، فلما بلغ نصفها قطعوا الحبل ليسقط فيموت فيه ، فأخرج الله تعالى على وجه الماء صخرة ململمة لينة ورفعها إلى يوسف فوقف عليها ، وجعل يوسف يبكى ، فنادوه فظن أنها رحمة لحقتهم ، فأجابهم ، فهمّوا أن يرضخوه بالحجارة فيقتلوه ، فنعهم يهوذا ، وقال : لقد أعطيتمونى موثقا أن لاتقتلوه . قالوا : فلما ألقى يوسف فى الجب أضاء له الجب وعذب ماؤه حتى كان يغنيه عن الطعام والشراب ، وبعث الله تعالى إليه ملكا فحل عنه قيده ، وكان إبراهيم حين ألقى فى النار جرد من ثيابه وقذف فى النار عريانا ، فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه ، وكان ذلك القميص عند إبراهيم ، فلما مات إبراهيم ورثه إسحق ، فلما مات إسحق ورثه يعقوب منه ، فلما شبّ يوسف جعل يعقوب ذلك القميص فى تعويذ ، وعلقه فى عنقه لما كان يخاف عليه من العين وكان لايفارقه ، فلما ألقى فى الجب عريانا جاءه الملك وكان عليه التعويذ ، فأخرج القميص م ألبسه إياه وجعل يؤنسه بالنهار .

ويروى أن الملك أتاه بسفرجلة من الجنة فأطعمه إياها ، فلما أمسى يوسف نهض الملك ليذهب ، فقال له يوسف : إنك إذا خرجت عنى أستوحش ، فقال له الملك : قل إذا هبت شيئا: يا صريخ المستصرخين ،يا غياث المستغيثين يا مفرّج كرب المكروبين قد ترى مكانى وتعرف حالى ولا يخفى عليك شىء من أمرى . فلما دعا يوسف بهذا الدعاء بعث الله إليه سبعين ملكا فحفوا به وآنسوه فى البئر ثلاثة أيام ، فلما كان فى اليوم الرابع أتاه جبريل عليه السلام وقال : يا غلام من طرحك ههنا فى هذا الجب ؟ قال : إخوتى لأبى ، قال : ولم ؟ قال : حسدونى على منزلتى من أبى ، قال : أتحب أن تخرج من هـذا الجب ؟ قال : نعم ،قال قل : ياصانع كل مصنوع ، ويا جابر كل مكسور ، ويا حاضر كل ملأ ، ويا شاهد كل نجوى ، ويا قريبا غير بعيد ، ويا مؤنس كلّ وحيد ، ويا غالبا غير مغلوب ، ويا علام الغيوب ، ويا حيا لايموت ، ويا محيى الموتى ، لاإله إلا أنت سبحانك ، أسألك يا من له الحمد يابديع السموات والأرض يامالك الملك وياذا الجلال والإكرام ، أسألك أن تصلى على محمد وعلى آل محمد ، وأن تجعل لى من أمرى ومن ضيق فرجا ومخرجا ، وترزقنى من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب ، فقالها يوسف ، فجعل الله له من الجب مخرجا ، ومن كيد إخوته فرجا ، وآتاه ملك مصر من حيث لا يحتسب ، وأوحى الله إليه وهو فى البئر لتنبئن إخوتك بما عملوا وهم لايعلمون أنك يوسف ، فذلك قوله تعالى (لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) .

وقال مجاهد : خرج يوسف من عند يعقوب وهو ابن ست سنين لم يثغر ، وجمع الله بينهما وهو ابن أربعين سنة .

أخبرنا أبو عبد الله الدينورى ، أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف الصرصرى ، أخبرنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، أخبرنا عمران القزاز ، أخبرنا عبد الوارث ، أخبرنا يونس عن الحسن قال : ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وكان فى العبودية والملك والسجن ثمانين سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانية وعشرين سنة ، ومات وهو ابن مائة وخمس وعشرين سنة .

رجعنا إلى قصة يوسف عليه السلام وإخوته بعد ما ألقى فى الجب ، فلما ألقوه فى الجب عمدوا إلى سخلة من الغنم فذبحوها ولطخوا قميص يوسف بدمها وشووها وأكلوا لحمها ، ثم إنهم رجعوا إلى يعقوب وهو قاعد على قارعة الطريق ينتظرهم متى يأتون بيوسف ، فلما دنوا منه اصطرخوا صراخ رجل واحد ، ورفعوا أصواتهم بالبكاء ، فعلم يعقوب أنهم قد أصيبوا بمصيبة ، فلما وافوه اجتمعوا وتقدموا بين يديه وشقوا جيوبهم وبكوا ، ففزع يعقوب وقال : ما لكم يا بَنىّ ، وأين يوسف ؟ قالوا : يا أبانا إنا ذهبنا نستبق : أى ننتضل ، وكذلك هو فى قراءة عبد الله (وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا

ولو كنا صادقين) وهذا قميصه ملطخ بدمه ، فذلك قوله تعالى (وَجاءُوا أباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ) وإنما فعلوا ذلك ليكونوا فى الظلمة أجرأ على الاعتذار وتزوير ما مكروا فقد قالوا : لاتطلب الحاجة فى الليل ، فإن الحياء فى العينين ولا تعتذر بالنهار من قبح فعلك فتتلجلج فى الاعتذار فلا تقدر على إتمامه .

وروى الشعبىّ قال : جاءت امرأة إلى شريح فجعلت تبكى ، فقال رجل : ألا ترى إلى هذه المرأة المسكينة كيف تبكى ؟ فقال شريح : قد جاء إخوة يوسف عشاء يبكون ، ثم إنه أنشد فى معناه :

أغرّك من شـيخ بكاء ومملقهْ   أم اللحية البيضاء للنتف مطلقهْ

فإن بنى يعقوب جاءوا أباهم   عشاء وهم يبكون زورا ومخرقهْ

قال : فلما قالوا : (يا أبانا إنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ) أى ننتضل (وتَرَكْنا يُوسُفَ عندَ مَتاعِنا فأكَلَهُ الذِّئْبُ) الآية إلى قوله (بدَمٍ كَذِبٍ) لأنه لم يكن دم يوسف وإنما كان دم شاة ، وقرأت عائشة (بدَمٍ كدبٍ) بدال غير معجمة : أى طرىّ . فلما قالوا ذلك ليعقوب بكى بكاء شديدا وقال لهم : أرونى قميصه فأروه ، فقال : تالله ما رأيت كاليوم ولا ذئبا أحلم من هذا أكل ابنى ولم يشقّ له جيبا ولا خرق له شقا ، وصاح صيحة وخر مغشيا عليه فلم يفق إلا بعد ساعة طويلة ، فلما أفاق بكى بكاء شديدا ، ثم أخذ القميص وجعل يشمه ويقبله ويضعه على وجهه وعينيه .

أخبرنا ابن فتحويه ، أخبرنا أحمد بن إبراهيم بن شاذان ، أخبرنا عبيد الله بن ثابت ، أخبرنا أبوسيد الأشج ، أخبرنا أسامة ، حدثنى زكريا عن سماك عن الشعبى قال : كان فى قميص يوسف ثلاث آيات لما جاءوا به إلى أبيه ، فقالوا : أكله الذئب ، فقال أبوه : لئن أكله الذئب ليشقنّ قميصه ، وحين سعى نحو الباب فشقت قميصه من خلف ، فعرف الوزير أنه لو كان هو الذى راودها لكان الشق من بين يديه ، وحين ألقى على وجهه فارتد بصيرا .

قالوا : فلما أصبح إخوة يوسف من الغد رجعوا إلى مراعيهم ، فقال بعضهم لبعض : قد رأيتم ما كان من تكذيب أبيكم البارحة ، فإن أردتم أن يصدقكم ويخرجكم من الملامة ، فروا بنا على الجب فنخرج يوسف منه ونفرق بين أضلاعه ولحمه ونجىء به ، فقال لهم يهوذا : يا إخوتاه أين العهد الذى بينى وبينكم ، والله لئن فعلتم ما تقولون لأخبرنّ يعقوب بما كان منكم إليه ، ثم لأكوننّ لكم عدوا ما بقيت ، فتركوه ، ثم إنهم رجعوا إلى أبيهم عشاء ، فقال لهم يعقوب : إن كنتم صادقين أن الذئب أكله فأين الذئبُ ائتونى به ؟ فعمدوا إلى حبالهم وعصيهم ، فأخذوها ومضوا إلى الصحراء ، فاصطادوا ذئبا وشدوه وأوثقوه كتافا ، ثم حملوه إلى يعقوب وأوقفوه بين يديه ، فقال : حلوا عقاله ، فحلوه ،

فقال له يعقوب : أقبل ، فأقبل الذئب يتخطى القوم حتى وقف بين يدى يعقوب منكسا رأسه ، فقال يعقوب : أيها الذئب أكلت ولدى وقرة عينى وحبيب قلبى وثمرة فؤادى ، لقد أورثتنى حزنا طويلا وألما عظيما . قال : فتكلم الذئب وقال : لا وحق شيبتك يا نبى الله ما أكلت لك ولدا ، وإن لحومكم ودماءكم معشر الأنبياء لمحرمة علينا ، وإنى لمظلوم مكذوب علىّ ، وإنى لذئب غريب من بلاد مصر ، فقال له يعقوب : وما أدخلك أرض كنعان ؟ قال : جئت لأجل قرابة لى من الذئاب أزورهم وأصلهم ، فعند ذلك قال يعقوب لأولاده (بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) وهو الذى لاجزع فيه ولا شكوى (وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) .

قال ابن عباس : إنما كان سبب بلاء يعقوب أنه ذبح شاة وهو صائم ، فاستطعمه جار له فلم يطعمه ، فابتلاه الله تعالى بأمر يوسف ، قال : فمكث يوسف فى الجب ثلاثة أيام . فلما كان اليوم الرابع ودعا بالدعاء الذى علمه جبريل عليه السلام جاءت سيارة : أى رفقة مارة من قِبل مدين تريد مصر ، فأخطئوا الطريق وضلوا عنها حتى نزلوا قريبا من الجب . قال : وكان الجب فى قفر بعيد من العمران ، وإنما هو للرعاة والمجتازة ، وكان ماؤه مالحا فعذب حين ألقى فيه يوسف ، فلما نزلت السيارة أرسلوا رجلا من العرب من أهل مدين يقال له مالك بن دعر ليطلب لهم ماء ، فذلك قوله تعالى (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ) قالوا : والوارد الذى يتقدم الرفقة إلى الماء فيهيئ الأرشية والدلاء ، فوصل الوارد إلى البئر فأدلى دلوه : أى أرسلها ، فتعلق يوسف بالحبل ؛ فلما وصل إلى فم البئر ورآه مالك بن دعر ، فرأى أحسن ما يكون من الغلمان ، فقال مالك : (يَابُشْرَايَ هَذَا غُلَامٌ) يبشر أصحابه أنه أصاب عبدا (وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً) قال المفسرون : أسرّ مالك بن دعر وأصحابه أمر يوسف من التجار الذين معهم وقالوا لهم : هو بضاعة استبضعناها من بعض الناس إلى مصر خيفة أن يطلبوا منهم فيه الشركة إن علموا حاله . قال : وكان يهوذا يأتى يوسف بالطعام كل يوم سرا من إخوته ، فأتاه ذلك اليوم كما كان يفعل فلم يجده فى البئر ، فنظر فإذا هو بمالك وأصحابه نزولا ويوسف معهم ، فرجع يهوذا وأخبر إخوته بذلك ، فأتوا إلى مالك وقالوا له : هذا عبدنا أبق منا ، وكتم يوسف حاله مخافة أن يقتلوه ، فقال مالك : أنا أشتريه منكم فباعوه منه ، فذلك قوله تعالى (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) أى باعوه بثمن ناقص ظلم حرام ، لأن ثمن الحر حرام ، ثم بين الثمن فقال : دراهم معدودة ، وإنما قال ذلك لأنهم كانوا فى ذلك الزمان لايزنون ما كان وزنه أقل من أوقية أربعين درهما ، إنما كانوا يعدونها عدا ، فاذا بلغ أوقية وزنوه ، لأن أقل أوزانهم وأصغرها يومئذ أوقية أربعون درهما .

واختلف العلماء فى عدد الدراهم التى باعوا بها يوسف ، فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسدى : عشرون درهما ، واقتسموها بينهم درهمين درهمين . وقال مجاهد : اثنان وعشرون درهما . وقال عكرمة : أربعون درهما ، وإنما باعوه بهذا القدر لأنهم كانوا فيه من الزاهدين ، لم يعلموا كرامته على الله ولا منزلته عند الله .

ويقال إن السبب فى استرقاق يوسف وبيعهم إياه ، أن إبراهيم دخل مصر فى بعض الأزمنة ، فلما خرج منها شيعه زهادهم وعبادهم حفاة مشاة إلى أربعة فراسخ تعظيما له وإجلالا ، ولم يترجل لهم إبراهيم ، فأوحى الله إليه إنك لم تنزل لعبادى وهم يمشون معك حفاة ، لأعاقبنك بأن يباع ولد من أولادك فى هذه المدينة .

ثم إن مالك بن دعر انطلق هو وأصحابه بيوسف ومعهم إخوته يقولون لهم : استوثقوا منه فإنه آبق سارق كاذب ، وقد برئنا إليكم من عيوبه ، فحمله مالك على ناقة وساروا به إلى مصر ، وكان طريقهم على قبر أمه ؛ فلما رأى قبر أمه لم يتمالك أن رمى نفسه عن الناقة إلى القبر وهو يقول : يا أمى يا راحيل حلى عنك عقدة الردى ، وارفعى رأسك من الثرى وانظرى إلى ولدك يوسف وما لقى بعدك من البلاء ، يا أماه لو رأيت ضعفى وذلى لرحمتينى ، يا أماه لو رأيتينى وقد نزعوا قميصى وشدونى وفى الجب ألقونى وعلى حر وجهى لطمونى وبالحجارة رجمونى ولم يرحمونى ، وكما تباع العبيد باعونى ، وكما يحمل الأسير حملونى ؛

قال كعب الأحبار : فسمع يوسف مناديا من خلفه وهو يقول : اصبر وما صبرك إلا بالله . قال : ففتقده مالك على الناقة التى كان عليها فلم يجده ، فصاح فى القافلة : ألا إن الغلام قد رجع إلى أهله ، فطلب القوم يوسف فرأوه ، فأقبل عليه رجل منهم ، فقال : يا غلام قد أخبرنا مواليك بأنك آبق سارق فلم نصدق حتى رأيناك تفعل ذلك ، فقال : والله ما أبقت ، ولكنكم مررتم على قبر أمى ، فلم أتمالك أن رميت نفسى على قبرها ؛ قال : فرفع مالك بن دعر يده ولطم حر وجهه وجره حتى حمله على ناقته . ؛ ويروى أنهم قيدوه فذهبوا به حتى قدموا مصر . قال مالك : ما نزلت منزلا ولا ارتحلت إلا استبان لى بركة يوسف ، وكنت أسمع تسليم الملائكة عليه صباحا ومساء ، وكنت أنظر إلى غمامة بيضاء تظله وتسير فوق رأسه إذا سار ، وتقف على رأسه إذا وقف . فلما قدموا مصر أمره مالك بن دعر أن يغتسل ، فاغتسل وألبسه ثوبا حسنا وعرضه للبيع ، فاشتراه قطفير بن رحيب وهو العزيز بمصر ونواحيها ، وكان على خزائن الملك الأعظم ، وكان الملك يومئذ بمصر ونواحيها الريان بن الوليد بن ثروان بن أراشة بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ ابن سام بن نوح عليه السلام ؛ ويروى أن هذا الملك ما مات حتى آمن بيوسف وتبعه على دينه ، ثم مات ويوسف حى ، ثم ملك بعده قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير بن السلواس بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام ، وكان كافرا فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى أن يسلم ؛

قال ابن عباس : لما دخلوا مصر تلقى قطفير السيارة وابتاع يوسف من مالك بن دعر بعشرين دينارا وزوج نعال وثوبين أبيضين .

وقال وهب بن منبه : قدمت السيارة إلى مصر فدخلوا بيوسف إلى السوق يعرضونه للبيع ، فترافع الناس فى ثمنه وتزايدوا حتى بلغ ثمنه وزنه مسكا وورقا وحريرا، فابتاعه قطفير بهذا الثمن من مالك ، فلما اشتراه أتى به منزله وقال لامرأته : أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ، واسمها راعيل بنت رعيائيل قاله إسحاق بن يسار .

وأخبرنى ابن فتحويه ، أخبرنا ابن أبى شيبة ، أخبرنا أبوحامد المسيلمى ، أخبرنا أبوهاشم الرقاعى قال : اسم امرأة العزيز بكا بنت فيوش ، قالوا : فقال لها (أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) نتبناه . وقال ابن إسحاق: كان قطفير لايأتى النساء ، وكانت امرأته راعيل حسناء ناعمة فى ملك ودنيا .

أخبرنا أبو بكر الجوزقى ، أخبرنا أبو العباس الدعولى بسرحين ، أخبرنا على بن الحسين الهلالى ، أخبرنا أبونعيم ، أخبرنا زهير عن ابن إسحاق عن أبى عبيد عن عبد الله بن مسعود قال : أفرس الناس ثلاثة : العزيز حين تفرس فى يوسف،وقال لامرأته: أكرمى مثواه ؛ والمرأة التى أتت موسى فقالت لأبيها استأجره ؛ وأبو بكر حين استخلف عمر .

قال الله تعالى (وكذلكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فى الأَرْضِ) يعنى أرض مصر . قال أهل الكتاب : لما تمّ ليوسف فى الأرض ثلاثون سنة استوزره فرعون مصر وجعله على خزائنه ، فذلك قوله تعالى (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولِنُعَلِّمَهُ مِنْ تأْوِيلِ الأَحادِيثِ) الآية . قالوا : فلما أتى العزيز بيوسف إلى منزله وقال لامرأته : أكرمى مثواه ، فتأملته امرأة العزيز ورأت حسنه وجماله وقع حبه فى قلبها ، فراودته : أى طلبت منه متابعتها على هواها ، وذلك قوله تعالى (وَرَاوَدَتْهُ الَّتى هُوَ فى بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لكَ) أى هلمّ تدعوه إلى نفسها ، فقال يوسف عند ذلك (مَعاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَايَ) يعنى زوجك قطفير سيدى إنه أحسن مثواى (إِنَّهُ لايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) يعنى إن فعلت هذا فخنته فى أهله بعد ما أكرمنى وائتمننى ، فأنا ظالم له ولا يفلح الظالمون ، قال الله تعالى (ولَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بها لَوْلا أَنْ رأى بُرْهانَ رَبِّهِ) ومعنى الهمّ بالشىء : ما حدّث المرء به نفسه ولم يفعل ذلك بعد . قال الشاعر :

همت ولم أفعل وكدت وليتنى تركت على عثمان تبكى حلائله

أما ما كان من همّ يوسف بالمرأة وهمها به ،فاختلف أهل العلم فى ذلك . قال السدى وابن إسحاق : لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه ، جعلت تذكر له محاسن نفسه وتشوقه إلى نفسها ، فقالت له يا يوسف : ما أحسن شعرك ! قال : هو أول شىء ينتثر من جسدى ، قالت : يا يوسف ما أحسن عينيك ! قال : هما أول ما يسيل فى الأرض

من جسدى ، قالت : ما أحسن وجهك ، قال : التراب يأكله ، فلم تزل تأمره مرة وتعظمه أخرى وتدعوه إلى اللذة وهو شاب مستقبل مجدٌ شبق الشباب ، وهى حسناء جميلة حتى لان لها لما يرى من كلفها به ، ولم يتخوف منها حتى خلوا فى بعض البيوت وهمَّ بها :

وروى إسحاق بن يسار عن جويبر عن الضحاك ومقاتل جميعا عن ابن عباس فيما كان من محاورتهما قال : قالت : يا يوسف ما أحسن شعرك ! قال : هو أول شيء يبلى إذا مت ، قالت : يايوسف ما أحسن وجهك ! قال : ربى تعالى صورنى فى الرحم ، قالت : يايوسف قد أنحلت جسمى بصورة وجهك ، قال : الشيطان يعينك على ذلك ، قالت : يا يوسف الجنينة قد التهبت نارا قم فأطفها ، فقال : إن أطفأتها فمنها احتراق ، قالت : يا يوسف الجنينة قد عطشت قم فاسقها ، قال : من كان المفتاح بيده فهو أحق أن يسقيها منى . قالت : يا يوسف بساط الحرير قد بسط لك قم فاقض حاجتى . قال : إذنْ يذهب نصيبى من الجنة ، قالت : يا يوسف ادخل معى تحت الستر فأسترك به ، قال : ليس شيء يسترنى من ربى تعالى إن عصيته . قالت : يا يوسف ضع يدك على صدرى تشفنى بذلك ، قال : سيدى أحق بذلك منى ، قالت : أما سيدك فأسقيه كأسا فيه زئبق الذهب فيتناثر لحمه ويتساقط عظمه ، ثم ألقيه فى الإستبرق وألقيه فى القيطون : يعنى المخدع لايعلم به أحد من الناس وأوليك ملكه قليله وكثيره ، قال : فإن الجزاء يوم الجزاء . قالت : يا يوسف إنى كثيرة الدرّ والياقوت والزمرذ ، فأعطيك ذلك كله حتى تنفقه فى مرضاة سيدك الذى فى السماء ، فأبى يوسف .

قال ابن عباس : فجرى الشيطان فيما بينهما ، فضرب بإحدى يديه إلى جنب يوسف وباليد الأخرى إلى جنب المرأة حتى جمع بينهما ، قال ابن عباس : فبلغ من همّ يوسف إلى أن حلّ الهِمْيان وجلس منها مجلس الرجل الخائن .

وروى جابر عن الضحاك عن ابن عباس ؛ همت بيوسف أن يفترشها ، وهم بها : يعنى تمناها أن تكون له زوجة .

وأما البرهان الذى رآه يوسف ، وكان سبب العصمة وصرف الفاحشة عنه فاختلفوا فيه .

أخبرنا أبو الحسين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الطبرانى ، أخبرنا حسن بن عطية عن إسرائيل بن أبى حسين عن أبى سعيد قال ابن عباس فى قوله تعالى (لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) قال : مثّل له يعقوب فضربه بيده على صدره ، فخرجت شهوته من أنامله . وقال الحسن ومجاهد وعكرمة والضحاك : انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عاضا على أصبعه ، قال : فكل بنى يعقوب ولد له اثنا عشر ولدا إلا يوسف فإنه ولد له أحد عشر ولدا من أجل ما نقص من شهوته حين رأى صورة أبيه ، فاستحيا منه . وقال قتادة : رأى يوسف صورة يعقوب ، فقال له يعقوب : يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب فى ديوان الأنبياء ؟ . وقال السدى : نودى يا يوسف لاتواقعها ، إنما مثلك ما لم تواقعها مثل الطير فى جوّ

السماء لايطاق ، ومثلك إن واقعتها مثله إذا مات ووقع فى الأرض لايقدر أن يدفع عن نفسه ، ومثلك مالم تواقعها مثل الثور الصعب الذى لايعمل عليه، ومثلك إن واقعتها مثل الثور الذى يموت فيدخل النمل فى أصل قرنيه ، فلا يستطيع أن يدفع عن نفسه .

أخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد الأصفهانى، أخبرنا أحمد بن محمد بن يزيد السكونى، أخبرنا محمد بن إبراهيم بن خالد بن عمر بن حفص البصرى ببغداد ، أخبرنا خالد بن يزيد البصرى، أخبرنا جرير عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله تعالى (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا) فقد حل سراويله وقعد منها مقعد الرجل من المرأة، فاذا بكف قد بدت فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها (وإنَّ عليكُمْ لحافِظِينَ كِراماً كاتِبِينَ يَعْلَمونَ ما تَفْعَلُونَ) فقام هاربا فارًا ؛ فلما ذهب عنهما الرَّوع والرعب عادت وعاد ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته إذ الكف قد بدت بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها (واتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فيهِ إلى اللهِ) الآية ، فقام هاربا وقامت ؛ فلما ذهب عنها الرعب عادت وعاد ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته إذ الكف قد بدت بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها (وَلا تَقْرَبُوا الزِّنا إنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلاً) فقام هاربا وقامت ؛ فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته قال الله تعالى لجبريل عليه السلام : يا جبريل أدرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئة ؛ فانحط جبريل عاضا على أصبعه أو كفه، وهو يقول : يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله فى الأنبياء؟ قال الله تعالى (كذلكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ والفَحْشاءَ إنَّهُ مِنْ عِبادِنا المُخْلَصِينَ) .

أخبرنا يعقوب بن أحمد ، أخبرنا محمد بن عبد الله النعمانى ، أخبرنا عبد الله بن أحمد ابن عامر الطبرستانى ، حدثنى أبى قال : حدثنى على بن موسى الرضا ، حدثنى أبى عن أبيه جعفر بن محمد الصادق ، حدثنى أبى عن أبيه عن على بن الحسين فى قوله تعالى (لولا أن رأى برهان ربه) قال : قامت امرأة العزيز إلى الصنم فظللت دونه بثوب ، قال : فقال لها يوسف : ما هذا؟ قالت : أستحيى أن يرانا ، فقال لها يوسف : أتستحيين ممن لايسمع ولا يبصر ولا يفقه ، ولا أستحيى أنا ممن خلق الأشياء كلها وعلمها ؟ . قالوا فلما رأى يوسف البرهان قام مبادرا إلى باب البيت هاربا مما أرادته فاتبعته المرأة ، فذلك قوله تعالى (واسْتَبَقا البابَ) يعنى تبادر يوسف وراعيل إلى الباب ، أما يوسف ففرارا من ركوب الفاحشة ، وأما المرأة فطلبا ليوسف ليقضى حاجتها التى راودته عنها ، فأدركته فتعلقت بقميصه من خلفه ، فجذبته إليه مانعة له من الخروج فقدّت : أى خرقت وشقت قميصه من دبر : أى من خلفه ، لأن يوسف كان الهارب والمرأة الطالبة . فلما خرجا ألفيا سيدها لدى الباب : أى وجدا زوجها قطفير عند الباب جالسا مع ابن عم لراعيل ، فلما رأته وهابته وقالت سابقة بالقول لزوجها (ما جَزاءُ مَنْ أرادَ بأهْلِكَ سُوءاً) يعنى الزنا (إلاَّ أنْ يُسْجَنَ أوْ عَذابٌ أليمٌ) يعنى الضرب بالسياط .

عن ابن عباس : وهذا كالمثل السائر : خذ اللص قبل أن يأخذك ، فقال يوسف : بل هى راودتنى عن نفسى ، فأبيت وفررت منها فأدركتنى وشقت قميصى ، قال نوف الشامى : ما كان يوسف يريد أن يذكرها ، فلما قالت (ما جزاء من أراد بأهلك سوءا) غضب وقال : هى راودتنى عن نفسى (وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها) . واختلفوا فى هذا الشاهد من هو ؟ فقال سعيد بن جبير والضحاك : كان صبيا فى المهد أنطقه الله تعالى ، يدل عليه حديث ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تكلَّمَ أربعَةٌ فى المَهْدِ وَهُمْ صغارٌ : ابْنُ ماشِطَةِ بِنْتَ فِرْعَوْنَ ، وَشاهِدُ يُوسُفَ ، وَصاحِبُ جُرَيْجٍ الرَّاهِبِ ، وعِيسَى بْنُ مَرْيَمَ » ، وقال الحسن وعكرمة وقتادة : ما كان صبيا ولكن كان رجلا حكيما وله رأى وكان من خاصة الملك . وقال السدى : هو ابن عم راعيل كان جالسا مع زوجها على الباب ، فحكم بما أخبر الله تعالى عنه (إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكاذِبِينَ ، وإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ . فَلَمَّا رأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ) عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه السلام فقال (إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) ثم أقبل على يوسف فقال : (يا يوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا) الحديث لاتذكره لأحد ، ثم قال لامرأته (وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الخاطِئِينَ) أى من المذنبين حين راودت شابا عن نفسه وخنت زوجك (فَلَمَّا اسْتَعْصَمَ) كذبت عليه .

قالوا : فشاع أمر يوسف وراعيل وتحدث الناس بذلك ، وقال نسوة فى المدينة ، وهن امرأة الساقى وامرأة الخباز صاحب الدواة وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب : (امْرَأَةُ العَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ) أى عبدها الكنعانى (قَدْ شَغَفَها حُبًّا) أى دخل حبه فى شغاف قلبها ، وهو حجابه وغلافه (إِنَّا لَنَراها فى ضَلالٍ مُبِينٍ) أى خطأ بين حيث تراود عبدها عن نفسه . فلما سمعت راعيل بمكرهن : أى بقولهن وحديثهن ، وقال ابن إسحاق : يعنى بكيدهن ، وذلك إنما قلنه مكرا بها لتريهن يوسف لما بلغهن من حسنه وجماله فاتخذت راعيل مائدة ودعت أربعين امرأة منهن هؤلاء اللواتى عيرنها ، فذلك قوله تعالى (وأَرْسَلَتْ إِلَيهِنَّ وأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئا) أعتدت : أى هيأت لهن مجلسا للطعام وما يتكئن عليه من النمارق والوسائد .

عن ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة : يعنى هيأت طعاما ، وقرأ مجاهد متكا خفيفا غير مهموز ، وهو كل طعام تحزه بالسكين . وقال وهب : أعتدت لهن أترجا وبطيخا وموزا ورمانا ووردا ، وآتت كل واحدة منهن سكينا ، وقالت ليوسف : اخرج عليهن ، وكانت قد أجلسته فى مجلس غير المجلس الذى هن فيه جلوس ، فخرج عليهن يوسف

(فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ) وهالهن أمره وبهتن ، وقطعن أيديهن بالسكاكين اللاتى معهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترج وغيره .

قال قتادة : أبن أيديهن حتى ألقينها ، فما أحسسن إلا بالدم ، ولم يجدن من حز الأيدى ألما لشغل قلوبهن بيوسف عليه السلام .

وقال وهب : بلغنى أن سبعا من الأربعين امرأة ممن فى ذلك المجلس وجدا بيوسف عليه السلام (وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ) أى معاذ الله (ما هذا بَشَرًا إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) فقالت راعيل عند ذلك للنسوة (فذلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ) أى فى حبه وشغفى به ، ثم إنها أبدت لهن الميل الذى عندها فقالت (وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) أى امتنع واستعصى ، فقالت النسوة ليوسف : أطع مولاتك ، فقالت راعيل (لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونا مِنَ الصَّاغِرِينَ) فاختار يوسف حين عاودته المرأة فى المراودة وتوعدته بالسجن على المخالفة فقال : (رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ) أى أمل وأتابعهن (وَأَكُنْ مِنَ الجاهِلِينَ. فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عنه كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ . ثُمَّ بَدَا لَهُمْ) أى العزيز وأصحابه (مِنْ بَعْدِ ما رأَوُا الآياتِ) الدالة على براءة يوسف وهو قد القميص من دبر وخمش الوجه وقطع النسوة أيديهن (لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ) .

قال السدى : وذلك أن المرأة قالت لزوجها : إن هذا العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس يعتذر إليهم ويخبرهم أنى راودته عن نفسه ، ولست أطيق أن أعتذر بعذر ، فإما أن تأذن لى أخرج فأعتذر ، وإما أن تحبسه كما حبستنى ، فحبسه بعد علمه ببراءته دفعا للتهمة عن امرأته ، وذلك أن الله تعالى جعل ذلك الحبس تطهيرا ليوسف من همه وتكفيرا لزلته .

قال ابن عباس : عثر يوسف ثلاث عثرات : حين هم بها فسجن ؛ وحين قال اذكرنى عند ربك ، فلبث فى السجن بضع سنين ، وحين قال لإخوته إنكم لسارقون ، قالوا : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل .

ولما سجن يوسف دخل معه السجن فتيان وهما غلامان كانا للوليد بن الريان ملك مصر الأكبر : أحدهما خبازه وصاحب طعامه واسمه مجلب ، والآخر ساقيه وصاحب شرابه واسمه بيوص ، غضب عليهما الملك فحبسهما ؛ وذلك أنه بلغه عنهما أن خبازه يريد أن يسمه ، وأن ساقيه وافقه على ذلك ؛ وكان السبب فيه أن جماعة من مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله ، فدسوا إلى هذين الغلامين ، وضمنوا لهما مالا ليسما الطعام للملك والشراب ، فأجاباهم إلى ذلك . ثم إن الساقى نكل عنه والخباز غش الملك وقبل الرشوة فسم الطعام ، فلما حضر وقته وأحضر الطعام قال الساقى : أيها الملك لا تأكل فان الطعام مسموم ، وقال

الخباز لاتشرب لأن الشراب مسموم ، فقال الملك للساقى اشرب ، فشرب فلم يضره ، فقال للخباز كل من طعامك فأبى ، فجرب ذلك الطعام فى دابة من الدواب فأكلته فهلكت ، فأمر الملك بحبسهما . وكان يوسف عليه السلام لما دخل السجن قال لأهله : إنى أعبر الأحلام ، فقال أحد الفتيين لصاحبه هلم نجرب علم هذا العبد العبرانى فنتراءى له ، فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئا . قال عبد الله بن مسعود : ما رأى صاحبا يوسف شيئا وإنما كان تحالما ليجرّبا علمه ؛ وقال قوم : بل كانت رؤياهما على صحة وحقيقة فسألاه عنها ؛ وقال مجاهد : لما رأى الفتيان يوسف قالا له : والله لقد أحببناك حين رأيناك ، فقال لهما يوسف أنشدكما الله تعالى لاتحبانى ، فوالله ما أحبنى أحد قط إلا دخل علىّ من حبه بلاء ، لقد أحبتنى عمتى فدخل علىّ من حبها بلاء ، ثم أحبنى أبى فدخل علىّ من حبه بلاء ، ثم أحبتنى زوجة صاحبى فدخل علىّ من حبها بلاء ، فلا تحبانى بارك الله فيكما . قال : فأبيا إلا حبه وألفاه حيث كان ، وجعل يعجبهما ما يريان من فهمه وعقله ، وقد كانا رأيا حين دخلا السجن رؤيا فأتيا يوسف ، فقال الساقى : أيها العالم إنى رأيت كأنى فى بستان ، فاذا أنا بأصل كرمة عليها ثلاث عناقيد من عنب فجنيتها ، وكان كأس الملك بيدى فعصرتها ، وسقيت الملك شربة ، فذلك قوله تعالى (قالَ أحَدُهُما إنى أرَانى أعْصِرُ خَمْرًا) يعنى عنبا بلغة عمان يدل عليه قراءة ابن مسعود أعصر خمرا : أى عنبا . وقال الخباز : إنى رأيت كأنّ فوق رأسى ثلاث سلال فيها خبز تأكل الطير منه (نَبِّئْنا بتأْوِيلِهِ إنَّا نَرَاكَ مِنَ المُحْسِنِينَ) .

أخبرنا أبوبكر محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عقيل ، أخبرنا عبيد الله بن محمد بن إبراهيم بن قالويه ، أخبرنا محمد بن يزيد السلمىّ ، أخبرنا أبوالربيع الزهرانىّ ، أخبرنا خلف ابن خليفة ، أخبرنا سليم عن الضحاك بن مزاحم فى قوله تعالى (إنا نراك من المحسنين) قال : كان إحسانه إذا مرض رجل فى السجن قام عليه ، فاذا ضاق عليه وسع له ، وإن احتاج جمع له وسأل ربه . وقال قتادة : بلغنا أن إحسانه كان يداوى مريضهم ويعزى حزينهم ويجتهد لربه . وقال : لما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوما قد انقطع رجاؤهم واشتد بلاؤهم وطال حزنهم ، فجعل يقول : أبشروا واصبروا تؤجروا إن فى هذا لأجرا وثوابا ، فقالوا يا فتى بارك الله فيك ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك لقد بورك لنا فى جوارك إنا لانحب أن نكون فى غير هذا المكان منذ رأيناك لما تخبرنا به من الأجر والكفارة والطهارة فى ذلك ، فمن أنت يا فتى ؟ قال : أنا يوسف ابن صفى الله يعقوب ابن ذبيح الله إسحاق ابن خليل الله إبراهيم عليهم السلام ، فقال له عامل السجن : والله يا فتى لو استطعت لخليت سبيلك ، ولكن سأحسن جوارك وأحسن إيثارك ، فكن فى أى بيت شئت . قال : فكره يوسف أن يعبر لهما ما سألاه ، لما علم فى ذلك من المكروه على أحدهما

فأعرض يوسف عن سؤالهما وأخذ فى غيره ، قال : لايأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما فقالا له : هذا فعل الكهنة والسحرة ، فقال : ما أنا بكاهن ولا ساحر ولكن ذلكما مما علمنى ربى ، ثم بين لهما دينه ومذهبه فقال (إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لايُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ واتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائى إبراهِيمَ وإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ) الخ الآية ، فأراهما يوسف فطنته ودرايته ثم دعاهما إلى الإسلام وأقبل عليهما وعلى أهل السجن ، وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله ، فقال إلزاما للحجة (يا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أأرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الواحِدُ القَهَّارُ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ) الآية . ثم فسر رؤياهما لما ألحا عليه : يا صاحبي السجن أما أحدكما وهو الساقى فيسقى ربه خمرا : يعنى الملك ويعود إلى منزلته التى كان عليها ، وأما العناقيد الثلاثة فإنها ثلاثة أيام يبقى فى السجن ثم يخرج . وأما الآخر فيصلب ، والسلال التى رآها فى المنام ثلاثة أيام يبقى فى السجن ثم يخرج فيصلب فتأكل الطير من رأسه .

قال ابن مسعود : ثم لما سمعا قول يوسف عليه السلام قالا : ما رأينا شيئا إنما كنا نلعب ونجرب علمك هذا ، فقال يوسف (قُضِيَ الأمْرُ الَّذى فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ) أى فرغ الأمر الذى عنه تسألان .

أخبرنا عبد الله بن حامد محمد بن الوزان ، أخبرنا محمد بن عبد الله الصفار ، أخبرنا أحمد بن مهران عن أبى رزين العقيلى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنَّ الرُّؤيا عَلى رِجْلِ طائِرٍ مالَمْ تُعَبَّرْ فإذا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ ، وإنَّ الرُّؤْيا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وأرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبوَّةِ ، وأحسبه قال : لاتَقُصَّها إلاَّ عَلى ذى رأيٍ وَعَقْلٍ » وقال صلى الله عليه وسلم « الرُّؤْيا لأوَّلِ عابِرٍ » .

فقال يوسف عليه السلام عند ذلك للذى علم أنه ناج منهما وهو الساقى (اذْكُرْنى عِنْدَ رَبِّكَ) يعنى الملك ، وقل له فى السجن غلام محبوس ظلما (فأنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ) الآية . والبضع : ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وأكثر المفسرين على أن البضع فى هذه الآية سبع سنين .

وقال وهب بن منبه : أصاب أيوبَ البلاء سبع سنين ، وعذب بُخْتَنَصَّر بالمسخ سبع سنين ، وترك يوسف فى السجن سبع سنين .

وروى يونس عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رَحِمَ اللهُ أخى يُوسفَ لَوْلا كلِمَتُهُ ما لَبِثَ فى السِّجْنِ ما لَبِثَ ، يعنى قوله : اذكرنى عند ربك ثم بكى » وقال الحسن : نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس .

وقال مالك بن دينار : لما قال يوسف للساقى : اذكرنى عند ربك ، فقيل له : يا يوسف

اتخذت من دونى وكيلا ، لأطيلنّ حبسك ، فبكى يوسف وقال : يا رب أنسى قلبى كثرة البلوى فقلت ما قلت ، فويل لإخوتى .

ويحكى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف وهو فى السجن ، فلما رآه يوسف عرفه وقال : يا أخا المنذرين مالى أراك بين المخطئين ؟ فقال له جبريل عليه السلام : يا طاهر الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك : ما استحييت منى أن استشفعت بالآدميين ؟ فوعزتى لألبثنك فى السجن بضع سنين ، قال يوسف : يا أخى يا جبريل وهو فى ذلك راض عنى ؟ قال : نعم ، قال : إذًا لا أبالى .

وقال كعب الأحبار : قال جبريل ليوسف : إن الله تعالى يقول لك من خلقك ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن حببك إلى أبيك ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن آنسك فى البئر وألبسك وأنت عريانٌ ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن نجاك من كرب البئر ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن علمك تأويل الرؤيا ؟ قال : الله تعالى ، قال : فكيف استغثت بآدمى مثلك ؟ قالوا : فلما انقضت سبع سنين قال الكلبى : وهذه السبع سوى الخمس التى كانت قبلها ، وذلك أنه حبس خمس سنين قبل أن يستشفع بالساقى ، وهو قوله تعالى (لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ) ، فلما استشفع بالساقى وقال له ، اذكرنى عند ربك بقى فى السجن سبع سنين ؛ فلما انتهت محنته ودنا فرجه وراحته رأى ملك مصر الأكبر وهو الريان بن الوليد رؤيا عجيبة فهالته ، وذلك أنه رأى سبع بقرات سِمان خرجن من نهر يابس ، وسبع بقرات عجاف ، فابتلعت العجاف السمان فدخلت فى بطونهنّ فلم ير منها شيئا ، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وأفركت ، وسبعا أخر يابسات قد استحصدت ، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبتها . فجمع السحرة والكهنة ومعبريه وقصها عليهم وقال (يا أيها المَلأُ أفتونى فى رُؤْيَايَ إنْ كُنتُمْ للرُّؤْيا تَعْبُرُونَ) أى تفسرون (قالوا أضْغاثُ أحْلامٍ) مختلطة مشتبهة التأويل أباطيل وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين (وقالَ الَّذى نَجا مِنْهُما) أى من الفتيين وهو الساقى (وادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) أى وتذكر حاجة يوسف بعد حين . قال ابن عباس : بعد أمة : أى بعد سنين (أنا أُنَبِّئُكُمْ بِتأْوِيلِهِ فأرْسِلُونِ) أى إلى السجن . قال ابن عباس رضى الله عنهما : لم يكن السجن فى المدينة ، فبعثوه فأتى ليوسف فقال له : أيها الصديق : يعنى فيما عبرت لنا من الرؤيا ، والصديق : هو كثير الصدق (أفْتِنا فى سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يأكُلُهنَّ سَبْعٌ عِجافٌ) إلى قوله (لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ) أى فضلك وعلمك ، فقال له يوسف : تزرعون سبع سنين دأبا ، إلى قوله : وفيه يعصرون ؛ فرجع الساقى إلى الملك وأخبره بما أفتاه به يوسف من تأويل رؤياه كالنهار ، وعرف الملك أن الذى قال كائن ، فقال الملك : ائتونى بالذى عبر رؤياى هذه ، فلما

جاء الرسول إلى يوسف أبى أن يخرج معه حتى يعرف عذره وبراءته ويعرف صحة أمره من قِبَل النسوة، فقال للرسول (ارْجِعْ إلى رَبِّكَ) أى سيدك الملك (فاسأَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ) .

قال ابن عباس : لوخرج يوسف يومئذ قبل أن يعلم الملك شأنه ما زالت فى نفسه منه حاجة يقول : هو هذا الذى راود امرأتى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ أخى يوسُفَ وكَرَمِهِ وصَبْرِهِ واللهُ تَعالى يَغْفِرُ لَهُ حِينَ سُئِلَ عَنِ البَقَراتِ السِّمانِ والعِجافِ ، ولَوْ كُنْتُ مَكانَهُ ما أخبرتُهُم حَتَّى أَشْتَرِطَ أَنْ يُخْرِجونى ، ولَوْ كنت مَكانَهُ ولَبِثْتُ فى السِّجْنِ ما لَبِثَ لأَسْرَعْتُ الإجابَةَ وبادَرْتُ البابَ ولَمْ أَبْتَغِ العُذْرَ ، واللهِ إنَّهُ كانَ حَلِيماً ذَا أَناةٍ » قال : فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته ، فدعا الملك النسوة اللاتى قطعن أيديهن وامرأة العزيز ، فقال لهن (ما خَطْبُكُنَّ إذْ راوَدْتُنَّ يوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ، قُلْنَ حاشَ للهِ ما عَلِمْنا عليه مِنْ سوءٍ ، قالَتِ امْرَأَةُ العَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ أَنا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وإنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) فلما سمع ذلك يوسف قال (ذلكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بالغَيْبِ وأنَّ اللهَ لا يَهْدى كَيْدَ الخائنِينَ) فقال له جبريل : ولا حين هممت بها يا يوسف ؟ فقال يوسف عند ذلك (وما أُبَرِّئُ نَفْسِي) الآية .

فلما تبين للملك عذر يوسف وعرف أمانته وكفايته وديانته وعلمه وعقله قال (ائْتُونى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي) فلما جاء الرسول إلى يوسف قال له : أجب الملك الآن ، فخرج يوسف ودعا لأهل السجن بدعاء يعرف إلى اليوم ، وذلك أنه قال : اللهم عطف عليهم قلوب الأخيار ، ولا تعمّ عنهم الأخبار فهم أعلم الناس بالأخبار إلى اليوم فى كل بلدة . فلما خرج يوسف من السجن كتب على بابه : هذا قبر الأحياء وبيت الأحزان وتجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء ، ثم إنه اغتسل وتنظف من درن السجن ، ولبس ثيابا جددا حسانا وقصد إلى الملك . قال وهب : فلما وقف بباب الملك قال : حسبى ربى من دنياى ، حسبى ربى من خلقه، عز جاره وجل ثناؤه ولا إله غيره . فلمادخل على الملك قال : اللهم إنى أسألك بخيرك من خيره ، وأعوذ بك من شره وشر غيره . فلما نظر إليه الملك سلم عليه يوسف بالعربية ، فقال له الملك : ما هذا اللسان ؟ قال : لسان عمى إسمعيل ، ثم إنه دعا له بالعبرانية ثانيا ، فقال له الملك : ما هذا اللسان ؟ قال : لسان أبى يعقوب. قال وهب : وكان الملك يتكلم بسبعين لسانا ، فكلما كلم يوسف بلسان أجابه بذلك اللسان ، فأعجب الملك ما رأى منه ، وكان يوسف ابن ثلاثين سنة ، فلما رأى الملك حداثة سنه وغزارة علمه قال لمن عنده : إن هذا علم تأويل رؤياى ولم تعلمه الكهنة والسحرة ، ثم إنه أجلسه وقال له : إنى أحب أن أسمع رؤياى منك شفاها ، فقال يوسف : نعم أيها الملك :

رأيتَ سبع بقرات سمان شهب حسان غير عجاف كشف لك عنهن نهر النيل ، فطلعن عليك من شاطئه تشخب أخلافهن لبنا ، فبينما أنت كذلك تنظر إليهن وقد أعجبك حسنهن إذ نضب النيل فغار ماؤه وبدا قعره ، فخرج من حمئه ووحله سبع بقرات عجاف شعث غير ملصقات البطون ليس لهن ضروع ولا أخلاف ، ولهن أنياب وأضراس وأكفٌ كأكف الكلاب وخراطيم كخراطيم السباع ، فاختلطن بالسمان وافترسنهنَّ افتراس السباع وأكلن لحمهن ومزقن جلودهن وحطمن عظامهن ومششن مخهن ، فبينما أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهن وهن مهازيل ثم لم يظهر فيهن سمن ولا زيادة بعد أكلهن ! إذا سبع سنبلات خضر وسبع أخر سود يابسات فى منبت واحد عروقهن فى الثرى والماء ، فبينما أنت تقول فى نفسك : ما هذا ! هؤلاء خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات والمنبت واحد وأصولهن فى الماء : إذ هبّت ريح فردت أوراق السود اليابسات على الخضر المثمرات فأشعلت فيهن النار فأحرقتهن وصرن سودا متغيرات ، فهذا آخر ما رأيت من الرؤيا ، ثم إنك انتبهت مذعورا . فقال له الملك : والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كانت عجبا بأعجب مما سمعته منك . فما ترى فى رؤياى أيها الصديق ؟ فقال يوسف الصديق : إنى أرى أيها الملك أن تجمع الطعام وتزرع زرعا كثيرا فى هذه السنين المخصبة وتبنى الأهراء ؟ والخزائن ، وتجعل فيها الطعام بقصبه وسنبله ليكون أبقى له ، ويكون قصبه وسنبله علفا للدواب ، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم الخمس ، فيكفيك الطعام الذى جمعته لأهل مصر ومن حولها ، ثم تأتيك الخلق من جميع النواحى فيمتارون منك بحكمك ، فيجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك ، فقال له الملك : ومن لى بهذا ، ومن يجمعه ويبيعه لى ويكفينى الشغل فيه؟ فقال له يوسف : (اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ) أى كاتب حاسب ، وقيل حفيظ لما استودعتنى عليم بسنى المجاعة وبلغة من يأتينى ، فقال له الملك : ومن أحق به منك ؟ وولاه ذلك كله ، وقال له (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) .

أخبرنى الحسين بن محمد بن الحسين الثقفى بن مخلد بن علوية ، أخبرنا إسمعيل بن جعفر الباقرى ، أخبرنا الحسين بن علوية ، أخبرنا إسمعيل بن عيسى قال : أخبرنا إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رَحِمَ اللهُ أخى يوسُفَ لَوْ لَمْ يَقُلْ : اجعلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ لاسْتَعْمَلَهُ مِنْ ساعَتِهِ ، ولكِنْ لأَجْلِ سؤَالِهِ إيَّاهُ أَخَّرَ عنهُ ذلكَ سَنَةً ، فأقامَ عندَ الملكِ فى بيْتِهِ سَنَةً » وروى سفيان عن أبى سنان عن عبد الله بن أبى الهذلى قال : قال الملك ليوسف : إنى أريد أن تخالطنى فى كل شىء غير أنى آنف أن تأكل معى ، فقال له يوسف : إنى أحق أن آنف بذلك منك ، لأنى أنا ابن يعقوب إسرائيل الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله ، فصار بعد ذلك يأكل معه .

قال ابن عباس : فلما انصرفت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فتوجه بتاجه

وقلده بسيفه وحلاه بخاتمه ، وأمر له بسرير من الذهب مكلل بالدرّ والياقوت ، فضرب عليه قبة من إستبرق ، وكان طول السرير ثلاثين ذراعا وعرضه عشرة أذرع وعليه ثلاثون فراشا وستون نمرقة . ثم أمره أن يخرج فخرج متوجا ولونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى فيه من بياض وجهه الناظر صفاء لونه ، ثم انطلق حتى جلس على السرير فدانت له الملوك ولزم الملك وفوّض إليه أمر مصر وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه ، ثم مات قطفير عن قريب ، فزوّج الملك يوسف براعيل امرأة قطفير ؛ فلما دخل عليها قال لها : أليس هذا خيرا مما كنت تريدين منى ؟ فقالت له : أيها الصديق لاتلمنى فإنى كنت امرأة حسناء ناعمة كما رأيت فى ملك ودنيا ، وكان صاحبي لايأتى النساء ، وكنتَ كما جعلك الله فى صورتك وهيئتك فغلبتنى نفسى ، فلما بنى بها يوسف وجدها عذراء ، فأصابها فولدت له ابنين إفرائيم وميشا ابنى يوسف عليه السلام ، واستوثق ليوسف ملك مصر ، فأقام فيهم العدل ، فأحبه الرجال والنساء ، فذلك قوله تعالى (وكذلكَ نَجْزِى المُحْسِنِينَ . وكذلكَ مَكَّنا ليُوسُفَ فى الأرضِ) يعنى أرض مصر (يَتَبَوَّأُ منها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا من نَشاءُ ولا نُضِيعُ أجرَ المُحْسِنِينَ) وللبحترى فى هذا المعنى :

أما فى رسول الله يوسف أسوة ... لمثلك محبوسا على الظلم والإفكِ

أقام جميل الصبر فى السجن برهة ... فآل به الصبر الجميل إلى الملكِ

وكتب بعضهم إلى صديق له هذه الأبيات :

وراء مضيق الخوف متسع الأمن ... وأول مفروح به آخرُ الحزنِ

فلا تيأسنْ فالله ملك يوسفا ... خزائنه بعد الخلاص من السجنِ

قال : فلما اطمأن يوسف فى ملكه وخلت السنين المخصبة ودخلت المجدبة جاءت بهول لم تعهد الناس مثله فأصاب الناس الجوع . فلما كان بدء القحط نام الملك ، فبينما هو نائم إذ أصابه الجوع ، فهتف الملك : يا يوسف الجوع الجوع ، فقال يوسف : هذا أوان القحط والجوع ، فلما دخل أول سنة من سنى الجدب هلك فيها كل شىء أعدوه من السنين المخصبة ، فجعل أهل مصر يبتاعون من يوسف الطعام ، فباعهم فى أول سنة بالنقود من الذهب والفضة حتى لم يبق فى مصر درهم ولا دينار إلا قبضه ، وباعهم فى السنة الثانية بالحلى والحلل والجواهر ، حتى لم يبق فى أيدى الناس منها شىء ، وباعهم فى السنة الثالثة بالمواشى والدواب حتى احتوى عليها أجمع ، وباعهم فى السنة الرابعة بالعبيد والإماء حتى لم يبق عبد ولا أمة إلا أخذه ، وباعهم فى السنة الخامسة بالضياع والعقار والدور حتى احتوى عليها ولم يبق لأحد ملك ، وباعهم فى السنة السادسة بأولادهم ، فإن الرجل كان يشترى بولده الحنطة أو الشعير من شدة السنة ، فلم يبق لأحد ولد ذكر ولا أنثى إلا مماليك ، وباعهم فى السنة السابعة برقابهم وأرواحهم حتى لم يبق بمصر حر ولا عبد ولا أمة إلا صار

ملكا له ، فتعجب الناس من أمر يوسف وقالوا : تالله ما رأينا ملكا أجلّ من هذا وأعظم ثم قال يوسف للملك : كيف رأيت صنع ربى فيما خولنى فما ترى فى هذا ؟ فقال له الملك : الرأى رأيك ، وإنما نحن لك تبع ، فقال يوسف : فإنى أشهد الله وأشهدك أنى قد أعتقت أهل مصر جميعا ، ورددت عليهم عقارهم وعبيدهم وأولادهم .

وروى أن يوسف كان لايشبع من الطعام فى تلك الأيام ، فقيل له : أتجوع وبيدك خزائن الأرض ؟ فقال : إنى أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع .

وروى أن يوسف أمر طباخ الملك أن يجعل غذاءه نصف النهار مرة واحدة فى اليوم والليلة ، وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائع ، ويحسن إلى المحتاجين ، ففعل الطباخ ذلك ، فمن ثم جعل الملوك غذاءهم نصف النهار ، وقصد الناس مصر من كل ناحية يمتارون ، فجعل يوسف لايمكن أحدا منهم وإن كان عظيما من أكثر من حمل بعير ، تقسيطا بين الناس وتوسيعا عليهم ، فتزاحم الناس عليه .

قالوا : وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام من القحط والشدة ما أصاب سائر البلاد ، ونزل بيعقوب من ذلك ما نزل بالناس ، فأرسل بنيه إلى مصر يطلبون الميرة ، وأمسك عنده بنيامين أخا يوسف لأمه ، فجاء بنو يعقوب إلى يوسف عليه السلام وكانوا عشرة ، وكان منزلهم بالقرب من أرض فلسطين من ثغور الشام ، وكانوا أهل بادية ومواش ، فلما دخلوا عليه عرفهم يوسف وأنكروه لما أراد الله تعالى أن يبلغ يوسف ما أراده .

قال ابن عباس : وكان بين أن قذفوه فى الجب وبين أن دخلوا عليه مصر أربعون سنة فلذلك أنكروه . وقيل إنه كان متزييا بزى فرعون مصر ، فكانت عليه ثياب الحرير جالسا على سرير وفى عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج من ذهب فلذلك لم يعرفوه ، وقيل كان بينهم وبينه ستر فلذلك أنكروه .

قال بعض الحكماء : المعصية تورث النكرة ، ولذلك قال الله تعالى (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عليه فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) قالوا : فلما نظر إليهم يوسف وكلموه بالعبرانية قال لهم : أخبرونى من أنتم وما أمركم فانى أنكرت شأنكم ؟ فقالوا : نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار . فقال : لعلكم عيون جئتم تنظرون عورة بلادى ؟ فقالوا : لا والله ما نحن بجواسيس ، وإنما نحن إخوة بنو أب واحد شيخ كبير صديق لله نبى من أنبياء الله تعالى يقال له يعقوب ، قال : فكم أنتم ؟ قالوا : نحن كنا اثنى عشر فذهب منا أخ إلى البرية فهلك فيها ، وكان أحب إلى أبينا منا ، قال : كم أنتم ههنا ؟ قالوا عشرة . قال فأين الآخر ؟ . قالوا عند أبينا لأنه أخو الذى هلك من أمه فأبونا يتسلى به . قال فمن يعلم أن الذى تقولون حق ؟ فقالوا أيها الملك إننا فى بلاد لانعرف فيها . فقال يوسف : فأتونى بأخيكم الذى من أبيكم إن كنتم صادقين ، فإنى أرضى بذلك ، قالوا إن أبانا يحزن على فراقه وسنراوده عنه . قال فضعوا بعضكم عندى رهينة حتى

تأتونى بأخيكم ، فاقترعوا بينهم فأصاب القرعة شمعون ، وكان أبرهم بيوسف فخلفوه عنده ، فذلك قوله تعالى (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِى بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ) الآية إلى قوله (وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ) فقال عند ذلك يوسف لفتيانه : أى لغلمانه الذين يكيلون الطعام أجعلوا بضاعتهم : أى ثمن طعامهم .

قال ابن عباس : كانت بضاعتهم النعال والأدم . وقال قتادة : كانت وَرِقا فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون .

واختلف العلماء فى السبب الذى فعل ذلك يوسف بهم من أجله ؛ فقال الكلبىّ : تخوّف يوسف أن لايكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به إليه مرة أخرى ، وقيل خشى أن يشقّ أخذ ذلك منهم على أبيه إذ كانت السنة سنة جدب ، وقيل رأى لؤما أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع احتياجهم إليه ، فرده عليهم من حيث لايعلمون تكرما وتفضلا ؛ وقيل فعل ذلك لأنه علم أن ديانتهم وأمانتهم تحملهم على رد البضاعة ولا يستحلون إمساكها فيرجعون إليه لأجلها . فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا : يا أبانا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة ، لو كان رجل من ولد يعقوب ما أكرمنا كرامته ، فقال لهم يعقوب : إذا أتيتم ملك مصر فاقرءوا عليه منى السلام وقولوا له إن أبانا يصلى عليك ويدعو لك بما أوليتنا ، ثم إنه قال لهم : أين شمعون ؟ فقالوا : إن الملك ارتهنه لتأتيه ببنيامين ، ثم أخبروه بالقصة ، فقال لهم : ولم أخبرتموه بذلك ؟ فقالوا له : إنه أخذنا وقال إنكم جواسيس حيث كلمناه بلسان العبرانية ، ثم قصوا عليه القصة و (قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا) يعنى بنيامين (نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) فقال لهم يعقوب (هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ) ... الآية .

قال كعب : لما قال يعقوب (فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) قال الله : وعزتى وجلالى لأردن عليك كليهما بعد ماتوكلت علىّ . قالوا : (وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ) الذى حملوه من مصر (وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ) : أى ثمن طعامهم (رُدَّتْ إِلَيْهِمْ) قالوا يا أبانا (مَا نَبْغِى هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ) (فَقَالَ) لهم يعقوب (لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ) أى تهلكوا جميعا .

وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى (لتأتننى به إلا أن يحاط بكم) إلى قوله (قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل) يعنى حتى تحلفوا لى بحق محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين أن لاتغدروا بأخيكم ، ففعلوا ذلك ، فلما آتوه موثقهم قال يعقوب : الله على ما نقول وكيل : أى شاهد بالوفاء . فلما أرادوا الخروج من عنده قال لهم : لاتدخلوا

مصر من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وذلك أنه خاف عليهم العين ، لأنهم كانوا ذوى جمال وهيبة وصور حسان وقامات ممتدة وكانوا أولاد رجل واحد ، فأمرهم أن يتفرقوا فى دخولهم البلد لئلا يصابوا بالعين ، ثم قال لهم (وَمَا أُغْنِي عنكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إنِ الحُكْمُ إلاَّ للهِ عليهِ توَكَّلْتُ وَعليهِ فليتَوَكَّلِ المُتوَكِّلونَ . ولَمَّا دخَلوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أبوهُمْ) وكان لمصر أربعة أبواب ، فدخلوا من أبوابها كلها (ما كانَ يُغْنِي عنهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ)صدّق الله يعقوب عليه السلام فيما قال إلى قوله تعالى (ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لايَعْلَمونَ) ولما دخلوا على يوسف فى الكرّة الثانية قالوا : يا أيها العزيز هذا أخونا الذى أمرتنا أن نأتيك به قد جئناك به ، قال لهم : أحسنتم وأصبتم وستحمدون على ذلك عندى ، ثم إنه أنزلهم وأكرمهم وأضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة ، فبقى بنيامين على مائدة وحده وحيدا فبكى وقال : لو كان أخى يوسف حيا لأجلسنى معه ، فقال لهم يوسف : لقد بقى أخوكم هذا وحيدا فريدا ، ثم أجلسه يوسف معه على مائدته ، فجعل يؤاكله ، فلما كان الليل أمر لهم يوسف بمثل ذلك وقال لهم : ليبت كل اثنين منكم على فراش واحد ، فلما بقى بنيامين وحده قال يوسف : هذا ينام معى على فراشى ، فبات معه ، فجعل يوسف يضمه إليه ويشم ريحه حتى أصبح ، فجعل روبيل يقول : ما رأينا مثل هذا . فلما أصبح قال لهم : إنى لأرى هذا الرجل الذى جئتم به ليس له أخ يؤنسه ، فان تشاءوا أضمه إلىّ ليكون منزله معى ، ثم إن يوسف أنزلهم منزلا وأجرى عليهم الطعام والشراب ، وأنزل أخاه لأمه معه ، فذلك قوله تعالى (آوَى إليهِ أخاهُ) فلما خلا به قال له : ما اسمك ؟ قال : بنيامين ، قال له : وما بنيامين ؟ قال : المثكل ، وذلك أنه لما ولد فقد أمه ، قال : وما اسم أمك ؟ قال : راحيل بنت ليان بن ناحور ، قال : فهل لك من ولد ؟ قال : نعم ، قال : كم ؟ قال عشرة بنين ، قال : فما أسماؤهم ؟ قال : لقد اشتققت أسماءهم من اسم أخ لى من أمى هلك اسمه يوسف ، فقال يوسف : لقد اضطرك ذلك إلى حزن شديد ، فما أسماؤهم ؟ قال : بالعا وأخير وأشكل وأحيا وخير ونعمان وورد ورأس وحيثم وعيثم ، قال : فما هذه الأسماء ؟ قال : أما بالعا فإن أخى ابتلعته الأرض ، وأما أخير فإنه كان بكر أمى ، وأما أشكل فإنه كان أخى لأبى وأمى ومنى ، وأما أحيا فلكونه كان حيا ، وأما خير فإنه كان خيرا حيث كان ، وأما نعمان فانه كان ناعما بين أبويه ، وأما ورد فإنه كان بمنزلة الورد فى الحسن ، وأما رأس فإنه كان منى بمنزلة الرأس من الجسد ، وأما حيثم فأعلمنى أنه حى ، وأما عيثم فلو رأيت غرته لقرت عينى وتم سرورى ، فقال له يوسف : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك ذلك الهالك ؟ فقال بنيامين : أيها الملك ومن يجد أخا مثلك ، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل . قال : فبكى يوسف عليه السلام ، وقام إليه وعانقه وقال (إنِّي أنَا أخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ

بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ولا تعلمهم بشيء من هذا . ثم إن يوسف أوفى لإخوته الكيل وحمل لبنيامين بعيرا باسمه .

قال كعب: لما قال له إنى أنا أخوك ، قال بنيامين : فانى إذنْ لاأفارقك ، قال يوسف: إنى قد علمت باغتمام الوالد ، فإن حبستك زاد غمه ولا يمكننى حبسك إلا بعد اشتهارك بأمر فظيع ، فقال : لاأبالى افعل ما تريد ، فقال يوسف : إنى أدس صاعى هذا فى رحالك ثم أنادى عليكم بالسرقة ليتهيأ لى ردك بعد تسريحك ، قال : افعل، فذلك قوله تعالى (فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ) وكانت مشربة يشرب بها الملك ، وكانت كأسا من الذهب مكللا مرصعا بالجواهر جعلها يوسف مكيالا يكتال بها ، ثم إنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى ظعنوا ، ثم إن يوسف أمر بهم فأدركوا وحبسوا عن المسير (ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) فوقفوا، فلما قرب منهم الرسول قال لهم : ألم نحسن منزلتكم ونكرم ضيافتكم ونوف كيلكم وفعلنا لكم مالم نفعل لغيركم ؟ قالوا : بلى وما ذاك ؟ قال : سقاية الملك فقدناها ولم نتهم عليها غيركم (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) وإنا منذ قطعنا هذه الطريق لم نرد أحدا بسوء ،واسألوا عنا من مررنا به هل أضررنا أحدا أو أفسدنا شيئا ، وإنا قد رددنا الدراهم لما وجدناها فى رحالنا ، فلو كنا سارقين ما رددناها . وفى الحديث أنهم لما دخلوا مصر كموا أفواه دوابهم لئلا تتناول من حروث الناس شيئا . فقال الرسول : إنه صاع الملك الأكبر الذى يتكهن فيه وإنه ائتمنى عليه ، فان لم أجده تخوفت أن تسقط منزلتى عنده وأفتضح فى مصر ، فمن رده علىّ فله حمل بعير من طعام وأنا به زعيم : أى كفيل ؛ قالوا : معاذ الله أن نسرق ، فقال المؤذن وأصحابه : فما جزاؤه : أى جزاء من وجد فى رحله إن كنتم كاذبين ، قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين ، فقال الرسول عند ذلك لا بد من تفتيش أمتعتكم ولستم ببارحين حتى أفتشها ، ثم إنه انصرف بهم إلى يوسف فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه لإزالة التهمة ، وكان يفتش أمتعتهم واحدا واحدا .

قال قتادة : ذكر لنا أنه كان لايفتح متاعا ولا ينظر فى وعاء أحد إلا استغفر الله تعالى مما قذفهم به حتى لم يبق إلا الغلام فقال : ما أظن أن هذا الغلام أخذشيئا ، فقالت إخوته : والله ما نتركك حتى تنظر فى رحله فإنه أطيب لنفسك ولأنفسنا ، فلمافتحوا متاعه استخرجوا الصاع منه ، فلما أخرج الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رءوسهم من الحياء ثم أقبلوا على بنيامين فقالوا : أيش الذى صنعت بنا وفضحتنا وسودت وجوهنا يا بن راحيل لايزال لنا منكم بلاء ، أخذت هذا الصاع ؟ فقال لهم بنيامين : بل بنو راحيل

الذين لايزال لهم منكم بلاء ، ذهبتم بأخى إلى البرية فأهلكتموه ، إن الذى وضع الصاع فى رحلى هو الذى وضع الدراهم فى رحالكم ، ثم إنهم (قَالُوا) ليوسف : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ، وهذا من المثل السائر : عذره شر من جرمه .

واختلف العلماء فى السرقة التى وصفوا بها يوسف ، قال سعيد بن جبير وقتادة : السرقة التى وصفوا بها يوسف ، أنه سرق صنما ، لجده أبى أمه من ذهب فكسره وألقاه فى الطريق . وقال ابن جريج : أمرته أمه وكانت مسلمة أن يسرق صنما لخاله من ذهب فأخذه وكسره . وقال مجاهد : جاء سائل يوما فسرق يوسف بيضة من البيت وأعطاها السائل ، وقال ابن عيينة : دجاجة فناولها السائل فعيروه بها . وقال وهب : كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء . وقال الضحاك وغيره : كان أول ما دخل على يوسف من البلاء ، أنّ عمته بنت إسحاق كانت أكبر ولد إسحاق ، وكانت منطقة إسحاق عندها ، وكانوا يتوارثونها بالكبر ، وكانت راحيل أم يوسف ماتت فحضنته عمته وأحبته حبا شديدا وكانت لاتصبر عنه ، فلما ترعرع وبلغ سنوات وقع حبه فى قلب يعقوب ، فأتاها وقال لها : ياأختاها سلمى إلىّ يوسف فوالله ما أصبر عنه ساعة واحدة ، فقالت له : ما أنا بتاركته ، فلما ألح عليها يعقوب قالت : دعه عندى أياما أنظر إليه لعل ذلك يسلينى عنه ، ففعل ذلك . فلما خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمت يوسف بها تحت ثيابه ، ثم إنها قالت فقدت : منطقة إسحاق فانظروا من أخذها ، فالتمست فلم توجد ، فلما فتشوا أهل البيت وجدوها مع يوسف ، فقالت : والله إنه ليسلم لى أصنع فيه ما شئت ، وكان ذلك حكم آل إبراهيم فى السارق ، فأتاها يعقوب فأخبرته بذلك ، فقال : إن كان هذا فهو مسلم لك لاأستطيع غير ذلك ، فأمسكته بعلة المنطقة ، فما قدر عليها يعقوب يأخذه منها حتى ماتت ، فهو الذى قال إخوته (إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ) .

قال الرواة : لما دخلوا على يوسف واستخرج الصواع من رحل بنيامين دعا يوسف بالصاع فنقره ، ثم أدناه من أذنه ، ثم قال : إن صاعى هذا ليخبرنى أنكم كنتم اثنى عشر رجلا ، وإنكم انطلقتم بأخ فبعتموه ، فلما سمع بنيامين ذلك قام فسجد ليوسف ، وقال : أيها الملك : سل صواعك هذا عن أخى أحىّ هو ؟ فنقره ثم قال له حى وسوف تراه ، فقال بنيامين : اصنع بى ما شئت فإنه إن علم بى سوف يستنقذنى . قال : فدخل يوسف إلى منزله ثم إنه بكى وتوضأ ، فقال بنيامين : أيها الملك إنى أريد أن تضرب صواعك هذا فيخبرك بالحق من الذى سرقه فجعله فى رحله ، فنقره ثم إنه قال : إن صواعى غضبان وهو يقول : كيف تسألنى عن صاحبى الذى سرقنى وقد رأيت مع من كنت ؟ قال : وكان بنو يعقوب

إذا غضبوا لم يطاقوا ، فغضب روبيل وقال : أيها الملك والله لئن لم تتركنا وآخانا لأصيحن صيحة لايبقى فى مصر امرأة حامل إلا ألقت ما فى بطنها ، وقامت كل شعرة فى جسده فخرجت من ثيابه ، وكان بنو يعقوب إذا غضبوا ومس أحدهم الآخر ذهب غضبه ، فقال يوسف لابنه : قم إلى جنب روبيل ومسه ، فقام الغلام إلى جنبه فمسه فسكن غضبه ، فقال روبيل : إن فى هذا البيت لشيئا من ولد يعقوب ، فقال يوسف : من يعقوب ، فغضب روبيل وقال : أيها الملك : لاتذكر يعقوب فإنه إسرائيل الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله ، قال يوسف : أنت إذا كنت صادقا صادق .

فلما أراد يوسف أن يحتبس أخاه عنده ويصير بحكمه وأنه أولى به منهم واحتبسه ورأوا أن لاسبيل لهم إلى تخليصه منه ، سألوه أن يخليه لهم ويعطوه واحدا منهم بدله ، (فقالُوا يا أيُّها العزيزُ إنَّ لهُ أباشيْخاكبيرًا) كلفًا بحبه (فخُذْ أحدَنا مكانهُ إنَّا نراكَ مِنَ المُحْسِنِينَ قالَ) يوسف (مَعاذَ الله أنْ نأخُذَ إلاَّ مَنْ وجدْنا متاعنا عنده) ولم يقل من سرق تحرزا عن الكذب (إنَّا إذًا لظالمُونَ) إن أخذنا بريئا بمتهم (فلمَّا استيأسوا منهُ خلَصُوا نجيًّا) أى خلا بعضهم ببعض متناجين متشاورين (فقال كبيرُهُمْ) يعنى فى العقل وهو شمعون عن مجاهد . وقال قتادة والسدى : كبيرهم فى السن وهو روبيل (ألمْ تعْلمُوا أنَّ أباكُمْ قدْ أخذَ عليكُمْ موْثِقا مِنَ اللهِ) فى هذا الغلام لتردُنَّه (ومِنْ قبلُ ما فرَّطْتُمْ فى يوسُفَ) أى من قبل هذا قصرتم فى شأن يوسف (فلَنْ أبْرحَ الأرْضَ) يعنى أرض مصر (حتَّى يأْذنَ لى أبى) فأرجع إلى الملك فأناجزه القتال (أوْ يحْكُمَ اللهُ لى وهُوَ خيْرُ الحاكمِينَ ارْجعُوا إلى أبيكُمْ فقولُوا يا أبانا إنَّ ابْنكَ سرقَ وما شهِدْنا إلاَّ بما علِمْنا) أى نحن رأينا سرقته معه (وما كُنَّا للْغيْبِ حافظِينَ) حين سألناك أن ترسله معنا ، ولو علمنا الغيب أنه يسرق ما ذهبنا به معنا (واسألِ القرْيةَ) يعنى واسأل أهل القرية (الَّتى كُنَّا فيها والعيرَ الَّتى أقبلْنا فيها) يعنى قوما صحبوهم من أهل كنعان (وإنَّا لصادِقونَ) لك فى قولنا ، فرجعوا إلى يعقوب بذلك القول ، فقال يعقوب (بلْ سوَّلتْ لكمْ أنفُسكُمْ أمْرًا فصَبْرٌ جميلٌ) وهو الذى لاجزع فيه (عسَى اللهُ أنْ يأْتيِنى بهِمْ جميعا) يعنى يوسف وبنيامين (إنَّهُ هُوَ العلِيمُ الحكِيمُ . وتولَّى عنهُمْ) يعقوب (وقالَ يا أسفا على يوسُفَ) وذلك أنه لما بلغه خبر بنيامين تكامل حزنه وبلغ جهده وهيج حزنه على يوسف فأعرض عنهم (وقال يا أسفا على يوسف) والأسف أشد الحزن .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لمْ تُعْطَ أُمَّةٌ مِنَ الأُممِ عندَ المُصيبةِ إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعُونَ إلاَّ

أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ألا تَرَى إلى يعقوبَ حِينَ أصابَهُ على ابنِهِ ما أصابَهُ مِنَ الحُزْنِ لَمْ يسترْجِعْ إنما قالَ يا أسفَا على يوسفَ » ؛

وقال الحسن : كان بين خروج يوسف من عند أبيه إلى يوم الالتقاء معه ثمانون سنة لم تجفَّ عيناه من الدموع وما كان على وجه الأرض أكرم على الله تعالى من يعقوب ؛ فلما شكا وبكى قال له ولده (تاللهِ تَفْتَؤُ تذْكُرُ يوسفَ حتَّى تكونَ حَرَضًا) أى ريضا ذاهب العقل من الهم (أوْ تكونَ مِنَ الهَالِكِينَ) فقال يعقوب لما رأى غلظهم وجفوتهم (إنَّما أشكو بَثِّى وَحُزْنِى إلى اللهِ) لاإليكم . وفى الحديث « أنَّ يعقوب كَبِرَ وَضَعُفَ حتَّى سقَطَ حاجباهُ على عينَيْهِ وكانَ يرفَعُهُما بخِرْقةٍ ، فقالَ لهُ بعضُ جيرانِهِ قدْ تهشَّمْتَ وَفَنيتَ ولَمْ تبلُغْ مِنَ السِّنِّ ما بلَغَ أخوكَ ، فما بلَغَ بكَ ما أرَى ؟ فقالَ : طولُ الزَّمانِ وكثْرةُ الأحزانِ ، فأوْحى اللهُ تعالى إلى يعقوبَ أتشكونى إلى خلْقى ؟ فقال : يا ربِّ خطيئةٌ أخْطأتُها فاغفرْها لى ، قالَ : قدْ غفرْتُ لكَ ، فكانَ بعدَ ذلكَ إذا سُئِلَ قالَ (إنَّما أشكو بَثِّى وَحُزْنِى إلى اللهِ) » .

أخبرنى الحسين بن فتحويه ، أخبرنا أحمد بن الحسن بن حامد ، أخبرنا الحسين بن أيوب ، أخبرنا عبد الله بن أبى زياد ، أخبرنا سيار بن حاتم عن عبد الله بن السمط قال : سمعت أبى يقول : بلغنا أن رجلا قال ليعقوب : ما الذى أذهب بصرك ؟ قال : حزنى على يوسف ، قال : فما الذى قوّس ظهرك ؟ قال : حزنى على أخيه ، فأوحى الله تعالى إليه : يا يعقوب أتشكونى ؟ وعزتى وجلالى لاأكشف ما بك حتى تدعونى ، فقال عند ذلك (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) فأوحى الله تعالى إليه وعزتى وجلالى لو كانا ميتين لأخرجتهما لك حتى تنظر إليهما ، وإنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين يستطعم فلم تطعموه منها شيئا ، وإن أحب الناس إلىَّ من خلقى الأنبياء ثم المساكين ، فاصنع طعاما وادع إليه المساكين ، فصنع طعاما ثم قال : من كان صائما فليفطر الليلة عند آل يعقوب .

وقال وهب بن منبه : أوحى الله تعالى إلى يعقوب أتدرى لم عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة ؟ قال : لا يا إلهى ، قال : لأنك شويت عناقا وقترت على جارك وأكلت ولم تطعمه . ويقال إن سبب ابتلاء يعقوب بفقد يوسف أنه كان له بقرة ولد لها عجل فذبح عجلها بين يديها وكانت تخور فلم يرحمها يعقوب ، فأخذه الله بذلك فابتلاه بفقد أعز ولده إليه ، ثم إن يعقوب قال لبنيه (يابَنِىَّ اذْهَبُوا فتحسَّسُوا مِنْ يُوسفَ وأخيهِ ولاَ تيأسُوا منَ رَوْحِ اللهِ) الآية . قال السدى : لما أخبره ولده بخبر العزيز وقوله وفعله أحست نفس يعقوب وطمع وقال لعله يوسف .

وروى أنه رأى ملك الموت فى المنام فسأله : هل قبضت روح يوسف ؟ فقال لا ، وإنه :

والله حى يرزق . وروى أنه رأى ملك الموت وقد زاره فقال له : السلام عليك أيها الكظيم ، فاقشعرّ جلده وارتعدت فرائصه وردّ عليه السلام ، ثم قال له : من أنت ومن أدخلك هذا البيت وقد أغلقت على نفسى بابى كيلا يدخل علىّ أحد وأشكو بثى وحزنى إلى الله ، فقال له : يا نبى الله أنا الذى أيتم الأولاد وأرمل الأزواج وأفرق بين الجماعات ، قال : فأنت إذن ملك الموت ، قال نعم ، فقال له : يا ملك الموت أنشدك الله إلا أخبرتنى هل تقبض روح من تأكله السباع ؟ قال نعم ، قال : فأخبرنى عن الأرواح أتقبضها مجموعة أو متفرقة روحا روحا ؟ قال : أقبضها روحا روحا ، قال : فهل مرت بك روح يوسف فى الأرواح ؟ قال لا ، قال : فجئتنى زائرا أم داعيا ؟ فقال : يا نبى الله ما جئتك إلا مسلما فإن الله تعالى لايميتك حتى يجمع بينك وبين يوسف ، ولو كان فى الصخرة التى عليها قرار الأرضين ، وما أذن الله لى فى زيارتك إلا لأبشرك وأجيبك عما تسألنى عنه ، وإن شئت أعلمتك لماذا ابتليت بفقد ولدك ، قال له : فأعلمنى يا عزرائيل ، فقال : يا إسرائيل الله هل تذكر الجارية التى اشتريتها عام كذا فى شهر كذا ثم فرقت بينها وبين أبويها ؟ قال : نعم يا ملك الموت كأنه كان بالأمس ، فقال له ملك الموت : فلأجل ذلك ابتليت بفقد الولد ؟ وهل تعلم لماذا ابتليت بفقد البصر ؟ قال لا ، قال : أمرت يوما بذبح جَذَعة فذبحتها وشويتها فى يوم كذا فى شهر كذا ، فمر تميم العابد الصالح بك وهو صائم ما أفطر منذ أسبوع فاشتم قُتار الشوىّ فلم تطعمه شيئا ، فعند ذلك أعتق يعقوب من كان بحضرته من العبيد والإماء ، وأمر أن يذبح كل يوم من أغنامه كبشان ويفرق لحمهما على الفقراء والمساكين ، فقبل الله ذلك منه وشكره عليه وأتاه الفرج ، فعند ذلك قال يعقوب (يا بَنِىَّ اذْهَبُوا فتحَسَّسوا مِن يوسُفَ وأَخيه) إلى قوله تعالى (إلاَّ القَوْمُ الكافِرُونَ) .

قال قتادة : ذكر لنا أن نبى الله يعقوب عليه السلام ما ساء ظنه بالله تعالى فى طول بلائه ساعة قَطُّ من ليل أو نهار .

فعند ذلك خرج إخوة يوسف راجعين إلى مصر وهذه كرة ثالثة ، فدخلوا على يوسف (فَلَمَّا دَخلوا عليه قالُوا يا أَيُّها العَزِيزُ) أى الملك بلغة مصر (مَسَّنا وأَهْلَنا الضُّرُّ وجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ) أى قليلة رديئة لاتنفُق فى ثمن الطعام إلا بتجاوز من البائع فيها .

واختلف المفسرون فى هذه البضاعة ما هى ؟ فقال ابن عباس كانت دراهم رديئة زيوفا لاتنفُق إلا بوضيعة . وقال ابن أبى مليكة رضى الله عنه كانت خلقة الغرائر والحبال رثة المتاع . وقال عبد الله بن الحارث والحسن : كانت أمتعة الأعراب الصوف والسمن والأقط . وقال الضحاك : كانت النعال والأدم والسويق المقلى (فأَوْفِ لَنا الكَيْلَ وتَصَدَّقْ علَيْنا إنَّ اللهَ يَجْزِى المُتَصَدِّقِينَ) قال الضحاك : لم يقولوا : إن الله يجزيك إن تصدقت علينا لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن . وقال عبد الجبار بن العلائى : سئل سفيان بن عينة : هل

حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء سوى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال سفيان : ألم تسمع قول الله تعالى (وتصدق علينا) أراهم سفيان أن الصدقة كانت لهم حلالا وإنما حرمت على نبينا عليه الصلاة والسلام ، فقال لهم يوسف مجيبا لهم عند ذلك (هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بيوسُفَ وأخيهِ إذْ أنتمْ جاهِلونَ) واختلف العلماء فى السبب الذى حمل يوسف على هذا القول الذى كان بدء فرج يعقوب وراحته وآخر بلائه ومحنته .

فقال محمد بن إسحاق : ذكر لنا أنهم لما كلموه بهذا الكلام غلبته نفسه وأدركته الرقة فارفضّ دمعه باكيا ثم باح لهم بالذى كان يكتم فقال (هل علمتم ما فعلتم) الآية . وقال الكلبىّ : إنما قال ذلك حين حكى لإخوته أن مالك بن دعر قال : إنى وجدت غلاما فى بئر من حاله كيت وكيت ، فابتعته من قوم بكذا وكذا درهما ، فقالوا له : أيها الملك نحن بعنا هذا الغلام ، فاغتاظ يوسف من ذلك وأمر بقتلهم ، فذهبوا بهم ليقتلوهم ، فولى يهوذا وهو يقول : كان يعقوب يبكى ويحزن لفقد واحد منا حتى كفّ بصره ، فكيف إذا أتاه خبر قتل بنيه كلهم ؟ ثم إنهم قالوا له : إن فعلت بنا ذلك فابعث بأمتعتنا إلى أبينا فإنه بمكان كذا وكذا فذلك الوقت رحمهم وبكى ، وقال لهم ذلك القول .

وقال بعضهم : إنما قال ذلك حين قرأ كتاب أبيه إليه ؛ وذلك أن يعقوب لما قيل له إن ابنك سرق كتب إلى يوسف كتابا : من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر المظهر العدل والموفى الكيل . أما بعد : فانا أهل بيت موكل بنا البلاء ، فأما جدى فابتلى بالنمروذ فشدت يداه ورجلاه وألقى فى النار ، فجعلها الله عليه بردا وسلاما ؛ وأما أبى فشدت يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه ليذبح ففداه الله بذبح عظيم ؛ وأما أنا فكان لى ابن وكان أحب أولادى إلىّ ، فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتونى بقميصه ملطخا بالدم ، وقالوا قد أكله الذئب ، فذهبت عيناى من بكائى عليه ، ثم كان لى ابن آخر وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به ، فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا إنه سرق وإنك حبسته لذلك ، وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا ، فإن رددته علىّ وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك . فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك نفسه من البكاء وعيل صبره فأظهر لهم أمره .

وقال بعضهم : إنما قال ذلك حين سأل أخاه بنيامين هل لك ولد ؟ قال نعم : ثلاثة بنين ، قال : فما سميتهم ؟ قال : سميت الأكبر منهم يوسف ، قال : ولم ؟ قال : محبة لك ولذكرك . قال : فما سميت الثانى ؟ قال ذئبا . قال : ولم والذئب سبع عاقر ؟ قال : لأذكرك به . قال : فما سميت الثالث ؟ قال دما ، قال ولم ؟ قال : لأذكرك به ؛ فلما سمع يوسف هذه المقالة خنقته العبرة ولم يتمالك أن قال لإخوته : هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ، قالوا له أئنك لأنت يوسف . قال ابن إسحاق : لما قال يوسف

لإخوته : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ؟ كشف عنه الغطاء ورفع عنه الحجاب فعرفوه، فقالوا (أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي) .

وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال لهم يوسف (هل علمتم ما فعلتم) الآية ، ثم تبسم ، وكان إذا تبسم كأن ثناياه اللؤلؤ المنظوم ، فلما أبصروا ثناياه شبهوه بيوسف ، فقالوا له مستفهمين : أئنك لأنت يوسف .

وروى عطاء عن ابن عباس أنه قال : إن إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه ، وكان له فى فرقه علامة ، وكان ليعقوب مثلها وكان لإسحق مثلها وكان لسارة مثلها شبه الشامة ، فلما رفع التاج عن رأسه ورأوا الشامة عرفوه ، وقالوا له (أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا) بأن جمعنا بعد ما فرقتم بيننا (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) ثم إنهم أقروا بفضل يوسف عليهم وجريمتهم إليه ، فقالوا (تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ) فقال يوسف وكان حليما كريما موفقا (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

قال السدى وغيره : فلما عرّفهم يوسف بنفسه سألهم عن أبيه فقال : ما فعل أبى من بعدى ؟ قالوا : ذهبت عيناه ، فأعطاهم قميصه .

قال الضحاك : كان ذلك القميص من نسج الجنة ، وكان فيه ريح الجنة لايقع على مبتلى ولا على سقيم إلا صح وعوفى ، فأعطاهم يوسف ذلك القميص ، وهو الذى كان لإبراهيم وقد مضت قصته ، فقال لهم (اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ فَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ) من مصر متوجهين إلى كنعان قال أبوهم يعقوب (إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ) أى تسفهون .

ويروى أن ريح الصبا استأذنت ربها أن تأتى يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير بالقميص فأذن لها فأتته بها . قال ابن عباس : وجد يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثمان ليال . وقال مجاهد : وذلك أنه هبت ريح فصفقت القميص ، فاحتملت الصبا ريح القميص إلى يعقوب ، فوجد ريح الجنة ، فعلم أنه ليس فى الأرض من رياح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص ، فمن ثم قال (إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) فقال له بنو بنيه (تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ، فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ) وهو يهوذا بن يعقوب ، قال ابن مسعود : جاءه البشير من بين يدى العير ؛ وقال السدى : قال يهوذا ليوسف : أنا ذهبت بالقميص ملطخا بالدم إلى يعقوب فأخبرته أن يوسف أكله الذئب ؛ فأعطنى اليوم قميصك لأخبره أنك حى ، فأفرحه كما أحزنته .

قال ابن عباس : حمله يهوذا وخرج ماشيا حاسرا حافيا ، وجعل يعدو حتى أتى أباه ، وكان معه سبعة أرغفة فلم يستوف أكلها حتى بلغ كنعان ، وكانت المسافة ثمانين فرسخا . فلما أتاه

بالقميص ألقاه على وجهه فارتد بصيرا . قال الضحاك : رجع إليه بصره بعد العمى وقوته بعد الضعف وشبابه بعد الهرم وسروره بعد الحزن .

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : كان يعقوب عليه السلام أكرم أهل الأرض على ملك الموت ، وإن ملك الموت استأذن ربه فى أن يأتى يعقوب ، فأذن له فجاءه ، فقال له يعقوب : يا ملك الموت أسألك بالذى خلقك هل قبضت نفس يوسف فيمن قبضت من النفوس ؟ فقال لا ، ثم قال له ملك الموت : يا يعقوب ألا أعلمك كلمات ؟ قال بلى ، قال قل: يا ذا المعروف الذى لاينقطع أبدا ولايحصيه أحد غيرك . قال: فدعا بها يعقوب فى تلك الليلة فلم يطلع الفجر حتى طرح القميص على وجهه فارتد بصيرا ، فقال لهم عند ذلك (أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مالاتَعْلَمُونَ ، قالُوا يا أبانا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ . قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبى) ... الآية .

قال أكثر المفسرين : أخر ذلك إلى السحر من ليلة الجمعة فوافق ذلك ليلة عاشوراء ، وذلك أن الدعاء فى الأسحار لايحجب عن الله تعالى . فلما انتهى يعقوب إلى الوعد قام إلى الصلاة بالسحر ، فلما فرغ منها رفع يديه إلى الله عز وجل وقال : اللهم اغفر لى جزعى على يوسف وقلة صبرى عنه ، واغفر لولدى ما جنوا على أخيهم يوسف ، فأوحى الله إليه إنى قد غفرت لك ولهم أجمعين . وقال وهب : كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة فى نيف وعشرين سنة .

أخبرنا الحسين بن محمد بن فنحويه ، أخبرنا عبد الله بن محمد بن شيبة ، أخبرنا أحمد ابن أبى السفر بن ثوبان البصرى ، أخبرنا إسحاق بن زياد الأرملى ، أخبرنا الفضل بن حميد البغدادى ، أخبرنا إسحاق بن زياد وابن ضمرة عن رجاء بن أبى سلمة عن عطاء الخراسانى قال : طلب الحوائج إلى الشباب أيسر منها إلى الشيوخ ، ألا ترى قول يوسف لإخوته : لاتثريب عليكم اليوم ، وقول يعقوب : سوف أستغفر لكم ربى .

وروى أن يعقوب قال للبشير : لما أخبره بحياة يوسف كيف يوسف ؟ قال له : إنه ملك مصر ، فقال يعقوب : ما أصنع بالملك على أى دين تركته ؟ قال : على دين الإسلام ، فقال يعقوب : الآن تمت النعمة .

وقال الثورى : لما التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكيا ، فقال يوسف : يا أبت بكيت على حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا ؟ قال : بلى يا بنى ولكن خشيت أن تسلب دينك ، فيحال بينى وبينك يوم القيامة .

قالوا : وكان يوسف قد بعث مع البشير جهازا ومائتى راحلة ، وسأله أن يأتيه بأهله ووالده أجمعين ، فتهيأ يعقوب للخروج إلى مصر ، فلما دنا يعقوب من مصر كلم يوسف الملك الأكبر الذى فوقه ، فخرج مع يوسف فى أربعة آلاف من الجند ، وركب أهل

مصر معهما يتلقون يعقوب ، وكان يعقوب يمشى متوكئا على يهوذا ، فنظر يعقوب إلى الجند والناس ، فقال : يا يهوذا هذا فرعون مصر الأكبر؟ فقال : لا ، هذا ابنك ، فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف يبدؤه بالسلام فمنعه الله من ذلك ، وكان يعقوب أفضل وأحق بذلك منه ، فابتدأه يعقوب بالسلام ، فقال : السلام عليك يا مذهب الأحزان (فلَمَّا دخلُوا على يوسُفَ آوَى إليهِ أبوَيْهِ) ورفعهما على العرش وأبواه يعقوب وخالته ليا ، فسمى الخالة أما كما سمى العم أبا فى قوله تعالى (قالُوا نَعْبُدُ إلهَكَ وإلهَ آبائكَ إبراهِيمَ وإسمَعِيلَ وإسحَاقَ) وقال الحسن: نشر الله راحيل أم يوسف من قبرها حتى سجدت له تحقيقا للرؤيا ، فذلك قوله تعالى (وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا) وكانت تحية الناس يومئذ السجود ، ولم يرد بالسجود وضع الجباه على الأرض ، فلما رأى يوسف أبويه وإخوته قد خروا له سجدا اقشعرّ عند ذلك جلده (وقالَ يا أبَتِ هذَا تأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا ربى حَقًّا) ... الآية .

قال وهب : دخل يعقوب وولده مصروهم اثنان وسبعون إنسانا ، مابين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلا سوى الذرية والهَرْمَى والزَّمْنَى ، وكانت الذرية ألف ألف سوى المقاتلة .

وقال الفضيل بن عياض : بلغنا أن يعقوب عليه السلام لما دخل مصر ورأى يوسف ومملكته فكان يطوف يوما من الأيام فى خزائنه ، فرأى خزانة مملوءة قراطيس بيضاء ، فقال له : يا بنى لقد تغيرت بعدى ، لك كل هذه القراطيس وما حملت بطاقة منها تكتب إلىَّ كتابا ؟ فقال يوسف : هذه القراطيس كلها لك كنت كلما زاد شوق وكثر حنينى آخذ ورقة حتى أكتب إليك يا أبت ، فيمنعنى جبريل أن أكتب إليك ، فأتركها فى هذه الخزانة حتى بلغت هذا المبلغ ، فسأل يعقوب جبريل عن ذلك فقال : منعنى ربى ، فسأل الله عن ذلك ، فأوحى الله إليه : لأنك قلت : أخاف أن يأكله الذئب ، فهلا خفتنى ، هذه العقوبة لأجل تخوفك من غيرى ؟

وروى صالح المُرِّىّ عن يزيد الرَّقاشىّ عن أنس بن مالك قال : إن الله تعالى لما جمع ليعقوب شمله خلا ولده نجيا ، فقال بعضهم لبعض : أليس قد علمتم ما فعلتم بالشيخ يعقوب وبيوسف ، قالوا بلى ، قالوا : فإن عفوا عنكم فكيف لكم بربكم ، فاستقام أمرهم على أن يأتوا الشيخ ، فأتوه وجلسوا بين يديه ويوسف إلى جنب أبيه قاعد ، فقالوا : يا أبانا أتيناك على أمر لم نأتك بمثله قطُّ ، ونزل بنا أمر لم ينزل بنامثله قطُّ ، والأنبياء أرحم البرية ، فقال : مابكم يا بَنِىَّ ؟ فقالوا : ألست تعلم ما كان منا إليك وإلى أخينا يوسف ؟ قال بلى قد علمت قالوا : أفلستما قد عفوتما عنا ؟ قالا بلى ، قالوا : فان عفوكما لا يغنى عنا شيئا إذا كان الله تعالى لم يعف عنا ، قال : فما تريدون يا بنى؟ قالوا : نريد أن تدعو الله لنا ، فإذا جاءك

الوحي من عند الله سله هل عفا الله عنا ، فإن أجابك بأنه قد عفا عنا جميعا قرت أعيننا واطمأنت قلوبنا ، وإلا فلا قرت لنا عين فى الدنيا أبدا ، فقام الشيخ واستقبل القبلة وقام يوسف خلفه ، وقاموا كلهم خلفهما أذلة خاشعين ، فدعا يعقوب وأمن يوسف عليهما السلام ، فلم يُجَب فيهم قريبا من عشرين سنة . قال صالح المرى : ثم نزل جبريل عليه السلام على يعقوب ، فقال : إن الله تعالى بعثنى إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك فى ولدك ، وأنه قد عفا عما صنعوا ، وأنهم قد انعقدت مواثيقهم بعدك على النبوة ، قالوا : فأقام يعقوب بمصر بعد موافاته بأهله وولده أربعة وعشرين سنة بأغبط حال وأهنأ عيش وأتم راحة وأدوم سلام ، ثم حضرته الوفاة ، فلما احتضر جمع بين بنيه ، وقال : ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسمعيل وإسحاق ، ثم قال : (يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) ثم إنه أوصى إلى يوسف أن يحمل جسده إلى الأرض المقدسة حتى يدفنه عند أبيه إسحاق وجده إبراهيم ، ففعل ذلك ونقله إلى بيت المقدس فى تابوت من ساج ، وخرج معه يوسف فى عسكره وإخوته وعظماء أهل مصر ، ووافق ذلك يوم وفاة عيص ، فدفنا فى يوم واحد ، وكان عمرهما جميعا مائة وسبعا وأربعين سنة ، لأنهما ولدا فى بطن واحد وقبرا فى قبر واحد .

فلما جمع الله ليوسف شمله وأقر له عينه وأتم له تفسير رؤياه ، وكان موسعا عليه فى ملك الدنيا ونعيمها ، وعلم أن ذلك لايدوم له وأنه لابد من فراقه ، فأراد نعم الجنة إذ هو أفضل منه ، فتاقت نفسه إلى الجنة فتمنى الموت ودعا به ، ولم يتمن نبى قبله ولا بعده الموت فقال (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ) . . . الآية .

وروى أن يوسف لما حضرته الوفاة جمع إليه قومه من بنى إسرائيل وهم ثمانون رجلا وأعلمهم بحضور أجله ونزول أمر الله تعالى به ، فقالوا : يا نبى الله نحب أن تعرفنا كيف تتصرف بنا الأحوال بعد خروجك من بين أظهرنا وإلى مايئول إليه أمرنا وديننا وملتنا ؟ فقال لهم : إن أمركم يستقيم على ما أنتم عليه ، وتستقيمون على دينكم إلى أن يبعث رجل جبار عات من القبط يدعى الربوبية فيقهركم ويذبح أبناءكم ويستحيي نساءكم ويسومكم سوء العذاب ، فتمد أيامه مدة مديدة ، ثم يخرج من بنى إسرائيل من ولد لاوى بن يعقوب رجل اسمه موسى بن عمران ، رجل طوال جعد الشعر ، آدم اللون ، فينجيكم الله من أيدى القبط على يده . قال : فجعل كل من بنى إسرائيل يسمى ابنه عمران ويسمى عمران ابنه موسى . قال : وكان ليوسف ديك ، وكان عمره خمسمائة سنة ، فقال لهم يوسف : إنه يستقيم أمركم ما دام يصرخ فيكم هذا الديك ، فإذا ولد هذا الجبار يسكن فلا يصرخ مدة ولايته ، حتى إذا انقضت مدة ولايته وأذن الله تعالى بمولد هذا النبى فيصرخ هذا الديك ويعود إلى صراخه ، ويكون ذلك علامة انقضاء ملك الجبار وظهور نبى الله فى الأرض

فما زالوا يراعون الحال إلى أن سكن صراخ الديك فوَجموا له واكتأبوا ، وأيقنوا بوهى أركان دينهم وإظلال ما آذنهم به يوسف من مولد الجبار ، واعتزلوا لذلك واجمين إلى أن صرخ ذلك الديك فاستبشروا وتصدقوا وفرحوا واستيقنوا بالفرج والراحة . ثم مات يوسف عليه السلام ، وكان قد أوصى إلى أخيه يهوذا واستخلفه على بنى إسرائيل ، فتوفاه الله طيبا طاهرا ودفن فى النيل فى صندوق من رخام ، وذلك أنه لما مات تشاحّ الناس عليه كل يحب أن يدفن فى محلتهم لما يرجون من بركته حتى هموا بالقتال ، فرأوا أن يدفن فى النيل حيث تتفرق المياه بمصر ، فيمر الماء عليه ثم يصل إلى جميع مصر ، فيكونون كلهم فيه شرعا واحدا، ففعلوا ذلك ، وكان قبره فى النيل إلى أن حمله موسى عليه السلام معه حين خرج من مصر ببنى إسرائيل فنقله إلى الشام ودفنه بأرض كنعان خارج الحصن حيث هو اليوم فلذلك تنقل اليهود موتاهم إلى الشام من فعل ذلك فيهم .

وروى يونس بن عمران عن أبى موسى قال « نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعرابى فأكرمه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَكْرَمْتَنا فأَحْسَنْتَ سَلْ حاجتَكَ ، فقال : ناقة نرحلها وعنزة تحلبها أهلى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَعَجَزَ هذا أنْ يكونَ مِثْلَ عَجوزِ بَنِى إسْرائِيلَ ؟ فقالوا : يا رسول الله وما عجوز بنى إسرائيل ؟ فقال : إنَّ بَنِى إسْرائيلَ لَمَّا خَرَجوا ضَلُّوا الطَّرِيقَ وأَظْلَمَ عليهِم اللَّيْلُ ، فقالُوا ما هذا ؟ فقالَ عُلَماؤُهُمْ : إنَّ يوسُفَ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفاةُ أَخَذَ علَيْنا مَوْثِقا مِنَ اللهِ أنْ لا نَخْرُجَ مِنْ مِصْرَ حَتَّى نَنْقُلَ عِظامَهُ مَعَنا ، قالَ مُوسَى : فَمَنْ يَعْلَمُ مَوْضِعَ قَبْرِهِ ، قالُوا : عَجُوزٌ لِبَنِى إسْرائِيلَ ، فَبَعَثَ إليها مُوسَى ، فأَتَتْهُ فقالَ دُلِّينِى على قَبْرِ يوسُفَ ، فقالَتْ لَهُ : وتُعْطِينِى حُكْمِى قالَ : وَما حُكْمُكِ ؟ قالَتْ : أنْ أكُونَ مَعَكَ فى الجَنَّةِ ، فَكَرِهَ أنْ يُعْطِيَها حُكْمَها ، فأَوْحَى اللهُ إليهِ أنْ أَعْطِها حُكْمَها ، فَفَعَلَ » .

ويروى من طريق آخر «أن هذه العجوز كانت مقعدة عمياء ، فقالت لموسى : ألا أخبرك بموضع قبر يوسف ؟ قال نعم ، فقالت : له لا أخبرك حتى تعطينى أربع خصال : تطلق رجلىَّ ، وتعيد إلىَّ بصرى وشبابى ، وتجعلنى معك فى الجنة ، قال : فكبر ذلك على موسى ، فأوحى الله تعالى إليه أن أعطها ما سألت فإنك إنما تعطى علىَّ ففعل ، فانطلقت بهم إلى موضع عين فى مستنقع ماء فاستخرجوه من شاطئ النيل فى صندوق من مرمر ، فلما حملوا تابوته طلع القمر وأضاء الطريق مثل النهار فاهتدوا به وحملوه » .

وقال أهل التاريخ : عاش يوسف بعد موت يعقوب عليه السلام ثلاثا وعشرين سنة ، ومات وهو ابن مئةٍ وعشرين سنة ، صلوات الله عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

مجلس فى قصة موسى بن ميشا بن يوسف عليه السلام

وهو موسى الأول ، وقد ذكرنا فيما مضى أن يوسف عليه السلام ولد له ابنان : أحدهما يقال له إفرائيم ، والآخر ميشا ، وابنة يقال لها رحمة ، وهى امرأة النبى أيوب عليه السلام ، فولد لإفرائيم نون ، وولد لنون يوشع ، وهو فتى موسى بن عمران وخليفته على بنى إسرائيل وأما ميشا فولد له موسى ، فنبأه الله تعالى ؛ فزعم أهل التوراة أنه صاحب الخضر . والعامة من العلماء أن صاحب الخضر موسى بن عمران ، وكذلك روى عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال أهل العلم بالتاريخ : لما مات يعقوب ويوسف عليهما السلام ، وآل الأمر إلى الأسباط كثروا ونموا ، وظهر فيهم ملوك فغيروا سيرتهم وأفسدوا فى الأرض وفشا فيهم السحر والكهانة ، فبعث الله تعالى إليهم موسى بن ميشا رسولا يدعوهم إلى عبادة الله وأداء أمره وإقامة سننه ، وذلك قبل مولد موسى بن عمران بمائتى سنة ، فأطاعه قوم منهم وعصاه آخرون .

وقال وهب بن منبه وغيره : كان مما أوحى الله إليه : أن قل لقومك إنى برىء ممن سحر أو سحر له ، أو تكهن أو تكهن له ، أو تطير أو تطير له ، من آمن بى صادقا وتوكل على فإنى كنت له كافيا ومثيبا وكفيته هم دينه ودنياه وكنت له خير معين وهاد وكنت عند ظنه بى . ومن عدل عنى ووثق بغيرى فأنا أغنى الشركاء عن الشرك ، أكله إلى من وثق به دونى ، ومن وكلته إلى غيرى فليستعد للفتنة والعذاب ، ومن تباعد عنى كنت عنه أشد تباعدا ، ومن تقرب إلى كنت إليه أشد تقربا منه إلى ، وقل لعبادى لاتغفلوا عن ذكرى وليكثروا ذكر الموت عند كل شهوة ، فإنه يميت الشهوات واللذات كلها . قالوا : فلبث فيهم ما شاء الله أن يلبث ، يقيم أمرهم ويصلح أحوالهم ، ثم مات صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، والله تعالى أعلم .

مجلس فى ذكر بقية عاد ، وقصة شديد وشداد ، وصفة إرم ذات العماد

قال الله تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ) ... الآية .

روى سفيان عن منصور عن أبى وائل قال : إن رجلا يقال له عبد الله بن قِلابة خرج فى طلب إبل له قد ضلت : أى شردت ، فبينما هو فى بعض صحارى عدن فى تلك الفلوات إذ وقع على مدينة عليها حصن حول ذلك الحصن قصور عظيمة وأعلام طوال ، فلما دنا منها ظن أن فيها من يسأله عن إبله ، فلم ير فيها أحدا لا داخلا ولا خارجا ، فنزل عن ناقته وعقلها ، وسل سيفه ودخل من باب الحصن ، فإذا هو ببابين عظيمين لم ير فى الدنيا أعظم

منهما ولا أطول ، وإذا خشبهما من أطيب عود وعليهما نجوم من ياقوت أصفر وياقوت أحمر ضوؤها قد ملأ المكان . فلما رأى ذلك أعجبه ، ففتح أحد البابين فإذا هو بمدينة لم ير الراءون مثلها قط ، وإذا هو بقصور معلقة ، تحتها أعمدة من زبرجد وياقوت ، وفوق كل قصر منها غرف مبنية بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، على كل باب من أبواب تلك القصور مِصراع مثل مصراع باب تلك المدينة من عود رطب قد نضدت عليه اليواقيت ، وقد فرشت تلك القصور باللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران . فلما رأى ذلك ولم ير هناك أحدا أخذه الفزع ، ثم إنه نظر إلى الأزقة ، فإذا فى كل زقاق منها أشجار قد أثمرت وتحتها أنهار تجرى فى قنوات من فضة أشد بياضا من الثلج ، فقال : هذه الجنة التى وصفها الله لعباده فى الدنيا ، والحمد لله الذى أدخلنى الجنة ، ثم إنه حمل من لؤلؤها وبنادق المسك والزعفران ، ولم يستطع أن يقلع من زبرجدها شيئا ولا من يواقيتها لأنها كانت مثبتة فى أبوابها وجدرانها ، وكان اللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران منثورة بمنزلة الرمل فى تلك القصور والغرف ، فأخذ منها ما أراد ، وخرج حتى أتى ناقته فركبها ، ثم إنه سار يقفو أثر ناقته حتى رجع إلى اليمن فأظهر ما كان معه وأعلم الناس بأمره وباع بعض ذلك اللؤلؤ ، وكان قد اصفرّ وتغير لونه من طول الزمان الذى مر عليه ، ففشا خبره حتى بلغ معاوية بن أبى سفيان ، فأرسل رسولا إلى صاحب صنعاء ، وكتب إليه بإشخاصه ، فأشخص حتى قدم على معاوية ، فخلا به ، ثم سأله عما عاين ، فقص عليه أمر المدينة وما رأى فيها ، فاستعظم ذلك معاوية ، وأنكر ما حدّثه به ، وقال له : ما أظن ما تقوله حقا ، فقال له : يا أمير المؤمنين : إن معى من متاعها الذى هو مفروش فى قصورها وغرفها ، فقال له : وما هو ؟ قال : اللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران ، فقال له : أرنى إياه ، فعرض عليه مما حمله من تلك المدينة من اللؤلؤ وبنادق المسك ، فشم البنادق فلم يجد لها ريحا ، فأمر ببندقة منها فدقت ، فسطع ريحها مسكا وزعفرانا ، فصدقه عند ذلك ، ثم قال معاوية : كيف أصنع حتى أعرف اسم هذه المدينة ولمن هى ومن بناها ؟ والله ما أعطى أحد مثل ما أعطى سليمان بن داود عليه السلام ، وما أظن أنه كان له مثل هذه المدينة ، فقال له بعض جلسائه : ما كان لسليمان مدينة مثل هذه ، وما يوجد خبر هذه المدينة فى زماننا هذا إلا عند كعب الأحبار ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يبعث إليه ويأمر باشخاصه ويغيّب عنه هذا الرجل فى موضع هنا بحيث يسمع كلامه وحديثه ووصفه للمدينة حتى يتبين أمر هذه المدينة على مثل هذه الصفة ، فإن كعبا سيخبر أمير المؤمنين بخبرها وأمر هذا الرجل إن كان دخلها ، لأن مثل هذه المدينة على مثل هذه الصفة لا يستطيع هذا الرجل دخولها إلا أن يكون قد سبق له فى الكتاب دخولها فيعرف ذلك.

فأرسل معاوية إلى كعب الأحبار ، فلما حضر قال له : يا أبا إسحاق إنى دعوتك لأمر رجوت أن يكون علمه عندك ، فقال : يا أمير المؤمنين على الخبير سقطت ، سل عما بدا لك ،

فقال له : أخبرنا يا أبا إسحاق : هل بلغك أن فى الدنيا مدينة مبنية بالذهب والفضة؟ وعمدها من زبرجد وياقوت ، وحصى قصورها وغرفها اللؤلؤ ، وأنهارها فى الأزقة تجرى تحت الأشجار ؟ فقال كعب : والذى نفس كعب بيده : لقد ظننت أنى سأسأل قبل أن يسألنى أحد عن تلك المدينة وما فيها ، ولكن أخبرك بها يا أمير المؤمنين ولمن هى ومن بناها ؟

أما تلك المدينة فهى حق على ما بلغ أمير المؤمنين وعلى ما وصفت له ، وأما الذى بناها فشداد بن عاد ، وأما المدينة فهى إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، فقال له معاوية : يا أبا إسحاق حدثنا بحديثها يرحمك الله ، فقال كعب : يا أمير المؤمنين إن عادا كان له ابنان : سمى أحدهما شديدا ، والآخر شدادا ، فهلك عاد وبقى ولداه بعده ، فلكا وتجبرا وقهرا كل البلاد وأخذاها عنوة وقهرا حتى دان لهما جميع الناس ولم يبق أحد فى زمانهما إلا دخل فى طاعتهما ، لا فى شرق الأرض ولا فى غربها ، وإنهما لما صفا لهما ذلك وقر قرارهما مات شديد بن عاد وبقى شداد ، فملك وحده ولم ينازعه أحد ، وكانت له الدنيا كلها ، وكان مولعا بقراءة الكتب القديمة ، وكان كلما مر فيها على ذكر الجنة دعته نفسه أن يجعل تلك الصفة لنفسه فى الدنيا عتوا على الله تعالى وكفرا ، فلما وقر ذلك فى نفسه أمر بصنعة تلك المدينة التى هى إرم ذات العماد ، وأمَّر على صنعتها مائة قهرمان ، مع كل قهرمان ألف من الأعوان ، ثم قال لهم : انطلقوا إلى أطيب بقعة فى الأرض وأوسعها ، واعملوا لى فيها مدينة من ذهب وفضة وياقوت وزبرجد ولؤلؤ ، وتحت تلك المدينة أعمدة من زبرجد وياقوت ، وعلى المدينة قصور ، ومن فوق القصور غرف ، واغرسوا تحت القصور غرائس فيها أصناف الثمار كلها ، وأجروا فيها الأنهار تحت الأشجار ، فإنى أرى فى الكتب صفة الجنة ، وإنى أحب أن أتخذ مثلها فى الدنيا وأتعجل سكناها ، فقالت له قهارمته : كيف لنا بالقدرة على ما وصفت لنا من الزبرجد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة فنبنى منها مدينة كما وصفت لنا ؟ فقال لهم شداد : ألستم تعلمون أن ملك الدنيا كلها بيدى؟ قالوا بلى ، قال فانطلقوا إلى كل موضع به معدن من معادن الزبرجد والياقوت والذهب والفضة ، وأى بحر فيه لؤلؤ ، فوكلوا به من كل قوم رجالا تخرج لكم ما فى كل معدن من تلك الأرض ، ثم انطلقوا إلى ما فى أيدى الناس من ذلك فخذوه سوى ما يأتيكم به أصحاب المعادن ، فإن معادن الدنيا فيها كثير من ذلك ، وفيها مما لا تعلمون أكثر وأعظم مما كلفتم به من صنعة هذه المدينة .

قال : فخرجوا من عنده ، وكتب معهم إلى كل ملك فى الدنيا كتابا يأمره أن يجمع لهم ما فى بلاده من الجواهر وأن يحفر معادنها ، فانطلق هؤلاء القهارمة وأعطوا كل ملك من الملوك كتابا بأخذ ما يوجد فى مملكته ، فبقوا على تلك الحالة عشر سنين حتى جمعوا ما يحتاجونه إلى إرم ذات العماد من الزبرجد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة ، وأخذوا موضعا كما أراد ووصف لهم ، فقال معاوية : يا أبا إسحاق : كم عدد أولئك الملوك الذين كانوا

تحت يد شداد ؟ قال : كانوا مائتين وستين ملكا . قال : فخرج عند ذلك الفعلة والقهارمة فتفرجوا فى الصحارى ليتخذوا ما يوافق غرضه ، فلم يجدوا ذلك إلا فى أرض أبين من بلاد عدن ، فوقعوا بها على صحراء عظيمة نقية من التلال والجبال ، وإذا هم بعيون مطردة فقالوا : هذه صفة الأرض التى أمرنا بها ، فأخذوا بقدر ما أمرهم به من العرض والطول ثم جعلوا لها حدودا محدودة ، ثم عمدوا إلى مواضع الأزقة التى فيها الماء فأجروا فيها القنوات لتلك الأنهار ، ثم وضعوا الأساس من صخور الجزْع اليمانى ، وعجنوا طين ذلك الأساس من دهن البان والمحلب . فلما فرغوا من وضع الأساس وأجروا فيها القنوات ، أرسل الملوك إليهم الجواهر والذهب والفضة ، فنهم من بعث بالعمد مضروبة ، ومنهم من بعث بالذهب والفضة مصنوعة مفروغا منها ، فدفعوا كل ذلك إلى أولئك القهارمة والوزراء ، فأقاموا فيها حتى فرغوا من بنائها على ما أراد شداد ، فقال له معاوية : يا أبا إسحاق إنى لأحسبهم أقاموا فى بنائها زمانا من الدهر ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إنى لأجد فى التوراة أنهم أقاموا فى بنائها ثلثمائة سنة ، فقال معاوية : كم كان عمر شداد صاحبها ؟ قال : كان عمره سبعمائة سنة ، فقال له معاوية : يا أبا إسحاق لقد أخبرتنا خبرا عجيبا فحدثنا ، فقال : يا أمير المؤمنين إنما سماها الله تعالى إرم ذات العماد من أجل العماد التى تحتها من الزبرجد والياقوت ، وليس فى الدنيا مدينة من الزبرجد والياقوت غيرها ، فلذلك قال (الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَادِ) .

قال كعب : إنهم لما أتوه وأخبروه بفراغهم منها ، قال : انطلقوا فاجعلوا عليها حصنا ، واجعلوا حول الحصن ألف قصر ، عند كل قصر ألف علم ، ويكون فى كل قصر من تلك القصور وزير من وزرائى ، ويكون كل علم منها عليه ناطور ، فرجعوا وعملوا تلك القصور والأعلام والحصن ، ثم إنهم أتوه فأخبروه بالفراغ مما أمرهم به ، قال : فأمر ألف وزير من خاصته أن يهيئوا أسبابهم ويعملوا على النقلة إلى إرم ذات العماد ، وأمر رجالا أن يسكنوا تلك الأعلام وأن يقيموا فيها ليلهم ونهارهم ، وأمر لهم بالعطاء والأرزاق ، وأمر الملك من أراد من نسائه وخدمه أن يتجهزوا إلى إرم ذات العماد ، فأقاموا فى جهازهم عشرين سنة ، ثم سار الملك بمن أراد إلى أرض أبين ، وخلف من قومه أكثر مما سار به . فلما استقل وسار إليها ليسكنها وبلغ منها موضعا وبقى بينه وبين دخولها مسيرة يوم وليلة ، بعث الله تعالى عليه وعلى كل من كان معه صيحة من السماء فأهلكتهم جميعا ، ولم يبق أحد منهم ، ولم يدخل شداد ولا من كان معه إرم ذات العماد ، ولم يقدر أحد منهم على الدخول فيها حتى الساعة . فهذه صفة إرم ذات العماد ، وإنه سيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك هذا ويرى ما فيها فيحدث بما عاين ولا يصدق ، فقال له معاوية : يا أبا إسحاق هل تصفه لنا ؟ قال : نعم هو رجل أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال ،

يخرج فى طلب إبل له فى تلك الصحارى فيقع على إرم ذات العماد ، فيدخلها ويحمل مما فيها وكان الرجل جالسا عند معاوية ، فالتفت كعب فرأى الرجل فقال له : هو ذاك الرجل يا أمير المؤمنين قد دخلها فاسأله عما حدثت به ، فقال معاوية : يا أبا إسحاق إن هذا من خدمى ولم يفارقنى ، قال : قد دخلها وإلا سوف يدخلها وسيدخلها أهل هذا الدين فى آخر الزمان ، فقال معاوية : يا أبا إسحاق لقد فضلك الله على غيرك من العلماء ، ولقد أعطيت من علم الأولين والآخرين ما لم يعطه أحد ، فقال : يا أمير المؤمنين والذى نفس كعب بيده ما خلق الله فى الأرض شيئا إلا وقد فسره فى التوراة لعبده موسى عليه السلام تفسيرا ، وإن هذا القرآن أشد وعيدا ، وكفى بالله شهيدا ووكيلا .

قال الشعبى : أخبرنا دغفل الشيبانى عن رجل من حضرموت يقال له بسطام ، أنه وقع على حفيرة شداد بن عاد فى جبل من جبال حضر موت مطلّ على البحر ، قال : كنت أسمع فى صباى إلى أن اكتهلت بمغارة فى جبل من جبالها وأن الناس تهيَّب دخولها ، فلم أحفل بما كنت أسمع من ذلك ، فبينما أنا فى نادى قومى إذ أنشدوا حديث تلك المغارة وأطنبوا فى ذكرها ووصفوا موضعها ، فقلت لقومى إنى غير منته عن هذه المغارة حتى أدخلها ، فهل فيكم من يساعدنى ؟ فقال فتى منهم حديث السن : أنا أصاحبك ، فقلت : يا بن أخى أتجسر على ذلك ؟ قال : عندى ما عند رجل من شدة الجأش وقوة القلب ، فهيأنا شمعة وحملنا معنا أدوات عظيمة مملوءة ماء وطعاما مقدار ما يقوم بنا ونقدر على حمله ، ثم مضينا نحو ذلك الجبل الذى فيه المغارة ، وكان مشرفا على البحر فى المكان الذى يركب منه أهل حضرموت البحر ، فلما انتهينا إلى باب تلك المغارة حزمنا علينا ثيابنا وأشعلنا الشمعة ، ثم ذكرنا الله تعالى ودخلناها ومعنا تلك الأدوات من الماء والطعام ، فإذا مغارة عظيمة عرضها عشرون ذراعا وطولها علوا نحو خمسين ذراعا ، فمشينا فيها وهوينا فى طريق أملس مستو ، ثم أفضينا إلى درج عادية عرض الدرجة عشرون ذراعا فى سمك عشرة أذرع فحملنا أنفسنا على نزول تلك الدرج ، فقلت لصاحبى : هلم إلىّ يدك فكنت آخذ بيده حتى ينزل ، فإذا نزل وقام فى الدرجة تعلقت بطرف الدرجة وتشبثت حتى يتناول رجلى على منكبه ، فلم نزل كذلك وذلك دأبنا عامة يومنا حتى نزلناها ، وكانت مقدار مائة درجة فأفضينا إلى أزَج عظيم محفور فى الجبل فى طول مائة ذراع وعرض أربعين ذراعا وسمكه فى السماء قدر مائة ذراع ، وفى صدره سرير من ذهب منضد بصنوف الجواهر وفوقه رجل عادى عظيم الجسم قد أخذ طول ذلك الأزَج وعرضه ، وهو مضطجع على ظهره كهيئة النائم ، وعليه سبعون حلة بمقدار طوله وعرضه منسوجة تلك الحلل بقضبان الذهب والفضة ، وإذا ذلك الأزج يضىء من ثقب ، عرضه ذراعان وارتفاعه ثلاثة أذرع خارجا إلى فضاء لم يدر ما هو ؟ وإذا على رأس السرير لوح من ذهب عظيم فيه كتابة مالها مثل ، وهى كتابة

كاتب عاد كتبها فى زمانه ، محفورة تلك الكتابة فى اللوح حفرا ، فطلعنا ودنونا من ذلك الرجل ومسسنا تلك الحلل فصارت رميا وبقيت قضبان الذهب قائمة ، فجمعناها فكانت مقدار مائة رطل فجعلناها فى أزرنا وأرديتنا ، وأردنا قلع شيء من تلك الجواهر المنضد بها السرير فلم نقدر عليها لوثاقتها ، فتركناها وهجم علينا الليل ، ونحن فى ذلك الأزج ، وعرفنا ذهاب النهار بذهاب ذلك الضوء الذى كان يدخل من ذلك الثقب ، فبتنا ليلتنا فى ذلك الأزج وطفئت الشمعة التى كانت معنا ، فلما أصبحنا قلت لصاحبى ما ترى ؟ قال : أما الرجوع من حيث جئنا فلا سبيل إليه ، لارتفاع هذه الدرج ، وإنا لانستطيع صعودها لا سيما والشمعة قد طفئت ، ولكن هلمّ بنا نلزم هذا الضوء الذى نراه فى هذا الثقب فإنى أرجو أن نخرج منه إلى الفضاء إن شاء الله تعالى ، فقلت له : لعمرى إنّ هذا لهو الرأى ، فنهضنا بما معنا من تلك القضبان التى من الذهب ، وحملنا معنا ذلك اللوح الذى كان عند رأس السرير وسرنا من ذلك الثقب ، فلم نزل نمشى فى طريق ضيق مقدار مائة ذراع حتى خرجنا منه إلى كهف فى ذلك الجبل كهيئة الحائط ، وقد حف بذلك الكهف البحر ، فجلسنا على باب ذلك الثقب ثلاثة أيام بلياليها نتمرّن ببقية الماء والطعام الذى كان معنا . فلما كان اليوم الرابع نظرنا إلى مركب قد أقبل فى البحر فلوّحنا إليه ، فنظر إلينا أهله ، فأرسلوا لنا القارب ، فنزلنا من باب ذلك الثقب نزولا شاقا حتى وثبنا إلى القارب . فلما خرجنا من البحر اقتسمنا ذلك الذهب بيننا وصار ذلك اللوح إلىّ بقسطى . ثم إن أنفسنا دعتنا إلى العود إلى ذلك السرب مما يلى الثقب ، فركبنا قاربا وسرنا فى البحر نحو المكان الذى خرجنا منه فخفى علينا مكانه ، فعلمنا أنا لم نرزق منه إلا ما أخذنا فرجعنا ، وإن اللوح مكث عندى حولا لا أحد يقرؤه لى حتى أتانا رجل من أهل صنعاء حميرىّ كان يحسن قراءة تلك الكتابة ، فأخرجنا إليه اللوح فقرأه ، فاذا فيه مكتوب هذه الأبيات :

اعتبر بى أيها المغـرور بالعمر المديد
أنا شـدّاد بن عاد صاحب الحصن العميد
وأخـو القوة والبأ ساء والملك الحشيد
دان أهل الأرض طرا لى من خوف وعيـد
وملكت الشرق والغر ب بسلطان شـديد
وبفضل الملك والعد ة فيـه والعـديد
جاءنا هـود وكنا فى ضلال قبل هود
فـدعانا لو قبلنا كان بالأمر الرشيد
فعصـيناه وناديناه ألا هل من محيـد
فأتتنا صـيحة تهـوى من الأفق البعيد
فتـوافينا كزرع وسط بيداء حصيد

قال دغفل : سألت علماء حمير عن شداد ، وقلت إنه أصيب وقد كان دنا من إرم ذات العماد ، فكيف وجد فى تلك المغارة وهى بحضرموت ؟ فقالوا : إنه لما هلك هو ومن معه من الصيحة على مرحلة من تلك المدينة ملك من بعده مزيد بن شداد ، وقد كان أبوه خلفه على ملكه بحضرموت ، فأمر بحمل أبيه إلى حضرموت ، فحمل مطليا بالصبر والكافور ، ثم أمر بحفر تلك المغارة ، فحفرت واستودعه فيها على ذلك السرير الذى من الذهب ، والله أعلم .

مجلس : فى ذكر قصة أصحاب الرس

قال الله تعالى (وعاداً وثمودَ وأصحابَ الرَّسِّ) اختلف العلماء من أهل التفسير وأصحاب الأقاصيص فيهم ، فقال سعيد بن جبير والكلبى والخليل بن أحمد ، دخل كلام بعضهم فى بعض ، وكل أخبر بطائفة من حديث أصحاب الرس : إن أصحاب الرس بقية ثمود قوم صالح ، وهم أصحاب البئر التى ذكرها الله تعالى فى كتابه فى قوله تعالى (وبئرٍ معطَّلةٍ وقصرٍ مشيدٍ) وكانوا بفلج اليمامة نزولا على تلك البئر ، وكل ركية لم تطو بالحجارة والآجرّ فهى رسّ . وكان لهم نبى يقال له حنظلة بن صفوان ، وكان بأرضهم جبل يقال له فتح ، مصعدا فى السماء ميلا ، وكانت العنقاء تبيت به ، وهى كأعظم ما يكون من الطير وفيها من كل لون ، وسموها العنقاء لطول عنقها ، وكانت فى ذلك الجبل تنقضّ على الطير فتأكلها ، فجاعت ذات يوم وأعوزها الطير ، فانقضت على صبىّ فذهبت به ، فسلميت عنقاء مغرب ، لأنها تغرب بما تأخذه ؛ ثم انقضت على جارية حين ترعرعت فأخذتها فضمتها إلى جناحين صغيرين لها سوى الجناحين الكبيرين ، فشكوا ذلك إلى نبيهم ، فقال : اللهم خذها واقطع نسلها ، وسلط عليها آية تذهب بها ، فأصابتها صاعقة فاحترقت فلم ير لها أثر بعد ذلك فضربت بها العرب مثلا فى أشعارها وحكمها وأمثالها ، ثم إن أصحاب الرس قتلوا نبيهم فأهلكهم الله تعالى .

وقال بعض العلماء : بلغنى أنه كان رسّان ، أما أحدهما فكان أهله أهل بدو وعمود وأصحاب غنم ومواش ، فبعث الله إليهم نبيا فقتلوه ، ثم بعث إليهم رسولا آخر وعضده بولى ، فقتلوا الرسول وجاهدهم الولى حتى أفحمهم ، وكانوا يقولون : إلهنا فى البحر وكانوا على شفيره ، وكان يخرج إليهم من البحر شيطان فى كل شهر خرجة ، فيذبحون عنده ويتخذونه عيدا ، فقال لهم الولى : أرأيتم إن خرج إلهكم الذى تدعونه وتعبدونه إلىّ وأطاعنى أتجيبوننى إلى ما دعوتكم إليه ؟ قالوا : بلى ، فأعطوه على ذلك العهود والمواثيق ، فانتظر حتى خرج ذلك الشيطان على صورة حوت راكبا أربعة أحوات ، وله عنق مستعلية على رأسه مثل التاج ، فلما نظروا إليه خروا له سجدا ، فخرج الولى إليه وقال له : ائتنى

طوعا أو كرها باسم الله الكريم ، فنزل عند ذلك من على إخوته ، فقال له الولى : ائتنى راكبا عليهن لئلا يكون القوم من أمرهم على شك ، فأتى الحوت وأتت به الحيتان حتى أفضوا به إلى البرية يجرونه ويجرهن ، فلما رأوا ذلك سخروا به وكذبوه ونقضوا العهود ، فبعث الله إليهم ريحا فألقتهم فى البحر ومواشيهم جميعا وما كانوا يملكون من ذهب وفضة وآنية ، فأتى الولى الصالح إلى البحر وأخذ الذهب والفضة والأوانى ، فقسمها على أصحابه بالسوية حتى الصغير والكبير وانقطع ذلك النسل .

وأما الآخر ، فإنهم قوم كان لهم نهر يدعى الرس ينسبون إليه ، وكان فيهم أنبياء كثيرة لا يقوم فيهم نبىّ إلا قتلوه ، وذلك النهر بمنقطع أذربيجان ، فإذا قطعته مدبرا دخلت فى حدّ أرمينية ، وإذا قطعته مقبلا دخلت فى حدّ أذربيجان ، وكان من حولهم من أهل أرمينية يعبدون الأوثان ، ومن قدامهم من أهل أذربيجان يعبدون النيران ، وهم كانوا يعبدون الجوارى العذارى ، فإذا تمت لإحداهن ثلاثون سنة قتلوها واستبدلوا غيرها ، وكان عرض نهرهم ثلاثة فراسخ ، وكان يرتفع فى كل يوم وليلة حتى يبلغ أنصاف الجبال التى حوله ، وكان لاينصبّ فى بحر ولا بر ، فإذا خرج من حدهم يقف ويدور ، ثم يرجع إليهم ، فبعث الله تعالى إليهم ثلاثين نبيا فى شهر واحد ، فقتلوهم جميعا ، فبعث الله تعالى إليهم نبيا وأيده بنصره ، وبعث معه وليا فجاهدهم فى الله حق جهاده ، ثم بعث إليه ميكائيل حين نابذوه ، وكان فى أوان وقوع الحب فى الأرض ، وكانوا عند ذلك أحوج ما يكونون إلى الماء ، فحفر نهرا فى البحر وانصبّ ما فى أسفله وأتى إلى عيونه من فوق فسدها وبعث الله إليه خمسمائة من الملائكة أعوانا له ، ففرّقوا ما بقى فى وسط نهرهم ، ثم أمر الله جبريل فنزل ، فلم يدع فى أرضهم عينا ولا نهرا إلا أيبسه باذن الله تعالى ، وأمر ملك الموت فانطلق إلى المواشى فأماتها دفعة واحدة ، وأمر الرياح الأربع : الجنوب والشمال والدبور والصبا ، فضمت ما كان لهم من متاع ، وألقى الله تعالى عليهم السُّبات ، ثم خفقت الرياح الأربع بذلك المتاع أجمع فرمته فى رءوس الجبال وبطون الأودية . وأما ما كان من حلى وتبر وآنية ، فإن الله تعالى أمر الأرض فابتلعته ، فأصبحوا لاشاة عندهم ولا بقرة ولا مال يعودون إليه ، ولا ماء يشربونه ولا طعاما يأكلونه ، فآمن بالله عند ذلك قليل منهم ، وهداهم الله إلى غار فى جبل له طريق من خلفه ، فنجوا وكانوا أحدا وعشرين رجلا وأربع نسوة وصبيين ، وكان عدة الباقى من الرجال والنساء والذرارى ستمائة ألف ماتوا عطشا وجوعا ،ولم يبق منهم باقية ، ثم عاد القوم إلى منازلهم فوجدوها قد صار أعلاها أسفلها ، فدعا القوم عند ذلك مخلصين لله أن يجيئهم بماء وزرع وماشية ويجعله قليلا لئلا يطغوا ، فأجابهم الله تعالى إلى ذلك لما علم من صدق نياتهم وإخلاصهم وقالوا : إنه لايبعث الله رسولا إلى من يليهم ويقاربهم إلا أعانوه وصدقوه ، وعضدوه فعلم الله منهم الصدق ،

فأطلق لهم نهرهم وزادهم على ما سألوه ، فأقام أولئك القوم فى طاعة الله ظاهرا وباطنا حتى مضوا وانقرضوا ، فحدث من بعدهم من نسلهم قوم أطاعوا الله فى الظاهر ونافقوا فى الباطن ، وأملى الله تعالى لهم وكان عليهم قادرا ، وكانت معاصيهم أكثر من طاعتهم ، وخالفوا أولياء الله ، فبعث الله عليهم من فارقهم وخالفهم ، فأسرع فيهم القتل وبقيت منهم شرذمة ، فسلط الله عليهم الطاعون فلم يبق منهم أحد ، وبقى نهرهم ومنازلهم وما فيها مائتى عام لايسكنها أحد . ثم أتى الله بقوم بعد ذلك فنزلوها ،وكانوا صالحين ، فأقاموا فيها ستين سنة ، ثم أحدثوا فاحشة ، فجعل الرجل يدعو بنته وأخته وزوجته فيبيت معها جاره وأخاه أو صديقه يلتمس بذلك البر والصلة ، ثم ارتفعوا من ذلك إلى نوع آخر ، ترك الرجال النساء حتى شبقن ، واستغنى الرجال بالرجال ، فجاءت للنساء شيطانة فى صورة امرأة ، وهى الدلهان بنت إبليس ، وهى أخت الشيطان ، وكانا فى بيضة واحدة ، فشهت للنساء ركوب بعضهن ، وعلمتهن كيف يصنعن ، فأصل ركوب النساء بعضهن بعضا من الدلهان ، فسلط الله تعالى على هؤلاء القوم صاعقة فى أول ليلهم وخسفا فى آخره وصيحة مع الشمس فلم يبق منهم باقية وبادت منازلهم ، ولا أحسب منازلهم اليوم مسكونة .

وروى على بن الحسين زين العابدين عن أبيه عن جده على بن أبى طالب رضوان الله عليهم : أن رجلا من أشراف بنى تميم يقال له عمر ، أتاه فقال : يا أمير المؤمنين أخبرنى عن أصحاب الرس ، وفى أىّ عصر كانوا ، وأين كانت منازلهم ؟ ومن كان ملكهم ، وهل بعث الله إليهم رسولا أم لا ، وبماذا أهلكوا ؟ فإنى أجد فى كتاب الله عز وجل ذكرهم ولا أجد خبرهم ، فقال له أمير المؤمنين على رضى الله عنه : لقد سألتنى عن حديث ما سألنى عنه أحد قبلك ولا يحدثك به أحد بعدى ، كان من قصتهم يا أخا تميم : أنهم كانوا قوما يعبدون شجرة صنوبر يقال لها شاب درخت ، وكان يافث بن نوح غرسها على شفير عين ، يقال لها دوسان كانت نبعت لنوح عليه السلام بعد الطوفان ، وإنما سموا أصحاب الرس لأنهم رسوا نبيهم فى الأرض ، وذلك قبل سليمان بن داود عليهما السلام ، وكان لهم اثنتا عشرة قرية على شاطئ نهر ، يقال له الرس من بلاد المشرق ، وبهم سمى ذلك النهر ، ولم يكن يومئذ فى الأرض نهر أغزر منه ولا أعذب منه ولا قرى أكثر سكانا وعمرانا منها ، وكان أعظم منازلهم اسفنديا ، وهى التى كانت ينزلها ملكهم ، وكان يسمى تركون بن عابور بن نوش بن سارب بن النمروذ بن كنعان فرعون إبراهيم عليه السلام ، وفيها العين التى يسقون منها الصنوبرة التى كانوا يعبدونها ، وقد غرسوا فى كل قرية منها حبة من طلع تلك الصنوبرة ، فتنبت تلك الحبة وتصير شجرة عظيمة ، ثم حرموا ماء تلك العين والأنهار ، فلا يشربون منها ، لاهم ولا أنعامهم ، ومن فعل ذلك قتلوه ، ويقولون هى حياة آلهتنا فلاينبغى لأحد أن ينقص من حياتها ويشربون هم وأنعامهم من نهر الرس الذى عليه

قراهم ، وقد جعلوا فى كل شهر من السنة فى كل قرية عيدا يجتمع إليه أهلها ويضربون على تلك الشجرة مظلة من الحرير فيها أصناف الصور ، ثم يأتون بشياه وبقر فيذبحونها قربانا للشجرة ويشعلون فيها النيران بالحطب الكثير ، فإذا سطع دخان تلك الذبائح وقتارها وبخارها فى الهواء وحال بينهم وبين النظر للسماء خروا سجدا للشجرة يبكون ويتضرعون إليها أن ترضى عنهم ، وكان الشيطان يجىء فيحرك أغصانها ويصيح فى ساقها صياح الصبى : عبادى قد رضيت عنكم ، فطيبوا نفسا وقرّوا عينا ، فيرفعون عند ذلك رءوسهم ويشربون الخمر ويضربون المعازف ، فيكونون على ذلك يومهم وليلتهم ، ثم ينصرفون ، حتى إذا كان عيد قريتهم العظمى اجتمع إليه صغيرهم وكبيرهم ، فيضربون عند شجرة الصنوبر والعين سرادقا من ديباج وعليه أنواع الصور ، له اثنا عشر بابا ، كل باب لأهل قرية منهم ، فيسجدون للصنوبرة من خارج السرادق ، ويقربون إليها الذبائح أضعاف ما قربوا للشجرة التى فى قراهم ، فيجىء إبليس عند ذلك فيحرك الصنوبرة تحريكا شديدا ويتكلم من جوفها كلاما جهوريا يعدهم ويمنيهم بأكثر مما وعدتهم الشياطين جميعا ، فيرفعون رءوسهم من السجود ، ولهم من الفرح والسرور ما لايفيقون ولايتكلمون معه ، فيديمون الشرب والمعازف ويكونون على ذلك اثنى عشر يوما وليلة بعدد أعيادهم فى السنة ، ثم إنهم ينصرفون .

فلما طال كفرهم بالله تعالى وعبادتهم غيره بعث الله إليهم نبيا من بنى إسرائيل من ولد يهوذا بن يعقوب ، فلبث فيهم زمانا طويلا يدعوهم إلى الله تعالى ويعرفهم بربوبيته فلا يتبعونه ولا يسمعون مقالته ، فلما رأى شدة ما هم فيه من الغىّ والضلالة وتركهم قبول ما دعاهم إليه من الرشد والصلاح حضر عند قريتهم العظمى ، وقال : يارب إن عبادك أبوا تصديقى ودعوتى إليهم ، وما أرادوا إلا تكذيبى والكفر بك ، ثم غدوا يعبدون شجرة لاتنفع ولا تضر فأيبس شجرهم أجمع وأرهم قدرتك وسلطانك ، فأصبح القوم وقد يبس شجرهم كله ، فهالهم ذلك وخضعوا ، فصاروا فرقتين : فرقة قالوا : سحر هذا الرجل الذى زعم أنه رسول رب السماء آلهتكم ليصرف وجوهكم عنها إلى إلهه . وفرقة قالت : بل غضبت عليكم آلهتكم حين رأت هذا الرجل يعيبها ويقع فيها ويدعوكم إلى عبادة غيرها فحجبت حسنها وبهاءها وجمالها لكى تغضبوا لها فتنتصروا منه ، فأجمعوا أمرهم على قتله ، فاتخذوا مثال بيت واتخذوا أنابيب طوالا من رصاص واسعة الأفواه ، ثم إنهم أرسلوها إلى قرار العين واحدة فوق الأخرى مثل البرابخ ونزحوا ما فيها من الماء ، ثم حفروا فى قعرها بئرا ضيقة العين عميقة فرسوا فيها نبيهم وألقوا على فيها صخرة عظيمة ، ثم أخرجوا الأنابيب من الماء وقالوا : الآن نرجو أن ترضى عنا آلهتنا إذا رأت أنا قتلنا من كان يقع فيها ويصد عن عبادتها وأنا دفناه تحت كبيرها يتشفى فيه ، فيعود لها نورها ونضرتها كما كان ، فبقوا على ذلك عامة يومهم ويسمعون أنين نبيهم وهو يقول : سيدى ومولاى ترى ضيق مكانى

وشدة كربى ، فارحم ضعف ركنى وقلة حيلتى وعجل قبض روحى ولا تؤخر إجابة دعوتى حتى مات عليه السلام ، فقال الله تعالى لجبريل عليه السلام : انظر عبادى هؤلاء الذى غرهم حلمى وأمنوا مكرى وعبدوا غيرى وقتلوا رسلى ، وأنا المنتقم ممن عصانى ولم يخش عقابى ، وإنى حلفت بعزتى لأجعلنهم عبرة ونكالا للعالمين ، فبينما هم فى عيدهم إذ غشيتهم ريح عاصف حمراء ، فتحيروا فيها وذعروا منها وتضامّ بعضهم إلى بعض ، ثم إن الأرض صارت من تحتهم كحجر كبريت تتوقد ، وأظلتهم سحابة سوداء فألقت عليهم حجرا كالقبة يلتهب ، فأذاب أبدانهم كما يذوب الرصاص فى النار ، فنعوذ بالله من غضبه ودرك نقمته ، إنه هو السميع العليم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ، والله أعلم .

مجلس : فى ذكر قصة نبى الله أيوب وبلائه عليه السلام

قال الله تعالى (واذْكُرْ عَبْدَنا أيُّوبَ إذْ نادَى رَبَّهُ) الآية . وقال تعالى (وأيُّوبَ إذْ نادَى رَبَّهُ أنى مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأنْتَ أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) .

قال وهب وكعب وغيرهما من أهل الكتب : كان أيوب رجلا من الروم ، وكان رجلا طويلا عظيم الرأس ، جعد الشعر ، حسن العينين والخلق ، قصير العنق ، غليظ الساقين والساعدين ، وكان مكتوبا على جبهته المبتلى الصابر ، وهو أيوب بن أموص بن تارح بن روم بن عيص بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام ، وكانت أمه من ولد لوط بن هاران ، وكان الله قد اصطفاه ونبأه وبسط عليه الدنيا ، وكان له الثنية من أرض الشام كلها سهلها وجبلها وما كان فيها ، وكان له من أصناف المال كله : من الإبل والبقر والغنم والخيل والحمير ما لايكون لرجل أفضل منه فى العدة والكثرة ، وكان له بها خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد ، لكل عبد امرأة وولد ومال ، ويحمل آلة كل فدان أتان ، ولكل أتان ولد من الاثنين إلى فوق الخمسة ، وكان الله أعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء ، وكان امرأً تقيا رحيما بالمساكين يكفل الأرامل والأيتام ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل ، وكان شاكرا لأنعم الله تعالى مؤديا لحقه ، قد امتنع من عدو الله إبليس أن يصيبه منه ما أصاب من أهل الغنى من الغرة والغفلة والتشاغل والسهو عن أمر الله تعالى بما هو فيه من الدنيا ، وكان معه ثلاثة قد آمنوا به وصدقوه وعرفوا فضله ، رجل من أهل اليمن يقال له اليفن ، ورجلان من أهل بلاده ، يقال لأحدهما مالك ، وللآخر ظافر ، وكانوا كهولا .

قال وهب : إن لجبريل عليه السلام بين يدى الله مقاما ليس لأحد من الملائكة مثله فى القربة والفضيلة ، وإن جبريل هو الذى يتلقى الكلام ، فإذا ذكر الله تعالى عبدا بخير تلقاه جبريل ثم ميكائيل ثم من حوله من الملائكة المقربين والحافين من حول العرش ، فإذا شاع ذلك فى الملائكة المقربين صارت الصلاة على ذلك العبد من أهل السموات ، فاذا صلت

عليه ملائكة السموات هبط عليه بالصلاة إلى ملائكة الأرض ، وكان إبليس لايحجب عن شىء من السموات ، وكان يقف فيهن حيثما أراد ، ومن هناك وصل إلى آدم حين أخرجه من الجنة ، فلم يزل على ذلك يصعد إلى السماء حتى رفع الله تعالى عيسى عليه السلام ، فحجب عن أربع ، وكان يقعد فى ثلاث ، فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم حجب عن الثلاثة الباقية ، فهو وجنوده محجوبون عن جميع السموات إلى يوم القيامة « إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ » قال : فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب ، وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه ، فأدركه البغى والحسد ، وصعد سريعا حتى صعد فى السماء موقفا كان يقفه، فقال : يا إلهى نظرت فى أمر عبدك أيوب فوجدته عبدا أنعمت عليه فشكرك ، وعافيته فحمدك ، ثم لم تختبره لابشدة ولا بلاء ، وأنا لك زعيم لئن ضربته ببلاء ليكفرن بك ولينسينك ، فقال الله تعالى : انطلق إليه فقد سلطتك على ماله ، فانقضّ عدو الله حتى بلغ الأرض ، ثم جمع عفاريت الشياطين وعظماءهم فقال لهم : ماذا عندكم من القوة والمعرفة ؟ فإنى قد سلطت على مال أيوب ، وزوال المال هو المصيبة الفادحة ، والفتنة التى لاتصبر عليها الرجال ، فقال عفريت من الشياطين : أعطيت من القوة ما لو شئت تحولت إعصارا من نار فأحرقت كل شىء آتى عليه ، فقال له إبليس : فأت الإبل فأحرقها ورعاتها ، فانطلق يؤمّ الإبل ، وذلك حين وضعت رءوسها وثبتت فى مراعيها ، فما تشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصار من نار تنفخ فيه رياح السموم ، لايدنو منها أحد إلا احترق ، فلم يزل يحرقها ورعاتها حتى أتى على آخرها .

فلما فرغ منها تمثل إبليس على قعود منها فى صفة راعيها ، ثم انطلق يؤمّ أيوب حتى وجده قائما يصلى ، فقال له : يا أيوب ، قال : لبيك ، فقال : هل تدرى ما الذى صنع ربك الذى اخترته وعبدته ، بإبلك ورعاتها ؟ فقال أيوب : إنها ماله أعارنيها وهو أولى بها ، إن شاء تركها وإن شاء أخذها ، وقد تحققت وطيبت النفس أنى ومالى للفناء والزوال ، فقال له إبليس ، فإن ربك أرسل إليها نارا من السماء فاحترقت كلها ، وبقى الناس مبهوتين وقوفا عليها يتعجبون منها ، فمنهم من يقول : ما كان أيوب يعبد شيئا وما كان إلا فى غرور ؛ ومنهم من يقول : لو كان إله أيوب يقدر على أن يصنع شيئا لمنع وليه من حرق مواشيه ؛ ومنهم من يقول : بل هو الذى فعل ما فعل فشمت به عدوه وفجع به صديقه ، فقال أيوب : الحمد لله الذى أعطانى ، وحيث شاء نزع منى ، عريانا خرجت من بطن أمى ، وعريانا أعود إلى القبر ، وعريانا أحشر إلى ربى .

ليس ينبغى لك أن تفرح حين أعارك الله، وتجزع حين قبض عاريته ، فهو أولى بك وبما أعطاك ، ولو علم الله فيك أيها العبد خيرا لنقل روحك مع تلك الأرواح وصيرك شهيدا مع الشهداء ، ولكنه علم فيك شرا فأخرك وخلصك من البلاء كما يخلص الزوان من القمح الخالص . فرجع إبليس إلى أصحابه خائبا ذليلا وقال لهم : ماذا عندكم من القوة؟ إنى لم أكلم

قلبه ، فقال عفريت من عظمائهم : عندى من القوة ما لو شئت صحت صوتا لايسمعه ذو روح إلا خرجت مهجة نفسه ، فقال له إبليس : فائت الغنم ورعاتها ، فانطلق يؤم الغنم ورعاتها حتى إذا توسطها صاح صوتا ماتت منه الغنم جميعا وماتت رعاتها ، ثم إن إبليس خرج متمثلا بقهرمان الرعاة ، حتى جاء إلى أيوب وهو قائم يصلى ، فقال له مثل قوله الأول ، وردّ عليه أيوب مثل ما قال فى النوبة الأولى . ثم إن إبليس رجع إلى أصحابه فقال : ماذا عندكم من القوة ، فانى لم أكلم قلب أيوب ؟ فقال عفريت من عظمائهم : عندى من القوة ما إذا شئت تحولت ريحا عاصفا تنشف كل شىء تأتى عليه حتى لايبقى منه شىء ، فقال له إبليس : فأت الفدادين والحرث فانطلق يؤمهم حتى قرب من الفدادين واستوى فى الحرث وأولا دهم رتوع فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصف فنشفت كل شىء من ذلك حتى كأنه لم يكن . ثم إن إبليس خرج متمثلا بقهرمان الحرث حتى جاء إلى أيوب وهو قائم يصلى ، فقال له مثل قوله الأول ، فأجابه أيوب بمثل جوابه الأول فجعل إبليس يصيب ماله الأول فالأول حتى أتى على آخره .

قال وأيوب كلما انتهى إليه بهلاك مال من ماله حمد الله وأحسن الثناء عليه ورضى بالقضاء ووطن نفسه بالصبر على البلاء حتى ما بقى له مال . فلما رأى إبليس أنه قد أفنى ماله ولم ينل منه شيئا ولا نجح فى شىء من أفعاله شق عليه ذلك وصعد سريعا ووقف الموقف الذى كان يقفه وقال : إلهى إن أيوب يرى أنك مهما متعته من نفسه وولده فأنت معطيه المال ، فهل أنت مسلطى على ولده ، فإنها الفتنة المضلة والمصيبة التى لاتقوم لها قلوب الرجال ولا يقوى عليها صبرهم ؟ فقال الله تعالى له : انطلق فقد سلطتك على ولده فانقضّ عدو الله حتى جاء بنى نبىّ الله أيوب وهم فى قصرهم ، فلم يزل يزلزله حتى تداعى القصر من قواعده ثم جعل يناطح بجدره بعضها بعضا ، فرماهم الخشب والجندل حتى مثل بهم كل مثلة ، ثم رفع بهم القصر وقلبه فصاروا منكسين . ثم إن إبليس انطلق إلى أيوب متمثلا بالمعلم الذى كان يعلمهم الحكمة ، وهو جريح مشدوخ الرأس والوجه يسيل دمه من دماغه ، فأخبره بذلك وقال له : يا أيوب لو رأيت بنيك كيف عذبوا وكيف قلب بهم القصر وكيف نكسوا على رءوسهم تسيل دماؤهم وأدمغتهم من أنوفهم وشفاههم ، ولو رأيت كيف شُقت بطونهم فتناثرت أمعاؤهم لتقطع قلبك ، فلم يزل يقول هذا ويردده حتى رقّ أيوب لذلك وبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه ، فاغتنم إبليس الفرصة منه لذلك ، فصعد سريعا بالذى كان من جزع أيوب مسرورا ، ثم لم يلبث أيوب أن أبصر فاستغفر وشكر ، فصعد قرناؤه من الملائكة باستغفاره وتوبته فبدروا إبليس وسبقوه إلى الله ، والله أعلم بما كان . فوقف إبليس خاسئا ذليلا فقال : إلهى إنما هون على أيوب خطر المال والولد أنه يرى أنك مهما متعته بنفسه فأنت تعيد له المال والولد ، فهل أنت مسلطى على نفسه وبدنه ، فإنى لك زعيم لئن ابتليته فى جسده لينسينك وليكفرن بك وليجحدن

نعمتك ؟ فقال الله تعالى : انطلق فقد سلطتك على جميع جسده ، ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه ولا على عقله ، وكان والله أعلم به أنه لم يسلطه عليه إلا رحمة ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعابدين فى كل بلاء نزل بهم ليتأسوا به فى الصبر ورجاء الثواب ، فانقضّ عدو الله سريعا فوجد أيوب ساجدا ، فقبل أن يرفع رأسه أتاه من قِبَل الأرض فى موضع وجهه ونفخ فى منخريه نفخة اشتعل منها جسده ، فذهل وخرج به من فرقه إلى قدمه ثآليل مثل أليات الغنم ، ووقعت فيه حكة لا يملكها ولا يتماسك عن حكها ، فحك بأظفاره حتى سقطت كلها ، ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها ثم بالفخار والحجارة الخشنة ، فلم يزل يحكها حتى نزل لحمه وتقطع وتغير وأنتن ، فأخرجه أهل القرية فجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشا ، فرفضه خلق الله كلهم غير امرأته رحمة بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام ، وكانت تختلف إليه بما يصلحه وتكرهه ، فلما رأى أصحابه الثلاثة ما ابتلاه الله به اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه ، فلما طال به البلاء انطلقوا إليه وهو فى بلائه فبكتوه ولا موه وقالوا له : تب إلى الله من الذنب الذى عوقبت به .

قال : وكان حضر معهم فتى حديث السن وكان قد آمن به وصدقه فقال : إنكم تكلمتم أيها الكهول وكنتم أحق بالكلام لأسنانكم ، ولكن قد تركتم من القول أحسن من الذى قلتم ، ومن الرأى أصوب من الذى رأيتم ، ومن الأمر أجمل من الذى أتيتم ، وقد كان لأيوب عليكم من الحق والذمام أفضل من الذى وصفتم ، فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم ، ومن الرجل الذى عبتم واتهمتم ؟ ألم تعلموا أن أيوب نبى الله وحبيبه وخيرته وصفوته من أهل الأرض فى يومكم هذا ؟ ثم إنكم لم تعلموا ولا أطلعكم الله تعالى على أنه سخط شيئا من أمره منذ آتاه ما آتاه إلى يومكم هذا ؟ ولا علمتم أنه نزع منه شيئا من الكرامة التى أكرمه الله بها ؟ ولا أن أيوب غير الحق فى طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا ؟ فإن كان البلاء هو الذى أزرى به عندكم ووضعه فى أنفسكم لقد علمتم أن الله تعالى يبتلى النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ثم إن بلاءهم ليس دليلا على سخطه عليهم ولا هوانهم عليه ولكنه كرامة وخير لهم ، ولو كان أيوب ليس هو من الله بهذه المنزلة إلا أنكم آخيتموه على وجه الصحة لكان لا يجمل بالحكيم أن يعذل أخاه عند البلاء ولا يعيره بالمصيبة ولا يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين ، ولكنه يرحمه ويبكى معه ويستغفر الله له ويحزن لحزنه ويدله على رشد أمره ، وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا ، فالله الله أيها الكهول ، فقد كان لكم فى عظم الله وجلاله ، وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم ويكسر قلوبكم ، ألم تعلموا أن لله عبادا أسكتتهم خشيته من غير عىّ ولا بكم وإنهم لهم الفصحاء النبلاء البلغاء الألباء العالمون بالله وآياته ، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم واقشعرت جلودهم وانكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم إعظاما لله تعالى وإعزازا وإجلالا ، فإذا

استفاقوا استبقوا إلى الله تعالى بالأعمال الزاكية الصالحة يعدون أنفسهم مع الخاطئين الظالمين وإنهم برآء ويعدون أنفسهم مع المفرطين المقصرين ، وإنهم لأكياس أقوياء ، وإنهم لا يستكثرون لله الكثير ولا يرضرن له بالقليل ولا يدلون عليه بالأعمال ، فهم مروعون مفزعون خاشعون مستكينون ، فقال أيوب : إن الله تعالى يزرع الحكمة بالرحمة فى قلب المؤمن الكبير والصغير ، فتى نبتت فى القلب أظهرها الله تعالى على اللسان وليس تكون الحكمة من قبل السن والشيب ولا طول التجربة ، فإذا جعل الله العبد حكيما فى الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء ، وهم يرون من الله تعالى عليه نور الكرامة ، ثم إن أيوب أقبل على الثلاثة وقال : أتيتمونى غضابا رهبتم قبل أن تسترهبوا وبكيتم قبل أن تضربوا ، كيف بكم لو قلت لكم تصدقوا عنى بأموالكم لعل الله يخلصنى ، وقربوا عنى قربانا لعل الله يتقبلها ويرضى عنى ، وإنكم قد أعجبتكم أنفسكم ، وظننتم أنكم قد عوفيتم بإحسانكم ، فبهنائكم بغيتم وتعززتم ، ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوبا سترها الله عليكم بالعافية التى ألبسكم إياها ، وقد كنت فيما خلا الرجال توقرنى ، وأنا مسموع كلامى معروف حتى منتصف من خصمى ، فأصبحت اليوم وليس لى رأى ولا كلام معكم ، فأنتم اليوم أشد علىّ من مصيبتى ، ثم إنه أعرض عنهم وأقبل على ربه مستغيثا متضرعا إليه فقال : رب لأى شىء خلقتنى ، ليتنى إذ كرهتنى ما خلقتنى ، يا ليتنى كنت حيضة ألقتنى أمى ، أو ليتنى قد عرفت الذنب الذى أذنبت والعمل الذى عملت فصرفت وجهك الكريم عنى ، لو كنت أمتنى وألحقتنى بآبائى فالموت كان أجمل لى . يا إلهى ألم أكن للغريب دارا وللمسكين قرارا ، ولليتيم وليا وللأرملة قيما ؟ إلهى أنا عبد ذليل ، إن أحسنت فالمنة لك ، وإن أسأت فبيدك عقوبتى ، جعلتنى للبلاء غرضا ، وللفتنة نصبا ، وقد وقع على بلاء لو سلطته على جبل لضعف عن حمله فكيف يحمله ضعفى . إلهى تقطعت أصابعى ، فإنى لأرفع الأكلة من الطعام إلا بيدى جميعا فما يبلغان فمى إلا على الجهد منى . إلهى تساقطت لهواتى ولحم رأسى ، فما بين أذنى من سداد بل إحداهما ترى من الأخرى ، وإن دماغى ليسيل من فمى . إلهى تساقط شعر عينى كأنما أحرق بالنار وجهى ، وحدقتاى متدليتان على خدى ، وورم لسانى حتى ملأ فمى ، فما أدخل فيه طعاما إلا غصنى ، وورمت شفتاى حتى غطت العليا أنفى والسفلى ذقنى ، وتقطعت أمعائى فى بطنى ، وإنى لأدخل الطعام فيخرج كما دخل ما أحسه ولا ينفعنى ، وذهبت قوة رجلى فكأنهما قد يبستا ولا أطيق حملهما ، وذهب المال فصرت أسأل بكفى ويطعمنى من كنت أعوله اللقمة الواحدة فيمنّ بها على ويعيرنى ، إلهى هلك أولادى ولو بقى واحد منهم أعاننى على بلائى ونفعنى ، قد ملنى أهلى وعقنى أرحامى وتنكرت لى معارفى ورغب عنى صديقى وقطعنى أصحابى وجحدت حقوقى ونسيت صنائعى ، أصرخ فلا يصرخوننى وأعتذر فلا يعذروننى ، دعوت غلامى فلم يجبنى ،

وتضرعت لأمتى فلم ترحمنى ، وإن قضاءك هو الذى أذلنى وأدنانى وأهاننى وأقامنى ، وإن سلطانك هو الذى أسقمنى وأنحل جسمى ، ولو أن ربى نزع الهيبة التى فى صدرى فأطلق لسانى لأتكلم بملء فمى ، ولو كان ينبغى للعبد أن يحاجَّ عن نفسه لرجوت أن يعافينى عند ذلك مما بى ،ولكنه ألقانى وتخلى عنى ، فهو يرانى ولا أراه ويسمعنى ولا أسمعه ، ولا نظر إلىَّ فرحمنى ،ولا دنا منى ولا أدنانى ، فأتكلم ببراءتى وأخاصم عن نفسى . فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده ، أظلته غمامة حتى ظن أصحابه أنه عذاب ، ثم نودى : يا أيوب إن الله تعالى يقول لك ها أنا قد دنوت منك ، فلم أزل منك قريبا ،فقم فأدل بعذرك وتكلم ببراءتك وخاصم عن نفسك،واشدد عليك إزارك،وقم مقام جبار ، فإنه لاينبغى أن يخاصمنى إلا جبار مثلى ، ولا ينبغى أن يخاصمنى إلا من يجعل الزمام فى فم الأسد والسخال فى فم العنقاء واللحم فى فم التنين ، ويكيل مكيالا من النور ويزن مثقالا من الريح ويصرّ صرة من الشمس ويرد أمس ، لقد منتك نفسك أمرا ما يبلغ بمثل قوتك ، ولو كنت إذ منتك نفسك ذلك ودعتك إليه تذكرت أىّ مرام رامت بك ، أم أردت أن تكاثرنى بضعفك أم أردت أن تخاصمنى بغيك ، أم أردت أن تحاجنى بخطئك ؟ أين كنت منى يوم خلقت الأرض فوضعتها على أساسها ، هل علمت بأى مقدار قدرتها ؟ أم كنت معى تمر بأطرافها ؟ أم تعلم ما بعد زواياها ، أم على أى شىء وضعت أكنافها ؟ أبطاعتك حمل الماء الأرض ؟ أم بحكمتك كانت الأرض على الماء غطاء ؟ أين كنت منى يوم رفعت السماء سقفا فى الهواء لامعاليق تمسكها،ولا تحملها دعائم من تحتها، هل يبلغ من حكمتك أن تجرى وتسير نجومها، أم هل بأمرك يختلف ليلها ونهارها ؟ أين كنت منى يوم سجرت البحار وأنبعت الأنهار؟ أقدرتك حبست أمواج البحار على حدودها ؟ أم قدرتك فتحت الأرحام حين بلغت مدتها؟ أين أنت منى يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال ، هل لك أن تطيق حملها أم كنت تدرى كم مثقال ما فيها ؟ أين الماء الذى أنزلته من السماء ؟ هل تدرى كم بلدة أهلكتها،وكم من قطرة أحصيتها وقسمت الأرزاق، أم قدرتك تثير السحاب وتنثر الماء ؟ هل تدرى ما أصوات الرعد؟أم من أى شىء لهب البرق ؟ وهل رأيت عمق البحر ،أم هل تدرى مابعد الهواء؟ أم هل تدرىَ أين خزانة النهار بالليل؟ وأين طريق النور؟ وبأى لغة تتكلم الأشجار؟ أين خزانة الريح؟ وأين جبال البرد ؟ أم هل تدرى من جعل العقول فى أجواف الرجال ، ومن شق الأسماع والأبصار ،وذلت الملائكة لملكه، ومن قهر الجبارين بجبروته وقسم أرزاق الدواب والعباد بحكمته ، ومن قسم للأُسد أرزاقها وعرّف الطير معاشها وعطفها على أفراخها ؟ ومن أعتق الوحوش من الخدمة وجعل مساكنها البرّية ، لاتأنس بالأصوات ولا تهاب السلاطين ، أبحكمتك عطفت عليها أمهاتها،حتى أخرجت لها طعاما من أجوافها وآثرتها بالعيش على نفوسها ،أم بحكمتك يبصر العقاب الصيد البعيد واضحا

فى أماكن الفلا؟ أين أنت يوم خلقت البهموت مكانه فى منقطع التراب ، واللوتيا يحملان الجبال والقرى والعمران ، أنيابهما كأنها شجر الصنوبر الطوال ، ورءوسهما كأنها الجبال ، وعروق أفخاذهما كأنها عمد النحاس ، أأنت ملأت جلودهما لحما ، أم أنت ملأت رءوسهما دماغا ؟ هل لك فى خلقهما من شرك ؟ أم لك بالقوة التى غلبتهما يدان ؟ أم هل يبلغ من قوتك أن تضع يديك على رءوسهما ؟ أم تقعد على طريق فتحبسهما ، أو تصدهما عن قوتهما ؟ أين أنت يوم خلقت التنين ورزقه فى البحر ومسكنه فى السماء وعيناه تتوقدان نارا ومنخراه يثوران دخانا ، أذناه مثل قوس السحاب يثور منهما لهب كأنه إعصار العجاج ، جوفه يحرق ونَفَسه يلتهب وزبده جمر كأمثال الصخور ، وكأنه ضرب أسنانه أصوات الصواعق وكأن نظر عينيه لمع البرق ، تمر به الجيوش وهو متكئ لايفزعه شىء ليس فيه مفصل ، زبر الحديد عنده مثل التبن ، والنحاس عنده مثل الخيوط ، لايفزع من النشاب ولا يخشى وقع الصخور على جسده ، ويطير فى الهواء كأنه عصفور فيهلك كل شىء يمر به ، هل أنت آخذه بأحبولتك ، وواضع اللجام فى شدقه ؟ هل تحصى عمره ؟ أم هل تعرف أجله أم تعرف رزقه ، أم هل تدرى ماذا خرب من الأرض ، وماذا يخرب فيما بقى من عمره ، أم هل تطيق غضبه حين يغضب ، أم تأمره فيطيعك ، تبارك الله أحسن الخالقين . فقال أيوب عليه السلام: قصرت عن هذا الأمر الذى ورد علىّ ، ليت الأرض انشقت لى فذهبت ولم أتكلم بشىء يسخط ربى حين اجتمع علىّ البلاء ، إلهى قد جعلتنى لك مثل العدو ، وقد كنت تعرفنى وتعرف نصحى ، وقد علمت أن كل الذى ذكرت صنع يديك وتدبير حكمتك ، وأعظم من هذا لو شئت علمت أن لايعجزك شىء ولا تخفى عليك خافية ولا تغيب عنك غائبة ، مَن هذا الذى يظن أن يسرّ عنك سرا وأنت تعلم ما يخطر على القلوب ، وقد علمت منك فى بلائى هذا ما لم أكن أعلم ، وخفت أن يكون أمرا أكثر مما كنت أخاف إنما كنت أسمع بصوتك ، فأما الآن فهو نظر العين ، وإنما تكلمت حين تكلمت لتعذرنى ، وسكتّ حين سكت لترحمنى ، كلمة زلت عن لسانى فلن أعود ، وقد وضعت يدى على فمى وعضضت على لسانى ، وألصقت بالتراب خدى ، ودسست فيه وجهى لصَغارى ، وسكت حين أسكتتنى خطيئتى ، فاغفر لى ما قلت ، فلن أعود لشىء تكرهه منى . فقال الله تعالى: يا أيوب نفذ فيك حكمى ، وسبقت رحمتى غضبى ، إذ أخطأتَ فقد غفرتُ لك ما قلتَ ورحمتك ، ورددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم ، لتكون لمن خلفك آية ، وتكون عبرة لأهل البلاء وعزاء للصابرين ، فاركُض برجلك ، هذا مغتسل بارد وشراب فيه شفاء ، وقرب عن أصحابك قربانا واستغفر لهم ، فإنهم قد عصونى فيك . فركض برجله فانفجرت له عين فدخل فيها فاغتسل ، فأذهب الله عنه ما كان فيه من البلاء ، ثم إنه خرج وجلس فأقبلت امرأته ، فقامت تلتمسه فى مضجعه فلم تجده ، فقامت متكدرة كالوالهة ، فمرت به فقالت : يا عبد الله

هل لك علم بالرجل المبتلى الذى كان ههنا ؟ فقال لها : وهل تعرفينه إذا رأيتيه ؟ فقالت : نعم ، وكيف لاأعرفه ؟ فتبسم وقال : ها أنا هو ، فعرفته لما ضحك فاعتنقته .

قال ابن عباس : والذى نفسى بيده ما فارقته من عناقه حتى مر بهما كل ما كان لهما من المال والولد، وذلك قوله تعالى(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ) ...الآية .

واختلف العلماء فى وقت ندائه ومدة بلائه ، والسبب الذى قال لأجله: مسنى الضر .

حدثنا الإمام أبو الحسين محمد بن على بن سهل، إملاء فى شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وثلثمائة ، أخبرنا أبو طالب عمر بن الربيع بن سليمان الخشاب بمصر ، أخبرنا يحيى ابن أيوب العلاف ، أخبرنا سعيد بن أبى مريم ، أخبرنا نافع بن يزيد عن عقيل عن ابن شهاب عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ نَبِىَّ اللهِ أَيُّوبَ لَبِثَ فِى بَلَائِهِ ثَمَانِىَ عَشْرَةَ سَنَةً فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ كَانَا يَغْدُوَانِ وَيَرُوحَانِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : وَاللهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ : وَمَا أَدْرَاكَ ؟ قَالَ : مُنْذُ ثَمَانِى عَشْرَةَ سَنَةً لَهُ فِى الْبَلَاءِ لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ وَيَكْشِفْ مَا بِهِ ، فَلَمَّا رَاحَا إِلَى أَيُّوبَ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ ، فَقَالَ أَيُّوبُ : مَا أَدْرِى مَا تَقُولَانِ غَيْرَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَعْلَمُ أَنِّى كُنْتُ أَمُرُّ بِالرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللهَ تَعَالَى فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِى فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا ، كَرَاهَةَ أَنْ يُذْكَرَا اللهَ تَعَالَى إِلَّا فِى حَقٍّ » .

قال : وكان يخرج لحاجته ، فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها ، وذلك أن الله تعالى أوحى إلى أيوب فى مكانه (أَنِ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ) الآية ، فاستبطأته فذهبت لتنظر ما شأنه ، فأقبل عليها وقد أذهب الله تعالى عنه ما أصابه من البلاء ، وهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت له: هل رأيت نبى الله المبتلى؟ فقال :إنى أنا هو ، وكان له أندران : أندر للقمح وأندر للشعير ، فبعث الله تعالى سحابتين فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير الورق حتى فاض .

ويروى أن الله تعالى أمطر عليه جرادا من ذهب ، فجعل يحثو منه فى ثوبه ، فناداه : يا أيوب !ألم أغنك عما ترى؟ قال بلى يا رب ، ولكن لاغنى لى عن فضلك ورزقك ورحمتك ، ومن يشبع من نعمتك ؟

وقال الحسن : كان أيوب عليه السلام مطروحا على كُناسة فى مَزْبلة لبنى إسرائيل سبع سنين وأشهرا تختلف فيه الدواب . وقال وهب: لم يكن بأيوب أكلة، وإنما كان يخرج منه مثل ثدى النساء ثم يتفقأ . قال الحسن : ولم يبق له مال ولا ولد ولا صديق ولا أحد يقربه غير رحمة امرأته صبرت معه تخدمه وتأتيه بطعام وتحمد الله معه إذا حمده ، وأيوب على ما به

لايفتر عن ذكر الله تعالى والثناء عليه والصبر على ما ابتلاه الله ، فصرخ عدو الله إبليس صرخة جمع بها جنوده من أقطار الأرض جزعا من صبر أيوب ، فلما اجتمعوا عليه قالوا له : ما حاجتك ؟ قال لهم : أعياني هذا العبد ، سألت ربي أن يسلطني على ماله وولده فلم أدع له مالا ولا ولدا ، فلم يزده ذلك إلا صبرا وثناء على الله ، ثم سلطت على جسده فتركته قرحة ملقى على كناسة لايقربه إلا امرأته وقد افتضحت من ربي ، فاستعنت بكم لتعينوني عليه ، فقالوا له : أين مكرك، أين علمك الذى أهلكت به من مضى ؟ قال : بطل ذلك كله فى أيوب فأشيروا عليّ ، قالوا : نشير عليك بما أتيت به آدم حين أخرجته من الجنة من أين أتيته ؟ قال: من قِبَل امرأته ، قالوا : فشأنك وأيوب من قِبَل امرأته فإنه لايستطيع أن يعصيها ، وليس أحد يقربه غيرها ، قال : أصبتم ، فانطلق حتى أتى امرأته وهى تطلب الصدقة ، فتمثل لها فى صورة رجل فقال : أين بعلك يا أمة الله ؟ فقالت : هو ذاك، يحك قروحه وتتردد الدواب فى جسده ، فلما سمع منها ذلك وطمع أن تكون كلمة جزع وسوس لها وذكرها ما كانت فيه من النعيم والمال ، وذكرها جمال أيوب وشبابه وما هو فيه اليوم من الضرر ، وإن ذلك لا ينقطع عنه أبدا . قال الحسن : فصرخت ، فلما صرخت علم أنها قد جزعت ، فأتاها بسَخْلة وقال لها: ليذبح أيوب هذه لى وسيبرأ . قال: فجاءت تصرخ وقالت: يا أيوب إلى متى يعذبك ربك ولايرحمك ؟ أين المال ؟ أين الماشية ؟ أين الولد أين الصديق ؟ أين ثوبك الحسن ؟ قد تغير وصار مثل الرماد، وأين جسمك الحسن ؟ قد بلى وهو يتردد فيه الدود ، اذبح هذه السخلة واسترح . فقال لها أيوب : أتاك عدو الله فنفخ فيك فأجبتيه ، ويلك أرأيت ما تبكين عليه مما كنا فيه من المال والولد والصحة ، من أنعم به علينا ؟ قالت : الله ، قال : فكم متعنا به ؟ قالت : ثمانين سنة ، قال : فمذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء ؟ قالت : منذ سبع سنين ، قال : ويلك ، والله ما عدلت ولا أنصفت ربك ، ألا صبرت فى هذا البلاء الذى ابتلانا به ربنا ثمانين سنة كما كنا فى الرخاء ؟ والله لئن شفانى الله لأجلدنك مئة جلدة كما أمرتينى أن أذبح لغير الله تعالى ، وطعامك وشرابك الذى تأتينى به عليّ حرام لاأذوق مما تأتينى به شيئا بعد أن قلتِ هذا ، فاعزبى عنى لاأراك فطردها فذهبت . فلما رأى أيوب امرأته قد طردها وليس عنده طعام ولاشراب ولاصديق خرّ لله ساجدا وقال: (ربِّ إنِّىَ مسَّنِىَ الضُّرُّ) ثم رد الأمر إلى ربه وسلم فقال: (وأنْتَ أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) فقيل له ارفع رأسك فقد استجيب لك (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ) الآية ، فركض برجله فنبعت عين ماء ، فاغتسل فلم يبق من دائه شىء ظاهر إلا سقط أثره ، وأذهب الله منه كل ألم وداء وكل سقم ، وعاد إليه شبابه وجماله أحسن مما كان وأفضل مما مضى . ثم إنه ضرب برجله فنبعت عين أخرى فشرب منها ، فلم يبق فى جوفه داء إلا خرج ، فقام صحيحا وكسى حلة . قال : فجعل يلتفت يمينا ويسارا فلا يرى شيئا مما كان له من أهل وولد ومال إلا وقد ضاعفه الله تعالى ، فخرج حتى جلس على مكان مشرف ، ثم إن

امرأته قالت : أرأيت إن كان قد طردنى إلى من أكله ؟ أأدعه حتى يموت جوعا وعطشا ويضيع فتأكله السباع ؟ فوالله لأرجعن إليه ، فرجعت فلم تر الكناسة ولا الحال التى كانت تعهدها وقد تغيرت الأمور ، فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكى وأيوب ينظرها . قال : وهابت صاحب الحلة أن تأتيه فتسأله ، فأرسل إليها أيوب فدعاها وقال لها : ما تريدين يا أمة الله ؟ فبكت وقالت : أريد ذلك المبتلى الذى كان منبوذا على هذه الكناسة لا أدرى أضاع أم ماذا فعل به ؟ فقال أيوب عليه السلام : ما كان منك ؟ فبكت وقالت : بعلى فهل رأيته ؟ فقال : وهل تعرفينه إذا رأيتيه ؟ قالت : وهل يخفى على ؟ ثم إنها جعلت تنظر إليه وهى تهابه ، وقالت : أما إنه كان أشبه خلق الله بك إذ كان صحيحا ، قال : فأنا أيوب أمرتينى أن أذبح لإبليس ، فإنى أطعت الله وعصيت الشيطان فرد علىّ ما ترين ؟

وقال كعب : كان أيوب فى بلائه سبع سنين ، وقال وهب : لبث فى ذلك البلاء ثلاث سنين لم يزد يوما واحدا ، فلما غلب أيوب إبليس لعنه ولم يستطع له على شىء ، اعترض امرأته على هيئة ليست كهيئة بنى آدم فى العظم والجسم والجمال على مركب ليس من مراكب الناس ، له عظم وبهاء وجمال ، فقال لها أنت صاحبة أيوب المبتلى ؟ قالت نعم ، قال : فهل تعرفينى ؟ قالت لا ، قال : أنا إله الأرض وأنا الذى صنعت بصاحبك ما صنعت ، وذلك أنه عبد إله السماء وتركنى وأغضبنى ، ولو سجد لى سجدة واحدة رددت عليكما ما كان لكما من مال وولد فإنهم عندى ، ثم أراها إياهم فى بطن الوادى الذى لقيها فيه .

قال وهب : وقد سمعت أنه قال لها : لو أن صاحبك أكل طعاما لم يسم عليه لعوفى مما هو فيه من البلاء ، والله أعلم . وأراد عدوّ الله أن يأتيه من قِبَلها . ورأيت فى بعض الكتب أن إبليس قال لرحمة : وإن شئت اسجدى لى سجدة واحدة حتى أرد عليك الأولاد والمال وأعافى زوجك ، فرجعت إلى أيوب فأخبرته بما قال لها وما أراد ، فقال : لقد أراد عدو الله أن يفتنك عن دينك . ثم إن أيوب أقسم إن عافاه الله ليضربنها مئة جلدة ، فقال ، عند ذلك : مسنى الضر من طمع إبليس فى سجود حرمتى له ودعائه إياها وإياى إلى الكفر . قالوا : ثم إن الله تعالى رحم رحمة امرأة أيوب بصبرها معه على البلاء وخفف عنها ، وأراد أن يبرّ يمين أيوب ، فأمره أن يأخذ جماعة من الشجر مبلغ مئة قضيب خفافا لطافا فيضربها ضربة واحدة ، كما قال تعالى (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ) الآية ، وقد كانت امرأة أيوب تكتسب وتعمل للناس وتجيئه بقوته ، فلما طال عليها البلاء وسئمها الناس فلم يستعملها أحد ، التمست يوما من الأيام ما تطعمه فما وجدت شيئا فجزّت قرنا من رأسها فباعته برغيف وأتته به ، فقال لها : أين قرنكِ ؟ فأخبرته فقال عند ذلك : مسنى الضر . وقيل إنما قال ذلك حين قصدت الدود قلبه ولسانه ، فخشى أن يعيا عن الذكر والفكر . وقيل إنما قال ذلك حين وقعت الدودة من فخذه فأخذها وردها إلى موضعها وقال لها : كلى فقد جعلنى الله طعامك ، فعضته عضة زاد ألمه على جميع ما قاسى من عض الديدان

وقال عبد الله بن عمر : كان لأيوب أخوان فأتياه فقاما من بعيد لايقدران على الدنوّ منه من نتن ريحه ، فقال أحدهما لصاحبه : لو كان الله علم فى أيوب خيرا ما ابتلاه بما ترى ؛ قال : فما سمع أيوب شيئا كان أشد عليه من تلك الكلمة ، وما جزع من شىء أصابه جزعه من تلك الكلمة ، فعند ذلك قال : مسنى الضر ، ثم قال : اللهم إن كنت تعلم أنى لم أبت ليلة شبعان قط ، وأنا أعلم بمكان جائعا ، فصدقنى فصدقه وهما يسمعان ، ثم قال اللهم إن كنت تعلم أنى لم أتخذ قيصا قط وأنا أعلم بمكان عريانا فصدقنى فصدقه وهما يسمعان ، فخرّ ساجدا لله . . وقيل معناه : مسنى الضر من شماتة الأعداء ، يدل عليه ما روى أنه قيل له بعد ما عوفى : ما كان أشد عليك فى بلائك ؟ فقال : شماتة الأعداء ، وأنشد بعضهم فى معناه :

كل المصائب قد تمر على الفتى فتهون غـير شماتة الحساد

إن المصائب تنقضى أيامها وشماتة الأعـداء بالمرصاد

وقال الجنيد : فى هذه الآية عرفه فاقة السؤال ليمنّ عليه بكرم النوال ، وذلك قوله تعالى (فَكَشَفْنا مابِهِ مِنْ ضُرٍّ وآتَيْناهُ أَهْلَهُ) الآية .

واختلف العلماء فى كيفية ذلك ، فقال قوم : لما ابتلى الله أيوب فى الدنيا مثل له أهله ، فأما الذين هلكوا فإنهم لم يردوا عليه فى الدنيا ، وإنما وعد الله أيوب أن يؤتيه إياهم فى الآخرة . وقال وهب : كان له سبع بنات وثلاث بنين . وقال آخرون : بل ردهم الله تعالى إليه بأعيانهم ، وأعطاه أهله ومثلهم معهم ، وهذا قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة وكعب ، قالوا : أحياهم الله تعالى وآتاه مثلهم ، وهذا القول أشبه بظاهر الآية .

وذكر : أن عمر أيوب كان ثلاثا وتسعين سنة ، وأنه أوصى عند موته إلى ابنه حومل ، وأن الله بعث بعده بشر بن أيوب نبيا وسماه ذا الكفل وأمره بالدعاء إلى توحيده وأنه كان مقيما بالشام طول عمره حتى مات ، وكان مبلغ عمره خمسا وتسعين سنة ، وأن بشرا أوصى ابنه عبدان ، وأن الله تعالى بعث بعده شعيبا عليه السلام ، والله أعلم .

مجلس : فى قصة ذى الكفل عليه السلام

هذا المجلس يأتى بعد فى آخر الكتاب بعد قصة اليسع ، وما كتب ههنا زيادة فى المجلس المذكور .

روى الأعمش عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث أن نبيا من الأنبياء قال : من يكفل لى أن يقوم الليل ويصوم النهار ولا يغضب ؟ فقام شاب فقال أنا ، فقال له اجلس ، ثم إنه أعاد مثل قوله الأول ، فقام ذلك الشاب ، فقال ، أنا فقال له اجلس ؛ ثم إنه أعاد قوله ثالثا ، فقال الشاب أنا ، فقال له : تقوم الليل وتصوم النهار ولا تغضب ؟

قال نعم ؛ فمات ذلك النبى فجلس ذلك الشاب مكانه يقضى بين الناس ، فكان لا يغضب ، فجاء الشيطان فى صورة إنسان ليغضبه وهو صائم يريد أن يفطر ، فضرب الباب ضربا شديدا ، فقال: من هذا ؟ فقال : رجل له حاجة، فأرسل إليه رجلا . فقال : لا أرضى بهذا الرجل ، فأرسل معه آخر ، فقال :لا أرضى فخرج إليه فأخذ بيده وانطلق معه ، حتى إذا كان فى السوق خلاه وذهب ، فسمى ذا الكفل .

وقال بعضهم: ذو الكفل بشربن أيوب الصابر بعثه الله بعد أبيه رسولا إلى أرض الروم فآمنوا به وصدقوه واتبعوه ، ثم إن الله تعالى أمرهم بالجهاد فكفوا عن ذلك وضعفوا وقالوا : يابشر إنا نحب الحياة ونكره الممات ، ومع ذلك نكره أن نعصى الله تعالى ورسوله ، فلو سألت الله أن يطيل أعمارنا ولا يميتنا إلا إذا شئنا ونعبده ونجاهد أعداءه ، فقال لهم بشر : لقد سألتمونى عظيما وكلفتمونى شططا ، ثم إنه قام وصلى ودعا وقال : إلهى أمرتنى بتبليغ الرسالة فبلغتها ، وأمرتنى أن أجاهد أعداءك وأنت تعلم أنى لا أملك إلا نفسى ، وإن قومى قد سألونى فى ذلك ما أنت أعلم به منى ، فلا تؤاخذنى بجريرة غيرى ، فأنا أعود برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك . قال فأوحى الله تعالى إليه : يابشر إنى سمعت مقالة قومك، وإنى قد أعطيتهم ما سألونى، طولت أعمارهم، فلا يموتون إلا إذا شاءوا ، فكن كفيلا لهم منى بذلك ، فبلغهم بشر رسالة الله ، وأخبرهم بما أوحى الله إليه وتكفل لهم بذلك كما أمر الله تعالى ، فسمى ذا الكفل ، ثم إنهم توالدوا وكثروا ونموا حتى ضاقت عليهم بلادهم وتنغصت معيشتهم وتأذوا بكثرتهم ، فسألوا بشرا أن يدعو الله أن يردهم إلى آجالهم فأوحى الله تعالى إلى بشر : أما علم قومك أن اختيارى لهم خير من اختيارهم لأنفسهم ؟ ثم إنهم ردوا إلى أعمارهم فماتوا بآجالهم . قال : فلذلك كثرت الروم حتى يقال : إن الدنيا دارهم خمسة أسداسها للروم، وسموا روما لأنهم نسبوا إلى جدهم روم ابن عيص بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام . قال وهب : وكان بشر بن أيوب المسمى ذا الكفل مقيما بالشام حتى مات ، وكان عمره خمسا وتسعين سنة ، والله أعلم .

مجلس : فى ذكر قصة شعيب النبى عليه السلام

قال الله تعالى (وإلى مَدْيَنَ أخاهُمْ شُعَيْبًا) الآية ، اختلف العلماء فى نسب شعيب ، فقال أهل التوراة : هو شعيب بن صيفون بن عيفا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم ،وقال محمد بن إسحق : هو شعيب بن مكائيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم واسمه بالسريانية يثرون ، وأمه مكيل ابنة لوط ، وكان شعيب عليه السلام أعمى ، فذلك قوله تعالى إخبارا عن قومه (وإنا لنراكَ فينا ضَعيفًا) أى ضريرا، وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه ، وإن الله تعالى بعثه نبيا إلى أهل مدين وأصحاب الأيكة ، والأيكة : الشجر الملتف .

وقال قتادة : بعثه الله تعالى إلى أمتين : أهل مدين ، وأصحاب الأيكة . قالوا : وكان قوم شعيب أهل كفر بالله وبخس للناس وتطفيف فى المكاييل والموازين ، وكان الله قد وسع لهم فى الرزق وبسط لهم فى العيش استدراجا منه لهم ، فقال لهم شعيب (يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مالَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ ولا تَنْقُصُوا المِكْيالَ والمِيزانَ) الآية ، ونظيرها فى الأعراف (فأَوْفُوا الكَيْلَ والمِيزانَ ولا تَبْخَسُوا النّاسَ أشْياءَهُمْ) الآية ، وذلك أنهم كانوا يجلسون على الطريق فيخبرون من قصد شعيبا ليؤمن به إنه كذاب ، فلا يفتنك عن دينك ، وكانوا يتوعّدون المؤمنين بالقتل ويخوّفونهم .

قال السدى وأبو روق : كانوا عشارين . قال عبد الله بن زيد : كانوا يقطعون الطريق . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « رأيتُ ليلةَ أُسْرِيَ بى خَشَبةً على الطَّرِيقِ لا يَمُرُّ بها ثَوْبُ أحَدٍ إلاّ شَقَّتْهُ ، ولا شَيْءٌ إلاّ خَرَقَتْهُ ، فقلتُ ما هذا يا جبريل ؟ فقالَ هذا مَثَلُ أقوامٍ مِنْ أُمَّتِكَ يَقْعُدُونَ على الطَّرِيقِ فيَقْطَعُونَهُ ، ثُمَّ تَلا (ولا تَقْعُدُوا بكلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ) الآية » وكان من قول شعيب وجواب قومه إياه ما ذكره الله تعالى فى سورة الأعراف وسورة هود وسورة الشعراء .

قال المفسرون : وكان مما نهاهم عنه شعيب وعذبوا لأجله قطع الدنانير ، وذلك قوله تعالى (قالُوا يا شُعَيْبُ أصَلاتُكَ تأْمُرُكَ أنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا) إلى قوله (الحَلِيمُ الرَّشِيدُ) أى السفيه الغاوى ، وهو على الضد كما يقال للحبشى أبو البيضاء ، وكقوله تعالى « ذُقْ إنَّكَ أنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ » .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان شعيب كثير الصلاة ، فلما كثر فسادهم وقلّ صلاحهم دعا عليهم فقال (رَبَّنا افْتَحْ بَيْنَنا وبَيْنَ قَوْمِنا بالحَقِّ وأنْتَ خيرُ الفاتِحِينَ) فأجاب الله تعالى دعاءه فيهم ، فأهلكهم بالرجفة ، وهى الزلزلة ، عن الكلبى ، ويقال بالصيحة وبعذاب الظُّلَّة .

قال ابن عباس وغيره : وهى أن الله تعالى فتح عليهم بابا من أبواب جهنم ، فأرسل عليهم بردا وحرا شديدا فأخذا بأنفاسهم ، فدخلوا فى أجواف البيوت ، فلم ينفعهم ظل ولا ماء ، فأنضجهم الحر فخرجوا هربا إلى البرّية ، فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم ، ووجدوا لها بردا وجاءت ريح طيبة ، فنادى بعضهم بعضا ، فلما اجتمعوا تحت السحابة ألهبها الله عليهم نارا ورجفت الأرض بهم فاحترقوا كما يحترق الجراد فى المِقلى فصاروا رمادا ، وذلك قوله تعالى (فأصْبَحُوا فى دارِهِمْ جاثِمِينَ كأنْ لَمْ يَغْنَوْا فيها) وقال تعالى (فأخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) .

قال ابن عباس: بلغني أن رجلا من أهل مدين يقال له عمرو بن جلْهُم لما رأى الظلة فيها العذاب اقشعرّ جلده ، وقال :

يا قوم إن شعيبا مرسل فذروا عنكم شميرا وعمران بن شداد
إني أرى غيمة يا قوم قد طلعت تدعو بصوت على حنانة الوادى
فإنه لن يرى فيها ضحاء غد إلا الرَّقِيمُ يمشى بين أنجاد

وشمير وعمران: كاهنان لهم ،والرقيم كلب لهم. قال: أبو عبد الله البجلىّ: أبوجاد وحطى وهوز وكلمن وسعفص وقرشت: أسماء ملوكهم، وكان ملكهم يوم الظلة فى زمن شعيب كلمن ، فقالت أخت كلمن تبكيه حين هلك :

كلمن هدد ركنى هلكه وسط المحلّة
سيد القوم أتاه الـحتف نارا وسط ظلّة
جعلت نارا عليهم دارهم كالمضمحلّة

قال الله تعالى (الَّذِينَ كَذَّبوا شُعَيبًا كأنْ لمْ يَغْنَوا فيهَا الذِينَ كذَّبوا شُعَيبًا كانوا هُمُ الخاسرِينَ) أى لهم الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة .

مجلس فى ذكر صفى الله ونجيه موسى بن عمران عليه السلام

وهو يشتمل على أبواب

الباب الأول فى ذكر نسب موسى عليه السلام

قال الله تعالى (واذْكُرْ فِي الكتابِ مُوسَى إنَّه كانَ مُخْلَصًا وكَانَ رَسُولاً نَبِيًا) وهو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام . قال أهل العلم بأخبار الأولين وسير الماضين : ولد ليعقوب لاوى،وقد مضى من عمره تسع وثمانون سنة ، ثم إن لاوى نكح نابتة بنت ماوى بن يشجب ، فولدت له غرسون ومرزى ومردى وقاهث ، ثم إن قاهث بعد أن مضى له من عمره ست وأربعون سنة نكح قاهى بنت مبين ابن تنويل بن إلياس، فولدت له يصهر بن قاهث ، فنكح يشهر بن قاهث سميت بنت يتادم ابن بركيا بن يشعان بن إبراهيم ،فولدت له عمران ، وقد مضى له من عمره ستون سنة ، وكان عمر يصهر مئة وسبعا وأربعين سنة فنكح عمران بن يصهر نجيب بنت شمويل بن بركيا ابن يشعان بن ابراهيم ، فولدت له هارون وموسى . واختلف فى اسم أمهما ، فقال ابن إسحق : نجيب. وقيل ناجية ، وقيل يوخايل، وهو المشهور، وكان عمر عمران مئة وسبعا وثلاثين سنة ، وولد له موسى عليه السلام ، وقد مضى من عمره سبعون سنة ، والله أعلم.

الباب الثانى : فى ذكر مولد موسى عليه السلام

قال أهل التاريخ : لما مات الريان بن الوليد فرعون مصر الأول صاحب يوسف عليه

السلام ، وهو الذى ولى يوسف خزائن أرضه وأسلم على يده ، فلما مات ملك بعده قابوس ابن مصعب صاحب يوسف الثانى ، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى وكان جبارا ، وقبض الله يوسف فى ملكه وطال ملكه ، ثم هلك وقام بالملك بعده أخوه أبو العباس بن الوليد بن مصعب بن الريان بن إراشة بن ثروان بن عمرو بن فاران بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام ، وكان أغنى من قابوس وأكبر وأفجر ، وامتدت أيام ملكه ، وأقام بنو إسرائيل بعد وفاة يوسف عليه السلام وقد انتشروا وكثروا ،وهم تحت العمالقة،وهم على بقايا من دينهم مما كان يوسف ويعقوب وإسحق وإبراهيم شرعوا فيه من الإسلام متمسكون به حتى كان فرعون موسى الذى بعثه الله إليه وقد ذكرنا اسمه ونسبه ، ولم يكن فيهم فرعون أعتى على الله ولا أعظم قولا ولا أقسى قلبا ولا أطول عمرا فى ملكه ولا أسوأ ملكا لبنى إسرائيل منه ، وكان يعذبهم ويستعبدهم ، وجعلهم خدما وخوَلا ، وصنفهم فى أعماله ، فصنف يبنون ،وصنف يحرثون ، وصنف يتولون الأعمال القذرة ، ومن لم يكن أهلا للعمل فعليه الجزية كما قال الله تعالى(يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ) وقد استنكح فرعون منهم امرأة يقال لها آسية بنت مزاحم رضى الله عنها من خيار النساء المعدودات ، ويقال : هى آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد فرعون يوسف الأول ،فأسلمت على يد موسى.

قال مقاتل : لم يسلم من أهل مصر إلا ثلاثة : آسية وحزقيل ومريم بنت تاموسى التى دلت موسى على قبر يوسف عليه السلام . قالوا : فعمر فرعون فيهم وهم تحت يده عمرا طويلا ، يقال إنه أربع مئة سنة يسومهم سوء العذاب ، فلما أراد الله أن يفرج عنهم بعث موسى عليه السلام ، وكان بدء ذلك على ما ذكره السدى عن رجاله أن فرعون رأى فى منامه كأن نارا قد أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقتها وأحرقت القبط وتركت بنى إسرائيل ، فدعا فرعون الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين فسألهم عن رؤياه فقالوا : يولد فى بنى إسرائيل غلام يسلبك الملك ويغلبك على سلطانك ويخرجك وقومك من أرضك ويبدل دينك ، وقد أظلّك زمانه الذى يولد فيه ، فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد فى بنى إسرائيل ، فجمع القوابل من النساء من أهل مملكته وقال لهن : لايسقط على أيديكن غلام من بنى إسرائيل إلا قتلتنه ولا جارية إلا تركتنها ووكل بهن وكلاء ، فكنّ يفعلن ذلك .

قال مجاهد : لقد بلغنى أنه كان يأمر بالقصب فيشق ثم يجعل أمثال الشفار ثم يصف بعضه إلى بعض ، ثم يؤتى بالحبالى من بنى إسرائيل فيوقفن عليه فتجرح أقدامهن حتى إن المرأة منهن لتضع ولدها فيقع بين رجليها ، فتظل تطؤه وتتقى به حد القصب عن رجليها لما بلغ من جهدها . وكان يقتل الغلمان الذين فى وقته ، ويقتل من يولد بعدهم ، ويعذب الحبالى حتى يضعن ما فى بطونهن ، وأسرع الموت فى مشيخة بنى إسرائيل ، فدخل رءوس

القبط على فرعون وقالوا له : إن الموت قد وقع فى مشايخ بنى إسرائيل وأنت تذبح صغارهم وتميت كبارهم ، فيوشك أن يقع العمل علينا ، فأمر فرعون بذبح الولدان سنة وتركهم سنة ، فولد هرون فى السنة التى لايذبح فيها أحد فترك ، وولد موسى فى السنة التى يذبحون فيها . قال : فولدت هرون أمه علانية آمنة ، فلما كان فى العام الذى أمر فيه بقتل الولدان حملت بموسى ، فلما أرادت وضعه حزنت من شأنه واشتد غمها ، فأوحى الله تعالى إليها (أَنْ أَرْضِعِيهِ فإذَا خِفْتِ عليهِ فأَلْقِيهِ فى اليَمّ) إلى قوله (المُرْسَلِينَ) فلما وضعته فى خفية أرضعته ، ثم إنها اتخذت له تابوتا ، وجعلت مفتاح التابوت من داخل وجعلته فيه .

قال مقاتل : وكان الذى صنع التابوت حزقيل مؤمن آل فرعون ، وقيل إنه كان من بَرْدِىّ ، فاتخذت أم موسى التابوت وجعلت فيه قطنا محلوجا ، ووضعت فيه موسى وصرّت رأسه ثم ألقته فى النيل . فلما فعلت ذلك وتوارى عنها أتاها الشيطان فوسوس إليها ، فقالت فى نفسها : ماذا صنعت يابنىّ لو ذبح عندى ، وواريته وكفنته كان أحب إلىّ من أن ألقيه بيدى فى البحر وأدخله إلى دواب البحر ، ثم عصمها الله تعالى وانطلق الماء بموسى يرفعه الموج مرة ويخفضه أخرى حتى أدخله بين الأشجار عند دار فرعون إلى روضة هى مستقى جوارى فرعون ، وكان بالقرب منها نهر كبير فى دار فرعون داخل فى بستانه ، فخرجت جوارى فرعون يغتسلن ويستقين ، فوجدن التابوت ، فأخذنه وظنن أن فيه مالا ، فحملنه على حالته حتى أدخلنه إلى آسية ، فلما فتحته رأت فيه الغلام ، فألقى الله تعالى عليها محبة منه فرحمته آسية وأحبته حبا شديدا . فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا على آسية بشفارهم ليذبحوا الصبى ، فقالت آسية للذباحين : انصرفوا فإن هذا لايزيد فى بنى إسرائيل فأنا آتى فرعون وأستوهبه إياه ، فإن وهبه لى كنتم قد أحسنتم ، وإن أمركم بذبحه فلا ألومكم ، ثم إنها أتت به فرعون وقالت : (قُرَّةُ عينٍ لى ولَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أنْ يَنْفَعَنا) فقال فرعون قرة عين لك ، أما أنا فلا حاجة لى فيه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والّذى يُحْلَفُ به لَوْ أقرَّ فِرعَوْنُ أنْ يكونَ لَهُ قُرَّةَ عينٍ كما أقرَّتْ لهَداهُ اللهُ تعالى به كما هدَى به امرأتَهُ ، ولكنَّ اللهَ تعالى حرَمَهُ ذلكَ » قال : فأراد أن يذبحه وقال : إنى أخاف أن يكون هذا من بنى إسرائيل ، وأن يكون هذا الذى هلاكنا على يده وزوال ملكنا ، فلم تزل آسية تكلمه حتى وهبه لها ، فلما آمنت أسية أرادت أن تسميه باسم اقتضاه حاله ، فسمته موشى ، لأنه وجد بين الماء والشجر ، وهو بلغة القبط : مو : الماء ، وشى : الشجر ، فعرب فقيل : موسى .

أخبرنا ابن فنجويه ، أخبرنا مخلد بن جعفر ، أخبرنا الحسن بن علوية ، أخبرنا إسمعيل ابن عيسى ، أخبرنا ابن بشير ، أخبرنى جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال :

إن بنى إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس وعملوا بالمعاصى ، ووافق خيارهم أشرارهم ، ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر ، فسلط الله عليهم القبط فاستضعفوهم وساموهم سوء العذاب ، فذبحوا أبناءهم . قال : وقال أبو إلياس قال وهب : بلغنى أنه ذبح فى طلب موسى سبعون ألف ولد .

قال إسحاق عن ابن عباس : إن أم موسى لما قاربت ولادتها وكانت قابلة من القوابل التى وكلهنّ فرعون بحبالى بنى إسرائيل مصافية لأم موسى ، فلما ضربها الطلق أرسلت إليها أم موسى فقالت : نزل بى ما نزل فلينفعنى حبك إياى ، فقالت لها نعم ، فعالجت قبالها ، فلما وقع موسى على الأرض أضاء لها نور بين عينى موسى ، فارتعش كل مفصل منها ودخل حب موسى فى قلبها ، ثم قالت لها : يا هذه ما جئت إليك حين دعوتنى إلا وفى رأيى قتل ولدك وإخبار فرعون بذلك ، ولكن وجدت لابنك هذا حبا ما وجدت حب شىء مثله ، فاحتفظى بابنك فإنى أراه هو عدونا . فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون ، فجاء إلى بابها ليدخل على موسى ، فقالت أخته : يا أماه هذا الحرس بالباب ، فطاش عقلها ، فلم تعقل ما تصنع به خوفا على موسى ، فلفت موسى فى خرقة وألقته فى التنور وهو مسجور ، وكان ذلك إلهاما من الله تعالى لها ، لما أراد الله بعبده موسى ، فدخلوا فإذا التنور مسجور وأم موسى لم يتغير لها لون ولم يظهر لها لبن ، فقالوا لها : ما أدخل عليك هذه القابلة ، قالت : هى مصافية لى فدخلت علىّ زائرة ، فخرجوا من عندها ورجع إليها عقلها ؛ فقالت أخت موسى : أين الصبى ؟ قالت : لا أدرى ، فسمعت بكاء الصبى فى التنور فانطلقت فوجدته قد جعل الله تعالى عليه النار بردا وسلاما فاحتملته .

قال إسحاق بن بشر عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال : ثم إن أم موسى لما رأت إلحاح فرعون فى طلب الولدان خافت على ولدها ، فقذف الله فى نفسها أن تتخذ له تابوتا ثم تقذفه فى اليمّ وهو النيل ، فانطلقت إلى رجل نجار من أهل مصر من قوم فرعون فاشترت منه تابوتا صغيرا ، فقال لها النجار : ما تصنعين بهذا التابوت ؟ فقالت : أخبأ فيه ابنا لى : وكرهت أن تكذب ، قال : ولم ؟ قالت : أخشى كيد فرعون ، قال : فلما اشترت التابوت وحملته وانطلقت انطلق النجار إلى الذباحين ليخبرهم بأمرها ؛ فلما همّ بالكلام أمسك الله لسانه فلم ينطلق ، فجعل يشير بيده ، فلم تدر الأمناء ما يقول ؛ فلما أعياهم أمره قال كبيرهم : اضربوه ، فضربوه وأخرجوه . فلما انتهى النجار إلى موضعه رد الله عليه لسانه فتكلم ، فانطلق أيضا يريد الأمناء فأتاهم ليخبرهم ، فأخذ الله تعالى بلسانه وبصره ، فلم يطق الكلام ولم يبصر شيئا ، فضربوه وأخرجوه ، فوقع فى واد يهوى فيه حيران ، فأشهد الله تعالى عليه إن رد له لسانه وبصره أن لا يدل عليه ، وأن يكون معه يحفظه حيثما كان ، فعلم الله منه الصدق فرد عليه لسانه وبصره ، فخر لله ساجدا ، وعلم أن ذلك من

الله تعالى فآمن به وصدقه . فانطلقت أم موسى به وألقته فى البحر ، وذلك بعد ما أرضعته ثلاثة أشهر ، وكان لفرعون يومئذ بنت ولم يكن له ولد غيرها ، وكانت من أكرم الناس عليه ، وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها إليه ، وكان بها برص شديد ، وكان فرعون قد جمع لها الأطباء من مصر والسحرة ، فنظروا فى أمرها فقالوا له : أيها الملك إنا لانرى بُرْءَها إلا من قبل البحر ، شيء يؤخذ منه شبه الإنسان ، فيؤخذ من ريقه ويلطخ به برصها فتبرأ من ذلك ، وذلك فى يوم كذا وكذا من شهر كذا وكذا فى ساعة كذا وكذا حين تشرق الشمس . فلما كان فى يوم الاثنين غدا فرعون إلى مجلس له كان على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم ، وأقبلت بنت فرعون وجواريها حتى جلست على شاطئ النيل مع جواريها يتلاعبن وينضحن الماء على وجوههن ، فبينما هن على ذلك إذ أقبل النيل بالتابوت تضربه الأمواج . فقال فرعون : إن هذا لشيء فى البحر قد تعلق بالشجر ، ائتونى به ، فابتدروه من كل جانب بالسفن حتى وضعوه بين يديه ، فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه ، وعالجوا كسره فلم يقدروا ، فدنت منه آسية فرأت فى جوف التابوت نوراً لم يره غيرها للأمر الذى أراد الله تعالى من إكرامها وهدايتها ، فعالجته ففتحته ، فإذا هى بصبى صغير فى مهده والنور بين عينيه ، وقد جعل الله رزقه فى إبهامه يمَص منها لبناً ، فألقى الله تعالى محبة موسى فى قلبها ، وأحبه فرعون وعطف عليه ، وأقبلت بنت فرعون عليه ، فلما أخرجوه من التابوت عمدت بنت فرعون إلى ما كان يسيل من ريقه فلطخت به برصها فبرأت ، فقبلته وضمته إلى صدرها ، فقالت الغواة من قوم فرعون : أيها الملك إنا نظن أن المولود الذى تحذر منه من بنى إسرائيل هو هذا ، ارم به فى البحر أو اقتله ، فهمّ فرعون بقتله ، فاستوهبته منه آسية ، فوهبه لها ، ثم إنه قال سميه ، فقالت : قد سميته موشى لأنه وجد بين الماء والشجر .

قالوا : ثم إن أم موسى قالت لأخته ، وكانت تسمى مريم : قصيه : أى اتبعى أثره واطلبيه ، هل تسمعين له ذكرا أحىّ هو أم قد أهلكته دواب البحر؟ ونسيت وعد الله ، فبصُرت به عن جُنُب : أى عن بعد ، وهم لايشعرون أنها أخته ، وكانت آسية قد أرسلت إلى من حولها من كل أنثى بها لبن لتختار له ظئراً تربى موسى ، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل ثديها حتى أشفقت آسية أن يمتنع من اللبن فيموت ، فأحزنها ذلك ، فأمرت به فأخرج إلى السوق لتجتمع عليه الناس ترجو أن تصيب له ظئراً يقبلها ويأخذ ثديها ويرضع منها ، فلم يقبل ثدى امرأة ، فذلك قوله عز وجل (وحَرَّمْنا عليه المَراضِعَ مِنْ قَبْلُ) فقالت أخت موسى حين أعياهم أمره وأعيا الظئورة (هَلْ أدُلُّكُم على أهْلِ بَيْتٍ يكْفُلونَهُ لكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ) فأخذوها وقالوا لها : وما يدريك بنصحهم له ، ولعلك قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله ، فقالت : ما أعرفهم وإنما نصحهم له وشفقتهم عليه من أجل رغبتهم فى ظئورة الملك ورجاء منفعته فتركوها ، فانطلقت

إلى أمه فأخبرتها بالخبر ، فأتت ، فلما وضعته على ثديها فى حجرها نزل اللبن من ثديها حتى ملأ جنبيه ، فانطلق البشير إلى آسية يبشرها أن قد وجدنا لابنك ظئرا ، فأرسلت إليها فأتى بها ، فلما رأت ما يصنع بها قالت لها : امكثى عندى ترضعى ابنى هذا ، فإنى لم أحب شيئا مثل حبه قط ، فقالت : لا أستطيع أن أدع بيتى وولدى فيضيعوا ، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتى وولدى ، فيكون معى ولا أُولى له إلا خيرا فعلتُ ، وإلا فإنى غير تاركة بيتى وولدى ، فتذكرت أم موسى ما كان الله وعدها ، فتعاسرت على امرأة فرعون وأيقنت أن الله سبحانه وتعالى منجز وعده ، فرجعت بابنها إلى بيتها من وقتها .

وقيل : كانت غيبة موسى عن أمه ثلاثة أيام ، ثم رده الله إليها ، وذلك قوله عز وجل (فَرَدَدْنَاهُ إلى أمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عينها ولا تَحْزَنَ) فلما جاءت به أمه إلى بيتها كادت تقول هو ابنى فعصمها الله عز وجل ، فذلك قوله تعالى (إنْ كادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْلا أنْ رَبَطنا عَلَى قلبها لِتَكونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ) وأنبته الله نباتا حسنا وحفظه .

فلما ترعرع قالت آسية لأم موسى : أحب أن تريني ابنى ، فوعدتها يوما تريها إياه فيه ، فقالت آسية لخواصها وقهارمتها : لايبقَ منكنّ واحدة إلا استقبلت ابنى بهدية وكرامة ، فإنى باعثة بأمينة تحصى ما تصنع كل قهرمانة منكن ، فلم تزل الهدايا والتحف تستقبله من وقت أن أخرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون ، فلما أن دخل عليها أكرمته وفرحت به وأعجبها ما رأت من حسن أثرها عليه ، ثم قالت لها : انطلقى به إلى فرعون ليكرمه ، فلما دخلت به على فرعون أخذه ووضعه فى حجره ، فتناول موسى لحية فرعون حتى جذبها ونتف منها بعض شعرات ، وكان فرعون طويل اللحية ؛ ويقال إنه لطم وجهه .

وفى بعض الروايات : أنه كان يلعب بين يدى فرعون وبيده قضيب صغير فضرب به على رأس فرعون ، فغضب غضبا شديدا وتطير منه ، وقال هذا عدوى المطلوب ، فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه ، فبلغ ذلك امرأة فرعون ، فجاءت تسعى إلى فرعون وقالت له : ما بدا لك فى هذا الصبى الذى قد وهبته لى ؟ فأخبرها بما فعل موسى ، فقالت له : إنما هو صبى لايعقل ، وإنما صنع هذا من صباه ، وأنا أجعل فيه بينى وبينك أمرا تعرف به الحق وأضع له حليا من الذهب والياقوت وأضع له جمرا ، فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه ، وإن أخذ الجمرة علمت أنه صبى . ثم إنها وضعت له طَستا فيه الذهب والياقوت ، وطستا آخر فيه الجمرة ، فمد موسى يده على أن يأخذ الجوهر ليقبض عليه ، فحوّل جبريل عليه السلام يده إلى الجمرة فقبض على جمرة ووضعها فى فيه ، فجاءت على لسانه فأحرقته ، وذلك الذى قال فى قوله تعالى (واحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانى يَفْقَهُوا قَوْلى) فقالت له آسية : ألا ترى إلى فعله وأنه صبى لايعقل فكف عن قتله ، وصرف الله عنه ذلك السوء ، فلم

يزل عزيزا مكرما فى بيت فرعون وحببه الله إليه وإلى الناس كلهم حتى كان يحبه كل من يراه .

ويروى أنه سئل إبليس : هل أحببت أحدا من العالمين ؟ قال : لا إلا موسى بن عمران عليه السلام ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : لأن الله تعالى قال (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّى) فلم أتمالك أن أحببته .

الباب الثالث : فى ذكر حلية موسى بن عمران وهارون عليهما السلام

قال كعب الأحبار : كان هارون بن عمران نبى الله رجلا فصيح اللسان بين الكلام ، إذا تكلم تكلم بتؤدة وعلم ، وكان أطول من موسى ، وكان على رأسه شامة وعلى طرف لسانه أيضا شامة سوداء ، وكان موسى بن عمران رجلا آدم اللون جعدا طويلا كأنه من رجال أزدشنوءة ، وكان بلسان موسى عقدة وثقل وسرعة وعجلة ، وكان أيضا على طرف لسانه شامة سوداء .

الباب الرابع : فى قصة قتله القبطىّ وخروجه من مصر وورده مدين

قال أهل التفسير : لما بلغ موسى بن عمران أشده كان يركب مراكب فرعون ، ويلبس ما يلبس فرعون ، وكان يدعى موسى بن فرعون ، وامتنع به عن بنى إسرائيل كثير من الظلم والسخر التى كانت فيهم ، ولا يعلم الناس أن ذلك أتى إلا من قبل الرضاعة ، قالوا : فركب فرعون ذات يوم مركبا وليس عنده موسى ، فلما جاء موسى قيل له إن فرعون قد ركب ، فركب موسى فى أثره ، وأدركه المقيل بأرض يقال لها منف ، فدخلها نصف النهار وقد أغلقت أسواقها وليس فى طرقها أحد ، وهى التى قال الله تعالى فيها (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا) فبينما هو يمشى فى ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان ؛ أحدهما من بنى إسرائيل ، والآخر من آل فرعون كما قال الله تعالى (فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ، هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ ، وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ) الآية ، والذى من شيعته يقال له السامرى ، والذى من عدوه رجل من القبط كان خبازا لفرعون واسمه فاتون ، وكان قد اشترى حطبا للمطبخ فسخر السامرى ليحمله ، فامتنع السامرى ، فلما مر به موسى استغاثه السامرىّ على القبطى ، فقال موسى للقبطىّ دعه ، فقال الخباز لموسى : إنما آخذه فى عمل أبيك ، وأبى أن يخلى سبيله ، فغضب موسى فبطش به وخلص السامرى من يده فنازعه القبطى فوكزه موسى فقتله وهو لا يريد قتله ، فذلك قوله تعالى (فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ) موسى (هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ) ثم (قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) .

وقال وهب : اوحى الله إلى موسى بن عمران : وعزتى وجلالى لو كانت النفس التى قتلت أقرّت لى طرفة عين أنى إله خالق رازق لأذقتك طعم العذاب ، وإنما عفوت عنك لأنها لم تقر لى ساعة واحدة أنى إله خالق رازق .

قالوا : ولما قتل موسى القبطىّ لم يرهما إلا الله تعالى والإسرائيلى . فلما قتله أصبح فى المدينة خائفا يترقب الأخبار ، فأتوا فرعون وقالوا له : إن بنى إسرائيل قد قتلوا رجلا من آل فرعون ، فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم فى ذلك ، فقال فرعون : ائتونى بقاتله ومن يشهد عليه ، لأنه لايستقيم أن يقضى بغير بينة ، ولايثبت ملك على الأخذ بالظلم فاطلبوا ذلك ، فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة ، إذ مر موسى من الغد ، فرأى ذلك الإسرائيلىّ يقاتل فرعونيًا، فاستغاثه الإسرائيلىّ على قتال الفرعونىّ ، فصادف موسى ،وهو نادم على ما كان منه بالأمس ، فكره الذى رآه ، فغضب موسى فمد يده،وهو يريد أن يبطش بالفرعونىّ ، وقال للإسرائيلىّ (إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُبِينٌ) ففرّ الإسرائيلى من موسى وظن أنه يبطش به من أجل أنه غلظ عليه فى الكلام،وكان غضبان، فلما أقبل لنصره ومد يده ظن أنه يريد قتله ،فقال له(يا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِى كما قَتَلْتَ نَفْسًا بالأَمْسِ) الآية ، وإنما قال ذلك مخافة من موسى ،وظن أن يكون موسى أراده ولم يكن أراده وإنما أراد الفرعونى ، فتنازعا ، فذهب الفرعونى فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلىّ ، وذكر أن موسى هو الذى قتل الرجل بالأمس ، وهو المثل السائر : العدوّ العاقل أحرى عليك من الصديق الأحمق ، وينشد فى معناه :

إن اللبيب إذا تزايد بغضه أحرى عليك من الصديق الأحمق

قال : فلما أخبر فرعون بذلك أرسل الذباحين وأمرهم بقتل موسى ، وقال لهم : اطلبوه فإنه غلام لايهتدى إلى الطريق ، فطلب موسى فى ثنيات الطريق ، وكان موسى يسلك الطريق الأعظم ، فجاءه رجل من شيعته من أقصى المدينة، يقال له حزقيل، وكان على بقية من دين إبراهيم ، وكان أول من صدق بموسى وآمن به .

ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « سُبَّاقُ الأُمَمِ ثَلاثَةٌ لَمْ يَكْفُرُوا باللهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ : حِزْقِيلُ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَحَبِيبٌ النَّجَّارُ صَاحِبُ يس ، وَعَلىُّ بنُ أبى طَالِبٍ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ بالجَنَّةِ ،وَهُوَ أَفْضَلُهُمْ » .

قال : فجاء حزقيل مؤمن آل فرعون فأخبر موسى بما أمر به فرعون من قتله واختصر طريقا قريبا حتى سبق الذباحين إليه فأخبره الخبر ، فذلك قوله تعالى (وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى المَدِينَةِ يَسْعَى قالَ يا مُوسَى إِنَّ المَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ) فتحير موسى ولم يدر أين يذهب، فجاءه ملك على فرس بيده عنزة فقال له اتبعنى ، فاتبعه ، فهداه الطريق إلى مدين .

وروى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خرج موسى من مصر إلى مدين وبينهما مسيرة ثمان ليال ، ويقال نحو من الكوفة إلى البصرة ، فلم يكن له طعام إلا ورق الشجر ، فما وصل إليها إلا وقد وقع خف قدمه ، وإن خضرة البقول لترى من بطنه .

الباب الخامس : فى دخول موسى مدين ، وتزويج شعيب ابنته إياه

قالت العلماء : لما انتهى موسى إلى أرض مدين فى ثمان ليال نزل فى أصل شجرة وإذا تحتها بئر ، وهى التى قال الله تعالى فيها (ولَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عليهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ) أى تحبسان أغنامهما ، فقال لهما (ما خَطْبُكُمَا قالَتَا لانَسْقِى حتى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ) لأنا امرأتان ضعيفتان لانقدر على مزاحمة الرِّعاء ، فإذا سقوا مواشيهم سقينا أغنامنا من فضول حاجتهم وما يبقى من حياضهم (وأبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) تعنيان شعيبا .

وروى حماد بن سلمة عن أبى حمزة عن ابن عباس قال : اسم أبى امرأة موسى الذى استأجره ثبرون صاحب مدين ابن أخى شعيب النبى عليه السلام ، واسم إحدى الجاريتين ليا ويقال حنونا ، والأخرى صفورا ،وهى امرأة موسى عليه السلام ، فلما قالتا ذلك لموسى رحمهما وكان هناك بئر على رأسها صخرة عظيمة ، وكان النفر من الرجال يجتمعون إليها حتى يرفعوها عن رأسها .

وحكى الأستاذ أبوسعيد عبد الملك بن أبى عثمان الواعظ أن تلك البئر غير التى تسقى منها الرعاء قال : وقد حضرتها ورأيتها ، قال : فرفع موسى الصخرة عن رأسها وأخذ دلوا لهما ، وقال لهما : قدّما غنمكما فسقى لهما أغنامهما حتى أرواها ، فرجعتا إلى أبيهما سريعا قبل الناس ، وتولى موسى إلى الظل ظل الشجرة (وقالَ رَبِّ إنِّى لِمَا أنْزَلْتَ إلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) . قال ابن عباس : لقد قال ذلك موسى ولو شاء إنسان أن ينظر إلى خضرة أمعائه من شدة الجوع لنظرها ، وما سأل الله تعالى إلا أكلة . وقال أبو جعفر محمد الباقر : لقد قالها وإنه لمحتاج إلى شق تمرة . قالوا : فلما رجعتا إلى أبيهما قال لهما : ما أعجلكما وأسرع رواحكما الليلة ؟ قالتا : وجدنا رجلا صالحا فرحمنا فسقى لنا أغنامنا ، فقال لإحداهما اذهبى فادعيه إلىّ ، فجاءته إحداهما وهى التى تزوجها موسى ،وهى تمشى على استحياء ، فقالت له : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فقام موسى فتقدمته،وهو يليها : أى يتبعها ، فهبت ريح فألصقت ثوب المرأة بردفها ، فكره موسى أن يرى ذلك منها ، فقال لها موسى : امشى خلفى ودلينى على الطريق ، فإذا أخطأت فارمى قدامى بحصاة حتى أنهج نهجا ، فإنا بنى يعقوب لانتظر إلى أعجاز النساء، فنعتت له الطريق إلى منزل أبيها ، ومشت خلفه حتى دخل على شعيب ، فسأل شعيب موسى عن حاله وقصته ، فأخبره الخبر ، فقال له : لاتخف نجوت من القوم الظالمين ، فقالت إحداهما وهى التى كانت

الرسول إلى موسى : يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوىّ الأمين .

قال النبي صلى الله عليه وسلم « أَصْدَقُ النِّساءِ فِراسَةً امْرأتانِ كِلْتاهُما تَفَرَّسَتا فى موسَى فأصابَتا : إحْداهُما امْرأةُ فِرْعَوْنَ حينَ قالَتْ قُرَّةُ عَيْنٍ لى ولَكَ لاتقْتُلوهُ ، والأُخْرَى بِنْتَ شُعَيْبٍ حيثُ قالَتْ (يا أبَتِ اسْتأْجِرْهُ إنَّ خيرَ مَنِ اسْتأْجَرْتَ القَوِيُّ الأمينُ) » وإنما قالت القوىّ الأمين لأنه أزال الحجر العظيم الذى لايرفعه إلا أربعون رجلا ، فقال لها أبوها : هبك أنك عرفت قوّته ، فما أعلمك بأمانته ؟ فأخبرته بما أمرها موسى من استدبارها إياه فى الطريق ، فازداد فيه شعيب رغبة ، فقال له (إنى أُريدُ أنْ أُنْكِحَكَ إحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ على أنْ تأْجُرَنى ثَمانىَ حِجَجٍ) إلى قوله (مِنَ الصَّالِحِينَ) أى فى حسن الصحبة معك والوفاء بشرطك ، فقال موسى (ذلكَ بَيْنِى وبينَكَ أيَّما الأجلَيْنِ قَضَيْتُ) . . . الآية .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل « أىّ الأجلين قضى موسى ؟ قال : أكمَلَهُما وأفْضَلَهُما » وروى أنه قال « قَضَى أوْفاهُما وتَزَوَّجَ بصُغْراهُما » .

الباب السادس : فى ذكر نعت عصا موسى ، وبدء أمرها

اختلف العلماء فى اسمها والمنافع التى كانت فيها وما ظهر من دلالة قدرة الله فيها . قالوا : ثم إن شعيبا أمر ابنته أن تأتيه بعصاليعطيها موسى ، فيستعين بها فى رعايته ، فجاءته بعصا وكانت تلك العصا وديعة عنده دفعها إليه ملك على صورة رجل ، فردها عليها شعيب وأمرها أن تأتيه بعصا أخرى ، فما زالت ترجع وتأتيه بها بعينها ، لأنها كلما ردتها إلى مكانها وأرادت أن تأخذ غيرها سقطت هى فى يدها ، فما زالت كذلك حتى أخذها شعيب وأعطاها موسى ، فلما أعطاها إياه ندم على ذلك لأنها كانت وديعة عنده ، فقال له شعيب : رد علىّ العصا ، فأبى أن يردها ، فتنازعا إلى أن شرطا على أنفسهما أن يرتضيا حكم أول رجل يدخل عليهما ، فأتاهما ملك يمشى فتحا كما إليه ، فقال : ضعها على الأرض فمن حملها فهى له ، فوضعها موسى على الأرض فعالجها الشيخ فلم يطق حملها ، فأخذها موسى بيده فرفعها ، فلما رأى شعيب ذلك تركها له . وفى رواية أخرى أن موسى لبث عند شعيب ما شاء الله ثم استأذنه فى الانصراف ، فأذن له وقال له : ادخل هذا البيت وخذ عصا من العصىّ تكون معك تدرأ بها السباع عنك وعن غنمك ، وكانت عصىّ الأنبياء يومئذ عند شعيب ، فلما دخل موسى البيت ، وثبت إليه العصا فصارت فى يده ، فخرج بها ، فقال له شعيب : ردها وخذ غيرها ، وذلك أن شعيبا كان قد أخبر بأمر العصا ، ولم يدر شعيب أن صاحبها هو موسى ، فردها موسى إلى البيت فألقاها وذهب ليأخذ غيرها ، فوثبت حتى صارت فى يده ، ففعل ذلك مرارا ، فقال له شعيب : ألم أقل لك خذ غيرها ؟ فقال موسى :

قد رددتها مرات ، فكلما فعلت ذلك وثبت حتى تصير فى يدى ، فعلم شعيب أن ذلك أمر يريده الله تعالى ، فقال له : خذها .

قالوا : وزوّجه ابنته ، ورعى له موسى عشر سنين ، وولد لموسى أولاد من ابنة شعيب . قالوا : لما خرج موسى من مدين ووافى مصر كان شعيب يزوره فى كل سنة ، فإذا أكل قام موسى على رأسه ثم يكسر له الخبز ويلقيه بين يديه ويقول له كل .

وقال مقاتل : بل كان جبريل هو الذى دفع العصا إلى موسى وهو متوجه إلى مدين بالليل . قال كعب : لما قدم مكة عبد الله بن عمرو بن العاص قلت : سلوه عن ثلاث ، فإن أخبركم فإنه عالم ، سلوه عن شىء من الجنة وضعه الله للناس ، وعن أول ما وضع فى الأرض ، وعن أول شجرة غرست فى الأرض ، فسئل عنها ، فقال عبد الله : أما الشىء الذى وضعه الله للناس فى الأرض من الجنة فهو هذا الركن الأسود ، وأما أول ما وضع للناس فى الأرض فبئر برهوت باليمن يردها أرواح الكفار ، وأما أول شجرة وضعها الله تعالى فى الأرض فالعوسجة التى اقتطع منها موسى عصاه ، فلما بلغ ذلك كعبا قال : صدق الرجل . فعلى هذا القول إنما اقتطع موسى عصاه من تلك الشجرة ، فأظهر الله فيها قدرته ومعجزة موسى فيها .

وقال ابن عباس : كتب صاحب الروم إلى معاوية يسأله عن أربعة أشياء لم يركضوا فى رحم ، فلما قرأ معاوية الكتاب قال : أخزاه الله وما علمى بها ههنا ، فقيل له : اكتب إلى ابن عباس فاسأله عن ذلك ، فكتب إليه يسأله عنها ، فكتب إليه ابن عباس فى الجواب : أما الأربعة التى لم يركضوا فى رحم : فآدم ، وحواء ، والكبش الذى فدى به إسمعيل ، وعصا موسى حيث ألقاها فصارت ثعبانا .

وقال أكثر العلماء : كانت عصا موسى من آس الجنة ، وكان طولها عشرة أذرع على طول موسى ، حملها آدم من الجنة إلى الأرض ، فورثها الناس صاغرا عن كابر إلى أن وصلت إلى شعيب ، فأعطاها موسى . واختلف العلماء فى اسمها ؛ فقال سعيد بن جبير : اسمها ماسا . وقال مقاتل ابن سليمان : اسمها نفعة ، وقال ابن حبان : اسمها غياث ، وقال آخرون اسمها عليق .

الباب السابع : فى صفة المآرب التى كانت فيها لموسى

قال أهل العلم بأخبار الماضين : كان لعصا موسى شُعبتان و مِحْجن فى أسفل الشعبتين وسنان حديد فى أسفلها ، وكان موسى إذا دخل مفازة ليلا ، ولم يكن قمر تضىء شعبتاها كالشعبتين من نار تضيئان له مد البصر ، وكان إذا أعوزه الماء دلاها فى البئر فتمتد على قدر قعر البئر ويصير فى رأسها شبه الدلو ، فيستقى بها ، وإذا احتاج إلى الطعام ضرب الأرض بها فيخرج ما يأكل يومه ، وكان إذا اشتهى فاكهة من الفواكه غرسها فى الأرض فتخرج

أغصان تلك الشجرة التى اشتهى موسى فاكهتها وأثمرت له من ساعتها ، ويقال : كانت عصا موسى من اللوز ، وكان إذا جاع ركزها فى الأرض فأورقت وأثمرت وأطعمت ، وكان يأكل منها اللوز ، وكان إذا قابل بها عدوه يظهر على شعبتيها تنينان يقاتلان ، وكان يضرب بها على الجبل الوعر الصعب المرتقى ، وعلى الحجر والشوك فتفرج له الطريق ، وكان إذا أراد عبور نهر من الأنهار بلا سفينة ضرب بها عليه فانفلق وبدا له فيه طريق منفرج ، وكان يشرب من إحدى شعبتيها العسل، ومن الأخرى اللبن ، وكان إذا أعيا فى طريقه ركبها فتحمله إلى أى موضع شاء من غير ركض ولا تحريك، وكانت تدله على الطريق ، وكانت تقاتل أعداءه ، وكان إذا طلب منها الطيب فاح منها الطيب فيتطيب ويطيب ثوبه ، وإذا كان فى طريق فيه لصوص يخاف الناس جانبهم تكلمه العصا ، فتقول له : خذ جانب كذا وكذا ، ولا تأخذ حيث كذا وكذا ، وكان يَهُشُّ بها على غنمه ،ويدفع بها السباع عنها والحشرات والحيات ، وإذا سافر وضعها على عاتقه وعلق عليها جهازه ومتاعه ومخلاته ومقلاعه وكساءه وطعامه وشرابه . قال ابن حبان: قال شعيب لموسى حين زوجه ابنته وسلم إليه أغنامه يرعاها: اذهب بهذه الأغنام، فإذا بلغت مفرق الطريق فخذ على يسارك ولا تأخذ على يمينك وإن كان الكلأ بها أكثر فإن هناك تنينا عظيما أخشى عليك وعلى الأغنام منه ، فذهب موسى بالأغنام حتى إذا بلغ مفرق الطريق أخذت الأغنام ذات اليمين ، فاجتهد موسى أن يصرفها ذات الشمال فلم تطعه ، فخلاها على ما تريده ثم نام موسى والأغنام ترعى ، وإذا التنين قد جاء ، فقامت العصا فحاربته فقتلته ، وأتت فاستلقت إلى جانب موسى وهى دامية ، فلما استيقظ موسى رأى العصا دامية والتنين مقتولا ، فعلم موسى أن فى تلك العصا قدرة وعرف أن لها شأنا ، فهذه مآرب موسى إذا كانت فى يده . وأما إذا ألقاها فيرى أنها كانت تقلب حية كأعظم ما يكون من الثعابين سوداء مدلهمة تدبّ على أربع قوائم فتصير شعبتاها فمًا وفيه اثنا عشر نابا وضرسا لها صريف وصرير يخرج منها لهبُ النار ، ويصير محجنها عرفا لها كأمثال النار تلتهب ،وعيناها تلمعان كما يلمع البرق،تهب منها رياح السموم فلا تصيب شيئا إلا أحرقته، تمر بالصخرة مثل الناقة الكوماء فتبتلعها ، حتى إن الصخور فى جوفها لتقعقع ، وتمر بالشجرة فتقصمها بأنيابها وتحطمها وتبتلعها ، وجعلت تتلمظ وتتبرم كأنها تطلب شيئا تأكله ، وكانت تكون فى عظم الثعبان وفى خفة الجانّ ولين الحية ،وذلك موافق لنص القرآن حيث يقول الله تعالى فى موضع (فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ) وفى موضع آخر (كَأَنَّهَا جَانٌّ) وفى موضع آخر (فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى) .

الباب الثامن : فى ذكر خروج موسى عليه السلام من مدين ، وتكليم الله إياه فى الطريق ، وإرساله إلى فرعون ، واستعانته بأخيه هارون ، وكيفية ذهابهما إلى فرعون لتبليغ الرسالة

قال الله عز وجل (فَلَمَّا قَضَى موسَى الأجَلَ) الآية . قالت العلماء بسير الأنبياء : لما ورد موسى أرض مدين ، وأتى عليه من يوم وروده تسع سنين ، قال له شعيب : إنى وهبت لك كل بَلْقاء وأبلق من نتاج أغنامى التى تضعها فى هذه السنة : يعنى السنة العاشرة ، أراد بذلك مَبَرة موسى وصلة ابنته صفورا امرأة موسى . قال : فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك الماء الذى فى مستقى الأغنام ففعل موسى ذلك ، ثم سقى الأغنام من ذلك الماء فما أخطأت واحدة من تلك الأغنام إلا وضعت حملها مرتين ما بين أبلق وبلقاء ، فعلم شعيب أن ذلك رزق ساقه الله تعالى إلى موسى وأهله ، فوفى موسى بشرطه وسلم إليه الأغنام التى وهبها منه وقضى موسى أتمّ الأجلين وأوفاهما (فَلَمَّا قَضَى موسَى الأجَلَ وَسارَ بأهْلِه) منفصلا من أرض مدين ، وكان فى أيام الشتاء ، ومعه امرأته وأغنامه ، وهى فى شهرها لاتدرى أتضع ليلا أو نهارا ، فانطلق فى بريّة الشام عادلا عن المدائن والعمران مخافة الملوك الذين كانوا بالشام ، وكان أكبر همه يومئذ طلب أخيه هرون وإخراجه من مصر إن استطاع إليه سبيلا . فسار موسى فى البرية غير عارف بطرقها ، فألجأه المسير إلى جانب الطور الأيمن الغربى فى عشية شاتية شديدة البرد ، وأظلم عليه الليل وأخذت السماء ترعد وتبرق وتمطر وأخذ امرأته الطلق ، فعمَد موسى إلى زنده فقدحه فلم ينور فتحير وقام وقعد إذ لم يكن له عهد بمثل ذلك فى الزند ، وأخذ يتأمل ماقرب وما بعد تحيرا وضجرا ، ثم أخذ يتسمع طويلا هل يسمع حسا أو حركة ؟ فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور نورا فحسبه نارا (فقالَ لأهْلِهِ امْكثُوا إنى آنَسْتُ نارًا لعلّى آتيكُمْ منها بقَبَسٍ أوْ أجِدُ على النَّارِ هُدًى) يعنى من يدلنى على الطريق ، وكان قد ضل الطريق ، فلما أتاها رأى نورا عظيما ممتدا من عنان السماء إلى شجرة عظيمة هناك . واختلفوا فى تلك الشجرة ما كانت؟؛ فقيل العوسجة ، وقيل العناب ، فتحير موسى وارتعدت فرائصه حيث رأى نارا عظيمة ليس لها دخان وهى تلتهب وتشتعل من جوف شجرة خضراء لاتزداد النار إلا عظما ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ، فلما دنا موسى منها استأخرت عنه ، فلما رأى ذلك رجع عنها وخاف ثم ذكر حاجته إلى النار فرجع إليها ودنت منه فـ(نُودِىَ مِنْ شاطئِ الوادِى الأيْمَنِ فى البُقْعَةِ المبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أنْ يامُوسَى) فنظر فلم ير أحدا ، فنودى (إنى أنا اللهُ رَبُّ العالَمِينَ) فلما سمع ذلك علم أنه ربه تعالى ، فناداه ربه أن ادن واقرب ، فلما قرب وسمع النداء ، ورأى تلك الهيبة خفق قلبه وكلّ لسانه وضعفت بنيته وصار حيا كميت

إلا أن روح الحياة تتردد فيه من غير حراك ، وأرسل الله إليه ملكا يشد ظهره ويقوى قلبه ، فلما ثاب إليه عقله نودى (فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) . وكان السبب فى أمره بخلع نعليه ما أخبرنا حامد بن عبد الله الأصبهانى قال : حدثنا يحيى السدى قال : حدثنا أحمد بن بجدة قال : حدثنا الجمالى قال : حدثنا عيسى بن يونس عن حميد عن عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله « فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ قال : كانتا مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ مَيِّتٍ » وفى بعض الأخبار غير مدبوغ .

وقال مجاهد وعكرمة : إنما قال : فاخلع نعليك كى تمس راحة قدميه الأرض الطيبة فتناله بركتها لأنها قدست مرتين . وقال سعيد بن جبير : إنما قال له ذلك لأن الحفوة من أمارات التواضع والاحترام ، فقيل له : طأ الأرض حافيا كما تدخل الكعبة لتحصل من بركة الوادى . وقال أهل الإشارة : النعل عبارة عن المرأة ، وذلك تأويله فى المنام ، فقيل له : فرغ قلبك من شغل أهلك . ثم قال تعالى تسكينا لقلبه وإذهابا لدهشته ، (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ؟ قَالَ هِيَ عَصَايَ) الآية ، فقال الله تعالى (أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى) قد صارت شعبتاها فمها ومحجنها عرفا لها فى ظهرها ، وهى تهتز لها أنياب وهى كما شاء الله أن تكون ، فرأى موسى أمرا فظيعا فولى مدبرا ولم يعقب ، فناداه ربه تعالى (أَنْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ، إنك من الآمنين ، سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى) أى نردها عصا كما كانت . ويقال : إن الحكمة فى أمر الله تعالى إياه بإلقاء العصا قبل أن يصل إلى فرعون لكيلا يفزع منها موسى إذا رآها على تلك الحالة عند فرعون . فلما أقبل موسى قال له : خذها إذ كانت عصاك ولا تخف لأنه كان ادعى الملك ، فقال هى عصاى ، فنبه على ذلك ، وكان على موسى جبة من صوف ، فلف كمه على يده وهو لها هائب ، فنودى أن احسر يدك ، فحسر كمه عن يده ثم أدخل يده تحت لحييها ، فلما أدخل يده قبض عليها فإذا هى عصاه فى يده ، ويده بين شعبتيها حيث كان يضعها ، ثم قال له : أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى) وإنما قال فى جيبك لأنه لم يكن للبوسه كم واسع فضاق عليه فأدخل يده فى جيبه ثم أخرجها ، فإذا هى نور تلتهب يكل عنه البصر ثم ردها فخرجت كما كانت على لون يده ، فقال الله تعالى (فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ) الآية ، ثم قال له (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى) فقال موسى (رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا » إلى قوله « يُكَذِّبُونِ » فقال له : يا موسى إنى أوقفتك موقفا لا أجعل بعده لأحد عليك سلطانا دونى ، ولا ينبغى لمن بعدك أن يسمع كلامى وأنت فى أقرب الأماكن منى ، وعلى موسى يومئذ مدرعة من صوف قد خللها بخلال وجبة من صوف

وثياب من صوف وقلنسوة من صوف ، والله تعالى يكلمه ويعهد إليه ويقول له : يا موسى انطلق برسالتى وأنت بعينى وسمعى ومعك قوتى وبصرى ، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقى بطر نعمتى وأمن مكرى وعبد دونى ، وغرته الدنيا حتى جحد حقى وأنكر ربوبيتى ، وزعم أنه لايعرفنى ، وإنى أحلف بعزتى وجلالى لولا الحجة والقدرة اللتان جعلتهما بينى وبين خلقى لبطشت به بطشة جبار ، يغضب لغضبه السموات والأرض والبحار والجبال والشجر والدواب ، فلو أذنت للسماء ، لحصبته وللأرض لابتلعته وللجبال لدكدكته ، وللبحار لغرقته ، ولكن سقط من عينى وهان علىّ ، وصغر عندى ووسعه حلمى ، وأنا الغنى عنه وعن جميع خلقى ، وحق ذلك لى ، وأنا خالق الغنىّ والفقير ، ولا غنىّ إلا من أغنيته ولا فقير إلا من أفقرته ، فأبلغه رسالتى وادعه إلى عبادتى وتوحيدى والإخلاص لى ، وحذره نقمتى وبأسى وذكّره آياتى ، وأعلمه أنه لايقوم لغضبى شىء ، وقل له فيما بين ذلك قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ، وبجله فى خطابك إياه ولا يروعك ما ألبسته من لباس الدنيا ، فإن ناصيته بيدى ولا يطرف ولا ينطق ولا يتنفس عن شىء إلا بعلمى ، وأخبره بأنى من العفو والمغفرة أسرع منى إلى الغضب والعقوبة ، وقل له : أجب ربك فإنه واسع المغفرة ، وقد أمهلك فى طول هذه المدة ، وفى كلها تدّعى الربوبية دونه وتصدّ عن عبادته ، وفى كل ذلك يمطر عليك السماء وينبت لك الأرض ويلبسك العافيه ، حتى لاتهرم ولا تسقم ولم تفتقر ولم تغلب ، ولو شاء لعاجلك بالنقمة ولسلبك ما أعطاك ولكنه ذو حلم عظيم ؛ ثم أمسك الكلام عن موسى سبعة أيام بلياليها ، ثم قيل له بعد سبع ليال : أجب ربك يا موسى فيما كلمك فقال : « رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى » إلى قوله تعالى : بَصِيرا ، فقال الله تعالى (قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسَى) فجاهد بنفسك وأخيك ، وكان قد خطر فى قلب موسى أن فرعون فى بأس عظيم وجند كثير وأنا وأخى وحيدان فريدان ، فقال الله تعالى له : إنكما جندان عظيمان من جندى وأنا معكما أسمع وأرى وأبصركما وأكون معكما فلاتستضعفان ولا تستقلان ، ولو شئت أن آتيه بجنود لا قِبَل له بها فعلت ، ولكن ليعلم ذلك الشقىّ الضعيف الذى قد أعجبته نفسه وجنوده أن الفئة القليلة ولا قليل معى تغلب الفئة الكثيرة بإذنى ، ولا يعجبنكما زينته ولا يهولنكما عدته ، فلو شئت أن أزينكما من زينة الدنيا وبهجتها ما يبهت فرعون وملأه إذا نظروا إليها ويعلم أن مقدرته تعجز عما آتيتكما فعلت ، فلا تأسفا عما أزويه عنكما من متاع الدنيا وزينتها ، فإن ذلك دأبى فى أوليائى وأصفيائى ، أذودهم عن نعيم الدنيا ولذتها كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن المراتع الرديئة ، لكى تستكملوا نصيبكم من كرامتى فى الآجل ؛ واعلم أنه لايتزين أحد من عبادى بزينة هى أبلغ من الزهد فى الدنيا وهى زينة الأبرار . ويقال : إن الله تعالى كلمه فى تلك المدة مئة ألف كلمة وأربعة عشر ألف كلمة ، يقول له مع كل كلمة : قتلت نفسا بغير حقّ ،

وقيل لموسى عليه السلام : بم عرفت أن الله تعالى هو الذى كلمك ؟ فقال : لأن كلام المخلوق إنما يسمع من جهة واحدة بحاسة واحدة وهى السمع ، وإنى كنت أسمع كلام الله تعالى من جميع الجهات بجوارحى كلها ، فعرفت أنه كلام الله تعالى .

قالوا : ولما صعد موسى الجبل لمناجاة الله تعالى صار الجبل عقيقا ، فلما نزل موسى عنه عاد إلى حالته الأولى ، فلما رجع موسى شيَّعته الملائكة ، وكان قلب موسى مشغولا بولده وأراد أن يختنه ، فأمر الله تعالى ملكا فمد يده ، ولم تزل قدمه عن موضعها حتى جاء به الملك ملفوفا فى خرقة وناوله إلى موسى ، فأخذ حجرين فحك أحدهما بالآخر حتى حدده كالسكين من الحديد ، فختن به ابنه . ثم إن الملك عالج المقطوع من المختون فتفل فيه فبرأ من ساعته بإذن الله تعالى ، ثم إن الملك رده إلى موضعه الذى جاء به منه . ولم يزل أهل موسى مقيمين فى ذلك المكان لايدرون ما فعل موسى حتى مر بهم راع من أهل مدين فعرفهم ، فاحتملهم وردهم إلى مدين ، فكانوا عند شعيب حتى بلغهم خبر موسى بعد ما فلق البحر وجاوزه ببنى إسرائيل وأغرق الله فرعون ، فبعث بهم شعيب إلى مصر لموسى . قالوا : وخرج موسى من فوره ذلك لما بعثه الله إلى مصر ، لاعلم له بالطريق ، وكان الله تعالى يهديه ويدله ، وليس معه زاد ولاسلاح ولا حَمولة ولا صاحب له ولا شىء من الأشياء غير العصا ومدرعة صوف وقلنسوة صوف ونعلين ، وكان يظل صائما ويبيت قائما ويستعين بالصيد وبقُول الأرض حتى ورد مصر . فلما قرب من مصر أوحى الله تعالى إليه : لاتخف ولا تجزع . ثم أوحى الله تعالى إلى أخيه هارون يبشره بقدوم موسى ويخبره أنه قد جعله وزيرا له ورسولا معه إلى فرعون ، وأمره أن يمر يوم السبت غرّة ذى الحجة متنكرا إلى شاطئ النيل ليلتقى بموسى تلك الساعة . قال : فخرج هارون وأقبل موسى فالتقيا على شاطئ النيل قبل طلوع الشمس ، واتفق أنه كان يوم ورود الأسد الماء ، وكانت لفرعون أُسُد تحرسه فى غيضة محيطة بالمدينة من حواليها ، وكانت ترد الماء غبا ، وكان فرعون إذ ذاك فى مدينة حصينة عليها سبعون سورا ، وكان بين كل سورين بساتين وأنهار ذات مزارع وأرض واسعة فى رَبَض ، لكل سور سبعون ألف مقاتل ، ومن وراء تلك المدينة غيضة تولى فرعون غرسها بيده وعمل فيها وسقاها بالنيل وأسكنها الأُسد ، فتناسلت وتوالدت حتى كثرت ثم اتخذها جندا من جنوده تحرسه ، وجعل خلال تلك الغيضة طرقا تفضى بمن سلكها إلى أبواب للمدينة معلومة ، ليس لتلك الأبواب طرق غيرها ، فمن أخطأها وقع فى تلك الغيضة فتأكله الأسود ، وكانت الأسود إذا وردت النيل ظلت عليه يومها كله ثم تصدر مع الليل . قال : فلما التقى موسى بهارون وكان يوم ورودها ، فلما رأتهما الأسد مدت أعناقها ورءوسها إليهما ، وشخصت بأبصارها نحوهما ، وقذف الله فى قلوبها الرعب ، فانطلقت نحو الغيضة مسرعة هاربة على وجوهها ، يطأ بعضها بعضا حتى

اندست فى الغيضة ، وكان لها ساسة يسوسونها وذادة يذودونها : أى يغرونها ويسلطونها على الناس ، فلما أصابها ما أصابها خاف ساستها من فرعون ولم يشعروا من أين أتوا ؛ ثم إن موسى وهارون انطلقا فى تلك الغيضة حتى وصلا إلى باب المدينة الأعظم الذى هو أقرب أبوابها إلى منزل فرعون ، وكان منه يدخل ويخرج وذلك ليلة الاثنين بعد هلال ذى الحجة بيوم ، فأقاما عليه سبعة أيام ، فكلمهما واحد من الحراس وقال لهما : هل تدريان لمن هذا الباب ؟ فقال موسى : إن هذا الباب والأرض كلها وما فيها لرب العالمين وأهلها عبيد له ، فسمع ذلك الرجل كلاما لم يسمع مثله قط ، ولم يظن أن أحدا من العالمين يفصح بمثله . فلما سمع الرجل ماسمع أسرع إلى كبرائه الذين فوقه وقال لهم : سمعت اليوم قولا ، وعاينت عجبا من رجلين هما عندى أعظم وأشنع وأفظع مما أصابنا فى الأسد ، وما كانا يقدران أن يقدما على ما قدما عليه إلا بسحر عظيم ، وأخبرهم بالقصة . فلم يزل ذلك الخبر يتداول بينهم حتى انتهى إلى فرعون .

قال السدى بإسناده : سار موسى بأهله نحو مصر حتى أتاها ليلا ، فتضيفَ أمه وهى لاتعرفه ، فأتاها فى ليلة كانوا يأكلون فيها الطفيشل فنزل فى جانب الدار فجاء هارون ، فلما أبصر ضيفه سأل عنه أمه ، فأخبرته فدعاه فأكل معه ،فلما قعدا وتحدثا سأله هارون : من أنت ؟ فقال : أنا موسى ، فقام كل واحد منهما إلى صاحبه فاعتنقه ؛ فلما تعارفا قال له موسى : يا هارون انطلق معى إلى فرعون ، فان الله تعالى قد أرسلنا إليه ، فقال له هارون سمعا وطاعة ، فقامت أمهما وصاحت وضجت وقالت : أنشد كما الله أن لاتذهبا إلى فرعون فيقتلكما ، فأبيا عليها ومضيا لأمر الله تعالى ، فانطلقا إليه ليلا ، فأتيا الباب والتمسا الدخول عليه ليلا ، فقرع موسى الباب ففزع فرعون وفزع البوَّاب ، فقال فرعون : من هذا الذى يضرب بابى فى هذه الساعة ؟ فأشرف عليهما البواب وكلمهما ، فقال له موسى : إنى أنا رسول رب العالمين ، ففزع البواب وأتى فرعون وأخبره بما سمع ، وقال له : إن هنا إنسانا مجنونا يزعم أنه رسول رب العالمين . وقال ابن إسحاق : خرج موسى لما بعثه الله تعالى حين قدم مصر على باب فرعون هو وأخوه هارون يلتمسان الإذن عليه وهما يقولان (إنَّا رَسُولُ رَبِّ العالَمِينَ) فكثنا فيما بلغنا سنتين يغدوان إلى بابه ويروحان ، وفرعون لايعلم بهما ولا يجترئ أحد أن يخبره بشأنهما حتى دخل عليه بطال له يلعب معه ويضحكه ، فقال له : أيها الملك إن على بابك رجلين يقولان قولا عجيبا يزعمان أن لهما إلها غيرك ، فقال فرعون : أدخلوهما ، فأدخل موسى ومعه هارون عليهما السلام .

الباب التاسع : فى ذكر دخول موسى وهرون على فرعون

قال الله تعالى (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إنَّا رَسُولُ رَبِّ العالَمِينَ) وقال تعالى (فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) .

وروى عمرو بن عَبيد عن الحسن البصرى فى هذه الآية قال: قال لهما أَعذِرا إليه لعله يتذكر أو يخشى ، فقولا له : إن لك ربا ومعادا ، وإن بين يديك جنة ونارا لعله عند ذلك يتذكر أو يخشى وعيدكما ، وهو عندى لا يتذكر ولا يخشى . قال : لكيلا يقول أهلكته قبل أن أُعذِر إليه. قال : فلما أذن فرعون لموسى وهارون دخلا عليه، فلما وقفا عنده دعا موسى بدعاء ، وهو: لاإله إلا الله الحليم الكريم ،لاإله إلا الله العلى العظيم، سبحان رب السموات السبع والأرضين السبع وما فيهن وما بينهن ورب العرش العظيم ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . اللهم إنى أدرأ بك فى نحره ، وأعوذ بك من شره ، وأستعين بك عليه ، فاكفنيه بما شئت . قال : فتحول ما فى قلب موسى من الخوف أمْنا ، وكذلك كل من دعا بهذا الدعاء وهوخائف أمّن الله خوفه ونفس كربته وهوّن عليه سكرات الموت . ثم إن فرعون قال لموسى : من أنت ؟ فقال : أنا رسول رب العالمين ، فتأمله فرعون فعرفه ، فقال له (أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الكافِرِينَ) معنا على ديننا هذا الذى هو الآن تعيبه، قال موسى (فَعَلْتُها إِذاً وأنا مِنَ الضّالِّينَ) أى من المخطئين، ولم أرد بذلك القتل (فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً وجَعَلَنِى مِنَ المُرْسَلِينَ) ثم أقبل موسى ينكر عليه ما ذكره له من يده عليه، فقال (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَىَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِى إِسْرائِيلَ) أى اتخذتهم عبيدا تنتزع أبناءهم من أيديهم ،فتسترقّ من شئت وتقتل من شئت : أى إنما صيرنى إليك ذلك (قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ العالَمِينَ ؟ قالَ رَبُّ السَّمٰواتِ والأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنتُمْ مُوقِنِينَ قالَ فِرْعَوْنُ لِمَنْ حَوْلَهُ) من ملئه (أَلا تَسْتَمِعُونَ) إنكارا لما قال موسى (قالَ مُوسَى رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الأَوَّلِينَ. قالَ فِرْعَوْنُ: إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) يعنى ما هذا بكلام رجل صحيح العقل ،إذ يزعم أن لكم إلها غيرى (قالَ مُوسَى رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنتُمْ تعقِلونَ) ثم قال فرعون لموسى (لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهاً غَيْرِى لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ. قالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُبِينٍ) تعرف به صدقى وكذبك وحقى وباطلك (قالَ فِرْعَوْنُ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ، فَأَلْقَى مُوسَى عَصاهُ فَإِذا هِىَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ) فاتحة فاها قد ملأت ما بين جانبى القصر واضعة لحيها الأسفل فى الأرض والأعلى على سور القصر ، حتى رأى بعض من كان خارجا من مدينة مصر رأسها ، ثم توجهت لنحو فرعون تأخذه ، فانفضّ منها الناس وذُعِر منها فرعون ووثب عن سريره وأحدث حتى قام من بطنه فى يومه ذلك أربعين مرة ، وكان

فيما يزعمون لا يسعل ولا يتمخط ولا يتصدع رأسه ولا تصيبه آفة مما تصيب الناس ، وما كان يقوم إلا فى كل أربعين يوما مرة واحدة ، وكان أكثر ما يأكل الموز لأنه لا يكون له ثفل فيحتاج إلى القيام ، وكانت هذه الأشياء مما زين له أن قال ما قال ، لأنه ليس له من الناس شبيه ؛

قالوا: فلما قصدته الحية صاح يا موسى أنشدك اللهَ وحرمةَ الرَّضاع إلا ما أخذتها وأمسكتها عنى ، وأنا أومن بك وأرسل معك بنى إسرائيل ، فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت ؛ ثم إن موسى نزع يده من جيبه فأخرجها ، فقال له فرعون هذه يدك فما فيها ؟ فأدخلها موسى فى جيبه ثم أخرجها ولها نور ساطع فى السماء تكلّ عنه الأبصار ، قد أضاء ما حولها ودخل ضوءها البيوت ورئى من الكوى ومن وراء الحجب ، فلم يستطع فرعون النظر إليها ، ثم ردها موسى إلى جيبه ثم أخرجها فإذا هى على لونها الأول ، قالوا فهمّ فرعون بتصديقه فقام إليه هامان وجلس بين يديه ، ثم إنه قال له : بينما أنت إله تُعبَد إذ أنت تابع لعبد ، فقال فرعون لموسى : أمهلنى اليوم وغدا ، فأوحى الله لموسى أن قل لفرعون: إنك إن آمنت بالله وحده عمرتك فى ملكك ، ورددتك شابا طريا ، فاستنظره فرعون ، فلما كان من الغد دخل إليه هامان ، فأخبره فرعون بما وعده موسى من ربه ، فقال له هامان: والله ما يعدل هذا عبادة هؤلاء لك يوما واحدا ، ونفخ فى منخره ، ثم قال له هامان : أنا أردك شابا فأتى بالوشم فخضبه به ، فهو أول من خضب بالسواد ، فلذلك كرهه صلى الله عليه وسلم ونهى عنه ، فلما دخل عليه موسى ورآه على تلك الحالة هاله ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه لا يهولنك ما رأيت ، فإنه لن يلبث إلا قليلا حتى يعود إلى حالته الأولى .

وفى بعض الروايات أن موسى وهارون لما انصرفا من عند فرعون أصابهما مطر فى الطريق فأتيا على عجوز من أقرباء أمهما ، وكان فرعون وجه الطلب فى أثرهما ، فلما دخل عليهما الليل ناما فى دارها ، وجاء الطلب إلى الباب والعجوز منتبهة ، فلما أحست بهم خافت عليهما ، فخرجت العصا من جانب العجوز وهى تنظر إليها ، فقاتلتهم فقتلت منهم سبعة أنفس ، ثم عادت ودخلت الدار ، فلما انتبه موسى وهارون أخبرتهما العجوز بقصة الطلب ونكاية العصا فيهم ، ثم إن العجوز آمنت بهما وصدقتهما .

الباب العاشر : فى قصة موسى وهارون مع فرعون والسحرة
وخروجهم يوم الزينة إلى الفضاء للمغالبة

قالت العلماء بأخبار الأنبياء : إن موسى وهارون عليهما السلام وضع فرعون امرهما وما أتيا به من سلطان الله تعالى على السحر ، فقال للملأ حوله : إن هذان لساحران عليمان فماذا تأمرون ؟ قالوا : اقتلهما ، فقال العبد الصالح حزقيل مؤمن آل فرعون (أتقتلونَ

رَجُلاً أنْ يَقولَ رَبِّيَ اللهُ) إلى قوله تعالى (سَبِيلَ الرَّشادِ) وقال الملأ من قوم فرعون (أرْجِئْهُ وأخاهُ وابعَثْ في المَدائِنِ حاشِرِينَ يأتُوكَ بكلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ) وكان لفرعون مدائن فيها سحرة معدة للأمر إذا أحزنه :

قال ابن عباس : قال فرعون : لما رأى من سلطان الله تعالى في اليد والعصا ما رأى : إنا لانغالب موسى إلا بمن هو مثله ، فأخذ غلمانا من بني إسرائيل ، فبعث بهم إلى قرية يقال لها الغرقاء يعلمونهم السحر كما يعلمون الصبيان في الكتّاب ، فعلموهم سحرا كثيرا ، ثم إن فرعون واعد موسى موعدا ، ثم بعث إلى السحرة ، فجيء بهم ومعهم معلمهم ، فقال له : ما ذا صنعت ، فقال له معلمهم : قد علمتهم سحرا عظيما كبيرا لاتطيقه سحرة الأرض إلا أن يكون أمرا من السماء فإنهم لاطاقة لهم به . ثم إن فرعون بعث إلى الشرط في مملكته ، فلم يتركوا في مملكته ساحرا إلا أتوا به . واختلفوا في عدة السحرة الذين جمعهم فرعون ، فقال مقاتل : كانوا اثنين وسبعين ساحرا : اثنان من القبط وهما رؤساء القوم ، وسبعون من بني إسرائيل .

وقال الكلبي : كانوا سبعين ساحرا غير رءوسهم ، وكان الذي يعلمهم السحر رجلين مجوسيين من أهل نينوى .

وقال كعب : كانوا اثنى عشر ألفا . وقال السدي : كانوا بضعة وثلاثين ألفا . وقال عكرمة : سبعين ألفا . وقال محمد بن المنكدر : ثمانين ألفا . والجامع لهذه الأقاويل ما روى أن فرعون جمع السحرة ، وهم سبعون ألفا ، فاختار منهم سبعة آلاف ليس فيهم إلا من هو ساحر ماهر ، ثم اختار منهم سبعمائة ، ثم اختار منهم سبعين من كبارهم وعلمائهم . قال مقاتل : وكان اسم رأس السحرة شمعون . وقال ابن جريج : يوحنا . وقال عطاء : كان رأس السحرة بأقصى مدائن الصعيد وكانا أخوين ، فلما جاءهما رسول فرعون قالا لأمهما : دلينا على قبر أبينا ، فدلتهما عليه ، فأتياه وصاحا باسمه فأجابهما ، فقالا له : إن الملك وجه إلينا رسولا لنقدم عليه ، لأنه أتاه رجلان ليس معهما سلاح ولا رجال ، ولهما عز ومَنَعة ، وقد ضاق الملك ذرعا من عزهما ومنعتهما ، ومعهما عصا إذا ألقياها لايقوم لها شيء حتى تبلع الحديد والخشب والحجارة ، فأجابهما أبوهما وقال : انظراهما إذا ناما ، فإذا قدرتما أن تسلا العصا فسلاها ، فان الساحر لايعمل سحره وهو نائم ، فإن عملت العصا وهما نائمان فذلك أمر رب العالمين لاطاقة لكما به ولا للملك ولا لجميع أهل الدنيا . ثم إنهما أتياهما في خفية وهما نائمان ليأخذا العصا فقصدتهما العصا . قالوا : ثم إنه واعد موسى غُدْوة يوم الزينة ، وكان يوم سوق لهم . عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان يوم عاشوراء ، ووافق ذلك يوم السبت أول يوم من السنة وهو يوم النيروز ، وكان يوم عيد لهم تجتمع إليه الناس من جميع الآفاق . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان مجمعهم بالميقات بالإسكندرية ، ويقال : بلغ ذَنَب الحية الجزيرة من وراء البحر يومئذ .

قالوا : ثم إن السحرة قالت لفرعون (أئِنَّ لنا لأجرًا إن كُنَّا نحنُ الغالبِينَ) قال فرعون نعم (وإنكُمْ إذنْ لَمِنَ المُقرَّبِينَ) يعنى فى المنزلة . فلما اجتمع السحرة والناس جاء موسى متكئا على عصاه ومعه أخوه هارون حتى أتيا المجمع وفرعون فى مجلسه مع أشراف قومه ، فقال موسى للسحرة حين جاءهم (وَيْلَكُمْ لاتفتَرُوا على اللهِ كَذِبًا فيُسْحِتَكُمْ بعذابٍ وقدْ خابَ مَنِ افْتَرَى) فتناجى السحرة فيما بينهم ، فقال بعضهم لبعض : ما هذا بقول ساحر ، فذلك قوله تعالى (فتنازَعُوا أمْرَهُمْ بينَهُمْ وأسَرُّوا النَّجْوَى) فقالت السحرة : لنأتينك اليوم بسحر لم تر مثله ، وقالُوا بعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إنَّا لَنَحْنُ الغالبونَ) وكانوا قد جاءوا بالعِصِىّ والحبال يحملها ستون بعيرا ، فلما أبوا إلا الإصرار على السحر قالوا لموسى : (إمَّا أن تُلْقِىَ وإمَّا أنْ نكونَ نحنُ المُلْقِينَ) قال لهم موسى : بل ألقوا أنتم حبالكم وعصيكم ، فألقوا ، فاذا هى حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا تسعى ، فذلك قوله تعالى (يُخَيَّلُ إليهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أنَّهَا تَسْعَى) إلى قوله تعالى (خِيفَةً موسَى) فقال موسى والله إنها كانت لعِصيا فى أيديهم ولقد عادت حيات ، وماعصاى هذه؟ فلما حدّث نفسه بذلك أوحى الله إليه (لا تخَفْ إنكَ أنتَ الأعْلَى وألْقِ ما فى يَمينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ ولا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أتى) ففرح موسى ثم إنه ألقى عصاه من يده (فإذَا هىَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ) كأعظم ما يكون من الثعابين أسود مدلهمّ يدب على أربع قوائم قصار غلاظ شداد وهو أعظم وأطول من بختىّ عظيم ، وله ذَنَب يقوم عليه فيشرف فوق حيطان المدينة برأسه وعنقه وكاهله ، لايضرب بذَنَبه على شىء إلا حطمه وقصمه ، ويكسر بقوامه الصخور الصم الصلاب ، ويطحن كل شىء ويصرم الحيطان والبيوت . نَفَسه نار ، وله عينان تلتهبان نارا ، ومنخراه ينفخان سموما ، وعلى مَعرفته شعر كأمثال الرماح ، وصارت الشعبتان له فما سعته اثنا عشر ذراعا ، وفيه أنياب وأضراس لها فحيح وكشيش وصريف وصرير ، فاستعرضت ما ألقت السحرة من حبالهم وعصيهم وهى تخيل فى أعين الناس وعين فرعون أنها تسعى ، فجعلت تلقفها وتبلعها واحدا واحدا ، حتى لم ير فى الوادى لاقليلا ولا كثيرا مما ألقوا ، وانهزم قوم فرعون هاربين منقلبين ، فتزاحموا وتضاغطوا ووطئ بعضهم بعضا حتى مات منهم يومئذ فى ذلك الزحام خمسة وعشرون ألفا ، وانهزم فرعون فيمن انهزم متخ فا مرعوبا ذاهبا عقله ، وقد استطلق عليه بطنه من يومه ذلك أربعمائة مرة ، فصار يحصل له ذلك أربعين مرة فى كل يوم وليلة على الدوام إلى أن هلك ؛ فلما انهزم الناس وعاين السحرة ماعاينوا قالوا لبعضهم : لو كان ساحرا ماغلبنا ولا خفى علينا أمره ، ولو كان سحرا فأين حبالنا وعصينا (فألْقِىَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ العالَمِينَ رَبِّ

موسَى وهَارُونَ) وكان فيهما اثنان وسبعون شيخا قد انحنت ظهورهم من الكبر ، وكانوا علماء ورؤساء ،وكان رءوس السحرة خمسة نفر : سابورا وغادر وجفط وخطط ومصفا، وهم الذين آمنوا حين رأوا ما رأوا من سلطان الله تعالى ، فلما رأى فرعون ذلك أسف وقال لهم متجلدا (آمنتُمْ لَهُ قَبْلَ أنْ آذَنَ لكُمْ إنَّهُ لكَبيرُكُمُ الَّذى علَّمَكُمُ السِّحْرَ) إلى قوله تعالى (أشَدُّ عذَابا وأبقَى ،قالُوالَنْ نُؤثِركَ على ما جاءَنا مِنَ البَيِّناتِ) الآية ؛ فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وصلبهم فى جذوع النخل ، وهو أول من فعل ذلك ،فأصبحوا سحرة كفرة ، وأمسوا شهداء بررة، ورجع فرعون مغلوبا مهزوما مكسورا ، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادى فى الشر ، فتابع الله عليه الآية وأخذه وقومه بالسنين إلى أن أهلكهم ؛ ثم إن موسى عاد راجعا إلى قومه والعصا على حالها حية تتبعه وتبصبص حوله وتلوذ به كما يلوذ الكلب الألوف بصاحبه ، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها وقد ملئوا رعبا ؛ فلم تزل الحية على هيئة العصا والناس يتحدثون وينظرون إليها ويتصاعقون ويتضاغطون حتى دخل موسى عليه السلام عسكر بنى إسرائيل ، فأخذ برأسها فإذا هى عصا كما كانت أول مرة ، وشتت الله على فرعون أمره ، ولم يجد إلى موسى سبيلا ،واعتزل موسى مدينته ولحق بقومه وعسكره،وكانوا مجتمعين إلى أن صاروا ظافرين .

الباب الحادى عشر : فى قصة حزقيل مؤمن آل فرعون وامرأته ومقتله وأولاده رضى الله عنهم أجمعين

قالت الرواة : كان حزقيل من أصحاب فرعون نجارا ، وهو الذى صنع لأم موسى التابوت حين ولدته وألقته فى البحر ، وقيل إنه كان خازنا لفرعون قد خزن له مِئَة سنة وكان مؤمنا مخلصا يكتم إيمانه إلى أن ظهر موسى على السحرة فأظهر حزقيل أمره ، فأخذ يومئذ وقتل مع السحرة صلبا ، وهو الذى ذكره الله فى القرآن فى قوله تعالى (وقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرعَوْنَ يَكْتُمُ إيمَانَهُ) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سُبَّاقُ الأمَمِ ثَلاثَةٌ لمْ يَكْفُرُوا باللهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ : حَبِيبٌ النَّجَّارُ مُؤْمِنُ آلِ يس ، وحزْقِيلُ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَعَلِيٌّ مُؤْمِنُ آلِ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهُوَ أفْضَلُهُمْ » .

وأما امرأة حزقيل ، فإنها كانت ماشطة بنات فرعون ، وكانت مؤمنة من إماء الله الصالحات ، إلا أنها كانت مع بنات فرعون تخدُمهنَّ ، وكان من قصتها ما أخبرنا به بالأسانيد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لَمَّا أُسْرِيَ بى مَرَرْتُ برائحَة طَيِّبَة ، فقُلْتُ لجبريلَ عليهِ السَّلامُ : ما هَذهِ الرَّائحَةُ ؟ قالَ : هذهِ رائحَةُ ماشِطَةِ آلِ فِرْعَوْنَ وأوْلادِها كانَتْ تَمْشُطُ ذاتَ يَوْمٍ بنت

فِرْعَوْنَ ، فوقعَ المِشطَ مِنْ يدَيها فقالَتْ: بِسْمِ اللهِ ، فقالَتْ بنتُ فِرْعَوْنَ : أبى، قالَتْ لا بَلْ ربى وربُّ أبِيكِ ، فقالَتْ لها لأُخْبِرَنَّ بذلكَ أبى ، فلمَّا أخبرَتْهُ دَعَا بِها وبولَدِها وقالَ لها مَنْ رَبُّكِ ؟ فقالَتْ : إنَّ ربى وربَّكَ اللهُ ، فأمرَ بتَنُّورٍ مِنْ نُحاسٍ فأُحمِيَ وأمرَ بِها وبولَدِها أنْ يُلْقَوْا فيهِ ،فقالَتْ لَهُ إنَّ لى إليكَ حاجَةً ، فقالَ وما هِىَ ؟ قالَتْ : تَجْمَعُ عِظامى وعِظامَ وَلَدِى فتَدْفِنُها ، قالَ : وَلَكِ ذلِكِ لِمَا لَكِ علينا مِنَ الحقِّ ، ثمَّ أمرَ بأولادِها فألقوا واحدا واحدا فى التَّنُّورِ ، حتى إذا كانَ آخِرُ أولادِها وَلَدًا صَبِيًّا رَضِيعا ، فقالَ : اصْبِرِى يا أُمَّاهُ فإنكِ على الحقِّ ، فأُلقِيَتْ فى التَّنُّورِ معَ وَلَدِها». وسئل ابن عباسْ فيمن تكلم فى المهد فقال: تكلم فى المهد أربعة : عيسى بن مريم ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وهذا الصبى .

الباب الثانى عشر : فى ذكر آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ومقتلها رحمها الله تعالى

قال الله تعالى (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً للَّذينَ آمَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ) يقال : إن امرأة فرعون آسية كانت من بنى إسرائيل ، وكانت مؤمنة مخلصة ، وكانت تعبد الله سرا ، حتى إنها كانت لتتعلل فى قضاء حاجتها فتبرز فتصلى يومها فى مبزرها خوفا من فرعون ، وكانت على تلك الحالة إلى أن قتل فرعون امرأة حزْقيل ، وكانت آسية متطلعة من كوَّة فى قصر فرعون تنظر إلى الماشطة امرأة حزقيل كيف تعذّب وتقتل . فلما قتلت الماشطة عاينت آسية الملائكة وقد عرَجت بروحها لما أراد الله تعالى من كرامتها وما أراد لها من الخير ، فزادت يقينا بالله وتصديقا ، فبينما هى كذلك إذ دخل عليها فرعون وجعل يخبرها بخبر الماشطة امرأة حزقيل وما صنع بها ، فقالت له آسية : الويل لك يا فرعون ما أجراك على الله تعالى ، فقال لها : لعلك قد اعتراك الجنون الذى اعترى صاحبتك ، فقالت : ما اعترانى جنون ، ولكنى آمنت بالله ربى وربك رب العالمين ، فدعا فرعون أمها ، وقال لها : إن ابنتك قد أخذها الجنون الذى أخذ الماشطة ، ثم إنه أقسم لتذوقنّ الموت أو لتكفرن بإله موسى ، فخلت بها أمها وسألتها موافقة فرعون فيما أراد ، فأبت وقالت : تريدينَ أن أكفر بالله ؟ فلا والله ما أفعل ذلك أبدا ، فأمر بها فرعون فمدت بين أربعة أوتاد ، ثم ما زالت تعذب حتى ماتت، رحمها الله تعالى ، وذلك قوله تعالى (وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوْتادِ) .

عن ابن عباس قال : أخذ فرعون امرأته آسية حين ابتدأ بها يعذبها لتدخل فى دينه ، فمر بها موسى وهو يعذبها ، فشكت إليه بأصبعها ، فدعا اللهَ موسى أن يخفف عنها من العذاب ، فبعد ذلك لم تجد للعذاب ألما إلى أن ماتت فى عذاب فرعون ، فقالت وهى فى العذاب (رَبِّ ابْنِ لى عِنْدَكَ بَيْتاً فى الجَنَّةِ وَنَجِّنى) ... الآية، فأوحى الله إليها أن

ارفعی رأسك ، ففعلت ، فرأت البيت فى الجنة من درّ فضحكت ، فقال فرعون : انظروا إلى المجنون الذى بها تضحك وهى فى العذاب .

الباب الثالث عشر : فى بناء الصرح

قال الله تعالى (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لى صَرْحاً) الآية . قالت العلماء : كان الله تعالى قد أملى لفرعون فى كل باب من أبواب التملك والتسلط والثروة والترفع والتنعم والتمتع ما قد استخفّ به رعيته من أهل مملكته ، حتى استعبدهم فعبدوه ، وادعى الربوبية فقبلوه ، مع ما أوتى من العمر الطويل والقوّة والمنعَة والسعة والجنود والشوكة والعُدّة والعدَد وكان قد بلغ من صحة جسمه واعتدال طبيعته وخلقته وقوّة تركيبه وبنيته ؛ أنه ربما لبث أربعين يوما وليلة لايخرج منه شىء إلا مرة واحدة ، وهو مع ذلك يأكل ويشرب ولا يبزُق ولا يتمخط ولا يتنحنح ولا يسعُل ولايأخذه وجع فى بطنه ولا ترمد عيناه ولا يمرض ولا تصيبه آفة فى نفسه ولا كراهة . قالوا : وبلغ من إملاء الله تعالى له أنه كان يركب كل صعب وذلول من دوابه . قال سعيد بن جبير : ملك فرعون أربع مئة سنة لايرى مكروها ، ولو كان فى تلك المدة أدرك جوع يوم أو حمى ليلة لما ادعى الربوبية ، وقدم على خطب عظيم وخطر جسيم ، فلم يمسه سوء ولا مكروه ، ولا تلقاه إلا محبوب ومرغوب ، وكان له قصر من قصوره مشرف مُنيف على ألف درجة ، وسخر الله له دابة من دوابه يركبها فيصعد ذلك القصر عليها ، وكان يركبها صاعدا ونازلا مع ما أنعم الله تعالى به عليه استدراجا منه . فلما عاين من أمر موسى ما عاين لم يزده ذلك إلا عتوّا واستكبارا ، وعلم من قومه الرعب والخوف ، فخاف عليهم أن يؤمنوا بموسى ويجعلوه مكانه ، فاحتال لنفسه وعزم على بناء صرح يقوى به سلطانه ويشيد أركانه ، فقال لوزيره (يا هامانُ ابْنِ لى صَرْحا لعَلّى أبْلُغَ الأسْبابَ ، أسباب السموات ، فأطّلعَ إلى إلهِ مُوسَى وإنى لأظُنّهُ كاذِبا) فأمر هامان ببنيانه ، فجمع له العمال والفعلة ، ولم يترك أحدا يقدر عليه ممن يعمل البنيان إلا جمعه لبنائه ، حتى اجتمع خمسون ألف بنّاء سوى الأتباع والأجراء ممن يطبخ الآجرّ والجص ، ويتخذ الخشب والأبواب والمسامير ، فلم يزل يبنى الصرح ويسّر الله تعالى له أمره ، استدراجا له منه ، وأتاه الأمر على مايريده إلى أن فرغ منه فى سبع سنين ، فارتفع ارتفاعا لم يبلغه بنيان أحد من الخلق منذ خلق الله السموات والأرض ، فشق ذلك على موسى فأوحى الله تعالى إليه : أن دعه وما يريد ، فإنى مستدرجه وآخذه بغتة ، وإنى مبطل كل ماعمله فى ساعة واحدة ، وكان ذلك الصرح إذا طلعت الشمس ضرب ظله نحو المغرب ، وإذا غربت ضرب ظله نحو المشرق ، بحيث لايعلمه إلا الله تعالى . فلما أتمّ بناءه بعث الله تعالى جبريل عليه السلام ، فضرب بجناحه الصرح ضربة فقطعته ثلاث قطع ، فوقعت قطعة منه

فى البحر ، وقطعة فى الهند ، وقطعة فى المغرب . قال الضحاك : بعث الله جبريل فضرب بجناحه الصرح ، فقذف به على عسكر فرعون فقتل منهم ألفى ألف رجل . قالوا : ولم يبق أحد ممن عمل فيه إلا أصابه موت أو حريق أو عاهة ، فما من نجار أو حداد أو بنّاء إلا يبست يده . وأما الذين كانوا يطبخون الآجر والجص فانهم احترقوا عن آخرهم . وأما القهارمة والعمال فماتوا ،وكان تدمير صرح فرعون من أمر الله تعالى على ذلك كله ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . فلما رأى فرعون ذلك من أمر الله تعالى علم أن حيلته لم تغن عنه شيئا ، فعزم على قتال موسى وقومه ، فأمر أصحابه فنصبوا له الحرب ، ثم إن عسكر فرعون قالوا لموسى : إنك لساحر ،وأنت عبد من عبيد فرعون أبقت منه وكفرت نعمته وتربيته ، ونسيت إحسانه إليك ومنته عليك ، حيث ألقتك أمك فى اليمّ قبحا بك وبغضا لك ، لما علمت ما أنت صائر إليه من سوء الحال ،فاستنقذك فرعون من الغرق واستدركك من الموت فآواك وكفلك ورباك واتخذك ولدا ، ثم فررت منه آبقا كافرا وجئته عدوا محاربا ، فلسنا بممتنعين عنك حتى نردك إلى عبادته وخدمته أو نذيقك الذل والهوان . فلما رأى الله تعالى ذلك ، وقد علم أنه لايغنى عنهم ما جاءهم به موسى لما سبق فيهم من مكر الله النافذ وحقت عليهم كلمة العذاب ابتلاهم الله بالعذاب وبالآيات .

الباب الرابع عشر : فى ذكر الآيات التى ابتلى الله بها فرعون وقومه حين دنا هلاكهم ، إظهارا لقدرته وإلزاما لحجته

قال الله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى تِسْعَ آياتٍ بَيِّنَاتٍ) قال المفسرون : هى العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس وفلق البحر ، فقال تعالى (وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ) .

قال قتادة : أما السنون فكانت ببا ديتهم ومواشيهم ، وأما نقص الثمرات فكان فى أمصارهم قال الله تعالى (فَأَرْسَلْنا عليهِمُ الطُّوفانَ) الآية .

واختلف المفسرون فى ذلك الطوفان ما هو ؟ قال ابن عباس : كان أول الآيات الطوفان وهو الماء أرسل عليهم من السماء . وقال مقاتل : هو الماء طغى فوق حروثهم فأهلكها . وقال الضحاك : هو الغرَق . وقال مجاهد وعطاء : هو الموت الذريع الجارف ، وروى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال وهب : هو الطاعون بلغة أهل اليمن ، أرسل الله الطاعون على أبكار آل فرعون فافتضهن فى ليلة فلم يبق منهن باقية . وقال أبو قِلابة : الطوفان الجدرىّ ، فهم أول من عذب به ، فبقى فى الأرض ، والجراد ، والقمل .

واختلفوا فى القمّل ما هو ؟ فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : القمل هو السوس الذى يخرج من الحنطة . وروى عن أبى طلحة أنه الذباب . وقال مجاهد والسدىّ وقتادة والكلبى

وغيرهم : الجراد الطيارة التى لها أجنحة ، والقمل الصغار التى لاأجنحة لها . وروى معمر عن قتادة قال : القمل أولاد الجراد . وقال عبد الرحمن بن أسلم هو البراغيث . وقال عطاء : هو القمل ، دليله قراءة الحسن والقَمْل بفتح القاف وسكون الميم . وقال أبو عبيدة : هو الحمنان وهو ضرب من القِرْدان . قال أبو العالية : أرسل الله الحمنان على دوابهم فأكلها حتى لم يبق منها شىء ولم يقدروا على المسير . قال أمية بن أبى الصلت الثقفى :

أرسل الذرّ والجراد عليهم   وعـذابا فأهلكتهم دبورا

باب فى صفة تنزيل هذه الآيات وتفصيلها وكيفيتها

قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن إسحاق وغيرهم من أصحاب الأخبار دخل حديث بعضهم فى بعض : لما آمنت السحرة وصلبهم عدو الله فرعون ورجع عدو الله مغلوبا مقهورا انصرف موسى وهارون إلى عسكر بنى إسرائيل ، فأمر فرعون قومه أن يكلفوا بنى إسرائيل ما لايطيقون . فكان الرجل من القبط يجىء إلى الرجل من بنى إسرائيل يقول له : انطلق معى فاكنس حُشّى واعلف دوابى واستق لى ، وتجىء القبطية إلى الكريمة من بنى إسرائيل ، فتكلفها ما لا تطيق ، ولا يطعمونهم فى كل ذلك خبزا ، فإذا انتصف النهار يقولون لهم اذهبوا فاكتسبوا لأنفسكم ما تأكلون ، فشكوا ذلك إلى موسى ، فقال لهم (اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . قَالُوا) يا موسى (أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا) كنا نطعم إذا استعملونا من قبل أن تأتينا ، فلما جئتنا استعملونا ولم يطعمونا ، ف (قَالَ) موسى (عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ) يعنى فرعون والقبط (وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأَرْضِ) يعنى الشام ومصر (فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) .

فلما أبى فرعون وقومه إلا التمادىَ على الكفر والإقامة على الشر والظلم دعا موسى ربه فقال : يا رب إن عبدك فرعون قد طغى فى الأرض وبغى وعتا ، وإن قومه نقضوا عهدك وأخلفوا وعدك ، ربّ خذهم بعقوبة تجعلها لهم نقمة ، ولقومى عظة ، ولمن بعدهم من الأمم اعتبارا ، فتابع الله عليهم الآيات المفصلات بعضها فى إثر بعض ، فأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات ، ثم بعث الله عليهم الطوفان وهو الماء ، أرسل عليهم من السماء حتى كادوا يهلكون ، وبيوت بنى إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة مختلطة بعضها فى بعض ، فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا فى الماء إلى تراقيهم من جلس منهم غرق ، ولم يدخل بيوت بنى إسرائيل من الماء قطرة واحدة ، وفاض الماء على وجه أراضيهم وركد ، فلم يقدروا على أن يحرثوا ولا يعملوا شيئا حتى جهدوا ، ودام ذلك عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا هذا العذاب ، فنؤمن بك ونرسل معك

بنى إسرائيل ، فدعا موسى ربه ، فرفع عنهم الطوفان فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل وعادوا إلى أشرّ ما كانوا عليه ، فأنبت الله تعالى لهم فى تلك السنة من الكلأ والزرع والثمر ما لم ينبت قبل ذلك ، فأعشبت بلادهم وأخصبت ، فقالوا : هذا ما كنا نتمنى ، وما كان هذا الماء إلا نعمة لنا ، وما يسرنا أنا لم نمطر ، فأقاموا شهرا فى عافية ، ثم بعث الله عليهم الجراد فأكل عامة زرعهم وثمارهم وأوراق أشجارهم وزهرها ، حتى إنها كانت لتأكل الأبواب والثياب والأمتعة وسقوف البيوت والخشب والمسامير من الحديد، حتى تساقطت دورهم ، وابتلى الجراد بالجوع فجعل لايشبع ، وكان لايدخل بيوت بنى إسرائيل ولايصيبهم من ذلك شىء ، فعجبوا وضجوا وقالوا (يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِى إِسْرائِيلَ) فأعطوه عهد الله وميثاقه ، فسأل موسى ربه ، فكشف الله عنهم الجراد بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت ، ويقال إن موسى برز إلى الفضاء ، فأشار إلى المشرق بالعصا فذهب الجراد من حيث جاء كأن لم يكن .

فصل : فى بعض ما ورد من الأخبار الغريبة فى الجراد

أخبرنى الحسن بن محمد بإسناده عن جابر عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو على الجراد يقول « اللَّهُمَّ اقْطَعِ الجَرَادَ ، اللَّهُمَّ اقْطَعْ دابِرَهُمْ ، اللَّهُمَّ اقْتُلْ كِبارَهُمْ وأَهْلِكْ صِغارَهُمْ ، وأَفْسِدْ بَيْضَهُ ، وَخُذْ بأفْواهِهِمْ عَنْ مَعايِشِنا وأَرْزَاقِنا إِنَّكَ أَنْتَ سَمِيعُ الدُّعاءِ ، فقال رجل من القوم : كيف ذلك يا رسول الله تدعو على جند من جنود الله بهلاكه وقطع دابره ؟ فقال : إِنَّما الجَرادُ نَثْرُ حُوتٍ مِنَ البَحْرِ » .

قال ابن علاثة : وحدثنى من رأى الحوت ينثره ، وبإسناده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فى صَدْرِ الجَرادِ مَكْتُوبٌ جُنْدُ اللهِ الأَعْظَمُ » .

وباسناده عن جابر بن عبد الله قال : عدم الجراد فى سنة من سنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فلم يخبر عنه بشىء ، فاغتم لذلك ، فأرسل راكبا إلى اليمن وراكبا إلى الشام وراكبا إلى العراق يسألون هل رأوا شيئا من الجراد أولا ؟ فأتاه الراكب الذى دخل اليمن بقبضة من الجراد ، فألقاه فى يده ، فلما رآه كبر ثلاثا ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « خَلَقَ اللهُ أَلْفَ أُمَّةٍ منها سِتُّمائةٍ فى البحرِ وأَرْبَعُمائةٍ فى البَرِّ ، فأَوَّلُ شَىْءٍ يَهْلِكُ مِنْ هذهِ الأُممِ الجَرادُ ، فإذا هَلَكَ الجَرادُ تَتابَعَ مِثْلَ النِّظامِ إذا قُطِعَ سِلْكُهُ » . وبإسناده عن أبى أمامة الباهلى يحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إِنَّ مَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرانَ سأَلَتْ رَبَّها أَنْ يُطْعِمَها لَحْماً لادَمَ لَهُ فأَطْعَمَها

الجرادَ ، فقالَتْ : «اللَّهُمَّ أعِشْهُ بغيرِ رَضَاعٍ ، وتابِعْ بَيْنَهُ بغيرِ شِياعٍ» . فقلت يا أبا المضيء : ما الشياع ؟ قال : الصوت . وبإسناده عن عبد الله بن ضمرة الطولى قال : لما أخرج الله تعالى إبليس من الجنة قال : (لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً) قال الله تعالى : وأنا متخذ من خلقى جندا هو الجراد ، فقال إبليس : وأنا جندى النساء هن شبكتى التى لاتخطئ أبدا .

أخبرنا الحسين بإسناده عن الأوزاعىّ يقول : كان ببيروت رجل صالح يذكر أنه رأى رجلا صالحا راكبا على جرادة ، قال : وعليه خفان طويلان أظنهما أحمرين ، وهو يقول : الدنيا باطل ، باطل ما فيها ، ويقول بيده هكذا ، فحيثما أشار استاق الجراد إلى ذلك الموضع ، فبلغنا أن ذلك الرجل ملك الجراد .

قال : فأقام فرعون شهرا فى عافية ، ثم بعث الله عليهم القمل ؛ وذلك أن موسى أمر أن يمشى إلى كثيب أعفر بقرية من قرى مصر تدعى عين شمس ، فمشى موسى إلى ذلك الكثيب وكان مهيلا عظيما ، فضربه بعصاه فانهال عليهم القمل ، فتتبع ما بقى من حروثهم وأشجارهم ونباتهم ، فأكلها ولحس الأرض كلها ، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيعضه ، وكان يأكل أحدهم الطعام فيمتلئ قملا ، حتى إن أحدهم ليبنى الأسطوانة بالجص ويزلقها حتى لايرتقى فوقها شىء ثم يرفع فوقها الطعام ، فإذا صعد إليه ليأكله وجده ملئ قملا ، فما أصيبوا ببلاء كان أشد عليهم من القمل ، وأخذ القمل أشعارهم وأبشارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ، ولزمت جلودهم كأنها الجدرى عليها ، ومنعتهم النوم والقرار ولم يستطيعوا لها حيلة . وقال سعيد بن جبير : القمل : السوس الذى يخرج من الحبوب ، فكان الرجل يخرج عشرة أقفزة إلى الرحى فلا ترد منها ثلاثة أقفزة ، فلما رأوا ذلك شكوا إلى موسى وصاحوا وقالوا : يا أيها الساحر ، أى أيها العالم ، إنا نتوب ولا نعود ، فادع لنا ربك بما عهد عنك يكشف عنا هذا العذاب ، فدعا موسى ربه فكشف عنهم القمل ، فانتشروا فى أقطار الأرض وأطراف البلاد بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت ثم نكثوا العهد وعادوا إلى أخبث أعمالهم وقالوا : ما كنا قط أحق أن نستيقن أن موسى ساحر لنا إلا اليوم ، فيجعل الرماد دوابّ ، فعلى ماذا نؤمن ونرسل معه بنى إسرائيل ، فقد أهلك زرعنا وحروثنا وأذهب أموالنا ، فما عسى أن يفعل أكثر مما فعل ؟ وعزة فرعون لانصدّق به أبدا ولا نتبعه ، فدعا عليهم موسى بعد ما أقاموا شهرا فى عافية وقيل أربعين يوما ، فأوحى الله تعالى إليه وأمره أن يقوم على ضفة النيل فيغرز فيه عصاه ويشير بالعصا إلى أدناه وأقصاه وأعلاه وأسفله ، ففعل ذلك فتتابعت له الضفادع بالنقيق من كل جانب حتى أعلم بعضها بعضا وأسمع أدناها أقصاها ، ثم إنها خرجت من النيل مثل الليل الدامس سراعا تؤم نحو باب المدينة ، فدخلت عليهم فى بيوتهم بغتة ، وامتلأت منه أفنيتهم وآنيتهم وأبنيتهم ، وكان أحدهم لايكشف ثوبا ولا إناء ولا طعاما ولا شرابا

إلا وجد فيه الضفادع ، وكان الرجل يجلس إلى ذقنه فى الضفادع ويهم أن يتكلم فتثب الضفادع فى فيه ، وكان أحدهم ينام على فراشه وسريره فيستيقظ وقد ركبته الضفادع ذراعا بعضها فوق بعض ،وتصير عليه رُكاما حتى لايستطيع أن ينصرف إلى شقه الأيمن ولا الأيسر وكان أحدهم يفتح فاه لأكلته فتسبقه الضفدعة إلى فيه ، وكانوا لايعجنون شيئا من العجين إلا انشدخت فيه ، ولا يطبخون قدرا إلا امتلأت منه ، وكانت تثب فى نيرانهم فتطفئها ، وفى طعامهم فتفسده ، فلقوا منها أذى شديدا .

روى عكرمة عن ابن عباس قال : كانت الضفادع برية ،فلما أرسلها الله تعالى على فرعون سمعت وأطاعت ، فجعلت تقذف أنفسها فى القدور، وهى تفور فى التنانير وهى مسجورة ، فأثابها الله تعالى بحسن طاعتها بردّ الماء ، قال : فضجوا إلى فرعون من ذلك وضاق عليهم أمرهم حتى كادوا يهلكون ، وصارت المدينة وطرقها مملوءة جيفا من كثرة ما يطئونها بأقدامهم ، وأروحت البقاع كلها منها ، فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا إلى موسى وقالوا : اكشف عنا هذا البلاء فإنا نتوب هذه المرة ولا نعود ، فأخذ على هذا عهودهم ومواثيقهم ؛ ثم إن موسى دعا ربه فكشف عنهم الضفادع . وذلك فيما يروى أن موسى أمر أن يهتف بعصاه ويميلها ، ففعل ذلك ، فانقشع ما كان حيا فلحق بالنيل ، وأرسل الله على الميتة ريحا فنحتها عن مدينتهم بعد ما أقامت عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت ، فأقاموا شهرا فى عافية وقيل أربعين يوما ، ثم نقضوا العهد وعادوا إلى كفرهم وتكذيبهم ، فدعا عليهم موسى ، فأرسل الله عليهم الدم ، وذلك أن الله تعالى أمر موسى أن يذهب إلى شاطئ البحر فيضربه بعصاه ففعل ذلك ، فسال عليهم النيل دما وصارت مياههم كلها دما وما يسقون من الأنهار والآبار إلا وجدوه دما أحمر عبيطا ، فشكوا ذلك إلى فرعون وقالوا : إنا قد ابتلينا بهذا الدم ، وليس لنا شراب غيره ، فقال لهم : إنه قد سحركم موسى ، فكان يجتمع الرجلان على الإناء الواحد القبطى والإسرائيلى ، فيكون ما يلى الإسرائيلى ماء وما يلى القبطى دما عبيطا ، وكان القبطى والإسرائيلى يستقيان من ماء واحد ، فيخرج ماء القبطى دما وماء الإسرائيلى ماء عذبا ، وكانا يقومان إلى الجرة التى فيها ماء فيخرج للإسرائيلى ماء وللقبطى دم ، حتى إن المرأة من آل فرعون تأتى إلى المرأة من بنى إسرائيل حين يجهدها العطش ، فتقول : اسقينى من مائك ، فتسكب لها من جرتها أو تصب لها من قربتها فتعود فى الإناء دما ، حتى إنها تقول لها اجعليه فى فيك ثم مجّيه فى فىّ ،فتأخذ فى فيها ماء فإذا مجته صار دما . قالوا : والنيل على ذلك يسقى الزرع والشجر ، فإذا ذهبوا ليستقوا من بين الزرع عاد الماء دما عبيطا ، وإن فرعون اعتراه العطش فى تلك الأيام حتى إنه اضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة ،فإذا مضغها صار ماؤها ملحا أجاجا ومرّا زعافا ، فمكثوا فى ذلك سبعة أيام لايأكلون ولا يشربون إلا الدم .

وقال زيد بن أسلم : كان الدم الذى سلط عليهم الرُّعاف ، فلما ضجروا من ذلك قالوا لموسى عليه السلام : ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن بك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا موسى ربه فكشف عنهم ذلك . وذلك أن موسى أمر أن يضرب النيل بعصاه ضربة أخرى ، فضربه فتحوّل ماء صافيا كما كان فلم يؤمنوا ولم يفوا بما عاهدوا عليه ، وذلك قوله تعالى(فأرْسَلْنا عليهم ُ الطُّوفانَ)الآيات .قال نوف البكالى ابن امرأة كعب الأحبار : مكث موسى فى آل فرعون عشرين سنة بعد ما غلب السحرة يريهم الآيات: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . وقال أصحاب الأخبار : لما يئس موسى من إيمان فرعون وقومه ورآهم لايزدادون إلا الطغيان والكفر والتمادى والكبر ، دعا عليهم وأمّن هرون عليهما السلام وهو (رَبَّنا إنَّكَ آتيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وأمْوَالاً فى الحياةِ الدُّنيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنا اطْمِسْ عَلى أمْوالِهِمْ واشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنوا حَتَّى يَرَوُا العَذابَ الأليمَ) فأجاب الله دعاءهما كما قال تعالى(قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فاسْتَقِيما ولا تَتَّبِعانِّ) الآية . قالوا :وكان لفرعون وأصحابه من أثاث الدنيا وزهرتها وزينتها من الذهب والفضة واليواقيت وأنواع الحلى والجواهر ما لايحصيه إلا الله تعالى ، وكان أصل ذلك المال مما جمعه يوسف عليه السلام فى زمانه أيام القحط ، فبقى ذلك فى يد القبط ، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام : إنى مورّث بنى إسرائيل ما فى أيدى آل فرعون من العُروض والحلىّ وجاعله لهم جهازا وعتادا إلى الأرض المقدسة ، فاجعل لذلك عيدا تعتكف عليه أنت وقومك تشكرونى وتذكرونى وتعظمونى ذلك اليوم وتعبدونى فيه لما أريكم من الظفر ونجاة الأولياء وهلاك الأعداء ، واستعيروا لعيدكم من آل فرعون الحلىّ وأنواع الزينة ، فإنهم لايمنعون عنكم للبلاء الحالّ بهم فى ذلك الوقت ، ولما قذفت فى قلوبهم لكم من الرعب ، ففعل موسى ذلك كما أمره الله تعالى ، فأمر فرعون بزينة أهله وولده وما كان فى خزائنه من أنواع الحلى فأعيرت لبنى إسرائيل لما أراد الله بذلك أن يفىء على موسى وقومه أفضل أموال أعدائهم بغير قتال ولا إيجاف خيل ولا رَجْل ، لطفا منه بهم وإفضالا عليهم ؛ فلما دعا موسى عليهم مسخ الله الأموال التى بقيت فى أيديهم حجارة كلها حتى المنخل والدقيق .

قال محمد بن كعب القرظى : سألنى عمر بن عبد العزيز عن التسع آيات التى أراها الله فرعون وقومه ، فقلت : الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والعصا ، واليد البيضاء ، والطمس ، وفلق البحر ، فقال عمر : لايكون الفقه إلا هكذا ، ثم إنه دعا بخريطة فيها أشياء مما كان أصيب لعبد العزيز بن مروان ، إذ كان فيها بقايا أموال فرعون ، فأخرج البيضة مشقوقة نصفين وإنها لحجر ، والجوزة مشقوقة وإنها لحجر ، والحمصة والعدسة .

وروى محمد بن إسحاق عن رجل من أهل الشام كان بمصر قال: قد رأيت نخلة مصروعة وإنها لحجر ، وقال : لقد رأيت إنسانا وما شككت أنه إنسان وإنه لحجر ، وكان ذلك المسخ فى أرقائهم دون أحرارهم إذ العبيد من جملة أموالهم ، فلم يبق لهم مال إلا مسخه الله تعالى ما خلا الذى بأيدى بنى إسرائيل من الحلىّ والجواهر وأنواع الزينة .

وقال ابن عباس : أول الآيات العصا وآخرها الطمس . قالوا : وبلغنا أن الدنانير والدراهم صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا ، وجعل سكرهم حجارة.

الباب الخامس عشر : فى قصة إسراء موسى عليه السلام ببنى إسرائيل وخبر فلق البحر لهم

قال الله تعالى(وأَوْحَيْنا إلى مُوسَى أنْ أسْرِ بِعِبادِى إنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ)قال العلماء بأخبار الأنبياء :أوحى الله تعالى إلى موسى حين أراد إظهاره على عدوه أن اجمع بنى إسرائيل كل أهل أربعة بيوت فى بيت ، ثم اذبحوا أولاد الضأن واضربوا بدمائها على الأبواب ، فإنى مرسل على أعدائكم عذابا ،وإنى سأرسل الملائكة فلا تدخل بيتا على بابه الدم ، وسآمرها أن تقتل أبكار آل فرعون من أنفسهم وأموالهم ، فتسلمون أنتم ويهلكون هم ، ثم اخبزوا فطيرا ،فإنه أسرع لكم، ثم أسر بعبادى حتى تنتهى بهم إلى البحر فيأتيك أمرى ،فأمر موسى بنى إسرائيل ففعلت ذلك ، فقالت القبط لبنى إسرائيل : لم تجعلون هذا الدم على أبوابكم ؟ فقالوا : إن الله تعالى لمرسل العذاب عليكم فنسلم وتهلكون ، فقالت لهم القبط : فما يعرفكم ربكم إلا بهذه العلامة ، فقالوا : هكذا أمرنا نبينا،فأصبحوا وقد طُعِن أبكار آل فرعون وماتوا كلهم فى ليلة واحدة وكانوا سبعين ألفا،فاشتغلوا بدفنهم وبما نالهم من حزنهم على المصيبة،وسرى موسى وقومه متوجهين إلى البحر،وهم ستمِئَة ألف وعشرون ألفا،لايعد فيهم ابن سبعين سنة لكبره ، ولا ابن عشرين سنة لصغره ، وهم المقاتلة سوى الذرية ، وكان موسى على الساقة وهارون على المقدمة . فلما فرغ القبط من دفن أبكارهم وبلغهم خروج بنى إسرائيل ، قال فرعون : هذا عمل موسى وقومه ، قتلوا أبكارنا من أنفسنا ، ثم إنهم خرجوا ولم يرضوا أن ساروا بأنفسهم حتى ذهبوا بأموالنا معهم ، فنادى فرعون فى قومه كما قال الله تعالى (فأرْسَلَ فِرْعَوْنُ فى المَدائِنِ حاشِرِينَ إنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلونَ ،وإنَّهُمْ لَنا لَغائِظونَ ،وإنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ)ثم إن فرعون تبعهم فى قومه وعلى مقدمته هامان فى ألف ألف وسبعمائة ألف كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضة وبيده حربة . وقال ابن جريج :أرسل فرعون فى أثر موسى وقومه ألف ألف وخمسمئة ألف ملك مسوّر،مع كل ملك ألف رجل ، ثم خرج فرعون خلفهم فى الدهم ، وكان فى عسكر فرعون مئة ألف حصان أدهم سوى سائر الألوان ، وذلك حين طلعت الشمس

وأشرقت كما قال الله تعالى (فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ فَلَمَّا تَراءَى الجَمْعانِ) ورأت بنو إسرائيل غبار عسكر فرعون قالوا : يا موسى أين ما وعدتنا من النصر والظفر ، هذا البحر قدامنا إن دخلنا غرقنا وفرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا ولقد (أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ ماجِئْتَنا) فـ(قالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ) ياقوم (اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ). و (قالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) .

(فصل) قالوا : لما سار موسى ببنى إسرائيل من مصر وأرادوا أن يسيروا ضرب الله عليهم التيه ، فلم يدروا أين يذهبون ، فدعا موسى عليه السلام مشايخ بنى إسرائيل ، فسألهم عن ذلك فقالوا له : إن يوسف عليه السلام لما مات بمصر أخذ على إخوته عهدا أن لايخرجوا من مصر حتى يخرجوه معهم فيضعوه فى الأرض المقدسة ، فلذلك نالنا هذا الأمر ، فسألهم عن موضع قبره فلم يعلموه ، فقام موسى ينادى : أَنشُد الله كل من يعلم موضع قبر يوسف إلا أخبرنى ، ومن لايعلم صمت أذناه عن قولى ، فكان يمر بين الرجلين ينادى فلا يسمعان قوله ، حتى سمعته عجوز منهم ، فقالت له : أرأيتك إن دللتك عليه أتعطينى ما سألتك ؟ فأبى عليها ، وقال : حتى أستأذن ربى ، فأمره ربه أن يعطيها مناها ، فأعطاها ذلك ، فقالت له : إنى أريد أن لاتنزل غرفة من الجنة إلا نزلتها معك ، قال نعم ، قالت : فإنى عجوز كبيرة لا أستطيع أن أمشى فاحملنى فحملها ، فلما دنت من النيل قالت له : إنه فى جوف هذا الماء ، فادع الله أن يحسر عنه الماء ، فدعا الله تعالى فحسره عنه ، فقالت له : احفر ههنا ، ففعل فاستخرجه وهو فى صندوق من مرمر ، فحمله معه ودفنه فى الأرض المقدسة .

قال عروة بن الزبير : وقد كان الله تعالى أمر موسى أن يسير ببنى إسرائيل إذا طلع الفجر ، فدعا ربه أن يؤخر طلوعه حتى يفرغ من أمر يوسف ففعل ، فمن ثم تحمل اليهود موتاهم من كل بلد إلى الأرض المقدَّسة من فعل نبيهم ذلك .

أخبرنى الحسن بن محمد بإسناده عن ابن أبى‌موسى الأشعرىّ عن أبيه عن النبىّ صلىّ الله عليه وسلم قال « نزل النبىّ صلى الله عليه وسلم بأعرابىّ فأكرمه ، فقال له عليه الصلاة والسلام : تَعاهَدْنا ، فأتاه الأعرابى ، فقال له عليه السلام : ما حاجَتُكَ ؟ قال له الأعرابىّ ناقة يا رسول الله نرحلها وأعنز يحلبها أهلى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانية : ماحاجَتُكَ ؟ فقال ما لى حاجة غيرها ، فقال عليه الصلاة والسلام : إنَّ عَجوزَ بَنِى إسْرائيلَ كانَتْ أحْسَنَ مَسْئَلَةً مِنْ هذا » . وذكر الحديث الذى فى قصة يوسف .

قال : فلما انتهى موسى إلى البحر هاجت الريح وعادت ترمى بموج كالجبال ، فقال له يوشع بن نون : يا كليم الله أين أمرت ، فقد غشينا فرعون والبحر أمامنا ؟ فقال موسى :

ههنا ، فخاض يوشع بن نون الماء فجاز البحر ولم يوار حافر دابته الماء ، وقال الذى يكتم إيمانه وهو حزقيل مؤمن آل فرعون : يا كليم الله أين أمرت ؟ قال : ههنا فكبح فرسه بلجامه، حتى طار الزبد من شدقه، ثم اقتحم البحر فارتسب فى الماء ، فذهب القوم ليصنعوا مثل ذلك فلم يقدروا ، فجعل موسى لايدرى كيف يصنع ، فأوحى الله إليه (أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ) وكان الماء فى ذلك الوقت فى غاية الزيادة ، فضرب موسى البحر بعصاه فلم يطعه ، فأوحى الله تعالى إليه : أن كنّه ، فضربه ثانيا وقال : انفلق يا أبا خالد بإذن الله تعالى (فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) . فلما انفلق البحر فإذا بالرجل الذى أقحم فرسه البحر واقف على فرسه لم يبتلّ سرجه ولا لبده، وظهر فى البحر اثنا عشر طريقا لاثنى عشر سبطا ، لكل سبط طريق ، وأرسل الله تعالى الريح والشمس على قعر البحر حتى صار يبسا كما قال الله تعالى (فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا ، لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى) .

قال سعيد بن جبير : أرسل معاوية إلى ابن عباس يسأله عن مكان لم تطلع فيه الشمس إلا مرة واحدة ، فأرسل إليه : إنه المكان الذى انفلق عنه البحر لبنى إسرائيل .

أخبرنا الحسن بن محمد بإسناده عن عبد الله بن سلام أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال : يا من كان قبل كل شىء والمكوّن لكل شىء والكائن بعد كل شىء ، اجعل لنا فرجا ومخرجا ، فأوحى الله تعالى إليه (أن اضرب بعصاك البحر) فضرب بعصاه البحر (فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) .

وروى الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَلَا أُعَلِّمُكُمُ الْكَلِمَاتِ الَّتِى تَكَلَّمَ بِهَا مُوسَى حِينَ جَازَ الْبَحْرَ بِبَنِى إِسْرَائِيلَ ؟ فقلنا بلى يارسول الله، قال: قُولُوا اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ ، وَإِلَيْكَ الْمُشْتَكَى ، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْكَ التُّكْلَانُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِىِّ الْعَظِيمِ » . قال عبد الله: فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قالوا : فخاض بنو إسرائيل البحر كلُّ سبط فى طريق ، وعلى جانبيه الماء كالجبل العظيم لايرى بعضها بعضا فخافوا ، وقال كل سبط : قد قتل إخواننا ، فأوحى الله إلى جبال الماء أن تشبكى ، فصار الماء شبكات كهيئات الطاقات ، فنظر بعضهم بعضا ، فأخذوا يجاوزون البحر وهم يرون بعضهم بعضا ويسمع بعضهم بعضا حتى عبروا البحر سالمين ، فذلك قوله تعالى (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ) أى فلقنا وميزنا لكم الماء يمينا وشمالا (فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) وذلك أنه لما خرجت ساقة عسكر موسى من البحر وصلت مقدمة عسكر فرعون إليه ، فأراد موسى أن يدعو

البحر ليرجع إلى حالته الأولى ، فأوحى الله إليه (أَنِ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا) أى ساكنا على حاله (إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ) فلما وصل جند فرعون إلى البحر رأوه منفلقا ، فقال فرعون : انظروا إلى البحر كيف انفلق لهيبتى حتى أدرك أعدائى وعبيدى الذين أبقوا منى فأقتلهم فادخلوا البحر ، فهاب قومه أن يدخلوه ولم يكن فى خيل فرعون أنثى وإنما كانت ذكورا كلها ، فجاء جبريل عليه السلام على فرس له أنثى وديق مشتهية للفحل ، وعليه عمامة سوداء ، فتقدمهم وخاض البحر ، فظن أصحاب فرعون أن الفارس منهم : فلما شمت الخيول ريحها اقتحمت البحر فى أثرها حتى خاضوا كلهم ، وجاء ميكائيل على فرس خلف القوم يستحثهم ويقول لهم : الحقوا بأصحابكم ، فلما أراد فرعون أن يسلك طريق موسى نهاه وزيره هامان وقال له : إنى قد أتيت إلى هذا الموضع مرارا ومالى عهد بهذا الطريق ، وإنى أخاف ولا آمن أن يكون مكرا من الرجل يكون فيه هلاكنا وهلاك أصحابنا ، فلم يطعه فرعون وذهب معاجلا على حصانه ليدخل البحر ، فامتنع الحصان ، فجاءه جبريل على رمكة بيضاء ، فصهلت فحمحم إليها حصان فرعون ، فخاض جبريل البحر فتبعها حصان فرعون فأقحمه البحر . فلما توافوا فى البحر وهمّ أولهم أن يخرج من البحر أمر الله تعالى البحر أن يأخذهم ، فالتطم عليهم فغرّقهم أجمعين وذلك بمرأى من بنى إسرائيل ، فذلك قوله تعالى (وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) يعنى إلى مصارعهم ، وانفرد جبريل عليه السلام بفرعون ، فلما أدرك فرعون الغرق (قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ) فقال له جبريل (آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) ثم إن جبريل أراه فتياه وتوقيعه الذى فيه ، وقال : إنما هذا فتياك الذى أفتيت به ، ثم جعل يدسّ فى فيه من حمإ البحر مخافة أن يعيد تلك الشهادة . وفى الحديث أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « ما بَغَضْتُ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ مابَغَضْتُ رَجُلَيْنِ : أَمَّا أَحَدُهُمَا فَمِنَ الْجِنِّ وَهُوَ إِبْلِيسُ عليه لَعْنَةُ اللهِ حِينَ أَبَى أَنْ يَسْجُدَ لِآدَمَ ، والْآخَرُ مِنَ الْإِنْسِ وَهُوَ فِرْعَوْنُ حِينَ قَالَ (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) وَلَوْ رَأَيْتَنِى يا مُحَمَّدُ وأنا آخُذُ مِنْ حَمَإِ الْبَحْرِ وَأَدُسُّهُ فى فِيهِ مَخَافَةَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ ، فيرحَمُهُ اللهُ تَعالى بِها » .

قالوا : فلما سمعت بنو إسرائيل صوت التطام البحر قالوا لموسى : ما هذه الضوضاء ؟ فقال لهم : إن الله قد أهلك فرعون وكل من كان معه غرقا ، فقالوا لموسى : إن فرعون لايموت ألم تر أنه كان يلبث كذا وكذا يوما لايحتاج إلى شىء مما يحتاج إليه الإنسان ؟ فأمر الله تعالى البحر فألقاه على نجوة من الأرض وعليه درعه حتى نظر إليه بنو إسرائيل ، فذلك قوله تعالى (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً) فيقال إنه لو لم

يخرجه الله ببدنه لشك فيه بعض الناس ، فلمّا جاوز موسى ببني إسرائيل البحر (أَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قالوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

أخبرني الحسن بن محمد بإسناده عن محمد بن قيس قال : جاء يهودي إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقال : يا أبا الحسن ما صبرتم بعد نبيكم خمسا وعشرين سنة حتى قتل بعضكم بعضا ، فقال بلى قد كان صبر وخير ، ولكنكم ما جفت أقدامكم من حمأ البحر حتى قلتم (يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) .

فلما أغرق الله تعالى فرعون ومن معه ونجى موسى ومن معه ، بعث موسى جندين عظيمين من بني إسرائيل كل جند اثنا عشر ألفا إلى مدائن فرعون ، وهي يومئذ خالية من أهلها ، قد أهلك الله عظماءهم ورؤساءهم وقادتهم ومقاتلتهم ، فلم يبق منهم إلا النساء والصبيان والمرضى والهرمى ، فأمَّر على الجندين يوشع بن نون وكالب بن يوقنا ، فدخلوا بلاد فرعون وغنموا ما كان فيها من أموالهم وكنوزهم ، فحملوا من ذلك ما استقلت به الحمول منها ، وما لم يطيقوا حمله باعوه من قوم آخرين ، فذلك قوله تعالى (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) إلى قوله تعالى : (فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ) إلى آخر القصة . ثم إن يوشع بن نون استخلف على قوم فرعون رجلا منهم وعاد إلى موسى بمن معه من المسلمين غانمين شاكرين .

الباب السادس عشر : في قصة ذهاب موسى إلى الجبل لميقات ربه ، وصفة إيتاء الله تعالى له الألواح ، وإنزاله التوراة ، وما يتعلق بذلك

قال الله تعالى (وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ) وقال في موضع آخر (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) . قال العلماء بقصص النبيين وسير الماضين : إن موسى كان وعد بني إسرائيل وهو بمصر إذا خرجوا منها وهلك عدوهم أن يأتيهم بكتاب فيه ما يأتون وما يذرون ، فلما أهلك الله تعالى فرعون وقومه واستنقذ بني إسرائيل من أيديهم وأمنهم من عدوهم ، ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليها ، قالوا : يا موسى ائتنا بالكتاب الذي وعدتنا به ، فسأل موسى ربه ذلك ، فأمره الله أن يصوم ثلاثين يوما ثم يتطهر ويطهر ثيابه ويأتي طورسيناء ليكلمه ويعطيه ذلك الكتاب فصام ثلاثين يوما ، فلما صعد الجبل أنكر خلوف فيه ، فتسوك بعود خرنوب .

وقال أبو العالية : أخذ من لحاء الشجر فمصه ، فقالت له الملائكة : إنا كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدتها بالسواك ؛ فأوحى الله تعالى إليه : أن صم عشرة أيام أخر ، وقال له : أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من رائحة المسك ؟ وكانت فتنتهم في العشرة

الأيام التي زادها الله تعالى على موسى ، فذلك قوله تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) ذا القعدة (وأتممناها بعشر) : يعني من ذي الحجة .

أخبرني الحسن بن محمد بإسناده عن أبي هريرة أن جميع الشهور تنقص ما خلا ذا القعدة لقوله تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر) أي من ذي الحجة (فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) فلما مضت أربعون ليلة تطهر موسى وطهر ثيابه لميقات ربه . فلما أتى طور سيناء كلمه ربه وناجاه وقربه وأدناه كما قال تعالى (وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) .

قال وهب : كان بين الله وبين موسى سبعون حجابا ، فرفعها الله كلها إلا حجابا واحدا ، فتخلى موسى لكلام الله تعالى واشتاق إلى رؤيته وطمع فيها (فَقَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ) .

قال السدي : لما كلم الله موسى غاص الخبيث إبليس في الأرض حتى خرج من بين قدمي موسى فوسوس في قلبه وقال : إن مكلمك الشيطان ، فعند ذلك سأل الرؤية ، فقال الله تعالى (لَنْ تَرَانِي) وليس يطيق البشر النظر إليّ في الدنيا ، من نظر إليّ مات ، فقال إلهي سمعت كلامك فاشتقت للنظر إليك ، ولأن أنظر إليك ثم أموت أحب إليّ من أن أعيش ولا أراك ، فقال له : انظر إلى الجبل ، وهو أعظم جبل في مدين يقال له زُبَير ، وذلك أن الجبال لما علمت أن الله يريد أن يتجلى لجبل منها تعاظمت وتشامخت رجاء أن يتجلى الله لها ، وجعل زبير يتواضع من بينها ، فلما رأى الله تواضعه رفعه من بينهن وخصه بالتجلي ، قال الله تعالى (فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي) فتجلى الله تعالى للجبل .

واختلف العلماء في معرفة التجلي ، قال ابن عباس : ظهر نوره للجبل . وقال الضحاك : أظهر الله تعالى من نور الحجب مثل منخر الثور . وقال عبدالله بن سلام وكعب الأحبار : ما تجلى من عظمة الله تعالى للجبل إلا كسم الخياط حتى صار دكا دكا . وقال السديّ : ماتجلى إلاقدر الخنصر ، يدل عليه ماروى ثابت عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ هذه الآية فقال : هكذا ، ووضع الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر ، فساخ الجبل : يعني غار . وقال الحسن : أوحى الله تعالى إلى الجبل وقال : هل تطيق رؤيتي ؟ فغار الجبل وساخ في الأرض ، وموسى ينظر إليه حتى ذهب أجمع . وقال أبو بكر بن عمر الوراق : حكى عن سهل بن سعد الساعديّ أن الله تعالى أظهر من بين سبعين ألف حجاب نورا قدر درهم ، فجعل الجبل دكا . قال أبو بكر : فعذُب إذ ذاك كل ماء وأفاق كل مجنون وبرئ كل مريض وزال الشوك عن الأشجار واخضرت الأرض وأزهرت وخمدت نار المجوس وخرت الأصنام لوجوهها . وقال السدي : ما تجلى للجبل إلا قدر جناح بعوضة فصار الجبل دكا . وقال ابن عباس : ترابا . وقال سفيان : ساخ حتى وقع في البحر . قال عطية العوفي : صار رملا هائلا . وقال الكلبيّ : جعله دكا : أي مكسرا جبالا صغارا .

وبالإسناد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى « (فلمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا) قالَ صارَ بعظمتهِ ستةَ أجبُلٍ ، فوقعتْ ثلاثةٌ فى المدينةِ : أُحُدٌ ووِرقانُ ورَضْوَى ، ووقعتْ ثلاثةٌ بمكَّةَ : ثَوْرٌ وثَبيرٌ وحِراءٌ » (وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا) قال ابن عباس : مغشيا عليه . وقال قتادة : ميتا . وقال الكلبيّ : خرّ موسى صعقا يوم الخميس يوم عرفة ، وأعطى التوراة يوم الجمعة يوم النحر . قال الواقديّ : لما خر موسى صعقا قالت الملائكة : ما لابن عمران وسؤاله الرؤية؟

وفى بعض الكتب : أن ملائكة السموات والأرض أتوا موسى وهو مغشىّ عليه ، فجعلوا يلكزونه بأرجلهم ويقولون : يا بن النساء الحيض أطمعت فى رؤية رب العزة ؟ وقال وهب : لما سأل موسى الرؤية أرسل الله تعالى الضباب والصواعق والظلمة والرعد والبرق ، فأحاطت بالجبل الذى عليه موسى ، وأمر الله تعالى ملائكة السموات أن يعرضوا على موسى أربعة فراسخ من كل ناحية ، فمرت به ملائكة سماء الدنيا كثيرا مثل البقر تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بصوت عظيم كصوت الرعد الشديد ، ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الثانية أن اهبطوا على موسى ، فهبطوا عليه مثل الأسود لهم لجَبَ بالتسبيح والتقديس ، ففزع موسى مما رأى وسمع ، واقشعرت كل شعرة فى جسده ، فقال تدمت على مسئلتى ، فهل ينجينى من مكانى الذى أنا فيه شىء ، إن خرجت احترقت وإن قعدت مت ، فقال له خير الملائكة ورئيسهم : يا موسى اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ، ثم هبطت ملائكة السماء الثالثة كأمثال النسور لهم قصْف ورجف ولجَب شديد وأفواههم تنبع بالتسبيح والتقديس والتهليل كلجَب الجيش العظيم ألوانهم كلهب النار ، ففزع موسى عليه السلام واشتد فزعه وأيس من الحياة ، فقال له رئيس الملائكة : مكانك يا بن عمران حتى ترى ما لاصبر لك عليه . ثم هبطت عليه ملائكة السماء الرابعة لايشبههم شىء من الذين مرّوا به ، ألوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج الأبيض ، أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لايقاربهم شىء من أصوات الذين مروا به . ثم هبطت عليه ملائكة السماء الخامسة فى سبعة ألوان ، فلم يستطع موسى أن يتبعهم طرفه ولم ير مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم ، فامتلأ جوف موسى فزعا واشتد خوفه وكثر بكاؤه ، ثم قال له خير الملائكة وكبيرهم : يا بن عمران مكانك حتى ترى بعض ما لاتصبر عليه ، ثم أمر الله ملائكة السماء السادسة أن اهبطوا على عبدى الذى أراد رؤيتى فاعترضوا عليه ، فهبطوا وفى يد كل منهم حربة طويلة تلتهب نارا أشد ضوءا من الشمس ، لباسهم كلهب النار ، وإذا سبحوا وقدسوا جاوبهم كل من كان قبلهم من ملائكة السموات ، كلهم يقولون بشدة أصواتهم : سبوح قدوس رب العزة أبدا لايموت ، وفى رأس كل ملك منهم أربعة أوجه ، فلما رآهم موسى رفع رأسه وصوته يسبح معهم ويبكى ويقول : رب اذكرنى ولا تنس عبدك ، لاأدرى هل أتخلص مما أنا

فيه أولا ؟ إن خرجت احترقت وإن مكثت احترقت ، فقال له رئيس الملائكة وكبيرهم : أوشك يا بن عمران أن يشتد خوفك وينخلع قلبك ، فاصبر للذى سألت . ثم أمر الله تعالى أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة ، قال الله تعالى : أروه إياه ، فلما بدا نور العرش انصدع الجبل من عظمة رب العزة ، ورفعت ملائكة السموات أصواتهم جميعا يقولون : سبحان الملك القدوس رب العزة أبدا لايموت بشدة أصواتهم ، فارتجّ الجبل واندكّ ، وخر موسى صعقا على وجهه ليس معه روح ، فقلب الله الحجر الذى كان موسى عليه وجعله كهيئة القبة لئلا يحترق موسى ، وأرسل الله عليه رَوْح الحياة برحمته ، فقام موسى يسبح الله ويقول : آمنت بأنك ربى ، وصدقت بأنه لايراك أحد فيحيا ، ومن نظر إلى ملائكتك انخلع قلبه فما أعظمك وأعظم ملائكتك ، أنت رب الأرباب وإله الآلهة وملك الملوك ، لايعدلك شىء ولا يقوم لك شىء ، تبت إليك لك الحمد لاشريك لك أنت رب العالمين .

قال السدى : حُفّ حول الجبل بالملائكة ، وحف حول الملائكة بالنار ، وحف حول النار بالملائكة ، وحُفّ حول الملائكة بالنار ، ثم تجلى ربه للجبل .

أخبرنى الحسن بإسناده عن عروة بن ديلم اللخمىّ قال : كانت الجبال قبل أن يتجلى الله لموسى صماء ملساء ، فلما تجلى الله للجبل صار الطور دكا وتفطرت الجبال وصار فيها كهوف وسقوف . قالوا : ثم بعث الله تعالى جبريل عليه السلام إلى جنة عدن فقطع منها شجرة ، فاتخذ منها تسعة ألواح ، طول كل لوح منها عشرة أذرع بذراع موسى ، وكذلك عرضه ، وكانت الشجرة التى اتخذ منها الألواح من زمرذ أخضر ، ثم أمر جبريل أن يأتيه بتسعة أغصان من سدرة المنتهى ، فجاء بها فصارت جميعا نورا ، وصار النور قلما أطول مما بين السماء والأرض ، وكتب التوراة لموسى بيده ، وموسى يسمع صرير القلم ، فكتب الله له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا ، وذلك يوم الجمعة ، وأشرقت الأرض بالنور ، ثم أمر الله موسى أن يأخذها بقوة ويقرئها قومه ، فوضعت الألواح على السماء فلم تطق حملها لثقل العهود والمواثيق التى فيها ، فقالت : يا رب كيف أطيق أن أحمل كتابك الثقيل المبارك ، وهل خلقت خلقا يطيق حمل ذلك ؟ فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام وأمره أن يحمل الألواح فيبلغها موسى فلم يطق حملها فقال : يا رب من يطيق حمل هذه الألواح بما فيها من النور والبيان والعهود ، وهل خلقت خلقا يطيق حملها ؟ فأمده الله بملائكة يحملونها بعدد كل حرف من التوراة ، فحملوها حتى بلغوها موسى وعرضوا له الألواح على الجبل ، فانصدع لها الجبل وخشع وقال : يا رب من يطيق حمل هذه الألواح بما فيها ، وضرب الله مثلا فى القرآن فقال تعالى (لَوْ أَنْزَلْنا هذا القُرآنَ عَلى جَبَلٍ لرأيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ الله ، وتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها للنَّاسِ لعلَّهُمْ يتفكَّرُونَ) . كما أنزل التوراة على الجبل فلم يطق حملها . قال : فلما وضعوها على الجبل بين يدى موسى

وذلك عند صلاة العصر ، فقبض موسى على الألواح فلم يطق حملها ، فلم يزل يدعو حتى هوّن الله عليه حملها ، فذلك قوله (يا مُوسَى إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ) الآية ، وقوله تعالى (وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الأَلْوَاحِ) الآية .

فصل : فى نسخة العشر الكلمات التى كتبها الله تعالى لموسى نبيه وصفيه فى الألواح وهى معظم التوراة ، وعليها مدار كل شريعة

وهى : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من الله الملك الجبار العزيز القهار لعبده ورسوله موسى بن عمران أن : سبحنى وقدسنى ، لاإله إلا أنا فاعبدنى ، ولا تشرك بى شيئا ، واشكر لى ولوالديك إلىّ المصير ، أحيك حياة طيبة ، ولا تقتل النفس التى حرم الله عليك فأضيق عليك السماء بأقطارها والأرض برحبها ، ولا تحلف باسمى كاذبا فإنى لاأطهر ولا أزكى من لايعظم اسمى ، ولا تشهد بما لايعى سمعك ولا تنظر عينك ولا يقف عليه قلبك ، فإنى أوقف أهل الشهادات على شهادتهم يوم القيامة ، وأسألهم عنها ولا تحسد الناس على ما آتيتهم من فضلى ورزقى ، فإن الحاسد عدوّ نعمتى ساخط لقسمتى ، ولا تزن ، ولا تسرق فأحجب عنك وجهى وأغلق دون دعوتك أبواب السموات ، ولا تذبح لغيرى فإنه لايصعد إلىّ من قربان أهل الأرض إلا ما ذكر عليه اسمى ، ولا تَفْجُرَنَّ بحليلة جارك فإنه أكبر مقتا عندى ، وأحبب للناس ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك .

فهذه نسخة العشر الكلمات ، وقد أعطاها الله جميعا لمحمد صلى الله عليه وسلم فى ثمان عشرة آية وهى قوله تعالى فى سورة بنى إسرائيل (وَقَضَى رَبُّكَ أَنْ لاتَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ) إلى قوله (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ) ثم جمعها فى ثلاث آيات من سورة الأنعام ، وهى قوله تعالى (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) إلى قوله تعالى (ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) .

أخبر أبو عمر محمد الفريابى بإسناده عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لَمَّا أُعْطِىَ مُوسَى الأَلْوَاحَ نَظَرَ فيها فقالَ : يا رَبِّ لَقَدْ أَكْرَمْتَنِى بكَرَامةٍ لَمْ تُكْرِمْ بها أَحَدًا مِنَ العالَمِينَ قَبْلِى (قال : يا مُوسَى إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتى وَبِكَلامى فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) أى بقوة وجد ومحافظة ، وَتَمُوتُ على حُبِّ مُحَمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ، «قالَ مُوسَى : يا رَبِّ وَمَنْ مُحَمَّدٌ» قالَ : أَحْمَدُ الَّذى أَثْبَتُّ اسْمَهُ عَلَى عَرْشِى قَبلَ أَنْ أَخْلُقَ السَّمَوَاتِ والأَرضَ بأَلْفَىْ عامٍ ، وإِنَّهُ نَبِيِّى وصَفِيِّى وَخِيرَتِى مِنْ خَلْقِى ، وهُوَ أَحَبُّ إِلَىَّ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِى وَجَمِيعِ مَلائِكَتِى ، فقالَ موسَى : يا رَبِّ إِنْ كانَ مُحَمَّدٌ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِكَ فَهَلْ خَلَقْتَ أُمَّةً أَكْرَمَ عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِى ؟ قالَ اللهُ تَعالى إِنَّ فَضْلَ

أُمَّةَ مُحَمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على سائرِ الأممِ كفضلى على جميعِ الخلقِ ، قال يا ربِّ ليتنى أراهُ وأراهم ، قالَ : يا موسى إنَّكَ لَنْ تراهم ولو أردتَ أنْ تسمعَ كلامهم أسمعتُكَ ، قالَ يا ربِّ فإنى أريدُ أنْ أسمعَ كلامهم ، قالَ اللهُ تعالى : يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ، فأجبنا كلُّنا مِنْ أصلابِ آبائِنا وأرحامِ أُمَّهاتِنا : لبَّيكَ اللَّهُمَّ لبَّيكَ إنَّ الحمدَ والنِّعمةَ لكَ والملكَ لاشريكَ لكَ ، فقالَ اللهُ تعالى : يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ إنَّ رحمتى سبقتْ غضبى ، وعفوى سبقَ عقابى ، قدْ أعطيتُكم مِنْ قبلِ أنْ تسألونى ، وقدْ أجبتُكم مِنْ قبلِ أنْ تدعونى ، وقدْ غفرتُ لكُمْ مِنْ قبلِ أنْ تعصونى ، مَنْ جاءَ يومَ القيامةِ بشهادةِ أنْ لاإلهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا عبدى ورسولى دخلَ الجنَّةَ ولوْ كانتْ ذنوبُهُ أكثرَ مِنْ زبدِ البحرِ ، وهذا قولُهُ تعالى (وَما كُنْتَ بِجانبِ الغربىِّ إذْ قضينا إلى موسى الأمرَ وما كُنْتَ مِنَ الشَّاهدينَ) وقوله تعالى (وما كُنْتَ بجانبِ الطُّورِ إذْ نادينا) .

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن على بن نصير المكىّ قال : أخبرنا أبو العباس محمد ابن إسحاق السرّاج قال : حدثنا قتيبة بن سعيد قال : حدثنا سعيد بن عبد الرحمن المعافرىّ عن أبيه أن كعب الأحبار رأى حبرا من اليهود يبكى ، فقال له : ما يبكيك ؟ فقال : ذكرت بعض الأمر ، فقال كعب الأحبار : أنشدك الله لئن أخبرتك بما أبكاك لتصدقنى ؟ قال نعم ، قال : أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزل على موسى عليه الصلاة والسلام أن موسى نظر فى التوراة فقال : إنى أجد أمة هم خير الأمم أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الأول والآخر ، ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الدجّال ، فقال موسى : رب اجعلهم أمتى ، قال : هم أمة محمد يا موسى . قال له الحبر : نعم ، قال كعب : أنشدك الله تعالى هل تجد فى كتاب الله المنزل على موسى أن موسى نظر فى التوراة فقال : إنى أجد أمة هم الحامدون رعاة الشمس هم المحكمون إذا أرادوا أمرا قالوا نفعله إن شاء الله تعالى ، فقال موسى : فاجعلهم أمتى ، فقال : هم أمة محمد يا موسى ، قال له الحبر : نعم ، قال كعب : أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التوراة فقال : يا رب إنى أجد أمة يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم ، وكان الأولون يحرقون صدقاتهم بالنار ، غير أن موسى كان يجمع صدقات بنى إسرائيل فلا يجد عبدا مملوكا ولا أمة إلا اشتراه من تلك الصدقة ، وما فضل يحفر له حفرة عميقة القعر وألقاه فيها ، ثم دفنه كى لايرجعوا فيه ، وهم المسبحون المستجيبون المستجاب لهم ، وهم الشافعون المشفعون . قال موسى : يا رب اجعلهم أمتى ، قال : هى أمة محمد يا موسى . قال له الحبر : نعم ، قال كعب : أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزل أن

موسى نظر فى التوارة فقال: إنى أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شَرَف[1] كبر الله تعالى ، وإذا هبط إلى واد حمد الله تعالى ، الصعيد لهم طهور والأرض لهم مسجد ، حيثما كانوا يتطهرون من الجنابة ، طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء ، غرًّا محجلين من آثار الوضوء ، فاجعلهم أمتى ، قال : هى أمة محمد يا موسى قال الحبر : نعم ؛ قال كعب : أنشدك الله هل تجد فى التوراة أن موسى نظر فيها فقال : يا رب إنى أجد أمة إذا همّ أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، وإذا عملها كتبت له عشر إلى سبع مئة ضعف، وإذا همّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه وإذا عملها كتبت عليه سيئة مثلها، فاجعلهم يارب أمتى ، قال : هم أمة محمد ياموسى ، قال الحَبر: نعم . قال كعب أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التوارة ، فقال يا رب إنى أجد أمة مرحومة أصفياء يرثون الكتاب، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات، فلا أجد أحدا منهم إلا مرحوما فاجعلهم أمتى قال هم أمة أحمد يا موسى ،فقال الحبر: نعم . قال كعب : أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التوراة ، فقال يارب إنى أجد أمة مصاحفهم فى صدورهم يلبسون ألوان ثياب أهل الجنة يصطفّون فى صلاتهم صفوفا كصفوف الملائكة ، أصواتهم فى مساجدهم كدويّ النحل لايدخل النار منهم أحد ، ومنهم من لايرى الحساب إلا مثل ما يرى الحر من وراء الشجر ، فاجعلهم أمتى . قال : هم أمة محمد يا موسى ؟ قال الحبر : نعم . قال : فلما عجب موسى من الخير الذى أعطاه الله لأمة محمد صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين قال موسى : يا ليتنى من أصحاب محمد ، فأوحى الله تعالى إليه بثلاث آيات يرضيه بهن ، فقال تعالى (يا مُوسَى إنى اصْطَفَيْتُكَ عَلى النَّاسِ بِرِسالاتى وبِكَلامى فخُذْ ما آتَيْتُكَ وكُنْ منَ الشَّاكِرين) إلى قوله تعالى (دارَ الفاسِقِينَ) وقوله تعالى (وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحقّ وَبِهِ يَعْدِلونَ) قال : فرضى موسى كل الرضا .

وقال ابن عباس : لما صار موسى إلى طور سَيْناء إلى الميقات، قال له ربه : ما تبتغى؟ قال : جئت أبتغى الهدى ، قال : وجدتَه يا موسى ؟ قال : موسى : يا رب أى عبادك أحب إليك ؟ قال : الذى يذكرنى ولا ينسانى ، قال : فأى عبادك أقضى ؟ قال : الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى . قال : أى عبادك أعلم ؟ قال : الذى يبتغى علم الناس إلى علمه ، فيسمع الكلمة تهديه إلى هدًى أو ترده عن ردًى .

وقال عبد الله بن مسعود : لما قرب الله تعالى موسى إلى طور سيناء رأى عبدا فى ظل العرش جالسا ، قال : يا رب من هذا ؟ قال : عبد لايحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، برّ بوالديه لايمشى بالنميمة ، قال موسى : يا رب اغفر لى ما جرى من ذنبى وما

(١) الشرف : المكان المرتفع عما حوله .

غبر وما بين ذلك ، وما أنت أعلم به منى ، أعوذ بك من وسوسة نفسى ، وأعوذ بك من سوء عملى . قال : قد كُفِيتَ ذلك يا موسى ، قال موسى : يا رب أى الأعمال أحب إليك أن أعمل به ؟ قال : تذكرنى ولا تنسانى ، قال : أى عبادك خير عملا ؟ قال : من لايكذب لسانه ولا يفجر قلبه ولا يزنى فرجه ،مؤمن فى خُلُق حسن ،قال: فأى عبادك شر عملا ؟ قال: فاجر فى خلُق سيّ‌ء جيفة بالليل بطال بالنهار . قال فلما رجع موسى إلى قومه ، وقد أتاهم بالتوراة أبوا أن يقبلوها ويعملوا بما فيها من الأثقال والأغلال التى كانت عليهم فيها ، وكانت شريعة ثقيلة ، فأمر الله جبريل فقلع جبلا على قدر عسكرهم ، وكان فرسخا فى فرسخ، فرفعه فوق رءوسهم مثل الظلة مقدار قامة الرجل . وقال أبوصالح عن ابن عباس : أمر الله تعالى جبلا من جبال فلسطين فانقلع من أصله حتى قام على رءوسهم مثل الظلة ، فذلك قوله تعالى (وإذْ أخذْنا ميثاقكُمْ ورَفَعْنا فوْقكمُ الطُّورَ) وقوله تعالى (وإذْ نَتَقْنا الجبَلَ فَوْقَهُمْ كأنّهُ ظُلّةٌ) .

وقال عطاء عن ابن عباس : رفع الله تعالى فوق رءوسهم الطور ، وبعث نارا من قِبَل وجوههم ،وأتاهم البحر ملحا من خلفهم ،وقيل لهم :«خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا» فإن قبلتموه وفعلتم ما أمرتكم به وإلا رضختكم بهذا الجبل وأغرقتكم فى هذا البحر وأحرقتكم بهذه النار . فلما رأوا أن لامهرب لهم منها قبلوا ذلك وسجدوا على شق وجوههم يلاحظون الجبل وهم سجود ،فصارت سنة فى اليهود لايسجدون إلا على أنصاف وجوههم ، فلما زال الجبل قالوا : يا موسى سمعنا وأطعنا ، ولولا الجبل ما أطعناك .

وروى قتادة عن الحسن ، قال: مكث موسى بعد ما تغشاه نور رب العالمين وانصرف إلى قومه أربعين ليلة لايراه أحد إلا مات ،حتى إنه اتخذ لنفسه برنسا وعليه برقع لايبدى وجهه لأحد مخافة أن يموت .

وأخبرنى أبوعبد الله الحسين بن محمد بن الحسين الثقفىّ قال :حدثنا محمد بن أبى شيبة قال :حدثنا أبوعبد الله محمد بن عبد الله القزوينىّ قال : حدثنا محمد بن مرزوق النضْرىّ قال حدثنا هانئ بن يحيى السلمىّ ، قال : حدثنا الحسن بن أبى سهل عن جعفر عن قتادة عن يحيى بن وثاب عن أبى هريرة قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَمّا كلّمَ اللهُ مُوسَى كانَ يُبْصِرُ بعْدَ ذلكَ دَبِيبَ النّمْلَةِ فى اللّيْلَةِ المُظْلِمَةِ على الصّفا مِنْ مَسيرَةِ عشَرَةِ فَراسِخَ » .

وأخبرنا أبوعبد الله الثقفىّ ،قال : حدثنا عبد الله بن شيبة ،قال : حدثنا أبوحامد المستملى قال : حدثنا إسحاق قال :حدثنا خالد بن خِراش قال :حدثنا عبدالله بن زيد بن أسلم عن أبيه أن موسى كان إذا غضب اشتعلت قلنسوته نارا لشدته .

باب فى ذكر قصة بنى إسرائيل وهارون مع السامرى حين اتخذ لهم العجل

قال أهل السير وأصحاب التواريخ : لما أهلك الله فرعون وقومه قال موسى : إنى ذاهب إلى الجبل لميقات ربى وآتيكم بكتاب فيه بيان ما تأتون وما تذرون ، وواعدهم ثلاثين ليلة ، واستخلف عليهم أخاه هارون ، فجاء جبريل عليه السلام على فرس يقال لها فرس الحياة ، وهى بلقاء أنثى لاتصيب شيئا إلا حيي ، فلما رآه السامرىّ على تلك الفرس عرفه ، وقال : إن لهذه الفرس لشأنا عظيما ، وأخذ قبضة من تراب حافر فرس جبريل ، هذا قول السدى .

وقال الكلبى : إنما اتخذ السامرىّ من تراب حافر فرس جبريل العجل حين عبروا البحر وبعث الله تعالى جبريل على فرس بلقاء خطوتها مد البصر عليها تركب الأنبياء كلهم ، وخاض البحر وشمت خيول قوم فرعون ريحها فخاضت فى أثرها . قالوا : وإنما عرف السامرىّ جبريل دون بنى إسرائيل ، لأن فرعون حين أمر بذبح أولاد بنى إسرائيل جعلت المرأة إذا ولدت الغلام انطلقت به سرا فى جوف الليل إلى صحراء أو واد أو غار فى جبل فأخفته ، فيقيض الله له ملكا من الملائكة يطعمه ويسقيه حتى يختلط بالناس ، وكان الذى ربى السامرىّ جبريلُ عليه السلام ، فجعل يَمَصّ من أحد إبهاميه سمنا ومن الآخر عسلا ، فمن ثم عرفه . ومن ذلك الوقت إذا جاع الطفل يمص إبهامه فيروى من المصّ ، لأنه جعل له فيه رزق . ويقال إن جبريل عليه السلام وكلّ بالسامرى وَعلا لبونا تسقيه اللبن بالغداة والعشىّ حتى كبر واختلط بالناس ، فلذلك عرفه دون سائر بنى إسرائيل ، لأنه هو الذى رباه .

وكان أبو عمرو(١) السكندرىّ يقول : دابة موسى وفرعون دابة موسى « أزاهل بهشت » ، وفرعون « أزاهل دوزخ » ، ودابة السامرى وجبريل دابة جبريل «أزاهل بهشت» ، والسامرى «أزاهل دوزخ بود» . قال قتادة والسدى : كان عظيما من عظماء بنى إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة ، ولكن عدو الله نافق . وقال سعيد بن جبير : كان السامرىّ من أهل كرمان . وقال غيرهما : كان رجلا صائغا من أهل باجَرْمى واسمه منجا . وقال ابن عباس : اسمه موسى ظفر ، وكان رجلا منافقا قد أظهر الإسلام ، وكان من قوم يعبدون البقر ، فدخل فى قلبه حب البقر ، فلما ذهب موسى لميقات ربه ، وكان قد وعد قومه ثلاثين ليلة ، وأتمها الله بعشر حتى صارت أربعين ، فعدّ بنو إسرائيل ثلاثين ليلة ، فلما لم يرجع إليهم افتتنوا ، وقالوا إن موسى أخلفنا الوعد ، فاغتنمها السامرىّ حتى فعل مافعل . وقال قوم : إنهم عدوا الليل يوما والنهار يوما ، وكان موسى قد وعدهم أربعين ليلة ، فلما مضت عشرون يوما افتتنوا فأتاهم السامرىّ وقال لهم : إن موسى قد احتبس عنكم ، فينبغى لكم أن تتخذوا إلها ، فإن موسى ليس براجع إليكم ، وقد تم الميقات ، فينبغى لكم أن تتخذوا إلها ، وإنما طمع فيهم

---

(١) قوله وكان أبو عمرو الخ : عبارة فارسية معناها دابة موسى وجبريل عليهما السلام من أهل الجنة ، ودابة فرعون والسامرىّ من أهل جهنم ، اهـ من هامش الأصل .

السامرى لأنهم يوم عبر موسى البحر مروا على قوم من العمالقة وهم يعكفون على أصنام لهم، فقالوا: ياموسى اجعل لنا إلها كمالهم آلهة ... الآية فاغتنمها السامرى. فلما كان ذلك اليوم وخرج موسى ومضى من خروجه عشرون يوما ، وكانوا قد استعاروا حليا كثيرا من آل فرعون حين أرادوا الخروج من مصر بعلة العيد ، وأهلك الله فرعون وقومه ، وبقى ذلك الحلى بأيدى بنى إسرائيل ، فلما خرج موسى قال هارون لبنى إسرائيل : إن حلىّ القبط الذى استعرتموه منهم غنيمة ولا يحل لكم ، فاجمعوه جميعا واحفروا له حفرة وادفنوه فيها حتى يرجع موسى فيرى فيه رأيه ، ففعلوا ذلك ، فجاء السامرى بالقبضة التى أخذها من تحت حافر فرس جبريل عليه السلام ، فقال لهارون : يا نبى الله هل أقذفها فيه ؟ فظن هارون أنه من الحلى يريد به ما يريد أصحابه ، فقال له : اقذف ، فقذفها فى الحفرة على الحلى فصارت عجلا جسدا له خوار .

وقال ابن عباس : أوقد هارون نارا ، وأمرهم أن يقذفوها فيه ، فقذف السامرى تلك القبضة فيها ، فقال : كن عجلا جسدا له خوار ، وكان البلاء والفتنة حين صار كذلك ، وذلك أن السامرى قال لهارون: أألقى مافى يدى ؟ وهو يظن أنه من تلك الحلى، فقال: نعم؛ ويقال : إن الذى قال لبنى إسرائيل: إن الغنيمة لاتحل لكم هو السامرى ،فصدقوه وجمعوها ودفعوها إليه ، فصاغ منها عجلا فى ثلاثة أيام ، ثم ألقى فيه القبضة ، فجثا وخار خورة ثم لم يعد . وقال السدىّ : كان يخور ويمشى . فلما أخرج السامرى العجل ، وكان من ذهب مرصع بالجوهر كأحسن ما يكون،وقال : هذا إلهكم وإله موسى ، فنسى : أى أخطأ الطريق فتركه ههنا وخرج يطلبه ، فلذلك أبطأ عليكم وأخلف الموعد . وفى بعض الروايات أن السامرى لما صاغ العجل وقذف القبضة فيه أشعر العجل وعدا وخار ، فصار له لحم ودم . ويروى أن إبليس خار فى وسطه . ويقال إن السامرى جعل مؤخر العجل إلى حائط وحفر فى الجانب الآخر فى الأرض وأجلسَ فيه إنسانا فوضع فمه فى دبره ، فخار وتكلم بما تكلم به ، وقال : هذا إلهكم وإله موسى ، فلبّس السامرى على أوغاد بنى إسرائيل وجهالهم حتى أضلهم ، وقال لهم : إن موسى قد أخطأ ربه فأتاكم ربه، أراد أن يريكم أنه قادر على أن يدعوكم إلى نفسه بنفسه ، وأنه لم يبعث موسى لحاجة منه إليه ، وأنه قد أظهر إليكم العجل ليكلمكم من وسطه كما كلم موسى من الشجرة . قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : إنما سمى العجل لأنهم تعجلوه قبل رجوع موسى إليهم . وقال الحسن البصرى : اسم عجل بنى إسرائيل الذى عبدوه بهموت .

قالوا : فلما رأوا العجل وسمعوا قول السامرى افتتنوا به غير اثنى عشر ألفا ، وكان مع هارون ستمائة ألف ، فعكفوا عليه يعبدونه من دون الله ، وأحبوه حبا ما أحبوا مثله شيئا قط ، فقال لهم هارون : يا بنى إسرائيل (إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ

فاتَّبِعونى وأطيعوا أمْرِى. قالُوا لَنْ نبرَحَ عليه عاكِفِينَ حتَّى يَرْجِعَ إلَيْنا مُوسَى) فأقام هارون فيمن معه من المسلمين ، وأقام من يعبد العجل على عبادته ، وتخوّف هارون إن سار بمن معه من المسلمين إلى المفتونين الضالين أن يقول له موسى : فرقت بين بنى إسرائيل وكان له هائبا مطيعا . وقال قتادة فى هذه القصة قد كره الصالحون الفرقة قبلكم .

أخبرنى الحسن بإسناده عن راشد بن سعيد قال : لما واعد الله موسى أربعين يوما قال الله تعالى : يا موسى إن قومك قد افتتنوا من بعدك ، قال : يا رب كيف يفتتنون وقد نجيتهم من فرعون ومن البحر وأنعمت عليهم ؟ قال : إنهم اتخذوا العجل إلها من دونى ، وهو عجل ذو جسد له خوار . قال : يا رب من نفخ فيه الروح ؟ قال : أنا ، قال : أنت وعزتك فتنتهم (إنْ هِىَ إلاَّ فِتْنَتُكَ) الآية ، فقال الله تعالى يا موسى يا رأس النبيين ، يا أبا الأحكام إنى رأيت ذلك فى قلوبهم فيسرته لهم . فلما رجع موسى من الميقات إلى قومه وقرب منهم سمع اللغط حول العجل ، وكانوا يعزفون ويرقصون حوله ، ولم يخبر موسى أصحابه السبعين بما أخبره ربه من حديث العجل ، فقالوا : هذا قتال فى المحلة ، فقال موسى لهم : لا ولكنه صوت الفتنة ، افتتن القوم بعدنا بعبادة غير الله ، فذلك قوله تعالى (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أسِفاً) فلما رآهم حول العجل وما يصنعون به ألقى الألواح من يده فتكسرت ، فصعد عامة الكلام الذى كان فيها ولم يبق فيها إلا سدسها ، ثم أعيدت له فى لوحين .

عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليسَ المُعايِنُ كالمُخْبَرِ ، قالَ اللهُ تَعالى لِمُوسَى : إنَّ القَوْمَ قَدْ فُتِنُوا فلَمْ يُلْقِ الألْواحَ ، فلَمَّا عايَنَ ألْقَى الألْواحَ فكَسَرَها » .

عن تميم الدارىّ قال : قلت « يارسول الله مررت بمدينة صفتها كيت وكيت ، قريبة من ساحل البحر ، فقال عليه الصلاة والسلام : تِلْكَ أنْطاكِيَةُ أما إنَّ فى غارٍ مِنْ غِيرانِها رَضاضًا مِنْ ألْواحِ مُوسَى ، وَما مِنْ سَحابَةٍ شَرْقِيَّةٍ ولا غَرْبِيَّةٍ تَمُرُّ بِها إلاَّ ألْقَتْ عليها مِنْ برَكاتِها ، ولَنْ تَذْهَبَ الأيَّامُ واللَّيالى حتى يسكنَها رَجُلٌ مِنْ أهْلِ بَيْتِى يَمْلَؤُها عَدْلاً وَقِسْطا كما مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْما » .

قالوا : فلما رأى موسى ما صنع قومه من بعده من عبادة العجل أخذ بشعر رأس أخيه هارون بيمينه ولحيته بشماله ، وكان هارون قد اعتزلهم فى اثنى عشر ألفا لم يعبدوا العجل ، فقال لهارون (ما مَنَعَكَ إذْ رأيْتَهُمْ ضَلُّوا أنْ لاتَتَّبِعَنِ أفعَصَيْتَ أمْرِى) هلا قاتلتهم إذ علمت أنى لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم ، فقال هارون (يا بْنَ أمَّ) الآية . قال المفسرون : كان هارون أخا موسى لأبيه وأمه ، ولكنه أراد بقوله يا بن أم ترقيقه واستعطافه عليه (لاتأخُذْ بِلِحْيَتِى ولا برأسِى) أى بذوائبى (إنى خَشِيتُ إنْ

قاتلهم أن يصيروا حزبين يقتل بعضهم بعضا (فتقولَ فرَّقْتَ بينَ بنى إسْرائيلَ ولَمْ تَرْقُبْ قَوْلى) أى ولم تحفظ وصيتى حين قلت لك (اخْلُفْنِى فى قَوْمِى وأَصْلِحْ ولا تَتَّبِعْ سَبِيلَ المُفْسِدينَ) . ثم إن موسى أقبل على السامرىّ وقال له (ما خَطْبُكَ يا سامِرِىُّ) أى ما أمرك وشأنك ؟ (فقالَ) السامرىّ (بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أثَرِ الرَّسُولِ) يعنى أخذت ترابا من أثر فرس جبريل (فنبَذْتُها) وطرحتها فى العجل (وكذلكَ سَوَّلَتْ لى نَفْسِى) أى زينت لى . قالوا : فلما علم بنو إسرائيل أنهم قد أخطئوا وضلوا فى عبادتهم العجل ندموا على ذلك واستغفروا الله تعالى كما قال تعالى (ولَمَّا سُقِطَ فى أيديهِمْ ورَأَوْا أنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا ويَغْفِرْ لَنا لَنَكونَنَّ مِنَ الخاسِرينَ) فقالَ لَهُمْ موسَى (يا قَوْمِ إنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أنْفُسَكُمْ باتِّخاذِكُمُ العِجْلَ) قالوا له : فأى شىء نصنعه وما الحيلة ؟ قال : (تُوبُوا إلى) الله (بارِئِكُم) : أى ارجعوا إلى خالقكم ، قالوا : فكيف نتوب ؟ قال (فاقْتُلُوا أنْفُسَكُمْ) أى ليقتل البرىءُ المجرم (ذَلِكُمْ) يعنى القتل (خَيْرٌ لَكُمْ عندَ بارِئِكُمْ) .

قال ابن عباس : أبى الله أن يقبل توبة بنى إسرائيل إلا بالحال الذى كرهوا أن يقاتلوهم حين عبدوا العجل . وقال قتادة : جعل الله توبة عبدة العجل القتل ، لأنهم ارتدوا وكفروا والكفر مبيح الدم . فلما أمرهم موسى بالقتل استسلموا لأمره ، وقالوا : نصبر لأمر الله ، فجلسوا فى الأفنية محتبين وأظلت عليهم القوم بالسيوف والخناجر ، فكان الرجل يرى أخاه وابنه وأباه وقريبه وجاره ، فلم يمكنه إلا إمضاء أمر الله تعالى ، فقالوا : يا موسى كيف نصنع ؟ فأرسل الله ضبابة وسحابة سوداء حتى لايبصر بعضهم بعضا ، وقيل لهم : من حل حبوته أو مدّ طرفه إلى قاتله أو اتقاه بيد أو رجل فهو ملعون مردودة توبته ، فكانوا يقتلونهم إلى المساء . فلما كثر فيهم القتل وبلغ عدة القتلى سبعين ألفا دعا موسى وهارون ربهما وجزعا وتضرعا وقالا : يارب هلكت بنو إسرائيل البقية الباقية ، فكشف الله السحابة عنهم وأمرهم أن يرفعوا السلاح ويكفوا عن القتل ، فلما انكشفت السحابة عن القتلى اشتد ذلك على موسى ، فأوحى الله تعالى إليه : أما يرضيك أن أدخل القاتل والمقتول الجنة ، فكان من قتل منهم شهيدا ، ومن بقى منهم مكفرا ذنبه الله ، فذلك قوله تعالى (فَتابَ عليكُمْ إنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) وقالوا : أمر الله تعالى موسى أن يَبْرُدَ العجل بالمبرد ويحرقه ثم يذروه فى النيل ، فمن شرب ماء من عبدة العجل اصفر لون وجهه واسودت شفتاه ، وقيل ثبت على شاربه الذهب فكان علما لجرمه . فأخذ موسى العجل فذبحه ثم برده بالمبرد ثم أحرقه وجمع رماده ، وأمر السامرىّ بالبول عليه استخفافا به وتصغيرا له ، ثم ذراه فى الماء . فذلك قوله تعالى (وانظُرْ إلى إلهِكَ الَّذى ظَلْتَ عليهِ عاكِفا) الآية . قالوا :

ثم إن موسى أمرهم بالشرب من ذلك الماء فشربوا منه ، فاصفرت وجوه الذين عبدوه واسودت شفاههم ، فأقروا بحب العجل وعبادته وقالوا : يا موسى إنا قد ندمنا على ماصنعنا وتبنا إلى الله ، فلو أمرنا أن نقتل نفوسنا لتُقبَل توبتنا قتلناها ، فقيل لهم (فاقتلوا أنفسكم) ثم إن موسى همّ بقتل السامرى ، فأوحى الله تعالى إليه لاتقتله فانه سخيّ ، فلعنه موسى وقال له (فاذْهَبْ فإنَّ لكَ فى الحَياةِ أنْ تَقولَ لامِساسَ وإنَّ لكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ) أى بعذابك فى القيامة . ثم أمر موسى بنى إسرائيل أن لايخالطوه ولا يقربوه ، فصار السامرى وحشيا لايألف أحدا ولا يؤلف ولا يدنو من الناس ولا يمس أحدا منهم ، فمن مسه قرض ذلك الموضع بالمقراض ، وكان كذلك حتى هلك . قال قتادة : إن بقاياهم إلى اليوم يقولون ذلك : أى لامساس . وفى بعض الكتب أنه إن مس أحدا من غيرهم أو واحدا منهم حُمَّ كلاهما فى الوقت . قالوا ثم إن الله تعالى أمر موسى أن يأتيه فى ناس من خيار بنى إسرائيل ليعتذروا إليه من عبادة قومهم العجل ، فاختار موسى سبعين رجلا لينطلقوا معه إلى الجبل كما أمر الله تعالى وأمره أن يكونوا شيوخا ، فلم يصب إلا ستين شيخا ، فأوحى الله تعالى إليه أن يختار من الشباب عشرة ، فاختارهم فأصبحوا شيوخا .

وروى أنه اختار من كل سبط ستة نفر ، فصاروا اثنين وسبعين رجلا ، فقال : إنما أمرت بسبعين رجلا ، فليتخلف منكم رجلان ، فتشاحُّوا على ذلك ، فقال موسى : إن لمن قعد مثل أجر من خرج ، فقعد يوشع بن نون وكالب بن يوقنا . فأمر موسى السبعين أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا أثوابهم ، ثم خرج إلى الطور لميقات ربه ، وذلك قوله تعالى : (واختارَ موسَى قوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لمِيقاتِنا) الآية ، وكان لايأتيه إلا بإذن منه . فلما دنا موسى إلى الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ، ودنا موسى ودخل فيه ، وقال للقوم ادنوا ، وكان موسى إذا كلمه الله وقع على وجهه نور ساطع لايستطيع أحد من بنى إسرائيل أن ينظر إليه ، فضرب دونه الحجاب ، ودنا القوم حتى دخلوا فى الغمام وخروا سجدا ، وسمعوا الله تعالى ، وهو سبحانه وتعالى يكلم موسى ويأمره وينهاه ، وأسمعهم الله تعالى : إننى أنا الله لاإله إلا أنا ذو بكة ، أخرجتكم من أرض مصر فاعبدونى ولا تعبدوا غيرى . فلما فرغ موسى من الكلام وانكشف الغمام أقبل إليهم (فقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لكَ حتى نرَى اللهَ جَهْرَةً فأخذَتْهُمُ الصاعِقَةُ) وهى نار جاءت من السماء فأحرقتهم جميعا . قال وهب : بل أرسل الله عليهم جندا من السماء ، فلما سمعوا حسهم ماتوا فى يوم وليلة ، فذلك قوله تعالى (وإذْ قلْتُمْ يا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لكَ حتى نرَى اللهَ جَهْرَةً فأخذَتكُمُ الصّاعِقَةُ وأنتُمْ تنظُرُونَ) فلما ماتوا ، (قالَ) موسى (رَبِّ لَوْ شِئْتَ أهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبلُ وإيّايَ أتُهلِكُنا بمافعَلَ السُّفَهاء مِنّا)؟ يارب كيف أرجع إلى بنى إسرائيل وقد أهلكت خيارهم؟ ولم يزل موسى يناشد ربه حتى أحياهم الله له جميعا رجلا بعد رجل

ينظر بعضهم بعضا كيف يحيون ؟ فذلك قوله تعالى (ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ) الآية . أخبرنى الحسن بإسناده عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذَا رَاحَ مِنَّا إلى الجُمُعَةِ سَبْعُونَ كانوا كالسَّبْعِينَ الَّذينَ وَفَدُوا مَعَ مُوسَى إلى رَبِهِمْ وأفْضَلَ » :

باب فى قصة قارون حين عصى ربه واستكبر وأورثه مالُه الطغيان والبطَر حتى أهلكه الله تعالى

قال الله تعالى (إنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عليهم) . . . الآية . قالت العلماء بأخبار القدماء: كان قارون ابن عم موسى لأنه قارون بن يصهربن قاهث بن لاوى ابن يعقوب ، وموسى هو ابن عمران بن قاهث . هذا قول أكثر العلماء .

وقال ابن اسحق : تزوج يصهر بن قاهث سمين بنت ماريب بن بركيا بن يقشان بن إبراهيم فولدت له عمران بن يصهر وقارون بن يصهر. فنكح عمران بخيت بنت شمويل بن وكيع ابن يقشان ، فولدت هارون وموسى ابنى عمران ، فوسى على قول ابن اسحاق ابن أخى قارون،وقارون عمه لأبيه وأمه . وعلى قول الآخرين ابن عمه وعليه أصحاب التواريخ . وكان قارون أعلم بنى إسرائيل بعد موسى وهارون وأفضلهم وأجملهم . قال قتادة :. كان يسمى المنوّر لحسن صورته ، ولم يكن فى بنى إسرائيل أقرأ للتوراة منه ، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامرىّ فبغى على قومه كما قال تعالى (فبغى عليهم) واختلفوا فى معنى هذا البغى ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان فرعون قد ملَّك قارون على بنى إسرائيل حين كانوا بمصر .

وأخبرنى الحسين : بإسناده عن المسيب بن شريك أن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم . قال كان عاملا لفرعون على بنى إسرائيل ، وكان يبغى عليهم ويظلمهم . وقال عطاء الخراسانى وشهر بن حوشب : زاد عليهم فى الثياب شبرا . وروى شيبان عن قتادة قال: بغى عليهم بالكبر والبذخ وبكثرة ماله ، وكان أغنى أهل زمانه وأثراهم كما قال تعالى (وآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ ما إنَّ مفاتِحَهُ لَتَنُوءُ) الآية : أى لتثقل وتميل بهم إذا حملوها لثقلها . واختلف المفسرون فى عدد العصبة فى هذا الموضع ؛ فقال مجاهد : ما بين العشرة إلى خمسة عشر ، وعن قتادة : ما بين العشرة إلى الأربعين ، وعن عكرمة : منهم من يقول أربعون ، ومنهم من يقول سبعون ، وعن الضحاك : ما بين الثلاثة إلى العشرة ؛ وقيل هم ستون .

وروى جرير عن خيثمة قال : وجدت فى الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون وَقر ستين بغلا غرُّا محجلة ، ما يزيد منها مفتاح على أصبع ، لكل مفتاح منها كنز . ويقال : إن قارون كان أينما ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه وكانت من حديد ، فلما ثقلت عليه

جعلها من خشب ، فثقلت عليه فجعلها من جلود البقر على طول الأصابع ، فكانت تحمل معه إذا ركب على أربعين بغلا . واختلفوا فى سبب جمع تلك الأموال فقيل كان عنده علم الكيمياء . قال سعيد بن المسيب : كان موسى يعلم الكيمياء ، فعلم يوشع بن نون ثلث ذلك العلم ، وعلم كالب بن يوقنا مثله وعلم قارون مثله ، فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه . وفى الخبر : إن الله تعالى علم موسى الكيمياء فعلم موسى أخته فعلمته قارون فكان ذلك سبب أمواله ، فذلك قوله تعالى (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي) أو بالتصرف فى التجارات والزراعات وسائر أنوع المكاسب والمطالب . وقيل فى سبب جمعه تلك الأموال ما أخبرنا الثقفى بإسناده عن ابن أبى الحوارى قال : سمعت أباسليمان الدارانى كان يقول : تبدى إبليس لقارون . وكان قارون قد أقام على جبل أربعين سنة يتعبد ، حتى إذا غلب بنى إسرائيل فى العبادة بعث إليه إبليس شياطينه فلم يقدروا عليه ، فتقدم هو له وجعل يتعبد مع قارون ، وجعل إبليس يقهره بالعبادة ويفوقه ، فخضع له قارون ، وقال له إبليس : يا قارون قد رضينا بهذا الذى نحن فيه ، لانشهد لبنى إسرائيل جماعة ولا نعود لهم مريضا ولا نشهد جنازة ؛ قال : فأحدره من الجبل إلى البيعة ، فكانوا يؤتون بالطعام ، فقال له إبليس : يا قارون قد رضينا أن نكون هكذا كَلاًّ على بنى إسرائيل ، فقال له قارون : فأىّ رأى عندك ؟ قال : نكتسب يوما فى الجمعة ونتعبد بقية الجمعة . قال : فتكسبا فى يوم الجمعة وتعبدا بقيتها ، فقال إبليس : قد رضينا أن نكون هكذا . قال قارون : فأىّ الرأى عندك ؟ قال : نكتسب يوما ونتعبد يوما ، فنتصدق ونعطى . قال : فلما كسبا يوما وتعبدا يوما جلس إبليس وتركه ، ففتحت على قارون أبواب الدنيا ، فبلغ ماله ماأخبرنا به ابن فتحويه بإسناده عن المسيب بن شريك قال : ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة ، وكانت أربع مئة ألف فى أربعين خزانة ، فصار فى الثروة وكثرة المال بحيث تضرب به الأمثال . أنشدنى أبو العباس سهل ابن محمد المروزى عن بعضهم :

وعدتنى وعدك حتى إذا   أطمعتنى فى كنز قارون
جئت من الليل بغسالة   تغسل ما قلت بصابون

فبغى قارون وطغى وتجبر حين استغنى وأثرى حتى هلك فصار عبرة للغابرين وعظة للباقين ، وكان أول طغيانه وعصيانه أنه تكبر واستطال على الناس بكثرة الأموال ، فكان يخرج فى زينته وهيئته ويختال كما قال تعالى (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ) ... الآية . قال : مجاهد خرج على براذين بيض عليها سروج الأرجوان وعليها المعصفرات . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : خرج فى سبعين ألفا عليهم المعصفرات . قال : وكان ذلك أول يوم ظهرت المعصفرات فى الأرض . فيما كان أبى يذكر لى عن مقاتل أنه خرج على بغلة شهباء عليها سرج من الذهب عليه الأرجوان ومعه ألف فارس وعلى دوابهم الأرجوان

ومعه ستمائة جارية بيض عليهن الحلى والثياب الحمر على البغال الشهب ، فتمنى أهل الخسارة والجهالة مثل الذى أوتيه ، فقالوا (يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) فأنكر عليهم أهل العلم بالله ، وقالوا لهم : اتقوا الله واعملوا بما أمركم الله به ، وانتهوا عما نهاكم عنه ، فإن (ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ) عن لذات الدنيا وشهواتها ، قال الله تعالى (وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا) أى لايوفق لهذه الكلمة إلا الصابرون على طاعة الله وعن زينة الحياة الدنيا .

قالوا : ثم إن الله أوحى إلى نبيه موسى عليه السلام أن يأمر قومه أن يعلقوا فى أرديتهم خيوطا أربعة فى كل طرف خيط أخضر لونه كلون السماء ، فقال موسى : يا رب لم أمرت بنى إسرائيل بتعليق هذه الخيوط الخضر فى أرديتهم؟ فقال الله تعالى : إن بنى إسرائيل فى غفلة ، وقد أردت أن أجعل لهم علما فى ثيابهم ليذكرونى به إذا نظروا إليه ، ويذكرون إله السماء ، ويعلمون أنى منزل منها كلامى ، فقال موسى : يا رب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها خضرا ، فإن بنى إسرائيل تحقر هذه الخيوط ، قال له : يا موسى إن الصغير من أمرى ليس بصغير وإن لم يطيعونى فى الأمر الصغير لم يطيعونى فى الأمر الكبير . قال : فدعا موسى بنى إسرائيل ثم قال لهم : إن الله يأمركم أن تعلقوا فى أرديتكم خيوطا خضرا كلون السماء لتذكروا ربكم إذا رأيتموها ، ففعلت بنو إسرائيل ما أمرهم به ، واستكبر قارون فلم يطعه ، وقال : ما يفعل هذه إلا الأرباب بعبيدهم لكى يتميزوا عن غيرهم ، فكان أيضا هذا من بغيه وعصيانه .

قالوا : فلما قطع موسى ببنى إسرائيل البحر ، جعلت الحبارة وهى رياسة المذبحة وبيت القربان لهارون ، فكانت بنو إسرائيل يأتون بهديهم فيدفعونه إلى هارون ، فيضعه على المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله ، فوجد قارون فى نفسه من ذلك ، فأتى موسى وقال : يا موسى لك الرياسة والرسالة ، ولهارون الحبارة ، ولست أنا فى شىء من ذلك ، وأنا أقرأ للتوراة منكما ولا صبر لى على هذا ، فقال موسى : والله ما جعلتها أنا فى هارون بل الله جعلها له ، فقال له قارون : والله لا أصدقك فى ذلك حتى تريني بيانا ، قال : فجمع موسى رؤساء بنى إسرائيل وقال : هاتوا عصيكم فمن أصبحت عصاه خضراء فهو أحق بالحبارة ، فجمعوا العصىّ وجاءوا بها وكتب كل واحد اسمه على عصاه ، فحزمها موسى وألقاها فى القبة التى كان يعبد الله فيها ، وجعلوا يحرسون عصيهم حتى أصبحوا ، فأصبحت عصا هارون قد اهتزت ولها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز ، فقال موسى : يا قارون ترى هذا من فعلى ؟ فقال قارون : والله ما هذا بأعجب مما تصنع السحرة ، وذهب قارون مغاضبا واعتزل موسى بأتباعه ، وجعل موسى يداريه للقرابة التى بينهما وهو يؤذيه فى كل وقت ولا يزيد كل يوم إلا عتوا وتجبرا ومخالفة ومعاداة لموسى ، حتى إنه بنى دارا وجعل بابها

من الذهب الأحمر ، وضرب على جدرانها صفائح الذهب ، وكان الملأ من بنى إسرائيل يغدون عليه ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدثونه ويضاحكونه .

قال ابن عباس : ثم إن الله أنزل الزكاة على موسى فلما أوجب الله الزكاة عليهم أتى قارون موسى فصالحه عن كل ألف دينار دينار واحد، وعن كل ألف درهم درهم واحد ، وعن كل ألف شاة شاة واحدة ، وعن كل شىء شىء . ثم رجع قارون إلى بيته وحسبه فوجده كثيرا فلم تسمح نفسه بذلك ، فجمع بنى إسرائيل وقال لهم: ياقوم إن موسى قد أمركم بكل شىء فأطعتموه ، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم ، فقالوا له : أنت كبيرنا وسيدنا فرنا بما شئت ، فقال : آمركم أن تجيئوا بفلانة البغىّ فنجعل لها جعلا على أن تقذف موسى بنفسها ، فإذا فعلت ذلك خرجت عليه بنو إسرائيل فرفضوه فاسترحنا منه ، فأتوا بها، فجعل لها قارون ألف درهم، وقيل ألف دينار ، وقيل طستا من ذهب ، وقيل حكمها، وقال لها أنا أمونك وأخلطك بنسائى ،على أن تقذفى موسى بنفسك غدا إذا حضر بنو إسرائيل . فلما كان من الغد جمع قارون بنى إسرائيل ، ثم أتى موسى فقال : إن بنى إسرائيل اجتمعوا ينتظرون خروجك لتأمرهم وتنهاهم وتبين لهم أعلام دينهم وأحكام شرعهم، فخرج إليهم موسى ،وهم فى براح من الأرض فقام فيهم خطيبا ووعظهم وقال فيما قال : يا بنى إسرائيل من سرق قطعنا يده ، ومن افترى جلدناه ثمانين جلدة ، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مئة جلدة ، وإن كان له امرأة رجمناه حتى يموت ، فقال له قارون : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا ، قال : إن بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة ، قال: أنا ؟ قال نعم ، قال: ادعوها فإن قالت فهو كما قالت ، فدعوها فلما جاءت قال لها موسى : يا فلانة أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء ، وعظّم عليها وسألها بالذى فلق البحر لموسى وبنى إسرائيل وأنزل التوراة على موسى إلا صدقت ؛ فلما ناشدها تداركها الله بالتوفيق وقالت فى نفسها: لأن أحدث اليوم توبة أفضل من أن أوذى رسول الله ، فقالت: لا، بل كذبوا ، ولكن جعل لى قارون جُعلا على أن أقذفك بنفسى. فلما تكلمت بهذا الكلام سُقِطَ فى يد قارون ونكس رأسه ، وسكت الملأ وعرف أنه قد وقع فى مهلكة ، فخرّ موسى ساجدا لله يبكى ويقول : يا رب إن عدوك هذا قد آذانى وأراد فضيحتى وسبنى ، اللهم إن كنت رسولك فاغضب لى وسلطنى عليه ، فأوحى الله تعالى إليه أن ارفع رأسك ، وأمر الأرض بما شئت تطعك ، فقال موسى : يا بنى إسرائيل إن الله تعالى قد بعثنى إلى قارون كما بعثنى إلى فرعون ، فمن كان معه فليلبث مكانه ، ومن كان معى فليعتزل عنه ، فاعتزلوا عن قارون ولم يبق معه إلا رجلان ، ثم قال موسى : يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى كعابهم ، ثم قال : يا أرض خذيهم ، فأخذتهم إلى ركبهم ، ثم قال : يا أرض خذيهم ، فأخذتهم إلى جنوبهم ، ثم قال : يا أرض خذيهم ، فأخذتهم إلى أحقابهم، ثم قال: يا أرض خذيهم ، فأخذتهم إلى أعناقهم ، وقارون وصاحباه فى كل ذلك يتضرعون

إلى موسى ، ويناشده قارون بالله والرحم ، حتى روى فى بعض الأخبار أنه ناشده سبعين مرة ، وموسى فى جميع ذلك لايلتفت إليه لشدة غضبه عليه ، ثم قال : يا أرض خذيهم ، فانطبقت الأرض عليهم . وأوحى الله إلى موسى : يا موسى ما أفظك استغاثوا بك سبعين مرة فلم تغثهم ولم ترحمهم ، أما وعزتى وجلالى لو إياى دعوا لوجدونى قريبا مجيبا . قال قتادة : ذكر لنا أن الله تعالى يخسف بهم فى كل يوم قامة ، وأنه يجلجل بهم فيها لا يبلغون قعرها إلى يوم القيامة .

أخبرنا عبد الله بن حمدون بقراءتى عليه ، قال أحمد بن محمد بن الحسين ، أخبرنا محمد ابن يحيى وعبد الرحمن بن بشير وأحمد بن يونس قالوا : أخبرنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر بن راشد عن همام بن منبه ، قال : أخبرنا أبو هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِى بُرْدَيْهِ وَيَنْظُرُ فِى عِطْفَيْهِ وَقَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ الأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ » .

قالوا فلما خسف الله بقارون وصاحبيه الأرض أصبحت بنو إسرائيل يتناجون فيما بينهم أن موسى إنما دعا على قارون ليستبد بداره وأمواله وكنوزه ، فدعا الله موسى حتى خسف الله بداره وأمواله الأرض ، وأوحى الله تعالى إليه إنى لاأعيد الأرض لأحد بعدك أبدا فذلك قوله تعالى (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ المُنْتَصِرِينَ) . فلما حلت نقمة الله بقارون حمد الله تعالى المؤمنون الذين وعظوه وأنذروه بأس الله ، كما أخبر الله تعالى (إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَاتَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَايُحِبُّ الفَرِحِينَ) أى لاتبطر ولا تأشر (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ) الآية ، وندم الذين كانوا يتمنون مكانه بالأمس وماله وحاله كما قال الله (وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ : وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ) فنجى الله نبيه موسى صلوات الله على سيدنا محمد وعليه وسلامه والمؤمنين من كل بلاء ومحنة ، وأهلك أعداءهم فرعون وهامان وقارون كما قال تعالى (وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الأَرْضِ) الآيات .

باب فى قصة موسى حين لقى الخضر وماجرى بينهما من العجائب إلى أن بلغ من أمرهما ما بلغ

قال الله تعالى (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَاأَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا) . قال الأستاذ الإمام : اختلف العلماء فى السبب الذى قصد موسى لأجله الخضر ، فروى الحسن بن عمارة عن الحكم بن عيينة عن سعيد بن جبير قال : جلست عند

ابن عباس وعنده نفر من أهل الكتاب ، فقال بعضهم : يا بن عباس إن نوفا ابن امرأة كعب يزعم عن كعب أن موسى عليه السلام الذى طلب العلم إنما هو موسى بن ميشا ، قال ابن عباس : كذب نوف ، حدثنى أبىّ بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن موسى نبىّ بنى إسرائيل سأل ربه ، فقال : يا رب إن كان فى عبادك أحد هو أعلم منى فدلنى عليه ، فقال الله عز وجل : نعم فى عبادى من هو أعلم منك ، ثم نعت له مكان الخضر عليه السلام وأذن له فى لقائه . وروى هارون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس قال : سأل موسى ربه فقال : يا رب أى عبادك أحب إليك ؟ فقال : الذى يذكرنى ولا ينسانى ، قال : فأى عبادك أقضى ؟ قال : الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى ، قال : يا رب أى عبادك أعلم ؟ قال : الذى يبتغى علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى ، قال : فهل فى الأرض أحد أعلم منى ؟ قال : نعم ، قال : يا رب من هو ؟ قال : الخضر ، قال : فأين أطلبه ؟ قال : على الساحل عند الصخرة التى يفلت عندها الحوت ، وجعل الحوت علَما له ودليلا ، وقال : إذا حيى هذا الحوت فان صاحبك هناك ، وكان قد تزود سمكا مملحا .

وروى عطية العوفى عن ابن عباس قال : لما ظهر موسى وقومه على مصر ، واستقرت بهم الدار أنزل الله عليهم المن والسلوى ، فخطب موسى قومه فذكرهم ما آتاهم الله من الخير والنعمة ، إذ نجاهم من آل فرعون وأهلك عدوهم واستخلفهم فى الأرض ، قال : وكلم الله نبيكم تكليما ، واصطفاه لنفسه وألقى عليه محبة منه وآتاكم من كل ما سألتموه ، فنبيكم أفضل أهل الأرض وأنتم تقرءون التوراة ، فلم يترك نعمة أنعمها الله عليهم إلا ذكرها وعرفهم إياها ، فقال له رجل من بنى إسرائيل : قد عرفنا الذى تقول ، فهل على وجه الأرض أحد أعلم منك يا نبى الله ؟ قال : لا ، قال : فعتب الله عليه حيث لم يردّ العلم إليه ، فبعث إليه جبريل عليه السلام فقال له : يا موسى ما يدريك أين أضع علمى ، بل إن لى عبدا بمجمع البحرين أعلم منك ، فسأل موسى ربه أن يريه إياه ، فأوحى الله إليه أن ائت البحر ، فانك تجد على شاطئ البحر حوتا ، فخذه وادفعه إلى فتاك ثم الزم شاطئ البحر ، فإذا نسيت الحوت وهلك منك فثم تجد العبد الصالح . قال : فخرج موسى وفتاه يقصدان مجمع البحرين للقاء الخضر عليه السلام ، ومعهما حوت مالح ، فذلك قوله تعالى (وإذ قال موسى) يعنى ابن عمران (لفتاه) أى لصاحبه يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف عليه السلام (لا أبرح) أى لا أزال أسير (حتى أبلغ مجمع البحرين) يعنى بحر فارس والروم مما يلى المشرق . قال قتادة : وقال أبى بن كعب هو إفريقية . وقال محمد بن كعب : طنجة (أو أمضى حقبا) دهرا وزمانا طويلا ، فذهبا ومعهما الخبز والسمك المملوح وسارا حتى انتهيا إلى الصخرة عند مجمع البحرين ليلا . قال معقل بن زياد : وهى الصخرة التى دون نهر الزيت ، قال : وعندها عين تسمى ماء الحياة ، ولا يصيب ذلك الماء شيئا إلا

عاد حيا ، فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده اضطربت فى المكتل وعاشت ودخلت البحر ، فذلك قوله تعالى : فلما بلغا : يعنى موسى وفتاه (مَجْمَعَ بيْنِهِما) يعنى البحرين (نَسِيَا) تركا (حوتهُما) وإنما كان الحوت مع يوشع ، وهو الذى نسيه، يدل عليه قوله تعالى (إنى نَسِيتُ الحُوتَ) ولكنه صرف النسيان إليهما والمراد به أحدهما كما قال تعالى (يَخْرُجُ منهُما اللُّؤْلُؤُ والمَرْجانُ) وإنما يخرجان من المالح دون العذب (فاتَّخَذَ) الحوت (سَبِيلَهُ فى البَحْرِ سَرَبًا) أى مذهبا ومسلكا ، واختلفوا فى كيفية ذلك ؛ فروى أبَىّ بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال« انْجابَ المَاءُ عَنْ مَسْلَكِ الحُوتِ فصَارَ كَوّةً فلمْ يَلْتَئِمْ ، فدَخلَ مُوسَى الكَوّةَ على أثَرِ الحُوتِ ، فإذَا هُوَ بالخَضِرِ عليهِ السَّلامُ » وقال ابن عباس : رأى أثر جناحيه فى الطين حين وقع فى الماء وجعل الحوت لايمس شيئا من البحر إلا ييبس حتى يصير صخرة . وروى ابن عباس عن أبى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لَمَّا انتَهَيْنا إلى الصَّخْرَةِ وَضَعا رءُوسَهُما فنَاما ، فاضْطَرَبَ الحوتُ فى المِكْتَلِ فخَرَجَ منهُ وَسَقَطَ فى البَحْرِ هارِبا ، فاتّخذَ سبِيلَهُ فى البَحْرِ سَرَبا ، فأمْسَكَ اللهُ تعالى عَنِ الحوتِ جرْيَةَ المَاءِ فصارَ عليهِ مثلَ الطَّاقِ ، فلمَّا استَيْقَظَ مُوسَى عليه السَّلامُ نَسِيَ صَاحِبُهُ أنْ يخبِرَهُ بالحوتِ، فانْطَلَقا بقِيَّةَ يوْمِهِما وليلَتِهِما ، حتى إذَا كانَ مِنَ الغَدِ (قالَ) موسى لفتاهُ : آتِنا غَداءَنا) الآية » وقال قتادة : رد الله إلى الحوت روحه ، فسرب حتى أفضى إلى البحر ، ثم سلكه جعل لايسلك منه موضعا إلا صار ماء جامدا طريقا يبسا .

وقال الكلبي : توضأ يوشع بن نون من عين الحياة ، فانتضح على الحوت المملح من ذلك الماء وهو فى المِكْتل ، فعاش ووثب فى الماء ، فجعل يضرب بِذَنَبه الماء، فلايضرب بذنبه شيئا من الماء وهو ذاهب إلا ييبس . قال الحكماء : كان لموسى عليه السلام خمسة أسفار : الأول سفر الهرب ، وهو قوله تعالى « ففَرَرْتُ منْكُمْ لَمَّا خِفتُكُمْ » الآية . والثانى : سفر الطور ،وهو قوله تعالى « فلمَّا أتاها نُودِىَ أنْ بُورِكَ مَنْ فى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا » الآية ، وقوله تعالى « فلمَّا أتاها نُودِىَ مِنْ شاطئِ الوَادى الأيْمَنِ » الآية . والثالث : سفر الطلب ، وذلك عند خروجه من مصر قال الله تعالى « وأوْحَيْنا إلى مُوسَى أنْ أسْرِ بعبادى » . والرابع : سفر الحرب ، وهو قوله تعالى إخبارا عن قول قومه « فاذْهَبْ أنْتَ وَربُّكَ فقَاتِلا » الآية . والخامس : سفر النصب ، وهو قوله تعالى « لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذَا نَصَبا » وذلك أنه لما ألقى على موسى الجوع بعد ما جاوز الصخرة ليتذكر الحوت ويرجع إلى موضع مطلبه ، فقال له فتاه وتذكر « أرأيْتَ إذْ أوَيْنا إلى الصخْرَةِ فإنى نَسِيتُ الحوتَ » أى تركته وفقدته ، وقيل فيه إضمار تقديره :

فإنى نسيت أن أذكر أمر الحوت « وَمَا أَنْسَانِيه إلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فى البَحْرِ عَجَبًا » . قال عبد الرحمن بن زيد : أى شىء أعجب من حوت كان دهرا من الدهور يؤكل منه ثم صار حيا حتى حشر فى البحر ، قال : وكان شقّ حوت . وقال وهب بن منبه : ظهر فى الماء من أثر جرى الحوت أخدود شبه نهر من حيث دخل إلى حيث انتهى ، فرجع موسى حتى انتهى إلى مجمع البحرين وإذا هو بالخضر ، فذلك قوله تعالى « قالَ ذلكَ ما كُنَّا نَبْغِ »أى نطلب « فارْتَدَّا » فارتجعا «على آثارهما»الذى جاءا منه « قصصا » أى يقصان الأثر «فَوَجَدا عَبْدًا مِنْ عِبادِنا» يعنى الخضر عليه السلام.

فصل فى ذكر جمل من أخبار الخضر عليه السلام وأحواله

واسمه بليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ، وإنما لقب بالخضر كما أخبرنا به أبوسعيد محمد بن عبد الله بن حمدون بقراءتى عليه قال : أخبرنا أبوحامد أحمد بن محمد بن الحسين الشرقى قال : حدثنا محمد بن يحيى وعبد الرحمن بن بشر وأحمد بن يوسف قالوا : أنبأنا عبد الرزاق ، أنبأنا عبد الله بن حامد الوراق ، قال : أنبأنا مكىّ بن عبدان قال : أنبأنا أبوالأزهر قال : حدثنا عبد الرزاق قال : أنبأنا معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا سُمِّيَ الخَضِرَ لأَنَّهُ جَلَسَ على فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ فإذا هِيَ تَهْتَزُّ تَحْتَهُ خَضْرَاءَ » وأخبرنا أبو نصر محمد بن على بن الفضل الخزاعىّ قال : أنبأنا أبو بكر محمد بن الحسن القصار قال : أنبأنا أحمد بن يوسف السلمىّ قال : أنبأنا محمد بن يوسف الفريابى قال : ذكر سفيان عن منصور عن مجاهد قال : إنما سمى الخضر لأنه أينما صلى اخضرّ حوله .

فصل فى بدء أمر الخضر عليه السلام

يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسرى به إلى السماء بينما هو على البراق وجبريل يمر به إذ وجد رائحة طيبة ، فقال : ياجبريل ما هذه الرائحة الطيبة ؟ قال : إنه كان ملك فى الزمان الأول له سيرة حسنة فى أهل مملكته ، وكان له ابن ولم يكن له ولد غيره . قال أصحاب الأخبار : وكان أبوه ملكا عظيما ، فسلمه إلى المؤدب يؤدبه ، وكان يختلف إليه وكان بين منزله ومؤدبه رجل عابد كان يمر به ، فأعجبه حاله فألفه ، وكان يجلس عنده والمعلم يظن أنه فى المنزل ، وأبوه يظن أنه عند المعلم حتى شب ونشأ وأخذ من العابد شمائله وعبادته ، فقالوا لأبيه : ليس لك ولد غيره يرث ملكك ، فلو زوّجته لعله يرزق أولادا فعرض عليه أبوه التزويج فأبى ، ثم عاوده فرضى فزوّجه جارية من بنات الملوك فزفت إليه . فلما بقيت عنده قال لها : إنى مخبرك بأمر إن أنت سمعتيه صرف الله عنك شر الدنيا وعذاب الآخرة ، وإن أفشيت سرى عذبك الله فى الدنيا والآخرة ، قالت : وما ذاك ؟ قال : إنى رجل مسلم لست على دين أبى وليست النساء من حاجتى ، فإن رضيت أن تقيمى

معى على ذلك وتتابعينى على دينى فذاك إليك ، وإن أبيت لحقت بأهلك ، فقالت المرأة : بل أقيم معك ، فلما أتت عليها مدة ، قالوا لأبيه : ما نظن ابنك إلا عاقرا لايولد له ولد ، فسأله أبوه ، فقال : ما ذلك بيدى ، وإنما ذلك بيد الله يؤتيه من يشاء ، فدعا المرأة وسألها فردت عليه مثل ما رد عليه الخضر ، فمكث أبوه زمانا ثم دعا ابنه إليه ، فقال له : أحب أن تطلق امرأتك هذه وأزوجك امرأة غيرها ولودا ربما ترزق منها ولدا ، فكره ذلك الخضر وألح عليه أبوه حتى فرق بينهما وزوّجه امرأة غيرها ولودا ثيبا ، فعرض عليها الخضر مقالته الأولى فرضيت وقالت: أقيم معك ، فلبثا زمانا ، ثم إن أباه استبطأ الولد منه ، فدعاه وقال له : ليس يولد لك ؟ فقال : ليس ذلك بيدى ولكنه بيد الله ، ثم إنه دعا امرأته وقال لها: أنت امرأة شابة ولود ،وقد كنت ولدت عند غير ابنى ،ولست تلدين عند ابنى ، فقالت : ما مسنى منذ صحبته ، وكذلك المرأة الأولى ، فدعاها وسألها ، فقالت مثل ذلك ، فدعا ابنه وعيره وعنفه ، ففزع من أبيه ولم يأمن على نفسه منه ، فخرج من عنده فهام على وجهه ولم يدر أحد من خلق الله تعالى أين توجه ، فندم أبوه على ما فعل، فأرسل فى طلبه مئة رجل من طرق شتى مختلفة ، فانطلقوا فى طلبه ، فأدركه منهم عشرة فى جزيرة من جزائر البحر ، فقال لهم: إنى أقول لكم شيئا واحدا فاكتموه عنى ، فان كتمتموه صرف الله عنكم شر الدنيا وعذاب الآخرة ، وإن أبيتم ذلك وأفشيتم سرى عذبكم الله فى الدنيا وفى الآخرة ، قالوا له : قل ما شئت ، قال : هل بعث أبى فى طلبى أحدا غيركم ؟ قالوا نعم ، فقال لهم : إذاً فاكتموا أمرى ولا تخبروا أبى أنكم رأيتمونى ، وقولوا مثل قول نظائركم الذين أرسلهم فى طلبى فلم يرونى ، لأنكم إن أخبرتموه بى أو ذهبتم بى إليه قتلنى وصرتم أنتم مؤاخذين بدمى . قال: فخلَّوْا عنه وانصرفوا . فلما دخلوا على أبيه قال تسعة منهم : قد وجدناه وقال لنا كيت وكيت فخلينا عنه، وقال العاشر : ما لنا به علم ومالى به خبر ، والتسعة قالوا : بلى قد ظفرنا به وإن شئت أتيناك به ، فقال لهم : ارجعوا فى طلبه وأتونى به ، وإن الخضر خاف أن يظفروا به ، فانحاز من ذلك الموضع إلى موضع آخر ، فأتوا إليه فلم يجدوه ، فرجعوا وقالوا لم نره ، فقتلهم أبوه . قال : وإن أباه دعا بالمرأة الثيب وقال لها : أنت صنعت هذا بابنى حتى هرب فقتلها ، وسمعت المرأة الأولى بذلك فهربت مخافة القتل ،وقال العاشر الذى أنكر رؤيا الخضر : مايؤمننى أن يقتلنى كما قتل التسعة ، فهرب حتى أتى قرية ، فإذا المرأة الهاربة أيضا فى تلك القرية فكانت تحتطب ، فقالت يوما : باسم الله ، فسمعها الرجل الهارب، فقال لها : من أنت ؟ فأخبرته خبرها، فقال : يا هذه أنا العاشر ، خرجت خوف القتل ، فهل لك أن أتزوجك ونعبد الله حتى نموت ؟ فقالت نعم ، ثم إنهما انطلقا حتى أتيا قرية فيها بعض من الفراعنة ، فاتخذا بيتا من قصب ومكثا فيه ورزقا فيه ثلاثة أولاد ، فقال لها الرجل : إذا أنا مت فادفنينى فى هذا البيت ، وكذلك كل من مات منكم ، فإنى لاأحب أن تكون قبورنا مع هؤلاء ، فإذا كان

آخرنا موتا يوصى أن يهدم عليه البيت ، فمات الرجل فدفنته امرأته ، ثم إنه بلغ فرعون زمانهم أنهم يوحدون الله ويعبدونه ، فجىء بالمرأة إلى حضرته ، فأمرها أن ترجع عن دينها فأبت ، فأمر بقدر من نحاس فلئت ماء وأغلى غليانا شديدا ، وأمر بالمرأة وولدها ، فلما أحضروا قال لها : ارجعى عن دينك، وإلا ألقيتك أنت وأولادك فى هذا القدر ، فأبت عليه ، فأمر بولدها الأكبر فألقى فيه ، فتفسخ فيه ، وكذلك الثانى ، وكان فى حجرها ابن رضيع فأرادوا إلقاءه ، فرقت المرأة ونازعتهم فى شأنه ، فتكلم الغلام الرضيع وقال لها : اصبرى فإنا جميعا فى الجنة ، فلما أرادوا أن يلقوها فى القدر قالت لهم: لى إليكم حاجة يسيرة؛ ، قالوا : وما هى ؟ قالت إذا رميتمونى فى القدر فادفنوها بما فيها من عظامنا فى بيتنا واهدموه علينا ، ففعلوا ذلك ، فلما أُسْرِى برسول الله صلى الله عليه وسلم وجد رائحة طيبة ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ فأخبره بقصتهم وقال : هذه رائحتهم . ويروى أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ قوما من أهل تلك المدينة ركبوا البحر فى تجارتهم ، فضربتهم الأمواج فتكسرت بهم سفينتهم ، فانفلت منهم رجلان على لوح من ألواحها ، فضربتهم الأمواج حتى أسندتهما إلى جزيرة من جزائر البحر ، فخرجا يجولان فى الجزيرة، فإذا هما بالخضر عليه السلام وعليه ثياب بيض وهو قائم يصلى، فجلسا حتى فرغ من صلاته ، فالتفت إليهما وقال لهما : من أنتما ؟ قالا : نحن من مدينة كذا وكذا ، خرجنا فى هذا البحر لطلب التجارة فانكسرت بنا هذه السفينة ودفعنا إلى هذه الجزيرة ؛ فقال : اختارا إن شئتما أن تقيما فى هذا الموضع تعبدان الله وتأتيكما أرزاقكما وإن شئتما أردكما إلى منازلكما ؛ قالا : بل تردنا إلى منازلنا ، فقال لهما : على أن تعطيانى عهد الله وميثاقه على أنكما لا تخبران بشىء مما تريانه ، فأعطياه العهد والميثاق على الكتمان ، فنظر فإذا سحائب تمر ، فدعاهن وسألهن، فقالت كل واحدة منهن: أريد بلد كذا وكذا ، فدعا التى تريد بلادهما فقال : لها : احملى هذين حتى تضعيهما على سطحيهما ، فسقطت السحابة وانشقت لهما ثم رفعتهما ومضت حتى وضعتهما على سطحيهما ، فعزم أحدهما على الكتمان ونزل إلى منزله وعزم الآخر على إذاعته فنزل من سطحه وخرج من بابه وانطلق إلى باب المدينة، ونادى : النصيحة ، فأدخل على الملك، فقال له : ما نصيحتك ؟ فقال : رأيت ابنك فى موضع كذا وكذا وصنع بى كذا وكذا ، فقال له : من يعلم ذلك ؟ قال : فلان كان رفيقى فبعث إليه وسأله عما قال ؟ فقال : أما ركوب البحر فقد ركبنا جميعا وقد انكسرت بنا السفينة وصرنا على لوح من ألواحها، فلم تزل الأمواج تضربنا حتى صرنا إلى الساحل ، فخرجنا من البحر ، فلم نزل نعيش من الشجر ونبات الأرض والثمر ، ترفعنا أرض وتضعنا أخرى حتى انتهينا إلى منازلنا ، فقال له الغادر : ابعث معى رسلك حتى أدفعه إليك وتعلم أن هذا قد كذب ، فأمر بالرجل الكاتم فحبس ، وتوعده بالصلب إن وفى صاحبه بما قال ، وأوعد الغادر بالصلب إن هو كذب ولم يأت به ، فبعث معه رسلا

فركبوا البحر حتى انتهوا إلى الجزيرة ، فطلبوا الخضر فلم يجدوا شيئا ، فرجعوا بالرجل إلى الملك وقالوا : هذا أكذب خلق الله ما رأينا مما قال شيئا ، فصلبه وخلى عن الآخر ، ثم إن أهل تلك المدينة لم يزالوا يعملون المعاصى حتى غضب الله عليهم . قال جبريل عليه السلام ، فبعثنى الله تعالى إليهم ، فأدخلت جناحى تحتها واقتلعتها ، فرفعتها حتى سمع أهل سماء الدنيا نباح الكلاب وصياح الديوك ، ثم أمرنى فقلبتها ، فجاءت تهوى بمن فيها حتى انتهت إلى وجه الأرض ، فبقى بيت الرجل الكاتم والمرأة الكاتمة من جانب سالمين ، ثم انطبقت الأرض بمن فيها ، فلم ينج منهم غيرهما ، فجعلا يدوران فى حدود المدينة فلا يلتى كل واحد منهما غير صاحبه ، فلما أن كثر ذلك ، قال الرجل : أيتها المرأة قد رأيت ما أصاب القوم وإنه لم يفلت غيرى وغيرك ، فبأى شيء نجونا ؟ فأخبرينى وأنا أخبرك ، فعاهد كل واحد منهما صاحبه على الكتمان فتصادقا ، فإذا قصتهما واحدة وإنما نجاهما الكتمان ، فقال لها : هل لك أن تزوجينى نفسك ونخرج إلى مدينة من هذه المدائن فأكتسب عليك وتكتسبين علىّ حتى يقضى الله من أمرنا ما يشاء ؟ ففعلت ، فذهبا إلى مدينة فرعون من الفراعنة ، فاتخذا لهما بيتا وولدا لهما أولاد ، وتلطفت المرأة لآل فرعون وصارت ماشطة لهم فحظيت عندهم ، فبينما هى ذات يوم قاعدة تسرّح رأس بنت الملك إذ سقط المشط من يدها ، فقالت : باسم الله، تعس من كفر بالله ، ففزعت الجارية من ذلك وقالت لها : مَن الله ؟ قالت : ربى ، فقالت لها : وإن لك لربا غير أبى؟ فقالت نعم ، هو ربى ورب أبيك ورب كل شيء ، فهبطت الجارية ودخلت على أبيها وقالت : تعلم أن فلانة تقول قولا عجيبا ، تقول كذا وكذا ، فأرسل إليها فحضرت ، فقال لها : ما هذا الذى بلغنى عنك ؟ فقالت : هو ما بلغك ، قال : فهل أحد يقول بقولك ؟ قالت نعم بعلى وصبيتى ، فبعث إليهم وامتحنهم ، فإذا هم يقولون قولا واحدا ، فقال لهم : إنا لانقركم على ما أنتم عليه حتى ترجعوا إلى ديننا ، فقالوا له : اصنع ما أنت صانع ، فأمر بقدر من نحاس عظيمة ، فملئت ماء ثم أشعل تحتها حتى اضطرب الماء ، ثم دعا بالصبية فعرض عليهم واحدا واحدا ليكفروا ، فأبوا أن يكفروا ، فأخذهم وطرحهم فى القدر ، ثم إنه دعا بالزوج وعرض عليه الكفر فأبى ، فألقاه فى القدر ، ثم دعا بالمرأة وقال لها : إن لك علينا حقا ، فان أنت رجعت إلى ديننا وإلا ألقيناك فى القدرَ ، فقالت له : اصنع ما أنت صانع ، ثم إنها قالت له : لى إليك حاجة ، قال : وما هى ؟ قالت : إذا صنعتَ ما أنت صانع ، فر ببيتنا أن يحفر فيه حفرة ، ثم تأمر بالقدر فتحمل بما فيها ، ثم يأتون بها منزلنا ، فيسكب ما فى القدر فى الحفرة ثم يعاد علينا التراب ، ثم يهدم علينا البيت ، ففعل ذلك ، فهذه الرائحة رائحة المسك تسطع من بيتهم إلى يوم القيامة . فهذه قصة الخضر مع أبيه وبدء أمره ، وكان فى زمن إفريدون الملك ابن القباء على قول عامة أهل الكتب الأولى . وقيل إنه كان على على مقدمة ذى القرنين الأكبر الذى كان فى زمن إبراهيم عليه السلام ، وهو الذى قضى به

اليسع ، وهى بئر كان احتفرها إبراهيم عليه السلام لما شيته فى صحراء الاردن ، وإن قوما من أهل الأردن ادعوا الأرض التى احتفرها فيها إبراهيم عليه السلام ، فحاكمهم إبراهيم عليه السلام إلى ذى القرنين الذى كان الخضر على مقدّمته أيام مسيره فى البلاد ، وأنه بلغ مع ذى القرنين نهر الحياة وشرب من مائه وهو لا يعلم به ولا يعلم ذو القرنين ومن معه فى محلته ، فخلد وهو فى الحياة إلى الآن . وقيل إن ذا القرنين الذى كان على عهد إبراهيم عليه السلام وكان الخضر عليه السلام على مقدمته هو أفريدون الملك . وزعم بعضهم أن الخضر من ولد من كان آمن بابراهيم خليل الرحمن واتبعه على دينه وهاجر معه من أرض بابل.

وروى محمد بن إسحق بن يسار عن وهب بن منبه أن الخضر هو أرميا بن خلفيا ، وكان من سبط هارون بن عمران ، وهوالذى بعثه الله نبيا فى أيام ناشئة بن أموص ملك بنى إسرائيل والقول الأول أشبه بالحق وأولى بالعدل والصدق ، لأن ناشئة بن أموص كان فى عصر كرفشت بن كرارشت فى أيام بختنصر ، وبين إفريدون وكرفشت من الدهور والأزمان ما لايجهله ذو علم بأيام الناس وأخبارهم :

وقد صح الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى بن كعب أن صاحب موسى بن عمران الذى أمر بطلبه وبالاقتباس منه هو الخضر عليه السلام ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الخلق بالأمور الماضية والباقية ، وموسى بن عمران إنما نبئ فى عصر متوشهر الملك ، وكان متوشهر الملك ملك بعد جده أفريدون ، فدل هذا على خطأ من قال إنه أرميا بن خلفيا ، لأن أرميا كان فى أيام بختنصر ، وبين عهد موسى وبختنصر من المدة ما لايخفى على أهل العلم ، اللهم إلا أن يكون الأمر كما قال من قال : إنه كان على مقدمة ذى القرنين صاحب إبراهيم عليه السلام ، فشرب من ماء عين الحياة ، فخلد ولم يبعث فى أيام إبراهيم ومن بعده إلى أيام ناشئة بن أموص ، فبعث حينئذ نبيا ، والله أعلم .

والصحيح أنه نبى معمر محجوب عن الأبصار .

وروى محمد بن المتوكل عن ضمرة بن عبيد الله بن سوار قال : الخضر من ولد فارس وإلياس من بنى إسرائيل يلتقيان فى كل عام فى الموسم . وأخبرنى محمد بن القاسم، أخبرنا أبو بكر محمد بن القاسم قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن محمد بن يعقوب قال : أخبرنا يزيد ابن سمعان بن حبان الواسطى ، أخبرنا على بن المنذر عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال : إن الخضر وإلياس لايزالان حيين فى الأرض ما دام القرآن فيها ، فإذا رفع القرآن ماتا . وأخبرنى أبوعمرو العمرانى ، أخبرنا أبو أحمد بن محمد على الرازى ، أخبرنا إبراهيم بن إسحق الأنماطى ، أخبرنا أبو همام الوليد بن شجاع السلمى ، أخبرنا عمر بن عبد الواحد السلمى عن ابن ثوبان عن بعض أهل العلم عن أنس بن مالك قال : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا بصوت يجىء من شعب، فقال : يا أنسُ انْطَلِقْ فأبْصِرْ ما هذا الصَّوْتُ ؟ قال : فانطلقت فإذا رجل يصلى ويقول : اللهم اجعلنى من

أمة محمد المرحومة المغفور لها المستجاب لها المتاب عليها ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعلمته بذلك ، فقال لى : انْطَلِقْ فقُلْ لَهُ إنَّ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُقْرِئُكَ السَّلامَ وَيقولُ لكَ مَنْ أنْتَ ؟ فأتيته فأعلمته بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لى : أقرئْ رسول الله صلى الله عليه وسلم منى السلام وقل له : أخوك الخضر يقول له : ادع الله أن يجعلنى من أمتك المرحومة المغفور لها المستجاب لها المتاب عليها .

رجعنا إلى حديث موسى وفتاه ، قالوا : فانتهى موسى وفتاه إلى الخضر وهو قائم يصلى على طنفسة خضراء على وجه الماء ، وهو متشح بثوب أخضر ، فسلم عليه موسى فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام ؟ فقال : أنا موسى ، فقال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال نعم ، قال : يا موسى لقد كان فى بنى إسرائيل شغل ، قال موسى : إن ربى أرسلنى إليك لأتبعك وأتعلم من علمك ، ثم جلسا يتحدثان ، فجاءت خُطافة وحملت بمنقارها من الماء ، فقال الخضر : يا موسى خطر ببالك أنك أعلم أهل الأرض ، ما علمك وعلمى وعلم جميع الأولين والآخرين فى جنب علم الله تعالى إلا أقل من الماء الذى حملته الخطافة بمنقارها ، فذلك قوله تعالى (فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا) أى نبوة وحكمة (وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً) .

وقال ابن عباس : كان الخضر يعلم علم الغيب ، فقال له موسى (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ؟ قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً) لأنى أعلم علم الباطن علما علمنيه الله تعالى (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً) يعنى ما لم تعلمه ، قال موسى (سَتَجِدُنِى إِنْ شاءَ اللهُ صابِراً ولا أَعْصِي لكَ أَمْراً . قالَ فإِنِ اتَّبَعْتَنِى فلا تسألْنِى عَنْ شَيْءٍ) علمته مما تنكره (حتى أُحْدِثَ لكَ مِنْهُ ذِكْراً) وأبين لك شأنه (فانْطَلَقا) يسيران يلتمسان سفينة يركبان فيها ، فمرت بهما سفينة جديدة وثيقة فركباها ، فقال أصحاب السفينة : هؤلاء لصوص ، وأمروهم بالخروج منها ، فقال صاحب السفينة : ما هؤلاء بلصوص ، ولكنى أرى وجوههم وجوه أنبياء .

وقال أبى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « انْطَلَقا يَمْشِيانِ على ساحِلِ البَحْرِ إذْ مَرَّتْ بِهِما سَفِينَةٌ ، فكَلَّمُوهُمْ أنْ يَحْمِلوهُمْ ، فعَرَفوا الخَضِرَ فحَمَلوهُمْ بغيرِ نَوْلٍ ، فلمَّا دَخلوا فى البَحْرِ أخَذَ الخَضِرُ عليهِ السَّلامُ فأسا فخَرَقَ لَوْحاً مِنَ السَّفِينَةِ حتى دَخَلها الماءُ ، فحَشاها مُوسَى بثَوْبِهِ و(قالَ أخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها) وقَدْ حَمَلونا وأحْسَنوا إلَيْنا فخَرَقْتَ سَفِينَتَهُمْ ما هذا جَزاؤُهُمْ مِنَّا (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إمْراً) أى عجبا منكرا ، قالَ الخَضِرُ (أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً قالَ) موسى (لاتُؤَاخِذْنِى بِما نَسِيتُ ولا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْراً) يعنى لاتكلفنى ولا تضيق عَلَىَّ أمرِى » ؛

قال ابن عباس : لما خرق الخضر السفينة تنحى موسى ناحية وقال فى نفسه : ما كنت أصنع بمصاحبة هذا الرجل ، كنت فى بنى إسرائيل أتلو عليهم كتاب الله غدوة وعشية وآمرهم فيطعيونى ، فقال له الخضر : يا موسى أتريد أن أخبرك بما حدّثت به نفسك ؟ قال : نعم، قال : قلت : كذا وكذا ، قال صدقت . فانطلقا يمشيان حتى أتيا أيلة فإذا هما بغلمان عشرة ، فيهم غلام هو أظرفهم وأضوؤهم وجها .

قال ابن عباس: كان غلاما لم يبلغ الحلم . وقال الضحاك : كان غلاما يعمل الفساد، فتأذى منه أبوه . وقال الكلبى : كان الغلام يسرق المتاع بالليل فإذا أصبح لجأ إلى أبويه فيحلفان دونه شفقة عليه ويقولان لقد بات عندنا .

واختلفوا فى اسمه ، فقال الضحاك : كان اسمه حسنود . وقيل الحسين ، وقال وهب بن منبه: كان اسم أبيه ملاس ، واسم أمه رحمة . قال : فأخذه الخضر عليه السلام فقتله .

واختلفوا فى كيفية قتله ، قال سعيد بن جبير : أخذه فأضجعه ثم ذبحه بالسكين . وقال الكلبىّ : صرعه ثم نزع رأسه . وقال قوم : رفسه برجله فقتله : وقال آخرون : ضرب رأسه بالجدار حتى قتله ، وفى رواية أخرى : أدخل أصابعه فى سرة الصبى فاقتلعها فمات . فلما قتله قال موسى (أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً) يعنى طاهرة لم تذنب ولم تستوجب القتل (بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا) أى منكرا . قال قتادة : المنكر أشد وأعظم من الإمر ، قال فغضب الخضر واقتلع كتف الصبىّ الأيسر ، وقشر اللحم عنه ، فإذا فى عظم كتفه مكتوب : كافر لا يؤمن بالله أبدا .

ويدل على صحة هذا القول ما أخبرنا به عبد الله بن حامد ، أخبرنا أحمد بن عُبيد الله ، أخبرنا محمد بن عبد الله بن سليمان ، أخبرنا يحيى ، أخبرنا قيس عن أبى إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبىّ بن كعب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كانَ الغُلامُ الَّذى قَتَلَهُ الخَضِرُ طُبِـعَ كافِرًا ». فقال الخضر لموسى (أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ، قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا) أى فى فراق .

أخبرنا عبد الواحد بن حامد الوزان ، أخبرنا مكى بن عبدان ، أخبرنا عبد الرحمن بن بشر ، أخبرنا حجاج بن محمد ، أخبرنا حمزة الزيات عن أبى إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبىّ بن كعب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر أحدا بدعائه بدأ بنفسه فقال ذات يوم : رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنا وعَلى أخى مُوسَى لَوْ لَبِثَ مَعَ صاحِبِهِ لأبْصَرَ العَجَبَ العُجابَ ولكِنَّهُ قالَ : (إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى ، قد بلغت من لدنى عذرا ، فانطلقا) يمشيان (حَتَّى أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ) :

واختلفوا فى القرية ، قال ابن عباس : هى أنطاكية . وقال محمد بن سيرين : هى أيلة

وهى أبعد أرض الله من السماء . وقيل هى قرية من قرى الروم يقال لها ناصرة ، وإليها ينسب النصارى . قال (١) : فوافياها قبل غروب الشمس ، فاستطعما أهلها واستضافاهم ، فأبوا أن يضيفوهما . قالوا : كان أهل قرية لئاما . وقال قتادة فى هذه الآيات : شر القرى لاتضيف الضيف ، ولا تعرف لابن السبيل حقه . قالوا : فلم يجدوا تلك الليلة فى تلك القرية قِرًى ولا ماء ولا مأوى ، وكانت ليلة باردة ، فالتجئوا إلى حائط على شارع الطريق (يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ) أى يكاد ينهدم ويسقط ، ولم يكن يمر به أهل القرية ولا غيرهم من الناس إلا على خوف منه ، وكان قد بناه رجل صالح .

وفى بعض الأخبار : أن سمك ذلك الحائط كان ثلاثين ذراعا بذراع ذلك القرن ، وكان طوله على وجه الأرض خمسمائة ذراع ، وعرضه خمسون ذراعا ، فأقامه الخضر : أى سوّاه. وقال ابن عباس : هدمه وبناه . وقال سعيد بن جبير : مسح الجدار وسواه بيده ومنكبيه فاستقام ، فقال له موسى (لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عليهِ أَجْرًا) ليكون لنا قُوتا وبلغة على سفرنا ، إذ استضفناهم فلم يضيفونا ، فقال له الخضر (هذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عليهِ صَبْرًا) ثم أخذ يفسر له فقال: (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فى البَحْرِ) الآية . قال كعب وغيره : كانت لعشرة إخوة زَمْنَى لم يكن لهم معيشة غيرها ، ورثوها من أبيهم ، خمسة منهم يعملون فى السفينة فى البحر ، وخمسة لايطيقون العمل ، فأما العمال منهم : فأحدهم كان مجذوما ، والثانى أعور ، والثالث أعرج ، والرابع آدر ، والخامس محموم لاتنقطع عنه الحمى الدهر كله ، وهو أصغرهم ، والخمسة الذين لايطيقون العمل : أعمى ، وأصم ، وأخرس ، ومقعد ، ومجنون . وكان البحر الذى كانوا يعملون فيه ما بين فارس إلى بحر الروم .

ويروى عن عكرمة قال : قلت لابن عباس فى قوله (أما السفينة فكانت لمساكين) كانوا مساكين ، والسفينة تساوى ألف دينار ، فقال : إن المسافر مسكين وإن كان معه ألف دينار ، ولهذا قيل : إن المسافر وماله على قلَتٍ إلا ما وقى الله تعالى (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها) قطعا لطمع الطامعين فيها ، ودفعا لشرهم (وكانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا) وراءهم : أى أمامهم ، قال الله تعالى (مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) أى أمامهم ، وقيل خلفهم لأنه كان رجوعهم فى طريقهم عليه ، ولم يكونوا يعلمون خبره ، فأعلم الله تعالى الخضر خبره ، وكان يأخذ كل سفينة صالحة غصبا ، وكذلك كان يقرؤها ابن عباس ، فخرقها وعيبها كيلا يتعرض لها ذلك الملك.

واختلفوا فى اسم ذلك الملك ، فقال أكثر العلماء : اسمه جلندى ، وكان كافرا . وقال ابن إسحق : كان اسمه منواه بن جلندى الأردنىّ . وقال شعيب الجبائى : كان اسمه هدد ابن بدد . وقيل كان لهذا الملك ثلاث مئة وستون قصرا فى كل قصر امرأة . قال : فلما جاوزوا الملك سد الخضر خرق السفينة ورمّها .

---

(١) القلت بالتحريك : الهلاك . وقد قلت يقلت قلتا : إذا هلك . وبابه فرح .

(وأمَّا الغُلامُ فكانَ أبواهُ مُؤْمِنَيْنِ فخَشِينا) اى فعلمنا (أنْ يُرْهِقَهُما) يغشاهما (طُغْياناً وكُفْراً) فيهلكهما . وقيل خشى أن يدرك فيدعو أبويه إلى الكفر فيجيباه ويدخلا معه فى دينه لفرط محبتهما له . وقيل خشيا على الغلام أن يعمل عمل الفساق فيتغافل أبواه فيدخلان النار (فأرَدْنا أنْ يُبْدِلَهُما ربُّهُما خيراً منهُ زَكاةً) وصلاحا (وأقْرَبَ رُحْماً) . قال ابن عباس : يعنى واصلا للرحم وبرًّا لِوالِدَيْهِ ، فأبدلهما الله جارية مؤمنة أدركت يونس بن متى وتزوجها نبىٌّ من الأنبياء ، فولدت له نبيا ، فهدى الله على يديه أمة من الأمم .

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا حامد بن أحمد قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يحيى بن الحارث ، أخبرنا عبد الوهاب بن فليح ، أخبرنا ميمون بن القداح عن جعفر ابن محمد الصادق عن أبيه فى هذه الآية قال : أبدلهما جارية فولدت سبعين نبيا . وقال ابن جريج : أبدلهما بغلام مسلم وكان المقتول كافرا . وقال قتادة فى هذه الآية : قد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ، ولو بقى كان فيه هلاكهما ، فرضا المؤمن بقضاء الله تعالى فيما يكره ، خير له من رضاه فيما يحبه .

(وأمَّا الجِدارُ فكانَ لغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فى المدِينَةِ) واسمهما ، أصرم وصريم (وكانَ تحْتَهُ كنزٌ لهُما) .

واختلفوا فى ذلك الكنز ما هو ؟ فقال ابن عباس وسعيد بن جبير كان صحفا مدفونة تحته فيها علم . وقال الحسن وجعفر بن محمد : كان لوحا من ذهب مكتوب فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، عجبا لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن : وعجبا لمن يوقن بالرزق كيف يتعب ، وعجبا لمن يوقن بالموت كيف يفرح ! وعجبا لمن يؤمن بالحساب كيف يجمع ! وعجبا لمن يعرف الدنيا وتقلبها كيف يطمئن إليها ! لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال آخرون : كان ذلك الكنز مالا ، يدل عليه ما أخبرنا أبو بكر الحمشادى المزكى ، أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن قيدوس الطرائفى ، أخبرنا عثمان بن سعيد ، أخبرنا صفوان ابن صالح الدمشقى ، أخبرنا يزيد بن مسلم الصنعانى عن يزيد بن يزيد عن مكحول عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (وكان تحته كنز لهما) قال « كانَ ذَهَبا وفضَّةً وكانَ أبوهُما اسمُهُ كاشح ، وكانَ صالحا تقيا أمينًا فحُفِظا لصَلاحِ أبيهما ولم يُذْكَرْ منهما صَلاح وكانَ بيْنَهُما وبينَ الأبِ الذى حفِظا به سَبْعَةُ آباء » .

أخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد قال : أخبرنا بشر بن موسى ، أخبرنا الحميدى ، أخبرنا سفيان ، أخبرنا محمد بن سوقة عن محمد المنكدر قال : إن الله عز وجل ليحفظ

بالرجل الصالح ولده وولد ولده ، وبقعته التى هو فيها ، والدويرات التى حوله ، فما يزالون فى حفظ الله وستره . وعن سعيد بن المسيب أنه كان إذا رأى ابنه قال يابنى : لأزيدنّ فى صلاتى من أجلك، لعلى أحفظ فيك ، ويتلو هذه الآية .

أخبرنا يحيى بن إسماعيل بن سلمة قال : كانت لى أخت أسنّ منى فاختلطت وذهب عقلها فتوحشت ،وكانت فى غرفة فى أقصى سطوحنا ، فلبثت كذلك بضع عشرة سنة ،وكانت مع ذهاب عقلها تحرص على الصلاة والطهور ، فبينما أنا نائم ذات ليلة ، إذ أنا بباب بيتى يدق نصف الليل ، فقلت من هذا؟ فقالت بجة ، فقلت أختى ؟ قالت أختك ، فقلت لبيك ، فقمت ففتحت الباب فدخلت ولا عهد لها فى البيت أكثر من عشرين سنة ، فقلت يا أختى خيرا ، فقالت خيرا يا أخى ، بتّ الليلة فأتانى آت فى منامى فقال لى السلام عليك يابجة ، فقلت وعليك السلام . فقال لى : إن الله تعالى قد حفظ أباك إسماعيل بن سلمة بن كهيل بسلمة جدك ، وحفظك بأبيك إسمعيل ، فإن شئت دعوت الله لك فيذهب مابك ، وإن شئت صبرت ولك الجنة ، فإن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما قد تشفعا لك إلى الله تعالى لحب أبيك وجدك إياهما ، فقلت إن كان ولا بد من اختيارى أحدهما ، فالصبر على ما أنا فيه والجنة ، وإن الله لواسع الفضل لخلقه لايتعاظمه شىء فى حكمه ولوشاء لجمعهما لى ، قالت : فقيل لى قد جمعهما الله لك ورضى عن أبيك وجدك بحبهما أبابكر وعمر ، فانزلى فان الله أذهب ما كان بك.

ويحكى عن بعض العلوية أنه دخل على هارون الرشيد وقد همّ بقتله ، فلما دخل عليه أكرمه وخلى سبيله ، فقيل له : بم دعوت حتى نجاك الله ؟ قال : قلت : يا من حفظ الكنز على الصبيين لصلاح أبيهما احفظنى منه لصلاح آبائى (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرِجا كَنْزَهُما) المدفون تحت الجدار (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى) وإنما فعلته بأمر الله تعالى (ذٰلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِـعْ عليه صَبْرًا) .

ويقال : لما عاب موسى على الخضر خرق السفينة وقتله الغلام وإقامة الجدار محتسبا مجانا ، قال له : يا موسى أتلومنى على خرق السفينة مخافة غرق أهلها ، ونسيت نفسك حين ألقتك أمك وأنت صغير فى اليمّ ضعيف فحفظك الله ؟ وتلومنى على قتل الغلام الكافر بلا أمر ، ونسيت نفسك حين قتلت القبطىّ بغير أمر ؟ وتلومنى على ترك أخذ الأجرة فى إقامة الجدار ، ونسيت نفسك حين سقيت غنم شعيب محتسبا لأجل الملك الجبار ؟

قال بعض أهل الأخبار : هذا ما كان من قصة موسى وفتاه وقصدهما الخضر حيث كانوا فى التيه ، فلما فارق موسى الخضر رجع إلى قومه ، وهم فى التيه .

ويروى عن على بن أبى طالب وغيره أن موسى لما أراد فراق الخضر قال له الخضر : استودعتك الله ، ثم قال له موسى : أوصنى ، فقال له الخضر : لاتكن مشاء فى غير حاجة ،

وإياك واللجاجة ، ولا تضحك من غير عجب ، ولا تعير الخاطئين بخطاياهم ، وابك على خطيئتك ، ولا تؤخر عمل اليوم إلى غد .

وروى أبو أمامة الباهلىّ عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال« ألا أحدِّثكُمْ عَنِ الخَضِرِ ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : بيْنَما الخَضِرُ يَمْشِى فى سُوقٍ مِنْ أَسْوَاقِ بنى إِسْرائيلَ إذْ لَقِيَهُ مُكاتَبٌ فقالَ لهُ تصدَّقْ علىَّ باركَ اللهُ لكَ ، فقالَ : آمنْتُ باللهِ وَما يقْضِى اللهُ مِنْ أمْرٍ سيَكونُ ، ما معى مِنْ شَىْءٍ أعْطِيكَهُ ، فقالَ الرَّجلُ تصدَّقْ علىَّ باركَ اللهُ عليْكَ فإنى أرَى الخَيْرَ فى وَجْهِكَ فرجَوْتُ الخيرَ مِنْ قِبلِكَ ، فقالَ لهُ الخَضِرُ : آمنْتُ باللهِ وَما يقْضِى اللهُ مِنْ أمْرٍ سيكونُ ، ما مَعى شَىْءٌ أعْطِيكَهُ ، فقالَ لهُ السَّائِلُ : أسألُكَ باللهِ لمَا تصدَّقتَ علىَّ ، فقالَ لهُ الخَضِرُ : آمنْتُ باللهِ ما يقْضِى اللهُ مِنْ أمْرٍ سيكونُ ، ما مَعى شَىْءٌ أعْطِيكَهُ إلاَّ أنْ تأْخُذَ بِيَدِى وتُدْخِلَنى فى السُّوقِ فتَبيعَنِى ، قالَ الرَّجلُ : وَهلْ يكونُ مِثْلُ هذا ؟ قالَ : الحقُّ أقولُ إنَّكَ سألْتَنى بعَظِيمٍ سألْتَنى بوَجْهِ ربى وقدْ أجبْتُكَ ، فخُذْ بيَدى وأدْخِلْنى السُّوقَ فبِعْنى ، فأخذَ بيَدِ الخَضِرِ فأدْخَلَهُ السُّوقَ فباعه بأرْبَعمائَةِ دِرْهَمٍ ، فلَبِثَ عِندَ المُبْتاعِ أيَّاما لايسْتَعْمِلهُ فى شَىْءٍ ، فقالَ لهُ الخَضِرُ : استعْمِلْنِى ، فقالَ لهُ : إنَّكَ شَيْخٌ كَبيرٌ وأكْرَهُ أنْ أشُقَّ عليكَ ، قالَ لايَشُقُّ علىَّ ذلكَ ، قالَ فقُمْ فانقُلْ هذهِ الحِجارَةَ مِنْ هَهُنا إلى هَهُنا ، وكانَتِ الحجارَةُ لاينقُلُها إلا ستَّةُ نفَرٍ فى يوْمٍ تامّ ، فقامَ وَنقَلَها فى ساعةٍ واحِدَةٍ ، وأمدَّهُ اللهُ تَعالى على نَقْلِها بملَكٍ مِنَ الملائِكَةِ ، فتَعَجَّبَ الرَّجُلُ منهُ وَقالَ أحْسَنْتَ ، ثمَّ عَرَضَ للرجُلِ سفَرٌ فقالَ للخَضِرِ : إنى أرَاكَ أميناً صالحا ناصِحا فاخْلُفْنِى فى أهْلى ، قالَ نعَمْ إنْ شاءَ اللهُ تَعالى فاستعْمِلْنى فى شَىْءٍ ، قالَ أكْرَهُ أنْ أشُقَّ عليْكَ ، قالَ : لايشُقُّ ذلكَ علىَّ ، فقالَ : اضْرِبْ لى لَبِناً أُرِيدُهُ لقَصْرٍ لى ، ووَصفَهُ لهُ ، ثمَّ خرَجَ لِسفَرِهِ . فلمَّا قَضَى حاجَتَهُ ورَجَعَ مِنْ سَفَرِهِ إذْ هُوَ بالخَضِرِ عليهِ السَّلامُ قَدْ شيَّدَ بُنْيانَهُ على ما أرادَ ، فازْدادَ منهُ تعَجُّباً ، وقالَ لهُ منْ أنْتَ ؟ قالَ : أنا المَمْلوكُ الَّذى كنْتَ اشترَيْتَنى ، فقالَ لهُ : سألْتُكَ بوَجْهِ اللهِ أنْ تُخْبِرَنى مَنْ أنْتَ ؟ فقالَ الخَضِر : إنَّ هذا القَسَمَ هُوَ الَّذى أوْقَعنى فى العُبُودِيَّةِ أمَّا أنا فسأُخْبِرُكَ ، أنا الخَضِرُ سألَنى سائِلٌ بوَجْهِ ربى أنْ أُعطِيَهُ ولمْ يكُنْ مَعى شَىْءٌ أُعْطِيهُ ، فأمْكَنْتُهُ مِنْ نفْسِى حتى باعَنِى ، وبلَغَنى أنَّ مَنْ سئِلَ بوَجْهِ اللهِ ورَدَّ سائِلَهُ وَهُوَ بقَدْرٍ على قَضاءِ

حاجتِه وَقَفَ يومَ القيامةِ بين يدَىْ رَبِّه وليسَ على وَجْهِه لَحْمٌ ولا جِلْدٌ إلاَّ عَظْمٌ يتقعقعُ ، قالَ : فبكى ذلكَ الرَّجُلُ وانكَبَّ عليه يُقَبِّلُهُ ويقولُ له : بأبي أنتَ وأُمِّى شَقَقْتُ عليكَ ولمْ أعرِفْكَ فاحكُمْ علَىَّ فى مالى وأهلى ، وإنْ أحْبَبْتَ أنْ أُخلِّىَ سَبِيلَكَ فعلْتُ ، قالَ نعمْ بلْ أُحبُّ أنْ تُخلِّىَ سَبِيلى أعْبُدُ ربِّى ، وكانَ الرَّجُلُ كافِرًا فأسْلَمَ على يدَيْه وأعطاهُ أربَعَ مِئةِ دينارٍ وَخلَّى سَبِيلَهُ ، فأوحى اللهُ إليهِ قدْ نجَّيْتُكَ مِنَ الرِّقِّ وأسْلَمَ الكافِرُ على يدَيْكَ ، وأعْطاكَ مكانَ كُلِّ دِرْهَمٍ دينارًا ، لِتَعلَمَ أنْ لا يَخْسَرَ أحدٌ فى مُعامَلَتِى » . فهذا آخر قصة الخضر وموسى وفتاه ، والله أعلم .

باب فى ذكر قصة عاميل قتيل بنى إسرائيل وقصة البقرة

قال الله تعالى (وإذْ قالَ مُوسَى لقَوْمِه إنَّ اللهَ يأمُرُكُمْ أنْ تَذبحُوا بقَرَةً) قال المفسرون : وجد قتيل فى بنى إسرائيل اسمه عاميل لم يُدْرَ من قتله . واختلفوا فى قاتله وسبب قتله ، فقال عطاء والسدىّ : كان فى بنى إسرائيل رجل كثير المال ، وله ابن عم مسكين ولا وارث له غيره ، فلما طالت عليه حياته قتله ليرثه . وقال بعضهم : كان تحت عاميل ابنة عم له مالها فى بنى إسرائيل مثل فى الحسن والجمال ، فقتله ابن عم لها لينكحها ، فلما قتله حمله من قرية إلى قرية أخرى فألقاه هناك. وقال عكرمة : كان لبنى إسرائيل مسجد له اثنا عشر بابا ، لكل سبط منهم باب ، فوجد قتيل على باب سبط جر إلى باب سبط آخر ، فاختصم فيه السبطان . وقال ابن سيرين : قتله القاتل ثم احتمله ووضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يطلب ثأره ودمه ويدعيه عليه ، وقيل ألقاه بين القريتين فاختصم أهلهما وجاء أولياؤه إلى موسى وأتوه بناس وادعوا عليهم القتل وسألوه القصاص ، فسألهم موسى عن ذلك فجحدوا ولم يكن لهم بينة ، فاشتبه أمر القتيل على موسى ووقع بينهم قتال واختلاف ، وذلك قبل نزول القسامة فى التوراة ، فسألوا موسى أن يدعو الله ليبين لهم أمر ذلك القتيل . فسأل موسى ربه ، فأمرهم بذبح البقرة ، فقال لهم موسى (إن اللهَ يأمُرُكُمْ أنْ تَذبحُوا بقَرَةً قالُوا أتتَّخِذُنا هُزُوًا) جئناك لنسألك عن القتيل فتأمرنا بذبح بقرة ، وإنما قالوا ذلك لتباعد الأمرين فى الظاهر ، ولم يدروا وجه الحكمة فيه ، فقال موسى (أعوذُ باللهِ أنْ أكُونَ مِنَ الجاهِلينَ) أى من المستهزئين بالمؤمنين . فلما علم القوم أن ذبح البقرة أمر من الله تعالى قد لزمهم ، سألوه الوصف فقالوا (ادْعُ لنا رَبَّكَ يُبيِّنْ لنا ما هِىَ ؟) ولو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ، لكنهم شددوا الأمر على أنفسهم فشدد الله عليهم ، وإنما كان تشديدهم تقديرا من الله وحكمة ، وكان السبب فيه على ماذكره السدىّ وغيره : أن رجلا فى بنى إسرائيل كان بارا بأبيه ، وبلغ من بره أن

رجلا أتاه بلؤلؤة فابتاعها بخمسين ألفا ، وكان فيها فضل وربح ، فقال البائع : أعطى ثمن اللؤلؤة ، فقال : إن أبى نائم ومفتاح الصندوق تحت رأسه فأمهلنى حتى يستيقظ وأعطيك الثمن ، فقال : أيقظ أباك وأعطنى المال ، فقال : ما كنت لأفعل ، ولكن أزيدك عشرة آلاف وأنظرنى حتى ينتبه أبى ، فقال الرجل : أنا أحط عنك عشرة آلاف إن أيقظت أباك وعجلت النقد ، فقال : أنا أزيدك عشرين ألفا إن انتظرت انتباهه ، فقال : قبلت ، فقعد ولم يوقظ أباه . فلما استيقظ أبوه أخبره بذلك ، فدعا له وجزاه خيرا وقال له : أحسنت يا بنىّ ، وهذه البقرة لك بما صنعت ، وكانت بقية بقر كانت لهم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه القصة « انْظُرُوا ما صَنَعَ اللهُ بِهِ لأجْلِ البِرِّ » .

وقال ابن عباس ووهب وغيرهما من أهل الكتب : كان فى بنى إسرائيل رجل صالح ، وله ابن طفل ، وكان له عجلة ، فأتى بالعجلة إلى غيضة وقال : اللهم إنى استودعتك هذه العجلة لابنى حتى يكبر ، ثم مات الرجل وشبت العجلة فى الغيضة حتى صارت عوانا ، وكانت تهرب من كلّ من رآها . فلما كبر الابن ، وكان بارًّا بوالدته ، وكان يقسم الليل ثلاثة أثلاث : يصلى ثلثا ، وينام ثلثا ، ويجلس عند رأس أمه ثلثا ، فإذا أصبح انطلق فاحتطب على ظهره ، فيأتى به السوق فيبيعه بما شاء الله ، ثم يتصدق بثلثه ، ويأكل بثلثه ، ويعطى والدته ثلثه ؛ قالت له أمه يوما : يا بنىّ إن أباك ورثك عجلة وذهب بها إلى غيضة كذا وكذا واستودعها الله تعالى ، فانطلق إليها واعزم عليها بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحق أن يردها عليك ، وعلامتها أنك إذا نظرت إليها يتخيل لك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها وكانت اسمها المذهبة لحسن خلقها وصفاء لونها وصفرتها ، فأتى الغيضة فرآها وهى ترعى ، فصاح بها الفتى وقال لها : أعزم عليك بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب أن تردى علىّ ، فأقبلت تسعى حتى قامت بين يديه ، فقبض على عنقها وقادها ، فتكلمت البقرة بإذن الله تعالى وقالت : أيها الفتى البار بوالدته اركبنى فإن ذلك أهون لك ، فقال : إن أمى لم تأمرنى بذلك وإنما قالت خذ بعنقها ، فقالت البقرة : وإله بنى إسرائيل لو ركبتنى ما كنت تقدر علىّ أبدا ، فانطلق فإنك لو أشرت إلى الجبل أن ينقلع من أصله وينطلق لفعل لبرّك بوالدتك فانطلق الفتى بها ، فاستقبله عدو الله إبليس فى صورة راع ، فقال له : أيها الفتى إنى راع من رعاة البقر اشتقت إلى أهلى ، فأخذت ثورا من ثيرانى وحملت عليه زادى ومتاعى حتى إذا بلغت شطر هذه الطريق ذهبت لأقضى حاجتى ، فغدا وسط الجبل وما قدرت عليه ، وإنى لأخشى على نفسى الهلكة ، فإن رأيت أن تحملنى على بقرتك هذه وتنجينى من الموت وأعطيك بقرتين مثل بقرتك ، فلم يفعل الفتى وقال : اذهب فتوكل على الله ، فلو علم الله منك اليقين لبلغك بلا زاد ولا راحلة ، فقال له إبليس لعنه الله : إن شئت فبعنيها بحكمك وإن شئت فاحملنى عليها وأعطيك عشرة أمثالها ، فقال له الفتى : إن أمى لم تأمرنى بهذا ، فبينما الفتى كذلك إذ طار طائر من بين يدى البقرة ، فنفرت البقرة هاربة فى الفلاة وغاب الراعى

فدعاها الفتى وقال : باسم الله إله إبراهيم فرجعت إليه البقرة وقالت : أيها الفتى البار بوالدته ألم تر إلى الطائر الذى طار ، فإنه إبليس عدو الله اختلسنى ، أما إنه لو ركبنى لما قدرتَ على أبدا ، فلما دعوتَ بإله إبراهيم جاءنى ملك انتزعنى من يد إبليس وردنى إليك لبرك بأمك وطاعتك لها ، فجاء بها الفتى إلى أمه ، فقالت له : إنك فقير لامال لك ، ويشق عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل ، فانطلق فبع هذه البقرة وخذ ثمنها ، فقال : بكم أبيعها ؟ فقالت : بثلاثة دنانير ولا تبعها بغير رضاى ومشورتى ، وكان ثمن البقرة فى ذلك الوقت ثلاثة دنانير فانطلق بها إلى السوق ، فبعث الله إلى الفتى ملكا ليرى خلقه قدرته ، وليختبر الفتى كيف بره بوالدته ، وكان الله به خبيرا ، فقال له الملك بكم تبيع هذه البقرة ؟ فقال : بثلاثة دنانير وأشترط عليك رضا والدتى ، فقال له الملك : أنا أعطيك ستة دنانير ولاتستأمر أمك ، فقال له الفتى لو أعطيتنى وزنها ذهبا لم آخذه إلا برضا أمى ، فردها إلى أمه فأخبرها بالثمن ، فقالت : ارجع فبعها بستة دنانير على رضاى ، فانطلق الفتى بالبقرة إلى السوق ، فأتى الملك فقال له : استأمرت والدتك ؟ فقال الفتى : نعم ، أمرتنى ألا أنقصها عن ستة دنانير على أن أستأمرها ، فقال له الملك : إنى أعطيك اثنى عشر دينارا على أن لاتستأمرها ، فأبى الفتى ورجع إلى أمه فأخبرها بذلك ، فقالت : إن ذلك الرجل الذى يأتيك هو ملك من الملائكة يأتيك فى صورة آدمى ليختبرك ، فإذا أتاك فقل له : أتأمرنى أن أبيع هذه البقرة أم لا ؟ ففعل الفتى ذلك ، فقال له الملك : اذهب إلى أمك وقل لها أمسكى هذه البقرة ، فإن موسى بن عمران يشتريها منك لقتيل يقتل فى بنى إسرائيل ، ولا تبيعيها إلا بملء مَسكها دنانير ، فأمسكا البقرة ، وقدّر الله على بنى إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها مكافأة له على بره بوالدته فضلا منه ورحمة ، فذلك قوله تعالى (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِىَ) وما سنها ؟ (قَالَ) موسى (إِنَّهُ) يعنى الله (يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ) أى لا كبيرة ولا صغيرة (عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ) نَصَف بين السنّين (فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ) من ذبح البقرة ولا تكثروا السؤال (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ؟ قَالَ : إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ) إليها ، وتعجبهم من حسنها وصفائها ، لأن العين تسر وتولع بالنظر إلى الشىء الحسن . وقال على بن أبى طالب : من لبس نعلا صفراء قلّ همه ، لأن الله تعالى يقول (صفراء فاقع لونها تسر الناظرين . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِىَ) أسائبة أم عاملة (إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ) إلى وصفها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَايْمُ اللَّهِ لَوْ لَمْ يَسْتَثْنُوا لَمَا قُبِلَتْ مِنْهُمْ إِلَى آخِرِ الأَبَدِ » (قال : إنه يقول إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ) مذللة بالعمل (تُثِيرُ الأَرْضَ) تقلبها للزراعة (وَلَا تَسْقِى الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ) بريئة من العيوب (لَاشِيَةَ فِيهَا) قال عطاء : لاعيب فيها . وقال قتادة : لابياض فيها أصلا . وقال محمد ابن كعب : لالون فيها يخالف معظم لونها . قال : فلما قال لهم موسى هذا (قَالُوا الآنَ

جِئْتَ بالحَقِّ) أى بالوصف الثابت التام البين ، فطلبوها فلم يجدوها بكمال وصفها إلا عند الفتى البارّ بأمه ، فاشتروها منه بملء مَسكها ذهبا . وقال السدىّ : اشتروها بوزنها عشر مرات ذهبا (فذَبحُوها وَما كادُوا يفعَلونَ) من غلو ثمنها . وقال القرطبىّ : وما كادوا يذبحونها باجتماع أوصافها ، وذلك قوله تعالى (وإذْ قتَلْتُمْ نَفساً) يعنى عاميل ، وهذه الآية أول القصة (فادّارأْتمْ فيها) أى فاختلفتم فيها (واللهُ مُخرِجٌ) أى مظهر (ما كنتمْ تكتُمونَ) أى تخفون (فقلْنا اضْرِبُوهُ)يعنى القتيل (ببَعْضِها) أى بعض البقرة . واختلفوا فى هذا البعض ما هو ؟ قال ابن عباس ضربوه بالعظم الذى يلى الغضروف وهو المقتل . وقال الضحاك : بلسانها . قال حسين ابن الفضل . وهذا أولى الأقاويل ، لأن المراد من إحياء القتيل كلامه ، واللسان آلة . وقال سعيد بن جبير : بعجَب ذَنَبها : قال غياث : وهو أولى التأويلات بالصواب ،لأن عَجَبَ الذَنَب أساس البدن الذى ركب عليه الخلق ، وهو أول ما يخلق الله وآخر ما يبلى . وقال مجاهد : بذنبها . وقال عكرمة والكلبى : بفخذها الأيمن . وقال السدىّ : بالبَضْعة التى بين كتفيها . وقيل بأذنيها ، ففعلوا ذلك ، فقام القتيل حيا بإذن الله تعالى وأوداجه تشخب دما ،وقال :قتلنى فلان ثم سقط ومات مكانه . قال الله تعالى (كذلكَ يُحْيِى اللهُ الموْتى) كما أحيا عاميل بعد موته (ويُرِيكمْ آياتِهِ)دلائل قدرته وشواهد حكمته (لعَلّكمْ تعْقِلونَ). قالوا فلما كان من أمر عاميل ما كان أوحى الله تعالى إلى موسى أن يتوجه إلى الأرض المقدسة ببنى إسرائيل لينظر إلى كلّ قتيل يوجد بين قريتين أو محلتين فيأخذ أقرب القريتين إليه ويلزمهم الدية ، فإن علموا قاتله سلموه إلى أهله ،وإن لم يعلموا تخيروا خمسين رجلا من شيوخهم وصلحائهم ، ثم ليأخذوا بقرة حولية ويذبحوها ببطن واد يسميه لهم ، ثم لتضع الخمسون رجلا أيديهم عليها ، ثم ليحلفوا بالله العظيم رب السموات والأرض إله بنى إسرائيل وإسحاق ويعقوب وإسماعيل إنا ما قتلناه ولا علمنا له قاتلا ، فإذا حلفوا برئوا من دمه وأدوا ديته إلى أوليائه ، فلم يزل موسى يقضى بالقَسامة بينهم إلى أن مات، وكذا بنو إسرائيل ،حتى جاء الإسلام فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقسامة ، والله أعلم .

باب فى ذكر بناء بيت المقدس والقربان والتابوت والسكينة، وصفة النار التى كانت تأكل القربان ، وما أمر به موسى عليه السلام من ذلك

قال الله تعالى (الّذينَ قالُوا إنّ اللهَ عَهِدَ إليْنا ألاّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حتّى يأْتِينَا بقُرْبانٍ تأْكُلُهُ النّارُ) الآية .

أنبأنا محمد بن حمدويه بإسناده عن وهب بن منبه قال : أوحى الله إلى موسى أن يتخذ مسجدا لجماعتهم وبيت قدس للتوراة والتابوت والسكينة وقبابا للقربان ، وأن يجعل لذلك المسجد سرادقات باطنها وظاهرها من الجلود الملبسة عليها، وأن تكون تلك الجلود من جلود

ذبائح القربان وحبالها التى تمد بها من أصواف تلك الذبائح ، وعهد إليه أن لايغزل تلك الحبال حائض ، ولا يدبغ تلك الجلود جُنُب ،وأمره أن ينصب تلك السرادقات على عمد من نحاس طول كل عمود منها أربعون ذراعا ، ويجعل فيها اثنى عشر قسما مسرجا ، فإذا انقضى وصار اثنى عشر جزءا جعل على كل جزء بما فيه من العمد سبطا من أسباط بنى إسرائيل ،وأمره أن يجعل سعة تلك السرادقات ست مئة ذراع فى ست مئة ذراع ،وأن ينصب فيه سبع قباب ، ستة منها مشتبكة بقضبان الذهب والفضة ، كل واحدة منهن منصوبة على عمود من فضة، طوله أربعون ذراعا، وعليها أربعة دسوت من ثياب محلاة الباطن: الأول سندس أخضر ، والثانى أرجوان أحمر ، والثالث ديباج ، والرابع من جلود القربان وقاية لها من المطر والغبار وحبالها التى تمد بها من صوف القربان ، وأن يجعل سعتها أربعين ذراعا، وأن ينصب فى جوفها موائد من فضة مربعة يوضع عليها القربان ، سعة كل مائدة منها أربعة أذرع فى أربعة أذرع ، كل مائدة منها على أربع قوائم من فضة ، كل قائمة ثلاثة أذرع ، لاينال الرجل منها إلا قائما، وأمره أن ينصب بيت المقدس على عمود من ذهب طوله سبعون ذراعا يضعه على سبيكة من ذهب أحمر طولها تسعون ذراعا مرصع بأنواع الجواهر ، وأن يجعل أسفله مشتبكا بقضبان الذهب والفضة ، وأن يجعل حبالها التى تمد لها من أصواف القربان ، وأن يجعله مصبوغا بألوان من أحمر وأصفر وأخضر ،وأن يلبسه سبعة من الجِلال محلاة الباطن : الأول منها سندس أخضر ، والثانى أرجوان أحمر ، والثالث من الديباج الأصفر ،والرابع من الحرير الأصفر ،وكذلك أثواب نحوها وسائرها من الديباج والوشى ، والظاهر له غاشية من جلود القربان وقاية له من الأذى والندى وأمره أن يجعل سعته سبعين ذراعا ، وأن يفرش القباب بالقزّ الأحمر ، وأمره أن ينصب فيه تابوتا من ذهب كتابوت الميثاق مرصع بألوان الجواهر واليواقيت الأحمر والأشهب والزمرد الأخضر وقوائمه من ذهب، وأن يجعل سعته سبعة أذرع فى أربعة أذرع ، وعلوه قامة موسى ، وأن يجعل له أربعة أبواب : باب تدخل منه الملائكة ، وباب يدخل منه موسى ،وباب يدخل منه هارون ، وباب يدخل منه أولاد هارون،وهم سَدَنة ذلك البيت وخُزان التابوت،وأمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يأخذ من كل محتلم فيها من بنى إسرائيل مثقالا من ذهب ، فينفقه على هذا البيت ، وأن يجعل باقى ذلك المال الذى لايحتاج إليه من الحلىّ والحلل التى ورثها الله بنى إسرائيل وموسى وأصحابه من فرعون وقومه دفينا فى أرض بيت المقدس،ففعل ذلك فبلغ عدد بنى إسرائيل ستّ مِئة ألف وسبعة وخمسين رجلا ،فأخذ منهم ذلك المال،وأوحى الله إليه إنى منزل عليكم من السماء نارا لادخان لها ولا تحرق شيئا ولا تطفأ أبدا لتأكل القرابين المتقربة وتسرج القناديل التى فى بيت المقدس ، وهى من ذهب معلقة بسلاسل من الذهب منظومة من اليواقيت واللآلئ وأنواع الجواهر ، وأمره أن يضع فى وسط البيت صخرة عظيمة من الرخام وينقر فيها نقرة لتكون كانون تلك النار التى تنزل من السماء ،

فدعا موسى اخاه هارون وقال له: إن الله قد اصطفانى بنار تنزل من السماء تأكل القرابين المتقبلة وتسرج منها القناديل وأوصانى بها ، وإنى قد اصطفيتك بها وأوصيتك بها ، فدعا هارون ابنيه وقال لهما :إن الله قد اصطفى موسى بأمر وأوصاه به ، وإنه قد اصطفانى له وأوصانى به ، وإنى قد اصطفيتكما له وأوصيتكما به ، وكان أولاد هارون هم الذين يلون سدنة هذا البيت وأمر القربان والنيران ، فشربوا ذات ليلة حتى ثملوا، ثم دخلوا البيت وأسرجوا القناديل من هذه النار التى فى الدنيا ، فغضب الله عليهم وسلط عليهم تلك النار فأحرقتهما وموسى وهارون يدفعان عنهما النار فلم يغنيا عنهما من أمر الله شيئا، فأوحى الله تعالى إلى موسى هكذا أفعل بمن عصانى ممن يعرفنى ، فكيف أفعل بمن لايعرفنى من أعدائى وهذا آخر القصة . والله أعلم .

باب فى ذكر مسير بنى إسرائيل إلى الشام حين جاوزوا البحر ، وصفة حرب الجبارين ، وقصة التيه وما يتعلق بذلك

قال الله تعالى (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً) الآيات . اختلفت عبارات المفسرين فى الأرض المقدسة ما هى ؟ فقال مجاهد : هى الطور وما حوله . وقال مقاتل : هى إيليا وبيت المقدس. وقال عبدالله بن عمر ، الحرم محرم بمقداره من السموات والأرض، والبيت المقدّس مقدّس: بمقداره من السموات والأرض . وقال عكرمة والسدىّ : هى أريحاء . وقال الكلبىّ : هى دمشق وفلسطين وبعض الأردن . وقال الضحاك :هى الرملة والأردنّ وفلسطين . وقال قتادة : هى الشام كله .

(فصل : فى فضل الشام وأهله) قال زيد بن ثابت : بينما نحن جلوس عند النبىّ صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع إذ قال « طُوبَى لأَهْلِ الشَّامِ » ، قيل : يا رسول الله ولم ذلك ؟ قال : إِنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحمنِ بَاسِطَةٌ أَجْنِحَتَهَا عَلَيْهِمْ ». عن عبد الله بن خولة قال : كنا عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال « وَاللهِ لَايَزَالُ هَذَا الأَمْرُ فِيكُمْ حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ لَكُمْ أَرْضَ فَارِسَ وَالرُّومِ وَأَرْضَ حِمْيَرَ ، وحتى تكونوا أجنادا ثَلَاثَةً جُنْدٌ بِالشَّامِ ، وَجُنْدٌ بِالعِرَاقِ ، وَجُنْدٌ بِاليَمَنِ . فقلت : يا رسول الله اختر لى إن أدركنى ذلك ، فقال : أَخْتَارُ لَكَ الشَّامَ فَإِنَّهَا صَفْوَةُ اللهِ تَعَالَى مِنْ بِلَادِهِ ، وإليها يَجْتَبِى صَفْوَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ ، يا أهل الإسلام عَلَيْكُمْ بِالشَّامِ فَإِنَّ صَفْوَةَ اللهِ مِنَ الأَرْضِ الشَّامَ ، وإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ تَكَفَّلَ لى بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ » وقال عبد الله ابن مسعود: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال« قَسَمَ اللهُ الخَيْرَ عَشَرَةَ أَجْزَاءٍ ، فَجَعَلَ مِنْهُ تِسْعَةَ أَجْزَاءٍ فى الشَّامِ وَوَاحِدًا فى العِرَاقِ » وقَسَمَ اللهُ الشَّرَّ عَشَرَةَ أَجْزَاءٍ فَجَعَلَ مِنْهُ تِسْعَةً فى العِرَاقِ ،وَوَاحِدًا بِالشَّامِ »ودخل الشام عشرة آلاف

عين رأت النبي صلى الله عليه وسلم ، ونزل حمص تسعُ مِئة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيهم سبعون بدريا . وقال الكلبيّ : صعد إبراهيم عليه السلام جبل لُبنان ، وقيل له انظر ، فما أدركه بصرك فهو مقدس ، وهو ميراث لذريتك من بعدك ، فذلك قوله تعالى (يا قوم ادْخُلوا الأرْضَ المُقَدَّسَةَ الّتى كَتَبَ اللهُ لكُمْ) يعنى كتب الله فى اللوح المحفوظ أنها لكم مساكن . وقال ابن إسحاق : وهبها الله لكم مساكن . وقال السدىّ : أمركم أن تدخلوها .

ذكر قصة بلعام بن باعوراء

قال الله تعالى (واتْلُ عليهِمْ نَبأَ الّذى آتَيْناه آياتِنا فانْسَلَخَ مِنْها) الآية . واختلفوا فيه ؛ فقال أكثر المفسرين : هو بلعام بن باعوراء بن باعر بن أيد بن مارت بن لوط ، وكان من الكنعانيين من مدينة بلقاء وهى مدينة الجبارين ، وسميت بلقاء لأن ملكها رجل يقال له بالق بن صافوراء .

وكانت قصة بلعام على ما ذكره ابن عباس وابن إسحاق والسدى والكلبى وغيرهم أن موسى عليه السلام لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض بنى كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام إلى بلعام ، وكان عنده اسم الله الأعظم ، فقالوا له : إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة ، وإنه قد جاء ليخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلّها بنى إسرائيل، وإنا قومك وبنو عمك وجيرانك ، وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة ،فاقْدَم إلينا وأشر علينا فى هذا الرجل العدو الذى قد أرهقنا ، فادع الله أن يرد عنا موسى وقومه ، فقال لهم بلعام : ويلكم هذا نبى الله ومعه الملائكة والمؤمنون كيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم ؟ وإنى إن فعلت ذلك ذهبت دنياى وآخرتى ، فلم يزالوا به حتى قال لهم : اصبروا حتى أستأمر ربى ، وكان لايدعو حتى ينظر ما يؤمر به فى المنام ، فتآمر فى الدعاء عليهم فى المنام ، فقيل له : لا تدع عليهم ، فقال لقومه إنى قد آمرت ربى فى الدعاء فنهيت عن ذلك ، فراجعوه ، فقال : حتى أؤامر ثانية،فآمر فلم يُجَب ، فقال : قد آمرت فلم يجب لى شيئا ، فقالوا : لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما فعل فى المرة الأولى ، فلم يزالوا يرفقون به ويناشدونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن ، فقالوا لبعضهم : أهدوا إليه فيقال إنهم أهدوا إليه هدية فقبلها . ويقال إن بلعام بن باعوراء لما أبى أن يدعو على موسى وقومه اجتمع آراء قومه على أن يحملوا شيئا إلى امرأته وقالوا : إنها فقيرة وإنه يصغى إلى رأيها فانطلق عشرة من عظمائهم وحمل كل واحد منهم صحيفة من ذهب مملوءة ورقا ، فأهدوها لها فأقبلت على صاحبها وألحت عليه حتى قالت له : ارجع إلى ربك فاسأله أن يأذن لك فى مؤازرتهم والدعاء على عدوهم ،فلم تزل به حتى استجاب فلم يجب إليه بشىء ، فقالت له : إنه قد خيرك فى الدعاء عليهم فلو لم يأذن لنهاك . قالوا : فركب أتانا له متوجها إلى جبل

يطلعه على عسكر بنى إسرائيل يقال له حسان ، وكانت مراكب العباد الأولين الأتن ، فما سار عليها غير بعيد حتى ربضت به ، فنزل عنها وضربها حتى أزلقها ، فقامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت به ففعل بها مثل ذلك ، فقامت فركبها ، فلم تسر به كثيرا حتى ربضت به ، فضربها حتى إذا أزلقها أذن الله تعالى لها فى الكلام حجة عليه فقالت له : ويحك يابلعام أين تذهب؟ ألا ترى أن الملائكة أمامى تردنى عن وجهى هذا ؟ أتذهب إلى نبى الله والمؤمنين تدعو عليهم ؟ فلما سمع ذلك خر ساجدا ، فلم يزل باكيا متضرعا حتى غابت عنه الملائكة ، ثم رفع رأسه فجاءه الشيطان وقال له : امض لوجهك فإن ربك يستجيب لك، ولو لم يرد ذلك لما برحت عنك الملائكة ولما خلوا سبيلك، فركب أتانه وخلى الله سبيلها ، فانطلقت به حتى أشرفت على جبل حسان ، فجعل لايدعو عليهم بشىء من الشرّ إلا صرف الله به لسانه إلى قومه ، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف الله به لسانه إلى بنى إسرائيل ، فقال له قومه : أتدرى ما تصنع يا بلعام ؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا ، فقال : هذا أمر لاأملك منه شيئا قد غلبنى الله عليه ، فاندلع لسانه فوقع على صدره فعلم ما حل به ، فقال لقومه : قد ذهبت منى الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة ، فسأمكر لكم وأحتال، فجملوا النساء وزينوهنّ وأعطوهنّ السلع ثم أرسلوهن إلى المعسكر يبعن فيه ويشترين ، وأمروهن أن لاتمنع امرأة نفسها من رجل أرادها ، فإنهم لو زنى رجل منهم كفيتموهم، ففعلوا ذلك . فلما دخلت النساء المعسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كبشا بنت صوريا برجل من عظماء بنى إسرائيل، يقال له زمرى بن سلوم من سبط شمعون ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، فقام إليها وأخذ بيدها حين أعجبه حسنها وجمالها ، ثم وقف على موسى وقال : إنى سأظنك تقول إن هذه حرام عليك ، فقال : أجل هى حرام عليك لاتقربها ، قال : والله لاأطيعك فى هذا ، ثم إنه دخل بها قبته فواقعها ، فأرسل الله الطاعون على بنى إسرائيل فى الوقت ، وكان فنحاص بن عيزار بن هارون صاحب موسى رجلا قد أعطى بسطة فى الخلق وقوّة فى البطش، وكان غائبا حين صنع زمرى بن سلوم ما صنع ، فجاء والطاعون يجوس فى بنى إسرائيل فأخبر الخبر ، فأخذ حربته وكانت حديدا كلها ، ثم دخل عليهما القبة وهما متضاجعان فانتظمهما فى حربته ، ثم خرج بهما رافعهما بيديه إلى السماء ، والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة على لحيته، وكان بكر العيزار وجعل يقول : اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ، فرفع الطاعون عنهم فحسب من هلك من بنى إسرائيل من الطاعون فيما بين أن أصاب زمرى المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوه قد أهلك منهم سبعين ألف نفس فى ساعة واحدة . فمن هناك يعطى بنو إسرائيل لبنيه من كل ذبيحة ذبحوها الخاصرة والذراع واللحى ، لاعتماده بالحربة على خاصرته وأخذه إياها بذراعه ، وإسناده إياها إلى لحيته ، والبكر من كل أموالهم لأنه كان بكر العيزار بن هارون . ففى بلعام أنزل الله تعالى (واتْلُ عليهم نبأ الذى آتيناه) الآية .

قال مقاتل : إن ملك البلقاء قال لبلعام : ادع الله على موسى وإلا قتلتك ، فقال : إنه من أهل دينى ولا أدعو عليهم ، فجيء بخشبة ليصلبه ، فلما رأى ذلك خرج على أتان ليدعو عليه ، فلما عاين عسكرهم قامت به الأتان ووقفت ، فضربها ، فقالت له : لم تضربنى وأنا مأمورة فلا تظلمنى ، وهذه نار أمامى قد منعتنى أن أمشى ، فرجع فأخبر الملك ، فقال له : لتدعونّ عليه وإلا صلبتك ، فدعا على موسى بالاسم الأعظم أن لايدخل المدينة فاستجيب له ، ووقع موسى وبنو إسرائيل فى التيه بدعائه ، فقال موسى : يارب بأى ذنب وقعنا وقعنا فى التيه ؟ قال : بدعاء بلعام ، فقال موسى : يارب كما سمعت دعاءه علىّ فاسمع دعائى عليه : أن تنزع منه الاسم الأعظم والإيمان ، فسلخه الله مما كان عليه ونزعت منه المعرفة ، ، فخرجت كحمامة بيضاء ، وأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال آخرون : هو نبىّ من بنى إسرائيل يقال له بلعام ، أوتى النبوة ، فرشاه قومه على أن يسكت ، ففعل وتركهم على ماهم عليه .

وقال عبد الله بن عمر وزيد بن أسلم وأبو رَوْق : أنزلت هذه الآية فى أمية بن أبى الصلت الثقفى . كانت قصته أنه كان فى ابتداء أمره قد قرأ الكتب السالفة ، وعلم أن الله تعالى مرسل رسولا فى ذلك الوقت ورجا أن يكون هو ذلك الرسول . فلما أرسل محمد صلى الله عليه وسلم حسده وكان قصد بعض الملوك ، فلما رجع مر بقتلى بدر فسأل عنهم ، فقيل له قتلهم محمد ، فقال : لو كان نبيا ما قتل أقرباءه ، فلما مات أمية أتت أخته فارعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألها عن وفاة أخيها ، فقالت : بينما هو راقد إذ أتاه رجلان ، فكشطا سقف البيت ونزلا ، فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه : فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه : أَوَعَى ؟ قال وعى ، قال : أزكا ؟ قال زكا ، قالت : فسألته عن ذلك ؟ فقال خير أريد بى ، ثم قطرت عينه ، ثم غُشِى عليه ، فلما أفاق قال :

كلُّ عيش وإن تطاول دهرا	صائر أمره إلى أن يزولا
ليتنى كنت قبل ما قد بدا لى	فى قلال الجبال أرعى الوعولا
إن يوم الحساب يوم عظيم	شاب فيه الصغير يوما ثقيلا

ثم قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أطْيَبَهُ مِنْ شِعْرٍ سألْتُكِ بالله أنْ تَنْشُدِى شِعْرَ أخيكِ » فأنشدته :

لك الحمد والنعماء والفضل رَبَّنا	فلا شىء أعلى منك جدا وأمجد
مليك على عرش السماء مهيمن	لعزته تعنو الوجوه وتسجد

وهى قصيدة طويلة وأنشدته حتى أتت على آخرها ، ثم إنها أنشدته قصيدته التى يقول فيها :

عند ذى العرش يعرضون عليه	يعلم الجهر والكلام الخفيا
يوم نأتيه وهو رب رحيم	إنه كان وعده مأتيا

يوم نأتيه مثل ما قال فردا لم يذر فيه راشدا وغويا
أسعيد سعادة أنا أرجو أم مُهان بما كسبت شقيا
رب إن تعف فالمعافاة ظني أو تعاقب فلم تعاقب بريا
إن أؤاخذ بما اجترمت فإني سوف ألقى من العذاب قويا

فقال صلى الله عليه وسلم «آمَنَ شِعْرُهُ وكَفَرَ قَلْبُهُ» فأنزل الله تعالى فيه (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا) الآية . وقال سعيد بن المسيب : نزلت فى أبى عامر بن النعمان ابن صيفيّ الراهب الذى سماه النبي صلى الله عليه وسلم الفاسق، وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح ، فقدم المدينة فقال للنبيّ صلى الله عليه وسلم «ما هذا الذى جئت به ؟ قال : جِئْتُ بالحَنِيفِيَّةِ دينِ إبراهيمَ ، قال : فأنا عليها ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : لَسْتَ عليها ولكِنكَ أَدْخَلْتَ فيها ما ليسَ منها » فقال أبو عامر : أمات الكاذب الله منا فى مناظرته طريدا فريدا وحيدا ، فخرج إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أعدُّوا العدّة والسلاح وابنوا لى مسجدا ، فإنى ذاهب إلى قيصر ، وآتى بجند لنخرج محمدا وأصحابه من المدينة ، فذلك قوله تعالى (وإرْصَادًا لِمَنْ حارَبَ اللهَ وَرَسولَهُ مِنْ قَبْلُ) يعنى انتظارا لمجيئه ، فمات فى الشام طريدا وحيدا فريدا . ومنهم من قال : إنها نزلت فى البسوس وكان رجلا قد أعطى ثلاث دعوات مستجابات ، وكان له امرأة وله منها ولد ، فقالت له : اجعل لى منها واحدة ، فقال : لكِ منها دعوة فما تريدين ؟ قالت : ادع الله أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى إسرائيل ، فدعا فجعلت أجمل امرأة فى بنى إسرائيل ، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه ، فغضب الرجل فدعا عليها ، فصارت كلبة نباحة ، فذهب فيها دعوتان ، فجاء بنوها فقالوا : ليس لنا على هذا قرار ولا صبر ، صارت أمنا كلبة نباحة وإن الناس يعيروننا بها فادع الله أن يردها إلى الحال التى كانت عليها ، فدعا الله فصارت كما كانت ، فذهبت فيها الثلاث دعوات كلها .

باب فى ذكر النقباء الذين اختارهم موسى ليكونوا كفلاء على قومهم حين بعثه إياهم إلى أرض كنعان جواسيس له ولقومه

قال الله تعالى (ولَقَدْ أخَذْنا مِيثاقَ بَنِى إسْرائِيلَ وَبَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا) الآية . وذلك أن الله تعالى وعد موسى أن يورثه وقومه الأرض المقدسة وهى الشام ، وكان يسكنها الكنعانيون الجبارون وهم العمالقة من ولد عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح ، ووعده الله أن يهلكهم ويجعل أرض الشام مساكن بنى إسرائيل ، فلما استقرت ببنى إسرائيل الدار بمصر أمرهم الله بالمسير إلى أريحاء من أرض الشام ، وهى الأرض المقدسة ، فقال : يا موسى إنى قد كتبتها لكم دارا وقرارا ، فاخرج إليها وجاهد من فيها من العدو فإنى ناصركم عليهم ، فخذ من قومك اثنى عشر رجلا من كل سبط نقيبا يكون كفيلا على قومه بالوفاء بما أمروا

به ، فاختار موسى من كل سبط نقيبا وأمّره عليهم . وهذه أسماؤهم: من سبط روبيل: شموع بن ذكور ، ومن سبط شمعون شوقط بن حورى ، ومن سبط يهوذا كالب بن يوقنا، ومن سبط جاد جابذ بن يوسف ، ومن سبط ربالون حدى بن سورى ، ومن سبط أشير شابون بن مليكيك ، ومن سبط نفتالى حيى بن وقسى ، ومن سبط دان حمل بن وكيل ابن حمل ، ومن سبط لاوى خولا بن مليكا، ومن سبط[1] يوسف إفرائيم ، ومن سبط إفرائيم يوشع بن نون وهما سبطان لموسى ، ومن سبط ميشا حيى بن موسى ، ومن سبط بنيامين ناظم بن زقون ، ثم إنه سار ببنى إسرائيل قاصدا أريحاء ، فبعث موسى إليها هؤلاء النقباء يتجسسون الأخبار له ويعلمون حالها وحال أهلها ، فلقيهم رجل من الجبارين يقال له عُوج بن عنق[2] .

فصل : فى ذكر جمل من أخبار عُوج بن عُنُق وأحواله

قال ابن عمر : كان طول عُوج ثلاثة وعشرين ألف ذراع وثلاث مئة وثلاثة وثلاثين ذراعا بالذراع الأول ، وكان عُوج يحتجز السحاب ويشرب منه الماء ، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس ، يرفعه إليها ثم يأكله .

ويروى أنه أتى نوحا فى أيام الطوفان فقال له : احملنى معك فى سفينتك ، فقال له : اذهب يا عدو الله فإنى لم أومر بك ، فطبق الماء الأرض من سهل ومن جبل وماجاوز ركبتيه ، وعاش ثلاثة آلاف سنة ، حتى أهلكه الله على يد موسى ، وكان لموسى عسكر فرسخ فى فرسخ ، فجاء عُوج ونظر إليهم ، ثم جاء إلى الجبل وقوّر منه صخرة على قدر العسكر ، ثم حملها ليطبقها عليهم ، فبعث الله عليه الهدهد ومعه الطيور ، فجعلت تنقر بمناقيرها حتى قوّرت الصخرة وانثقبت ، فوقعت فى عنق عُوج بن عُنُق فطوّقته وصرعته ، فأقبل موسى وطوله عشرة أذرع وطول عصاه عشرة أذرع ، وقفز إلى فوق عشرة أذرع فما أصاب منه إلا كعبه وهو مصروع فى الأرض فقتله . قالوا : فأقبل جماعة كثيرة ومعهم الخناجر فجهدوا حتى حزوا رأسه ، فلما قتل وقع على نيل مصر ، فحسره سنة . قالوا : وكانت أمه عُنُق هى إحدى بنات آدم من صلبه ، ويقال إنها كانت أول من بغى على وجه الأرض ، وكان كل أصبع من أصابعها طوله ثلاثة أذرع فى عرض ذراعين ، فى كل أصبع ظفران حادان مثل المنجلين ، وكان موضع مقعدها خربة من الأرض ، ولما بغت بعث الله إليها أسودا كالفيلة وذئابا ونمورا كالإبل ونسورا كالحمر وسلطهم عليها فقتلوها وأكلوها .

قالوا : فلما لقيهم عُوج : يعنى أصحاب موسى ، وكان على رأسه حُزْمة حطب ، أخذ الاثنى عشر نقيبا وجعلهم فى حزمته وانطلق بهم إلى امرأته وقال لها : انظرى إلى هؤلاء

---

(١) العبارة من أول : ومن سبط يوسف . . . إلى ومن سبط منشا : مضطربة محرفة . ولعل الصواب : ومن سبط أفرايم بن يوسف : يوشع بن نون ، ومن سبط منشا بن يوسف : حيى بن موسى ، وهما سبطان ليوسف. انظر تفسير القرطبى (٦ : ١١٣) ، وكما فى الكتاب المقدس (عدد : ٢٠٦) .

(٢) الصواب : عوج بن عوق ، بضم العين فيهما ، كما فى تاج العروس .

الذين يزعمون أنهم يريدون قتالنا وطرحهم بين يديها، وقال: لأطحنهم برجلى، فقالت له امرأته: لاتفعل بل خلّ عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا، ففعل ذلك وخلى سبيلهم، فجعلوا يتعرفون أحوالهم، وكان لايحمل عنقود عنبهم إلا خمسة نفر بينهم فى خشبة، ويدخل فى قشرة الرمانة إذا نزع حبها خمسة أنفس أو أربعة. فلما خرجت النقباء قال بعضهم لبعض يا قوم إنكم إن أخبرتم بنى إسرائيل خبر القوم فشلوا وارتدوا عن نبىّ الله، ولكن اكتموا شأنهم وأخبروا موسى وهارون فيريان رأيهما فيهم، فأخذ بعضهم على بعض الميثاق بذلك، ثم إنهم انصرفوا إلى موسى وجاءوا بحبة من عنبهم وقشرة من قشور رمانهم وأخبروه بما رأوا، ثم إن النقباء نكثوا العهد، وجعل كل واحد منهم ينهى سبطه وقومه عن قتالهم، وأخبروهم بما رأوا من حالهم إلا رجلين منهم وفيا بما قالا، وهما يوشع بن نون بن إفرايم فتى موسى، وكالب بن يوقنا ختن موسى على أخته مريم بنت عمران. فلما سمع القوم ذلك من الجواسيس رفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا: يا ليتنا متنا فى أرض مصر، أو ليتنا نموت فى هذه البرية ولا يدخلنا الله أرضهم، فتكون نساؤنا وأولادنا وأموالنا غنيمة لهم، وجعل الرجل منهم يقول لأصحابه: تعالَوا نجعل علينا رئيسا وننصرف إلى مصر، فذلك قوله تعالى إخبارا عنهم (قالُوا يامُوسى إنَّ فيها قَوْماً جبَّارِينَ)... الآية، قال قتادة: كان لهم أجسام وخلق عجيب ليس لغيرهم مثله (وإنَّا لَنْ نَدْخُلَها حتى يَخْرُجُوا منها فإنْ يَخْرُجُوا منها فإنَّا داخِلُونَ) قال موسى: ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم، فإن الله سيفتحها عليكم، وإن الذى أنجاكم من آل فرعون وفلق لكم البحر، هو الذى يبلغكم ويظفركم عليهم، فلم يقبلوا قوله ولم يفعلوا، وردوا عليه أمره، وهموا بالانصراف إلى مصر، فخرج يوشع بن نون وكالب بن يوقنا إلى القوم، وهما اللذان أخبر الله عنهما بالتوفيق والعصمة فى قوله تعالى (قالَ رَجُلانِ مِنَ الّذِينَ يَخافُونَ أنعمَ اللهُ عليهِما) بالتوفيق والعصمة (ادْخُلُوا عليهِمُ البابَ) يعنى باب مدينة الجبارين (فإذَا دَخَلْتُمُوهُ فإنَّكُمْ غالِبونَ) لأنّ الله منجز وعده، فإنا رأيناهم وخبرناهم، فكانت جسومهم عظيمة قوية وقلوبهم ضعيفة، فلا تخشوهم، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين، فأراد بنو إسرائيل أن يرجموهما بالحجارة وعصوهما و (قالُوا يامُوسَى إنَّا لَنْ نَدْخُلَها أبَدًا ماداموُا فيها، فاذْهَبْ أنْتَ وَرَبُّكَ فقاتِلا إنَّا هَهُنا قاعِدُونَ). ورُوى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوم الحديبية حين صد عن البيت «إنى ذاهِبٌ بالهَدْىَ، فناحِرُهُ عندَ البَيْتِ» فاستشار أصحابه فى ذلك، فقال المقداد بن الأسود الكندىّ: إنا والله لانقول لك كما قال قوم موسى لموسى (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكنا نقول: إنا معك مقاتلون، والله لنقاتلن عن يمينك وشمالك وبين يديك، ولو خضت بحرا لخضناه، ولو تسنمت جبلا لعلوناه، ولو ذهبت بنا إلى برك الغماد: يعنى مدينة بالحبشة لتبعناك، فلما سمع ذلك أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم تابعوه على ذلك، فأشرق لذلك وجه النبىّ صلى الله عليه وسلم، قال ابن عباس: لأن أكون صاحب هذا المشهد، أحب إلىّ من الدنيا وما فيها؛

قالوا : فلما فعلت بنو إسرائيل ما فعلت من معصيتهم نبيهم ومخالفتهم أمر ربهم سوى يوشع وكالب ، غضب موسى فدعا عليهم و (قَالَ رَبِّ إِنِّى لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) أى العاصين ، وكانت عَجْلة عَجِلها موسى ، فظهر الغمام على باب قبة موسى ، وأوحى الله تعالى إلى موسى : إلى متى يعصينى هذا الشعب ، وإلى متى لايصدقون بهذه الآيات ؟ لأهلكنهم جميعا ولأجعلنّ لك شعبا أقوى وأكثر منهم ، فقال موسى : إلهى لو أنك قتلت هذا الشعب كلهم لرجل واحد ، لقالت الأمم الذين سمعوا ذلك إنما قتل هذا الشعب من أجل أنه لم يستطع أن يدخلهم الأرض المقدسة ، فقتلهم فى البرية ، وإنك طويل صبرك ، كثيرة نعمتك ، وأنت تغفر الذنوب وتحفظ الآباء على الأبناء وأبناء الأبناء ، فاغفر لهم ولا تُوبقهم ، فقال الله تعالى لموسى : إنى قد غفرت لهم بكلمتك ولكن بعد ماسميتهم فاسقين ودعوت عليهم ، حلفت بعزتى لأحرّمن عليهم دخول الأرض المقدسة غير عبدى يوشع بن نون وكالب ، ولأتيهنهم فى هذه البرية أربعين سنة ، مكان كل يوم من الأيام التى تجسوا فيها سنة ، وكانت أربعين يوما ، وليأتينهم حتفهم فى هذه القفار ، وأما بنوهم الذين لم يعصونى ولم يعملوا الخير ولا الشر فإنهم يدخلون الأرض المقدسة ، فذلك قوله تعالى (فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى الْأَرْضِ) متحيرين (فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) فلبثوا أربعين سنة فى ستة فراسخ ، وكانوا ستّ مئة ألف مقاتل ، وكانوا كل يوم يسيرون جادّين ، حتى إذا هم أمسَوا فإذا هم بالموضع الذى منه ارتحلو ، وسئموا الموضع الذى هم فيه ، فارتحلوا ومات أولئك النقباء العشرة الذين أفشوا الخبر ، وكل من دخل التيه ممن جاوز عشرين سنة ، مات فى تلك المدة غير يوشع بن نون وكالب بن يوقنا ، ولم يدخل أحد أريحاء ممن قال (إنا لن ندخلها أبدا) فلما هلكوا وانقضت أربعون سنة ونشأت النواشئ من ذراريهم ، ساروا إلى حرب الجبارين وفتح الله لهم .

باب فى ذكر النعمة التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل فى التيه وخصهم بذلك
ورفع عنهم الهلاك كرامة لنبيه وصفيه موسى عليه السلام

قال الله تعالى (يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ)...الآية كقوله تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا) والعدَد لايقع على الواحد (التى أنعمت عليكم) أى على أجدادكم وأسلافكم . وذلك أن الله تعالى فلق لهم البحر وأنجاهم من آل فرعون وأهلك عدوهم وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وأنزل عليهم التوراة ، فيها بيان كل شىء يحتاجون إليه ، وأعطاهم ما أعطاهم فى التيه ، وذلك أنهم قالوا لموسى : أهلكتنا وأخرجتنا من العمران والبنيان إلى مفازة لاظل فيها ولا كنّ ، فأنزل الله عليهم غمامة بيضاء رقيقة ليست بغمام المطر ، بل أرق وأطيب وأبرد منه ، فأظلتهم ، وكانت تسير بسيرهم إذا ساروا ، وتدور عليهم من فوقهم إذا نزلوا ، وذلك قوله تعالى (وَظَلَّلْنَا

عليكمُ الغَمامَ) يعنى فى التيه يقيكم حر الشمس . ومنها أنه جعل لهم عمودا من نور يضىء لهم بالليل إذا لم يكن ضوء للقمر ، فقالوا : هذا الظل والنور قد حصلا فأين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المنّ .

واختلفوا فيه ، فقال مجاهد : هو شىء كالصمغ يقع على الأشجار وطعمه كالشهد . وقال الضحاك هو التَّرَنْجَبِينُ . وقال وهب : هو الخمير الرقاق . وقال السدى : كان عسل يقع على الشجر من الليل فيأكلون منه . وقال عكرمة : هو شىء أنزله الله عليهم مثل الرّب الغليظ . وقال الزجاجىّ : المنّ ما يمن الله به مما لاتعب فيه ولا نصَب . وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم « الكمأةُ مِنَ المَنّ ، وَماؤُها شِفاءٌ للعَيْنِ » قالوا : وكان الله ينزل هذا المنّ كل ليلة يقع على الأشجار مثل الثلج لكل إنسان منهم صاع كل ليلة ، فقالوا : يا موسى قتلنا هذا المنّ بحلاوته ، فادع الله ربك لنا يطعمنا اللحم ، فدعا موسى فأنزل الله عليهم السلوى . واختلفوا فيه ، فقال ابن عباس وأكثر الناس : هو طائر يشبه السُّمانَى . وقال أبوالعالية ومقاتل : هو طير أحمر بعثه الله عليهم ، فأمطر به السماء فى عرض ميل قدر رمح فى السماء بعضها على بعض ، وكانت السماء تمطر عليهم ذلك ، وقيل إنه كان طيرا مثل فراخ الحمام طيبا سمينا قد تمعّط ريشه وزغبه ، وكانت الريح تأتى به إليهم فيصبحون وهو فى معسكرهم ، وقيل إنه كان يأتيهم فيسترسل إليهم فيأخذونه بأيديهم . وقال عكرمة : هو طير يكون بالهند أكبر من العصفور . وقال المؤرج : هو العسل بلغة كنانة ، قال شاعرهم

وقاسمها بالله جهـدا لأنتم ألذُّ من السلوى إذا ما نَشُورها

فكان الله ينزل عليهم المنّ والسلْوَى ، وكان أحدهم يأخذ ما يكفيه يومه وليلته ، فإذا كان يوم الجمعة أخذ كل واحد ما يكفيه ليومين ، لأنه لم يكن ينزل عليهم يوم السبت ، فذلك قوله تعالى(وأنزَلْنا عليكُمُ المَنّ والسَّلْوَى ، كُلُوا) أى قلنا لهم كلوا من طيبات حلال ما رزقناكم ولا تدخروا لغد ، فخبئوا لغد ، فدوّد وفسد ما ادخروا ، وقطع الله عنهم ذلك . قال الله تعالى (وَما ظَلَمونا) أى أضرونا بالمعصية ومخالفة الأمر (وَلكِنْ كانُوا أنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) باستصحابهم الغذاء ، وقطع عنهم مادة الرزق الذى كان ينزل عليهم بلامؤنة ولا مشقة فى الدنيا ، ولا حساب ولا تبعة فى العقبى .

أخبرنا شعيب بن محمد قال : أخبرنا مكىّ بن عبدان ، قال : أخبرنا أحمد بن الأزهر ، قال : حدثنا روح بن عبادة قال : حدثنا عون بن عبد الله عن جلاس بن عمر ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَوْلا بَنُو إسْرائيلَ لَمْ يَخْنَزِ اللَّحْمُ وَلَمْ يَخْبُثِ الطَّعامُ ، وَلَوْلا حَوّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَها » .

ومنها أنهم عطشوا فى التيه ، فقالوا : يا موسى من أين نشرب ؟ فاستسقى لهم موسى ، فأوحى الله إليه (أنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الحَجَرَ) .

واختلف العلماء فيه ، فقال وهب : كان موسى يقرع لهم أقرب حجر فى أرض الحجارة ، فينفجر منه عيون لكل سبط منهم عين ، وكانوا اثنى عشر سبطا ، ثم تسيل كل عين فى جدول السبط الذى مرّ لسقيهم ، فقالوا إن فقد موسى عصاه متنا عطشا ، فأوحى الله تعالى إليه لا تقرعنّ الحجارة بالعصا ولكن كلمها تطعك لعلهم يعتبرون ، وكان يفعل ذلك ، فقالوا : كيف بنا إذا مضينا إلى الرمل وإلى الأرض التى ليس فيها حجارة ، فأمر موسى أن يحمل معه حجرا ، فحينما نزل ألقاه . وقال آخرون : كان حجرا مخصوصا بعينه والدليل عليه قوله تعالى (الحجر)، فأدخل الألف واللام للتعريف والتخصيص كقوله : «رأيت الرجل» .

ثم اختلفوا فى ذلك الحجر ما هو ؟ فقال ابن عباس : كان حجرا خفيفا مربعا مثل رأس الرجل، أمر أن يحمله فحمله فكان يضعه فى مخلاته، فإذا احتاجوا إلى الماء أخرجه وضربه بعصاه فيتفجر عيونا كما ذكرنا فسقاهم ، قال أبو رَوْق : كان الحجر من الكَذَّان، وكان فيه اثنتا عشرة عينا : أى حفرة ينبع من كل حفرة عين ماء عذب ، فيأخذونه ، فإذا رغوا وأراد موسى حمله ضربه بعصاه فيذهب الماء،وكان كل يوم يستقى ست مئة ألف من جميع الأجناس . وقال سعيد بن جبير : هو الحجر الذى وضع موسى عليه ثوبه ليغتسل ، ففرّ الحجر بثوبه . فلما وقف الحجر أتاه جبريل عليه السلام فقال : يا موسى إن الله يقول لك: ارفع هذا الحجر، فلى فيه قدرة ولك فيه معجزة ، وهو الذى ذكره الله تعالى، فى قوله (يأَيها الَّذينَ آمَنُوا لاتكونوا كالَّذينَ آذَوْا مُوسَى فبرّأَهُ اللهُ مِمَّا قالُوا) ...الآية ، وهو ما أخبرنا به الحسن بن أحمد الخلدى بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « كانَتْ بَنُو إسْرائيلَ يغْتَسِلونَ عُراةً يَنْظُرُ بعْضُهُمْ إلى سَوأةِ بعْضٍ ، وكانَ مُوسَى يغْتَسِلُ وَحْدَهُ ، فقالُوا : واللهِ ما يَمْنَعُ مُوسَى أنْ يغْتَسِلَ مَعَنا إلاَّ أنَّهُ آدَرُ ، قال : فَذَهَبَ مَرَّةً يغْتَسِلُ فوَضَعَ ثَوْبَهُ على حَجَرٍ ، ففَرَّ الحَجَرُ بِثَوْبِهِ ، فجَمَحَ فى أثَرِهِ مُوسَى يَقُولُ : ثَوْبِى يا حَجَرُ ثَوْبِى ياحَجَرُ، حَتَى نَظَرَ بنو إسْرائيلَ إلى سَوأةِ مُوسَى، فقالُوا واللهِ ما بِمُوسَى مِنْ بأْسٍ ، قالَ : فقامَ الحَجَرُ بَعْدَ ما نَظَرَ إليهِ بَنُو إسْرائيلَ فأخَذَ ثَوْبَهُ وَطَفِقَ بالحَجَرِ ضَرْبا » فقال أبو هريرة : والله إن أثر ضرب موسى بالحجر ستة أو سبعة : قال عبد العزيز السكتانى : كان موسى ضرب الحجر اثنتى عشرة ضربة ، فكان يظهر فى كل موضع ضربة مثل ثدى المرأة ، ثم يتفجر بالأنهار المطردة ، فذلك قوله تعالى (فانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً) .

ومنها أنهم قالوا لموسى فى التيه : من أين لنا اللباس ؟ فخلد الله تعالى ثيابهم التى عليهم

حتى لاتزيد على الأيام ومرور الأعوام إلا جدّة وظرافة ولا تخلق ولا تبلى ، وتنمو على صبيانهم كما تنمو ، فمكثوا على ذلك زمانا طويلا ، والله أعلم .

باب فتح أريحاء ونزول بنى إسرائيل الشام

اختلف العلماء فيمن تولى حرب الجبارين وفيمن كان على يده الفتح ، فقال قوم : إنما فتح أريحاء موسى ويوشع ، وكان يوشع على مقدمته ، فسار موسى إليهم بمن بقى من بنى إسرائيل فى التيه ولم يمت فى التيه ، فدخلها بهم يوشع وقتل الجبارين الذين كانوا بها فدخلها موسى ببنى إسرائيل ، فقام فيها ماشاء الله أن يقيم ، ثم قبضه الله تعالى ولم يعلم أحد قبره من الناس ، وهذا أولى الأقاويل بالصدق وأقربها إلى الحق لإجماع العلماء بأخبار الأنبياء ، أن عُوج بن عُنق قتله موسى . وقال آخرون : ما قاتل الجبارين إلا يوشع بن نون ولم يسر إليهم إلا بعد موت موسى وهلاك من كان أبى المسير إليها . وقالوا : مات موسى وهارون عليهما السلام فى التيه .

قصة وفاة هارون عليه السلام

قال السدىّ : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام : إنى متوفّ هارون فأت به جبل كذا وكذا ، فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل ، وإذا هما بشجرة لم ير مثلها وبيت مبنىّ وفيه سرير عليه فرش ، وإذا فيه ريح طيبة ، فلما نظر هارون إلى ذلك أعجبه ، وقال : يا موسى إنى أحب أن أنام على هذا السرير ، فقال : نم عليه ، فقال : إنى أخاف أن يأتى رب هذا البيت فيغضب علىّ ، قال له موسى : لا تخف أنا أكفيك رب هذا البيت ، فنم ، فقال : يا موسى نم معى فإن جاء رب هذا البيت غضب علينا جميعا ، فنام موسى وأخذ هارون الموت ، فلما وجد حسه قال : يا موسى خدعتنى ، فلما قبض رفع ذلك البيت وذهبت تلك الشجرة ورفع السرير إلى السماء . فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل وليس معه هارون قالوا : قتل موسى هارون وحسده لحبنا إياه ، فقال موسى : ويحكم إن هارون أخى ووزيرى ، فكيف أقتله ؟ فلما أكثروا عليه قام وصلى ركعتين ثم دعا الله تعالى فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض فصدقوه .

وقال عمرو بن ميمون : مات موسى وهارون فى التيه ، ومات هارون قبل موسى ، وكانا خرجا فى التيه إلى بعض الكهوف فمات هارون ودفنه وانصرف إلى بنى إسرائيل ، فقالوا : أين هارون ؟ قال مات ، قالوا : كذبت ولكنك قتلته لحبنا إياه ، وكان محببا فى بنى إسرائيل ، فتضرع موسى إلى ربه وشكا إلى ربه ما لقى من بنى إسرائيل ، فأوحى الله إليه أن انطلق بهم إلى قبره ، فإنى باعثه حتى يخبرهم أنه مات موتا ولم تقتله ، فانطلق بهم إلى قبر هارون فناداه : يا هارون ، فخرج من قبره ينفض التراب عن رأسه ، فقال له : أنا قتلتك ؟ قال لا والله ولكنى مت ، فعاد وانصرفوا ، والله أعلم .

ذكر وفاة موسى عليه السلام

قال ابن إسحاق : كان موسى قد كره الموت واستعظمه ، فلما كرهه أراد الله أن يحبب إليه الموت ويكره إليه الحياة ، وكان يوشع بن نون يغدو إليه ويروح فيقول له موسى : يا نبي الله ما أحدث الله إليك ؟ فيقول له يوشع : يا نبي الله ألم أصحبك كذا وكذا سنة ، فهل كنت أسألك عن شيء مما أحدث الله إليك حتى تكون أنت الذي تبتدئ به ويذكره ولا يذكر له شيئا . فلما رأى موسى ذلك كره الحياة وأحب الموت .

قال الأستاذ بإسناده : حدثني عبد الصمد بن معقل قال : سمعت وهبا يقول : وذكر من كرامة موسى عليه السلام أنه ضاق ببني إسرائيل ذرعا لما كثروا عليه ، فبعث الله إليه ألف نبي يكونون أعوانا له . فلما مال الناس إليهم وجد موسى في نفسه غيرة ، فأماتهم الله لكرامته في يوم واحد .

واختلفوا في صفة موت موسى عليه السلام ، حدثنا أبوسعيد محمد بن عبد الله بن حمدون بإسناده عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « جاءَ مَلَكُ المَوْتِ إلى مُوسَى ، فقالَ له أجِبْ رَبَّكَ ، فلَطَمَ مُوسَى عَيْنَ مَلَكِ المَوْتِ ففَقَأها ، قالَ فرَجَعَ مَلَكُ المَوْتِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ فقالَ : يا رَبِّ إنَّكَ أرْسَلْتَنِي إلى عَبْدٍ لايُريدُ المَوْتَ وفَقَأ عَيْنِي ، فرَدَّ اللهُ عليهِ عَيْنَهُ وقالَ : ارْجِعْ إلى عَبْدِي وقُلْ له : الحَياةَ تُرِيد ؟ فإنْ كُنْتَ تُرِيدُ الحَياةَ فضَعْ يدَكَ على مَتْنِ ثَوْرٍ ، فما وارَتْ يدُكَ مِنْ شَعْرٍ فإنَّكَ تَعيشُ بعَدَدِ كلِّ شَعْرَةٍ مِنْ ذلكَ سَنَةً ، قالَ : ثُمَّ ماذا ؟ قالَ : ثُمَّ تَمُوتُ ، قال : فالآنَ مِنْ قَرِيبٍ ، قالَ : يا رَبِّ فأدْنِنِي مِنَ الأرْضِ المُقَدَّسَةِ رَمْيَةَ حَجَرٍ » . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لأرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إلى جانِبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الكَثِيبِ الأحْمَرِ » قال سمعت أبا سعيد بن حمدون يقول : سمعت أبا حامد الشرقيّ يقول : سمعت محمد بن يحيى يقول : قد صح هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : يعني قصة ملك الموت وموسى عليه السلام لايردها إلا كل مبتدع ضالّ . وفي حديث آخر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ مَلَكَ المَوْتِ كانَ يأتِي النَّاسَ عِيانا حتى أتى مُوسَى ليَقْبِضَهُ ، فلَطَمَهُ ففَقَأ عَيْنَهُ فجاءَ مَلَكُ المَوْتِ بَعْدَ ذلكَ خُفْيَةً » .

قال السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني وعن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم قالوا : بينا موسى عليه السلام يمشي وفتاه يُوشع بن نون إذ أقبلت ريح سوداء ، فلما نظر إليها يوشع ظن أنها

الساعة ، فقال : يا قوم أظن أنها الساعة ، وإنى ملتزم بموسى نبىّ الله ، فانسلّ من تحت القميص وترك القميص فى يدى يوشع ، فلما جاء يوشع بالقميص أخذته بنو إسرائيل وقالوا : قتلت نبى الله ، فقال : والله ما قتلته ولكنه انسلّ منى ، فلم يصدقوه وأرادوا قتله ، فقال لهم : إذا لم تصدقونى فأخرونى ثلاثة أيام ، فدعا الله ، فأتى كل رجل ممن كان يحرسه آت فى المنام وأخبره أن يوشع لم يقتل موسى وإنما قد رفعناه إلينا ، فتركوه . قال وهب بن منبه : خرج موسى ليقضى حاجة ، فمرّ برهط من الملائكة فعرفهم ، فأقبل إليهم حتى وقف عليهم ، فإذا هم يحفرون قبرا لم ير شيئا قط أحسن منه ، ولم ير مثله قط فى الخضرة والنضرة والبهجة ، فقال لهم : ياملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر؟ فقالوا : نحفره لعبد صالح كريم على ربه ، فقال موسى : إن هذا العبد لمن الله بمنزلة عظيمة ، مارأيت كاليوم أحسن منه مضجعا ، فقالت الملائكة : يا صفىّ الله أتحب أن يكون لك ؟ قال : وددت ذلك ، قالوا : فانزل واضطجع فيه وتوجه إلى ربك ، ثم تنفس أسهل نفس تتنفسه ، فنزل فاضطجع فيه ، ثم توجه إلى ربه ، ثم تنفس ، فقبض الله روحه ، ثم سوّت الملائكة عليه التراب . وقيل إنه أتاه ملك الموت بتفاحة من الجنة ، فشمها فقبض الله روحه .

ويروى أن يوشع بن نون رآه بعد موته فى المنام ، فقال له : كيف وجدت الموت يا نبى الله ؟ قال : كشاة تسلخ ، وهى فى الحياة .

ويروى أن موسى لمامات قالت الملائكة بعضهم لبعض : مات صفى الله موسى بن عمران ، فمن الذى يطمع فى البقاء ؟ وكان عمر موسى مئة وعشرين سنة ، عشرون منها فى ملك إفريدون ، ومئة سنة فى ملك منوجهر .

قال الأستاذ : رجعنا إلى قصة حرب أريحاء وخبر الفتح . قال : فلما انقضت أربعون سنة ومات موسى ، بعث الله يوشع بن نون نبيا ، فأخبرهم أنه نبى الله ، وأن الله قد أمره بقتال الجبارين ، فصدقوه وبايعوه ، فتوجه ببنى إسرائيل إلى أريحاء ومعه تابوت الميثاق ، فأحاط بمدينة أريحاء ستة أشهر ، فلما كان فى الشهر السابع نفخوا فى القرون وصاحوا صيحة واحدة فسقط سور المدينة ، فدخلوها وقاتلوا الجبارين وهزموهم ، وهجموا عليهم وجعلوا يقتلونهم ، فكانت العصابة من بنى إسرائيل يجتمعون على عنق الرجل يضربونها لا يقطعونها ، وكان القتال يوم الجمعة ، فبقى منهم بقية وكادت الشمس أن تغرب وتدخل ليلة السبت ، فخشى يوشع أن يعجزوه فقال : اللهم اردد الشمس علىّ ، أو أنه قال للشمس إنك فى طاعة الله ، وأنا فى طاعة الله ، فسأل الشمس أن تقف والقمر أن يقيم حتى ينتقم من أعداء الله قبل غروب الشمس ، فرُدت له الشمس وزيد له فى النهار ساعة واحدة حتى قتلهم أجمعين .

أخبرنا أحمد بن عبد الله بن حامد الأصفهانىّ بإسناده عن عروة بن عبد الله قال : دخلت على فاطمة بنت علىّ رضوان الله عليهما فرأيت فى عنقها خرزا ، ورأيت فى يدها مسكتين

غليظتين - وهى عجوز كبيرة ، فقلت لها ما هذا ؟ فقالت : إنه يكره للمرأة أن تتشبه بالرجل ، ثم حدثتنى أن أسماء بنت عميس الخثعمية حدثتها أن على بن أبى طالب رضى الله عنه كان مع نبى الله ، وقد أوحى الله إليه فجلله بثوبه ، ولم يزل كذلك حتى أدبرت الشمس تقول غابت أو أرادت أن تغيب ، ثم إن نبى الله سرى عنه فقال « أصَلَّيْتَ يا علىُّ ؟ قال لا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اللَّهُمَّ ارْدُدْ عليهِ الشَّمْسَ ، فرجعت حتى بلغت نصف المسجد» .

قال : ثم أرسل ملوك الأرامنة وكانوا خمسة ، فأرسل بعضهم إلى بعض ، فجمعوا كلمتهم على يوشع وقومه ، فهزمت بنوإسرائيل الملوك حتى أهبطوهم إلى ثنية حوْران ورماهم الله بأحجار البرد ، فكان من قتله البرد أكثر ممن قتله بنو إسرائيل بالسيف ، وهرب الملوك الخمسة واختفوا فى غار ، فأمر بهم يوشع فأخرجهم وصلبهم ، ثم أنزلهم فطرحهم فى ذلك الغار ، وتتبع ملوك الشام فاستباح منهم أحدا وثلاثين ملكا حتى غلب على جميع أرض الشام، وصار الشام كله لبنى إسرائيل، وفرق عماله فى نواحيها ، ثم جمع الغنائم فلم تنزل النار ، فأوحى الله تعالى إلى يوشع : أن فيها غُلُولا فأمرهم أن يبايعوك ، فبايعوه فالتصقت يد رجل بيده ، فقال له : هلمّ ما عندك، فأتاه برأس ثور من ذهب مكلل بالدر والياقوت والجوهر كان قد غله فجعله فى القربان وجعل الرجل معه ، فجاءت النار فأكلت الرجل والقربان .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِياءِ فقالَ للقَوْمِ : لايَتْبَعْنِى رَجُلٌ كانَ قدْ مَلَكَ بُضْعَ امْرأةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أنْ يَبْنِىَ بِها ، ولا آخَرُ قَدْ بَنَى لهُ بَيْتاً ولم يَرْفَعْ سَقْفَهُ ، ولا آخَرُ قَدِ اشْتَرَى غَنَما أوْ خَلِفاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ أوْلادَها . قالَ : فدَنا مِنَ القَوْمِ صَلاةَ العَصْرِ أوْ قَرِيبا مِنْ ذلكَ ، فقالَ للشَّمْسِ : أنْتِ مأمُورَةٌ وأنا مأْمُورٌ ، اللَّهُمَّ احْبِسْها علىَّ ساعَةً فحُبِسَتْ لهُ ساعَةً حتى فَتَحَ اللهُ عليهِ . قالَ : ثمَّ وُضِعَتِ الغَنِيمَةُ فجاءتِ النَّارُ فلَمْ تأْكُلْها فقالَ : إنَّ فِيكُمْ غُلُولاً فلْيُبايِعْنِى مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ منكُمْ رَجُلٌ فبايَعُوهُ ، فالتَصَقَتْ يَدُ رَجُلٍ بيَدِهِ ، فقالَ : فِيكُمُ الغُلُولُ أنْتُمْ غَلَلْتُمْ . قالَ : فأخْرَجُوا مِثْلَ رأسِ البَقَرَةِ مِنْ ذَهَبٍ فألْقَوْهُ فى الغَنِيمَةِ وهى بالصَّعِيدِ فجاءتِ النَّارُ فأكَلَتْها ، قال النبى صلى الله عليه وسلم « لَمْ تَحِلَّ الغَنائمُ لأحَدٍ قَبْلَنا ، وذلكَ أنَّ اللهَ تَعالى رأى عَجْزَنا وَضَعْفَنا ، فوَهَبَها لَنا » .

قالوا : ثم أمرهم الله أن يدخلوا أريحاء متواضعين مستغفرين خافضين رءوسهم ، وذلك قوله تعالى (وَإذْ قُلْنا ادْخُلُوا هذهِ القَرْيَةَ فكُلُوا منها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وادْخُلُوا

الباب سُجَّدًا وَقولوا حِطَّةٌ) وكان لهم سبعة أبواب . سجدا : أى منحنين متواضعين ، وقولوا حطة : أى حط عنا خطايانا . قال وهب : إنهم أذنبوا بآبائهم ، وكان توبتهم إذا أذنبوا دخول أريحاء ، فلما فصلوا من التيه أحب الله أن يستنقذهم من الخطيئة . قال ابن عباس : حطة : قول : لا إله إلا الله ، سميت بذلك لأنها تحط الذنوب (نَغْفِرْ لكُمْ خَطاياكُمْ وسَنَزِيدُ المُحْسِنِينَ) إحسانا (فبدَّلَ الَّذينَ ظَلَمُوا قوْلاً غَيْرَ الَّذى قِيلَ لَهُمْ) وذلك أنهم دخلوا متزحفين على أستاهم وقالوا : هطا سمقايا : يعنى حنطة حمراء استخفافا بأمر الله تعالى (فأنزَلْنا على الذينَ ظَلَمُوا رِجزًا مِنَ السَّماءِ) أى عذابا من السماء (بِما كانُوا يفْسُقُونَ) وذلك أن الله تعالى أرسل عليهم طاعونا وظُلْمة ، فهلك منهم سبعون ألفا فى ساعة واحدة ، ثم رفعه الله عنهم ورحمهم . قالوا : فلما استقرت بنو إسرائيل بالشام وصفت لهم توفى الله نبيه يوشع ودفن فى جبل أفرايم ، وكان عمره مئة وعشرين سنة وتدبيره أمر بنى إسرائيل بعد موت موسى سبعا وعشرين سنة .

مجلس : فى ذكر الأنبياء والملوك الذين قاموا بأمور بنى إسرائيل بعد يوشع ، وقصة كالب عليه السلام

قالت العلماء بأخبار الماضين وأمور الأمم السالفين : لما حضرت الوفاة يوشع بن نون استخلف على بنى إسرائيل كالب بن يوقنا ختن موسى عليه السلام ، وهو أحد الرجلين للذين أنعم الله عليهما . قال الله تعالى (قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذينَ يَخافُونَ أنْعَمَ اللهُ عليهِما) فأحسن الخلافة حتى قبضه الله عز وجل واستخلف على بنى إسرائيل ابنه يوسافرس وكان فيما ذكر يشبه يوسف عليه السلام فى الحسن والجمال والبهاء ، وكانوا يفتتنون به ، وكانوا من شغفهم به يأتونه وينظرون إليه ويقولون له : أيها العبد الصالح جئنا لنسلم عليك وهو يستحى أن يردهم ، فلما أكثروا خاف الفتنة ، فسأل الله أن يغير صورته مع سلامة حواسه وجوارحه ، فأصابه الجدرى فصار مجدورا ملوَّجا ، فلبث فيهم مِئة وأربعين سنة ثم قبضه الله إليه ، والله أعلم .

ذكر خبر حِزْقيل عليه السلام

قالت العلماء بأخبار الأنبياء عليهم السلام : لما قبض الله كالب وابنه ، بعث الله تعالى حزقيل إلى بنى إسرائيل نبيا ، وهو حزقيل بن بُوزِى ، ويلقب بابن العجوز ، وإنما لقب بابن العجوز لأن أمه سألت الله تعالى الولد وهى عجوز وقد كبرت وعقمت عن الولد فوهبه الله تعالى لها ، وهو الذى أحيا الله تعالى به القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف

حذر الموت فأحياهم الله تعالى بعد موتهم بدعوته فى قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ) . . . الآية .

قال أكثر المفسرين : كانت قرية يقال لها (داور دان) قرية قبل واسط وقع بها الطاعون ، فخرج منها طائفة هاربين من الطاعون ، وبقيت طائفة ، فهلك أكثر من بقى فى القرية ، وسلم الذين خرجوا . فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين ، فقال الذين بقوا إن أصحابنا كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا لبقينا ، ولئن وقع بها الطاعون ثانية لنخرجن إلى الأرض التى لاوباء فيها ، فوقع الطاعون من قابل ، فهرب عامة أهلها وخرجوا حتى نزلوا واديا أفيح ، فلما نزلوا المكان الذى يبتغون فيه النجاة والحياة إذا هم بملك من أسفل الوادى وآخر من أعلاه يناديهم كل واحد منهما : أن موتوا فماتوا جميعا .

عن محمد بن زكريا قال : سمعت الأصمعىّ يقول : لما وقع الطاعون بالبصرة خرج رجل من أهلها عنها على حمار له ومعه ولده ، وخلفه عبد حبشىّ يسوق الحمار ، فطفق العبد يرتجز ويقول :

لن يُسْبَقَ الله على حمار   ولا على ذى منعة خَطَّار   قد أصبح الله أمام السارِى

فرجع الرجل لما سمع من قوله بعياله .

وروى عبد الرحمن بن عوف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إِذَا سَمِعْتُمْ بِالوَبَاءِ فى بَلْدَةٍ فَلا تَقْدَمُوا عليه ، وإِذَا وَقَعَ وأَنْتُمْ بها فَلا تَخْرُجُوا فِرَارًا منه » .

وقال الضحاك ومقاتل والكلبى : إنما فر ، هؤلاء من الجهاد ، وذلك أن ملكا من ملوك بنى إسرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوهم ، فخرجوا فعسكروا ثم جبنوا وكرهوا الموت واعتلوا وقالوا لملكهم : إن فى الأرض التى نأتيها الوباء فلا نأتيها حتى ينقطع الوباء عنها ، فأرسل الله عليهم الموت ، فلما رأوا أن الموت قد كثر فيهم ، خرجوا من ديارهم فرارا من الموت ، فلما رأى الملك ذلك قال : اللهم رب يعقوب وإله موسى قد ترى معصية عبادك فأرهم آية فى أنفسهم حتى يعلموا أنهم لا يستطيعون الفرار من حكمك وقضائك . فلما خرجوا قال الله لهم : موتوا ، فماتوا جميعا ، وماتت دوابهم كموتهم موتة رجل واحد ، فما أتى عليهم ثلاثة أيام حتى انفجروا وأروحوا وأروحت أجسادهم ، فخرج إليهم الناس فعجزوا عن دفنهم ، فحظروا عليهم حظيرة دون السباع ، وتركوهم فيها . واختلفوا فى مبلغ عددهم ، فقال عطاء الخراسانى : كانوا ثلاثة آلاف . وقال ابن عباس ووهب : كانوا أربعة آلاف وقال مقاتل والكلبى : ثمانية آلاف . وقال أبو رَوْق عشرة : آلاف . وقال أبو مالك : ثلاثين ألفا . وقال السدى : بضعا وثلاثين ألفا . وقال ابن جريج أربعين ألفا ، وقال عطاء بن أبى رَباح : سبعين ألفا . قال : فأتى على ذلك مدة وقد بليت أجسادهم وعَرِيت عظامهم وتقطعت أوصالهم ، فمر عليهم حِزْقيل النبىّ عليه الصلاة والسلام فوقف متفكرا

متعجبا ، فأوحى الله تعالى إليه : يا حِزقيل ، تريد أن أريك كيف أحيي الموتى ؟ قال نعم يا رب ، فأحياهم الله جميعا ، هذا قول السدىّ وجماعة من المفسرين . وقال مقاتل والكلبىّ : بل كانوا قوم حِزْقيل. فلما أصابهم ذلك بكى حِزْقيل وقال : يارب كنت فى قوم يعبدونك ويذكرونك ، فبقيت وحيدا لاقوم لى ، فلوشئت أحييت هؤلاء فيعمرون بلادك ويعبدونك ، قال الله تعالى : أو تحب أن أفعل ذلك ؟ قال نعم يا رب ، قال الله تعالى : قد جعلت حياتهم إليك ، فقال لهم حِزْقيل : احيوا بإذن الله تعالى فأحياهم الله . وقال وهب : أصابهم بلاء وشدة من الزمان ، فشكوا ما أصابهم وقالوا : يا ليتنا قد متنا واسترحنا مما نحن فيه ، فأوحى الله إلى حزقيل : أن قومك قد ضجوا من البلاء وزعموا أنهم ودوا لو ماتوا استراحوا ، وأى راحة لهم فى الموت ، أيظنون أنى لاأقدرأن أبعثهم بعد الموت ، فانطلق إلى جبانة كذا فإن فيها أقواما ماتوا ، فأتاهم ، فأوحى الله تعالى إليه : يا حزقيل قم فنادهم ، وكانت أجسادهم وعظامهم قد تفرقت ومزقتها الطير والسباع ، فنادى حزقيل : أيتها العظام إن الله يأمرك أن تعودى وتكتسى اللحم فاكتست جميعا اللحم ، وبعد اللحم جلودا ودما وعصبا وعروقا فكانت أجسادا ، فنادى أيتها الأرواح إن الله تعالى يأمرك أن تعودى إلى أجسادك ، فقاموا جميعا وعليهم ثيابهم التى ماتوا فيها وكبروا تكبيرة واحدة .

وروى منصور بن المعتمر عن مجاهد : أنهم قالوا حين أحيوا : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لاإله إلا أنت ، فرجعوا إلى قومهم وتناسلوا بعد ما أحياهم الله وعاشوا دهرا يعرفون أنهم كانوا موتى ، سَحْنة الموتِ على وجوههم لايلبسون ثوبا إلا عاد رميما مثل الكفن حتى ماتوا لآجالهم التى كتبها الله لهم . قال ابن عباس : فإنه ليوجد فى ذلك السِّبْط من اليهود تلك الريح قال قتادة : مقتهم الله على فرارهم من الموت وتقصيرهم فى الجهاد ، فأماتهم الله عقوبة لهم ، ثم بعثهم لبقية آجالهم ليفُوها ، ولو كانت آجال القوم قد جاءت ما بعثوا بعد موتهم ، فلما أحياهم الله تعالى أمرهم بالجهاد ، وقال (وَقَاتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ واعْلَمُوا أنّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

باب فى قصة إلياس عليه السلام

قال الله تعالى (وإنّ إلْيَاسَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ) إلى آخر القصة . قال ابن إسحاق والعلماء من أصحاب الأخبار : لما قبض الله تعالى حِزْقيل عليه السلام عظمت الأحداث فى بنى إسرائيل وظهر فيهم الفساد ، ونسُوا عهد الله إليهم فى التوراة حتى نصبوا الأوثان وعبدوها من دون الله عز وجل ، فبعث الله تعالى إليهم إلياس نبيا ، وهو إلياس بن يَسّى بن فنحاص ابن عيزار بن هارون بن عمران . وإنما كانت الأنبياء بعد موسى يبعثون إليهم بتجديد مانسُوا وضيعوا من أحكام التوراة ، وبنو إسرائيل يومئذ متفرقون فى أرض الشام وفيهم ملوك كثيرة وكان سبب ذلك أن يوشع بن نون لما فتح أرض الشام وملكها بوّأها بنى إسرائيل وقسمها

بينهم ، فأخذ سبط منهم بعلبك ونواحيها وهم سبط إلياس ، فبعث الله تعالى إليهم نبيا وعليهم يومئذ ملك يقال له أخاب[1] قد ضل وأضل قومه وجبرهم على عبادة الأصنام، وكان هو وقومه يعبدون صنما يقال له بعل ، وكان طوله عشرين ذراعا ، وكان له أربعة وجوه . وقال ابن إسحاق: قد سمعت بعض أهل العلم يقولون : ما كان البعل إلا امرأة كانوا يعبدونها من دون الله تعالى ، فذلك قوله تعالى (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ) قال فجعل إلياس يدعوهم إلى الله تعالى ولا يطيعونه ولا يجيبونه إلى ذلك، إلا ما كان من أمر آخاب[1] الملك الذى كان ببعلبك فإنه آمن به وصدقه ، وكان إلياس يقوّم أمره ويسدده ويرشده ، وكان لآخاب امرأة يقال لها أربيل ، وكان يستخلفها على رعيته إذا غاب عنهم فى غزاة أو غيرها ، فكانت تبرز بين الناس كما يبرز زوجها وتركب كما يركب، وتجلس كما يجلس فى مجلس القضاء،وتقضى بين الناس، وكانت قتالة للأنبياء ، وكان لها كاتب رجل مؤمن حكيم يكتم إيمانه ، وكان قد خلص من بين يديها ثلاث مئة نبي كانت تريد قتل كل واحد منهم إذا بعث سوى الذين قتلتهم ،وكانت فى نفسها غير محصنة ، ولم يكن على وجه الأرض أفحش منها ، وهى مع ذلك قد تزوجت سبعة ملوك من ملوك بني إسرائيل وقتلتهم كلهم بالاغتيال،وكانت معمرة، ويقال إنها ولدت سبعين ولدا . قال: وكان لآخاب هذا جار من بنى إسرائيل رجل صالح يقال له مزدكى . وكانت له جنينة يعيش منها ويقبل على عمارتها ويزينها، وكانت الجنينة إلى جانب قصر الملك وامرأته، وكانا يشرفان على تلك الجنينة يتنزهان فيها ويأكلان ويشربان ويقيلان فيها حينا، وكان لاجب مع ذلك يحسن جوار صاحبها مزدكى ، وامرأته أربيل تحسده على ذلك لأجل تلك الجنينة ، وتحتال على غصبها لما سمعت الناس يذكرون الجنينة من حسنها ويقولون ما أحرى أن تكون هذه الجنينة لأهل هذا القصر ، ويتعجبون من أمر الملك وامرأته كيف لم يغصباها ، فلم تزل امرأة الملك تحتال على العبد الصالح مزدكى فى أن تقتله وتأخذ جنينته ، والملك ينهاها عن ذلك فلا تجد إليه سبيلا ؛ ثم إنه اتفق خروج الملك إلى سفر بعيد ، فلما طالت غيبته اغتنمت امرأته أربيل أن تم لها الحيلة على العبد الصالح مزدكى ، فى أن تقتله وتأخذ جنينته ، وهو غافل عما تريد به مقبل على عبادة ربه وإصلاح معيشته ، فجمعت أربيل جمعا من الناس وأمرتهم أن يشهدوا على مزدكى بالزور أنه يسب آخاب الملك ، فأجابوها إلى ما سألتهم من الشهادة بالزور ، وكان حكمهم فى ذلك الزمان على من يسب الملك القتل إن قامت البينة ، فأحضرت مزدكى وقالت له : بلغنا عنك أنك شتمت الملك واغتبته ، فأنكر مزدكى ذلك ، فأقامت البينة فشهدوا بالزور عليه بحضرة الناس ، فأمرت بقتله ، فقتل وأخذت جنينته غصبا ، فغضب الله عليهم بقتل العبد الصالح ، فلما قدم الملك من السفر أخبرته الخبر فقال لها : ما أصبت خيرا ولا وفقت ، ولا أرانا نفلح بعدها أبدا ،

---

(١) فى الأصل : لاجب . تحريف . انظر (سفر الملوك أول ١٦ : ٢٨) .

وإنا كنا عن جنينته لأغنياء ، وقد كنا نتنزه فيها وقد جاورنا وتحرم بنا منذ زمان طويل فأحسنّا جواره، وكففنا عنه الأذى لوجوب حقه علينا ، فقبحتِ بنا الجِوَار ، وما حملك على اجترائك عليه إلا سفهك وسوء رأيك وقلة تفكرك فى العواقب ، فقالت : إنما غضبت لك وحكمت بحكمك ، فقال لها : ما كان يسع حلمك وعظم خطرك العفو عن رجل واحد فتحفظين جواره ، فقالت : قد كان ما كان . فبعث الله تعالى إلياس عليه السلام إلى أحَاب وقومه ، وأمره أن يخبرهم أن الله تعالى قد غضب عليه لوليه حين قتلوه بين أظهرهم ظلما ، وقد آلى على نفسه أنهما إن لم يتوبا من صنعهما ويردا الجنينة على ورثة مزدكى وإلا يهلكهما : يعنى أحَاب وامرأته فى جوف الجنينة أشرّ ما يكون يسفك دمهما، ثم يدعهما جيفتين ملقاتين فيها حتى تتعرى عظامهما عن لحومهما ولا يمتعان بها إلا قليلا . قال : فجاء إلياس وأخبر الملك بما أوحى الله إليه فى أمره ، وأمر امرأته والجنينة . فلما سمع الملك ذلك اشتد غضبه ثم قال له : يا إلياس والله ما أرى ما تدعونا إليه إلا باطلا ، والله ما أرى فلانا وفلانا ، وسمى ملوكا منهم عبدوا الأوثان إلا على مثل مانحن عليه يأكلون ويشربون ويتمتعون مملكين ما ينقص من دنياهم ولا من أمرهم الذى تزعم أنه باطل شىء ، وما نرى لكم علينا من فضل . قال : ثم همّ بتعذيب إلياس وقتله . قال : فلما سمع إلياس ذلك وأحس بالشر، رفضه وخرج عنه ، فلحق بشواهق الجبال وعاد الملك إلى عبادة بَعْل ، فارتقى إلياس إلى أصعب جبل وأشمخه ، فدخل مغارا ، فيقال إنه بقى فيه سبع سنين شريدا وحيدا فريدا خائفا يأوى إلى الشعاب والكهوف ، ويأكل من نبات الأرض وثمار الشجر وهم فى طلبه ، وقد وضعوا عليه العيون، يتوقعون أخباره ويجتهدون فى أخذه ، والله تعالى يستره ويحفظه ويدفع عنه البلاء . فلما تم له سبع سنين أذن الله تعالى فى إظهاره عليهم وشفاء غيظه منهم ، فأمرض الله تعالى ابن الملك أحَاب ، وكان أحب أولاده إليه وأعزهم عليه وأشبههم به ، فأُدنف حتى يئس منه ، فدعا صنمه بَعْلا ، وكانوا قد فتنوا ببعل فعظموه حتى إنهم سموا مدينتهم به ، فقالوا لها : بعلبك ، وجعلوا له أربع مئة سادن فوكلوهم به وجعلوهم أمناءه وجعل الشيطان يدخل فى جوف الصنم فيكلمهم بأنواع الكلام والأربعُ مئة يصغون بآذانهم إلى ما يقول الشيطان ويوسوس لهم شريعة من الضلال فيكتبونها للناس ويعملون بها ويسمونهم الأنبياء، فلما اشتد مرض ابن الملك طلب الملك أن يشفعوا له إلى بعل ويطلبوا منه لابنه الشفاء والعافية فدعوه له فلم يجبهم ،ومنع الله تعالى بقدرته الشيطان عن صنمهم فلم يمكنه الوُلُوج فى جوفه ولا الكلام وهم مجتهدون فى التضرع إليه والمريض لا يزداد بذلك إلا ألما وجهدا . فلما طال عليهم ذلك قالوا لأحاب : أيها الملك إن فى ناحية الشام آلهة أخرى وهى فى العظم مثل إلهك فابعث إليها الأنبياء يشفعون لك إليها ، فلعلها أن تشفع إلى بعل فإنه غضبان عليك ، ولولا غضبه عليك لكان قد أجابك وشفى مرض ابنك ،

فقال لاجب : لأى شىء غضب علىّ وأنا أطيعه وأطلب رضاه ولم أسخطه ساعة قط ؟ قالوا : من أجل أنك لم تقتل إلياس وفرطت فيه حتى نجا سالما وهو كافر بإلهك يعبد غيره فذلك الذى أغضبه عليك ، قال أخاب : وكيف لى أن أقتله فى يومى هذا وأنا مشغول عن طلبه بوجع ابنى ، وليس لإلياس مطلب ولا يعرف له موضع فيقصد ، فلو عوفى ابنى تفرغت لطلبه ولم يكن لى هم ولا شغل غيره حتى آخذه وأقتله وأريح إلهى منه وأرضيه . قال : ثم إنه بعث الأربعَ مِئَةِ نبى ليشفعوا إلى الآلهة التى بالشأم ويسألوها أن تشفع إلى صنم الملك ليشفى ابنه فانطلقوا إلى الأصنام وكلموها ، فمنع الله عز وجل الشيطان الولوج فى الأصنام ولم تكلمهم ، فرجعوا إلى الملك وأخبروه بذلك ، فقال الملك : وكيف لى أن أقتل إلياس فى هذا اليوم . قال : فخرج أربعُ مئة حتى إذا كانوا بحيال الجبل الذى فيه إلياس أوحى الله إليه أن يهبط من الجبل ويعارضهم ويستوقفهم ويكلمهم ، وقال له : لاتخف ، فإنى سأصرف عنك شرهم وألقى الرعب فى قلوبهم ، فنزل إلياس من الجبل ، فلما لقيهم استوقفهم ، فلما وقفوا قال لهم : إن الله أرسلنى إليكم وإلى من وراءكم ، فاسمعوا أيها القوم رسالة ربكم لتبلغوها صاحبكم ارجعوا إليه وقولوا له : إن الله تعالى يقول لك : ألست تعلم يا أخاب أنى أنا الله لاإله إلا أنا ، إله بنى إسرائيل الذى خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم ؟ فلا يحملنك جهلك وقلة عقلك على أن تشرك بى وتطلب الشفاء لابنك من غيرى ممن لايملكون لأنفسهم شيئا إلا ما شئت ، وإنى آليت باسمى لأغيظنك فى ابنك ولأميتنه من فوره هذا ، حتى تعلم أن أحدا لايملك له شيئا دونى ، فلما قال لهم ذلك رجعوا وقد ملئُوا منه رعبا ، فلما صاروا إلى الملك ووصلوا إليه قالوا له ماقال لهم إلياس ، وأخبروه بأن إلياس انحط عليهم من الجبل ، وهو رجل نحيف طويل وقد قَشِف وقَحِل وتمعط شعره ويبس جلده ، وعليه جبة من شعر وعباءة قد خللها على صدره بخلال ، فاستوقفنا ، فلما وقفنا صار معنا ، فقُذف له فى قلوبنا الرعب والهيبة وتقطعت ألسنتنا ، ونحن فى هذا العدد الكثير وهو واحد ، فلم نقدر أن نكلمه ونراجعه ، وملأ أعيننا منه حتى رجعنا إليك ، ثم إنهم قصوا عليه كلام إلياس ، فقال لاجب : لاأنتفع بالحياة ما دام إلياس حيا ، ما الذى منعكم أن تبطشوا به حين لقيتموه وتُوثقوه وتأتونى به وأنتم تعلمون أنه طلبتى وعدوى ؟ قالوا له : قد أخبرناك بالذى منعنا عنه ، ومن كلامه والبطش به ، فقال أخاب : إذنْ ما نطيق إلياس إلا بالمكر والخديعة ، فقيض له خمسين رجلا من قومه من ذوى القوة والبأس ، وعهد إليهم عهده ، وأمرهم بالاحتيال عليه ، وأن يطمعوه بأنهم قد آمنوا به هم ومن وراءهم ، ليطمئن إليهم ويغترّ بهم ويمكنهم من نفسه ، فيأتون به ملكهم ، فانطلقوا حتى ارتقوا ذلك الجبل الذى فيه إلياس عليه السلام ، ثم إنهم تفرقوا فيه وهم ينادون بأعلى أصواتهم ويقولون : يا نبى الله ابرز لنا وأشرف علينا بنفسك فإنا قد آمنا بك وصدقناك

وملكنا آخاب ، وكذلك جميع قومنا مقرّون بذلك ويقرءون عليك السلام ويقولون : قد بلغتنا رسالتك وعرفنا ما قلت وآمنا بك وأجبناك إلى ما دعوتنا إليه فهلم إلينا ، فأنت نبينا ورسول ربنا ، فأقم بين أظهرنا واحكم بيننا ، فإننا ننقاد إلى ما أمرتنا وننتهى عما نهيتنا ، وليس يسعك أن تتخلف عنا بعد إيماننا بك وطاعتنا لك ، فتداركنا وارجع إلينا ، وكل هذا كان مكرا منهم وخديعة . فلما سمع إلياس مقالتهم وقع فى قلبه إيمانهم وخاف الله وأشفق من سخطه إن هو لم يظهر لهم ولم يجبهم بعد الذى سمع منهم . فلما صمم على البروز إليهم رجع إلى نفسه وقال : لو أنى دعوت الله تعالى فسألته أن يعلمنى ما فى نفوسهم ويطلعنى على حقيقة أمرهم ، وكان ذلك إلهاما من الله تعالى وتوفيقا له ، فقال : اللهم إن كانوا صادقين فيما يقولون فأذن لى فى البروز إليهم ، وإن كانوا كاذبين فاكفنيهم وارمهم بنار تحرقهم جميعا ، فما استتم قوله حتى حُصبوا بالنار من فوقهم فأحرقوا أجمعون . قال : وبلغ أخاب وقومه الخبر فلم يرتدع عن ضمير السوء واحتال ثانيا فى أمر إلياس ، فقيض له فئة أخرى مثل عدد أولئك وأقوى منهم وأمكن فى الحيلة والرأى ، فأقبلوا حتى وافوا ذلك الجبل وارتقوه متفرقين ، وجعلوا ينادون : يا نبى الله إنا نعوذ بالله وبك من غضب الله وسطوته إنا لسنا كالذين أتوك قبلنا ، أولئك فرقة نافقوا وخالفوا ، فصاروا إليك ليمكروا بك من غير رأينا ، ولو علمنا بهم لقتلناهم ، والآن قد كفاك الله أمرهم وأهلكهم بسوء نياتهم وانتقم لنا ولك منهم . فلما سمع إلياس مقالتهم دعا الله بدعوته الأولى ، فأمطر عليهم نارا فأحرقوا جميعا عن آخرهم ، كل ذلك وابن الملك فى البلاء الشديد من وجعه كما وعده الله تعالى على لسان نبيه إلياس ، لايقضى عليه فيموت ، ولا يخفف عنه من عذابه . فلما سمع الملك بهلاك أصحابه ثانيا، ازداد غيظا إلى غيظه وأراد أن يخرج فى طلب إلياس بنفسه إلا أنه شغله عن ذلك مرض ابنه ، فوجه نحو إلياس الكاتب المؤمن الذى هو كاتب امرأته ، رجاء أن يأنس إليه فينزل معه ، وأظهر للكاتب أنه لايريد بإلياس سوءا ولا مكروها ، وإنما أظهر له ذلك لما اطلع عليه من إيمانه ، وكان الملك مع اطلاعه على إيمانه مغضيا عنه لما هو عليه من الكفاية والأمانة والحكمة وسداد الرأى والبصارة بالأمور . فلما وجهه نحوه أرسل معه فئة من أصحابه وعهد إليهم دون الكاتب أن يوثقوا إلياس ويأتوه به إن أراد التخلف عنهم وإن جاء معهم آنسا بالكاتب وواثقا بمكانته لم يوحشوه ولم يروّعوه ، ثم إنه أظهر للكاتب الإنابة ، فقال له : إنه قد آن لى أن أتوب وأتعظ ، فقد أصابتنا بلايا من حريق أصحابنا والبلاء الذى فيه ابنى ، وقد عرفت أن ذلك بدعوة إلياس ، ولست آمن أن يدعو علىّ وعلى جميع قومى فنهلك بدعوته ، فكن رسولنا إليه ، وأخبره أنا قد تبنا وأنبنا ، وأنه لايصلحنا فى توبتنا وما نريد من رضا ربنا وخلع أصنامنا إلاأن يكون إلياس بين أظهرنا

يأمرنا وينهانا ، ويخبرنا بما يرضى ربنا . قال : ثم إنه أمر قومه أن يعتزلوا الأصنام وقال له : أخبر إلياس بأنا قد خلعنا آلهتنا التى كنا نعبد ، وقد أهملنا أمرها حتى ينزل إلينا ، فيكون هو الذى يحرقها ويهلكها ، وكان ذلك كله مكرا من الملك . قال : فانطلق الكاتب والفئة معه حتى علَوُا الجبل الذى فيه إلياس ، فناداه الكاتب فعرف إلياس صوته ، فتاقت نفسه إليه وأنس به وكان مشتاقا إلى لقائه ، فأوحى الله تعالى إلى إلياس عليه السلام أن ابرز إلى أخيك الصالح فالقه وجدد منه العهد ، فبرز إليه وصافحه وسلم عليه وقال له : ما الخبر؟ فقال له المؤمن : إنه قد بعثنى إليك هذا الجبار الطاغى وقومه ، وقص عليه ما قاله ، وقال له : إنى لخائف إن رجعت إليه ولستَ معى أن يقتلنى ، فأمرنى بما شئت أن أفعله وأنتهى إليه ، إن شئت انقطعت إليك وكنت معك وتركته ، وإن شئت جاهدته معك ، وإن شئت أرسلتنى إليه بما تحب فأبلغه رسالتك ، وإن شئت دعوت ربك يجعل لنا من أمرنا فرجا ومخرجا ، فأوحى الله تعالى إلى إلياس أن كل ما جاءك منهم مكر وكذب ليظفروا بك ، وأن أخاب إن أخبرته رسله أنك قد لقيت هذا الرجل ولم يأت بك إليه فإنه يتهمه و يعرف أنه قد داهن فى أمرك ولم يأمن أن يقتله ، فانطلق معه ، فإن انطلاقك معه عذره وبراءته عند أخاب ، وإنى سأشغله عنكما وأضاعف على ابنه البلاء حتى لايكون له هم غيره ، ثم أميته على شر حال ، فإذا مات هو فارجع أنت ولا تقم عنده . قال : فانطلق إلياس معهم حتى قدموا على أخاب . فلما دخلوا عليه شدد الله على ابنه الوجع وأخذ الموت بكظمه فشغل الله بذلك أخاب وأصحابه عن إلياس ورجع إلياس سالما إلى مكانه . فلما مات ابن أخاب وفرغوا من أمره وقرَّ جزعه انتبه لإلياس ، وسأل عنه الكاتب المؤمن الذى جاء به فقال له : ليس لى به علم ، وذلك أنه قد شغلنى عنه موت ابنك والجزع عليه ولم أكن أحسبك إلا قد استوثقت منه ، فأطرق عنه أخاب وتركه لما كان به من الحزن على ابنه .

فلما طال الأمر على إلياس من المكث فى الجبل والمقام به واشتاق إلى العمران والناس ، نزل من الجبل وانطلق حتى نزل بامرأة من بنى إسرائيل ، وهى أم يونس بن متى ذى النون ، فاستخفى عندها ستة أشهر ، ويونس ابنها يومئذ مولود رضيع ، وكانت أم يونس تخدمه بنفسها تواسيه بذات يدها ولا تدخر عنه كرامة تقدر عليها . قال : ثم إن إلياس عليه السلام سئم ضيق البيوت بعد قعوده فى الجبال ودَوْحِها ، فأحب اللحوق بالجبال ، فعاد إلى مكانه فى الجبال ، فجزعت أم يونس لفراقه وأوحشها فقده ، ثم لم يلبث إلا قليلا حتى مات ابنها يونس حين فطمته ، فعظمت مصيبتها به ، فخرجت فى طلب إلياس ، فلم تزل ترقى الجبال وتطوف فيها حتى عثرت عليه ووجدته ، فسلمت عليه وقالت له : إنى فجعت بعدك بموت ابنى وعظمت به مصيبتى ، واشتدَّ لفقده بلائى ، وليس لى ولد غيره ، فارحمنى وادع ربك تعالى أن يحيى إلى ابنى فيجبر مصيبتى فإنى قد تركته مسجًّى لم أدفنه وقد أخفيت مكانه ، فقال لها إلياس

عليه السلام : ليس هذا مما أمرت به ، وإنما أنا عبد مأمور ، أعمل بما أمرنى ربى به ، ولم يأمرنى بهذا ، فجزعت المرأة وتضرعت فعطف الله قلب إلياس عليها ، فقال لها : ومتى مات ابنك ؟ فقالت : منذ سبعة أيام ، فانطلق إلياس عليه السلام معها وسار سبعة أيام حتى أتى إلى منزلها ، فوجد ابنها يونس ميتا منذ أربعة عشر يوما ، فتوضأ إلياس وصلى ودعا ، فأحيا الله يُونُس بن متى . فلما عاش وجلس وثب إلياس وانصرف وتركه وعاد إلى موضعه . قال : فلما طال عصيان قومه ضاق إلياس بذلك ذرعا وأجهده البلاء ، فأوحى الله إليه بعد سبع سنين وهو خائف مذعور مجهود : يا إلياس ما هذا الحزن والجزع الذى أنت فيه ، ألست أمينى على وحيي ، وحجتى فى أرضى ، وصفوتى من خلقى ؟ فاسألنى أعطك فإنى ذو الرحمة الواسعة والفضل العظيم . قال إلياس عليه السلام : تميتنى وتلحقنى بآبائى فإنى قد مللت بنى إسرائيل وملونى ، وأبغضتهم فيك وأبغضونى ؛ فأوحى الله إليه : يا إلياس ما هذا اليوم الذى أُعْرِى منك الأرض وأهلها ، وإنما قوامها وصلاحها بك وأشباهك ، ولكن سلنى أعطك . قال إلياس : فإن لم تمتنى يا إلهى فأعطنى ثأرى من بنى إسرائيل ، فأوحى الله تعالى إليه ، فأى شىء تريد أن أعطيك يا إلياس ؟ قال : تمكننى من خزائن السماء سبع سنين فلا تنشئُ عليهم سحابة إلا بدعوتى ، ولا تمطر عليهم سبع سنين قطرة إلا بشفاعتى ، فإنهم لا يذلهم إلا ذلك ، قال الله تعالى : يا إلياس أنا أرحم بعبادى من ذلك وإن كانوا ظالمين ، قال : فست سنين ، قال : أنا أرحم بخلقى من ذلك وإن كانوا ظالمين ، قال : فخمس سنين ، قال : أنا أرحم بخلقى من ذلك وإن كانوا ظالمين ، قال : فأربع سنين ، قال أنا أرحم بخلقى من ذلك وإن كانوا ظالمين ، ولكننى أعطيك ثأرك منهم ثلاث سنين أجعل خزائن المطر بيدك ، ولا أنشر عليهم سحابة إلا بدعوتك ، ولا أنزل عليهم قطرة إلا بشفاعتك ، قال إلياس : فبأى شىء أعيش ؟ قال : أسخر لك جيشا من الطير تنقل إليك طعامك وشرابك من الريف والأرض التى لم تَقْحَط . قال إلياس : قد رضيت ، فأمسك الله المطر عنهم ثلاث سنين حتى هلكت المواشى والدواب والهوام والشجر وجهد الناس جهدا شديدا ، وإلياس على حاله مختف من قومه بموضع ينساق له فيه الرزق ويأتيه حيثما كان ، وقد عرفه بذلك قومه ، فكانوا إذا وجدوا ريح الخبز فى بيت قالوا : لقد دخل إلياس هذا المكان فيطلبونه ويلقى منهم أهل ذلك المكان شرا . قال ابن عباس : أصاب بنى إسرائيل القحط ثلاث سنين متواليات ، فمر إلياس بعجوز ، فقال لها : هل عندك طعام ؟ فقالت : نعم شىء من دقيق وزيت قليل ، فجاءته بشىء من الدقيق والزيت فدعا فيهما بالبركة ومسهما فبارك الله فى ذلك حتى ملأت جرابها دقيقا وملأت خوابيها زيتا . فلما رأى بنو إسرائيل ذلك عندها قالوا لها : من أين لك هذا ؟ قالت : مر بى رجل من حاله كذا وكذا ووصفته بصفته فعرفوه وقالوا لها : ذلك إلياس ، ثم إنهم طلبوه فوجدوه فهرب منهم إلى الجبال ، والله أعلم

قصة اليسع عليه السلام

ثم إن إلياس أتى إلى بيت امرأة من بنى إسرائيل لها ابن يسمى اليسع بن أخطوب وكان به ضر ، فآوته وأخفت أمره ، فدعا له فعوفى من الضر الذى كان به ، واتبع اليسع إلياس وآمن به وصدقه ولزمه فكان يذهب معه حيثما ذهب ، وكان إلياس قد أسن وكبر ، وكان اليسع غلاما شابا . ثم إن الله تعالى أوحى إلى إلياس عليه السلام أنك قد أهلكت كثيرا من الخلق ممن لم يعصونى سوى بنى إسرائيل ،من البهائم والدواب والهوام والشجر والنبات بحبس المطر عن بنى إسرائيل ،فيزعمون والله أعلم أن إلياس قال: يا رب دعنى أكون الذى أدعو لهم وآتيهم بالفرج مما هم فيه من البلاء الذى أصابهم لعلهم يرجعون عما هم عليه من عبادة غيرك ، فقيل له نعم ، فجاء إلياس إلى بنى إسرائيل وقال لهم : ويلكم إنكم قد هلكتم جوعا وجهدا ، وقد هلكت البهائم والدواب والطير والشجر والنبات بحبس المطر عنكم بخطاياكم وإنكم على باطل وغرور ، فإن كنتم تحبون أن تعلموا أن أصنامكم التى تدعونها من دون الله لن تغنى عنكم شيئا فاخرجوا بأصنامكم هذه، فإن استجابت لكم فذلك كما تقولون ، وإن هى لم تفعل علمتم أنكم على باطل وغرور ، فنزعتم عنها ودعوت الله تعالى لكم أن يفرج عنكم ما أنتم فيه من البلاء . قالوا : أنصفت ، فخرجوا ومعهم أوثانهم فدعوها فلم تستجب لهم ولم تفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء ، فقالوا يا إلياس إنا قد هلكنا فادع الله لنا، فدعا الله إلياس ومعه اليسع عليهما السلام بالفرج مما هم فيه ، وأن يُسْقَوْا، فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر ، وهم ينظرون إليها فأقبلت نحوهم ، وطبقت عليهم الأفق ثم أرسل الله عليهم المطر ، فأغاثتهم وأحيت بلادهم . قال : فشكوا إلى إلياس هدم الجدران وعدم البذر ، وقالوا : ليست لنا حبوب ، فأوحى الله تعالى إليه أن يأمرهم بأن يبذروا الملح فى الأرض ففعلوا ، فأنبت الله لهم منه الحِمَّص وأمرهم أن يبذروا الرمل ، فأنبت الله لهم منه الدُّخْن . فلما كشف الله تعالى عنهم الضر نقضوا العهد ولم ينزعوا عن كفرهم ولم يقلعوا عن ضلالتهم ، وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه . فلما رأى إلياس ذلك دعا ربه أن يريحه منهم ، فقيل له انتظر يوم كذا وكذا ، فاخرج إلى موضع كذا وكذا ، فإذا جاءك شيء فاركبه ولا تهبه ، فخرج إلياس ومعه اليسع بن أخطوب حتى إذا كانا بالموضع الذى أمر بالخروج إليه أقبل فرس من نار حتى وقف بين يديه ، فوثب عليه إلياس ، فانطلق به الفرس فناداه اليسع يا إلياس ما تأمرنى به ؟ فقذف إليه كساءه من الجو الأعلى ، فكان ذلك علامة على استخلافه إياه على بنى إسرائيل ، وذهب إلياس فكان ذلك آخر العهد به، ورفع الله إلياس من بين أظهرهم وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وكساه الريش ، وكان إنسيا ملكيا سماويا أرضيا ، وسلط الله تعالى على آخاب الملك وامرأته وقومه عدوا لهم ، فقصدهم من حيث لايشعرون به حتى رهقهم ، فقتل آخاب الملك

وامرأته فى بستان مزدكى ، فلم تزل جيفتاهما ملقاتين فى تلك الجنينة حتى بليت لحومهما ورمت عظامهما، ونبأ الله تعالى بفضله اليسع عليه السلام، وبعثه نبيا ورسولا إلى بنى إسرائيل وأوحى الله تعالى إليه ، وأيده بمثل ما أيد به عبده إلياس ، فآمنت به بنو إسرائيل، وكانوا يعظمونه وينتهون إلى رأيه وأمره ، وحكم الله تعالى فيهم قائم ، إلى أن فارقهم اليسع .

أخبرنا أبو عبد الله الحسن بن محمد الحافظ ، عن عبد العزيز بن أبي داود قال : إن الخضر وإلياس عليهما السلام يصومان شهر رمضان ببيت المقدس ، ويوافيان الموسم فى كل عام .

وأخبرنى ابن فتحويه عن رجل من أهل عسقلان : أنه كان يمشى بالأردنّ عند نصف النهار فرأى رجلا ، فقال: يا عبد الله من أنت: فقال : أنا إلياس ، قال : فوقعت علىّ رعدة شديدة ، فقلت له : ادع الله أن يرفع عنى ما أجد حتى أفهم حديثك وأعقل عنك . قال: فدعا لى بثمان دعوات وهنّ : يابرّ يارحيم، يا حنان يامنان، ياحى يا قيوم، ودعوتين بالسريانية لم أفهمهما ، وقيل هما : باهيا شراهيا ، فرفع الله عنى ما كنت أجد ، ووضع كفه بين كتفى ، فوجدت بردها بين يدىّ ، وقلت له : أيوحى إليك اليوم ؟ فقال : منذ بعث محمد صلى الله عليه وسلم رسولا فإنه لايوحى إلىّ . قال : فقلت له : فكم من الأنبياء اليوم أحياء ؟ قال : أربعة : اثنان فى الأرض ، واثنان فى السماء ، أما اللذان فى السماء فعيسى وإدريس عليهما السلام . وأما اللذان فى الأرض فإلياس والخَضِر عليهما السلام ، قلت : كم الأبدال ؟ قال : ستون رجلا : خمسون منهم من لدن عريش مصر إلى شاطئ الفرات ، ورجلان بالصيصة ورجل بعسقلان وسبعة فى سائر البلدان كلما أذهب الله واحدا منهم جاء بآخر مكانه، وبهم يدفع الله عن الناس البلاء وبهم يُمطرون، قلت: فالخضر أين يكون؟ قال فى جزائر البحر . فقلت: هل تلقاه؟ قال : نعم ، قلت: أين؟ قال : بالموسم؛ قلت : فما يكون حديثكما ؟ قال: يأخذ من شَعْرى وآخذ من شعره . قال : وكان ذلك حين جرى بين مروان بن الحكم وبين أهل الشام القتال ، قلت : فما تقول فى مروان بن الحكم؟ قال: رجل جبار عاتٍ على الله تعالى، والقاتل والمقتول والشاهد فى النار . قلت : فإنى قد شهدت ولم أطعُن برمحٍ ولا رميت بسهم ولم أضرب بسيف وأنا أستغفر الله من ذلك المقام أن أعود إلى مثله أبدا ، قال : أحسنت فهكذا فكن . قال : فبينا أنا وإياه قاعدان إذ وضع بين يديه رغيفان أشد بياضا من الثلج ، فأكلت أنا وهو رغيفا وبعض الآخر ، ثم رفعت رأسى وقد رفع باقى الرغيف الآخر، فما رأيت أحدا وضعه ولا رأيت أحدا رفعه، قال : وله ناقة ترعىَ فى وادى الأُردنّ فرفع رأسه إليها، فلما دعاها جاءت وبركت بين يديه فركبها، فقلت له: إنى أريد أن أصحبك قال: إنك لاتقدر على صحبتى قال: فقلت له إنى خلو لازوجة لى ولاعيال ، قال: تزوج، وإياك والنساء الأربع ، الناشزة، والمختلعة، والملاعنة، والبَرْزة وتزوج ما بدا لك من النساء ، قال : فقلت إنى أحب أن ألقاك ، قال : فإذا رأيتنى

فقد لقيتني إني أعتكف فى بيت المقدس فى شهر رمضان ، ثم حالت بيني وبينه شجرة ، فوالله ما أدرى كيف ذهب ؟ وهذا آخر القصة .

مجلس فى قصة ذى الكفل عليه السلام

قال الله تعالى (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ) قال مجاهد : لما كبر اليسع قال : لو أنى استخلفت رجلا على الناس يعمل عليهم فى حياتى حتى أنظر كيف يعمل؟ فجمع الناس ثم قال : من يتكفل لى بثلاث استخلفته : يصوم النهار ، ويقوم الليل ولا يغضب ، فقام إليه رجل شاب تزدريه العيون ، فقال أنا ، فرده ذلك اليوم وقال مثلها فى اليوم الثانى فسكت الناس ، فقام ذلك الرجل وقال : أنا أعمل ذلك ، فاستخلفه . قال : فلما رأى إبليس ذلك جعل يقول للشياطين : عليكم بفلان فأعياهم ، فقال دعونى وإياه ، فأتاه فى صورة شيخ كبير فقير حين أخذ مضجعه للقائلة ، وكان لا ينام بالليل والنهار إلا تلك النومة ، فدق إبليس الباب ، فقال : من هذا ؟ فقال : شيخ كبير مظلوم ، ففتح الباب ، فجعل يقصُّ عليه القصة ويقول : إن بينى وبين قومى خصومة ، وإنهم ظلمونى وفعلوا وفعلوا ، وجعل يطوّل عليه حتى حضر وقت الرواح وذهبت القائلة ، فقال له : إذا رحتُ فإنى آخذ لك بحقك ، فانطلق وراح إلى مجلسه . فلما جلس جعل ينظر ليرى الشيخ فلم يره ، وقام يتبعه ، فلما كان الغد جلس يقضى بين الناس وينتظره فلم يره. فلما رجع إلى القائلة وأخذ مضجعه أتاه فدق الباب فقال : من هذا ؟ فقال : أنا الشيخ المظلوم ففتح له وقال : ألم أقل لك إذا قعدت فأتنى ، فقال : إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد يقولون : نحن نعطيك حقك ، وإذا قمت جحدونى . قال : فانطلق فإذا رحت فأتنى وفاتته القائلة ، فراح وأقبل وجعل ينظره فلا يراه ، فشق عليه النعاس ، فقال لبعض أهله : لا تدَعنَّ أحدا يقرب هذا الباب حتى أقوم ، فإنه قد شقَّ علىَّ عدم النوم . فلما كانت تلك الساعة جاء فلم يأذن له أحد ، فلما أعياه نظر فإذا كَوَّة فى البيت فتسوَّر منها فإذا هو فى البيت وإذا به يدق الباب من داخل فاستيقظ الرجل وقال : يا فلان ألم آمرك أن لا تأذن لأحد علىَّ ، فقال : أما مِن قِبَلى فما أتى ، فانظر من قبل مَن أتى؟ فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه ، وإذا الشيخ معه فى البيت ، فقال له : أتنام والخصوم ببابك ؟ فعرفه ، فقال له : يا عدو الله ما ألجأك إلى هذه الفعال ، فقال له : إنك أعييتنى فى كل شىء أردت بك ، ففعلت معك ما ترى لأغضبك ، فعصمك الله منى ، فسمى ذا الكفل ، لأنه تكفل بأمر فوفى به .

أخبرنا ابن فتحويه قال : حدثنا عمر بن المفضل عن أبى هاشم ، أخبرنا ابن المفضل قال : أخبرنا الأعمش عن عبد الله بن عبيد الله الدارى عن سعيد عن ابن عمر قال : سمعت

رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث حديثا لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين لم أحدث به، سمعته منه أكثر من سبع مرات يقول « كانَ فى بنى إسْرائيلَ رَجلٌ يُقالُ لهُ ذُو الكِفْلِ لايَنْزِعُ عَنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ فاتَّبَعَ امْرأةً فأعْطاهاستِّينَ دينارًا علىأنْ تُعْطِيَهُ نَفْسَها فلمَّا قَعَدَ منها مَقْعَدَ الرَّجلِ مِنَ المَرأةِ ارْتَعَدَتْ وبَكَتْ ، فقالَ لها مايُبْكيكِ ؟ فقالتْ مِنْ هذَا الفِعْلِ فانى ما فَعَلْتُهُ قَطُّ ، فقالَ لها ؛ أكْرَهْتُكِ ؟ قالتْ لا ولكِنْ حَمَلَتْني عليهِ الحاجَةُ ، فقالَ لها : اذْهَبِي فهِيَ لكِ » ثم إنه قال : واللهِ لا أعصى الله بعدها قطُّ أبدا فمات من ليلته ، فقيل : مات ذو الكفل فوجدوا على باب داره مكتوبا إن الله تعالى قد غفر لذى الكفل . وقال أبو موسى الأشعرىّ : إن ذا الكفل لم يكن نبيا ، وإنما كان عبدا صالحا تكفل بعمل رجل صالح ، وكان يصلى لله تعالى فى كل يوم مئة صلاة ، فأحسن الله عليه الثناء . وقيل : هو إلياس . وقيل هو زكريا ، والله أعلم بالصواب.

مجلس فى قصة على وشمويل وهو إسماعيل بالعبرانية ، وقصة التابوت وخبر طالوت وجالوت ، وهذه قصة كبيرة تشتمل على أبواب كثيرة

قال الله تعالى (أَلَمْ تَرَ إلى المَلإِ مِنْ بنى إسْرائيلَ) . . . الآية .

(فصل : فى سياق الآية ومقدمة القصة) قال وهب بن منبه : لما نبأ الله تعالى اليسع بعد إلياس عليهما السلام ، واستخلفه على بنى إسرائيل ، وكان فيهم ما شاء الله أن يكون ، ثم قبضه الله تعالى إليه ، وخلف فيهم الخلوف عظمت فيهم الخطايا ، وكان عندهم التابوت يتوارثونه كابرا عن كابر ، فيه السكينة وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون ، وكانوا لايلقاهم عدو فيقدموا التابوت ويزحفون به معهم إلا هزم الله تعالى ذلك العدو ، وكان الله تعالى قد بارك لهم فى أرزاقهم ، فكان أحدهم فيما يذكرون يجمع التراب على صخرة ، ثم يبذر فيه الحب فيخرج الله له ما يأكل منه هو وعياله ويكون لأحدهم الزيتونة فيعصر منها ما يأكل هو وعياله سنة ، فلما كثرت أحداثهم وعظمت ذنوبهم وتركوا ما عهد الله إليهم ، سلط الله عليهم العمالقة ، وهم قوم كانوا يسكنون غزة وعسقلان وساحل البحر ما بين مصر وفلسطين ، وكان جالوت الملك فيهم ، فظهروا على بنى إسرائيل وغلبوهم على كثير من أراضيهم ، وسبَوا كثيرا من ذراريهم ، وأسروا من أبناء ملوكهم أربع مئة وأربعين غلاما وضربوا عليهم الجزية ، وأخذوا توراتهم ، وبقوا على اضطراب من أمرهم ، واختلاف من حالهم يتمادون أحيانا فى غيهم وضلالتهم ، فسلط الله تعالى عليهم من ينتقم له منهم ليرجعوا إلى التوبة أحيانا ويكفيهم الله شر من بغى عليهم ، حتى بعث الله فيهم طالوت ملكا ورد عليهم توراتهم ، فانتظم أمرهم واستوثق ملكهم ، وكان مدة ما بين وفاة يوشع بن نون النبى آل

Joshua … Sam

Joshua Sam

أمر بنى إسرائيل فى بعضها إلى السآمة منهم ، وفى بعضها إلى غيرهم ممن يقهرهم ويتملك عليهم إلى أن ثبت الملك فيهم ورجعت النبوة إليهم بشمويل النبى عليه السلام أربع مئة سنة وستين سنة ، وكان آخر من ملكهم فى هذه المدة رجل يقال له إيلاف[1] ، وكان يدبر أمرهم فى ملكه شيخ كبير يقال له عيلى الكاهن كان حبرهم وصاحب قربانهم ، وكانوا ينتهون إلى رأيه ، فلما مضى من وقت قيامه بأمرهم مدة بعث الله شمويل نبيا .

(القول فى بدء أمر شمويل وصفة نبوته صلى الله عليه على نبينا وعليه وسلم)

قال وهب بن منبه : كان لأبى شمويل امرأتان إحداهما عجوز عاقر لم تلد له ولدا وهى أم شمويل ، والأخرى قد ولدت له عشرة أولاد . قال : وكان لبنى إسرائيل عيد من أعيادهم أقاموا فيه شرائطه وقربوا القرابين ، فحضر أبو شمويل وامرأتاه وأولاده العشرة ذلك العيد ، فلما قرّبوا قربانهم أخذ كل واحد منهم نصيبا ، وكان لأم الأولاد عشرة أنصباء وللعجوز نصيب واحد ، فعمل الشيطان بينهما ما يحمل بين الضرائر من الحسد والبغى ، فقالت : أم الأولاد للعجوز : الحمد لله الذى كثّرنى بولدى وقللك ، فوجمت العجوز وجوما شديدا فلما كان عند السحر عمدت إلى متعبدها فقالت : اللهم بعلمك وسمعك كانت مقالة صاحبتى واستطالتها علىّ بنعمك التى أنعمتها عليها ، وأنت ابتدأتها بالنعمة والإحسان فارحم ضعفى وارزقنى ولدا تقيا رضيا ، واجعله لك ذخرا فى مسجد من مساجدك يعبدك ولا يكفرك ويطيعك ولا يجحدك ، فإذا رحمت ضعفى ومسكنتى وأجبت دعوتى فاجعل لى علامة أعرف بها قبول دعائى ، فلما أصبحت حاضت ، وكانت قبل ذلك قد يئست من الحيض ، فجعله الله علامة لما سألته ، فألمّ بها زوجها فحملت وكتمت أمرها ، ولقى بنو إسرائيل فى ذلك الوقت من عدوهم بلاء وشدة ، ولم يكن لهم نبى يدبر أمرهم ، فكانوا يسألون الله تعالى أن يبعث لهم نبيا يشير عليهم ويجاهدون عدوهم معه ، وكان سبط النبوة قد هلك ولم يبق منه إلا تلك المرأة الحبلى . فلما علموا بحملها تعجبوا من أمرها وقالوا : ماحَمْلك هذا إلا نبىّ ، لأن اليائسات لايحملن إلا بالأنبياء كسارَة امرأة إبراهيم عليه السلام حملت بإسحاق ، وإيشاع امرأة زكريا حملت بيحيي عليه السلام فأخذوها وحبسوها فى بيت ، رهبة أن تلد جارية فتبدلها بغلام لما ترى من رغبة بنى إسرائيل فى ولدها ، فجعلت المرأة تدعو الله تعالى أن يرزقها ولدا ذكرا ، فولدت غلاما وسمته شمويل تقول : سمع الله دعائى . فلما شب الغلام أسلمته ليتعلم التوراة ، فكفله عيلى وتبناه ، فلما بلغ الغلام الوقت الذى يبعثه الله فيه نبيا أتاه جبريل عليه السلام وهو نائم إلى جانب الشيخ عيلى الكاهن ، وكان لا يأمن عليه أحدا ، فدعاه جبريل بلحن الشيخ يا شمويل ، فقام الغلام مرعوبا فزعا إلى الشيخ وقال : يا أبتاه أدعوتنى فكره الشيخ أن يقول لا فيفزع الغلام ، فقال : يا بنى ارجع فنم ، فرجع الغلام فنام ، ثم دعاه جبريل ثانيا ، فانتبه الغلام وقال : أدعوتنى يا أبتاه ؟ فقال الشيخ : ما شأنك ؟

---

(١) صوابه : لمفلاه .

قال : آما دعوتنى ؟ قال : لا ، فقال شمويل : فإنى سمعت صوتا فى البيت وليس فيه غيرنا ، فقال له الشيخ : ارجع فتوضأ وصلّ ، فإنك إن دعيت باسمك فأجب ، وقل لبيك أنا طوعك فأمرنى بما شئت أفعل ما تأمرنى به ، ففعل ذلك الغلام فنودى ثالثة ، فقال : لبيك أنا طوعك ، فأمرنى بأمرك أفعل ما تأمرنى به ، فظهر له جبريل عليه السلام ، فقال له : اذهب إلى قومك فبلغهم رسالة ربك ، فإن الله سبحانه عز وجلّ قد بعثك فيهم نبيا ، وإن الله قد ذرأك يوم ذرأك للنبوة ، ورحم وحدة أمك ذلك اليوم الذى تاهت عليها ضرتها فيه ، فلا أحد اليوم أشد منها عضدا ولا ملاذا ، فانطلق إلى عيلى فقل له : إنك كنت خليفة الله على عباده ودينه ، فقمت زمانا بأمره حاكما بكتابه محافظا على حدوده ، فلما امتدت مدتك ودق عظمك وذهبت قوّتك وفنى عمرك وقرب أجلك وصرت أفقر ما يكون إلى الله تعالى ولم تزل فقيرا إليه ، عطلت الحدود وجرت بين الخصوم وعملت بالرُّشا والمصانعات وأضعفت حكم الحق حتى عز الباطل وأهله ، وذل الحق وحزبه ، وظهر المنكر وخفى المعروف وفشا الكذب وقلّ الصدق ، وما كان الله عاهدك على هذا ولا عليه استخلفك ، فبئسما ختمت به عملك (وَاللهُ لَا يُحِبُّ الخَائِنِينَ) بلغه هذه الرسالة وقم بعده بالخلافة ، فلما بلّغه شمويل هذه الرسالة فزع وجزع . وكان السبب فيما عاتب الله عبده عيلى ووبخه عليه أنه كان له ابنان شابان فأحدثا شيئا فى القُربان لم يكن فيه ، وذلك أنه كان مِسْواط القربان الذى كانوا يسوطونه به كُلاَّبين ، فما أخرجا كان للكاهن الذى كان يسوطه ، فجعل ابناه كلاليب ، فأوحى الله إلى شمويل : أن انطلق إلى عيلى فقل له : منعك حب الولد أن تزجر ابنيك أن يحدثا فى قُربانى ، وأن يعصيانى ، فلأنزعنّ الكهانة منك ومن ولدك ولأهلكنك وإياهما ، فأخبر شمويل عيلى ، ففزع فزعا شديدا ، وسار إليهم عدوهم ومن حولهم ، فأمر عيلى ابنيه أن يخرجا بالناس ، فيقاتلا ذلك العدو ، فخرجا وأخرجا معهما التابوت . فلما تأهبوا للقتال جعل عيلى يتوقع ماذا صنع القوم ، فجاءه رجل وهو قاعد على كرسيه ، فأخبره بأن الناس قد انهزموا وأن ابنيك قد قتلا ؟ قال : فما فعل بالتابوت قال : ذهب به العدو ، قال : فشهق ووقع على قفاه من كرسيه فمات . فلما بلغ ملكهم إيلاف الخبر أن التابوت قد سلب وأن عيلى قد مات مات كمدا . فلما مات الأمير والوزير وأخذ التابوت مَرِج أمر بنى إسرائيل واختلّ واجترأ عليهم عدوهم فقالوا لشمويل (ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ) وذلك بعد ما دبر شمويل أمرهم عشر سنين . فلما نالهم الذل والهوان والقتل والسبى من عدوهم بشؤم معصيتهم سألوا نبيهم شمويل أن يبعث لهم ملكا يقاتلون معه فى سبيل الله ، وإنما كان قوام أمر بنى إسرائيل بالاجتماع على الملك وإطاعة الملك للأنبياء ، وكان الملك هو الذى يسير بالجيوش ويقاتل العدو ، وكان النبى منهم هو الذى يقيم له أمره ، ويشير عليه ، ويرشده ويأتيه بالخبر من عند الله تعالى .

قال وهب بن منبه : بعث الله شمويل نبيا فى بنى إسرائيل ، فلبثوا أربعين سنة فى أحسن حال ، ثم كان من أمر جالوت والعمالقة ما كان ، فسألوا شمويل عليه السلام أن يبعث لهم ملكا ، فذلك قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ) يعنى شمويل ، وهو بالعبرانية إسماعيل بن بالى ابن علقمة بن ماجد بن عموصا بن النهر بن ضون بن علقمة صاحب عموصا بن عزريا ، وقال مجاهد : هو شمويل بن هلفاقا ولم ينسبه أكثر من ذلك . وقال مقاتل : هو من نسل هارون عليه السلام ، فقال لهم نبيهم (هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا) فأجابوا بما قص الله فى كتابه (قَالُوا: وَمَالَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا) الآية . فلما أخذ شمويل عليهم الميثاق على الطاعة والجماعة والجهاد سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكا .

ذكر قصة الملك طالوت وإتيان التابوت وحرب جالوت وما يتعلق به

قال الله تعالى (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا) الآية . قال المفسرون : إن شمويل لما قالوا له ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكا ، فأتى بعصا وقرْن فيه دهن القُدْس ، وقيل له إن صاحبكم الذى يكون ملكا طوله طول هذه العصا ، وانظر إلى القرن الذى فيه الدهن ، فاذا دخل عليك رجل فنشّ الدهن الذى فى القرن فهو ملك بنى إسرائيل ، فادهن به رأسه وملّكه عليهم ، ثم إنهم قاسُوا أنفسهم بالعصا ، فلم يكونوا مثلها ، وكان طالوت بطولها ، واسمه بالسريانية ساول ، وبالعبرانية شاءول بن قيس بن أفيل بن صارر بن بَخُورَت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكان رجلا دباغا يعمل الأدم .

قال وهب بن منبه : كان يدبَغ الجلود ، وعكرمة والسدى يقولان : كان سقاء يستقى على حمار له من النيل فضلّ حماره فخرج فى طلبه . قال وهب بن منبه : بل ضاعت حمر لأبى طالوت فأرسله وغلاما له يطلبانها فرا ببيت شمويل عليه السلام ، فقال الغلام لطالوت : لو دخلنا على هذا النبىّ فسألناه فى أمر الُحمُر ليرشدنا ويدعو لنا فيها بخير ، فقال له نعم ، فدخلا عليه ، فبينما هما عنده يذكران له خبر الحمر إذ نشّ الدهن فى القرن ، فقام شمويل وقاس طالوت بالعصا فكانت على طوله ، فقال له شمويل : قرب رأسك إلىّ فدهنه بدهن القدس ، ثم إنه قال له : أنت ملك بنى إسرائيل ، وقد أمرنى ربى أن أملكك عليهم ، فقال طالوت : أنا ؟ فقال نعم ، قال : أَوَ ما علمت أن سبطى أدنى أسباط بنى إسرائيل؟ قال بلى ، قال : أو ما علمت أن بيتى أدنى بيت فى بنى إسرائيل ؟ قال بلى : قال فبأى آية ؟ قال : بآية أنك ترجع وقد وجد أبوك الُحمُر فكان كذلك ، ثم إن شمويل قال لبنى إسرائيل

(إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً) قال مجاهد: أميرا على الجيش (فقالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المَالِ) وإنما قالوا ذلك لأنه كان فى بنى إسرائيل سبطان : سبط نبوة ، وسبط مملكة ، وكان سبط النبوة سبط لاوى بن يعقوب ومنهم موسى وهارون . وسبط المملكة سبط يهوذا بن يعقوب ، ومنهم داود وسليمان عليهما السلام ،ولم يكن طالوت من سبط النبوّة ولا من سبط المملكة، وإنما كان من سبط بنيامين بن يعقوب ، وكانوا عملوا ذنبا عظيما ، كانوا ينكحون النساء على ظهر الطريق نهارا ، فغضب الله عليهم ونزع النبوّة والملك منهم ، فلما قال لهم (إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا) أنكروا ذلك لأنه كان من ذلك السبط ، فقالوا : أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ومع ذلك إنه فقير لم يؤت سعة من المال ، فقال لهم شمويل (إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى العِلْمِ) بالحرب (وَالجِسْمِ) يعنى بالطول فى قومه والقوّة ، وإنما سمى طالوت لطوله ، ولذلك كان يفوق الناس برأسه ومنكبيه . وقال ابن كيسان بالجمال : وكان طالوت أجمل رجل فى بنى إسرائيل وأعلمهم (وَاللهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)قالوا : فما آية ذلك ؟ (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ) الآية .

قصة التابوت وصفته وابتداء أمره إلى انتهائه

قال أهل التفسير وأصحاب الأخبار : إن الله تعالى أهبط تابوتا على آدم عليه السلام من الجنة حين أهبط إلى الأرض فيه صور الأنبياء من أولاده ، وفيه بيوت بعدد الرسل منهم وآخر البيوت بيت محمد صلى الله عليه وسلم من ياقوتة حمراء ، وإذا هو قائم يصلى وعن يمينه الكهل المطيع مكتوب على جبينه : هذا أول من يتبعه من أمته أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وعن يساره الفاروق ، وعلى جبهته مكتوب : قرن من حديد لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ومن ورائه ذو النورين آخذ بحجزته مكتوب على جبهته : بارّ من البررة ، ومن بين يديه على بن أبى طالب كرم الله وجهه شاهر سيفه على عاتقه ، ومكتوب على جبهته: هذا أخوه وابن عمه المؤيد بالنصر من عند الله وحوله عمومته والخلفاء والنقباء والكبكبة الخضراء أنصار الله وأنصار رسوله، نور حوافر داوبهم يوم القيامة مثل نور الشمس فى دار الدنيا . وكان التابوت نحوا من ثلاثة أذرع فى ذراعين ، وكان من عود الشمشاذ الذى يتخذ منه الأمشاط مموّه بالذهب ، وكان عند آدم عليه السلام إلى أن مات ، ثم عند شيث إلى أن مات ، ثم توارثه أولاد آدم إلى أن بلغ إلى إبراهيم عليه السلام . فلما مات كان عند إسماعيل لأنه أكبر ولده ،فلما مات إسماعيل كان عند ولده قيذار : فنازعه فيه ولد إسحاق ،وقالوا له: إن النبوة صرفت عنكم وليس لكم إلا هذا النور الواحد:

يعنى نور محمد صلى الله عليه وسلم فأعطنا التابوت ، فكان يمتنع عليهم ويقول : إنه وصية أبى ، ولا أعطيه لأحد من العالمين ، قال : فذهب ذات يوم ليفتح ذلك التابوت فعسر عليه فتحه ، فناداه مناد من السماء : مهلا ياقيذار فليس لك إلى فتح هذا التابوت سبيل ، إنه وصية نبىّ ولا يفتحه إلا نبىّ ، فادفعه إلى ابن عمك يعقوب إسرائيل الله ، فحمل قيذار التابوت على عنقه وخرج يريد أرض كنعان ، وكان بها يعقوب عليه السلام ، قال : فلما قرب قيذار صرّ التابوت صرة سمعها يعقوب عليه السلام ، فقال لبنيه : أقسم بالله لقد جاءكم قيذار بالتابوت فقوموا نحوه ، فقام يعقوب وأولاده جميعا ، فلما نظر يعقوب إلى قيذار سعى إليه باكيا ، وقال : ياقيذار مالى أرى لونك متغيرا وقوتك ضعيفة أرهقك عدو أم أتيت بمعصية بعد أبيك إسماعيل ؟ قال ما أرهقنى عدو ولا أتيت معصية ، ولكن أثقل ظهرى نور محمد صلى الله عليه وسلم ، فلذلك تغير لونى وضعف ركنى . قال يعقوب : أفى بنات إسحاق ؟ قال لا ، ولكن فى العربية الجرهمية وهى العامرية ، فقال يعقوب : بَخٍ بَخٍ ، شرفا لمحمد صلى الله عليه وسلم لم يكن الله ليخرجه إلا فى العربيات الطاهرات يا قيذار ، وأنا مبشرك ببشارة ، قال وما هى ؟ قال : اعلم أن العامرية قد ولدت البارحة غلاما . قال قيذار : وما أعلمك يا بن عمى وأنت بأرض الشام وهى بأرض الحرم ؟ قال يعقوب : قد علمت ذلك لأنى رأيت أبواب السماء قد فتحت ، ورأيت نورا كالقمر المدور بين السماء والأرض ، ورأيت الملائكة ينزلون من السماء بالبركات والرحمة ، فعلمت أن ذلك من أجل محمد صلى الله عليه وسلم . ثم إن قيذار دفع التابوت إلى ابن عمه يعقوب ورجع إلى أهله فوجدها قد ولدت غلاما فسماه حملا ، وفيه نور محمد صلى الله عليه وسلم . قالوا : وكان التابوت فى بنى إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى ، وكان موسى يضع فيه التوراة ومتاعا من متاعه وكان عنده إلى أن مات ، ثم تداولته أنبياء بنى إسرائيل إلى وقت شمويل عليه السلام ، فوصل إلى شمويل وقد تكامل أمر التابوت بما فيه ، وكان فيه مما فى كتابه (فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ) .

واختلفوا فى السكينة ما هى ؟ فقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : السكينة ريح خجوج هفافة لها رأسان ووجهها كوجه الإنسان . وقال مجاهد : لها رأس كرأس الهرّة ، وذنب كذنب الهرة وجناحان . وقال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه عن بعض علماء بنى إسرائيل فى السكينة : رأس هرة كانت إذا صرخت فى التابوت صرخة أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح .

وروى السدىّ عن أبى مالك عن ابن عباس قال : هى طَسْتٌ من ذهب الجنة يغسل فيه قلوب الأنبياء .

وروى بكار بن عبد الرحمن عن وهب بن منبه : هى روح من الله تكلمهم إذا اختلفوا فى شىء فتخبرهم ببيان ما يريدون . وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون .

قال المفسرون : فيه عصا موسى ورُضاض الألواح ، وذلك أن موسى لما ألقى الألواح تكسرت فرفع بعضها وجمع ما بقى فجعله فى التابوت ، وكان فيه أيضا لوحان من التوراة وقَفيز من المن الذى كان ينزل على بنى إسرائيل ونعلا موسى وعمامة هارون وعصاه . قالوا : وكان التابوت عند بنى إسرائيل إذا اختلفوا فى شىء تكلم وحكم بينهم ، وإذا حضروا القتال أقاموه بين أيديهم يستفتحون به على عدوهم . فلما عصَوا وأفسدوا سلط الله عليهم العمالقة فغلبوهم على التابوت وسلبوهم إياه ، وذلك فى أيام عِيلى الكاهن الذى ربى شمويل وقد مضت القصة فيه ، وكان جالوت يوم سُبِى من قومه التابوت صغيرا . فلما ذهب التابوت اختلّ أمر بنى اسرائيل إلى أن بعث الله طالوت ملكا فسألوه الآية على ملكه ، فقال لهم شمويل : إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت .

وكانت قصة ذلك التابوت : أن القوم الذين سَبَوُا التابوت أتوا به قرية من قرى فلسطين يقال لها أُرْدُنّ ، وجعلوه فى بيت صنم لهم ووضعوه تحت الصنم الأعظم ، فأصبحوا من الغد وإذا الصنم تحته فأخذوه وجعلوه فوقه وسمروا قدمى الصنم على التابوت ، فأصبحوا من الغد وقد قطعت يدا الصنم ورجلاه وأصبح ملقى تحت التابوت ، فأصبحت الأصنام كلها منكسة ، فأخرجوه من بيت الأصنام ووضعوه فى ناحية من مدينتهم ، فأخذ أهل تلك الناحية وجع فى أعناقهم حتى هلك أكثرهم . فقال بعضهم لبعض : أليس قد علمتم أن إله بنى إسرائيل لايقوم له شىء ، فأخرجوه من مدينتكم ، قال : فأخرجوه إلى قرية أخرى ، فبعث الله على أهل تلك القرية فأرا : يبيت الرجل صحيحا فيقرضه الفأر فيصبح ميتا وقد أكلت ما فى جوفه ، فأخرجوه منها إلى الصحراء ودفنوه فى مجرى لهم ، فكان كل من تبرّز هناك ، أخذه الباسور والقُولَنج ، فأخرجوه ووضعوه فى بيت ، فمكث فيهم عشر سنين وسبعة أشهر لايدنو أحد منه إلا احترق وأصابهم فى المدينة الآفات والعاهات ، وفى مواشيهم الموت وفى نسائهم الطاعون ، فتحيروا ؛ وكانت عندهم امرأة من نساء بنى إسرائيل من أولاد الأنبياء فقالت : إنكم لاتزالون ترون ما تكرهون ما دام هذا التابوت فيكم ، فأخرجوه عنكم . فأتوا بعجلة بإشارة تلك المرأة فحملوا عليها التابوت ثم علقوها على ثورين وضربوا جُنُوبهما ، فأقبل الثوران يسيران ووكل الله بهما أربعة من الملائكة يسوقونهما ، فلم يمر التابوت بأرض إلا كانت مقلسة ، فأقبلا حتى وقفا على أرض فيها حصاد لبنى إسرائيل ، فكسر برثنهما وقطع حبالهما ووضع التابوت فيها ورجع الثوران إلى أرضهما ، فلم تدر بنو إسرائيل إلا والتابوت عندهم ، فكبروا وحمدوا الله تعالى واجتمعوا على طالوت ، فذلك قوله تعالى (تَحْمِلُهُ المَلائِكَةُ) أى تسوقه الملائكة .

وقال ابن عباس : جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون

إليه حتى وضعته فى دار طالوت ، فأقروا بملكه ، قال الله تعالى (إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لكم إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) قال ابن عباس : إن التابوت وعصا موسى فى بُحَيْرية طبرية وإنهما يخرجان قبل القيامة ، والله أعلم .

باب فى قصة شمويل حين أوحى الله إليه أن يأمر طالوت بالمسير إلى قتال جالوت مع بنى إسرائيل وصفة نهر الابتلاء

قال الله تعالى (فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالجُنُودِ قال إن اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ) ... الآية ، قال : فلما أوحى الله إلى شمويل عليه السلام أن يأمر طالوت بالمسير إلى جالوت من بيت المقدس بالجنود ، لم يتخلف عنه إلا كبير لهرمه أو مريض لمرضه أو ضرير لضره أو معذور لعذره ، وذلك أنهم لما رأوا التابوت قالوا : قد أتانا التابوت وهو نصر لاشك فيه ، فسارعوا إلى الجهاد ، فقال طالوت : لا حاجة لى فيما أرى ، لايخرج معى رجل بنى بناء لم يفرغ منه ، ولا صاحب تجارة مشتغل بها ، ولا رجل عليه دين ، ولا رجل تزوج بامرأة ولم يدخل بها ، ولا يتبعنى إلا الشاب النشط الفارغ ، فاجتمع ثمانون ألفا على شَرْطه ، فخرج بهم وكان فى حر شديد ، فشكوا قلة المياه بينهم وبين عدوهم ، وقالوا: إن المياه لا تحملنا فادع الله تعالى أن يجرى لنا نهرا ، فقال لهم طالوت بأمر شمويل عليه السلام (إن الله مبتليكم بنهر) مختبركم ليرى طاعتكم وهو أعلم بكم ،وهو نهر بين الأُرْدُنّ وبين فلسطين عذب يقال له أدمى ، (فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى) أى من أهل دينى وطاعتى (وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ) لم يشربه (فإنَّهُ مِنِّى) ثم استثنى فقال (إلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بيدِهِ) وهو مِلْء الكف (ومن فتح الغين أراد المرة الواحدة) فشربوا منه إلاقليلا منهم .

قال السدىّ : كانوا أربعة آلاف ، وقال غيره : كانوا ثلاث مئة وبضعة عشر رجلا وهو الصحيح ، يدل عليه حديث البراء بن عازب قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر «أنتمُ اليَوْمَ عَلَى عِدَّةِ أصْحَابِ طَالُوتَ حِينَ عَبَرُوا النَّهْرَ وَمَاجَاوَزَ مَعَهُ إلاَّ مُؤْمِنٌ » قال : وكانوا يومئذ ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلا ، فمن اغترف غرفة بيده كما أمر الله تعالى قوى قلبه وصح ورجح إيمانه وعبر النهر سالما ، وكفته تلك الغرفة الواحدة لشربه وحمله ودوابه ، والذين شربوا وخالفوا أمر الله تعالى اسودت شفاههم وغلبهم العطش فلم يَرْوَوْا وبقوا على شاطئ النهر وجبنوا عن لقاء العدو ولم يشهدوا الفتح .

فلما جاوز النهر مع طالوت القليل الذين ثبتوا معه قالوا : يعنى الذين شربوا وخالفوا أمر الله تعالى (لاطَاقَةَ لَنَا اليَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ) وانصرفوا عن طالوت ولم يشهدوا قتال جالوت وَ(قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ) أى يعلمون ويوقنون (أَنَّهُمْ مُلاقوا الله) وهم

القليل الذين ثبتوا مع طالوت (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ) . . الآية ، ومروا قاصدين الجهاد .

باب فى ذكر أمر داود عليه السلام وخبر جالوت وصفة قتله

قال الله تعالى (وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا) إلى قوله تعالى (وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ) قال المفسرون والمخبرون بألفاظ مختلفة ومعان متفقة : عبر النهر مع طالوت فيمن عبر إيشا أبو داود ومعه ثلاثة عشر ابنا له وكان داود أصغرهم وأحقرهم ، فأتى ذات يوم أباه فقال : يا أبتاه ماقذفت بمقلاعى هذه شيئا إلا أصبته وصرعته ، فقال : أبشر يا بنى فإن الله قد جعل رزقك فى قَذَّافتك : يعنى فى مقلاعك، ثم أتاه يوما آخر فقال: يا أبتاه لقد دخلت بين الجبال فرأيت أسدا رابضا فركبته وقبضت بأذنيه فلم يهمنى ، فقبضت على فكيه ففطرتهما برأسه وعنقه إلى لَبته بيدى من غير سكين ولا ضرب بحديد وتراه هناك مقتولا ، فقال له أبوه : أبشر يا بنىّ فإن هذا خير أعطاكه الله ، ثم أتاه يوما آخر وقال : يا أبت إنى لأمشى بين الجبال فأسبح فما يبقى جبل إلا سبح معى ، قال : أبشر يا بنىّ فإن هذا خير أعطاكه الله ، وسيكون لك شأن عظيم . قال : فلما وصلت غُزاة بنى إسرائيل مع طالوت إلى عسكر جالوت أرسل جالوت إلى طالوت أن ابرز إلىّ أو أبرزْ إلىّ من يقاتلنى ، فإن قتلنى فلكم ملكى ، وإن قتلته فلى ملككم ، فشقّ ذلك على طالوت ، فنادى فى عسكره من قتل جالوت زوّجته ابنتى وناصفته مملكتى ، فهاب الناس قتالَ جالوت فلم يجبه أحد ، فسأل طالوت نبيهم شمويل عليه السلام ، فدعا الله تعالى فى ذلك ، فأتى بقَرن فيه دهن القدس وشبه تنور من حديد، وقيل له إن الذى يقتل جالوت هو الذى يوضع هذا القرن على رأسه فيغلى الدهن حتى يدهن منه رأسه ولا يسيل على وجهه بل يكون على رأسه كهيئة الإكليل ويدخل فى هذا التنور فيملؤه ولا يتقلقل فيه ، فدعا طالوت أشداء بنى إسرائيل وأقوياءهم فجربهم فلم يوافقه منهم أحد ، فأوحى الله إلى شمويل عليه السلام : أن فى ولد إيشا من يقتل جالوت ، وإنى أريد أن أجعله خليفة فى الأرض من بعدك أعلمه فصل الخطاب وهو راعى الغنم ، فقل لإيشا يعرض عليك بنيه واحدا واحدا ، فدعا إيشا وقال له : اعرض علىّ بنيك، فأخرج له اثنى عشر ولدا أمثال السوارى وفيهم رجل بارع ، فجعل يعرضهم على القرن والتنور فلا يرى شيئا ، ويقول لذلك الجسيم ارجع فيردده على التنور ، فأوحى الله تعالى إليه : إنا لانأخذ الرجال على صورهم ولكنا نأخذهم على صلاح هممهم وقلوبهم ، فقال لإيشا: هل بقى لك ولد غيرهم ؟ قال لا، قال شمويل : رب قد زعم أنه ليس له ولد غيرهم، فقال : كذب ، فقال شمويل : يا إيشا إن ربى كذبك ، قال : صدق الله يا نبىّ الله ، إن لى ابنا صغيرا يقال له داود استحييت أن يراه

الناس لقصر قامته وحقارته ، وخلفته فى الغنم يرعاها وهو فى شعب كذا وكذا ، وكان داود عليه السلام قصيرا سقيما مصفرا أزرق العينين ، فدعاه طالوت . ويقال خرج إليه فوجد الوادى قد حال بالماء بينه وبين الزريبة التى كان يتروّح إليها ، فوجده يحمل الغنم شاتين شاتين يعبر بهما السيل ولا يخوض بهما الماء ، فلما رآه شمويل قال : هذا هو لاشك فيه ، هذا يرحم البهائم فهو أرحم بالناس ، فدعاه فوضع القرن على رأسه ففاض وأجلسه فى التنور فملأه . فلما رأى طالوت ذلك قال له : هل لك أن تقتل جالوت وأزوجك ابنتى وأجرى حكمك فى مملكتى ؟ قال : نعم ، قال : فهل لقيت من نفسك شيئا تتقوّى به على قتله ؟ قال نعم أنا راعى الغنم فيجىء الأسد والنمر والذئب ليأخذ شيئا فأقوم إليه وأقبضه وأفتح لحييه عنها وأحرفهما إلى قفاه . فلما سمع طالوت منه ذلك رده إلى عسكره ، فمر داود عليه السلام فى الطريق بحجر فناداه : يا داود احملنى فإنى حجر هارون الذى قتل به ملك كذا وكذا فوضعه فى مخلاته ، ثم مر بحجر آخر فناداه : يا داود احملنى فإنى حجر موسى عليه السلام الذى قتل به ملك كذا وكذا فحمله فى مخلاته ، ثم مر بحجر آخر فقال احملنى فإنى حجرك الذى تقتل به جالوت ، وقد خبأنى الله لك فوضعه فى مخلاته . فلما تصافُّوا للقتال برز جالوت وسأل المبارزة ، فانتدب له داود ، وكان طالوت أعطاه فرسا ودرعا وسلاحا ، فركب الفرس ولبس السلاح وسار قليلا فوجد فى نفسه زَهْوًا ، فانصرف وعاد سريعا إلى الملك ، فقال من حوله : جبن الغلام ، فجاء حتى وقف على الملك ، فقال له : ما شأنك ؟ فقال له داود ؛ إن الله تعالى إن لم ينصرنى فما يغنى عنى هذا السلاح شيئا فدعنى أقاتل كما أريد ، فقال له طالوت : افعل ما تريد . فأخذ داود عليه السلام مخلاته فتقلدها وأخذ المقلاع ومضى نحو جالوت ، وكان جالوت من أشد الناس وأقواهم ، وكان يهزم الجيوش وحده ، وكان له بيضة وزنها ثلاثمئة رطل حديد ، وكان له فرس أبلق مثله فى الشدة والقوة وعظم الخلق ، فلما برز جالوت إلى داود ألقى الله تعالى فى قلبه الرعب ، فقال له : أنت تبرز إلىّ ؟ قال نعم ، وكان جالوت راكبا على فرس أبلق وعليه السلاح التام ، فقال له : يا بنىّ تأتينى بالحجر بالمقلاع كما يؤتى الكلب بالحجر ؟ قال نعم أنت أشر من الكلب ، قال : لاجرم لأقسمنّ لحمك بين سباع الأرض وطير السماء ، فقال داود : باسم الله ويقسم الله لحمك بين السباع وطير السماء ، وأخذ حجرا منها وقال : باسم الله إله إبراهيم ووضعه فى مقلاعه ،وأخذ حجرا ثانيا وقال : باسم الله إله إسحاق ووضعه فى مقلاعه ، ثم أخرج ثالثا ، وقال : باسم الله إله يعقوب ووضعه فى مقلاعه . قال : فصارت الأحجار الثلاثة كلها حجرا واحدا وأدار المقلاع ورمى به ، فسخر الله له الريح حتى أصاب الحجر أنف البيضة ، فخالط دماغه وخرج من قفاه وقتل من ورائه ثلاثين رجلا . ويقال : إنه من بعد ما خرج من قفاه تكسر وتفتت بإذن الله تعالى حتى عم

جميع جنود جالوت فلم يبق منهم أحد إلا وقد أصابته منه قطعة ، ومثل ذلك صار كرامة للنبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، حين حثا الحَثْوة من التراب فانهزم الجيش ، وخرّ جالوت قتيلا ، وأسرع داود عليه السلام إليه فحزّ رأسه وانتزع من يده خاتمه ، وأقبل برأسه يجره حتى ألقاه بين يدى طالوت ، ففرح المسلمون فرحا شديدا وانصرفوا إلى مدينتهم سالمين غانمين بحمد الله رب العالمين .

ذكر بقية قصة طالوت وما كان منه إلى داود عليه السلام بعد قتل جالوت

قالوا : لما قتل داود جالوت ذكر الناس داود وعظم فى أنفسهم ، فجاء داود إلى طالوت وقال له : أنجز إلىّ ما وعدتنى وأعطنى امرأتى ، فقال له طالوت : أتريد ابنة الملك بغير صداق عجل صداق ابنتى وشأنك بها ، فقال داود لطالوت : ما شرطت علىّ صداقا وليس لى شىء ، فتحكم فى الصداق بما تريد وأقرضنى مهرها وعلىّ الأداء والوفاء لك به ، فقال طالوت : أصدقها نصيبك من الملك ، فقال له بنو إسرائيل لا تظلمه وأنجز له ما وعدته ، فلما رأى طالوت ميل بنى إسرائيل إلى داود أحسن ثناءه عليه وقال : لا حاجة لابنتى فى المال ولا أكلفك ما لا تطيق ، أنت رجل جرىء وفى جبالنا أعداء من المشركين ، فانطلق فجاهدهم ، فإذا قتلت منهم مِئَتَى رجل وجئتنى برءوسهم زوّجتك ابنتى ، فأتاهم داود عليه السلام وجعل كلما قتل منهم رجلا احتز رأسه ونظمه فى خيط حتى نظم رءوسهم ، ثم جاء بهم إلى طالوت وألقاهم بين يديه وقال له : ادفع لى امرأتى ، فزوّجه امرأته وأجرى خاتمه فى ملكه ، فمال الناس إلى داود عليه السلام وأحبه بنو إسرائيل وأكثروا من ذكره ، فوجد طالوت من ذلك فى نفسه فأراد قتله .

قال وهب بن منبه : كانت الأنبياء والملوك يومئذ يتوكئون على العصىّ ، ويغرزون فى أطراف العصىّ أزجة من حديد ، وكان داود عليه السلام جالسا فى ناحية البيت ، فدخل طالوت فرماه بالعصا بغتة ليقتله بها صبرا ، فلما أحس داود بذلك حاد عن رميته وأمال نفسه من غير أن يبرح من مكانه ، فارتكزت العكازة فى الجدار ، فقال له داود : أردت قتلى ؟ قال له طالوت : لا بل أردت أن أقف على ثباتك عند الطعان وربط جأشك للأقران ، فقال له داود عليه السلام : أفلقيته على ما قدّرته فىّ ، قال نعم ولكنك لعلك فزعت ؟ قال : معاذ الله أن أخاف إلا الله ، ولا ألجأ إلا إليه ، ولا يدفع الشر إلا هو ، ثم إن داود انتزعها من الجدار وهزها هزة منكرة ، وقال له : اثبت لى كما ثبت لك ، فأيقن طالوت بالهلاك ، فقال له : أَنْشُدُكَ بالله وبحرمة المصاهرة التى بينى وبينك ، وما كان هذا القول من داود عن قصد قتل طالوت ولكن كان مقال تخويف وتحذير ، فقال داود لطالوت : إن الله قد كتب فى التوراة جزاء السيئة سيئة مثلها واحدة والبادى أظلم ، قال طالوت : أفلا تقول قول هابيل (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ

إنى أخافُ اللهَ رَبَّ العالمينَ) فقال داود : قد عفوت عنك لوجه الله تعالى . فلبث طالوت زمانا يريد قتل داود عليه السلام ، فعزم على أن يأتيه ويقتله فى داره ، فأخبرت بذلك بنت طالوت زوجة داود ، أخبرها رجل يقال له ذو العينين ، فقالت لداود: إنك لمقتول الليلة، قال : ومن يقتلنى ؟ قالت أبى ، قال : وهل أجرمت جرما ؟ قالت : حدثنى من لا يكذب ولا عليك بأس أن تغيب الليلة ، حتى تنظر مصداق ذلك ، فقال : لئن كان أراد ذلك لاأستطيع خروجا، ولكن ائتينى بزقّ من خمر ، فأتته به ، فوضعه فى مضجعه على السرير وسجاه ودخل تحت السرير . قال : فدخل طالوت نصف الليل وأراد أن يقتل داود فلم يجده ، فقال لابنته : أين بعلك ؟ فقالت : هو نائم على السرير ، فضربه بالسيف فسال الخمر ، فلما وجد ريح الخمر قال : رحم الله داود ما كان أكثر شربه للخمر وخرج ، فلما أصبح علم أنه لم يفعل شيئا فقال : إن رجلا طلبت منه ما طلبت لخليق أن لايدعنى حتى يدرك ثأره منى ، ثم إنه استتر بحجابه وحراسه،وأغلق دونه الأبواب . قال : فأتى داود ذات ليلة وقد هدأت العيون ، وأعمى الله عنه الحجاب وفتح الله له الأبواب ، فدخل عليه وهو نائم على فراشه،فوضع سهما عند رأسه وسهما عند رجليه وسهما عن يمينه وسهما عن شماله ثم خرج . فلما استيقظ طالوت وجد السهام فعرفها، فقال : رحم الله داود،هو خير منى ظفرت به فقصدت قتله وظفر بى فكف عنى ، لوشاء لوضع هذا السهم فى حلقى ، وما أنا بالذى آمنه . فلما كانت الليلة القابلة أتاه داود ثانيا وأعمى الله عنه أعين الحجاب ، فدخل وهو نائم على فراشه ، فأخذ إبريق طالوت الذى كان يتوضأ منه وكوزه الذى كان يشرب به وقطع شعرات من لحيته وشيئا من هدب ثيابه ثم خرج وهرب وتوارى . فلما أصبح طالوت ورأى ذلك سلط على داود العيون وشد فى طلبه فلم يقدر عليه . ثم إن طالوت ركب ذات يوم فوجد داود عليه السلام يمشى فى البرية ، فقال طالوت فى نفسه : اليوم أقتل داود أنا راكب وهو ماش ، وكان داود إذا فر لم يدرك ، فركض طالوت فى أثره واشتد داود فى الجرى فدخل غارا ، فأوحى الله إلى العنكبوت فنسجت عليه بيتا ، فلما انتهى طالوت إلى الغار ونظر إلى بناء العنكبوت قال : لو كان ههنا لخرق بيت العنكبوت فتركه ومضى ، فلما مضى خرج داود من الغار وانطلق إلى الجبل مع المتعبدين فجعل يتعبد فيه ، فطعن العلماء والعباد على طالوت فى شأن داود ، فجعل طالوت لاينهاه أحد عن قتل داود إلا قتله ، فجعل يقتل العلماء ، فلم يكن يقدر فى بنى إسرائيل على عالم ويطيق قتله إلا قتله ولم يكن يحارب جيشا إلا هزمه ، حتى أتى بامرأة تعلم الاسم الأعظم ، فأمر خبازه بقتلها فرحمها الخباز وقال : لعلنا نحتاج إلى عالم فتركها ، ووضع الله فى قلب طالوت التوبة ، فندم على مافعل، وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس، وكان كل ليلة يخرج إلى القبور فيبكى وينادى : أنشد الله عبدا يعلم لى توبة إلا أخبرنى بها ، فلما كثر عليهم بكاؤه ناداه مناد من

القبور : يا طالوت أما ترضى أنك قتلتنا أحياء حتى تؤذينا أمواتا ، فازداد حزنا وبكاء ، فرحمه الخباز وقال له : مالك أيها الملك ؟ فقال : هل تعلم لى فى الأرض عالما أسأله : هل لى من توبة ؟ فقال له الخباز : أيها الملك هل تدرى ما مثلُك ؟ قال لا ، قال : ما مثلك إلا كمثل ملك نزل قرية عشاء فصاح الديك ، فتطير منه ، فقال : لاتتركوا فى هذه القرية ديكا إلا ذبحتموه ، فلما أراد أن ينام قال لأصحابه : إذا صاح الديك فأيقظونا حتى ندلج ، فقيل له : وهل تركت ديكا يُسْمع صوته ؟ وأنت هل تركت عالما فى الأرض ؟ فازداد حزنا وبكاء ، فلما رأى الخباز ذلك قال : أرأيت إن دللتك على عالم لعلك تقتله ، قال لا ، فتوثق منه الخباز بالأيمان ، فأخبره أن المرأة العالمة عنده ، فقال له : انطلق بنا إليها أسألها هل لى من توبة ، وكانت تعلم الاسم الأعظم ، وكان إنما يعلم هذا الاسم أهل بيت لها فنيت رجالهم وعلمت نساؤهم ، فلما بلغ طالوت الباب قال له الخباز : إنها إن رأتك فزعت منك ، ثم جعله خلفه ودخل عليها الخباز فقال : ألست أعظم الناس عليك منة ، أنجيتك من القتل وأوثقتك عندى ؟ قالت بلى ، قال : لى إليك حاجة ، هذا طالوت يسأل هل له من توبة ؟ فلما سمعت بذكره غشى عليها من الفرَق ، فلما أفاقت قال لها : إنه لايريد قتلك ، ولكن يسألك هل من توبة ؟ قالت : لا والله ما له من توبة ، ولكن هل تعلمون قبر شمويل عليه السلام ؟ قالوا نعم ، قالت : فانطلقوا بنا إلى قبره ، فلما وصلوا إليه صلت عنده ركعتين ثم إنها نادت : يا صاحب القبر ، فخرج شمويل عليه السلام من القبر ينفض التراب عن رأسه ، فلما نظر إلى الثلاثة المرأة والخباز والملك ، قال لهم : أقامت القيامة ؟ قالوا لا ، ولكن هذا طالوت يسألك هل له من توبة ؟ فقال له شمويل : ما فعلت يا طالوت بعدى ؟ قال : لم أدع شيئا من الشر إلا فعلته ، وقد جئت أطلب التوبة ، قال : كم لك من ولد ؟ قال : عشرة رجال ، قال : ما أعلم لك من توبة إلا أن تتخلى عن ملكك وتخرج أنت وولدك تجاهد فى سبيل الله ، ثم تقدم ولدك حتى يقتلوا بين يديك ، ثم إنك تقاتل حتى تقتل آخرهم ، ثم رجع شمويل عليه السلام إلى القبر فسقط ميتا ، ورجع طالوت أحزن ما يكون وخاف أن لايتابعه ولده فبكى حتى ذهبت أشفار عينيه ونحل جسمه ، فدخل عليه أولاده ، فقال لهم : أرأيتم لو دفعت إلى النار أكنتم تنقذوننى ؟ قالوا نعم ننقذك بما قدرنا عليه ، قال : فإنها النار إن لم تفعلوا ما أقول لكم ، قالوا : فاعرض علينا مقالتك ، فذكر لهم القصة ، فقالوا : وإنك لمقتول بعدنا ؟ قال نعم ، قالوا : لاخير لنا فى الحياة بعدك قد طابت أنفسنا بالذى سألت ، فتجهز بأولاده إلى الغزو وكانوا عشرة ، فقاتلوا بين يديه حتى قتلوا ، ثم شد بعدهم فقاتل حتى قتل ، فجاء قاتله إلى داود يبشره بقوله له : قد قتلت عدوك ، فقال داود : ما كنت بالذى تحيا بعده ، فضرب عنقه .

مجلس فى خلافة داود عليه السلام وما يتعلق بها

قال الله تعالى (يا دَاوُدُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فى الأَرْضِ) الآية . قالت العلماء بأخبار الأنبياء : لما استشهد طالوت أتى بنو إسرائيل إلى داود فأعطوه خزانة طالوت وملكوه على أنفسهم ، وذلك بعد قتل داود جالوت بسبع سنين ، ولم تجتمع بنو إسرائيل على ملك واحد بعد يوشع بن نون إلا على داود عليه السلام ، فذلك قوله عز وجل (وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وآتاهُ اللهُ المُلْكَ والحِكْمَةَ) الآية .

باب فى ذكر نسبه

هو داود بن إيشا بن عوفيذ بن يوعز بن سلمون بن يخشون بن عمينوذب بن رم بن حصرون ابن بارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليهم أجمعين .

باب فى ذكر صفته وحليته

أخبرنى الحسن بن محمد الدينورى بإسناده عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « زُرْقَةُ العَيْنَيْنِ يُمْنٌ » ، وكان داود عليه السلام أزرق العينين أحمر الوجه دقيق الساقين سبط الشعر أبيض الجسم طويل اللحية فيها جعودة حسن الصوت والخلق طاهر القلب نقيه .

باب فى ذكر ما خص الله تعالى به نبيه داود عليه السلام من الفضل والكرامة حين أعطاه الله النبوّة والملك

فنها أنه أنزل عليه الزبور بالعبرانية مئة وخمسون سورة : فى خمسين منها ذكر ما يكون من بختنصر وأهل بابل ، وفى خمسين منها ذكر ما يلقون من الروم من أهل أبرون ، وفى خمسين منها موعظة وحكمة ، ولم يكن فيها حلال ولا حرام ، فذلك قوله تعالى (وآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً) . ومنها الصوت الطيب والنغمة الطيبة اللذيذة والترجيع والألحان، ولم يعط الله أحدا من خلقه مثل صوته ، وكان يقرأ الزبور بسبعين لحنا بحيث يعرق المحموم ويفيق المغمى عليه ، وكان إذا قرأ الزبور برز إلى البرية ، فيقوم وتقوم معه علماء بنى إسرائيل خلفه ، وتقوم الناس خلف العلماء ، وتقوم الجن خلف الناس ، وتقوم الشياطين خلف الجن ، وتدنو الوحوش والسباع ويؤخذ بأعناقها ، وتظله الطيور مضجية ، ويركد الماء الجارى ، ويسكن الريح ،وما صنعت المزامير والبرابط والصنوج إلا على صوته؛ وذلك أن إبليس لعنه الله حسده واشتد عليه ، فقال لعفاريته ألا ترون ما دهاكم ؟ فقالوا له : مرنا

بما شئت ، فقال : إنه لايصرف الناس عن داود إلا مايضادّه ويحادّه فى مثل حاله ، فهيِّئا المزامير والعيدان والأوتار والملاهى على أجناس أصوات داود ، فسمعها سفهاء الناس فمالوا إليها فاغتروا بها ، ويقال : إن داود عليه السلام كان إذا قرأ الزبور بعد ما قارف الذنب لايقف له الماء ولا تصغى له الوحوش ولا البهائم ولا الطيور كما كانت قبلها ونقصت نغمته ، فقال : إلهى ما هذا ؟ فأوحى الله تعالى إليه ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية ، يا داود إن الخطيئة هى التى غيرت صوتك وحالك ، فقال : إلهى أو ليس قد غفرتها لى ؟ قال بلى ، ولكن ارتفعت الحالة التى بينى وبينك من الودّ والقرب فلن تدركها أبدا .

أخبرنا أبوسعيد بن أحمد بن حمدون عن وهب بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « خَفَّفَ اللهُ على دَاوُدَ القُرآنَ فكانَ يأْمُرُ بدَوَابِّهِ أنْ تُسْرَجَ فكانَ يقرأُ القُرآنَ قَبْلَ أنْ تُسْرَجَ دابَّتُهُ وكانَ لايأْكُلُ إلاَّ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ » قال الأستاذ الإمام : أراد بالقرآن الزبور .

وبالإسنادَ أخبرنا أبو بكر الجوزقى عن أبى موسى الأشعرى قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقَدْ أُعْطِيتَ مِزْماراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ » فقلت : أما والله يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا .

وأخبرنا أبو بكر قال : أخبرنا أبو العباس بالإسناد عن البراء بن عازب قال « سمع النبى صلى الله عليه وسلم صوت أبى موسى فقال : كأنَّ صَوْتَ هذا مِنْ صَوْتِ آلِ دَاوُدَ » .

ومنها تسخير الجبال والطير له يسبحن معه إذا سبح كما قال تعالى (ولَقَدْ آتَيْنا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوِّبى مَعَهُ والطَّيْرُ وأَلَنَّا لهُ الحَدِيدَ) وقوله تعالى (إنَّا سَخَّرْنا الجِبالَ معهُ يُسَبِّحْنَ بالعَشِيِّ والإشْرَاقِ) ويقال : إن داود عليه السلام كان إذا تخلل الجبال فسبح الله تعالى جعلت الجبال تجاوبه بالتسبيح نحو ما يسبح ، ثم قال فى نفسه لليلة من الليالى ، لأعبدنّ الله تعالى عبادة لم يعبده أحد بمثلها ، فصعد الجبل ، فلما كان جوف الليل داخلته وحشة ، فأوحى الله تعالى إلى الجبال أن آنسى داود ، فاصطكت الجبال بالتسبيح والتقديس والتهليل ، فقال داود فى نفسه : كيف يسمع صوتى مع هذه الأصوات ؟ فهبط عليه جبريل عليه السلام وأخذ بعضده حتى انتهى به إلى البحر فوكزه برجله ، فانفرج له البحر فانتهى به إلى الأرض ، فوكزها برجله فانفجرت له الأرض ، فانتهى به إلى الحوت فوكزه برجله فانتهى به إلى الصخرة ، فوكز الصخرة برجله فانفلقت فخرج منها دودة تنشّ ، فقال له جبريل : إن ربك يسمع نشيش هذه الدودة فى هذا الموضع . قوله تعالى (يسبحن بالعشى والإشراق) قال المفسرون : يعنى صلاة الضحى وصلاة الأوابين بين العشاءين . قال ابن عباس : وكان داود يفهم تسبيح الحجر والشجر والمدر .

ومنها أنه أكرمه الله تعالى بالحكمة وفصل الخطاب ، فالحكمة هى الإصابة فى الأمور ،

وأما فصل الخطاب فاختلفوا فيه ؛ فقال ابن عباس : بيان الكلام . وقال ابن مسعود والحسن : المعنى علم الحكم والنظر فى القضاء ، كان لايتتعتع فى القضاء بين الناس . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : هو البينة على من ادعى واليمين على من أنكر .

أخبرنا أبو عبد الله قال : سمعت زيادا يقول : فصل الخطاب الذى أعطى داود عليه السلام ما أخبرنا أبوحفص عن الأعمش عن أبى صالح عن كعب الأحبار فى قوله :(وفصل الخطاب) قال : الشهود والأيمان . عن الشعبىّ قال : سمعت زيادا يقول : فصل الخطاب الذى أعطى داود : أما بعد . قال الأستاذ الإمام رحمه الله تعالى : وهو أول من قالها .

ومنها السلسلة التى أعطاها الله تعالى له ليعرف المحق من المبطل فى المحاكمة إليه .

وهو ما روى عن الضحاك عن ابن عباس قال : إن الله تعالى أعطى داود سلسلة موصولة بالمجرة والفلك ورأسها عند محراب داود عليه السلام حيث يتحاكم الناس إليه ، وكانت قوتها قوة الحديد ولونها لون النار ، وحلقها مستديرة مفصلة بالجوهر ومدسرة بقضبان اللؤلؤ الرطب ، فلا يحدث فى السماء حاصل إلا صلصلت السلسلة فيعلم داود ذلك الحادث ولا يمسها ذو عاهة إلا برأ ، وكان علامة دخول قومه فى الدين أن يمسوها بأيديهم ثم يمسحوا بأكفهم على صدورهم ، وكانوا يتحاكمون إليها ، فمن اعتدى على صاحبه وأنكر ماله من حق أتى السلسلة ، فمن كان صادقا محقا مد يده إلى السلسلة فينالها ، ومن كان كاذبا ظالما لم ينلها ، فكانت فيهم إلى أن ظهر فيهم المكر والخديعة .

قال : بلغنا أن بعض ملوكهم أودع رجلا جوهرة ثمينة ، فلما جاء يستردها أنكرها فتحاكما إلى السلسلة ، فعلم الرجل الذى كانت عنده الجوهرة أن يده لاتنال السلسلة ، فعمد إلى عكازة له فنقرها ثم ضمنها الجوهرة ، واعتمد عليها حتى حضر معه غريمه عند السلسلة ، فقال صاحب الجوهرة : إن لى عندك وديعة ، فقال خصمه : ما أعرف لك وديعة ، فإن كنت صادقا فتناول السلسلة ، فتناولها بيده ، ثم قيل للمنكر قم أنت أيضا فتناولها ، فقال لصاحب الجوهرة : الزم أنت عكازتى هذه فاحفظها حتى أتناول السلسلة ، فأخذها وقام الرجل وقال : اللهم إن كنت تعلم أن هذه الوديعة التى يدعيها قد وصلت إليه فقرب منى السلسلة ، فمد يده فتناولها ، فتعجب القوم وتفكروا فيها ، فأصبحوا وقد رفع الله تلك السلسلة . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا اشتبه عليه الأمر بين الخصمين اللذين يتحاكمان إليه يقول : ما أحوجكما إلى سلسلة بنى إسرائيل كانت تأخذ بعنق الظالم فتجره إلى الحق جرا .

ومنها القوة فى العبادة وشدة الاجتهاد كما قال الله تعالى (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ) يعنى القوة فى العبادة (إِنَّهُ أَوَّابٌ) أى تواب مسبح مطيع ، وكان يصوم يوما ويفطر يوما بصوم النهار ويقوم الليل ، وما مرت به ساعة من الليل إلا وفيها من آل داود قائم يصلى ، ولا يوم من الأيام إلا وفيه منهم صائم .

ومنها قوة المملكة كما قال الله تعالى (وَشَدَدْنا مُلْكَهُ) أى قويناه ، وقرأ الحسن وشدّدنا ملكه بالتشديد .

وقال ابن عباس : كان أشد ملوك الأرض سلطانا ، وكان يحرس محرابه كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألف رجل . وقال السدى : كان يحرسه كل ليلة أربعة آلاف رجل .

أخبرنا عبد الله بن حامد عن عكرمة عن ابن عباس : أن رجلا من بنى إسرائيل تعدى على رجل من عظمائهم ، فاجتمعا على داود عليه السلام، فقال المتعدى: إن هذا قد غصبنى بقرتى ، فسأل داود الرجل عن ذلك فجحد وسأل الآخر البينة فلم يكن له بينة ، فقال لهما داود قوما حتى أنظر فى أمركما ، فقاما من عنده ، فأوحى الله تعالى إليه فى منامه أن يقتل الرجل الذى تعدى ، فقال : هذه رؤيا ولست أعجل حتى أتبين ، فأوحى الله تعالى إليه مرة أخرى أن يقتله ، فقال هذه رؤيا ، فأوحى الله تعالى إليه مرة ثالثة أن يقتله . فأرسل داود إلى الرجل ، فقال له : إن الله تعالى قد أوحى إلىّ أن أقتلك ، فقال له الرجل : تقتلنى بغير ذنب ولا بينة؟ فقال داود : نعم والله لأنفذنّ أمر الله فيك . فلما عرف الرجل أنه قاتله قال : لاتعجل علىّ حتى أخبرك، إنى والله ما أخذت بهذا الذنب، ولكنى كنت اغتلت ولد هذا فقتلته ، فأمر به داود فقتل . فاشتدت هيبة بنى إسرائيل عند ذلك لداود واشتد له ملكه ، فذلك قوله تعالى (وشددنا ملكه) . ويقال : كان داود إذا جلس للحكم كان على يمينه ألف رجل من الأنبياء ، وعلى يساره ألف رجل من الأجناد .

ومنها شدة البطش ، فيروى أنه ما فرّ ولا انحاز من عدوّ له قط :

ومنها إلانة الحديد له ، وكان سبب ذلك ما روى فى الأخبار أن داود عليه السلام لما ملك بنى إسرائيل كان من عادته أن يخرج إلى الناس متنكرا ، فإذا رأى رجلا لايعرفه تقدم إليه فيسأله عن داود فيقول له : ماتقول فى داود واليكم هذا: أى الرجل هو ؟ فيثنى عليه ويقول خيرا ، فبينما هو كذلك يوما من الأيام إذ قيض الله له ملكا فى صورة الآدميين ، فلما رآه تقدم إليه داود على عادته فسأله ، فقال له الملك : نعم الرجل هو ، لولا خصلة فيه فراع داود ذلك فقال : ما هى يا عبد الله؟ قال: إن داود يأكل ويطعم عياله من بيت المال . قال : فتنبه لذلك ، وسأل الله تعالى أن يسبب له سببا يستغنى به عن بيت المال فينفق منه ويطعم عياله ، فألان له الحديد ، فصار فى يده مثل الشمع والعجين والطين المبلول ، وكان يصرّفه بيده كيف يشاء من غير إدخال نار ولا ضرب بحديد ، وعلمه الله تعالى صنعة الدروع ، فكان يتخذ الدروع ، وهو أول من عملها ، وكانت قبل ذلك صفائح ، فيقال إنه كان يبيع كل درع منها بأربعة آلاف درهم ، فيأكل ويطعم عياله ويتصدق منها على الفقراء والمساكين ، فذلك قوله تعالى (وعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لكُمْ) وقوله تعالى

(وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ) أى دروعا كوامل واسعات (وَقَدِّرْ فى السَّرْدِ) أى لاتجعل المسامير دقاقا فتعلق ولا غلاظا فتكسر الحلق ، فكان يفعل ذلك حتى اعتد من ذلك مالا .

وروى أن لقمان الحكيم رأى داود عليه السلام وهو يعمل درعا ، فتعجب من ذلك ولم يدر ما هو ، فأراد أن يسأله فسكت حتى فرغ داود من نسج الدرع ، فقام فلبسه وقال : نعم القميص هذا للرجل المحارب ، فعلم لقمان ما يراد به، فقال : الصمت حكمة وقليل فاعله.

باب فى قصة داود عليه السلام حين ابتلى بالخطيئة ، وما يتصل بذلك

قال الله تعالى (وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرابَ إِذْ دَخَلوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ) الآيات . اختلف العلماء بأخبار الأنبياء فى سبب امتحان الله تعالى نبيه داود عليه السلام بما امتحنه الله به من الخطيئة ، فقال قوم : كان سبب ذلك أنه تمنى يوما من الأيام على ربه تعالى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وسأله أن يمتحنه بمثل الذى كان يمتحنهم ، ويعطيه من الفضل مثل الذى أعطاهم ؛ فروى السدى والكلبى ومقاتل عن أشياخهم دخل حديث بعضهم فى بعض قالوا : كان داود عليه السلام قد قسم الدهر ثلاثة أيام : يوما يقضى فيه بين الناس ، ويوما يخلو فيه بنسائه ، ويوما لعبادة ربه وقراءة الكتب ، وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام فيقول: يا رب أرى الخير قد ذهب به آبائى الذين كانوا قبلى ، فأوحى الله تعالى إليه أنهم ابتلوا بلايا لم يبتل بها أحد فصبروا عليها : ابتلى إبراهيم عليه السلام بنار النمروذ وبذبح ولده ، وابتلى إسحاق بالذبح ، وابتلى يعقوب بالحزن وذهاب بصره على يوسف ، وإنك لم تبتل بشىء من ذلك . فقال داود عليه السلام : يا رب فابتلنى كما ابتليتهم وأعطنى كما أعطيتهم ، فأوحى الله تعالى إليه إنك مبتلى فى شهر كذا فى يوم كذا ، فاحترس على الصبر . فلما كان فى اليوم الذى وعده الله دخل داود محرابه وأغلق بابه وجعل يصلى ويقرأ الزبور ، فبينما هو كذلك إذ جاءه الشيطان وتمثل له فى صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن ، فوقعت بين يديه فمد يده ليأخذها . وفى بعض الروايات : ليدفعها إلى ابن له صغير ، فلما أهوى إليها طارت غير بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها ، فامتد إليها ليأخذها فتنحت ، فتبعها فطارت ، فوقعت فى كوة ، فذهب ليأخذها فطارت من الكوة ، فنظر داود أين تقع فيبعث إليها من يصيدها ؟ فنظر إلى امرأة فى بستان على شط بركة تغتسل ، هذا قول الكلبى .

وقال السدى : رآها تغتسل على سطح لها ، فرآها امرأة من أحسن النساء خلقا فتعجب داود من حسنها وحانت منها التفاتة فأبصرت ظل داود عليه السلام ، فنشرت شعرها فغطى بدنها كلها ، فزاد بذلك إعجابا بها ، فسأل عنها فقيل له : هى سابغ بنت شائع امرأة أوريا

ابن حنان وزوجها فى غزاة البلقاء مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود ، فكتب داود إلى ابن أخته أيوب صاحب بعث بلقاء أن ابعث أوريا إلى موضع كذا وكذا ، وقدمه على التابوت ، وكان المقدم على التابوت لايحل له أن يرجع إلى ورائه حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد ، فبعث به ففتح له ، فكتب إلى داود بذلك ، فكتب إليه داود أيضا أن ابعثه إلى غزوة كذا ، وكان رئيسها أشد منه بأسا ، فبعثه فقتل فى المرة الثانية ، فلما انقضت عدتها تزوجها داود فهى أم سليمان عليه السلام .

وقال آخرون : إنما سبب امتحانه أن نفسه حدثته أنه يطيق قطع يوم بغير مقارفه سيئة ، وعن الحسن أخبرنا شعيب بن محمد قال : إن داود عليه السلام جزأ الدهر أربعة أجزاء : يوما لنسائه ، ويوما لعبادة ربه ، ويوما لقضاء حوائج المسلمين ، ويوما لبنى إسرائيل يذاكرهم ويذاكرونه يسألهم ويسألونه . فلما كان يوم بنى إسرائيل ذكروا فقالوا : هل يأتى على الإنسان يوم لايصيب فيه ذنبا ، فأضمر داود فى نفسه أنه سيطيق ذلك ، فلما كان يوم عبادة ربه غلق أبوابه وأمر أن لايدخل عليه أحد وانكب على التوراة ، فبينما هو يقرأ إذا هو بحمامة من ذهب فيها كل شىء حسن قد وقفت بين يديه ، فأهوى إليها ليأخذها فطارت ، فوقعت غير بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها ، فما زال يتبعها حتى أشرف على امرأة تغتسل فأعجبه خلقها وحسنها ، فلما رأت ظله فى الأرض جللت جسدها بشعرها ، فزاده ذلك إعجابا بها ، وكان قد بعث زوجها فى بعض جيوشه ، فكتب إليه أن سر إلى مكان كذا وكذا ، مكانا إذا وصل إليه قتل ولم يرجع ، ففعل ، فأصيب ، فخطبها داود وتزوجها .

وقال بعضهم فى سبب ذلك كما أخبرنا قتادة عن الحسن بن محمد : إن داود عليه السلام قال لبنى إسرائيل حين ملك : والله لأعدلنّ فيكم ولم يستثن ، فابتلى .

وقال أبو بكر بن محمد بن عمر الوراق : كان سبب ذلك أن داود عليه السلام كان كثير العبادة ، فأعجب بعمله فقال : هل فى الأرض أحد يعمل عملى فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الله تعالى يقول لك : أعجبت بعبادتك والعجب يأكل العبادة! فإن أعجبت ثانيا وكلتك إلى نفسك ، فقال داود : يا رب كلنى إلى نفسى سنة ، فقال : إنها لكثير ، قال : فشهرا ، قال : فانه لكثير ، قال : فأسبوعا ، فقال : إنه لكثير ، قال فيوما ، قال : إنه لكثير ، قال فساعة ، قال : فشأنك بها ، قال : فوكل الحراس ولبس الصوف ودخل المحراب ووضع الزبور بين يديه ، فبينما هو فى نسكه وعبادته إذ وقع الطائر بين يديه وكان من أمر المرأة ما كان . قالوا : فلما دخل داود بامرأة أوريا لم يلبث إلا يسيرا حتى بعث الله تعالى ملكين فى صورة رجلين ، فطلبا أن يدخلا عليه ، فوجداه فى يوم عبادته ، فمنعهما الحراس أن يدخلا عليه ، فتسوروا المحراب وهو يصلى ، فما شعر إلا وهما بين يديه جالسان ، فذلك قوله تعالى (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم)

حين هجما عليه فى محرابه بغير إذنه (قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغَى بَعْضُنا على بعضٍ فاحْكُمْ بَيْنَنا بالحَقِّ ولا تُشْطِطْ) أى ولا تجر ولا تفرط (واهْدِنا إلى سَواءِ الصِّراطِ) أرشدنا إلى وسط الطريق المستقيم (إنَّ هذا أخى لَهُ تِسْعٌ وتِسْعونَ نَعْجَةً ولىَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ) وهذا من أحسن التعريض ، حيث كنى بالنعاج عن النساء ، والعرب تفعل ذلك كثيرا ، تورّى عن النساء وتكنى عنها بألقاب كالظباء والنعاج والبقر وهو كثير فاش فى أشعارهم (فقالَ أكْفِلْنِيها وعَزَّنى فى الخِطابِ) قال الضحاك : أعطينيها وتحول لى عنها واجعلها كفلى : أى نصيبى ، وعزنى فى الخطاب قال الضحاك : يقول إن تكلم كان أفصح منى ، وإن حارب كان أبطش منى ، فقالَ داود (لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إلى نِعاجِهِ) .

قال السدى بإسناده : إن أحدهما لما قال إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، قال داود للآخر : ما تقول ؟ قال : إن لى تسعا وتسعين نعجة وله نعجة واحدة ، فأريد أن آخذها منه وأكمل نعاجى مئة ، قال : وهو كاره ؟ قال نعم ، قال : إذا لاندعك ، وإن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا ، يعنى طرف الأنف وأصل الجبهة . فقال الرجل : يا داود أنت أحق بضرب هذا منى حيث كان لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة ، فلم تعرّضه للقتال حتى قتل وتزوجت امرأته ؟ فهذا وجه الآية ، إلا أن داود حكم قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر . قالوا : ثم إن داود نظر فلم ير أحدا ، فعرف ما قد وقع فيه ، فذلك قوله تعالى (وظَنَّ داوُدُ أنَّما فَتَنّاهُ) أى ابتليناه . وقال سعيد ابن جبير : إنما كانت فتنة داود بالنظر .

قال الأستاذ رحمه الله تعالى : ولم يتعمد داود عليه السلام النظر إلى المرأة ، و لكنه أعاد النظر إليها فصارت عليه وبالا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ ، فإنَّ لكَ الأُولى وعليْكَ الأخيرَةُ » :

فهذه أقاويل السلف الصالحين من أهل التفسير فى قصة داود عليه السلام .

وقد روى الحارث الأعور عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : من حدّث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص معتقدا صحته جلدته حدين ، لعظيم ما ارتكب وجليل ما احتقب : يعنى ما اكتسب من الوزر والإثم ، يرمى من قد رفع الله محله وأرسله من خلقه رحمة للعالمين وحجة للمجتهدين .

وقال القائلون بتنزيه المرسلين فى هذه القصة أن لاذنب إنما كان تمنى أن تكون له امرأة أوريا حلالا ، وحدث نفسه بذلك ، فاتفق له غزوة ، فأرسل أوريا فقدمه أمام الحرب فاستشهد ، فلما بلغه قتله لم يجزع عليه ولم يتوجع له كما كان يجزع على غيره من جنده

إذا هلك ووافق قتله مراده ، ثم تزوج امرأته ، فعاتبه الله على ذلك ، لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهى عظيمة عند الله . وقال بعضهم : كان ذنب داود أن أوريا كان قد خطب تلك المرأة ووطن نفسه عليها ، فلما غاب فى غزاته خطبها داود ، فتزوجت منه لجلالته ، فاغتم لذلك أوريا غما شديدا ، فعاتبه الله على ذلك حيث لم يترك هذه الواحدة لخاطبها الأول ، وقد كان عنده تسع وتسعون امرأة ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لايَبِعْ أحدُكُمْ على بَيْعِ أخيهِ وَلا يَخْطُبُ على خِطْبَةِ أخيهِ ». ومما يصدق ما ذكرناه ما قيل عن المفسرين المتقدمين ،مما أخبرنا به عقيل بن محمد الفقيه المعافرى عن زكريا عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنَّ داوُدَ عليهِ السَّلامُ حينَ نظرَ إلى المرأةِ قَطَعَ على بنى إسْرائيلَ بَعْثًا وأوْصَى صَاحِبَ البَلْقاءِ إذا حضرَ العَدُوُّ فقَدِّمْ فُلانا بينَ يَدَيِ التَّابوتِ ، وكانَ التَّابوتُ فى ذلكَ الزَّمانِ يُسْتَنْصَرُ بهِ وَمَنْ قُدِّمَ بينَ يدَيْهِ لَمْ يَرْجِعْ حَتَّى يُقْتَلَ أوْ يَنْهزِمَ الجَيْشُ عنهُ ، فقُتِلَ زَوْجُ المرأةِ ونزلَ المَلَكانِ ليَقُصَّا عليهِ قِصَّتَهُ ، ففَطِنَ داوُدُ وسجَدَ ، فمكثَ أربَعينَ ليْلَةً ساجِدًا يبكى حتى نَبَتَ الزَّرْعُ مِنْ دُموعِهِ حولَ رأسهِ وأكلَتِ الأرضُ جَبينَهُ وهو يقولُ فى سُجودِهِ : زَلَّ داوُدُ زَلَّةً هىَ أبعَدُ مِمَّا بينَ المَشْرقِ والمَغْرِبِ، رَبِّ إنْ لَمْ تَرْحَمْ ضَعْفَ داوُدَ وتغفِرْ لهُ ذَنْبَهُ جَعَلْتَ ذَنْبَهُ حَدِيثًا فى الخَلائقِ مِنْ بعدِهِ ، فجاء جِبريلُ عليهِ السَّلامُ بعْدَ أرْبَعينَ ليْلَةً فقالَ : ياداوُدُ إنَّ اللهَ تَعالى قَدْ غَفرَ لكَ الهمَّ الَّذى هَمَمْتَ بهِ. فقالَ داوُدُ : قَدْ علِمْتُ أنَّ اللهَ قادِرٌ على أنْ يَغْفِرَ الهَمَّ الَّذِى هَمَمْتُ بهِ ، وَقَدْ عرَفْتُ أنَّ اللهَ عَدْلٌ لايَحيفُ فكَيْفَ بِفُلانٍ : يعنى أُورِيا إذا جاءَ يَوْمَ القِيامَةِ فقال : يا رَبِّ دَمى الَّذى عند داوُدَ ؟ قالَ جِبريلُ : ما سأَلْتُ رَبَّكَ عَنْ ذلكَ ، ولئِنْ شئتَ لأفعَلَنَّ ، قالَ نعم ، فرَجَعَ جبريلُ عليهِ السَّلامُ وَسجَدَ داوُدُ فمكَثَ ما شاءَ اللهُ ثُمَّ نزَلَ ، فقالَ : قدْ سألْتُ اللهَ يا داوُدُ عنِ الَّذى أرْسلْتَنى فيهِ ، فقالَ اللهُ تَعالى : قُلْ لداوُدَ إنَّ اللهَ يَجمَعُكما يومَ القِيامَةِ فيقولُ لهُ : هَبْ لى دَمَكَ الَّذى عندَ داوُدَ ، فيقُولُ : هُوَ لكَ يا رَبِّ ، فأقُولُ إنَّ لكَ فى الجَنَّةِ ما شِئْتَ وَما اشْتَهَيْتَ عِوَضًا عنْ دمِكَ » .

أخبرنا ابن فتحويه بإسناده عن كعب الأخبار وعن وهب بن منبه قالوا جميعا: إن داود عليه السلام لما دخل عليه الملكان وقضى على نفسه تحولا فى صورتهما، فعرجا وهما يقولان: قضى الرجل على نفسه ، وعلم داود أنما فتناه ، فخر ساجدا أربعين يوما لايرفع رأسه

إلا لحاجة لا بد منها أو صلاة مكتوبة ، ثم يعود فيسجد تماما أربعين يوما ، لا يأكل ولا يشراب وهو يبكى حتى نبت العشب حول رأسه ، وهو ينادى ربه تعالى ويسأله التوبة ، وكان يقول فى سجوده : سبحان الملك الأعظم الذى يبتلى الخلائق بما يشاء ، سبحان خالق النور ، سبحان الحائل بين القلوب ؛ إلهى خليت بينى وبين عدوى إبليس فلم أتنبه لفتنته إذ زل بى قدمى ، سبحان خالق النور ؛ له تبكى الثكلى على ولدها إذا فقدته ، ويبكى داود على خطيئته ، سبحان خالق النور يغسل الثوب فيذهب درنه ووسخه ، والخطيئة لازمة لى لا تذهب عنى سبحان خالق النور ؛ إلهى لم أتعظ بما وعظت به غيرى، سبحان خالق النور ؛ إلهى أمرتنى أن أكون لليتيم كالأب الرحيم وللأرملة كالزوج العطوف فنسيت عهدك ، سبحان خالق النور ؛ إلهى خلقتنى وفى سائر علمك كان ما أنا صائر إليه ، سبحان خالق النور ؛ إلهى الويل لداود إذا كشف عنه الغطاء فيقال هذا داود الخاطئ ، سبحان خالق النور ؛ إلهى بأى عين أنظر إليك يوم القيامة،وإنما ينظر الظالمون من طرف خفى ، سبحان خالق النور ؛ إلهى بأى قدم أقوم أمامك يوم تزل أقدام الخاطئين يوم القيامة من سوء الحساب ، سبحان خالق النور ؛ إلهى مضت النجوم وكنت أعرفها بأسمائها فتؤنسنى فتركتنى والخطيئة لازمة لى ، سبحان خالق النور ؛ إلهى أمطرت السماء ولم تمطر حولى وأعشبت الأرض ولم تعشب حولى بخطيئتى ، سبحان خالق النور ؛ إلهى أنا الذى لا أطيق حر شمسك فكيف أطيق حر نارك ، سبحان خالق النور ؛ إلهى أنا الذى لا أطيق صوت رعدك فكيف أطيق صوت جهنم ، سبحان خالق النور ؛ إلهى كنت تستر الخاطئين بخطاياهم وأنت شاهد حيث كانوا ، سبحان خالق النور ؛ إلهى رقّ القلب وجمدت العينان من مخافة الحريق على جسدى ، سبحان خالق النور ؛ إلهى الطير تسبح لك وأنا العبد الخاطىء الضعيف الذى لم أرع وصيتك ، سبحان خالق النور ؛ إلهى الويل لداود من الذنب العظيم الذى أصاب ولا علم له بذلك ، سبحان خالق النور ؛ إلهى أنا المستغيث وأنت المغيث فمن يدعو المغيث إلا المستغيث، سبحان خالق النور ؛ إلهى أسألك بآبائى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب أن تعطينى سؤالى ، سبحان خالق النور ؛ اللهم برحمتك اغفر لى ذنوبى ولا تباعدنى من رحمتك لهوانى ، فإنك أرحم الراحمين ، سبحان خالق النور ؛ إلهى إنى أعوذ بك من دعوة لا تستجاب وصلاة لا تقبل وذنب لايغفر وعذاب لايفتر ، سبحان خالق النور ؛ إلهى إنى أعوذ بك وبنور وجهك الكريم من ذنوبى التى أوبقتنى سبحان خالق النور ؛ إلهى فررت إليك من ذنوبى واعترفت بخطيئتى فلا تجعلنى من القانطين ولا تخزنى يوم يبعثون ، سبحان خالق النور ؛ إلهى فرغ الحنين وفرغت الدموع وتناثر الدود من ركبتى ، وخطيئتى ألزم لى من جلدى ، سبحان خالق النور . قالوا : فأتاه النداء : أجائع أنت فتطعم ؟ أو ظمآن أنت فتسقى ؟ أو مظلوم أنت فتنصر ؟ ولم يجبه فى ذكر خطيئته بشىء ، فصاح

صيحة فهاج منها ما حوله ثم نادى : : يا ربى الذنب الذى أصبته ، فنودى : ياداود ارفع رأسك فقد غفرت لك ، فلم يرفع رأسه حتى أتاه جبريل عليه السلام فرفعه . قال وهب ابن منبه : إن داود عليه السلام أتاه نداء : إنى قد غفرت لك ، فقال : يارب كيف وأنت لا تظلم أحدا ؟ فقال : اذهب إلى قبر أوريا فناده وأنا أسمعه نداءك فتحلل منه ، قال : فانطلق داود عليه السلام حتى أتى قبره وقد لبس المسوح ، فجلس عند قبره ثم ناداه : يا أوريا ، فقال : لبيك ، من هذا الذى قطع علىّ لذتى وأيقظنى ؟ قال : أنا داود قال : ما جاء بك يانبي الله ؟ قال جئت أتحلل مما كان منى إليك ، قال : وما كان منك إلى ؟ قال : عرّضتك للقتل ، قال : عرضتنى للجنة وأنت فى حل ، فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ألم تعلم أنى حكم عدل لا أقضى إلابالحق ، ألا أعلمته أنك تزوجت امرأته ؟ قال : فانطلق داود إليه فناداه يا أوريا ، فأجابه فقال : من هذا الذى قطع على لذتى ؟ قال : أنا داود . قال يا نبى الله ما حاجتك أليس قد عفوت عنكَ ؟ قال نعم لكن أنا ما فعلت بك ذلك إلا لمكان امرأتك ، وإنى قد تزوجتها ، قال : فسكت أوريا ولم يجبه ، فدعاه فلم يجبه ، فقام عند قبره وحثا التراب على رأسه ثم نادى : الويل ، ثم الويل لداود ، سبحان خالق النور ، الويل لداود ، ثم الويل الطويل لداود ، سبحان خالق النور ، الويل لداود ثم الويل الطويل له إذا نصبت الموازين القسط ليوم القيامة ، سبحان خالق النور ، الويل لداود ثم الويل الدائم له حين يؤخذ برقبته ثم يدفع إلى المظلوم ، سبحان خالق النور ، الويل لداود ثم الويل الطويل له حين يسحب على وجهه مع الخاطئين إلى النار ، سبحان خالق النور ، الويل لداود ثم الويل الطويل له حين تقربه الزبانية مع الظالمين إلى النار ، سبحان خالق النور . قال : فأتاه النداء من السماء : يا داود قد غفرت لك ذنبك ورحمتك ورثيت لطول مكانك واستجبت دعاءك وأقلت عثرتك ، ، قال : يارب كيف لى أن تعفو عنى وصاحبى لم يعف عنى ؟ قال : ياداود وإن يعف أو لم يعف فأنا أعطيه يوم القيامة مالم تر عيناه ولم تسمع أذناه فأقول له قد رضيت عبدى ؟ فيقول : من أين هذا ولم يبلغه عملى ؟ فأقول : هذا عوض من أجل عبدى داود ، فأستوهبك منه فيهبك لى ، فقال داود : يارب الآن قد عرفت أنك قد غفرت لى ، فذلك قوله عز وجل (فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ) . وروى أبو معشر عن محمد بن كعب ومحمد بن قيس قالا فى قوله تعالى (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب : أن أول من يشرب الكأس يوم القيامة داود عليه السلام .

أخبرنا أبو الحسن بن محمد حدثنا محمد بن على أخبرنا بكر بن أحمد بن معقل أخبرنا عمر بن محمد الشرق ، قال النصر الكعبى قال : حدثنا أبو سعيد عبد الله المزنى قال :

حدثنا محمد بن المنكدر عن محمد بن عبد الرحمن بن عوف ، حدثنى أبو سعيد الخدرى قال « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله : إنى رأيت الليلة فى منامى كأنى تحت شجرة والشجرة تقرأ سورة صٓ ، فلما بلغت الشجرة إلى السجدة سجدت فسمعتها تقول فى سجودها : اللهم اكتب لى بها أجرا ، واحطط عنى بها وزرا ، وارزقنى بها شكرا ، وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود عليه السلام ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفسَجَدْتَ أنْتَ يا أبا سَعيد ؟ قال : قلت : لا يا رسول الله ، فقال : أنْتَ أحقُّ بالسَّجْدَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ السجدة ، فسجد ثم قال مثل قول الشجرة » .

قال وهب بن منبه : إن داود عليه السلام لما تاب الله عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنة لاترقأ له دمعة ليلا ولا نهارا ، وكان أصاب الخطيئة وهو ابن سبعين سنة ، وقسم الدهر بعد الخطيئة على أربعة أقسام : يعنى أربعة أيام ، فجعل يوما للقضاء بين الناس ، ويوما لنسائه ، ويوما يسبح فى الفيافى والجبال والقفار والسواحل ، ويوما يخلو فى داره وفيها أربعة آلاف محراب ، فيجتمع إليه الرهبان ، فينوح بعضهم على بعض ويساعدونه على ذلك ، فإذا كان يوم سياحته يخرج إلى الفيافى فيرفع صوته كالمزامير ويبكى ، فيبكى معه الشجر والمدر والطير والوحش حتى يسيل من دموعه مثل الأنهار ، ثم يجىء إلى الجبال فيرفع صوته كالمزامير فيبكى وتبكى معه الجبال والحجارة والدواب والطير حتى تسيل الأودية من بكائهم ، ثم يجىء إلى الساحل فيرفع صوته كالمزامير ، فيبكى وتبكى معه الحيتان ودوابّ البحر والطير والماء والسباع ، فإذا أمسى رجع ، فإذا كان يوم نوحه على نفسه نادى مناديه : إن اليوم يوم نوح داود على نفسه فليحضر من يساعده . قال : فيدخل الدار التى فيها المحاريب فيبسط له ثلاثة فرش من مسوح حشوها الليف ليجلس عليها ، وتجىء الرهبان أربعة آلاف راهب ، عليهم البرانس وعليهم المسوح وفى أيديهم العصى ، ثم يجلسون فى تلك المحاريب ، ثم يرفع صوته بالبكاء والنوح ، فيرفع الرهبان معه أصواتهم ، فلا يزال يبكى حتى يغرق الفرش من دموعه ، ويقع داود فيها مثل الفرخ يضطرب ، فيجىء ابنه سليمان عليه السلام فيحمله ، فيأخذ داود من تلك الدموع بكفه ، ثم يمسح بها وجهه ويقول : يا رب اغفر لى ما ترى ، فلو عدل بكاء داود ودموعه ببكاء أهل الأرض ودموعهم لعدلها .

أخبرنا ابن فتحويه عن عثمان بن أبى عاتكة أنه قال : كان من دعاء داود عليه السلام : سبحانك إلهى إذا ذكرت خطيئتى ضاقت على الأرض برحبها ، وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلىّ روحى ، إلهى أتيت أطباء عبادك ليداوونى فكلهم عليك دلونى . وقال صلى الله عليه وسلم « خَدّ الدَّمْعُ فى وَجْهِ دَاوُدَ مِثْلَ خَدِّ المَاءِ فى الأرْضِ » .

أخبرنا ابن فتحويه عن الحسن بن عبد الله القرشي قال : لما أصاب داود الخطيئة فزع إلى العبادة ، فأتى راهبا فى قلة جبل فناداه بصوت عال فلم يجبه ، فلما أكثر عليه الصوت قال الراهب : من هذا الذى ينادينى ؟ قال : أنا داود نبى الله ، قال صاحب القصور الحسنة الحصينة والخيول المسوَّمة والنساء والشهوات : لئن نلت الجنة بهذا لأنت أنت ، قال داود : فمن أنت ؟ قال : أنا راهب راغب منزو مترقب ، قال : فمن أنيسك ومن جليسك ؟ قال : اصعد تره إن كنت تريد ذلك ، قال : فتخلل داود الجبل ورقى إلى القلة فإذا هو بميت مسجًّى ، فقال له : هذا أنيسك هذا جليسك ؟ قال نعم ، قال : وما هذا ؟ قال : تلك قصته مكتوبة فى لوح من نحاس عند رأسه ، فقرأ داود الكتاب فإذا فيه : أنا فلان بن فلان ملك الملوك عشت ألف عام وبنيت ألف قصر وألف مدينة ، وهزمت ألف عسكر ، وتزوجت ألف امرأة ، وافتضضت ألف بكر ، فبينما أنا فى ملكى إذ أتانى ملك الموت فأخذنى وأخرجنى مما كنت فيه ، فهذا التراب فراشى والدود جيرانى ، قال : فخر داود عليه السلام مغشيا عليه .

وعن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كانَ النَّاسُ يَعُودُونَ داوُدَ عليهِ السَّلامُ فيَظُنُّونَ أنَّهُ مَرِيضٌ وَما بهِ إلاَّ الحَياءُ والخَوْفُ مِنَ اللهِ تعالى » .

قال وهب بن منبه : لما تاب الله على داود كان يبدأ إذا دعا فيستغفر للخاطئين قبل نفسه فيقول : اللهم اغفر للخاطئين فعساك أن تغفر لداود معهم .

وعن قتادة عن الحسن قال : كان داود بعد الخطيئة لايجالس إلا الخاطئين ، ثم يقول : تعالوا إلى داود الخاطئ ، ولا يشرب شرابا إلا وهو ممزوج بدموع عينيه ، وكان يجعل خبز الشعير اليابس فى قصعته ، ولا يزال يبكى حتى يبتل بدموعه ، وكان يذر عليه الملح والرماد فيأكل ويقول : هذا أكل الخاطئين . قال : وكان داود عليه السلام قبل الخطيئة يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر ، فلما كان من خطيئته ما كان صام الدهر كله ، وقام الليل كله .

وقال وهب : إن داود عليه السلام لما تاب الله عليه قال : يا رب أغفرت لى ؟ قال نعم ؟ قال : فكيف لى أن لاأنسى خطيئتى فأستغفر منها لى وللخاطئين إلى يوم القيامة ؟ قال : فوسم الله خطيئته فى يده اليمنى ، فما رفع بها طعاما ولا شرابا إلا بكى إذا رآها ، وما قام خطيبا فى الناس إلا بسط راحته فاستقبل الناس ليروا وسم الخطيئة .

وأخبرنا عبد الله بن حامد عن ثابت قال : كان داود عليه السلام إذا ذكر عقاب الله تعالى تخلعت أوصاله ولا يشدها إلا الأنين ، فإذا ذكر رحمة الله تعالى تراجعت .

وعن أبى عبد الله البجلىّ قال : ما رفع داود بعد الخطيئة رأسه إلى السماء تطُّ حتى مات ، وصلى الله على نبينا محمد وعليه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

باب فى ذكر خروج ابن داود على أبيه وما كان من أمرهما

قال وهب وغيره من أهل الكتب : إن داود عليه السلام لم يزل قائما بالملك بعد طالوت إلى أن كان من أمره وأمر امرأة أوريا ما كان ، فلما واقع الخطيئة واشتغل بالتوبة منها استخفت به بنو إسرائيل واستضعفوه ، واجتمع أهل الزيغ من بنى إسرائيل وذهبوا إلى ابن لداود من ابنة طالوت يقال له شالون وقيل إيشا ، وقالوا له : قد كبر أبوك واشتغل بخطيئته وتوبته وضاعت حقوق الناس وضعف أمر الملك، فلم يزالوا به حتى بايعوه وخلعوا داود وعدلوا عنه ، ودعا هذا الابن إلى نفسه ، فلما رأى ذلك داود خرج من بين أظهرهم مع ابن أخ له يقال له ثواب وتوغل فى الجبال ، فأشار قومه على ابنه أن يقتل أباه ، فلما بلغ ذلك داود أرسل إليه رفيقه وقال له : قل له هل سمعت بابن قتل أباه ؟ فقال له الابن : وهل سمعت أنت بنبى أذنب فلم تقبل توبته ؟ فقال له الرسول : إن كان الله تعالى قد أذن لك فى هلاكه فلا تباشره أنت فإنه لايجمل فى الآخرة حدوثه منك ، فقبل منه ذلك فكف عن قتل أبيه داود وبقى ابنه ملكا سنتين . فلما تاب الله على داود صارت الناس تأتيه ، فحارب ابنه فهزمه ، ووجه فى طلبه قائدا من قواده ، وأوصاه أن يتوقى حتفه ويتلطف فى أسره ، فطلبه القائد وهو منهزم فاضطره إلى شجرة فربض بها ، وكان الغلام ذا جمة فتعلق بغصن من أغصانها بشعره فحبسه ، ولحقه القائد فقتله ، مخالفا لأمر داود عليه السلام فحزن عليه داود حزنا شديدا ، وتنكر للقائد وكان له بأس شديد فى ملاقاة العدو ، فكره داود أن يقتله فتركه لأجل مجاهدة العدو ، فلما حضر داود الموت أوصى ولده سليمان عليهما السلام بقتل القائد فقتله حين فرغ من دفن أبيه ، وكانت مدة داود من يوم خرج من ملكه وانقطع عنه الوحى إلى أن قبل الله توبته ورد عليه ملكه ورجع إلى قومه سنتين .

باب فى قصة أصحاب السبت

قال الله تعالى (واسألهُمْ عَنِ القَرْيَةِ الَّتى كانَتْ حاضِرَةَ البَحْرِ إذْ يَعْدُونَ فى السَّبْتِ) الآية .

قال ابن عباس ووهب بن منبه : إن قوما من بنى إسرائيل سكنوا قرية على شاطئ البحر بين مصر ومدين ؟ يقال لها أيلة حرم الله عليهم صيد الحيتان وسائر العمل يوم السبت ، وأمرهم أن يتفرغوا لعبادته ذلك اليوم ، وذلك فى زمان داود عليه السلام، فكان إذا دخل يوم السبت لم يبق حوت فى البحر إلا اجتمع هناك ويخرجن من الماء خراطيمهن حتى لايرى الماء من كثرتهن ، حتى إذا مضى السبت تفرقن ولزمن مقر البحر لايرى منهن إلا القليل ، فذلك قوله تعالى (إذْ تأتيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لايَسْبِتونَ لاتأتيهِمْ كذلكَ نَبْلُوهُمْ) الآية .

سمعت أبا القاسم قال : سمعت أبى يقول : سئل الحسن بن الفضيل : هل تجد فى كتاب الله الحلال لايأتيك إلا قوتا، والحرام يأتيك جزافا ؟ قال: نعم فى قصة داود عليه السلام وأهل أيلة إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعا ويوم لايسبتون لاتأتيهم، قال : فعمد رجال منهم فحفروا الحياض حول البحر وشرعوا إليها من الأنهار ، فإذا كانت عشية الجمعة فتحوا تلك الأنهار فيقبل الموج بالحيتان إلى الحياض فلا تطيق الخروج منها لبعد عمقها وقلة الماء فإذا كان يوم الأحد أخذوها ، وقيل إنهم كانوا ينصبون الحبال والشخوص يوم الجمعة ويخرجونها يوم الأحد ، قال : وكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت كثيرا ، وفى غير يوم السبت لايأتيهم حوت واحد ، فأخذ رجل منهم حوتا وربط فى ذَنَبه خيطا ثم ربطه إلى خشبة فى الساحل ، ثم تركه فى الماء إلى يوم الأحد ، فأخذه فسواه ، فوجد جار له ريح الحوت ، فقال له : يا فلان إنى أجد فى بيتك ريح الحوت فأنكره ، فاطلع الجار فى تنوره فإذا هو فى بيته فقال له : إنى أرى الله سيعذبك . فلما رأى العذاب لم يأخذه أخذ فى السبت الآخر حوتين ، فلما رأى العذاب لاينزل عليهم أخذوا وملحوا وأكلوا وباعوا فأثروا وكثرت أموالهم ولم تنزل عليهم عقوبة ، فقست قلوبهم وتجبروا وتجرءوا على الذنب وقالوا: ما نرى السبت إلاقد أُحِل لنا وإنما حرم ذلك على آبائنا لأنهم قتلوا أنبياءهم. فلما فعلوا ذلك صار أهل تلك القرية وكانوا نحوا من سبعين ألفا ثلاثة أصناف : صنف أمسك ونهى ، وصنف أمسك ولم ينه ، وصنف انتهكوا الحرمة ، فكان الذين نهوا اثنى عشر ألفا . فلما أبى المجرمون قبول النصيحة ، قال الناهون والممسكون : والله لنخرجن من القرية ولا نساكنكم فى قرية واحدة ، ثم قسموا القرية بينهم بجدار ومكثوا على ذلك سنين ، فلعنهم الله على لسان داود عليه السلام وغضب عليهم لإصرارهم على المعصية ، فخرج الناهون ذات يوم من بابهم والمجرمون لم يفتحوا بابهم ولا خرج منهم أحد . فلما أبطئوا تسوَّروا عليهم الحائط فإذا هم جميعهم قد مسخوا قردة ، فذلك قوله تعالى (فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ) أى شديد (بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ، فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) أى صاغرين ، نظيره قوله تعالى (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ) يعنى عصاة أهل أيلة (وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ) يعنى كفار أصحاب المائدة (ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) . قالوا : فلما دخلوا عليهم ورأوا أنهم قد مسخوا عرفت القردة أنسباءهم من الإنس ، ولم تعرف الإنس أنسباءهم من القردة ، فجعل القرد يأتى نسيبه من الإنس فيشم ثيابه ويبكى ، فيقول له الرجل : ألم ننهكم ؟ فيقول القرد برأسه نعم،

قال قتادة : صارت الشباب قردة والشيوخ خنازير ، فما نجا إلا الذين نهوا ، وهلك سائرهم ، ثم خرج الممسوخون من المدينة وهاموا على وجوههم متحيرين ومكثوا كذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا ، وكذلك لم يبق قوم مسخوا أكثر من ثلاثة أيام ولم يتوالدوا ولم يتناسلوا ، ثم بعث الله عليهم ريحا ومطرا فقذفهم فى البحر ، فإذا كان يوم القيامة أعادهم الله تعالى إلى صورهم البشرية فيدخلهم النار .

وروى أبو نصر عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أَهْلَكَ اللهُ قَوْمًا ولا قَرْنًا ولا أُمَّةً بعذابٍ مِنَ السَّماءِ بعْدَ ما أنزَلَ اللهُ التَّوْرَاةَ على وَجْهِ الأَرْضِ غيرَ أهْلِ القَرْيَةِ الَّتى كانَتْ حاضِرَةَ البَحْرِ الَّذينَ مُسِخوا قِرَدَةً ، أَلَمْ تسْمَعْ قَوْلَ اللهِ تَعالى (وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنا القُرُونَ الأُولى) . . . الآية » .

باب فى قصة داود وسليمان عليهما السلام فى الحرث

قال الله تعالى (وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إذْ يَحْكُمانِ فى الحَرْثِ إذْ نَفَشَتْ فيهِ غَنَمُ القَوْمِ ، وكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدينَ) .

قال ابن عباس وقتادة : كان الحرث زرعا . وقال ابن مسعود وشريح : كان الحرث كرما قد تدلت عناقيده ، إذ نفشت فيه غنم القوم : رعته ليلا فأفسدته ، والنفش بالليل والهمل بالنهار ، وهما جميعا الرعى بلا راع ، وكنا لحكمهم شاهدين لا يخفى علينا منه شىء .

قال ابن عباس وقتادة : إن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب غنم والآخر صاحب حرث ، فقال صاحب الزرع : إن هذا انفلتت غنمه ليلا فوقعت فى حرثى فلم تبق منه شيئا . قال له داود : اذهب فإن الغنم لك ، فأعطاه رقاب الغنم بالحرث ، فمرا على سليمان فقال لهما : كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه ؛ فقال سليمان : لو وليت أمركما لقضيت بغير هذا ، فأخبرا بذلك داود ، فدعاه فقال له : ، كيف كنت تصنع فى القضاء بينهما ؟ قال : كنت أدفع الغنم إلى صاحب الحرث سنة فيكون له نسلها وصوفها ومنافعها ، ويبذر صاحب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم ، فإذا كان العام المقبل وصار الحرث كهيئته يوم أكل فيدفع إلى أهله ويأخذ صاحب الغنم غنمه .

وقال ابن مسعود وشريح : إن راعيا نزل ذات ليلة بجنب كرم ، فدخلت الأغنام الكرم وهو لايشعر ، فأكلت القضبان وأفسدت الكرم ، فصار صاحب الكرم من الغد إلى داود ، فقضى بالأغنام لصاحب الكرم لأنه لم يكن بين ثمن الأغنام وثمن الكرم تفاوت قال : فمرا بسليمان وهو ابن إحدى عشرة سنة ، فقال لهما ماقضى بينكما داود ؟ فقصا عليه القصة ، فقال سليمان : غير هذا أرفق بالفريقين فعادا إلى داود ، فأخبراه بذلك ، فدعا

سليمان وقال له : بحق النبوة والأبوة إلا ما أخبرتنى بالذى هو أرفق بالفريقين ؟ فقال سليمان : تسلم الأغنام إلى صاحب الكرم لينتفع بنسلها وصوفها ومنافعها ، ، ويعمل الراعى فى إصلاح الكرم إلى أن يعود كهيئته ، ثم يتسلمه صاحبه وترد الأغنام إلى صاحبها ، فقال داود : القضاء ما قضيت وحكم بذلك ، فذلك قوله تعالى (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً) قال الحسن : كان الحكم ما قضى به سليمان ولم يعنف الله داود فى حكمه ، قال الأستاذ . وهذا يدل على أن كل مجتهد مصيب .

باب فى قصة استخلاف داود ابنه سليمان عليهما السلام وذكر بدء أمر الخاتم

قال أبو هريرة رضى الله عنه : أنزل الله تعالى كتابا من السماء على داود عليه السلام مختوما بخاتم من ذهب فيه ثلاث عشرة مسئلة ، فأوحى الله تعالى إليه أن سل عنها ابنك سليمان ، فإن هو أخرجها فهو الخليفة من بعدك . قال : فدعا داود عليه السلام سبعين قسا وسبعين حبرا ، وأجلس سليمان بين أيديهم وقال : يا بنى إن الله تعالى أنزل علىّ كتابا من السماء فيه مسائل ، وأمرنى أن أسألك عنها ، فإن أخرجتها فأنت الخليفة من بعدى ، فقال سليمان : ليسأل نبى الله عما بدا له وما توفيقى إلا بالله ، قال داود : يا بنى ما أقربُ الأشياء وما أبعدُها ؟ وما آنسُ الأشياء وما أوحشها ؟ وما أحسنُ الأشياء وما أقبحها ؟ وما أقل الأشياء وما أكثرها ؟ وما القائمان وما الساعيان ؟ وما المشتركان وما المتباغضان ؟ وما الأمر الذى إذا ركبه الرجل حمد آخره ؟ وما الأمر الذى إذا ركبه الرجل ذم آخره ؟

فقال سليمان عليه السلام : أما أقرب الأشياء فالآخرة ، وأما أبعد الأشياء فمافاتك من الدنيا ، وأما آنس الأشياء فجسد فيه روح ، وأما أوحش الأشياء فجسد لاروح فيه ، وأما أحسن الأشياء فالإيمان بعد الكفر ، وأما أقبح الأشياء فالكفر بعد الإيمان ، وأما أقل الأشياء فاليقين ، وأما أكثر الأشياء فالشك ، وأما القائمان فالسماء والأرض ، وأما الساعيان فالشمس والقمر ، وأما المشتركان فالليل والنهار ، وأما المتباغضان فالموت والحياة ، وأما الأمر الذى إذا ركبه الرجل حمد آخره فالحلم عند الغضب ، وأما الأمر الذى إذا ركبه الرجل ذم آخره فالحدة عند الغضب . قال : ففكوا الخاتم فإذا جواب المسائل سواء على ما نزل من السماء ، فقال القسيسون والرهبان : لانرضى حتى نسأله عن مسئلة فإن أخرجها فهو الخليفة من بعدك ، فقال سليمان عليه السلام : سلونى وما توفيقى إلا بالله . فقالوا له : ما الشىء الذى إذا صلح صلح كل شىء من الإنسان ، وإذا فسد فسد كل شىء من الإنسان ؟ فقال : هو القلب . فقام داود فصعد المنبر ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : إن الله تعالى أمرنى أن أستخلف عليكم سليمان ، قال : فضجت بنو إسرائيل وقالوا : غلام حدث يستخلف علينا وفينا من هو أفضل منه وأعلم ؟ فبلغ ذلك داود عليه السلام ، فدعا رؤساء أسباط بنى إسرائيل وقال

لهم : إنه قد بلغنى مقالتكم فأرونى عصيكم ، فأىّ عصا أثمرت فإن صاحبها ولى هذا الأمر بعدى ، قالوا : قد رضينا . فجاءوا بعصيهم فقال لهم داود : ليكتب كل رجل منكم اسمه على عصاه ، فكتبوا ، ثم جاء سليمان بعصاه فكتب عليها اسمه ثم أدخلت بيتا وأغلق عليها الباب وسد بالأقفال وحرسه رءوس أسباط بنى إسرائيل ، فلما أصبح صلى بهم الغداة ، ثم أقبل ففتح الباب فأخرج عصيهم كما هى ، وأما عصا سليمان فقد أورقت وأثمرت ؛ قالوا : فسلموا الأمر فى ذلك لداود عليه السلام ، فلما رأى ذلك داود حمد الله وحمل سليمان خلفه ثم سار به فى بنى إسرائيل فقال : إن هذا خليفتى عليكم من بعدى .

قال وهب بن منبه : لما استخلف داود ابنه سليمان عليهما السلام وعظه فقال : يا بُنىَّ إياك والهزل فإن نفعه قليل ، ويهيج العداوة بين الإخوان ؛ وإياك والغضب فإن الغضب يستخفّ بصاحبه ؛ وعليك بتقوى الله وطاعته فإنهما يغلبان كل شىء ؛ وإياك وكثرة الغيرة على أهلك من غير شىء ، فإن ذلك يورث سوء الظن بالناس وإن كانوا براء . اقطع طمعك عن الناس فإن ذلك هو الغنى ؛ وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر ، وإياك وما يعتذر منه من القول والفعل ، وعوّد نفسك ولسانك الصدق ، والزم الإحسان ؛ فإن استطعت أن يكون يومك خيرا من أمسك فافعل ، وصلّ صلاة مودع ؛ ولا تجالس السفهاء ، ولا تردّ على عالم ، ولا تماره فى الدين ؛ وإذا غضبت فألصق نفسك بالأرض ، وتحوّل من مكانك ، وارج رحمة الله ، فإنها وسعت كل شىء .

قالوا : ثم إن سليمان بعد أن استخلف أخفى أمره وتزوج بامرأة واستتر عن الناس وأقبل على العلم والعبادة ، ثم إن امرأته قالت له ذات يوم : بأبى أنت وأمى ما أكمل خصالك وأطيب رائحتك ، ولا أعلم لك خصلة أكرهها إلا أنك فى مؤنة أبى ، فلو دخلت السوق فتعرّضت لرزق الله لرجوت أن لا يخيبك الله . فقال سليمان : إنى ما عملت عملا قط ولا أحسنه ، ثم إنه دخل السوق صبيحة يومه ذلك فلم يقدر على شىء ، فرجع فأخبرها ، فقالت : غدا يكون إن شاء الله . فلما كان اليوم الثانى مضى حتى انتهى إلى ساحل البحر ، فإذا هو بصياد فقال له : هل لك أن أعينك وتعطينى شيئا ؟ قال نعم . قال : فأعانه ، فلما فرغ أعطاه الصياد سمكتين ، فأخذهما وحمد الله تعالى ، ثم إنه شق بطن إحداهما فإذا هو بخاتم فى بطنها ، فأخذه وصرّه فى ثوبه وحمد الله عز وجل ، وأخذ السمكتين وجاء بهما إلى منزله ففرحت امرأته بذلك ، فأخرج الخاتم ولبسه فى أصبعه ، فعكفت عليه الطير والريح ووقع عليه بهاء الملك ، ثم لم يلبث أبوه أن مات ، فلما مات حمل المرأة وأباها إلى اصطخر ، والله أعلم .

باب فى ذكر وفاة داود عليه السلام

قال الشيخ أبو يزيد : سمعت الشيخ أبا عمرو الفارابى يروى أن داود عليه السلام كانت له وصيفة تغلق الأبواب كل ليلة وتأتيه بالمفاتيح ثم تنام ويقبل داود على ورده فى العبادة ، فأغلقت ذات ليلة الأبواب وجاءت بالمفاتيح ثم ذهبت لتنام ، فرأت رجلا قائما فى وسط الدار ، فقالت له : ما أدخلك هذه الدار فإن صاحبها رجل غيور فخذ حذرك ، فقال لها : أنا الذى أدخل الدور على الملوك بغير إذنهم . قال فلما سمع داود ذلك وكان فى المحراب واقفا يصلى فزع واضطرب ، وقال لها : علىّ به ، فأتاه ، فقال له داود : ما أدخلك هذه الدار فى هذا الوقت بغير إذن ؟ فقال له : أنا الذى أدخل الدور على الملوك بغير إذن ، فقال له: إذن فأنت ملك الموت ؟ قال نعم ، قال : : أفجئت داعيا أم ناعيا ؟ فقال : بل ناعيا، فقال داود عليه السلام: فهلا أرسلت إلىّ قبل ذلك وآذنتنى لأستعدّ للموت ؟ فقال: كم أرسلت إليك فلم تتنبه ، قال : ومن كانت رسلك التى أرسلت إلىّ ؟ فقال يا داود : أين أبوك إيشا وأين أمك وأين أخوك وأين جارك أين قهارمتك أين فلان وفلان ؟ فقال : ماتوا كلهم ، فقال : أما علمت أنهم رسلى إليك وأن النوبة تبلغك .

قال الأستاذ رضى الله عنه : وفى هذا المعنى قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : لايزال المرء ينعى أخاه حتى يكونه وقد يرجو الرجاء فيحول الموت دونه ، وقد نظمه بعض الشعراء فقال :

وإذا حملت إلى القبور جنازة ‏ فاعلم بأنك بعدها محمول
وإذا وليت أمور قوم مدة ‏ فاعلم بأنك عنهم معزول

وقال أهل التاريخ : كان عمر داود عليه السلام مئة سنة ، وكانت مدة ملكه أربعين سنة ، وقد مضى فى قصة آدم ما وهب لداود من عمره عليهما السلام .

مجلس فى قصة سليمان عليه السلام وما يتعلق به

قال الله تعالى (وَوَرِثَ سُلَيمانُ داوُدَ) يعنى نبوّته وحكمته وعلمه وملكه دون سائر أولاده ، وكان لداود عليه السلام تسعة عشر ابنا .

وقال مقاتل : كان سليمان عليه السلام أعظم ملكا من أبيه داود وأقضى منه ، وكان داود عليه السلام أشد تعبدا من ابنه سليمان ، وكان سليمان حين آتاه الله الملك والحكمة ابن ثلاث عشرة سنة ، وكان ملكه ما بين الشام إلى إصطخر ، وقيل إنه ملك الأرض كلها .

وروى مجاهد عن ابن عباس قال : ملك الأرض أربعة : مؤمنان وكافران ، فأما المؤمنان فسليمان عليه السلام وذو القرنين . وأما الكافران : فالنمروذ بن كنعان وبختنصر .

باب فى صفة حليته عليه السلام

قال وهب بن منبه وكعب الأحبار : كان سليمان أبيض جسيما وضيئا جميلا كثير الشعر يلبس من الثياب البيض ، وكان خاشعا متواضعا يخالط المساكين ويجالسهم ويقول : مسكين جالس مسكينا . وكان أبوه فى أيام ملكه يشاوره فى كثير من أموره مع صغر سنه ووفور عقله وعلمه ، صلى الله على نبينا وعليهم وسلم .

باب فيما خص الله به نبيه سليمان عليه السلام حين ملكه من أنواع المناقب والمواهب ، وغير ذلك

قال الله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ) وقال الله تعالى إخبارا عنه (رَبِّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) فأجاب الله دعاءه وأكرمه بخصائص لم يكرم بها أحداً من خلقه قبله ولا بعده ؛ فمنها تسخير الله له الريح كما قال عزّ وجلّ (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ) : أى أراد، بلغة حمير.

قال محمد بن إسحاق وغيره من أصحاب الأخبار : كان سليمان عليه السلام رجلا غَزَّاءً لايكاد يقعد عن الغزو ، وكان لايسمع بملك فى ناحية من الأرض إلا أتاه حتى يذله ويقهره ، وكان إذا أراد الغزو أمر بمعسكره فيضرب له خشب ، ثم ينصب له على الخشب سرير ثم يحمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب كلها ، حتى إذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح فدخلت تحت تلك الخشب فحملتها حتى إذا أقلتها أمر الرخاء فمرت به شهرا فى غدوته وشهرا فى روحته إلى حيث أراد كما قال تعالى (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ). وقال ابن إسحاق: ذُكر لى أن رجلا نزل منزلا من ناحية الدجلة فوجد فيه كتابا مكتوبا كتبه بعض أصحاب سليمان ، إما من الجن أو من الإنس : نحن نزلناه وما بنيناه ، ومبنيا وجدناه ، غدونا من إصطخر فقلناه ، ونحن رائحون إن شاء الله تعالى فبائتون الشام . قال : وكان فيما بلغنى تمر بمعسكره الريح الرخاء تهوى به إلى حيث أراد وإنها لتمر بالمزرعة فلا تحركها . وأخبرنا الحسن بن محمد بن فنجويه بإسناده عن وهب بن منبه عن أبيه قال : إن سليمان عليه السلام ركب الريح يوما فمرت بحراث ، فنظر إليها الحراث وقال : لقد أوتى آل داود ملكا عظيما ؛ فحملت الريح كلامه وألقته فى أذن سليمان عليه السلام ، فنزل حتى أتى الحراث وقال له : إنى سمعت قولك ، وإنما نزلت إليك لئلا تتمنى ما لاتقدر عليه ، إن تسبيحة واحدة يقبلها الله منك خير مما أوتى آل داود، فقال له الحراث أذهب الله همك كما أذهبت همى .

وقال مقاتل : نسجت الشياطين لسليمان عليه السلام بساطا فرسخا فى فرسخ ذهبا فى إبريسم ، وكان يوضع له منبر من الذهب فى وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسى من الذهب والفضة ، فيقعد الأنبياء على كراسى الذهب ، والعلماء على كراسى الفضة وحولهم الناس ، وحول الناس الجن والشياطين ، وتظلهم الطير بأجنحتها لئلا تقع عليهم الشمس ، وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح إلى الرواح ، ومسيرة شهر من الرواح إلى الصباح .

أخبرنا ابن فتحويه بإسناده عن محمد بن كعب القرظى قال : بلغنى أن عسكر سليمان عليه السلام كان مائة فرسخ خمسة وعشرون منها للإنس ، وخمسة وعشرون منها للجن ، وخمسة وعشرون منها للوحوش ، وخمسة وعشرون منها للطيور ، وكان له ألف بيت من القوارير على الخشب فيها ثلاثمئة سرير وسبعمئة امرأة ، فيأمر الريح العاصفة فتحمله ، ويأمر الرخاء فتسير به ، فأوحى الله تعالى إليه وهو سائر بين السماء والأرض : إنى قد زدت فى ملكك أنه لايتكلم أحد من الخلائق بشىء إلا جاءت الريح به إليك فأخبرتك به :

ومنها تعليم الله له كلام الطير حتى النمل كما قال الله تعالى (يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ) . . . الآية .

قال ابن فتحويه بإسناده عن كعب الأحبار قال : صاح وَرَشان عند سليمان فقال : أتدرون مايقول ؟ قالوا لا ، فقال : إنه يقول لدوا للموت وابنوا للخراب . وصاحت فاختة عند سليمان فقال : أتدرون ما تقول ؟ قالوا لا ، قال : إنها تقول ليت ذا الخلق لم يخلقوا . وصاح طاوس فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا ، قال : إنه يقول كما تدين تدان . وصاح هدهد فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا ، قال : إنه يقول من لايرحم لايرحم . وصاح صُرَد فقال : أتدرون مايقول ؟ قالوا لا ، قال : إنه يقول استغفروا الله يا مذنبون ، فمن ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله . قال : وصاح الطيطوى فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا ، قال : إنه يقول كل حى ميت وكل جديد بال ، قال : وصاح خطاف فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا ، قال : إنه يقول قدموا خيرا تجدوه ، فمن ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله . وهدرت حمامة فقال : أتدرون ما تقول ؟ قالوا لا قال : إنها تقول سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وملء أرضه . وصاح قمرى فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا ، قال إنه يقول سبحان الحى الذى لايموت أبدا . : وصاح غراب فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا ، قال : فإنه يلعن العشارين . والحدأة تقول : كل شىء هالك إلا وجهه . والقطا تقول : من سكت سلم . والعنقاء تقول : ويل لمن الدنيا همه . والبازى يقول : سبحان ربى الأعلى وبحمده . والضفدع يقول : سبحان ربى القدوس . . العصفور يقول : سبحان المذكور بكل مكان .

وأخبرنا ابن ميمون بإسناده عن مكحول قال : صاح دَرَّاج عند سليمان عليه السلام فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا ، قال : فإنه يقول الرحمن على العرش استوى . وبإسناده عن صالح المرى عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدِّيكُ إذَا صَاح يَقولُ : اذْكُرُوا اللهَ يا غافِلونَ » .

وروى عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده عن الحسين بن على عليهم السلام أنه قال : إذا صاح النسر يقول : يا بن آدم عش ما شئت فإن آخرك الموت . وإذا صاح العقاب قال : فى البعد عن الناس أنس . وإذا صاح القنبر قال : اللهم العن مبغضى آل محمد . وإذا صاح الخطاف قرأ الحمد لله رب العالمين ويمد الضالّين كما يمدها القارئ .

وقال فرقد السَّبَخِيّ : مر سليمان ببلبل فوق شجرة وهو يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال صحابه : أتدرون ما يقول هذا البلبل ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إنه يقول : أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء .

وأخبرنا أبو عبد الله بن حامد بإسناده عن ابن مسعود عن أبيه قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سَفَرة ، فمررنا بشجرة فيها فرخا حمامة فأخذناهما ، فجاءت الحمامة وشكت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : مَنْ فجَعَ هذِهِ الحَمامَةَ بفرْخيْها ؟ فقلنا نحن ، فقال : رُدُّوهُما إلى مَوْضِعِهِما » .

وروى أن قنبرة باضت فى طريق سليمان عليه السلام ، فقال الذكر للأنثى : ألم أنهك أن تبيضى فى طريق سليمان الملك ، لو ركب إلينا لحطم بيضنا ، فقالت الأنثى : ويحك إن نبى الله أرحم بنا من ذلك ، فسمع سليمان قولهما ، فبعث إليهما جنيا حين أراد أن يركب وقال : اجعل بيضهما تحت رجليك وإياك أن تصيبه بشيء ، فلما مر سليمان فى موكبه وجاوزهما قالت الأنثى : ألم أقل لك إن نبى الله أرحم بنا من ذلك ؟ فقال الذكر للأنثى عندى للملك هدية ، قالت : وما عندك ؟ قال : عندى جرادة ادخرتها لولدى ، فقالت الأنثى : عندى تمرة ادّخرتها لولدى . قال : فأخذا التمرة والجرادة ثم طارا حتى وقفا بين يدى سليمان وهو على سريره فى مجلسه ، فوضعاهما بين يديه وسجدا له ، فدعا لهما ومسح بيده على رءوسهما ، فيروى أن هذه القشرة التى على رأس القنبر من مسح سليمان عليه السلام إياهما .

قال : ومر سليمان بموكبه على نملة ، فقالت النملة : سبحان الله العظيم ما أعظم ما أوتى آل داود ، فتبسم سليمان من قولها وفسر قولها لجنوده ثم قال : ألا أنبئكم بخبر هو أعجب من هذة النملة ؟ قالوا بلى ، قال تقول : اتقوا الله فى السر والعلانية ، والقصد فى الغنى والفقر ، والعدل فى الغضب والرضا .

وروى أن سليمان عليه السلام خرج يوما يستسقى ومعه الإنس والجن ، فمر بنملة عرجاء ناشرة جناحيها رافعة يديها وهى تقول : اللهم إنا خلق من خلقك لاغنى لنا عن رزقك فلا تؤاخذنا بذنوب بنى آدم واسقنا ، فقال سليمان لمن معه : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم .

وحكى أن نملة دبت على سليمان فحملها ورمى بها ، فوقعت النملة فقالت : ما هذه الصولة وما هذا البطش ؟ أما علمت أنى أمة من أنت عبده ؟ فغشى على سليمان ، فلما أفاق قال : ائتونى بها ، فأتوه بها فسألها ، فقالت له : جلدى رقيق وبدنى ضعيف وأخذتنى ورميتنى ، فقال لها سليمان : اجعلينى فى حل فإنى لم أقصد ذلك ، فقالت : بشرط أن لاتنظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولا تستغرق فى شهواتك وضحكك ، ولا يستعين أحد بجاهك إلا بذلته له ، قال : قد فعلت ذلك ، قالت : فأنت فى حل .

ومنها قصة وادى النمل قال الله تعالى (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) أى يحبس أولهم على آخرهم (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِى النَّمْلِ) الآية . قال الشعبيّ وكعب وغيرهما من أهل الكتب : إن سليمان عليه السلام كان إذا ركب حمل أهله وحشمه وخدمه وكتابه فى مركبه الذى هيئ له ، وقد اتخذ فيه مطابخ ومخابز ويحمل فيها تنانير الحديد وقدورا عظاما يسع كل قدر عشرة من الجزر ، وقد اتخذ ميادين للدواب أمامه فيطبخ الطباخون ويخبز الخبازون وتجرى الدواب بين يديه بين السماء والأرض والريح تهوى بهم ، فسار من إصطخر إلى اليمن وتوغل فى البادية فسلك على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال سليمان : هذه دار هجرة نبى يبعث فى آخر الزمان ، طوبى لمن آمن به واتبعه ، ثم أتى أرض الحرم فرأى حول البيت أصناما تعبد من دون الله فجاوز البيت ، فلما جاوزه سليمان بكى البيت ، فأوحى الله تعالى إلى البيت مايبكيك فقال : يارب هذا نبى من أنبيائك وقوم من أوليائك مروا علىّ فلم يهبطوا بى ولم يصلّوا عندى ولم يذكروك بحضرتى ، وهذه الأصنام تعبد حولى من دونك . قال : فأوحى الله تعالى لا تبك فإنى سوف أملؤك وجوها سجدا لى ، وأنزل فيك قرآنا جديدا ، وأبعث منك فى آخر الزمان نبيا هو أحب الأنبياء إلىّ ، وأجعل فيك عبادا من خلقى يعبدوننى ، وأفرض على عبادى فريضة يزِفّون بها إليك زفا مثل زفيف النسور إلى أوكارها ، ويحنون إليك حنين الناقة إلى ولدها والحمامة إلى بيضها ، وأطهرك من الأوثان وعبدة الشيطان . ثم أمر الله سليمان عليه السلام أن ينزل عليه ويصلى فيه ويقرب عنده قربانا ، ففعل ذلك ، قال : فذبح عند الكعبة خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف ثور وعشرين ألف شاة ، وقال لمن حضر من أشراف قومه : إن هذا المكان يخرج منه نبى عربىّ ويعطى النصر على جميع من ناوأه ، ويكون السيف على رقبة من خالفه ، وتبلغ هيبته مسيرة شهر . القريب والبعيد عنده سواء ، لاتأخذه فى الله لومة لائم ، فطوبى لمن أدركه وصدّقه . قالوا : فكم بيننا وبين خروجه

يا نبى الله ؟ قال : قريب من ألف عام . قال : ثم إن سليمان مضى حتى أتى على واد السدير واد من الطائف ، فأتى على وادى النمل ، فقامت نملة تمشى وكانت عرجاء تتكاوس ، وكانت مثل الذئب العظيم . وقال الشعبىّ : كانت ذات جناحين .

واختلفوا فى اسمها : فأخبرنى ابن ميمونة بإسناده عن الضحاك قال : كان اسم نملة سليمان طاخية ، وقيل خيرما ، فنادت لما رأت سليمان فى موكبه : (يا أَيُّها النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لايَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لايَشْعُرُونَ) وكان لايتكلم خلق إلا حملته الريح ، وألقته فى مسامع سليمان . قال مقاتل : فسمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكا مِنْ قَوْلِهَا وَقالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعلى وَالِدَيَّ) . . . الآية .

وفى بعض الأخبار : أن سليمان لما سمع قولها نزل عليها وقال : ائتونى بها ، فأتوه بها ، فقال لها : لِمَ حذرت النمل ، هل سمعتم أنى ظالم ؟ أما علمتم أنى نبى عدل ؟ فلم قلت (لايحطمنكم سليمان وجنوده ؟) قالت النملة : يا نبى الله أما سمعت قولى (وهم لايشعرون) مع أنى ما أردت حطم النفوس وإنما أردت حطم القلوب ، خشيت أن يتمنين ما أعطيت فيفتتنّ ويشتغلن بالنظر إليك عن التسبيح ، فقال لها عظينى ، فقالت له النملة : هل علمت لم سمى أبوك داود ؟ قال لا ؟ قالت : لأنه داوى جراحة قلبه ؛ ثم قالت : وهل تدرى لم سميت سليمان ؟ قال لا ، قالت : لأنك سليم ركنت إلى ما أوتيت بسلامة صدرك وحق لك أن تلحق بأبيك داود ، ثم قالت : أتدرى لم سخر الله تعالى لك الريح ؟ قال لا ، قالت : ليخبرك أن الدنيا كلها ريح (فتبسم ضاحكا من قولها) متعجبا (وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ) الآية .

أخبرنى ابن ميمونة بإسناده عن ابن عباس قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل أربعة من الدواب : الهدهد والصُّرَد والنحلة والنملة .

ومنها قصة العنقاء فى إثبات القضاء والقدر : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن حامد بإسناده عن محمد بن جعفر الصادق قال : عاتب سليمان الطير فى بعض عتابه ، فقال لها : إنك لتأتين كذا وتفعلين كذا ، فقالت : والله رب السماء والثرى إنا لنحرص على الهدى ولكن قضاء الله يأتى إلى منتهى علمه وقدره ، قال : صدقت لاحيلة فى القضاء ، فقالت العنقاء : لست أومن بهذا فقال لها سليمان : ألا أخبرك بأعجب العجب ؟ قالت بلى ، قال : إنه ولد الليلة غلام بالمغرب وجارية بالمشرق هذا ولد ملك كبير وهذه ابنة ملك والجارية والولد يجتمعان فى أمنع المواضع بقدرة الله تعالى وأهولها على سفاح فى جزيرة فى وسط البحر ، فقالت العنقاء : يا نبىّ الله أوقد ولد هذان الولدان المذكوران ؟ قال نعم الليلة ،

قالت : فهل اخبرت بهما من هما وما اسمهما واسم أبيهما؟ قال : بلى اسمهما كذا وكذا ، واسم أبيهما كذا وكذا ، فقالت العنقاء : يا نبى الله أنا أبطل القدر وأفرق بينهما ، فقال لها سليمان : إنك لا تقدرين على ذلك ، ، قالت بلى ، فأشهد سليمان عليها الطير وكفلتها البومة ، فمرت العنقاء وكانت فى كبر الجمل عظما ووجهها وجه إنسان ويداها يد إنسان وثدياها ثديا امرأة وأصابعها كذلك ، فحملت فى الهواء حتى أشرفت على الدنيا ، فأبصرت كل دار وما فيها وكل إنسان ، وأبصرت الجارية وهى فى مهدها وقد أجلسوها ، فاختلست الجارية من المهد وطارت بها حتى انتهت إلى جبل شاهق فى السماء فى جوف البحر وسط جزيرة ، وفى الجزيرة شجرة عالية لاينالها طائر إلا بجهد طيرانه ، ولها أغصان عظيمة تزيد على ألف غصن كل غصن كأعظم ما يكون من شجر الأرض كثيرة الورق ، فاتخذت لها وكرا فى وسط الشجرة عجيبا واسعا مضيئا وطيئا ، وأرضعتها وحضنت الجارية تحت جناحها ، وصارت تأتيها بأنواع الطعام والشراب وتحفظها من البرد والحر وتؤنسها بالليل ولا تخبر أحدا بشأنها كى يتم أمرها ، وهى تغدو إلى سليمان وتروح إلى وكرها ، فعلم سليمان بذلك ولم يبده لها ، فبلغ الغلام مبلغ الرجال ، وصار ملكا من ملوك الدنيا ، وكان يلهو بالصيد ويحبه ويطلبه ، فصار لايقر ليلا ولا نهارا ، وكان أبوه ملكا عظيما ، فلما رأى الملك ولده لاهيا بالصيد لم يزجره عنه حتى نال منه منالا طويلا وأمرا عظيما ، فقال يوما لأصحابه : كل صيد البر وفلواته ومفازاته قد نلت منه ، فلو ركبت البحر فأنال من صيده فإنه كثير الصيد وكثير العجائب ، فقال له المشيرون من وزرائه : نعم ما رأيت وهو أكثر شىء من خلق الله صيدا وعجائب . فأمر الغلمان بتجهيز ما يحتاجون إليه ، وهيأ السفن و جعل يأخذ من كلّ شىء يملكه ، وأخذ من الوزراء والندماء والمشيرين والغلمان والجوارى والطباخين والخبازين والدواب والبزاة والصقور وكلاب الماء ، وجميع ما يحتاجون إليه مما يريده ويشتهيه من الملاهى ، وركب السفن ومر فى البحر كذلك يتصيد ويتلذذ بالفرح ولا يعرف شيئا غير ذلك ، حتى سار مسيرة شهر ، فأرسل الله تعالى على سفينته ريحا خفيفة فضربتها وساقتها حتى قربت من جزيرة العنقاء والجارية ، وهى مسيرة خمسين سنة فى منتهى خمسين ليلة ، كل ليلة مسيرة سنة ، ثم ركدت سفينته بإذن الله تعالى ، وأصبح الغلام فرأى سفينته راكدة ، فأخرج رأسه من ناحية ونظر ، فإذا هو بجبل شاهق فى وسط جزيرة فى البحر فى لون الزعفران ، طويلة لايدرى أين منتهاها ولا عرضها ، وإذا هو بشجرة خضراء فى رأس الجبل ملتفة كثيرة الأغصان والأوراق ، ورقها فى عرض آذان الفيلة ، تفوح بريح الأقحوان ، ليس لها ثمر بيضاء الساق ، فقال لأصحابه : إنى أرى عجبا ، أرى جبلا شاهقا فى وسط جزيرة لم أر مثله ولا مثل طوله ولا عرضه ، وأرى شجرة فيها كل حسن قد أعجبنى منظرها ، ثم إنه حرك سفينته وجاء بها إلى الجزيرة التى فيها الجبل وأرساها

عندها وقال لأصحابه : أقيموا ههنا حتى أمضى وأبصر هذه الجزيرة وهذا الجبل الذى فى وسطها هل عمارة أو أثر آدمى فى تلك الجزيرة وآتيكم بخبرها ، ثم إنه نزل من السفينة هو ورفقته وداروا فى الجزيرة فلم يروا فيها أثر عمارة ولا عبر بها آدمى قبله ، ثم إنه صعد إلى رأس الجبل فرأى أصل الشجرة ، وكانت الجارية قد نظرت إلى السفينة وهى جارية فلم تعرف ما هى ، لأنها أُخذت صغيرة ولم تدر ما السفن ، فبقيت متعجبة وليس عندها أحد تسأله عن ذلك ، فبينما هى متفكرة فى أمر السفينة إذا حس الآدميين ، فأخرجت رأسها من الوكر فنظرت يمينا وشمالا فلم تر أحدا ، فنظرت فى أصل الشجرة فإذا بالغلام ورفقته ، فتعجبت منهم لما رأت من حسنهم وجمالهم وكيف وصلوا إلى ذلك الموضع ، وأن الغلام لما بلغ أصل الشجرة نظر يمينا وشمالا وبقى متعجبا من عظم تلك الشجرة ورفعها فى السماء وصار ينظر إلى أغصانها ، وكانت الجارية قد أخرجت رأسها لتنظر إلى السفينة ، فحانت منها التفاتة إلى أصل الشجرة ، فوقعت عينها فى عين الغلام ، فرأى الغلام صورتها ، ورأى عجبا من عظم جمالها وكثرة شعرها وذوائبها ، فقال لها الغلام بلسان فصيح : أجنية أنت أم إنسية ؟ قالت : لا والله أنا من خيار الإنس فمن أنت ؟ فأفهمها لغته ، فقالت : لاأدرى ما تقول وما أنت ، إلا أنى أرى وجهك كوجهى وكلامك ككلامى ، وإنى لاأعرف شيئا غير العنقاء ، وهى أمى التى ربتنى وحضنتنى ، وهى تأتينى كل ليلة وتسمينى بنتها ، فقال لها الغلام : وأين العنقاء ؟ فقالت : هى فى نوبتها ، فقال الغلام : وما نوبتها ؟ قالت : تغدو كل يوم إلى ملكها سليمان فتسلم عليه وتقيم عنده إلى الليل ثم تجيئنى وتحدثنى بكل ما يحكم به سليمان ، وإنه لملك عظيم على ما تصفه لى أمى العنقاء من ملكه وأنها تخبرنى أنه أحسن الناس وجها وأتم خلقا منى ، قال : فارتعد الغلام ثم قال : عرفته ، وهو الذى قتل أبى وسبى دولته وإنى لمن طلقائه ، وممن يؤدى إليه الخراج ، وقد سخر الله له الطير والرياح ، ثم بكى الغلام ساعة ، فقالت له الجارية : ما يبكيك ؟ قال : وجدتك فى مثل هذا الموضع الذى لاإنس فيه ولا أحد ، وإن مثلك فى الدنيا عدد الشجر والمدر ، وكلهم فى مقاصير الذهب والفضة والعيش الهنىء والرغد واللذة الحسنة مع الأزواج يتعانقون ويتنعمون ويتوالدون الأولاد مثل خلقك وخلقى ، أرأيت إن هاجت الريح فأزعجتك من وكرك ، من يمنعك أن تقعى فى البحر ، وإن وقعت فى البحر فمن ذا الذى يخرجك ؟ قال : ففزعت الجارية من قوله ، قالت : وكيف لى أن يكون معى إنسىّ مثلك يحدثنى بمثل حديثك ، ويحفظنى مما ذكرت ، فقال لها الغلام : أولاتعلمين أن الله اتخذ سليمان نبيا وسخر له الريح والطير هو الذى رحمك وساقنى إليك لأكون لك إلفا وصاحبا وأنيسا ، وإنى لمن أولاد الملوك ، فقالت له الجارية : وكيف تصيرلى وأصير إليك ، وإن العنقاء هذه تروح وتجىء تحضننى إلى صدرها بين جناحيها ، فقال لها الغلام تكثرين جزعك ووحشتك وبكاءك

على العنقاء ليلتك هذه ، فإذا جاءت إليك وقالت لك ما تحبين وما تريدين وما شانك ؟ فأخبريها بوحدتك فى نهارك ، ثم انظرى ما يكون من ردها عليك ، فأخبريني بذلك ففعلت وإن العنقاء رجعت إليها فوجدتها باكية حزينة ، فقالت لها : يا بنية مالك ؟ فقالت : الوحدة والوحشة قتلتنى ، وإنى لمنزعجة على نفسى من ذلك ، فقالت لها يابنية لا تخافى ولاتحزنى ، فانى أستأمر سليمان عليه السلام أن آتيه يوما ويوما لا آتيه ، فيكون ذلك أنسا لك . فلما أصبحت أخبرت الغلام بجوابها ، فقال لها أوتصبيرين على ذلك ؟ لا ولكنى سأنحر من دوابى هذه فرسا وأبقر بطنه وأخرج مافيه وأطيبه بطيب معى وأدخل أنا فى جوفه وألقيه على رأس سفينتى هذه ، فإذا جاءتك العنقاء تقولين لها أرى عجبا ، أرى خلقة ملقاة على كوثل هذه السفينة فلو اختطفتيها وحملتيها إلىّ فكانت معى فى وكرى فأنظر إليها وآنس بها كان أحب إلى من كونك عندى نهارا وإمساكك عن أخبار سليمان وأخبار المسلمين. فلما رجعت العنقاء وجدتها على حالتها ، وكان سليمان قد شغل عنها فلم تصل إليه فى استئذانها إياه فى المقام يوما والغدو يوما ، فقالت لها : يا بنية إن نبىّ الله قد اشتغل عنى اليوم بالحكم بين الآدميين فلم أصل إليه ، قالت لها : إنى لاأريد أن تتخلى عنه نهارا لمكان أخبار سليمان وأخبار المسلمين ، وإنى أرى عجبا فى البحر ، أرى شيئا مرتفعا فما هو ؟ قالت لها العنقاء : هذه سفينة قوم سيارة راكبين فى البحر ، قالت : فما الذى أراه ملقى على رأس هذه السفينة ؟ قالت : دابة ميتة ألقوها ، قالت : فاحتمليها إلىّ لأستأنس بها وأنظر إليها ، فانقضت العنقاء فاختطفت الفرس وكان الغلام فى بطنها فحملتها إلى عشها ، فقالت الجارية : يا أماه ما أحسنه وضحكت ، ففرحت العنقاء بذلك وقالت : يا بنية لو علمت لكنت أتيتك بمثل هذا منذ حين ، ثم إنها طارت إلى نوبتها عند سليمان ، فخرج الغلام من بطن الفرس فلاعبها ولامسها وافتضها وأحبلها من ساعتها ، وفرح كل واحد منهما بصاحبه واستأنس به ، وكان سليمان عليه السلام قد جاءه الخبر باجتماعهما من قبل الريح ، وأن العنقاء راحت ، وكان مجلس سليمان يومئذ مجلس الطير وحكمهم ، فجلس سليمان عليه السلام للطير فى مرتبته ودعا بعرفاء الطير ، وأمرها أن لاتدع طيرا إلا حشرته إليه ، فحشرت إليه جميع الطيور ، ثم أمر عرفاء الجن أن يحشروا قبائل الجن من سكان البحار وسكان الجزائر والهواء والمغارات والفلوات والأمصار ، فحشروا إليه ، وأمر الشياطين فأحضرت كذلك ، وكذلك الإنس كهيئتهم ، ثم كل دابة تدب على وجه الأرض ، فاشتد الخوف وقالوا فى أنفسهم : نشهد بالله أن نبى الله قد أهمه أمر عظيم ، فأول سهم قد خرج فى تقديم الطير سهم الحدأة ، وكانت الطير لاتتقدم إلا بالسهام ، وكذلك الجن والشياطين ، فتقدمت الحدأة تدّعى على زوجها وكان قد جحد ولدها ، فقالت : يا نبى الله إنه سفدنى حتى إذا احتضنت بيضى وأخرجت ولدى جحدنيه ، فقال سليمان للذكر : ما تقول ؟ فقال يا نبىّ الله إنها لاتمتنع من الطى وهير :

تحوم فى البرارىّ ، فلا أدرى هل هو منى أو من غيرى ؟ قال : فأمر سليمان بولدها فجىء به ، فوجد الشبه واحد فألحقه بالذكر ، ثم قال لها لا تمكنيه من السفاد حتى تُشهدى عليه بذلك الطير بكا لصراخ فإنه لا يجحدك بعدها أبدا إلى يوم القيامة ، فهى إذا سفدها ذكرها صاحت وقالت : يا طيور سفدنى ، اشهدوا معاشر الطيور اشهدوا . ثم خرج سهم العنقاء فتقدمت إليه ، فقال لها سليمان : ما قولك فى القدر ؟ فقالت : يا نبى الله لى من القوة والاستطاعة ما أدفع الشر وأفعل الخير ، فقال لها سليمان : فأين الشرط الذى كان كان بينى وبينك ؟ زعمت أن تفرّقين بقوتك واستطاعتك بين الجارية والغلام ، فقالت : قد فعلت ، قال سليمان : الله أكبر ، فأْتينى بها الساعة والخلق شهود لأعلم صدق قولك ، ثم أمر عريف الطير أن يكون معها لا يفارقها حتى تأتى بها ، فمرت العنقاء حتى قربت من الجارية وكانت الجارية إذا قربت منها العنقاء تسمع حفيف أجنحتها فيبادر الغلام ويدخل جوف الفرس ، فلما رأتها البنت قالت لها كالفزعة : إن لك شأنا إذ رجعت من ساعتك ؟ قالت لها : إى لعمرى ، إن لى شأنا ، هذا سليمان قد أمر باحضارك الساعة لأمر كان بينى وبينه فى أمرك ، وإننى لأرجو نصرتى اليوم فيك : قالت لها ، كيف تحملينى ؟ قالت : على ظهرى ، قالت : وهل أستقر على ظهرك وإنى أرى أهوال البحر فلا آمن أن أزال فأسقط وأهلك . قالت : فى منقارى ؟ قالت : فكيف أصبر فى منقارك ؟ قالت لها : وكيف أصنع ولابد لى من إحضارك عند سليمان وهذا عريف الطير معى وقد دعا بكفيلتى البومة . فقالت لها : أدخل فى جوف هذا الفرس ثم ترفعينه على ظهرك أو فى منقارك ، فلا أرى شيئا ولا أسقط ولا أفزع من شىء ، قالت أصبت . قال : فدخلت جوف الفرس واجتمعت مع الغلام ، وحملت العنقاء الفرس فى منقارها وطارت حتى وضعت الفرس بين يدى سليمان عليه السلام ، فقالت يا نبى الله هى الآن فى جوف الفرس ، فأين الغلام ؟ فتبسم سليمان طويلا ثم قال لها : أتؤمنين بقضاء الله وقدره ، وأنه لا حيلة لأحد فى دفع قضائه وقدره وعلمه السابق الكائن من خير وشرّ ، فقالت : أومن بالله وأقول إن المشيئة إلى العباد والقوة ، فمن شاء فليفعل خيرا أو شرا ؟ قال سليمان : كذبت ما جعل الله من المشيئة للعباد شيئا ، ولكن من شاء الله أن يكون سعيدا كان سعيدا ، ومن شاء أن يكون كافرا كان كافرا ، ولا يقدر أحد أن يدفع قضاء الله وقدره بحيلة لا بفعل ولا بعلم ، وإن الغلام الذى قد ولد بالمغرب مع الجارية التى ولدت بالمشرق ، قد اجتمعا الآن فى مكان واحد على سفاح ، وقد حملت الجارية من الغلام بولد ، فقالت العنقاء : لا تقل يا نبى الله هذا ، فإن الجارية معى فى جوف هذا الفرس ، فقال سليمان : الله أكبر أين البومة المتكفلة بالعنقاء ؟ قالت : ها أنا يا نبى الله ، قال سليمان : أنت على مثل قول العنقاء ؟ قالت نعم ، فقال سليمان : قدر الله السابق قبل الخلق أخرجهما على قضائه ومشيئته ، قال : فأمر البومة ففتحت جوف الفرس وأخرجتهما

جميعا من جوف الفرس . فأما العنقاء ففزعت وذهبت وطارت فى السماء ، فأخذت نحو المغرب واختفت فى بحر من بحاره وآمنت بالقدر ، وحلفت لاتنظر فى وجه طير أبدا استحياء منه . وأما البومة فانها لزمت الآجام والجبال وقالت : أما بالنهار فلاخروج لى ولاسبيل إلى المعاش فهى إذا خرجت نهارا وبختها الطير واجتمعت عليها وقالت لها ياقدرية فهى تخضع لهذا ، وهذا ما كان من شأن العنقاء والبومة فى القضاء والقدر ، والله أعلم بالغيب .

ومنها تخصيص الله تعالى سليمان عليه السلام بالخيل الجياد العراب التى أخرجها له من البحر فى قول أكثر أهل الأثر ، قال الله : تعالى (إذْ عُرِضَ عليهِ بالعَشىِّ الصافِناتُ الجِيادُ) والصافنات : الخيل القائمات على ثلاث قوائم ، وقد أقامت الأخرى على طرف الحافر من يد أو رجل . والجياد : السراع . قال الحسن : بلغنى أنها كانت خيلا خرجت من البحر لها أجنحة . وقال الكلبىّ : غزا سليمان أهل نصيبين فأصاب منهم ألف فرس . وقال مقاتل : ورث سليمان من أبيه داود ألف فرس ، وكان أبوه أصابها من العمالقة ، قالوا : فصلى سليمان صلاة الظهر وقعد على كرسيه ، فعرض عليه منها تسع مئة ، فاشتغل بحسنها وكثرتها والإعجاب بها حتى غابت الشمس وفاتته صلاة العصر ، ولم يعلمه أحد بذلك هيبة له ، فاغتم لذلك وقال : ردوها علىّ ، فردوها فعرقبها وعقرها بالسيف وقربها إلى الله تعالى وبقى منها مئة فرس ، فما فى أيدى الناس من الخيل العراب فهى من نسل تلك المئة .

وقال كعب : كانت الأفراس أربعة عشر فأمر بضرب أعناقها وسوقها بالسيف وقتلها ، فسلب الله ملكه أربعة عشر يوما لأنه ظلم الخيل بقتلها . قال الحسن : فلما عقر الخيل لأجل الله تعالى أبدله الله تعالى مكانها خيرا منها وأسرع ، وهى الريح تجرى بأمره رخاء كيف يشاء ، غدوها شهر ورواحها شهر ، وكان يغدو من إيلياء فيقيل فى إصطخر ، ثم يروح منها فيبيت ببابل .

ويروى أن سليمان سار من أرض العراق غاديا فقال بمدينة مرو وصلى العصر بمدينة بلخ تحمله الريح وتظله الطير بخيله وجنوده ، ثم سار من مدينة بلخ متخللا بلاد الترك ، ثم جاوزها إلى أرض الصين ، ثم عطف يمينه على مطلع الشمس على ساحل البحر حتى أتى أرض الهند ، ثم خرج منها إلى مكران وكرمان ، ثم جاوزهما حتى أتى أرض فارس فنزلها أياما ، ثم غدا منها فقال بكسكر ، ثم رجع إلى الشام وكان مستقره مدينة تدمر ، وكان قد أمر الشياطين قبل خروجه من الشام إلى العراق أن يبنوا له تدمر ، فبنوها بالصفائح والعمد والرخام الأبيض والأصفر ، وفى ذلك يقول الشاعر :

واذكر سليمان إذ قال المليك له ... قم فى البرية فاحددها عن الفَنَد

وجيّش الجيش إنى قد أبحت لهم ... بناء تَدْمُرَ بالأحجار والعَمَد

قال : ووجدت هذه الأبيات منقورة فى صخرة بأرض كسكر أنشأها بعض أصحاب سليمان بن داود عليهما السلام :

ونحن ولا حول سوى حول ربنا   نروح إلى الأوطان من أرض تدمر
إذا نحن رحنا كان أمر رواحنا   مسيرة شهر والغدوّ لآخر
أناس سروا والله طوع نفوسهم   لنصرة دين للنبى المطهّر
لهم فى معالى الدين فضل ورأفة   وإن نسبوا يوما فمن خير معشر
متى ركبوا الريح المطيعة أسرعت   مبادرة عن شهرها لم تقصر
نظللهم طير صفوفا عليهم   متى رفرفت من فوقهم لم تفتر

رجعنا إلى القصة ، وقال قوم من العلماء : معنى قوله تعالى (فطَفِقَ مَسْحاً بالسُّوقِ والأعناقِ)حبسها فى سبيل الله وكوى سُوقها بِميسم الصدقة . وقال الزهرىّ: مسح سوقها وأعناقها من الغبار . قال : وهى رواية الواقدىّ عن ابن عباس قال:وقال علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ثم إن الله أمر الملائكة الموكلين بالشمس حتى ردوها على سليمان وصلى العصر فى وقتها .

حدثنا أبو عبد الله عقيل الأنصارى بإسناده عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَمَّا أرادَ اللهُ تعالى أنْ يَخْلُقَ الخيلَ قالَ للرِّيحِ الجنُوبِ إنى خالِقٌ منْكِ خلْقاً فأجْعلَهُ عِزًّا لأوْلِيائى ومَذَلَّةً لِأعْدائى وجمالاً لأهْلِ طاعَتِى ، فقالتِ الرِّيحُ : إلهى وَسَيِّدى ومَوْلاىَ إنى مُطِيعةٌ فقَبضَ منها قَبْضةً فخلَقَ فرَسا،وقالَ لهُ : خلَقتُكَ عرَبِيًّا وجَعلْتُ الخيرَ مَعْقوداً بناصِيَتِكَ والغنائمَ مَجموعةً على ظَهْرِكَ ، وعطَفْتُ عليكَ صاحِبكَ ، وجَعلْتُكَ تَطيرُ بِلا جَناحٍ ، فأنْتَ للطَّلَبِ وأنْتَ للهرَبِ ، وسأجْعَلُ على ظَهْرِكَ رِجالاً يسبِّحونى ويَحْمَدُونى ويكبِّرُونى ، فتُسبِّحُنِى إذا سبَّحوا وتُهلِّلُنِى إذا هلَّلوا وتكبِّرنى إذا كبَّروا » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مامِن تسْبِيحةٍ وتَحْميدةٍ وتَمْجيدةٍ وتكْبيرةٍ يكبِّرُها صاحِبُها فتسْمَعُها إلا تُجيبُهُ بمِثْلِها » . قال : فلما سمعت الملائكة صفتها ونظروا خلقها قالوا : ربنا نحن ملائكتك نسبحك ونحمدك فماذا لنا ؟ فخلق الله لهم خيلا بُلْقًا أعناقها كأعناق البُخْتِ.فلما أرسل الله الفرس إلى الأرض واستوت قدماه عليها صهل ، فقيل له : بوركت من دابة إذ بصهيلك أذلّ الله المشركين وأذلّ بك أعناقهم ،وملأ بك آذانهم ، وأرعب بك قلوبهم . فلما عرض الله تعالى على آدم من كل شىء قال له : اختر من خلقى ما شئت ، فاختار الفرس ، فقيل له : اخترت عزك وعز ولدك خالدا ما خلدوا وباقيا ما بقوا بركتى عليك وعليهم ، ما خلقت خلقا أحب إلىّ منك ومنهم .

ومنها قوله تعالى (وأَسَلْنا لهُ عَيْنَ القِطْرِ) أذبنا له عين النحاس أسيلت ثلاثة أيام كما يسيل الماء وكانت بأرض اليمن ، وإنما ينتفع الناس اليوم بما أخرجه الله لسليمان عليه السلام.

ومنها تسخير الله تعالى له الجن والإنس والطير والوحوش والشياطين يعملون له ما يشاء كما قال الله تعالى (وَمِنَ الجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بينَ يَدَيْهِ بإذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنهُمْ عَنْ أمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ) وذلك أن الله تعالى وكل بهم ملكا بيده سوط من نار ، فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه ضربة أحرقته ، فمما عملت له الشياطين بأمره وأحدثوه له : الحمامات والطواحين والقوارير والصابون وأشياء كثيرة ، واحتفروا له نهر الملك وألقوا ترابه بين خانقين وقصر شيرين ، ومما عملوا له الغياصة كما قال الله تعالى (وَمِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغوصُونَ لَهُ) الآية ، وقال تعالى (والشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ) وكانوا يغوصون فى البحار ويستخرجون أنواع اللآلىء واللدرّ والمرجان وسائر الجواهر البحرية ، وكانوا يستخرجون له اليواقيت والزمرد وأنواع الجواهر الثمينة من المعادن وهم أول من فعل ذلك .

حـــديث القبة

قال وهب بن منبه : بينما سليمان عليه السلام على ساحل البحر والريح من تحته والإنس عن يمينه والجن عن شماله والطير تظله ، إذ نظر إلى عظم أمواج البحر ، فدعته نفسه أن يعلم ما فى قعر البحر ، فأمر الريح فسكنت من تحته ، ثم قعد على كرسى ملكه ، ثم دعا رأس الغواصين فقال له : اختر لى من أصحابك مئة رجل ، فاختار له مئة رجل ، فقال له : اختر لى من المئة ثلاثين ، فاختار له ثلاثين ، فقال : اختر لى من الثلاثين عشرة ، فاختار له عشرة ، فقال : اختر لى من العشرة ثلاثة ، فاختار له ثلاثة ، فقال لواحد منهم : غُصْ حتى تنظر إلى قعر البحر وتأتينى بالخبر ، فقال له سمعا وطاعة لك يا نبى الله ، فغاص البحر وأبعد ثم خرج ، فقال له سليمان : ما الذى رأيت ؟ قال : يا نبى الله ما رأيت إلا أمواجا وحيتانا ، غير أنى رأيت ملكا عظيما ، فقال : أين تريد ، فقلت له : إن نبى الله سليمان أرسلنى أنظر له قعر هذا البحر ، فقال : ارجع إليه فاقرأ عليه منى السلام وقل له : إن قوما ركبوا هذا البحر منذ أربعين عاما ، فعاب عليهم مركبهم فخرجوا يصلحونه ، فسقط من أحدهم قدوم فهو يتجلجل فى البحر ولم يبلغ قعره بعد ، فرجع إليه وأخبره بالخبر ، فتعجب نبى الله سليمان عليه السلام من ذلك ، ولها عما كان قصد . قال : فبينما هو على شاطئ البحر ، إذ رأى قبة من زجاج تضربها الأمواج فى لجة البحر فعارضها ، وقال للغواصين : غوصوا فى أثرها ، فغاصوا فأخرجوها ، فلما وضعت القبة على ساحل البحر انفتح لها بابان بمصراعين ، وخرج من القبة شاب عليه ثياب أبيض من اللبن ، وكأنّ رأسه تقطر ماء ، فجاء حتى وقف بين يدى سليمان ، فقال له سليمان : يا فتى من الجن أنت

أم من الإنس ؟ قال : بل من الإنس ، قال : فتعجب سليمان منه ومن ربه ، ثم قال له : ما بلغ بك ما أرى ، فقال : يا نبيّ الله كانت لى والدة وكنت من أبرّ الناس بها ، أطعمها وأسقيها بيدى ، ولا أترك شيئا من صنائع البر إلا صنعته بها فلما حضرتها الوفاة سألتها أن تدعولى فرفعت رأسها إلى السماء وقالت : يا رب قد عرفت بر ولدى بى فارزقه العبادة فى موضع لايكون لإبليس وجنوده عليه سبيل ، ثم ماتت فدفنتها ، فخرجت يوما إلى ساحل البحر ، فإذا أنا بهذه القبة ، فدعتنى نفسى أن أدخلها ، فلما دخلتها انطبقت علىّ أبوابها وتزاخرت الأمواج بها وكان هذا آخر عهدى يا نبى الله . فقال له سليمان : فمن أين مطعمك ومشربك ؟ فقال : يا نبى الله إذا كان الليل جاءنى طائر أبيض فى منقاره شىء أبيض فيدفعه إلىّ فآكله فهو يقيتنى من الطعام والشراب ، فقال له سليمان : فمن أين تعرف الليل والنهار وأنت فى ظلمة هذا البحر ؟ قال : يا نبى الله فى القبة خيطان : خيط أبيض وخيط أسود ، فإذا رأيت الخيط الأبيض زائدا علمت أنه النهار ، وإذا رأيت الخيط الأسود زائدا علمت أنه الليل ، فقال له سليمان : هل لك فى صحبتنا رغبة ؟ قال : لا يا نبى الله ، إن تشأ تأذن لى أن أعود إلى قبتى ، فأذن له ، فانطلق ودخلها وانطبق عليه بابها وتزاخرت به الأمواج فكان آخر العهد به .

ومنها قوله تعالى (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يشاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كالجوابِ) يقال إنها الحياض ، كانت تسع الجفنة الواحدة طعام ألف رجل فيجتمعون عليها يأكلون بين يديه (وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ) ثابتات لاتزول ، يسع القدر الواحد عشرة جزر .

قصة مدينة سليمان عليه السلام التى كان يسافر بها فى الهواء

ومما عملوا له مدينة من قوارير عشرة آلاف ذراع فى عشرة آلاف ذراع ، فيها ألف سقف ، ما بين كل سقفين عشرة أذرع ، فى كل سقف جميع ما يحتاج إليه من المساكن والقباب والمرافق ؛ أسفلها أغلظ من الحديد ، وأعلاها أرقّ من الماء ، يرى من داخلها ما وراء خارجها من صفائه ونقائه ، والشمس بالنهار والقمر بالليل ، وعلى السقف الأعلى قبة بيضاء عليها علم أبيض يستضىء به فى الليل الداجى العسكرُ كله ، يتلألأ شعاعه مد البصر ، وبها من الأركان ألف ركن على مناكب الشياطين ، تحت كل ركن منها عشرة من الشياطين تسع سليمان وجنوده وحشمه وأولياءه علوا وسفلا تحملها الريح إلى حيث يشاء ، وكانت تلك المدينة له مستقرا ، يأكل ويشرب وينام ويتمتع بها ، وفى أسفلها مرابط وإصطبلات وأوارىّ وأواخىّ لخيله ودوابه . ومما عملوا له كرسىّ ملكه .

صفة كرسى سليمان عليه السلام

قال الله تعالى (وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ) يروى أن نبى الله سليمان

عليه السلام آمر الشياطين باتخاذ كرسى يقعد عليه للقضاء ، وأمر أن يعمل بديعا مهولا بحيث لو رآه مبطل أو شاهد زور ارتدع وبهت ، قال : فعملوا له كرسيا من أنياب الفيلة وفصصوه بالياقوت واللؤلؤ والزبرجد وأنواع الجواهر ، وحفوه بأربع نخلات من الذهب شماريخها الياقوت الأحمر والزمرذ الأخضر ، على رأس نخلتين منها طاوسان من ذهب ، وعلى رأس الأخيرتين نسران من ذهب بعضها مقابل بعض ، وجعلوا من جانب الكرسى أسدين من ذهب ، على رأس كل واحد منهما عمود من الزمرذ الأخضر ، وقدعقدوا على النخلات أشجار الكرم من الذهب الأحمر ، واتخذوا عناقيدها من الياقوت الأحمر بحيث يظل عريش الكروم والنخل الكرسى . قالو : وكان سليمان إذا أراد صعوده وضع قدمه على الدرجة السفلى ، فيستدير الكرسى ورجله فيها ، ويدور دوران الرحى المسرعة ، وتنشر تلك النسور والطواويس أجنحتها ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما ، وكذلك يفعل فى كل درجة يصعدها سليمان ، فإذا استوى بأعلاه أخذ النسران اللذان على النخلتين المسك والعنبر يفتتانهما عليه ، ثم تتناول حمامة من ذهب قائمة على عمود من جوهر من أعمدة الكرسى التوراة فتفتحها لسليمان فيقرؤها على الناس ويدعوهم إلى فصل القضاء قال وتجلس عظماء بنى إسرائيل على كراسى الذهب والفضة عن يساره ، وهى ألف كرسى حافين به جميعا ثم تظلهم الطير وتتقدم الناس إليه للقضاء ، فإذا دعا بالبينات وتقدمت الشهود لإقامة الشهادات دار الكرسى بجميع مافيه وما حوله دوران الرحى المسرعة قال معاوية لوهب بن منبه : ماالذى كان يدير ذلك الكرسى ؟ قال : بلبلان من ذهب وذلك الكرسى مما عمله صخر الجنى ، قالوا : فإذا دار الكرسى بسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما ، وينشر النسران والطاوسان أجنحتهما ، فتفزع منه الشهود ويداخلهم من ذلك رعب شديد فلا يشهدون إلا بالحق ، فهذا شأن كرسى سليمان عليه السلام وعجائب ما كان فيه . فلما توفى سليمان عليه السلام بعث بختنصر فأخذ ذلك الكرسى وحمله إلى أنطاكية ، فأراد أن يصعد عليه ولم يكن له علم بالصعود عليه ولا بأحواله ، فلما وضع قدمه على الدرجة السفلى رفع الأسد يده اليمنى فضرب ساقه ضربة شديدة دقها ورماه ، فحمل بختنصر ، فلم يزل يعرج ويتوجع منها حتى مات ، وبقى الكرسى بأنطاكية حتى غزاهم ملك من الملوك يسمى كداش بن سداس ، فهزم خليفة بختنصر ورد الكرسى إلى بيت المقدس ، فلم يستطع أحد من الملوك الجلوس عليه ولا الاستمتاع به ، فوضع تحت الصخرة فغاب ولم يعرف خبره ولا يدرى أين هو ؟ والله أعلم .

ومنها بيت المقدس .

صفة بنيانه وبدء أمره

قال الله تعالى (سُبْحانَ الّذى أسْرَى بعَبْدِهِ ليْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إلى

المَسْجِدِ الأَقْصَى) ... الآية ، وقال تعالى (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إلى الأَرْضِ الَّتِى بارَكْنَا فِيها للعالَمِينَ) قيل بالمياه والأشجار والثمار ، وقيل إن كل ماء عذب يخرج من تحت أصل الصخرة التى ببيت المقدس يهبط من السماء إليها ، ثم يتفرق فى الأرض ، وذلك قوله تعالى (باركنا فيها للعالمين) .

وروى خالد بن مَعْدان عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صَخْرَةُ بَيْتِ المَقْدِسِ على نَخْلَةٍ مِنْ نَخِيلِ الجَنَّةِ ، وتِلْكَ النَّخْلَةُ على نَهْرٍ مِنْ أَنْهارِ الجَنَّةِ ، على ذلكَ النَّهْرِ آسِيَةُ بِنْتُ مُزاحِمٍ ومَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرانَ رَضِيَ اللهُ عنهُما يُنَظِّمانِ حُلِىَّ أَهْلِ الجَنَّةِ إلى يَوْمِ القِيامَةِ » .

وأما بدء بناء بيت المقدس ، وصفة بنائه على ما ذكره أهل البصيرة بالسير هو أن الله تعالى بارك فى نسل إبراهيم حتى جعلهم فى الكثرة غاية لايحصرن . فلما كان زمان داود عليه السلام لبث فيهم مدة مديدة بأرض فلسطين وهم يزدادون كل يوم كثرة ، فأعجب داود بكثرتهم ، وأراد أن يعلم عددبنى إسرائيل كم هم ، فأمر بعدّهم وبعث بذلك عرفاء ونقباء ، وأمرهم أن يرفعوا إليه ما يبلغ من عددهم ، فكانوا يعدون زمانا من الدهر حتى عجزوا ، فبعث الله جبريل عليه السلام وأوحى إليه : يا داود قد علمت أنى وعدت أباك إبراهيم يوم أمرته بذبح ولده فصبر وأتم أمرى بأن أبارك له فى ذريته حتى يصيروا بعدد نجوم السماء ، وأجعلهم بحيث لايحصى عددهم ، فأردتَ أن تعلم عددهم ، إنه لايحصى عددهم غيرى ، وإنى قد أقسمت لأبتلينهم ببلية يقلّ منها عددهم ويذهب عنك إعجابك بهم وبكثرتهم ، فاختاروا إما أن أبتليكم بالجوع والقحط ثلاث سنين ، أو أسلط عليكم عدوكم ثلاثة أشهر أو الموت ثلاثة أيام ، فجمع داود بنى إسرائيل وأخبرهم بما أوحى الله تعالى إليه وخيرهم فيه ، فقالوا : أنت أعلم بما هو أيسر لنا وأنت نبينا فانظر لنا ، غير أن الجوع لاصبر لنا عليه ، وتسليط العدوّ أمر فاضح ، فإن كان ولا بد فالموت ، لأنه بيده لابيد غيره ، فأمرهم داود أن يتجهزوا للموت ، فاغتسلوا وتحنطوا ولبسوا الأكفان وبرزوا إلى صعيد بيت المقدس قبل بناء المسجد بالذرارى والأهلين ، وأمرهم أن يضجوا إلى الله تعالى ويتضرعوا إليه لعله أن يرحمهم ، فأرسل الله إليهم الطاعون ، فأهلك منهم فى يوم وليلة ألوفا كثيرة لايدرى عددهم ولم يفرغوا من دفنهم إلا بعد موتهم بشهر . فلما أصبحوا فى اليوم الثانى خرّ داود عليه السلام ساجدا لله تعالى يبتهل إلى الله تعالى ويقول : يا رب أنا آكل الخلّ الحامض وبنو إسرائيل يضرسون : يعنى أذنبت وبنو إسرائيل يعاقبون ، فما كان من شىء فىّ أنزله واعف عن بنى إسرائيل ، فاستجاب الله دعاءه وكشف عنهم الطاعون ورفع عنهم الموت ، فرأى داود عليه السلام الملائكة سالين سيوفهم فغمدوها وارتقوا فى سلم من ذهب فى صخرة بيت المقدس إلى السماء ، فقال داود لبنى إسرائيل : إن الله تعالى قد منّ عليكم ورحمكم

فجدّدوا له شكرا ، قالوا: فكيف تأمرنا ؟ قال : آمركم أن تتخذوا فى هذا الصعيد الذى رحمكم الله فيه مسجدا لايزال فيه منكم ومن بعدكم ذاكر لله تعالى ، فأخذ داود فى بنائه ، فلما أرادوا أن يبتدئوا بالبناء جاء رجل صالح فقير يختبرهم ليعلم كيف إخلاصهم فى بنائهم ، فقال لبنى إسرائيل : إن لى فيه موضعا أنا محتاج إليه ، ولا يحلّ لكم أن تحجبونى عن حق ، فقالوا : يا هذا ما من أحد من بنى إسرائيل إلا وله فى هذا الصعيد حق مثل حقك ، فلا تكن أبخل الناس ولا تضايقنا فيه ، فقال : أنا أعرف حقى وأنتم لاتعرفون حقكم ، فقالوا له : أما ترضى وتطيب نفسك وإلا أخذناه منك كرها ؟ فقال لهم : أتجدون هذا فى حكم الله وحكم داود ؟ قال : فرفع خبره إلى داود عليه السلام ، فقال : أرضوه ، فقالوا : بكم نأخذه منه يا نبى الله ، قال : خذوه بمئة شاة ، فقال الرجل : زدنى يا نبى الله ، قال داود : خذوه بمئة بقرة ، قال : زدنى ، قال : بمئة بعير ، قال : زدنى يا نبى الله فإنما تشتريه لله تعالى والله كريم لايبخل ، فقال داود : حيث قلتَ هذا فاحتكم أعطكه ، قال : تشتريه بحائط مثله زيتونا ونخلا وعنبا ؟ قال نعم ، فقال الرجل :أنت تشتريه لله تعالى فلا تبخل ، قال : سل ما شئت ، قال : أنت أكرم على الله منى ولكن ابن لى حوله جدارا مشرفا ثم تملؤه ذهبا وإن شئت ورقا ، قال داود : هذا هيّن ، فالتفت الرجل إلى بنى إسرائيل وقال لهم : هذا هو التائب المخلص ، ثم قال لداود : يا نبى الله لأن يغفر الله لى ذنبا واحدا أحب إلىّ من كلّ شىء وهبت لى ، ولكنى كنت أختبركم فجدوا فى بناء بيت المقدس ، وكان ذلك فيما قيل لإحدى عشرة سنة مضت من ملك داود وكان داود ينقل الحجارة على ظهره ، وكذلك أخيار بنى إسرائيل حتى رفعوه قامة وعجزوا ، فأوحى الله تعالى إليه أن هذا بيت مقدّس وإنك رجل سفاك للدماء ولست ببانيه ، ولكن ابن لك أملكه بعدك اسمه سليمان أسلمه من سفك للدماء وأقضى إتمامه على يديه ، ويكون صيته وذكره وأجره باقيا لك ، فصلوا فيه زمانا إلى أن توفى داود عليه السلام واستخلف سليمان ، فأمره الله تعالى بإتمام بيت المقدس ، فجمع سليمان الجن والإنس والشياطين ، وقسم عليهم الأعمال ، وخص كل طائفة بعمل يصلح لها ، وأرسل الجن والشياطين فى تحصيل عمد الرخام والبلور الأبيض الصافى من معادنه ، وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفائح ، وجعلها اثنى عشر ربضا ، لكل ربض منها سبط من الأسباط ، وكانوا اثنى عشر سبطا . فلما فرغ من بناء المدينة ابتدأ فى بناء المسجد ، فوجه الشياطين فرقا : فريق منهم يستخرجون الذهب والفضة والياقوت من معادنه ، وفريق يغوصون فى البحر ويستخرجون أنواع الدر ، وفريق يقطعون أنواع الرخام ، وفريق يخوصون على الجواهر ، وفريق يأتون بالمسك والعنبر وأنواع الطيب من أماكنها ، فأتى بشىء من ذلك لايحصيه إلا الله تعالى ، ثم إنه أحضر الصناع وأمرهم بنحت تلك الحجارة وتنضيدها ألواحا وإصلاح

تلك الجواهر ونقشها ، فكانوا يعالجونها فتصوت صوتا شديدا لصلابتها ، فكره سليمان تلك الأصوات ، فدعا الجن وقال لهم : هل عندكم حيلة فى نحت هذه الجواهر من غير تصويت فقالوا : يانبى الله ليس فى الجن أكثر تجارب ولا أكثر علما من صخر العفريت ، فأرسلْ إليه من يأتيك به ، فطبع سليمان بخاتمه طابعا ، وكان يطبع للشياطين بالنحاس ، ولسائر الجن بالحديد ، وكان إذا طبع بخاتمه لمع ذلك كالبرق الخاطف ، فكان لايراه أحد من جن ولا شيطان إلا انقاد إليه بإذن الله تعالى ، فأرسل الطابع مع عشرة من الجن فأتوه به وهو فى بعض جزائر البحر ، فأروه الطابع ، فلما نظر إليه كاد أن يصعق خوفا ، فأقبل مسرعا مع الرسل حتى دخل على سليمان ، فسأل سليمان رسله عما أحدث العفريت فى طريقه ، فقالوا : يا نبى الله إنه كان يضحك فى بعض الأحايين من الناس ، فقال له سليمان : ما رضيت بتمردك علىَّ وترك المجىء إلى طاعتى حتى صرت تسخر من الناس ؟ فقال : يا نبى الله إنى لست أسخر منهم غير أن ضحكى كان تعجبا مما كنت أسمع وأرى فى طريقى ، فقال له سليمان : وما ذاك ؟ قال : مررت على شط نهر فوجدت رجلا ومعه بغلة يريد أن يسقيها ، وجرة يريد أن يستقى بها ، فسقى البغلة وملأ الجرة ، ثم أراد أن يقضى حاجته فشد البغلة بأذن الجرة فنفرت البغلة وكسرت الجرة ، فضحكت من حمق الرجل حيث توهم أن الجرة تحبس البغلة . ومررت أيضا برجل آخر وهو جالس عند إسكاف يستعمله فى إصلاح خفٍّ له ، فسمعته يشترط عليه أن يصلحه بحيث يبقى معه أربع سنين ونسى نزول ملك الموت إليه من قبله ، فضحكت من قلة عقله وجهله . ومررت بعجوز تتكهن وتخبر الناس بما لايعلمون من أمور السماء ، وقد كنت عهدت رجلا دفن فى موضع فراشها ذهبا كثيرا فى الدهور الخالية ، فرأيتها تموت جوعا وتحت رأسها ذهب كثير وهى لاتعلم بمكانه ، ثم تخبر الناس بأمر السماء ، فضحكت منها . ومررت برجل فى بعض المدن وقد كان به داء فيما قبلُ ، فأكل البصل فبرأ من دائه فصار يطلب الناس وكان لايأتيه أحد يسأله عن علة إلا أمره بأكل البصل ، وإنه لأضر شىء حتى إن ضرره يصل إلى الدماغ ، فضحكت منه . ومررت فى بعض الأسواق فرأيت الثوم وهو أفضل الأدوية يكال كيلا ، ورأيت الفلفل وهو من السموم القاتلة يوزن وزنا ، فضحكت . ومررت بناس قد جلسوا يبتهلون إلى الله ويسألونه الرحمة والمغفرة ، فقلَّ منهم قوم وقاموا ، وجاء آخرون فجلسوا ، فرأيت الرحمة قد نزلت عليهم وأخطأت الذين كانوا من قبل وغشيت الذين جاءوا ، فضحكت تعجبا للقضاء والقدر . فقال له سليمان : هل علمت من كثرة تجاربك وجولانك فى البحار شيئا ينحت لى هذه الجواهر فتلين ويسهل نحتها وثقبها بلا صوت ؟ قال : نعم يا نبى الله أعرف حجرا أبيض كاللبن يقال له السامور غير أنى لاأعرف معدنه الذى هو فيه ، وليس فى الطير شىء أحيل ولا أهدى من العقاب ، فأمر بفراخه أن تجعل فى صندوق من تلك الجواهر ، فإنه يأتى بذلك

الحجر فيضرب به الصندوق حتى يثقبه ليصل إلى أولاده . قال : فأمر سليمان بفراخ العقاب أن تضم فى صندوق من حجر منها يوما وليلة ، فحجب عن أفراخه ، فمر مسرعا وجاء بالحجر بعد يوم وليلة ، فثقب به الصندوق حتى وصل إلى أفراخه ، فوجه سليمان مع العقاب نفرا من الجن حتى أتوه منه بقدر ما علم أن فيه الكفاية ، واستعمل ذلك فى أدوات الصناع فسهل عليهم نحتها من غير صوت ، وهو حجر يستعمل فى نقش الخواتيم وثقب الجواهر إلى اليوم ، وهو ثمين عزيز . قالوا : فبنى سليمان المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر وعمده من المها الصافى ، وسقفه بألواح الجواهر الثمينة وفصص سقفه وحيطانه باللآلئ واليواقيت وأنواع الجواهر ، وبسط أرضه بألواح الفيروزج ، فلم يكن يوجد يومئذ فى الأرض بيت أبهى ولا أنور من ذلك المسجد ، وكان يضىء فى الليل كالقمر فى ليلة البدر . فلما فرغ منه جمع إليه أحبار بنى إسرائيل وأعلمهم أنه بناه لله تعالى وكل شىء منه خالص لله تعالى ، واتخذ ذلك اليوم الذى فرغ منه عيدا لم يتخذ فى الأرض قط أعظم عيد من ذلك اليوم ولا أطعمة أكثر منه ، فذبح فيه من الجزر ألف جزور ، ومن البقر خمسة وعشرين ألفا معلوفة ، ومن الغنم أربع مئة ألف شاة. قالوا: ومن عجائب ما اتخذ سليمان ببيت المقدس أنه بنى بيتا وطين حائطه بالجص وصقله ، فكان إذا دخله البارّ استبان خياله فى ذلك الحائط أبيض ، وإذا دخله الفاجر استبان خياله فى ذلك الحائط أسود ، فارتدع من ذلك كثير من الناس عن الفجور والخيانة ، ونصب فى زاوية من زوايا المسجد عصا آبنُوس ، فكان من مسها من أولاد الأنبياء لم يضره منها شىء ، ومن مسها من غيرهم احترقت يده .

فلما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس قرّب قربانا على الصخرة ثم قال : اللهم أنت وهبت لى هذا الملك منًّا منك علىّ ، وجعلتنى خليفتك على أرضك ، وأكرمتنى به من قبل أن أكون شيئا ، فلك الحمد ؛ اللهم إنى أسألك لمن دخل هذا المسجد خصالا : أن لايدخله أحد يصلى فيه ركعتين مخلصا فيهما إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ؛ ولا يدخله مذنب إلا تبت عليه ، ولا خائف إلا أمنته ، ولا سقيم إلا شفيته ، ولا مجدب إلا أخصبته وأغنيته ؛ وإذا أجبت دعوتى وأعطيتنى طلبتى فاجعل علامته أن تتقبل قربانى . قال : فنزلت نار من السماء فسدّت ما بين الخافقين ، ثم امتد منها عنق فاحتمل القربان وصعد به إلى السماء . وكان بيت المقدس على ما بناه سليمان عليه السلام إلى أن غزا بختنصر بنى إسرائيل ، فخرّب بيت المقدس وألقى فيه الجيف وكبسه بالتراب ، ونقل جميع ما فيه من الذهب والفضة والجواهر والآنية إلى أرض بابل ، وكان بيت المقدس خرابا إلى أن بناه المسلمون فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأمره ، والله أعلم .

باب قصة بلقيس ملكة سبأ والهدهد وما يتصل به

قال الله تعالى (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لاَ أَرَى الهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ) الآية . قالت العلماء بأخبار القدماء : إن نبى الله سليمان بن داود عليهما السلام لما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم ، فتجهز للمسير واصطحب معه من الناس والجن والشياطين والطيور والوحش ما بلغ عسكره مائة فرسخ ، وأمر الريح الرخاء فحملتهم ؛ فلما وافوا الحرم أقام به ما شاء الله أن يقيم وقرّب القرابين وقضى المناسكَ ، وبشر أهله بخروج نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأخبرهم أنه سيد الأنبياء وخاتم النبيين وأن ذلك مثبت فى زبورهم . ثم أحب أن يسير إلى أرض اليمن ، فخرج من مكة صباحا وسار نحو اليمن يؤم نجم سهيل ، فوافى صنعاء وقت الزوال ، وذلك مسيرة شهر ، فرأى أرضا بيضاء حسنة تزهو بخضرتها ، فأحب النزول بها ليصلى ويتغدى ، فطلبوا الماء فلم يجدوه ، وكان الهدهد دليله ، وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى أحدكم كأسه بيده ، فينقر الأرض فيعرف موضع الماء وعمقه ، ثم تجىء الشياطين فيسلخونه كما يسلخ الإهاب يستخرجون الماء . قال سعيد بن جبير : لما ذكر ابن عباس هذا الحديث قال له نافع بن الأزرق كيف يبصر الماء من تحت الأرض ولا يبصر الفخ إذا غطى له بقدر أصبع من تراب ؟ قال : ويحك إذا جاء القدر عمى البصر . وروى قتادة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَنهاكُمْ عَنْ قَتْلِ الهُدْهُدِ فإِنَّهُ كانَ دَلِيلَ سُلَيْمانَ عَلى المَاءِ » فطلب سليمان الهدهد فلم يجده ، فتوعده . ثم إن الهدهد لما جاء قال (وَجِئْتُكَ مِنْ سَبأ بِنَبأ يَقِينٍ إنى وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ) الآية . وذلك أنه لما نزل سليمان قال الهدهد فى نفسه : إن سليمان قد اشتغل بالنزول ، فارتفع إلى نحو السماء ونظر إلى طول الدنيا وعرضها ، ونظر يمينا وشمالا ، فرأى بستان بلقيس ، فمال إلى الخضرة فوقع فيها ، فإذا هو بهدهد اليمن فهبط عليه ، وكان اسم هدهد سليمان يعفور ، واسم هدهد اليمن عفير ، فقال عفير ليعفور : من أين أقبلت وإلى أين تريد ؟ قال : أقبلت من الشام مع صاحبى سليمان بن داود عليه السلام ، فقال له الهدهد : ومن سليمان بن داود ؟ قال : ملك الجن والإنس والشياطين والوحوش والرياح ، فمن أين أنت ؟ قال : أنا من هذه البلاد ، قال : ومن ملكها ؟ قال : امرأة ، قال : فما اسمها ؟ قال : يقال لها بلقيس ، وإن لصاحبكم سليمان ملكا عظيما ، ولكن ليس ملك بلقيس دونه ، فإنها ملكة اليمن كله ، وتحت يدها اثنا عشر ألف قيل ، مع كلّ قيل مئة ألف مقاتل ، والقيل : هو القائد بلغة أهل اليمن ، فهل أنت منطلق معى حتى تنظر إلى ملكها ، قال : فإنى أخاف أن يتفقدنى سليمان فى وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء ، فقال له الهدهد اليمانى : إن صاحبك ليسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة ، فانطلق معه حتى أتى بلقيس ونظر ملكها ، وما رجع إلى سليمان إلا

وقت العصر . قال : فلما نزل سليمان ودخل عليه وقت صلاة العصر طلب الهدهد ، وذلك أنه نزل على غير ماء ، فسأل الإنس عن الماء ، فقالوا لانعلم ههنا ماء ، فسأل الجن والشياطين ، فقالوا لانعلم ، فتفقد عند ذلك الهدهد ، فلم يجده فتوعده .

قال ابن عباس فى بعض الروايات عنه : وقعت قطعة من الشمس على رأس سليمان ، فنظر فإذا موضع الهدهد خال ، فدعا عريف الطير وهو النسر ، فسأله عن الهدهد فقال : أصلح الله الملك ، ما أدرى أين هو وما أرسلته إلى موضع ، فغضب عند ذلك سليمان وقال (لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ) . واختلف العلماء فى العذاب الشديد ما هو؟ فقال أكثر المفسرين : كان عذابه أن ينتف ريشه وذنبه ويدعه ممعطا ثم يلقيه فى بيت النمل فتلدغه . وقال الضحاك : لأنتفنه ولأشدنّ رجليه ولأشمسنه . وقال مقاتل : لأطلينه بالقطران ولأشمسنه ، وقيل لأودعنه القفص ، وقيل لأفرقن بينه وبين إلفه ، وقيل لأمنعنه من خدمتى (أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) أى حجة واضحة .

وروى عكرمة عن ابن عباس قال : كل سلطان فى القرآن حجة . قال : ثم دعا العقاب سيد الطيور ، فقال له : علىّ بالهدهد الساعة ، فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى التصق بالهواء ، فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدى أحدكم ، فنظر يمينا وشمالا ، فإذا هو بالهدهد مقبلا من نحو اليمن ، فانقضّ العقاب نحوه يريده . فلما رأى الهدهد أن العقاب يريده بسوء ناشده الله وقال : بحق الذى قوّاك وأقدرك علىّ إلا رحمتنى ولا تتعرض لى بسوء . قال : فولى العقاب عنه وقال له : ويلك ثكلتك أمك ، إن نبى الله سليمان قد حلف أن يعذبك أو يذبحك ، ثم طارا متوجهين نحو سليمان . فلما انتهيا إلى المعسكر تلقاهم النسر والطير كله وقالوا له : أين غبت فى يومك هذا ؟ فلقد توعدك نبى الله سليمان ، وأخبروه بما قال ، فقال الهدهد : وما استثنى نبى الله ؟ قالوا بلى إنه قال (أو ليأتينى بسلطان مبين) فطار الهدهد والعقاب حتى أتيا سليمان وكان قاعدا على كرسيه ، فقال العقاب : قد أتيتك به يا نبى الله ، فلما قرب الهدهد منه رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض تواضعا لسليمان ، فمد سليمان يده إلى رأسه فجبذها وقال : أين كنت لأعذبنك عذابا شديدا ، فقال له الهدهد : يا نبى الله اذكر وقوفك بين يدى الله ، فلما سمع ذلك سليمان ارتعد وعفا عنه .

أخبرنى الحسين بن محمد الثقفى باسناده عن عكرمة قال : إنما صرف سليمان عن ذبح الهدهد بره بوالديه ، ثم سأله : ما الذى أبطأك عنى ؟ قال الهدهد : ما أخبر الله به (أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ) أى علمت ما لم تعلم به (وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) واسمها بلقيس بنت اليشرح وهو الهدهاد . وقيل هى بلعمة بنت شراحيل بن ذى جدن بن اليشرح بن الحارث بن قيس بن صنعاء بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وكان أبو بلقيس الذى يسمى اليشرح ويلقب بالهدهاد

ملكا عظيم الشأن ، وكان ملك أرض اليمن كلها ، وكان يقول لملوك الأطراف : ليس أحد منكم كفؤا لى ، وأبى أن يتزوج منهم ، فزوجوه بامرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت الشكر ، وكانت الانس إذ ذاك ترى الجن وتخالطهم ، فولدت له بلعمة وهى بلقيس ، ولم يكن له ولد غيرها . وتصديق هذا ما أخبر به ابن ميمونة بإسناده عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « كانَ أحدُ أبَوى بلقيْس جِنّيًّا » قالوا : فلما مات أبو بلقيس ولم يخلف ولدا غيرها ، طمعت فى الملك وطلبت من قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وعصاها آخرون ، فاختاروا عليها رجلا فملكوه عليهم وافترقوا فرقتين ، كل فرقة منهم استولت على طرف من أرض اليمن ، ثم إن هذا الرجل الذى ملكوه أساء السيرة فى أهل مملكته حتى كان يمد يده إلى حرم رعيته يفجر بهن ، فأراد أصحابه خلعه فلم يقدروا عليه ، فلما رأت بلقيس ذلك أدركتها الغيرة ، فأرسلت إليه وعرضت نفسها عليه فأجابها الملك إلى ذلك وقال : ما منعنى أن أبتدئك بالخطبة إلا اليأس منك ، فقالت لا أرغب عنك فإنك كفوٌ كريم فاجمع رجالى وقومى واخطبنى منهم ، فجمعهم وخطبها منهم ، فقالوا : لا نراها تفعل هذا ، فقال : إنما هى التى ابتدأتنى وإنى أحب أن تسمعوا قولها فتشهدوا عليها ، فلما جاءوها وذكروا لها ذلك قالت : نعم إنى أحببت الولد ولم أجبه منذ كنت أرغب عن هذا والساعة قد رضيت له فزوجوها منه ، فلما زفت إليه خرجت فى أناس كثير من خدمها وحشمها حتى غصت منازله ودوره بهم ، فلما جاءته سقته الخمر حتى سكر ثم حزت رأسه وانصرفت من الليل إلى منزلها . فلما أصبح الناس ورأوا الملك قتيلا ورأسه منصوب على باب داره علموا أن تلك المناكحة كانت مكرا وخديعة منها ، فاجتمعوا إليها وقالوا لها : أنت أحق بهذا الملك من غيرك ، فقالت : لولا العار والنار ما قتلته ، ولكن رأيته قد عم فساده فأخذتنى الحمية ففعلت به ما فعلت ، فملكوها واستتبت أمرها فى المملكة . وروى ابن ميمونة بإسناده عن الحسن بن على عن أبى بكر قال : ذكرت بلقيس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « لا يُفْلِحُ قَوْمٌ وَلَوْا أمرَهُمُ امْرأةٌ » قالوا : فلما ملكت بلقيس اتخذت قصرا وعرشا .

صفة القصر الذى بنته بلقيس

قال الشعبىّ : روى أن بلقيس لما ملكت أمرت ببناء قصر ، فحمل إليها خمس مئة أسطوانة من رخام ، طول كل أسطوانة خمسون ذراعا ، فأمرت بها فنصبت على تل قريب من مدينة صنعاء ، وجعلت بين كل أسطوانتين عشرة أذرع ، ثم جعلت فيها سقفا منظومة ، بألواح الرخام وألحم بعضها إلى بعض بالرصاص حتى صارت كأنها لوح واحد ، ثم بنت فوق ذلك قصرا مربعا من آجرّ وجصّ ، فى كل زاوية من زواياه قبة من ذهب مشرفة فى الهواء ، وفيما بين ذلك مجالس حيطانها من ذلك وفضة مرصعة بألوان الجواهر

المربعة ، وجعلت فيه : أى فى باب ذلك القصر ممايلى المدينة برجا من الرخام الأبيض والأخضر والأحمر ، فى جوانبه حُجَر لحجابها ونوابها وحراسها وخدمها وحشمها على قدر مراتبهم .

صفة عرشها

كان مقدمه من ذهب ، مفصص باليواقيت الحمر والزمرد الأخضر ، ومؤخره من فضة مكلل بألوان الجواهر ، وله أربع قوائم : قائمة من ياقوت أحمر ، وقائمة من ياقوت أخضر ، وقائمة من زمرذ أخضر ، وقائمة من درّ أصفر ، وصفائح السرير من الذهب وعليه سبعون بيتا ، وعلى كل بيت باب مغلق ، وكان طوله ثمانين ذراعا فى ثمانين ذراعا فى الهواء ، فذلك قوله عز وجل (وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) أى مما تحتاج إليه فى الملك من الآلة والعُدة (وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) أى سرير ضخم حسن (وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ) وذلك أنها قالت لوزرائها : ما كان يعبد آبائى الماضون ؟ قالوا : كانوا يعبدون إله السماء ، قالت : وأين هو ؟ قالوا : هو فى السماء وعلمه فى الأرض ، قالت : فكيف أعبده وأنا لاأراه ، ولست أعرف شيئا أشد من نور الشمس ، فهى أولى ما ينبغى لنا عبادته ، فعبدت الشمس من دون الله تعالى وحملت قومها على عبادتها ، وكانوا يسجدون لها إذا طلعت وإذا غربت .

قال : فلما قال ذلك الهدهد لسليمان ، قال له سليمان (سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) ثم إن الهدهد دلّهم على الماء ، فاحتفروا الركايا وهى الآبار التى لم تطو ببطن كل واد ، فروى الناس والدوابّ وكانوا قد عطشوا .

ثم كتب سليمان كتابا : من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ ، بسم الله الرحمن الرحيم (السَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى) أما بعد (أَنْ لَا تَعْلُوا عَلَيَّ وَائْتُونِي مُسْلِمِينَ) .

قال ابن جريج وغيره : ولم يزد سليمان على ما قصّ الله تعالى فى كتابه شيئا ، وكان أبلغ الناس فى كتابه وأقله إملاء . وكذلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يكتبون جملا ولا يطيلون كتابا ولا يكثرون . قالوا : فلما كتب الكتاب طبعه بالمسك وختمه بخاتمه وقال للهدهد (اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ) وكن قريبا منهم (فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ) أى يردّون من الجواب . فأخذ الهدهد الكتاب وأتى به إلى بلقيس ، وكانت بأرض يقال لها مأرب من صنعاء على ثلاثة أيام ، فوافاها فى قصرها وقد غلقت الأبواب ، وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها ومضت إلى فراشها ، فأتاها الهدهد وهى نائمة مستلقية على ظهرها ، فألقى الكتاب على نحرها ، هذا قول قتادة . وقال مقاتل : حمل الهدهد الكتاب بمنقاره وطار حتى وقف على رأس المرأة ،

فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت المرأة رأسها ، فألقى الكتاب فى حجرها . وقال وهب بن منبه : كانت لها كوّة : يعنى طاقة مستقبلة للشمس تقع الشمس فيها حين تطلع ، فإذا نظرت إليها سجدت لها ، فجاء الهدهد إلى تلك الكوّة فسدّها بجناحيه ، فارتفعت الشمس ولم تعلم ، فاستبطأت الشمس فقامت تنظرها ، فرمى الصحيفة فى وجهها . قالوا : فأخذت بلقيس الكتاب ، وكانت قارئة كاتبة عربية من قوم تبع بن شراحيل الحميرىّ ، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت ، لأن ملك سليمان كان فى خاتمه ، وعرفت أن الذى أرسل هذا الكتاب هو أعظم ملكا منها ، وقالت : إن ملكا تكون رسله الطير لملك عظيم ، فقرأت الكتاب وتأخر الهدهد غير بعيد . ثم إنها جاءت حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملأ من قومها ، وهم اثنا عشر ألف قيل ، تحت يد كل قيل منهم مئة ألف مقاتل ، وكانت تكلمهم من وراء الحجاب ، فإذا حزبها أمر أسفرت عن وجهها . فلما جاءوا وأخذوا مجالسهم قالت لهم بلقيس : (إنّى أُلْقِىَ إلىّ كِتابٌ كَرِيمٌ) أى شريف لشرف صاحبه . وقال الضحاك : سمته كريما لأنه كان مختوما يدل عليه ما أخبرنى به أبو حامد الوراق بإسناده عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « كَرَمُ الكِتابِ خَتْمُهُ » . وقيل : سمته كريما لأنه مصدّر ببسم الله الرحمن الرحيم ، فذلك قوله تعالى (إنّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وإنّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ أنْ لاتَعْلُوا علَىّ وائْتُونى مُسْلِمِينَ) . ثم قالت (يا أيُّها المَلأُ أفْتُونى فى أمْرِى) وأشيروا علىّ فيما عرض لى (ما كُنْتُ قاطِعَةً أمْرًا حتى تَشْهَدُونِ) أى تحضرون ، فقالوا مجيبين لها (نَحْنُ أُولوا قُوّةٍ وأُولوا بأسٍ شَدِيدٍ) عند الحرب (والأمْرُ إلَيْكِ فانْظُرِى ماذا تأْمُرِينَ) تجدينا لأمرك طائعين . فقالت لهم بلقيس حين عرضوا أنفسهم للحرب (إنّ المُلُوكَ إذا دَخَلُوا قَرْيَةً أفْسَدُوها وَجَعَلوا أعِزّةَ أهْلِها أذِلّةً) أى أهانوا أشرافها وكبراءها لكى يستقيم لهم الأمر فصدّق الله قولها فقال (وكذلكَ يَفْعَلُونَ) أنشدنى أبو القاسم الجنيد فى هذا المعنى قال : أنشدنى أبى فى معناه :

إن الملوك بلاء حيثما حلّوا — فلا يكن لك فى أكنافهم ظلّ
ماذا تؤمّل من قوم إذا غضبوا — جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا
وإن مدحتهم خالوك تخدعهم — واستثقلوك كما يستثقل الكلّ
فاستغن بالله عن أبوابهم كرما — إن الوقوف على أبوابهم ذل

قال الله تعالى مخبرا عنها (وإنى مُرْسِلَةٌ إليهِمْ بِهَدِيّةٍ) وذلك أن بلقيس كانت امرأة لبيبة عاقلة ، قد ساست الملأ من قومها وجرّبت الأمر وساسته (إنى مرسلة إليهم) إلى سليمان وقومه بهدية أصانعه عن مُلكى وأختبره بها أملك أم نبى ؟ فإن يك ملكا قبل الهدية

وانصرف ، وإن يك نبيا لم يقبل الهدية ولم يرض منا إلا أن نتبعه على دينه . ثم إنها أهدت إليه وصفاء ووصائف . قال ابن عباس : ألبستهم لباسا واحدا حتى لايكون يعرف الذكر من الأنثى . وقال مجاهد : ألبست الغلمان لباس الجوارى ، وألبست الجوارى لباس الغلمان. واختلفوا فى عددهم ، فقال الكلبى : عشرة جوار وعشرة غلمان . وقال مقاتل : مِئة وصيف ومئة وصيفة . وقال مجاهد : مِئتا غلام ومِئتا جارية . وقال وهب : خمس مئة غلام وخمس مئة جارية ، وأرسلت إليه أيضا بصفائح الذهب ، واختلفوا فى كيفيتها وعددها.

أخبرنى ابن ميمونة بإسناده عن ثابت البُنَانىّ فى قوله تعالى (وإنى مرسلة إليهم بهديةٍ) قال : أهدت له صفائح الذهب فى أوعية الديباج . فلما بلغ ذلك سليمان أمر الجن فموّهوا له الآجرّ بالذهب ، ثم أمر به فألقى فى الطريق فى كل مكان . فلما جاءوا رأوه ملقًى فى الطريق فى كل مكان ، قالوا : قد جئنا نحمل شيئا نراه ههنا ملقًى لايلتفت إليه ، فصغر فى أعينهم ما جاءوا به ، وقيل كانت أربع لبنات من ذهب .

وقال وهب بن منبه وغيره من أهل الكتب : عمدت بلقيس إلى خمس مئة جارية وخمس مئة غلام ، فألبست الجوارى لباس الغلمان الأقبية والمناطق . وألبست الغلمان لباس الجوارى ، وجعلت فى سواعدهم أساور من ذهب ، وفى أعناقهم أطواقا من ذهب ، وفى آذانهم أقراطا وشنوفا مرصعات بأنواع الجواهر ، وحملت الجوارى على خمس مئة فرس ، والغلمان على خمس مئة برذون على كل فرس سرج من ذهب مرصع بالجواهر غواشيها من الديباج الملوّن ، وبعثت إليه أيضا خمس مئة لبنة من ذهب وخمس مئة لبنة من فضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت المرتفع ، وأرسلت إليه أيضا بالمسك والعنبر والعود والألَنجوج ، وعمدت إلى حقة فجعلت فيها درة ثمينة غير مثقوبة وجَزْع خرزة مثقوبة معوجّة الثقب ، ودعت رجلا من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو ، وضمت إليه رجالا من قومها أصحاب رأى وعقل ، وكتبت معهم كتابا بنسخة الهدية ، وقالت فى الكتاب : إن كنت نبيا فميز بين الوصائف والوصفاء ، وأخبرنا بما فى الحقة قبل أن تفتحها ، واثقب الدرة ثقبا مستويا ، وأدخل خيطا فى الخرزة . ثم أمرت بلقيس الغلمان فقالت لهم : إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام فيه تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء ، وأمرت الجوارى أن يكلموه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال ، ثم إنها قالت للرسول : انظر إلى الرجل إذا دخلت عليه ، فإن نظر إليك نظر غضب فاعلم أنه ملك فلا يهولنك منظره فأنا أعز منه ، وإن رأيته رجلا بشاشا لطيفا ، فاعلم أنه نبى مرسل ، فتفهم كلامه وردّ الجواب : فانطلق الرسل بالهدايا . فلما رأى الهدهد ذلك أقبل مسرعا إلى سليمان وأخبره بالخبر كله ، فأمر سليمان الجن أن يصنعوا له لبنا من الذهب والفضة ، ففعلوا ذلك ، ثم أمرهم أن يبسطوا له من موضعه الذى هو فيه إلى تسع فراسخ ميدانا واحدا بلبنات الذهب والفضة ، وأن يجعلوا حول الميدان حيطانا مشرفة

من الذهب والفضة ، ففعلوا ذلك ؛ فقال لهم : أىّ الدواب أحسن مما رأيتم فى البر والبحر؟ فقالوا : يا نبى الله إنا رأينا فى بحر كذا دواب مختلفة ألوانها ، لها أجنحة وأعراف ونواص ، فقال سليمان : علىّ بها الساعة ، فأتوه بها ، فقال : شُدُّوها عن يمين الميدان وعن يساره ، على لبنة الذهب والفضة ، وألقوا لها علوفة فيها ، ثم قال للجن علىّ بأولادكم ، فاجتمع خلق كثير فأقامهم فيها عن يمين الميدان وعن يساره ثم قعد سليمان فى مجلسه على سريره ووضع أربعة آلاف كرسىّ عن يمينه ومثلها عن يساره ، وأمر الشياطين أن يصطفوا صفوفا فراسخ ، وأمر الإنس فاصطفوا فراسخ ، وأمر الوحوش والسباع والهوامّ والطيور فاصطفوا فراسخ عن يمينه وعن يساره ، فلما أقبل القوم ودنوا من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان ، ورأوا الدواب التى لم تر أعينهم مثلها تروث على لبن الذهب والفضة تقاصرت إليهم أنفسهم ورموا بما معهم من الهدايا .

وفى بعض الروايات أن سليمان عليه السلام لما أمر بفرش الميدان بلبنات الذهب والفضة أمرهم أن يتركوا فى طريقهم على قدر اللبنات التى معهم ، فلما رأت الرسل موضع اللبنات خاليا ، وكلّ الأرض مفروشة خافوا أن يتهموهم بذلك فطرحوا مامعهم فى ذلك المكان .

قال : فلما جاءوا إلى الميدان ورأوا الشياطين نظروا إلى منظر عجيب ففزعوا منهم ، فقيل لهم : جوزوا فلا خوف عليكم . قال : فكانوا يمرون على كُرْدوس كردوس من الجن والإنس والطير والسباع والوحوش حتى وقفوا بين يدى سليمان عليه السلام ، فنظر إليهم سليمان نظرا حسنا بوجه طَلْق وقال : ما وراءكم ؟ فأخبره رئيس القوم بما جاءوا به ، وأعطوه كتاب الملكة . فلما نظر إليه وقرأه قال لهم : أين الحقة ؟ فأتى بها فحركها ، فجاءه جبريل عليه السلام فأخبره بما فى الحقة ، فقال : إن فيها درة ثمينة بلا ثقب ، وخرزة مثقوبة معوجة الثقب ، فقال له الرسول : صدقت فاثقب الدرة وأدخل الخيط فى الخرزة ، فقال سليمان عليه السلام : من لى بثقبها ؟ فسأل الإنس فلم يكن عندهم علم ذلك ، ثم سأل الجن فلم يكن عندهم علم ذلك ، ثم سأل الشياطين فقالوا له : أرسل إلى الأرضة ، فأرسل إليها ، فلما أتت ، أخذت شعرة فى فيها ومرت فى الخرزة حتى خرجت من الجانب الآخر ، فقال لها سليمان : سلى حاجتك ، قالت : أن تصيِّر رزقى فى الشجر ، قال : لكِ ذلك ، ثم قال : من لهذه الخرزة يسلكها بالخيط ؟ فقالت دودة بيضاء : أنا لها يا نبى الله ، فأخذت الدودة خيطا فى فيها ودخلت الثقب فخرجت من الجانب الآخر ، فقال لها سليمان : ما حاجتك ؟ فقالت : أن تصير رزقى فى الفواكه ، قال لها : لكِ ذلك . ثم إنه ميز بين الجوارى والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم ، فكانت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ثم تجعله فى اليد الأخرى ثم تضرب به الوجه ، والغلام يأخذ من الإناء بيديه ويضرب به وجهه ، وكانت الجارية تصب على باطن ساعدها ، والغلام على ظهر الساعد ، وكانت

الجارية تصب الماء صبا ، وكان الغلام يحدر الماء على ساعده حدرا ، فميز بينهم بذلك ؛ ثم رد سليمان الهدية كلها وقال (أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ) لأنكم أهل المفاخرة والمكاثرة فى الدنيا ولا تعرفون غير ذلك وليست الدنيا من حاجتى ، لأن الله تعالى قد مكننى منها ، وأعطانى مالم يعط أحدا من العالمين فيها ، ومع ذلك فالله سبحانه وتعالى أكرمنى بالنبوّة والحكمة ، ثم إنه قال للمنذر ابن عمرو أمير القوم (ارْجِعْ إِلَيْهِمْ) بالهدية (فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ، وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ) إن لم يأتونى مسلمين .

قالوا : فلما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان وأخبروها ، قالت : والله ما هذا بملك وما لنا به من طاقة ، فبعثت إلى سليمان عليه السلام إنى قادمة عليك بملوك قومى حتى أنظر ما أمرك ، وما تدعو إليه من دينك ؟ ثم إن بلقيس أمرت بعرشها فجعل فى سبعة أبيات بعضها داخل بعض فى آخر قصر من قصورها ، ثم أغلقت دونه الأبواب ووكلت به حراسا يحفظونه ، ثم إنها قالت لمن خلّفت على سلطانها : احتفظ بما قبلك وسرير ملكى ، فلا تخلص إليه أحدا ولا يراه حتى آتيك ، ثم إنها أمرت مناديا ينادى فى أهل مملكتها ليؤذنهم بالرحيل ، ثم شخصت إلى سليمان فى اثنى عشر ألف قيل من ملوك اليمن ، تحت يد كل قيل مئة ألف مقاتل . قال ابن عباس : وكان سليمان عليه السلام رجلا مهيبا لا يبتدئ بشىء حتى يكون هو الذى يسأل عنه ، فخرج يوما فجلس على سرير ملكه ، فرأى رهجا قريبا منه ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : بلقيس يا رسول الله ، قال : أو قد نزلت منا بهذا المكان ؟ قالوا : نعم .

قال ابن عباس : وكان ما بين الكوفة والحيرة قدر فرسخ ، فأقبل سليمان على جنوده وقال (أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) أى طائعين خاضعين .

واختلف العلماء فى السبب الذى لأجله أمر سليمان بإحضار العرش ؛ فقال أكثرهم : لأن سليمان علم أنها إذا أسلمت حرم عليه مالها ؛ فأراد أن يأخذ سريرها قبل أن يحرم عليه أخذه بإسلامها . وقال قتادة : لأنه أعجبه صفته لما وصفه الهدهد ، فأراد أن يراه قبل أن يراها . وقيل ليريها قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه فى معجزة يأتى بها فى عرشها (قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ) وهو المارد القوى (أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ) أى مجلسك الذى تقضى فيه . قال ابن عباس : كان له غداة كل يوم مجلس يقضى فيه إلى نصف النهار . واختلفوا فى اسمه ، فقال وهب : إنه كودى ، وقال شعيب : إنه كوذان (وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ) أى قوى على حمله (أَمِينٌ) على ما فيه من الجواهر . فقال سليمان : أريد أسرع من هذا ؛ (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ) واختلفوا فيه ،

فقال بعضهم : هو جبريل عليه السلام ، وقال آخرون : ملك من الملائكة أيد الله به نبيه عليه السلام ، وقال آخرون : بل كان رجلا من بنى آدم . ثم اختلفوا فيه ، فقال أكثر المفسرين : هو آصف بن برخيا بن شمعيا بن ملكيا ، وكان صديقا يعلم اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى .

أخبرنا ابن ميمونة بإسناده عن ابن عباس قال : إن آصف قال لسليمان حين صلى ودعا الله تعالى : مد عينيك حتى ينتهى طرفك . قال : فمد سليمان عينيه فنظر نحو اليمين ، فبعث الله الملائكة ، فحملوا السرير من تحت الأرض يخدون الأرض خدا ، حتى انخرقت الأرض بالسرير فنبع بين يدى سليمان .

واختلف العلماء فى الدعاء الذى دعا به آصف بن برخيا عند الإتيان بالعرش ؛ فروى عن عائشة رضى الله عنها وعن أبيها أن الاسم الأعظم الذى دعا به آصف بن برخيا : يا حى يا قيوم . وروى عن الزهرىّ قال : دعاء الذى عنده علم من الكتاب : يا إلهنا وإله كل شىء إلها واحدا ، لا إله إلا أنت ائتنى بعرشها . وقال مجاهد : يا ذا الجلال والإكرام .

حدثنا ابن ميمونة بإسناده عن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : الذى عنده علم من الكتاب رجل صالح ، وكان فى جزيرة من جزائر البحر ، فخرج ذلك اليوم ينظر مساكن الأرض ، وهل يعبد الله أو لا يعبد ؟ فوجد سليمان ، فدعا باسم من أسماء الله تعالى ، فإذا هو بالعرش قد حمل فأتى به سليمان عليه السلام من قبل أن يرتدّ إليه طرفه .
وبإسناده عن مجاهد قال : حدثنا سهيل بن حرب قال : زعم بن أبى بردة أن اسم الذى عنده علم من الكتاب أسطوم . وقال قتادة : اسمه مليخا . وقال محمد بن المنكدر : إنما هو سليمان آتاه الله علما وفقها ، قال له عالم من بنى إسرائيل (أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) فقال سليمان هات ، قال : أنت النبىّ ابن النبىّ وليس أحد عند الله أوجه منك ، فإن دعوت الله وطلبت منه كان عندك ، قال : صدقت ، ففعل ذلك فجىء بالعرش فى الوقت . فلما رأى سليمان العرش مستقرا عنده محمولا إليه من مأرب إلى الشام فى قدر ارتداد الطرف ، وهو مدة يسيرة (قَالَ هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ؟ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) أى لم ينفع بذلك إلا نفسه حيث استوجب شكره لتمام النعمة ودوامها ، لأن الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ) عن شكره (كَرِيمٌ) الإفضال عمن يكفر نعمته .
فقال سليمان عليه السلام (نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا) أى زيدوا فيه وانقصوا منه ، واجعلوا أعلاه أسفله ، وأسفله أعلاه (نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي) إلى عرشها فتعرفه (أَمْ تَكُونُ مِنَ) الجاهلين (الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ) إليه ، أراد أن يختبر عقلها . وإنما حمل سليمان على ذلك ما ذكره وهب بن منبه ومحمد بن كعب وغيرهما من أهل العلم أن الشياطين خافت أن يتزوجها

سليمان ويستولدها ، فتفشى إليه أسرار الجن ، فلا ينفكون من تسخير سليمان وذريته من بعده ، فأرادوا أن يزهدوه فيها ، فأساءوا الثناء عليها وقالوا له : إن فى عقلها شيئا ، وإن رجليها كحافر حمار ، فأراد سليمان أن يختبر عقلها بتنكير عرشها ، وينظر إلى قدميها ببناء الصرح . فلما جاءت بلقيس (قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ؟ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ) فشبهته به وكانت قد تركته خلفها فى بيت عليه سبعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها ، فلم تقرّ بذلك ولم تنكر فعلم سليمان كمال عقلها .

قال الحسين بن الفضل : شبهوا عليها فشبهت عليهم وأجابهم على حسب سؤالهم ، ولو قالوا لها : هذا عرشك ؟ لقالت نعم . فقال سليمان : (وَأُوتِينَا الْعِلْمَ) بابتلائها ومجيئها طائعة (مِنْ قَبْلِهَا) : أى من قبل مجيئها (وَكُنَّا مُسْلِمِينَ) طائعين خاضعين لله تعالى ، هذا قول مجاهد وغيره . وقال بعضهم : هو من قول بلقيس لما رأت عرشها عند سليمان قالت : قد عرفت هذا ، أوتينا العلم بصحة نبوة سليمان عليه السلام بالآيات المتقدمة من قبلها : أى من قبل هذه الآية (وَكُنَّا مُسْلِمِينَ) أى منقادين لك مطيعين لأمرك من قبل أن جئناك ، فلما وافت سليمان عليه السلام (قِيلَ لَهَا ادْخُلِى الصَّرْحَ) وذلك أن سليمان لما أقبلت بلقيس تريده أمر الشياطين فبنوا له صرحا : أى قصرا من زجاج كأنه الماء بياضا ، وأجروا من تحته الماء ، وألقى فيه السمك ، ثم وضع سريره فى صدره وجلس عليه ، وعكفت عليه الطير والجن والإنس . وإنما أمر ببناء الصرح لأن الشياطين قال بعضهم لبعض : قد سخر الله لسليمان ما سخر ، وبلقيس ملكة سبأ ينكحها فتلد غلاما فلا ننفك من العبودية والسخرة أبدا ، فأرادوا أن يزهدوه فيها فقالوا : إن رجلها رجل حمار وإنها شعراء الساقين لأن أمها كانت جنية ، فأراد سليمان أن يعلم حقيقة ذلك وينظر قدميها وساقيها فأمر ببناء الصرح .

وقال وهب بن منبه : إنما بنى الصرح ليختبر عقلها وفهمها يعاييها بذلك كما فعلت هى بتوجيهها إليه الوصائف والوصفاء ليميز بين الذكر والأنثى ، فلما جاءت بلقيس (قِيلَ لَهَا ادْخُلِى الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً) وهى معظم الماء (فَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا) لتخوضه إلى سليمان ، فنظر سليمان عليه السلام : فإذا هى أحسن الناس ساقا وقدما ، إلا أنها كانت شعراء الساقين ، فلما رأى سليمان ذلك صرف بصره عنها وناداها (إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ) وليس بماء ، فلما جلست قالت له : يا سليمان إنى أريد أن أسألك عن شىء ، قال سلى ، قالت : أسألك عن ماء ليس من الأرض ولا من السماء ، وكان سليمان إذا جاءه شىء لا يعلمه سأل عنه الإنس ، فإن كان عندهم علم ذلك وإلا سأل الجن ، فان علموا وإلا سأل الشياطين ، فسأل الشياطين عن ذلك فقالوا : ما أهون ذلك ، أؤمر بالخيل أن تجرى ثم املأ الآنية من عرقها ، فقال لها سليمان : عرق الخيل ، فقالت صدقت ، ثم قالت : أخبرنى عن كون ربك ، فوثب سليمان عن سريره وخر

ساجدا صَعِق ، فقامت عنه وتفرقت جنوده ، فجاءه جبريل عليه السلام وقال له : يا سليمان يقول لك ربك ما شأنك ؟ قال : يا جبريل ربي أعلم بما قالت ، قال : فإن الله يأمرك أن تعود إلى سريرك فترسل إليها وإلى من حضرها من جنودك وجنودها ، فتسألها وتسألهم عما سألتك عنه ، ففعل ذلك سليمان ، فلما دخلوا عليه واستقروا قال لها : عماذا سألتيني ؟ قالت عن ماء ليس من أرض ولا من سماء ، فأجبت ، قال : وعن أي شيء سألتيني أيضا ؟ قالت ما سألتك عن شيء إلا هذا ، فسأل الجنود فقالوا مثل قولها ، وأنساهم الله تعالى ذلك ، وكفى الله سليمان الجواب . ثم إن سليمان دعاها إلى الإسلام ، وكانت قد رأت حال الهدهد والهدية والرسل والعرش والصرح ، فأجابت وقالت (رَبِّ إني ظَلَمْتُ نَفْسِي - بالكفر - وأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ العالَمِينَ) .

واختلف العلماء في أمرها بعد الإسلام ، فقال أكثرهم : لما أسلمت بلقيس أراد سليمان أن يتزوجها ، فلما همّ بذلك كره لما رأى من شدة كثرة شعر ساقها ، وقال : ما أقبح هذا ، فسأل الإنس عما يُذهب ذلك ، فقالوا : الموسى ، فقالت المرأة : ما مسني حديد قط ، فكره سليمان الموسى ، وقال : إنها تقطع ساقها ؛ فسأل الجن فقالوا : لاندري ، ثم سأل الشياطين فتنكروا عليه ، وقالوا لاندري ، فلما ألحّ عليهم قالوا : نحن نحتال لك عليه حتى يكون كالفضة البيضاء ، فاتخذوا لها النُّورة والحمام .

قال ابن عباس : إنه أول يوم رؤيت فيه النورة ، فاستنكحها سليمان عليه السلام .

أخبرني ابن ميمونة بسنده عن أبي موسى يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال : أول من اتخذ الحمامات سليمان عليه السلام ، فلما التصق ظهره بالجدار قال : أوّاه من عذاب الله تعالى . قالوا فلما تزوجها سليمان أحبها حبا شديدا وأقرها على ملكها وأمر الجن فبنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعا وحسنا ، وهي : سَلْحِين وغُمدان وبَيْنُون . ثم إن سليمان كان يزورها في كل شهر مرة بعد أن ردها إلى ملكها ويقيم عندها ثلاثة أيام ثم يبكر من الشام إلى اليمن ومن اليمن إلى الشام .

وروى محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه : قال سليمان لبلقيس لما أسلمت وفرغ من أمرها : اختاري رجلا من قومك حتى أزوجك إياه ، قالت : ومثلي ينكح الرجال يا نبي الله ؟ وقد كان لي في ملكي وقومي من السلطان ما كان . قال : نعم إنه لايكون في الإسلام إلا ذاك ، ولا ينبغي لك أن تحرّمي ما أحل الله لك ، قالت : زوجني إن كان ولا بد من تُبّع الأكبر ملك هَمْدان فزوجه إياها ، ثم ردها إلى اليمن وسلط زوجها ذا تبع على اليمن ، ودعا سليمان زوبعة أمير جن اليمن فقال له : اعمل لذي تبع ما استعملك فيه ، قال : فصنع لذي تبع المصانع باليمن ، ثم لم يزل بها ملكا يعمل فيها ما أراد حتى مات سليمان عليه السلام . قال : فلما حال الحول وبلغ الجن موت سليمان أقبل رجل منهم فسلك

تهامة ، حتى إذا كان فى جوف اليمن صرخ بأعلى صوته : يامعشر الجن إن سليمان نبى الله قد مات فارفعوا أيديكم ، قال : فعمدت الشياطين إلى حجرين عظيمين ، فكتبوا فيهما كتابا بالمسند : يعنى خط الحميرية : نحن بنينا سلحين وبينون ، وبنينا صرواح ومرواح وفنقون ، وهندة وهنيدة ودلوم . وهذه الحصون كانت باليمن عملتها الشياطين لذى تبع ؛ ولولا صارخ بتهامة لما رفعوا أيديهم ، فانطلقوا وتفرقوا ، وانقضى ملك ذى تبع وملك بلقيس مع ملك سليمان عليه السلام ، والله أعلم .

باب فى ذكر غزوة سليمان عليه السلام أبا زوجته الجرادة ، وخبر الشيطان الذى أخذ خاتمه من يده ، وسبب زوال ملكه

قال الله تعالى (وألْقَيْنا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أنابَ) . وروى محمد بن إسحاق عن بعض العلماء أن سليمان أخبر أن فى جزيرة من جزائر البحر رجلا يقال له صيدون ، ملك عظيم الشأن لم يكن للناس إليه سبيل لمكانه فى البحر ، وكان الله قد آتى سليمان فى ملكه سلطانا لايمتنع عليه شيء فى برّ ولا بحر ، فخرج إلى تلك المدينة فحملته الريح على ظهرها حتى نزل عليها بجنوده من الجنِ والإنس ، فقتل ملكها وسبى ما فيها ، فأصاب فيما أصاب بنتا لذلك الملك ، يقال لها جرادة ، لم ير مثلها حسنا وجمالا ، فاصطفاها لنفسه ودعاها إلى الإسلام ، فأسلمت على يده فى الظاهر على خيفة منه وقلة ثقة ، فأحبها حبا شديدا لم يحبه أحدا من نسائه ، وكانت منزلتها عنده منزلة عظيمة ، وكانت على منزلتها عنده لايذهب حزنها ولايرقأ دمعها ، فشق ذلك على سليمان ، فقال لها : ويحك ما هذا الحزن الذى لايذهب والدمع الذى لايرقأ ؟ فقالت : إنى أذكر أبى وأذكر ملكه وسلطانه وما كان فيه فيحزننى ذلك ، فقال لها سليمان : قد أبدلك الله ملكا هو أعظم من ملكه ، وسلطانا هو أعظم من سلطانه ، وهداك الله إلى الإسلام ؛ وهو خير لك من ذلك كله . قالت : إن ذلك كذلك ولكنى إذا ذكرته أصابنى ما ترى من الحزن ، فلو أنك أمرت الشياطين يصوّرون لى صورته فى دارى التى أنا فيها أراه بكرة وعشية ، لرجوت أن يذهب ذلك حزنى ويسلينى عن بعض ما أجد فى نفسى . فأمر سليمان الشياطين أن يمثلوا لها صورة أبيها فى دارها حتى لاتنكر منه شيئا ، فمثلوه لها حتى نظرت إلى أبيها بعينه ، إلا أنه لاروح فيه ، فعمدت إليه حين صنعوه فأزرته وقمصته وعممته وردته بمثل ثيابه التى كان يلبسها ، ثم إنها كانت إذا خرج سليمان من دارها تغدو إليه فى ولائدها فتسجد له ويسجدن له معها كما كانت تصنع معه فى ملكه ، وتروح إليه كل عشية تفعل معه مثل ذلك ، وسليمان لايعلم بشيء من ذلك أربعين صباحا ، فبلغ ذلك آصف بن برخيا ، وكان صديقا وكان لايرد عن باب سليمان أى ساعة أراد دخول بيته دخل حاضرا أم غائبا ، فأتاه ، فقال : يا نبى الله كبر سنى ودق عظمى ونفد عمرى وقد حان الذهاب منى ، وقد أحببت أن أقوم مقاما قبل الموت أذكر

فيه من مضى من أنبياء الله تعالى وأثنى عليهم بعلمى فيهم وأعلم الناس بعض ما يجهلون من كثير من أمورهم ، فقال : افعل ، فجمع له سليمان الناس فقام فيهم خطيبا ، فذكر من مضى من أنبياء الله تعالى ، وأثنى على كل نبي بما فيه وذكر ما فضلهم الله به حتى انتهى إلى سليمان ، فقال له : ما كان أحكمك فى صغرك وأورعك فى صغرك وأفضلك فى صغرك ، وأحكم أمرك فى صغرك ، وأبعدك من كل ما يكره فى صغرك ، ثم انصرف ، فوجد سليمان فى نفسه من ذلك حتى امتلأ غيظا . فلما دخل سليمان داره أرسل إليه ، فلما أتاه قال له : يا آصف ذكرت من مضى من أنبياء الله تعالى ، فأثنيت عليهم خيرا فى كل أزمانهم ، وعلى كل حال من أمورهم ؛ فلما ذكرتنى أثنيت علىّ بخير فى صغرى وسكتّ عما سوى ذلك من أمرى فى كبرى ، فما الذى أحدثتُ فى آخر عمرى ؟ فقال له : إن غير الله يعبد فى دارك أربعين صباحا فى هوى امرأة ، فقال سليمان : فى دارى ؟ قال : نعم فى دارك ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، لقد علمت أنك ما قلتَ ما قلتَ إلا عن شيء بلغك . ثم إن سليمان رجع إلى داره فكسر ذلك الصنم ، وعاقب تلك المرأة وولائدها ، ثم إنه أمر بثياب الطهر فأتى بها ، وهى ثياب لايغزلها إلا الأبكار ولا تمسها امرأة ذات دم ، فلبسها ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده وأمر برماد ففرش ، ثم أقبل تائبا إلى الله تعالى حتى جلس على ذلك الرماد وتمعك فيه بثيابه تذللا لله تعالى وتضرعا إليه يبكى ويدعو ويستغفر مما كان فى داره ويقول فيما يقول : رب ما كان ينبغى لآل داود أن يعبدوا غيرك وأن يقروا فى دورهم وأهاليهم عبادة غيرك ؛ فلم يزل كذا يومه حتى أمسى ، ثم رجع إلى داره وكانت له وليدة يقال لها أمينة ، كان إذا دخل مذهبه أو أراد قضاء حاجة أو أراد إصابة امرأة من نسائه وضع خاتمه عندها حتى يتطهر ، وكان لايمس خاتمه إلا وهو متطهر ، لأن خاتمه كان من ياقوتة خضراء أتاه بها جبريل عليه السلام مكتوب عليه : لاإله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ملكه فى خاتمه ، فوضعه يوما من الأيام عندها كما كان يضعه عند دخول مذهبه ، فأتاها الشيطان صاحب البحر على صورة سليمان ، وكان اسمه صخرا ، فظنته سليمان لأنها لم تنكر منه شيئا ، فقال : يا أمينة خاتمى ، فناولته إياه فجعله فى يده ، ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان ، فعكفت عليه الطير والجن والإنس والشياطين ، فخرج سليمان فأتى إلى أمينة وقد تغير من حاله ونفسه ما كان معهودا منه عند كل من رآه ، فقال : يا أمينة خاتمى ، فقالت : ومن أنت ؟ قال : سليمان بن داود ، فقالت : كذبت لست سليمان ، فقد جاء سليمان وأخذ خاتمه وهاهو جالس على سرير ملكه ، فعرف سليمان أن الخطيئة قد أدركته ، فخرج سليمان وجعل يقف على الدار من دور بنى إسرائيل فيقول : أنا سليمان بن داود ، فيحثون عليه التراب ويسبونه ويقولون : انظروا إلى هذا المجنون وأى شيء يزعم ؟ يقول إنه سليمان . فلما رأى سليمان ذلك خرج متوجها

إلى البحر ، فكان ينقل الحيتان لأصحاب البحر من البحر إلى السوق ، فيعطونه كل يوم سمكتين ، فإذا أمسى باع إحدى السمكتين بأرغفة وشوى الأخرى فيأكلها ، فمكث كذلك أربعين صباحا عدة ما كان ذلك الوثن يعبد فى داره ، فأنكر آصف بن برخيا وعلماء بنى إسرائيل حكم عدو الله الشيطان فى تلك الأربعين يوما ، فقال آصف : يا معشر بنى إسرائيل هل رأيتم من اختلاف حكم سليمان ما رأيت ؟ قالوا نعم ، فقال : أمهلونى حتى أدخل على نسائه فأسألهن هل أنكرن منه فى خاصة أمره ما أنكرناه من عامة أمر الناس وعلانيته ؟ فدخل على نسائه فقال لهن : ويحكن هل أنكرتن من أمر سليمان بن داود ما أنكرناه ، فقلنا أشد ، ما يدع امرأة منا فى دمها ولا يغتسل من جنابة ، فقال آصف : إنا لله وإنا إليه راجعون، إن هذا لهو البلاء المبين . ثم إنه خرج إلى بنى إسرائيل فقال : ما فى الخاصة أعظم مما فى العامة . فلما مضت أربعون صباحا زال الشيطان عن مجلسه ، ثم مر فى البحر فقذف الخاتم فيه ، فابتلعته سمكة فاصطادها بعض الصيادين ، وقد عمل له سليمان صدر يومه ذلك ، حتى إذا كان العشاء أعطاه السمكتين ، وكان من جملتهما السمكة التى ابتلعت الخاتم ، فحمل سليمان سمكتيه ، فباع التى ليس فى بطنها الخاتم بالأرغفة ، ثم عمد إلى السمكة الأخرى فشقها ليشويها فوجد خاتمه فى جوفها ، فأخذه فجعله فى يده ، ووقع ساجدا ، فعكفت عليه الطير والجن والإنس والشياطين ، وأقبل على الناس وعلم أن الذى دخل عليه لما أحدث فى داره من عبادة الوثن ، فرجع إلى ملكه وأظهر التوبة من ذنبه ، ثم أمر الشياطين وقال : ائتونى بصخر المارد ، فطلبته الشياطين حتى أتت به ، فنحت له صخرة فأدخله فيها ثم سد عليه بأخرى ، ثم أوثقها بالحديد والرصاص ، ثم أمر به فقذف فى البحر . فهذا هو حديث وهب بن منبه .

وقال السدى فى سبب ذلك : كان لسليمان مئة امرأة ، وكانت امرأة منهن يقال لها جرادة وهى آثر نسائه وآمنهن عنده ، وكان إذا أراد أن يأتى حاجته أودخل مذهبه نزع الخاتم ولم يأتمن عليه أحدا من الناس غيرها ، فجاءته يوما من الأيام وقالت له : إن أخى بينه وبين فلان خصومة ، وأنا أحب أن تقتضى له إذا جاءك ، فقال نعم ولم يفعل ، فابتلى بقوله ، فأعطاها خاتمه ودخل المخدع ، فخرج الشيطان فى صورته فقال لها : هات الخاتم ، فأعطته فجاء حتى جلس على مجلس سليمان ، وخرج سليمان بعده ، فسألها أن تعطيه خاتمه ، فقالت له : ألم تأخذه ؟ فقال : لا ، فخرج من مكانه تائبا ، ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوما ، فأنكر الناس حكمه ، واجتمع قراء بنى إسرائيل وعلماؤهم ، فجاءوا حتى دخلوا على نسائه ، فذكروا لهن ما أنكروا ، فقلن ونحن قد أنكرنا هذا ، فإن كان سليمان قد ذهب عقله وأساء أحكامه فليس لنا صبر على ذلك ، وبكى النساء عند ذلك . قال : فأقبلوا يمشون حتى أتوه وأحدقوا به وأخذوا مجالسهم ، ثم إنهم نشروا التوراة فقرءوها ، فلما

قرءوا التوراة طار من بين أيديهم حتى ذهب إلى البحر ، فوقع الخاتم منه فى البحر فابتلعه الحوت . قال : وأقبل سليمان على حالته التى كان فيها حتى انتهى إلى صياد من الصيادين وهو جائع وقد اشتد جوعه ، فاستطعمهم من صيدهم ، وقال : إنى سليمان بن داود ، فقام إليه بعضهم فضربه بعصاه ، فشجه فسال دمه ، وهو على شاطئ البحر ، فلام الصيادون صاحبهم الذى ضربه وقالوا له : بئسما صنعت حيث ضربته ، فقال : إنه زعم أنه سليمان ابن داود ، فأعطوه سمكتين مما ضرب عندهم ، فلم يشغله ما كان فيه من ألم الضرب حتى قام إلى شاطئ البحر فشق بطنهما وجعل يغسلهما ، فوجد خاتمه فى بطن إحداهما ، فأخذه ولبسه ، فرد الله عليه ملكه وبهاءه ، وجاءت الطير حتى حامت عليه ، فعرفه القوم ، فجاءوا يعتذرون إليه مما صنعوا ، فقال : ما أؤاخذكم على عدوانكم ولا ألومكم على ما كان منكم ، هذا ما كان لابد منه ، ثم جاء حتى أتى ملكه ، وأمر أن يأتوا بالشيطان الذى أخذ خاتمه فأتى به فجعله فى صندوق من حديد ، ثم أطبقه وأقفل عليه بقفل وختمه بخاتمه ، ثم أمر به فألقى فى البحر ، وهو فيه كذلك إلى الساعة .

وفى بعض الروايات : أن سليمان عليه السلام لما افتتن سقط الخاتم من يده ، وكان فيه ملكه ، فأخذه سليمان وأعاده عليه فسقط من يده . فلما رآه سليمان لايثبت فى يده أيقن بالفتنة ، فقال آصف لسليمان : إنك مفتون بذنبك ، والخاتم لايتماسك أربعة عشر يوما ، ففرّ إلى الله تائبا من ذنبك ، وأنا أقوم مقامك وأسير فى عملك وأهل بيوتك بسيرك إلى أن يتوب الله عليك ، ويردك إلى ملكك ، ففرّ سليمان هاربا إلى ربه ، وأخذ آصف الخاتم فوضعه فى يده فثبت ، وإن الجسد الذى قال الله تعالى (وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب) هو آصف كاتب سليمان ، وكان عنده علم من الكتاب ، فأقام آصف فى ملك سليمان وعاله يسير بسيرته ويعمل بعمله أربعة عشر يوما ، إلى أن رجع سليمان إلى منزله تائبا إلى الله تعالى ورد الله عليه ملكه ، فأقام آصف من مجلسه وجلس سليمان على كرسيه وأعاد الخاتم فى يده فثبت . وقيل سبب ذلك ما أخبرنا شعيب بن محمد العجلى بإسناده عن سعيد بن المسيب : أن سليمان بن داود احتجب عن الناس ثلاثة أيام ، فأوحى الله إليه : أن يا سليمان احتجبت عن عبادى ثلاثة أيام فلم تنظر فى أمورهم ولم تنصف مظلوما من ظالم ، وذكر حديث الخاتم وأخذ الشيطان إياه كما رويناه ، وقال فى آخره : قال على كرم الله وجهه : ذكرت ذلك للحسن فقال : ما كان الله تعالى ليسلط على نسائه ، ونعوذ بالله أن يسلط الشيطان على نساء أنبيائه بالمباشرة ، وكيف يعتقد ذلك أحد ، وقد نزه الله تعالى أنبياءه عن مثل هذا القبيح ؛ وهذا القول أصح الأقوال وأليق بأنبياء الله تعالى وأقرب إلى التقوى .

وقال بعض المفسرين : كان سبب فتنة سليمان أنه أمر أن لايتزوج امرأة إلا من بنى إسرائيل فتزج وامرأة من غيرهم فعوقب على ذلك .

• وقيل إن سليمان عليه السلام لما أصاب بنت الملك صيدون أعجب بها وعرض عليها الإسلام فامتنعت ، فخوّفها سليمان ، فقالت له : إن أكرهتنى على الإسلام قتلت نفسى ، فخاف سليمان أن تقتل نفسها فتزوج بها مشركة ، فكانت تعبد صنما لها من ياقوتة أربعين صباحا فى خفية من سليمان إلى أن أسلمت ، فعوقب سليمان بزوال ملكه أربعين يوما .

وقال الشعبىّ فى سبب زوال ذلك : ولد لسليمان ابن ، فاجتمعت الشياطين فقال بعضهم لبعض : إن عاش له ولد لم تنفك مما نحن فيه من البلاء والسخرة ، فسبيلنا أن نقتل ولده أو نخبله ، فعلم سليمان ذلك ، فأمر السحاب أن تأخذ ابنه ، وأمر الريح فحملته وغدا ابنه فى السحاب ، فأمن مضرّة الشياطين ، فعاتبه الله لتخوفه من الشياطين ، ومات الولد فألقى على كرسيه ، وهو الجسد الذى قصه الله علينا بقوله (وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب) . والله تعالى أعلم .

باب فى ذكر وفاة سليمان عليه السلام

قال الله تعالى (فَلَمَّا قَضَيْنا عليهِ المَوْتَ) الآية . قال أهل التاريخ : بث سليمان فى ملكه بعد أن رده الله تعالى عليه تعمل له الجن والشياطين ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفانٍ كالجواب وقدور راسيات وغير ذلك ، ويعذب من الشياطين من يشاء ويطلق من يشاء ، ويأمرهم بحمل الحجارة الثقيلة ونقلها إلى حيث أحب . قال : فتزيا لهم إبليس وهم دائبون فى العمل ، فقال : كيف أنتم ؟ قالوا : ما لنا طاقة لما نحن فيه ، فقال إبليس تذهبون تحملون الحجارة ، وترجعون فراغا لاتحملون شيئا ؟ قالوا نعم ، قال : فأنتم فى راحة . قال : فأبلغت الريح ذلك سليمان ، فأمرهم أن يحملوا ذاهبين وراجعين ، فجاءهم إبليس فقال : كيف أنتم ؟ فشكوا إليه وأخبروه أنهم يحملون ذاهبين وراجعين ، فقال لهم إبليس : أتنامون بالليل ؟ قالوا : نعم ، قال : فأنتم فى راحة . قال : فأبلغت الريح ذلك سليمان ، فأمرهم أن يعملوا بالليل والنهار ، فتزيا لهم إبليس ، فشكوا إليه أنهم يعملون بالليل والنهار وأنهم دائبون فى العمل ، فقال : كيف أنتم ؟ قالوا : لاطاقة لنا فيما نحن فيه ، فقال لهم إبليس : وما يشاء فعله ؟ قالوا نعم ، قال : فتوقعوا الفرج وقد بلغ الأمر منتهاه ، فلم يلبثوا إلا قليلا وقد مات سليمان عليه السلام .

قال ابن عباس وغيره : كان سليمان عليه السلام يحتجب فى بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين ، وأقل من ذلك وأكثر ، يدخل فيه بطعامه وشرابه ، فدخله فى المرة التى مات فيها ، وكان بدء أمره فى ذلك أنه لم يكن يوما يصبح فيه إلا تنبت له ببيت المقدس شجرة فيسألها سليمان : ما اسمك ، فتقول الشجرة : اسمى كذا وكذا ، فيقول : لأى شىء أنت ؟ فتقول لكذا وكذا ، فيأمر بها فتقطع ، فإن كانت تنبت لغرس كتب عليها غرسها فى مكان كذا وكذا ، وإن كانت لدواء كتب عليها لكذا وكذا ، فبينما هو يصلى يوما ، إذ

رأى شجرة نابتة بين يديه ، فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الخرنوبة ، قال : ولأى شىء نبتك ؟ قالت : لخراب هذا المسجد ، فقال سليمان بن داود : ما كان الله تعالى ليخربه وأنا حى ، أنت التى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس ، فنزعها وغرسها فى حائط له ، ثم قال : اللهم عَمِّ على الجن موتى حتى تعلم الإنس أن الجن لايعلمون الغيب ، وكانت الجن تخبر الإنس، أنهم يعلمون الغيب من أشياء ، وأنهم يعلمون ما يكون فى غد . ثم إن سليمان دخل المحراب ، فقام يصلى متكئا على عصاه فمات ، ثم بقى على تلك الحالة ولم يعلم بذلك من الشياطين أحد، وهم مع ذلك يعملون ويخافون أن يخرج فيعاقبهم . وقال عبد الرحمن ابن زيد: قال سليمان لملك الموت : إذا أُمِرتَ بى فأعلمنى ، قال : فأتاه فقال : يا سليمان قد أمرت بك ، وقد بقى لك سويعة ، فدعا الشياطين فبنوا له صرحا من قوارير ليس له باب فقام يصلى واتكأ على عصاه ، فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متكئ على عصاه.

وفى رواية أخرى : أن سليمان عليه السلام قال ذات يوم لأصحابه : إن الله تعالى آتانى من الملك ما ترون ، وما مر علىَّ يوم فى ملكى صاف من الكدر ، وقد أحببت أن يكون لى يوم واحد يصفولى إلى الليل ولا أغتم فيه ولكن ذلك اليوم غدا ، فلما كان من الغد دخل قصرا له ، وأمر بإغلاق أبوابه ومنع الناس من الدخول عليه ، ومنع من رفع الأخبار إليه لئلا يسمع شيئا يسوءُه . ثم أخذ العصا بيده ووضعها فوق خصره واتكأ عليها ينظر إلى مماليكه إذ نظر شابا حسن الوجه عليه ثياب بيض ، قد خرج عليه من جانب القصر ، فقال له : السلام عليك يا سليمان ، فقال : وعليك السلام ، فكيف دخلت علىَّ هذا القصر بغير إذنى ، وقد منعت من دخوله ، أما منعك البوّاب والحجاب ، أما هبتنى حين دخلت قصرى بغير إذنى ؟ فقال : أنا الذى لايحجبنى حاجب ولا يدفعنى البوّاب ولا أخاف الملوك ولا أقبل منهم الرُّشا ، وما كنت لأدخل هذا القصر بغير إذن ، فقال له سليمان : فمن أذن لك فى دخوله ؟ فقال له : ربى . قال : فارتعد سليمان وعلم أنه ملك الموت ، فقال له : أنت ملك الموت ؟ قال نعم ، قال : فيم جئت ؟ قال : لأقبض روحك ، قال : يا ملك الموت هذا يوم أردت أن يصفو لى ولا أسمع فيه ما يغمنى ، فقال : يا سليمان إنك أردت يوما يصفو لك فيه عيشك حتى لايغمك فيه شىء ، وذلك يوم لم يخلق فى الدنيا ، فارض بقضاء ربك فإنه لامرد له ، قال : فاقبض كما أمرت ، فقبض ملك الموت روحه وهو متكئ على عصاه . قالوا : وكانت الشياطين تجتمع حوله وحول محرابه ومصلاه أينما كان ، وكان للمحراب بابان : باب بين يديه ، وباب خلفه ، فقال بعض الشياطين لصاحبه : إن كنت جليدا فادخل من الباب الذى بين يديه ، واخرج من الباب الذى خلفه ، فدخل ذلك البعض ، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان فى المحراب إلا احترق ، فمر ذلك الشيطان فلم يسمع صوته ، ثم رجع فلم يسمع ، فوقف بالبيت فلم يحترق ، فنظر إلى سليمان وقد سقط ميتا ، فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ، ففتحوا عليه فأخرجوه ، ووجدوا منسأته

وهى العصا بلغة الحبشة قد أكلتها الأرضة ، فلم يعلموا منذ كم مات ، فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوما وليلة ، ثم حسبوا على ذلك النحو ، فوجدوه قد مات منذ سنة ، وكانوا يعملون بين يديه وينظرون إليه ويحسبون أنه حى ولا ينكرون احتباسه عن الخروج إلى الناس لطول صلاته قبل ذلك .

وفى رواية ابن مسعود : فمكثوا يدانون له بعد موته حولا كاملا ، فأيقن الناس أن الجن كانوا يكذبون فى ادعائهم علم الغيب ، فلو أنهم علموا الغيب لعلموا موت سليمان ، ولم يلبثوا فى العناء والعذاب سنة يعملون له . ثم إن الشياطين قالوا للأرضة : لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام ، ولوكنت تشربين الماء لسقيناك أعذب الشراب ، ولكنا ننقل إليك الماء والطين شكرا لك ، فالذى يكون فى جوف الخشب هوما تأتيها به الشياطين والشياطين تسكن إليها ، فذلك قوله تعالى (فَلَمَّا قَضَيْنا عليهِ المَوْتَ ما دَلَّهُمْ على مَوْتِهِ إلاَّ دابَّةُ الأرضِ تأكُلُ مِنْسأتَهُ) . . . الآية .

قال أهل التاريخ : كان عمر سليمان عليه السلام ثلاثا وخمسين سنة ، ومدة ملكه منها أربعون سنة ، وذلك أنه ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وابتدأ فى بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين من ملكه . ثم ملك من بعد سليمان ابن له يقال له رحبعم ، وكان قد استخلفه ، فنبأه الله وكان نبيا ولم يكن رسولا ، ثم قبض ، وكان ملكه سبع عشرة سنة . ثم ملكهم بعده ابنه آفيا بن رحبعم ، وكان ملكه ثلاثا وستين سنة . ثم ملك بعده ابنه أسا بن آفيا وكان رجلا صالحا ، وكان أعرج يعتريه عرق النَّسا ، فطمع فيه الملوك لضعفه ، وافترقت ملوك بنى إسرائيل ، فغزاهم ملك من ملوك الهند يقال له روح الهند فى جمع كثير وقبيلة كبيرة ، فبعث الله عليهم الملائكة ، فهزمتهم فقصدوا البحر ، حتى إذا ركبوا جميعا بعث الله عليهم الرياح والأمواج فضربت سفنهم فى بعضها فتكسرت ، وغرق روح الهند ومن كان معه ، واضطربت الأمواج حتى ألقت أثقالهم وأموالهم وسلبهم إلى محلة بنى إسرائيل ونودوا أن خذوا ما غنمكم الله تعالى وكونوا له من الشاكرين ، ثم لم تزل تغزوهم الملوك ملك بعد ملك من ملوك العراق وغيرهم ، فيهلكهم الله تعالى إلى أن ظهر فيهم الظلم والفساد وفشت فيهم المعاصى ، وعبد بعض ملوك بنى إسرائيل الأصنام من دون الله تعالى ، فغضب الله عليهم بكفرهم ومعصيتهم وسلط عليهم بختنصر .

مجلس فى قصة بختنصر وما يتصل به

وخبر شعياء وأرمياء ودانيال وعُزَير عليهم وعلى جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قال الله تعالى (وَقَضَيْنا إلى بَنِى إسْرائيلَ فى الكِتابِ) . . . إلى قوله عز وجل (وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرينَ حَصِيراً) .

قصة شعياء عليه السلام

قال محمد بن إسحاق وغيره من أهل السير والأخبار: كان مما أنزل الله تعالى على موسى خبر بنى إسرائيل من أحداثهم وما هم فاعلون بعده كما قال الله تعالى (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ فِى الكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا) إلى قوله (حَصِيرًا) فكانت بنو إسرائيل يركبون الأحداث والذنوب ، وكان الله تعالى يتجاوز عنهم تعطفا عليهم وإحسانا إليهم ، وكان أول ما نزل بهم بسبب ذنوبهم من تلك الوقائع كما أخبر الله تعالى على لسان موسى عليه السلام: أن ملكا منهم كان يدعى صديقة، وكان الله تعالى إذا ملك ملكا من الملوك بعث له نبيا يسدده ويرشده ، ويكون واسطة فيما بينه وبين الله تعالى فيما يحدث من أمورهم ، ولا ينزل عليهم كتابا وإنما يأمرهم أن يأمروهم بأحكام التوراة والنهي عن المعاصى والمنكرات والدعاء إلى ما تركوا من الطاعات. فلما ملك ذلك الملك، بعث الله تعالى شعياء بن أمضياء ، وذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وعيسى ، وشعياء هو الذى بشر البيت المقدس حين شكا إليه الخراب فقال: أبشر فإنه يأتيك راكب الحمار ، ومن بعده صاحب البعير ، فملك ذلك الملك بنى إسرائيل وبيت المقدس زمانا فلما انقضى ملكه فيهم، عظمت الأحداث الرديئة، وشعياء معه، فبعث الله عليهم سنحاريب ملك بابل، فنزل هو وجنوده فى ستمئة ألف راية، فأقبل سائرا حتى نزل حول بيت المقدس والملك مريض فى ساقه قرحة شديدة ، فجاء إليه شعياء فقال : يا ملك بنى إسرائيل إن سنحاريب ملك بابل قد نزل هو وجنوده فى ستمئة ألف راية، وأقبل سائرا حتى نزل بيت المقدس ، وقد هابهم الناس وتفرقوا عنهم ؛ فكبر ذلك على الملك وقال : يا نبى الله هل أتاك وحى من الله فيما حدث فتخبرنا به كيف يفعل الله بنا وبعدونا سنحاريب وجنوده؟ فقال النبى : لم يأت وحى ؛ فبينما هم كذلك إذ أوحى الله تعالى إلى شعياء عليه السلام : أن ائت ملك بنى إسرائيل، فأمره أن يوصى بوصيته ، ويستخلف على مملكته من يشاء من أهل بيته وعترته ؛ فأتى شعياء صديقة فقال: إن ربك قد أوحى إلىّ أن آمرك أن توصى بوصيتك وتستخلف من شئت على ملكك من أهل بيتك فإنك ميت ؛ فلما قال ذلك شعياء لصديقة أقبل على الله تعالى وصلى ودعا وبكى وقال فى دعائه وهو يبكى ويتضرع إلى الله تعالى بقلب مخلص وظنّ صادق : اللهم رب الأرباب وإله الآلهة القدوس المقدس ، يا رحمن يا رحيم يارءوف يا من لاتأخذه سنة ولا نوم، اذكرنى بنيتى وفعلى وحسن قضائى فى بنى إسرائيل، وذلك كله كان منك وأنت أعلم به منى ، سرى وعلانيتى لك ، ثم إن الله استجاب دعاءه ورحمه، وكان عبدا صالحا، فأوحى الله تعالى إلى شعياء وأمره أن يخبر صديقة الملك أن ربه قد استجاب له ورحمه وقبل منه، وقد أخر أجله خمس عشرة سنة وأنجاه الله من عدوه سنحاريب ملك بابل وجنوده ، فأتى شعياء إليه وأخبره بذلك . فلما قال له

ذلك ذهب عنه الوجع وانقطع عنه الهزال وخرّ ساجدا لله تعالى وقال : يا إلهى وإله آبائى لك سجدت وسبحت وكبرت وعظمت ، أنت الذى تعطى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء عالم الغيب والشهادة ، أنت الأول والآخر والظاهر والباطن ، وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين ، أنت الذى أجبت دعوتى ورحمت تضرعى . فلما رفع رأسه أوحى الله تعالى إلى شعياء أن قل للملك صديقة أن يأمر عبدا من عبيده فيأتيه بماء التين فيجعله على قرحته فيشفى ، ففعل ذلك فبرأ ، فقال الملك لشعياء : سل ربك أن يجعل لنا علما بما هو صانع بعدوّنا ، فقال الله لشعياء : قل له إنى كفيتك عدوك هذا وأنجيتك منه ، وإنهم سيصبحون موتى كلهم إلا سنحاريب وخمسة نفر من كبرائه وكتابه . فلما أصبحوا جاءهم صارخ يصرخ على باب المدينة : يا ملك بنى إسرائيل قد كفاك الله عدوك فاخرج ، فإن سنحاريب ومن معه قد هلكوا ، فلما خرج التمس سنحاريب فلم يوجد فى الموتى ، فبعث الملك فى طلبه فأدركه الطلب هو ومن معه فى خمسة نفر من كبرائه فى مغارة أحدهم بختنصر ، فجعلوهم فى الجوامع ثم أتوا بهم ملك بنى إسرائيل ؛ فلما رآهم خر ساجدا لله تعالى من حين طلعت الشمس إلى العصر ، ثم قال : يا سنحاريب كيف ترى فعل ربنا بكم ، ألم يقتلكم بحوله وقوته ونحن وأنتم غافلون ، فقال له سنحاريب : قد أتانى خبر ربكم ونصرته إياكم من قبل أن أخرج من بلادى ، فلم أطع مرشدا ، ولم يلقنى فى الشقوة إلا قلة عقلى ، فلو سمعت وعقلت ما غزوتكم ، ولكن الشقوة غلبت علىّ وعلى من معى ، قال فقال صديقة : الحمد لله رب العالمين الذى كفاناكم بما شاء ، إن ربنا لم يبقك ومن معك لكرامتك عليه ، ولكن إنما أبقاك ومن معك لتزدادوا شقاوة فى الدنيا وعذابا فى الآخرة وتخبروا من وراءكم بما رأيتم من فعل ربنا بكم وبمن معكم ، ولَدَمُك ومن معك أهون عند الله من دم قرادة لو قتلت . ثم إن ملك بنى إسرائيل أمر أمير جيشه فقذف فى رقابهم الجوامع وطاف بهم سبعين يوما حول بيت المقدس وإيلياء ، وكان يطعمهم كل يوم رغيفين من شعير لكل رجل منهم ؛ فقال سنحاريب لملك بنى إسرائيل : القتل خير مما تفعل بنا ، فافعل ما أردت ، فأمر بهم الملك إلى سجن القتل ، فأوحى الله إلى شعياء أن قل للملك يرسل سنحاريب ومن معه لينذروا من وراءهم وليكرموا وليحملوا حتى يبلغوا بلادهم ، فبلغ شعياء الملك ذلك ، ففعل ؛ فخرج سنحاريب ومن معه لينذروا من وراءهم حتى قدموا بابل ؛ فلما قدموا جمع سنحاريب الناس فأخبرهم كيف فعل الله بجنوده ، فقال له كهانه وسحرته : يا ملك قد كنا نقصّ عليك خبرهم وخبر نبيهم ووحى الله إليه فلم تطعنا ، وهى أمة لا يستطيعها أحد ، وكان فى أمر سنحاريب مما خوفوا به ، ثم كفاهم الله إياه تذكرة وعبرة . ثم لبث سنحاريب بعد ذلك سبع سنين ثم مات ، واستخلف من بعده بختنصر ، وكان ابن ابنه ، وكان بختنصر يعمل كما يعملُ جده ويقضى بقضائه ، فلبث سبع عشرة سنة ، ثم قبض الله تعالى ملك بنى إسرائيل صديقة ؛ فمرج أمر بنى إسرائيل وتنافسوا فى الملك حتى

قتل بعضهم بعضا وظهر فيهم البغى والفساد ، ونبيهم شعياء فيهم لايرجعون إليه ولا يقبلون قوله . فلما فعلوا ذلك قال الله تعالى لشعياء عليه السلام : قم فى قومك يوح على لسانك ، فلما قام النبى أطلق الله لسانه بالوحى فقال : يا سماء اسمعى ويا أرض أنصتى ، فإن الله أراد أن يقضى شأن بنى إسرائيل الذين رباهم بنعمته واصطفاهم لنفسه وخصهم بكرامته وفضلهم على عباده واستقبلهم بالكرامة ، وهم كالغنم الضائعة التى لاراعى لها فآوى شاردها وجمع ضالها وجبر كسيرها وداوى مريضها وأسمن هزيلها وحفظ سمينها ، فلما فعل ذلك بطرت فتناطحت كباشها ، فقتل بعضهم بعضا حتى لم يبق منها عظم صحيح يجبر إليه كسير ، فويل لهذه الأمة الخاطئة الذين لايدرون أجاءهم الخير أم الشرّ ، وإن البعير يذكر وطنه فينتابه ، وإن الحمار يذكر الآرىّ الذى يشبع عليه فيراجعه ، وإن الثور يذكر المَسْرَح الذى يسرح فيه فينتابه ، وإن هؤلاء القوم لايدرون من أين جاءهم الخير ، وهم أولو الألباب والعقول ليسوا ببقر ولا حمير ، إنى ضارب لهم مثلا فليسمعوه ، قل لهم كيف ترون فى أرض كانت خرابا مواتا فبقيت خرابا زمانا طويلا لاعمران فيها ، وكان لها رب حكيم قوىّ ، فأقبل عليها بالعمارة ، وكره أن تخرب أرضه ، فأحاط عليها جدارا ، وشيد فيها قصرا ، وأجرى أنهرا ، وأنبت عليها غَرْسا من الزيتون والرمان والنخيل والأعناب وأنواع الثمار كلها ، وولى ذلك واستحفظه ذا رأى حفيظا قويا أمينا فانتظرها ، فلما أطلعت جاء طلعها خرنوبا فقال : بئست الأرض هذه ، نرى أن يهدم جدرها وقصرها ويغيض ماء نهرها ويحرق غرسها حتى تصير كما كانت خرابا أول مرة ، مواتا لاعمران فيها ، فقال الله تعالى : قل لهم إن الجدار ذمتى ، وإن القصر شريعتى ، وإن النهر كتابى ، وإن القيم نبيى ، والغراس هم ، وإن الخرنوب الذى أطلع الغراس أعمالهم الخبيثة ، وإنى قضيت عليهم قضاءهم على أنفسهم ، وإنه مثَل ضربه الله لهم ، فرهم يتقربوا إلىّ بذبح البقر والغنم ، وليس ينالنى اللحم ولا آكله ، ولكن يتقربون إلىّ بالتقوى والكف عن ذبح النفس التى حرمتها ، فأيديهم مخضوبة منها ، وبنانهم مزملة بدمائها ، ويشيدون لى البيوت والمساجد ، ويطهرون أجوافها وينجسون قلوبهم وأجسادهم ويدنسونها ، فأى حاجة لى إلى تشييد البيوت ولست أسكنها ، وأى حاجة لى إلى تزويق المساجد ولست أدخلها ، وإنما أمرت برفعها لأذكر فيها وأسبح . ولتكن معْلَما لمن أراد أن يصلى فيها ويقولون : لوكان الله يقدر على أن يجمع ألفتنا لجمعها ، ولو كان الله يقدر أن يفقه قلوبنا لفقهها ، فاعمد إلى عودين يابسين ثم ائتهما وهم فى أجمع ما يكون ، فقل للعودين إن الله يأمركما أن تكونا عودا واحدا ، فلما قال لهما ذلك اختلطا فصارا عودا واحدا ، فقال الله تعالى : قل لهم إنى قدرت على أن أؤلف بين العودين اليابسين ، فكيف لاأقدر على ألفتهم إن شئت ؟ أم كيف لاأقدر على أن أفقه قلوبهم وأنا الذى صورتهم ، يقولون صمنا فلم يرفع صيامنا ، وصلينا فلم تنوّر قلوبنا ، وتصدقنا فلم تزك صدقاتنا ، وإن دعونا بمثل حنين الجمال ، وبكينا بمثل عواء الذئاب فى ذلك لايسمع

ولا يستجاب لنا ، قال الله تعالى : فسلهم ما الذى يمنعنى أن أستجيب هم ؟ ألست أسمع السامعين وأنظر الناظرين وأقرب المجيبين وأرحم الراحمين؟ أذات يدى قلّت ، كيف ويداى مبسوطتان بالخير ، أنفق كيف أشاء ، مفاتيح الخزائن عندى لايفتحها غيرى ، أم يقولون رحمتى ضاقت ، فكيف ورحمتى وسعت كل شىء ، إنما يتراحم المتراحمون بفضلى ، أم يقولون البخل يعتريني ؟ أو لست أكرم الأكرمين ، وأنا الفتاح بالخيرات ؟ ألست أجوَدَ من أعطى وأكرم من سُئِل ؟ ولو أن هؤلاء القوم نظروا إلى أنفسهم بالحكمة التى نورت فى قلوبهم فتدبروها ولم يشتروا بها الدنيا ، لأبصروا وتيقنوا أن أنفسهم هى أعدى العداة لهم ، فكيف أرفع صيامهم وهم يَلْبِسونه بالزور ، ويتقوّون عليه بطعمة الحرام ، أم كيف أنور صلاتهم وقلوبهم طاغية تركن إلى من يحاربنى وينتهك محارمى ؟ أم كيف تزكو عندى صدقاتهم وهم يتصدقون بأموال غيرهم ، وإنما أجزى عليها أهلها المغصوبين ؟ أم كيف أستجيب لهم دعاء ، وإنما هو قول بألسنتهم والعقل من ذلك بعيد ، إنما أستجيب قول المستضعف المسكين ، وإن من علامة رضاى رضا المسكين ، ولو رحموا المساكين وقربوا الضعفاء وأنصفوا المظلوم ونصروا المغصوب وعالوا الغائب وأدوا إلى الفقير واليتيم والأرملة والمسكين حقه ، ولو كان ينبغى لى أن أكلم البشر إذن لكلمتهم وكففت أذاهم وكنت نور أبصارهم وسمع آذانهم ومعقول قلوبهم وأعمرت أركانهم ، وكنت قوة أيديهم وأرجلهم وكنت ألسنتهم ، إلا أنهم يقولون لما سمعوا كلامى وبلغتهم رسالتى : إنها أقاويل منقولة وأحاديث متواترة وتآليف فيما يؤلف السحرة والكهنة . وزعموا أن لو يشاءوا أن يأتوا بحديث مثله لفعلوا وأن يطلعوا على علم الغيب بما توحى إليهم الشياطين إذا طلعوا ، وكلهم يستخفى بالذى يقول ويسرّ ، وهم يعلمون أنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما يبدون ، وما يكتمون ، وإنى قد قضيت يوم خلقت السموات والأرض ، قضاء بينته على نفسى وجعلت له أجلا مؤجلا لابد أنه واقع ، فإن صدقوا فيما ينتحلون من علم الغيب فليخبروك متى أنفذه وفى أى زمان يكون؟ وإن كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاءون ، فليأتوا بمثل هذه القدرة التى بها أقضى ، فإنى مظهر على الدين كله ولو كره المشركون ، وإن كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاءون ، فليأتوا بمثل هذه الحكمة التى أدبر بها أمر ذلك القضاء إن كانوا صادقين ، فإنى قضيت يوم خلقت السموات والأرض بأن أجعل النبوة فى الأحرار ، وأجعل الملك فى الرعاء ، وأجعل العز فى الأذلاء ، والقوة فى الضعفاء ، والغنى فى الفقراء ، والثروة فى الأقلاء ، والمدائن فى الفلوات ، والآجام فى المفاوز ، والثرى فى الغيطان ، والعلم فى الجهلة ، والحكم فى الأميين ، فسلهم ممن هذا ، ومن القيم بهذا ، وعلى يد من أنشئه ، ومن أعوان هذا الأمر وأنصاره ؟ فإنى باعث لذلك نبيا أميا ، لا أعمى من العميان ، ولا ضالا من الضالين ، ليس بفظ ولا غليظ ولا بصخاب فى الأسواق ولا متزينا بالفحش ولا قوّالا بالخنا ، أسدده بكل جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، أجعل السكينة لباسه ، والبرّ شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة معقوله ، والصدق

والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والعدل سيرته ، والحق شريعته ، والهدى إمامه والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدى به بعد الضلالة ، وأعلم به بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة، وأشهر به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغنى به بعد الفقر ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به قلوبا مختلفة ، وأهواء مشتة ، وأمما متفرقة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بآياتى وتوحيدى ، يصلون قياما وقعودا وركوعا وسجودا ، ويقاتلون فى سبيل الله صفوفا وزحوفا ، ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله، ألهمهم التكبير والتحميد والتسبيح والتمجيد والتوحيد فى مسيرهم ومجالسهم ومضاجعهم ومتقلبهم ومثواهم ، يكبرون ويهللون ويقدسون على رءوس الأشراف ، ويطهرون لى الوجوه والأطراف ، ويعقدون الثياب فى الأنصاف ، قربانهم دماؤهم ، وقرآنهم فى صدورهم ، رهبان بالليل ليوث بالنهار (ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ) .

فلما فرغ نبيهم شعياء من مقالته غدوا عليه ليقتلوه ، فهرب منهم ، فلقيته شجرة ، فانفلقت له ، فدخلها ، فأدركه الشيطان فأخذ بهدبة من ثوبه ، فأراهم إياها ، فوضعوا المنشار فى وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه وهو فى وسطها ، والله أعلم :

قصة أرمياء عليه السلام

فاستخلف الله على بنى إسرائيل بعد قتلهم شعياء رجلا منهم يقال له ناشئة بن أموص ، وبعث الله إليهم الخضر نبيا ليسدده ويأتيه بالخبر من الله تعالى ، واسم الخضر أرمياء بن خلفياء ، وكان من سبط هارون بن عمران ، وإنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فقام عنها وهى تزهر خضراء ، فقال الله تعالى لأرمياء حين بعثه إلى بنى إسرائيل : يا أرمياء من قبل أن أخلقك اخترتك ، ومن قبل أن أصورك فى بطن أمك قدستك ، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك ، ومن قبل أن تبلغ السعي نبأتك ، ولأمر عظيم اجتبيتك ، فذكر قومك نِعَمى ، وعرّفهم أحداثهم ، وادعهم إلىّ ؛ فقال أرمياء : إنى ضعيف إن لم تقونى ، عاجز إن لم تنصرنى ، فقال الله تعالى : أنا ألهمك ، فقام أرمياء فيهم خطيبا ولم يدر ما يقول ، فألهمه الله تعالى فى الوقت خطبة بليغة طويلة بين لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية ؛ وقال لهم فى آخرها إن الله قال : فإنى أحلف بعزتى وجلالى، إن لم ينتهوا لأقيضنّ لهم فتنة يتحير فيها الحليم ، ولأسلطن عليهم جبارا قاسيا ألبسه الهيبة وأنزع من قلبه الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم . ثم أوحى الله تعالى إلى أرمياء عليه السلام : أنى مهلك بنى إسرائيل بيافث ، ويافث هم أهل بابل ، وهم من ولد يافث بن نوح . فلما سمع أرمياء بكى وصاح وشق ثيابه وحثى الرماد على رأسه ؛ فلما سمع الله تضرع أرمياء وبكاءه ناداه : يا أرمياء أشق عليك ما أوحيت إليك ؟ قال : نعم يا رب ، أهلكنى قبل أن أرى فى بنى إسرائيل

ما لا أسرّ به ، فقال الله تعالى : وعزتى وجلالى لا أهلك أحدا من بنى إسرائيل حتى يكون الأمر فى ذلك من قبلك، ففرح أرمياء بذلك وطابت نفسه وقال : والذى بعث موسى بالحق لا أرضى بهلاك بنى إسرائيل ، ثم أتى الملك فأخبره بذلك ، وكان ملكا صالحا ففرح واستبشر وقال : إن يعذبنا ربنا فبذنوب كثيرة ، وإن يرحمنا فبرحمته . ثم إنهم لبثوا بعد الوحى ثلاث سنين لم يزدادوا فيها إلا معصية وتماديا فى الشر ، وذلك حين اقترب هلاكهم وقلّ الوحى ودعاهم الملك إلى التوبة فلم يفعلوا، فسلط الله عليهم بختنصر، فخرج فى ستمئة ألف راية يريد أهل بيت المقدس ، فلما فصل بختنصر سائرا إلى الملك، أتى الملك الخبر ، فقال الملك لأرمياء : أنت زعمت أن الله أوحى إليك ؟ فقال أرمياء إن الله لا يخلف الميعاد وأنا به واثق . فلما قرب الأجل وأراد الله هلاكهم ، بعث الله إلى أرمياء ملكا قد تمثل له فى صورة رجل من بنى إسرائيل فقال له : يا نبى الله إنى أستفتيك فى أهل رحمى وصلت أرحامهم ولم أزل إليهم محسنا ولا يزيد إكرامى إياهم إلا استخفافا بى فأفتنى فيهم ، فقال له : أحسن فيما بينك وبين الله وصلهم وأبشر بخير ، فانصرف الملك . فما مكث إلا أياما ثم أقبل عليه فى صورة ذلك الرجل، فقعد بين يديه ، فقال له أرمياء : أو ما ظهرت أخلاقهم لك بعد ؟ قال : يا نبى الله والذى بعثك بالحق نبيا ما أعلم كرامة يأتيها أحد من الناس إلى أهل رحمه إلا قدمتها إليهم وأفضل ، قال أرمياء عليه السلام : ارجع إلى أهلك فأحسن إليهم وسل الله الذى يصلح عباده الصالحين أن يصلحهم . فقام الملك . فمكث أياما وقد نزل بختنصر وجنوده حول بيت المقدس بأكثر من الجراد ، ففزع منهم بنو إسرائيل وشق عليهم ، فقال ملكهم لأرمياء : يا نبى الله أين ما وعدك الله به ؟ قال : إنى بربى لواثق ، ثم أقبل الملك على أرمياء وهو قاعد على جدار بيت المقدس يضحك ويستبشر بنصر ربه الذى وعده ، فقعد بين يديه وقال له : أنا الذى أتيتك فى شأن أهلى مرتين ، فقال له أرمياء عليه السلام : ألم يأن لهم أن ينتهوا عن الذى هم فيه ؟ فقال له : يا نبى الله كل شىء كان يصيبنى منهم قبل اليوم كنت أصبر عليه ، واليوم رأيتهم فى عمل لا يرضى الله تعالى ، فقال أرمياء عليه السلام : على أى عمل رأيتهم ؟ قال : على عمل عظيم من سخط الله تعالى ، فغضبت لذلك وأتيتك لأخبرك ، وإنى أسألك بالله الذى بعثك بالحق نبيا إلا ما دعوت الله تعالى عليهم ليهلكهم ، فقال أرمياء : يا ملك السموات والأرض إن كانوا على حق وصواب فأبقهم ، وإن كانوا على سخطك وعمل لا ترضاه فأهلكهم. قال: فما خرجت الكلمة من فم أرمياء تماما حتى أرسل الله صاعقة من السماء فى بيت المقدس ، فالتهب مكان القربان وخسف بسبعة أبواب من أبوابه ؛ فلما رأى ذلك أرمياء صاح وبكى وشق ثيابه وحثا الرماد على رأسه وقال : يا ملك السموات والأرض أين ميعادك الذى وعدتنى ؟ فنودى : إنه لم يصبهم الذى أصابهم إلا بفتياك ودعائك ، ، فاستيقن أرمياء عليه السلام أنها فتياه وأن ذلك السائل كان رسول ربه ، فسار أرمياء حتى خالط الوحوش ودخل بختنصر

وجنوده بيت المقدس ، ثم آمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه ترابا ثم يقذفه فى بيت المقدس فقذفوا فيه التراب حتى ملئوه ، ثم انصرفوا إلى بابل واحتمل معه سبايا بنى إسرائيل ، وأمرهم أن يجمعوا ما كان فى بيت المقدس ، فجمعوا كل صغير وكبير من بنى إسرائيل ، فاختار منهم سبعين ألف صبى ، فلما أراد أن يقسم الغنائم فى جنده ؛ قالت له الملوك الذين كانوا معه أيها الملك لك غنائمنا كلها واقسم بيننا هؤلاء الصبيان الذين اخترتهم من بنى اسرائيل ، ففعل ذلك ، فأصاب كل واحد منهم أربعة غلمان ، وكان من أولئك الغلمان دانيال وحنانيا وعزازيا وميشايل ، وسبعة آلاف من أهل بيت داود ؛ وأحد عشر ألفا من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين ، وثمانية آلاف من سبط يساخر بن يعقوب ، وأربعة آلاف من سبط يهوذا بن يعقوب وأربعة آلاف من سبط روبيل ولا وى ابنى يعقوب ، ومن بقى من بنى إسرائيل جعلهم بختنصر ثلاث فرق : فثلثا أقره بالشام ، وثلثا سبى ، وثلثا قتل ، وذهب بأوانى بيت المقدس حتى أقدمها بابل ، وذهب بالغلمان السبعين ألفا وسائر السبايا حتى قدم بهم بابل ، وكانت هذه الوقعة الأولى التى أنزلها الله على بنى إسرائيل بأحداثهم وظلمهم ، وذلك قوله تعالى (فإذَا جاءَ وعْدُ أولاهما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عباداً لَنا أُولى بَأسٍ شَديدٍ) يعنى بختنصر وجنوده .

وكان بدء أمر بختنصر على ما روى حجاج عن ابن جريج عن يعلى بن مسلم عن سعيد ابن جبير قال : كان رجل من بنى إسرائيل يقرأ التوراة حتى إذا بلغ (بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد) بكى وفاضت عيناه وأطبق المصحف ، ثم انطلق إلى المسجد وقال : يارب أرنى هذا الرجل الذى جعلت هلاك بنى إسرائيل على يديه ، فأرى فى المنام أنه مسكين ببابل يقال له بختنصر ، فانطلق بمال وأعبد له ،وكان رجلا موسرا ، فقيل له أين تريد ؟ قال أريد التجارة ، ثم ذهب حتى نزل دارا ببابل ، فاستكراها ليس فيها أحد غيره ، فجعل يدعو المساكين ويتلطف بهم حتى لا يأتيه أحد مسكين إلا أعطاه ، فقال : هل بقى مساكين غيركم ؟ قالوا : نعم مسكين بفجّ آل فلان مريض يقال له بختنصر ، فقال لغلمانه : انطلقوا وانطلق معهم حتى أتاه ، فقال له ما اسمك ؟ قال بختنصر ، فقال لغلمانه : احملوه ، فنقله إليه ومرّضه حتى برئ فكساه وأعطاه نفقة ، ثم أذن الإسرائيلىّ فى الرحيل فبكى بختنصر ، فقال الإسرائيلىّ : ما يبكيك ؟ فقال : أبكى لأنك فعلت معى ما فعلت ولا أجد شيئا أجازيك به ، فقال : جزائى شئ يسير ، قال وما هو ؟ قال له : إن صرت ملكا وملكت بيت المقدس أتعطينى ما أطلبه؟ فجعل يتبعه ويقول له: أتستهزئ بى ، ولا يمنعه أن يعطيه ما سأله إلا أنه يرى أنه يستهزئ به ، قال : فبكى الإسرائيلىّ وقال : قد علمت ما يمنعك أن تعطينى ما سألتك إلا والله تعالى يريد أن ينفذ قضاءه ، فكتب له كتابا وضرب الدهر ضرباته . فقال يوما صيحون وهو ملك بابل لو أنا أرسلنا طليعة إلى الشام ، قالوا اما ضرك

لو فعلت ؟ قال : فمن ترون ؟ قالوا فلانا ، فبعث رجلا وأعطاه مئة ألف ، فخرج بختنصر فى مطبخه لم يخرج إلا ليأكل فى مطبخه . فلما قدم إلى الشام رأى صاحب الطليعة أكثر أهل الأرض فرسانا ورجالا جلدا ، فكبر ذلك فى عينه فلم يصل ولم يسألهم عن شىء وكان بختنصر دخل الشام ، ولم يزل يجلس مجلس أهل الشام ويسألهم ويقول لهم : ما منعكم أن تغزوا ببابل ، فلو غزوتموها لنلتم منها شيئا كثيرا ، فقالوا : إنا لانحسن القتال ولا نقاتل حتى انتقد مجالس أهل الشام وتعرّف سرائرهم ، ثم إن الطليعة رجعوا فأخبروا ملكهم بما رأوا ، وكان بختنصر رجع معهم ، فجعل يقول لفرّاش الملك : لو دعانى الملك لأخبرته غير الخبر الذى أخبره فلان وفلان ، فرفع ذلك إلى الملك ، فدعاه فأخبره الخبر وقال : إن فلانا لما رأى أكثر أهل الأرض كُراعا ورجالا جلدا كبر ذلك فى عينه ولم يسألهم عن شىء ، وإنى لم أدع مجلسا بالشام إلا جلست فيه أسأل أهله ، فقلت لهم كذا وكذا ، وقالوا كذا وكذا . قال سعيد بن جبير : قال صاحب الطليعة لبختنصر : فضحتنى لك مئة ألف دينار وترجع عما قلت ، فقال له : لو أعطيتنى بيت مال بابل ما رجعت عما قلت . ثم ضرب الدهر ضربانه ، فقال الملك : لو بعثنا جريدة خيل إلى الشام ، فإن وجدوا مساغا ساغوا وإلا أمسكوا ما قدروا عليه ، فقالوا : ما ضرك لو فعلت ذلك ؟ قال : فمن ترون ؟ قالوا فلانا ، قال : بل الرجل الذى أخبرنى بما أخبرنى ، فدعا بختنصر فبعثه ، ثم انتخب معه أربعة آلاف فارس من فُرسانهم ، فانطلقوا فجاسوا خلال الديار ، فسبَوا ما شاء الله تعالى ولم يخربوا ولم يقتلوا ، ومات صيحون الملك ، فقالوا : استخلفوا ملكا ، قالوا على رسلكم حتى تأتى أصحابكم ، فإنهم فرسانكم ، فأمهلوا حتى جاء بختنصر بالسبى وما معه فقسمه بين الناس ، فقالوا : ما رأينا أحدا أحق بالملك منه .

فهذه القصة الأولى ، فملكوه على أنفسهم .

وقال السدى بإسناده إن رجلا من بنى إسرائيل رأى فى المنام أن خراب بيت المقدس وهلاك بنى إسرائيل على يد غلام يتيم ابن أرملة من أهل بابل يدعى بختنصر ، وكانوا يصدقون فتصدق رؤياهم ، فأقبل يسأل عنه حتى نزل فى بيت أمه ، وكان قد ذهب يحتطب فجاء وعلى رأسه حزمة حطب فألقاها ، ثم قعد فى جانب البيت فكلمه ، ثم أعطاه ثلاثة دراهم وقال : له اشتربها طعاما وشرابا ، فاشترى بدرهم لحما وبدرهم خبزا وبدرهم خمرا ، وجاء به فأكلوا وشربوا ، حتى إذا كان اليوم الثانى فعل به مثل ذلك ، واليوم الثالث فعل كذلك ، ثم قال له الإسرائيلىّ : إنى أحب أن تكتب لى أمانا إذا أنت ملكت يوما من الدهر ، فقال بختنصر : أتسخر منى ؟ قال : لاأسخر منك ، ولكن ما عليك أن تجعل عندى لك يدا ، فكلمته أمه فقالت : ما عليك إن كان ، وإلا لم ينقصك شيئا ، فكتب له أمانا ، فقال : أرأيت إن جئتك والناس حولك قد حالوا بينى وبينك ، فاجعل لى علامة تعرفنى بها ، قال : ترفع صحيفتك على قصبة فأعرفك بها ، فكتب له أمانا وأعطاه ،

إياه ؛ ثم إن ملك بنى إسرائيل كان يكرم يحيى بن زكريا عليهما السلام ويدنى مجلسه ويستشيره فى أمره ولا يقطع أمرا دونه ، وإن الملك هوى أن يتزوج بنت امرأة له، هذا قول السدى، وقيل كانت بنت أخته ، لما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال : بعث عيسى بن مريم يحيى بن زكريا عليهم السلام فى اثنى عشر من الحواريين يعلمون الناس وكان فيما نهاهم عنه نكاح بنت الأخت . قال : وكان لملكهم ابنة أخت تعجبه ويريد أن يتزوجها ، وكان لها فى كل يوم حاجة يقضيها لها ، وذكر الحديث فى مقتل يحيى بن زكريا عليهما السلام .

رجعنا إلى حديث السدى : قال : فسأل يحيى عن نكاحها، فقال : لست أرضاها لك، فبلغ ذلك أمها ، فحقدت على يحيى حين نهاه أن يتزوج ابنتها ، فعمدت حين جلس الملك على شرابه ، فألبست ابنتها ثيابا حمرا رقاقا فاخرة ، وطيبتها وألبستها من الحلى شيئا لاقيمة له من غايته ، وألبستها فوق ذلك كساء أسود وأرسلتها إلى الملك وأمرتها أن تسقيه الخمر وأن تتعرض له ، فإن راودها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ما تسأله ، ويكون الذى تسأله أن تأتى برأس يحيى بن زكريا فى طشت ، ففعلت ذلك وجعلت تسقيه الخمر وتتعرض له ، فلما أخذ من يدها الشراب ، راودها عن نفسها ، فقالت : لاأفعل حتى تعطينى ما أسألك ؟ قال : وما تسألينى ؟ قالت : أسألك أن تبعث إلى يحيى بن زكريا فتأتينى برأسه فى طشت ، فقال : ويحك سلينى غير هذا ، قالت : ما أريد غير هذا . فلما أبت عليه بعث إلى يحيى فأتى برأسه ، فجعلت الرأس تتكلم حتى وضعت بين يديه وهى تقول : إنها لاتحل لك . فلما أصبح الملك ، وإذا دم يحيى يغلى ، فأمر بالتراب فألقى عليه ، فرقى الدم فوق التراب يغلى ، فألقى عليه أيضا وارتفع الدم فوقه ، فلم يزل يلقى عليه من التراب حتى بلغ سور المدينة وهو مع ذلك يغلى ، فبلغ سنحاريب ملك بابل ذلك ، فنادى فى الناس وأراد أن يبعث لهم جيشا ويؤمر عليهم رجلا، فأتاه بختنصر وكلمه وقال: إن الذى أرسلت تلك المرة ضعيف، وإنى قد دخلت المدينة وسمعت كلام أهلها فابعثنى ، فبعث بختنصر حتى إذا بلغوا ذلك المكان ورآهم أهله ، تحصنوا فى مدائنهم فلم يطقهم : فلما اشتد عليهم المقام وجاع أصحابه أرادوا الرجوع ، فخرجت إليهم عجوز من عجائز بنى إسرائيل وقالت : أين أمير الجند ؟ فأتى بها إليه ، فقالت له : بلغنى أنك تريد الرجوع بجندك قبل أن تفتح هذه المدينة . قال : نعم قد طال مقامى وجاع أصحابى ، فلست أستطيع المقام فوق الذى كان منى . قالت : أرأيتك إن دللتك على فتح المدينة تعطينى ما أسألك وتقتل من آمرك بقتله وتكف عمن آمرك بالكف عنه ؟ قال لها نعم ، قالت : إذا أصبحت فاقسم جندك أربعة أقسام ، ثم اقسم على كل زاوية ربعا ، ثم ارفعوا أيديكم إلى السماء ونادوا : يا ربنا دلنا على من قتل يحيى بن زكريا عليهما السلام ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تساقط سور المدينة ، ففعلوا ذلك فتساقط سور المدينة

ودخلوا من جوانبها ، فانطلقت به إلى دم يحيي بن زكريا عليهما السلام وقالت له : اقتل على هذا الدم حتى يسكن ، فقتل عليه سبعين ألفا حتى سكن . فلما سكن الدم قالت له : كفّ يدك ، فإن الله تعالى إذا قتل نبيّ لايرضى حتى يقتل من قتله ومن رضى بقتله ، وأتاه صاحب الصحيفة بصحيفته ، فكفّ عنه وعن أهل بيته ، وخرّب بيت المقدس وأمر أن تطرح فيه الجيف وقال : من طرح عليه جيفة فله جزيته فى تلك السنة ، وأعانه على خرابه الروم ، من أجل أن بنى إسرائيل قتلوا يحيي بن زكريا ، فلما خربه بختنصر ذهب بوجوه بنى إسرائيل وسراياهم .

قصة دانيال عليه الصلاة والسلام

وذهب دانيال وقوم من أولاد الأنبياء وذهب معه برأس جالوت . فلما قدم بختنصر أرض بابل وجد سنحاريب قد مات ، فملك مكانه واستقام له الأمر وثبت على ذلك مدة ؛ ثم إن بختنصر رأى رؤيا عجيبة فأفزعته ، فسأل عنها السحرة والكهنة فعجزوا عن تفسيرها فبلغ ذلك دانيال وكان فى السجن مع أصحابه ، وقد أحبه صاحب السجن وأعجب به لما رأى من حسن سمته وهدايته ، فقال دانيال لصاحب السجن : إنك قد أحسنت إلىّ ، وإن صاحبكم قد رأى رؤيا فدله علىّ لأعبرها له ، فجاء السجان وأخبر بختنصر بقصة دانيال فقال علىّ به ، وكان لايقف بين يديه أحد إلا سجد له ، فأتوا به فقام بين يديه ولم يسجد له ، فقال له : ما الذى منعك من السجود لى ؟ فقال له : إن لى ربا آتانى العلم والحكمة وأمرنى أن لاأسجد إلا له ، فخشيت إن سجدت لغيره أن ينزع منى العلم الذى آتانى ويهلكنى . فأعجب به وقال : نعم ما فعلت ، وقد أحسنت حيث وفيت بعهدك ، وأجللت علمه ، ثم قال له : هل عندك علم بهذه الرؤيا ؟ وهل لك فى تعبيرها ؟ قال نعم ، قال : فأخبرنى ، فأخبره رؤياه التى رآها قبل أن يخبره بها ، ثم عبرها . وكانت الرؤيا ما أخبرنا عبد الله ابن حامد بإسناده عن وهب بن منبه يقول : إن بختنصر رأى فى منامه صنما رأسه من ذهب وصدره من فضة وبطنه من نحاس وفخذه من حديد وساقه من فخار ، ثم رأى حجرا من السماء قد وقع عليه فدقه ، ثم ربا الحجر حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب ، ورأى شجرة أصلها فى الأرض وفرعها فى السماء ، ثم رأى رجلا بيده فأس ، وسمع مناديا ينادى : اضرب جذعها ليتفرق الطير عن فروعها وتتفرق الدواب والسباع من تحتها ، واترك أصلها قائما ، فعبرها له دانيال عليه السلام . فقال : أما الصنم الذى رأيت رأسه من ذهب فأنت الرأس الذهب وأنت أفضل الملوك ، وأما الصدر الذى رأيت من فضة فهو ابنك يملك من بعدك ، وأما البطن الذى رأيت من نحاس فملك يكون بعد ابنك ، وأما ما رأيت من الفخذ الذى من حديد ، فتتفرق فرقتان فى فارس تكونان أشد الملوك ، وأما الفخار فآخر ملكهم يكون دون الحديد ، وأما الحجر الذى رأيت قد وقع من السماء ، وربا حتى ملأ ما بين

المشرق والمغرب فنبيّ يبعثه الله فى آخر الزمان ، فيفرق ملكهم كلهم ويربو ملكه حتى يملأ ما بين المشرق والمغرب ، وأما الشجرة التى رأيت والطير الذى عليها والسباع والدواب التى تحتها وما أمر بقطعها ، فيذهب ملكك ويردك الله طائرا نسرا عظيما فتملك الطيور ، ثم يردك الله ثورا فتملك الدواب ، ثم يردك الله أسدا فتملك السباع والوحوش وتكون منذ مسخك الله على ما ذكرنا سبع سنين فى ذلك كله وقلبك قلب إنسان ، حتى تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ، وهو يقدر على الأرض ومن عليها . وأما ما رأيت من أن أصلها قائم فإن ملكك قائم . فسئل وهب بن منبه أكان مؤمنا أم لا ؟ فقال : وجدت أهل الكتاب قد اختلفوا فى ذلك ، فمنهم من قال مات مؤمنا ، ومنهم من قال مات كافرا ، لأنه حرق بيت المقدس والكتب التى فيه وقتل الأنبياء ، وغضب الله عليه غضبا شديدا فلم يقبل منه يومئذ توبته . قالوا : فلما عبر دانيال لبختنصر رؤياه وأخبره بها أكرمه وأكرم أصحابه ، وجعل يقبل عليه ويستشيره فى أموره حتى كان أكرم الناس عليه وأحبهم إليه ، فحسده المجوس على ذلك ، فوشوا به وبأصحابه إلى بختنصر فقالوا له : إن دانيال وأصحابه ما يعبدون إلهك ولا يأكلون ذبيحتك ، فدعاهم وسألهم ، فقالوا : أجل إن لنا ربا نعبده ولسنا نأكل من ذبيحتكم ، فأمر بأخدود فخدّ لهم وألقوا فيه وهم ستة ، وألقى معهم سبع ضار ليأكلهم ، ثم قال : انطلقوا لنأكل ونشرب ، فذهبوا فأكلوا وشربوا ، ثم إنهم رجعوا ، فوجدوهم جلوسا ، والسبع مفترش ذراعيه بينهم ولم يخدش منهم أحدا ولم ينكأهم بشىء ، ووجدوا معهم رجلا زائدا ، فعدوهم فوجدوهم سبعة ، فقالوا : ما بال هذا السابع ، وإنما كانوا ستة فخرج إليهم السابع ، وكان ملكا من الملائكة ، فلطم بختنصر لطمة فصار فى الوحوش والسباع ومسخه الله سبع سنين ، ثم رده إلى صورته ورد عليه ملكه . قال السدى : فلما رد الله عليه ملكه كان دانيال وأصحابه أكرم الناس عليه ، فحسدهم المجوس أيضا ووشوا بهم ثانية وقالوا لبختنصر : إن دانيال إذا شرب الخمر لم يملك نفسه أن يبول ، وكان ذلك فيهم عارا ، فجعل لهم بختنصر طعاما وشرابا فأكلوا وشربوا منه ، ثم قال للبواب : انظر أول من يخرج عليك ليبول فاضربه بالطبرذان ، فإن قال أنا بختنصر ، فقل له كذبت ، إن بختنصر أمرنى ، فحبس الله عن دانيال وأصحابه البول ، فكان أول من قام من القوم يريد البول بختنصر ، فقام مدلا ، وكان ذلك ليلا ، فقام يسحب ثيابه ، فلما رآه البواب شد عليه ، فقال له أنا بختنصر ، فقال كذبت إن بختنصر أمرنى أن أقتل كل من يخرج أولا ، ثم ضربه فقتله .

وأما محمد بن إسحق فإنه قال فى هلاك بختنصر غير ما قاله السدى . وذلك أنه قال بإسناده : لما أراد الله هلاك بختنصر قال لمن كان فى يده من بنى إسرائيل : أرأيتم هذا البيت الذى خربت ، وهؤلاء الناس الذين قتلت ، من هم؟ وما هذا البيت ؟ فقالوا : هذا بيت الله تعالى ومسجد من مساجده ، وهؤلاء أهله كانوا من ذرارىّ الأنبياء فظلموا وتعدوا وعصوا ،

فسلط الله عليهم عدوهم بذنوبهم ؛ قال : فأخبرونى ما الذى يطلع بى إلى السماء وأطلع عليها فأقتل من فيها وأتخذها ملكا ، فإنى قد فرغت من الأرض وما فيها ؟ قالوا : ما يقدر عليها أحد من الخلق ، فقال : لتفعلن أو لأقتلنكم عن آخركم ، فشكوا إلى الله تعالى وتضرعوا ، فبعث الله تعالى عليه بقدرته ليريه ضعفه وهوانه ، بعوضة دخلت ، منخره ثم ساخت فيه حتى عضت بأم دماغه ، فما كان يقر ولا يسكن حتى يضرب على أم دماغه . فلما عرف الموت قال لخاصته من أهله : إذا أنا مت فشقوا رأسى وانظروا ما الذى قتلنى . فلما مات شقوا رأسه ، فوجدوا البعوضة عاضة بأم دماغه ليرىَ الله العباد قدرته وسلطانه . ونجى الله تعالى من كان بقى فى يده من بنى إسرائيل ورحمهم وردهم إلى إيلياء والشام ، فبنوا فيها وربُوا وكثروا حتى كانوا على أحسن ما كانوا عليه . فيزعمون أن الله أحيا المؤمنين الذين قتلوا ولحقوا بهم ؟ ثم إنهم لما رجعوا إلى الشام وجدوا بختنصر قد أحرق التوراة وليس معهم عهد من الله ، فجدد الله توراتهم ، وردها إليهم على لسان عزير ، وسنذكر القصة فيه إن شاء الله تعالى . وكان عمر بختنصر أيام مسخه نيفا وخمسمئة عام وخمسين يوما . فلما مات بختنصر استخلف ابنه فلسطاس ، وكانت آنية بيت المقدس التى حملها بختنصر إلى بابل عنده ، وكان نجسها بلحوم الخنازير وشرب فيها الخمر ، وأقصى دانيال فلم يقبل منه ، فاعتزل دانيال ، فبينما فلسطاس قاعد ذات يوم ، إذ بدت له كف معلقة بغير ساعد ، فكتبت ثلاثة أحرف بمشهده ، ثم غابت ، فعجب من ذلك وتحير ولم يدر ما هى ! فدعا دانيال عليه السلام واعتذر إليه ، وسأله أن يقرأ له ذلك الكتاب ويخبره بتأويله ، فقال دانيال : بسم الله الرحمن الرحيم ، وزن فخفّ ، ووعد فأنجز ، وجمع ففرق ؛ فقال : أما قوله وزن فخف : أى وزن عملك فى الميزان فخفّ ؛ ووعد فأنجز : أى وعد ملكك بالخراب فأنجز اليوم ؛ وجمع ففرق : أى جمع لك ولوالدك من قبلك ملكا عظيما ، ثم فرق اليوم فلا يجتمع إلى يوم القيامة ، فلم يلبث إلا قليلا حتى أهلكه الله تعالى وضعف ملكهم ، وبقى دانيال عليه السلام بأرض بابل إلى أن مات بالسُّوس ، والله أعلم .

خبر وفاة دانيال عليه السلام

قال أهل الأخبار : لما فتح الله السوس على يد أبى موسى الأشعرىّ فى خلافة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، قتل أبو موسى ملكها سابور ، واحتوى على المدينة ، فغنم ما فيها وأخذ أموال سابور وملكها ، وجعل يدور فى الخزائن فيأخذ ما فيها حتى أفضى إلى خزانة مقفلة وقد ختم على قفلها بالرصاص ، فقال أبو موسى الأشعرىّ لأهل السوس : ما فى هذه الخزانة فإنى أراها مختومة بالرصاص ؟ فقالوا له : أيها الأمير ليس فيها شىء من حاجتك ، فقال : لا بد لى أن أعلم ما فيها ، فافتحوا بابها حتى أنظر ما فيها ، فكسروا القفل وفتحوا الباب ، فدخل أبو موسى الخزانة ، فنظر فإذا هو بحجر طويل محفور على مثال

الحوض وفيه رجل ميت ، وقد كفن بأكفان منسوجة بالذهب ورأسه مكشوفة ، قال : فتعجب أبوموسى من طوله وكل من كان معه ، ثم إنهم شبروا أنفه فإذا هو يزيد على شبر ، فقال أبو موسى لأهل السوس : ويحكم من هذا الرجل ؟ قالوا : إن هذا الرجل كان بالعراق ، وكان أهل العراق إذا حبس عنهم المطر استسقوا به فيسقون ، فأصابنا من قحط المطر ما كان يصيب أهل العراق ، فأرسلنا إليهم وسألناهم أن يدفعوه إلينا حتى نستسق به ، فأبوا علينا ، فرهنا عليه عندهم خمسين رجلا وحملناه إلى بلدنا هذا ، ثم استسقينا به فسقينا ، فرأينا من الرأى أن لانرده إليهم ، فلم يزل مقيما عندنا إلى أن أدركه الموت فمات ، فهذه قصته وحاله . قال : فأقام أبوموسى الأشعرى بالسوس وكتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخبره بما فتح الله عليهم من مدينة السوس وما والاها ، وكتب فى كتابه أمر ذلك الرجل الميت ؛ فلما وصل الكتاب وقرأه عمر بن الخطاب رضى الله عنه دعا أكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألهم عن ذلك ، فما وجد عند واحد منهم علمه ، فقال علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه : إن هذا الرجل دانيال الحكيم ، وهو نبى غير مرسل كان فى قديم الزمان مع بختنصر ومن كان بعده من الملوك ، وجعل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يحدث عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن قصة دانيال من أولها إلى آخرها إلى وقت وفاته ، ثم قال : اكتب إلى صاحبك وأمره أن يصلى عليه ويدفنه فى موضع لايقدر عليه أهل السوس ، فكتب عمر إلى أبى موسى بذلك ، فلما قرأ أبو موسى كتاب عمر أمر أهل السوس أن يكفوا نهرهم إلى موضع آخر ، ثم أمر بدانيال فكفن بأكفان غير التى كانت عليه ، ثم صلى عليه هو وجميع من كان معه من المسلمين ، ثم أمر بقبر فحفر له فى وسط النهر ، ثم دفنه وأجرى عليه النهر . فيقال إن دانيال عليه السلام فى نهر السوس والماء يجرى عليه إلى يومنا هذا ، والله أعلم .

قال الأستاذ رضى الله عنه : فهذا الذى ذكرت جميع أمر بختنصر الذى جاء فى التفسير ، إلا أن رواية من يروى أن بختنصر هو الذى غزا بنى إسرائيل عند قتلهم يحيى غلط عند أهل السير والأخبار والعلماء بأمور الماضين من أهل الكتاب والمسلمين ، وذلك أنهم مجمعون على أن بختنصر إنما غزا بنى إسرائيل عند قتلهم نبيهم شعياء وفى عهد أرمياء عليه السلام ، وهى الواقعة الأولى التى قال الله تعالى فيها (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ) . . . الآية ، يعنى بختنصر وجنوده . قالوا : ومن عهد أرمياء وتخريب بختنصر بيت المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا أربعُ مِئَة وإحدى وستون سنة ، وذلك أنهم يعدون من لدن تخريب بختنصر بيت المقدس إلى آخر عمرانه فى عهد كربى بن حرسو بن شير بن أصهيل ببابل من قبل بهمن اسفنديار ابن يستاسف سبعون سنة ، ثم من بعد عمرانه إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس

وإحصاره ملكها وضمه إلى مملكته ثمانية وثمانون سنة ، ثم من بعد ملكه بيت المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا ثلاثُ مِئةٍ وثلاثون سنة، وإنما الصحيح فى ذلك ما ذكره محمد ابن إسحاق بن يسار : قال عمرت بنو إسرائيل بيت المقدس بعد ما عمرت الشام وعاد إليها ملكها بعد إخراب بختنصر إياها وسبيهم منها، فجعلوا يحدثون الأحداث بعد مهلك عُزَير عليه السلام ، فبعث الله فيهم الأنبياء ، ففريقا يكذبون وفريقا يقتلون ، حتى كان آخر من بعث الله إليهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام ، وكانوا من آل داود عليه السلام ، فمات زكريا ، وقتل يحيى بسبب نهيه الملك عن نكاح تلك المرأة ، فلما رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى بن زكريا عليهم السلام بعث الله عليهم ملكا من ملوك بابل يقال له (كردوس) فسار إليهم بأهل بابل حتى دخل عليهم الشام ، فلما دخل عليهم أمر رئيسا من رءوس جنوده يقال له (بنورا زادان) صاحب القتل ، ، فقال له : إنى قد حلفت بإلههم لئن أنا ظهرت وظفرت على أهل بيت المقدس لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم فى وسط عسكرى إلى أن لا أجد أحدا أقتله ، فأمره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم ، ثم إن بنورا زادان دخل بيت المقدس ، فأقام فى البقعة التى كانوا يقربون فيها قربانهم ، فوجد فيها دما يغلى ، فسألهم عنه ، فقالوا : هذا دم قربان قربناه ، فلم يقبل منا فلذلك هو يغلى كما تراه، ولقد قربنا منذ ثمانِ مئة سنة القربان فقبل منا إلا هذا، قال: ما صدقتمونى الخبر . فقالوا له : لو كان أول دمائنا لقبل منا ، ولكنه قد انقطعت منا الملوك والأنبياء والوحى فلذلك لم يقبل، فذبح منهم بنورا زادان على ذلك الدم سبعَ مِئة وسبعين رئيسا من رءوسهم ، فلم يهدأ الدم ، فأمر بسبعة آلاف من بنيهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ ، فلما رأى بنورا زادان الدم لايهدأ قال لهم : ويلكم يا بنى إسرائيل اصدقونى قبل أن أفنيكم واصبروا على أمر ربكم ، فلقد طالما ملكتم فى الأرض تفعلون فيها ما شئتم ، صدقونى قبل أن لا أترك منكم نافخ نار ولا أنثى ولا ذكرا إلا قتلته ، فلما رأوا الجد وشدة القتل صدقوه الخبر وقالوا : إن هذا دم نبىّ منا كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله ، فلو أننا أطعناه فيها لكان أرشد لنا ، وكان يخبرنا بأمركم فلم نصدقه وقتلناه ، فهذا دمه يغلى ؛ فقال بنورا زادان : ما كان اسمه ؟ قالوا : يحيى بن زكريا ، قال : الآن صدقتمونى ، بمثل هذا ينتقم منكم ربكم . فلما رأى بنورا زادان أنهم صدقوه خرّ ساجدا وقال لمن حوله : أغلقوا أبواب المدينة وأخرجوا من كان هنا من جيش كردوس ، وأبقوا من بقى من بنى إسرائيل ، ثم قال : يا يحيى بن زكريا قد علم ربى وربك ما أصاب قومك من أجلك وما قتل منهم من أجلك ، فاهدأ بإذن الله تعالى قبل أن لاأبقى أحدا من قومك ، فهدأ دم يحيى بن زكريا بإذن الله تعالى ، ورفع بنورا زادان عنهم القتل ، ثم قال : آمنت بالذى آمنت به بنو إسرائيل وصدقت به وأيقنت أنه لارب غيره ، فأوحى الله تعالى إلى رأس من رءوس بقية الأنبياء أن بنورا زادان حنون صدوق ، وحنون بالعبرانية : حديث

الإيمان ، ثم إن بنورا زادان قال لبنى إسرائيل : إن عدو الله كردوس أمرنى أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره ، وإنى لست أستطيع أن أعصيه ، فقالوا له : افعل ما أمرت به ، فأمرهم فحفروا خندقا ، ثم أمر بأموالهم من الخيل والبغال والحمير والإبل والبقر والغنم فذبحوها حتى سال الدم فى العسكر ، وأمر بنقل الذين كانوا قتلوا قبل ذلك ، فطرحوا على ما قتل من مواشيهم وكانوا فوقهم ، فلم يظنّ كردوس إلا أن ما فى الخندق من بنى إسرائيل. فلما بلغ الدم إلى عسكره أرسل إلى بنورا زادان: أن ارفع عنهم القتل فقد بلغتنى دماؤهم ، ثم إنه انصرف عنهم إلى بابل وقد أفنى بنى إسرائيل أو كاد أن يفنيهم ، وهى الوقعة الأخيرة التى أنزل الله تعالى فيها قوله تعالى (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدنّ فى الأرض مرتين) الآيات ، فكانت الوقعة الأولى لبختنصر وجنوده ، ثم رد الله لهم الكرة ، وكانت لهم الديانة والرياسة ، وكانت الوقعة الأخيرة لكردوس وجنوده ، فلم تقم لهم من بعد ذلك قائمة ولا راية ، وانتقل عن الشام ونواحيها إلى الروم واليونانية إلى أن تناسل بنو إسرائيل وكثروا وانتشروا بعد ذلك ، وأحدثوا الأحداث ، واستحلوا المحارم وضيعوا الحدود ، فسلط الله عليهم بلطوس بن أسنابوس فخرب بلادهم وطردهم عنها ، ونزع الله تعالى منهم الملك والرياسة ، وضرب عليهم الذلة ، فليسوا فى أمة من الأمم إلا وعليهم الصغار والذلة والجزية ، والملك فى غيرهم وبقى بيت المقدس خرابا إلى أيام عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فعمره المسلمون بأمره ، والله أعلم .

باب فى ذكر الذى مرَّ على قرية وهى خاوية على عروشها

قال الله تعالى (أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) . . . الآية . واختلفوا فى ذلك المار من كان ؟ فقال عكرمة وقتادة والربيع بن أنس والضحاك والسدى هو عُزَير بن شرحيا . وقال وهب بن منبه وعبد الله بن حميد وعبيد بن عمير : هو أرمياء ابن خلفياء ، وكان من سبط هارون بن عمران ، وهو الخضر . واختلفوا أيضا فى القرية التى مر عليها ، فقال عكرمة ووهب وقتادة والربيع : هى بيت المقدس . وقال الضحاك : هى الأرض المقدسة . وقال السدى : هى سلماباذ. وقال الكلبى : هى ديرسايراباذ. وقيل دير هرقل ، وقيل هى قرية العنب ، وهى على فرسخين من بيت المقدس . وكان السبب فى ذلك ماروى محمد بن إسحاق بن يسار عن وهب بن منبه أن بختنصر لما وطئ الشام وخرّب بيت المقدس وقتل بنى إسرائيل وسباهم ، طار أرمياء حتى خالط الوحوش . فلما ولى بختنصر عنهم راجعا إلى بابل ومعه سبايا بنى إسرائيل،أقبل أرمياء على حمار له ومعه عصير عنب فى ركوة وسلة تين حتى غشى إيلياء . فلما وقف عليها وعاين خرابها (قَالَ أَنَّى يُحْيِى هٰذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) ؟ ثم ربط أرمياء حماره بحبل جديد ، وألقى الله تعالى عليه النوم ، فلما نام نزع منه الروح مئة عام ، ومات حماره ، وعصيره وتينه عنده ،

وأعمى الله عنه العيون فلم يره أحد ، وذلك ضحى ، ومنع الله السباع والطير عن حمه ؛ فلما مضى من موته سبعون سنة أرسل الله ملكا إلى ملِك من ملوك فارس عظيم يقال له (يوشك) فقال له : إن الله يأمرك أن تنفر بقومك وتعمر بيت المقدس وإيلياء وأرضهما حتى يعودا أعمر ما كانا ، فانتدب الملك ألف قهرمان، مع كل قهرمان ثلاثُ مِئة ألف (١) عامل ، وجعلوا يعمرونها ، وأهلك الله تعالى بختنصر ببعوضة دخلت فى دماغه ، ونجى الله تعالى من بقى من بنى إسرائيل ، ولم يمت منهم جميعا أحد ببابل ، وردهم الله تعالى إلى بيت المقدس ونواحيها ، فعمروها ثلاثين سنة ، وكثروا حتى كانوا كأحسن ما كانوا عليه ؛ فلما مضت المئة عام على عزير أحيا الله منه عينيه ، وسائر جسده ميت ، ثم أحيا جسده وهو ينظر ، ثم نظر إلى حماره فإذا عظامه متفرقة بيض تلوح ، وسمع صوتا من السماء . أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعى ، فاجتمع بعضها إلى بعض واتصل بعضها ببعض ؛ ثم نادى ثانية : إن الله يأمرك أن تكتسى لحما ودما وجلدا ، فكان كذلك ، ثم نادى إن الله يأمرك أن تحيَىْ ، فقام حماره ينهض بإذن الله تعالى ، وعمر الله أرمياء، فهو الذى يوجد فى الفلوات .

أخبرنى ابن فنحويه الحافظ بإسناده عن وهب قال : ليس فى الجنة كلب ولاحمار إلا كلب أهل الكهف وحمار أرمياء الذى أماته الله مِئة عام ثم بعثه . وقال الذين قالوا إن المار كان عزيرا : إن بختنصر لما خرب بيت المقدس قتل أربعين ألف رجل من قراء التوراة والعلماء بها ، وقتل فيهم أبا عزير وجده ، وكان عزير يومئذ غلاما ، قد قرأ التوراة وتقدم فى العلم ، فأقدمه مع سبايا بنى إسرائيل إلى أرض بابل ، وهو من ولد هارون ، وكان معه سبعة آلاف من أهل بيت داود . فلما نجا عزير من بابل ارتحل على حمار له حتى نزل على دير هرقل على شاطئ دجلة ، فطاف فى القرية فلم ير فيها أحدا ، وعامة شجرها حامل ، فأكل من الفاكهة واعتصر من العنب فشرب منه ، وجعل فضل الفاكهة فى سلة وفضل العصير فى زق . فلما رأى خراب القرية وهلاك أهلها قال (أنى يحي هذه الله بعد موتها) لم يشك فى البعث ، ولكن قالها تعجبا ، ثم ربط حماره بحبل جديد ونام (فأماتَهُ اللهُ مِئَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ) فأتاه جبريل عليه السلام فقال له (كَمْ لَبِثْتَ ؟ قالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) وذلك أن الله تعالى أماته ضحى وأحياه آخر النهار قبل غيبوبة الشمس ، فقال لبثت يوما ، وهو يرى أن الشمس قد غربت ، ثم التفت فرأى بقية الشمس ، فقال : أو بعض يوم ، فقال له جبريل عليه السلام : (بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عامٍ فانْظُرْ إلى طَعامِكَ) يعنى التين (وَشَرابِكَ) يعنى عصير العنب (لَمْ يَتَسَنَّهْ) يعنى لم يتغير (وانْظُرْ إلى

(١) قوله مع كل قهرمان ثلاث مئة ألف الخ، كذا بالأصل، وهو مما لايمكن عادة كما لايخفى . اه مصححه .

حمارك) قال قوم : وذلك أن الله تعالى لم يمت حماره ، فأحيا له الله تعالى رأسه ، وسائر جسده ميت ، ثم قال له : انظر إلى حمارك ، فنظر فرأى حماره قائما كهيئته يوم ربطه حيا لم يطعم ولم يشرب مئة عام ، ونظر إلى الرسن فى عنقه جديدا لم يتغير ، وهذا قول الضحاك وقتادة . وتقدير الآية على هذا القول : وانظر إلى حمارك وانظر إلى عظامك كيف ننشزها . وقال آخرون : أراد به عظام حماره كما قدمنا ذكره ، فذلك قوله تعالى (ولِنَجْعَلَكَ آيَةً للنَّاسِ) أى عبرة ودلالة على البعث بعد الموت . وقال الضحاك : هو أنه عاد إلى قريته وأولاده وأولاد أولاده ، فوجدهم شيوخا وعجائز وهو أسود الرأس واللحية .

أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمد الحافظ بإسناده عن ابن عباس قال : لما أحيا الله عزيرا بعد ما أماته مِئَةَ سنة ركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر منازله ، فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله ، فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مئة وعشرون سنة وكانت أمة له ، فخرج عنهم عزير وهى بنت عشرين سنة ، وكانت عرفته وعقلته ، فلما أصابها الكبر أصابتها الزمانة ، فقال لها عزير : يا هذه هذا منزل عزير ؟ قالت : نعم، هذا منزل عزير ، ما رأيت كذا وكذا سنة أحدا يذكر عزيرا وقد نسيه الناس ، قال : فإنى أنا عزير ، قالت : سبحان الله ، فإن عزيرا قد فقدناه منذ مِئَةِ سنة ولم نسمع له بذكر ، قال : فإنى أنا عزير ، كان الله قد أماتنى مِئَةَ سنة ثم بعثنى ، قالت : فإن عزيرا كان رجلا مستجاب الدعوة ، يدعو للمريض وصاحب البلاء بالعافية والشفاء فيعافيه الله تعالى ويشفيه ، فادع الله تعالى أن يرد علىَّ بصرى حتى أراك ، فإن كنت عزيرا عرفتك . قال : فدعا ربه ومسح بيده على وجهها وعينيها فاستجاب الله له فعوفيت ورد الله عليها بصرها ، ثم أخذ بيدها وقال لها : قومى بإذن الله تعالى ، فأطلق الله رجليها فقامت صحيحة كأنما أُنْشِطت من عقال ، فنظرت إلى عزير فعرفته ، فقالت : أشهد أنك عزير . ثم إنها انطلقت إلى محلة بنى إسرائيل وهم فى أفنيتهم ومجالسهم وابن عزير شيخ ابن مِئة سنة وثمان عشرة سنة، وبنو بنيه شيوخ فى المجلس ، فنادت هذا عزير قد جاءكم ، فكذبوها ، فقالت : أنا فلانة مولاتكم دعا لى ربه فردَّ علىَّ بصرى وأطلق رجلىّ ، وزعم أن الله أماته مِئَةَ سنة ثم بعثه . قال : فنهض الناس وأقبلوا إليه ، فقال ابنه : كانت لأبى شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه ، فكشف عن كتفه فإذا هى بحالها ، فعرف عند ذلك أنه عزير عليه الصلاة والسلام .

باب فى ذكر تمام قصة عزير عليه السلام ، وحاله بعد ما رجع إلى قومه

قال الله تعالى (وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ). روى عطية العوفىّ عن ابن عباس قال : قال : كان عزير من أهل الكتاب ، وكانت التوراة عندهم ، فعملوا بها ما شاء الله أن يعملوا ، ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق ، وكان التابوت فيهم . فلما رأى الله تعالى أنهم قد أضاعوها وعملوا بالأهواء رفع الله عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم ،

فأرسل الله عليهم مرضا ، فاستطلقت بطونهم حتى كان الرجل يمس كبده حتى نسوا التوراة وفيهم عزير ، فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا بعد ما نسخت التوراة من صدورهم ، وكان عزير قد أمر علماءهم أن يدعُوا الله تعالى ، فدعا الله هو وإياهم ، وابتهل أن يرد إليه ما نسخ من صدره ، فبينما هو يصلى مبتهلا إلى الله ، إذ نزل نور من السماء فدخل جوفه ، فعاد إليه الذى كان ذهب من صدره من التوراة ، فأذّن فى قومه وقال : يا قوم قد آتانى الله التوراة وردها إلىّ ، فطفق يعلمهم ، فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا وهو يعلمهم التوراة ، ثم إن التابوت نزل بعد ذلك بعد ذهابه منهم . فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذى كان يعلمهم عزير ، فوجدوه مثله ، فقالوا : والله ما أوتى عزير هذا إلا لأنه ابن الله .

قال السدىّ وابن عباس فى رواية عمار : إنما قالت اليهود هذا لأن العمالقة ظهروا عليهم فقتلوهم وأخذوا التوراة وهرب علماؤهم الذين بقوا ، ودفنوا التوراة فى الجبال وغيرها ، ولحق عزير بالجبال والوحوش ، وجعل يتعبد فى رءوس الجبال ، ولا يخالط الناس ، ولا ينزل إلا يوم عيد ، وجعل يبكى ويقول : يا رب تركت بنى إسرائيل بغير عالم ، وجعل يبكى حتى سقطت أشفار عينيه ، فنزل مرة إلى العيد ، فلما رجع فإذا هو بامرأة قد تمثلت له عند قبر من تلك القبور وهى تبكى وتقول : يا مطعماه يا مكسياه ، فقال لها عزير : يا هذه اتقى الله واصبرى واحتسبى ، أما علمت أن الموت سبيل الناس ، ثم قال لها : ويحك من كان يطعمك ويسقيك ويكسوك قبل هذا الرجل؟ يعنى زوجها الذى كانت تندبه ، فقالت : الله تعالى ، قال : فإن الله عز وجل حىّ لايموت أبدا ، قالت : يا عزير فمن كان يعلم العلماء قبل بنى إسرائيل ؟ قال : الله تعالى ، قالت : فلم تبكى عليهم وقد علمت أن الموت حق ، وأن الله حىّ لايموت؟ فلما علم عزير أنه قد خُصِم ولى مدبرا ، فقالت له : يا عزير إنى لست امرأة ولكنى الدنيا ، أما إنه سينبع لك فى مصلاك عين وتنبت شجرة ، فكل من تلك الشجرة واشرب من ماء تلك العين واغتسل وصل ركعتين ، فأنه سيأتيك شيخ ويعطيك شيئا ، فما أعطاك فخذ منه . فلما أصبح نبعت العين فى مصلاه ونبتت شجرة ، ففعل ما أمر به ، فجاء شيخ وقال له : افتح فاك ، ففتح فاه ، فألقى فيه شيئا كهيئة القوارير ثلاث مرات ، ثم قال له : ادخل هذه العين فامش فيها حتى تبلغ أملك . قال : فدخل وجعل لايرفع قدمه إلا زيد فى علمه ، فرجع إليهم وهو من أعلم الناس بالتوراة ، ثم قال : يا بنى إسرائيل قد جئتكم بالتوراة ، قالوا : يا عزير ما كنت كذابا ، فربط على كل أصبع له قلما ، وكتب بأصابعه كلها حتى كتب التوراة كلها عن ظهر قلبه ، فأحيا لهم التوراة والسنة . فلما رجع العلماء استخرجوا كتبهم التى دفنوها وقابلوها بتوراة عزير فوجدوها مثلها ، فقالوا : ما أعطى الله له هذا إلا لأنه ابنه .

وقال الكلبى : إن بختنصر لما ظهر على بنى إسرائيل وهدم بيت المقدس وقتل من قرأ التوراة ، وكان عزير إذ ذاك غلاما صغيرا ، فاستصغره فلم يقتله ، ولم يدر أنه قد قرأ

التوراة : فلما مات مئة سنة ورجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة ، بعث الله تعالى فيهم عزيرا ليجدد لهم التوراة ويكون لهم آية ، فأتاهم عزير وقال أنا عزير فكذبوه ، وقالوا : إن كنت عزيرا كما تزعم فأمل علينا التوراة ، فكتبها وقال : هذه التوراة . ثم إن رجلا قال : إن أبى حدثنى عن جدى أن التوراة جعلت فى خابية دفنت فى كرم فلان فى موضع كذا ، فانطلقوا معه حتى احتفروا وأخرجوا الخابية والتوراة فيها ، فأخذوها وقابلوها بما كتب لهم عزير ، فلم يجدوه غادر منها آية ولا حرفا فعجبوا وقالوا إن الله تعالى لم يقذف التوراة فى قلب رجل واحد منا بعد ما ذهبت من قلوبنا إلا أنه ابنه ، فعند ذلك قالت اليهود : عزير ابن الله .

مجلس فى ذكر غزوة بختنصر العرب

وقصة يوحنا وخراب حضور

قال الله تعالى (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ) إلى قوله (حَصِيداً خَامِدِينَ) قال هشام بن محمد الكلبى وغيره : كان بدء نزول العرب أرض العراق واتخاذهم الحيرة والأنبار منزلا أن الله تعالى أوحى إلى يوحنا ابن برخيا بن رزيابيل بن سنبسل ، وسنبسل هذا هو أول من اتخذ الطفيشل ، كان من ولد يهوذا بن يعقوب أن ائت بختنصر ، وأمره أن يغزو العرب الذين لاأغلاق لبيوتهم ولا أبواب ، ويطأ بلادهم ، ويقتل مقاتلهم ، ويستبيح أموالهم لكفرهم بى ، واتخاذ الآلهة دونى ، وتكذيبهم أنبيائى ورسلى ، وذلك بعد قتل أهل حضور ، وهى بلدة باليمن بعث الله فيهم نبيا ، فأقبل يوحنا حتى قدم على بختنصر ببابل ، فأخبره بما أوحى الله تعالى إليه ، وقص عليه ما أمره به ، وذلك فى زمن معدّ بن عدنان ، فأوحى الله تعالى إلى يوحنا أنى قد سلطت بختنصر على أهل قرية عربة لأنتقم به منهم ، فعليك بمعدّ بن عدنان الذى من ولده النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى أخرجه فى آخر الزمان وأختم به النبوة وأرفع به من أطاعه ، فخرج تطوى له الأرض حتى سبق بختنصر ، فلقى عدنان وقد تلقاه ، فنظر إلى معدّ ، ولمعدّ يومئذ اثنتا عشرة سنة ، فحمله يوحنا على البراق وأردفه خلفه ، فانتهيا إلى أرض نجران من ساعتهما . قالوا : ووثب بختنصر على من كان فى بلاده من تجار العرب ، وكانوا يقدمون عليه بالتجارات والامتيار ، فجمع من ظفر به منهم ، فبنى لهم ديرا على نجف وحصنه ، ثم ضمهم فيه فقيدوا ووكل بهم حرسا وحفظة ، ثم نادى فى الناس بالغزو ، فتأهبوا لذلك وانتشر الخبر فيمن يليهم من العرب ، فخرجت إليه الطوائف منهم مسالمين مستأمنين ، فاستشار بختنصر فيهم يوحنا ، فقال : إن خروجهم إليك من بلادهم قبل نهوضك إليهم رجوع منهم عما كانوا عليه ، فاقبل منهم وأحسن إليهم . قال : فأنزلهم

بختنصر السواد على شاطئ الفرات ، والتقى بختنصر مع العرب فهزمهم وأثخن فيهم بالقتل والأسر ، وسار حتى بلغ الحجاز ، والتقى عدنان فى قومه من العرب وبختنصر بذات عرق فهزمهم ، ونادى مناد من جوف السماء : يا لثارات الأنبياء ، فأخذتهم السيوف من خلفهم ومن بين أيديهم ، فندموا على ذنوبهم ونادوا بالويل ، فذلك قوله تعالى (فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنهَا يَرْكُضُونَ) أى يسرعون هاربين ، فأخذتهم السيوف ، وقالت لهم الملائكة (لاتَرْكُضُوا وارْجِعُوا إلى ما أُتْرِفْتُمْ فيهِ وَمَساكِنِكُم) ... الآية ، فلما عرفوا أنه واقع بهم أقروا بالذنوب (قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ فَما زَالَتْ تِلكَ دَعْوَاهُمْ) فما زالوا يدعون بها حتى هلكوا ، فذلك قوله تعالى (فَما زَالَتْ تِلكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ) ثم رجع بختنصر إلى بابل بما جمع من سبايا العرب فألقاهم فى الأنبار ، فقيل : أنبار العرب ، وانضم إليه المستأمنون من العرب ، وخلى بختنصر أهل الدير بعد فراغه من غزو العرب ، وابتنوا لأنفسهم بلدين ، فسموا إحداهما الأنبار ، والأخرى الحيرة ، وخالطهم بعد ذلك النبط ، ومات عدنان وبقيت بلاد العرب خرابا فى حياة بختنصر . فلما مات بختنصر رجع معد بن عدنان ومعه أنبياء بنى إسرائيل حتى أتى مكة ، فأقام أعلامها ، وحج الأنبياء معه .

مجلس فى ذكر لقمان الحكيم عليه السلام

وذكر بعض مواعظه وحكمته ووصيته لابنه

قال الله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الحِكْمَةَ) يعنى العقل والعلم والعمل به والإصابة فى الأمور . واختلفوا فى نسبه ، فقال محمد بن إسحاق بن يسار : هو لقمان بن باعور بن ناحور بن تارخ ، وهو آزر أبو إبراهيم عليه السلام . وقال وهب : كان ابن أخت أيوب عليه السلام . وقال مقاتل : كان ابن خالة أيوب . وقال الواقدى : كان قاضى بنى إسرائيل وقال آخرون : كان عبدا . وقال مجاهد : كان لقمان عبدا أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين . وروى الأوزاعى عن عبد الرحمن بن حرملة قال : جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله ، فقال له سعيد بن المسيب : لا تحزن من أجل أنك أسود ، فإنه قد كان من خير الناس ثلاثة من السودان : بلال ، ومهجع مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولقمان الحكيم كان أسود نوبيا من سودان مصر ذا مشافر .

حدثنا الإمام أبو منصور الحمشاوى لفظا بإسناده عن سعيد بن المسيب أن لقمان عليه السلام كان عبدا حبشيا نجارا .

وأخبرنى ابن فتحويه بإسناده عن سعيد بن المسيب أن لقمان عليه السلام كان خياطا ،

واتفق العلماء أنه كان حكيما ولم يكن نبيا إلا عكرمة ، فإنه كان يقول : إن لقمان كان نبيا ، تفرد بهذا القول .

حدثنا أبو منصور الحمشاوىّ عنه بإسناده أنه قال : كان نبيا . قال بعضهم : خيّر لقمان بين النبوة والحكمة ، فاختار الحكمة .

وروى نافع عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « حقًّا أقولُ لَمْ يكُنْ لُقْمانُ نبيًّا ، ولكِنْ كانَ عَبْدًا عَصَمَهُ اللهُ تعالى ، كَثيرَ التَّفَكُّرِ ، حَسَنَ اليَقِينِ ، أَحَبَّ اللهَ فأحبَّهُ اللهُ فَمَنَّ عليْهِ بالحِكْمَةِ » . وذلك أنه كان نائما نصف النهار ، فجاءه النداء : يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة فى الأرض تحكم بين الناس بالحق ؟ فأجاب الصوت فقال : إن خيرنى ربى قبلت العافية ولم أقبل البلوى ، وإن عزم علىّ فسمعا وطاعة ، فإنى أعلم أنه إن فعل بى أعاننى وعصمنى . فقالت الملائكة : لِمَ يالقمان ؟ قال : لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها ، يغشاه الظلم من كل مكان إن أصاب فأرجو أن ينجو ، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ، ومن يكن فى الدنيا ذليلا خير من أن يكون شريفا ، ومن تخير الدنيا على الآخرة نفته الدنيا ولا تبقى له الآخرة ، فتعجبت الملائكة من حسن منطقه ، فنام نومة فأعطى الحكمة ، فانتبه فتكلم بها ، ثم نودى داود بعده فقبلها ولم يشترط بها مااشترط لقمان ، فهمّ بالخطيئة غير مرة ، كل ذلك ويعفو الله عنه ، وكان لقمان يؤازره بحكمته ، فقال له داود : طوبى لك يا لقمان ، أعطيت الحكمة ، وصرف عنك البلاء ، وأعطى داود الخلافة وابتلى بالبلية والفتنة .

باب فى ذكر بعض ما روى من حكم لقمان ومواعظه المذكورة فى القرآن

قال الله تعالى (ولَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الحِكْمَةَ) وقال أيضا (وإذْ قالَ لُقْمانُ لابْنِه وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَىَّ لاتُشْرِكْ باللهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) ... الآيات .

أخبرنا أبو عبد الله الحسين الدينورىّ عن عكرمة قال : كان لقمان من أهون مملوك على سيده ، قال : فبعثه مولاه مع رفقة له ليأتوه بشىء من ثمره فجاءوا وليس معهم شىء وقد أكلوا الثمرة وأحالوا على لقمان ، فقال لمولاه : إن ذا الوجهين لا يكون عند الله أمينا ، فاسقنى وإياهم ماء جميعا ، ثم أرسلنا لنقذفه ، ففعل ، فجعلوا يتقايئون الفاكهة وجعل لقمان يتقايأ ماء نقيا ، فعرف صدقه من كذبهم . قال : فأول ما رئى من حكمته أنه بينما هو مع مولاه إذ دخل المخرج ، فأطال فيه الجلوس فناداه لقمان : إن طول الجلوس على الخلاء يتجع منه الكبد ويورث الباسور وتصعد لحرارة إلى الرأس فاجلس هوينا وقم ، قال : فخرج وكتب حكمته على باب الحُشّ . قال : وسكر مولاه يوما فخاطر أقواما على أن يشرب ماء بحيرة ، فلما أفاق عرف ما وقع فيه ، فدعا لقمان ثم قال له : لمثل هذا اليوم كنت خبأتك ، قال : أخرج كرسيك وأباريقك ثم اجمعهم ،

فلما اجتمعوا قال لهم : على أى شىء خاطر تمونى ؟ قالوا : على ماء هذه البحيرة ، فقال لهم لقمان : إن لها موادّ فاحبسوا عنها موادّها حتى يشربها ، قالوا : وكيف نستطيع أن نحبس موادها ؟ فقال لقمان : وكيف يستطيع شربها ولها مواد ؟ .

أخبرنا ابن فتحويه بإسناده عن خالد الربعى قال : كان لقمان عبدا حبشيا نجارا فقال له سيده اذبح لنا شاة فذبح له شاة ، فقال ائتنى بأطيب مضغتين منها ، فأتاه باللسان والقلب ، فقال له : أما كان فيه شىء أطيب من هذا ؟ قال لا ؟ فسكت عنه . ثم قال له اذبح لنا شاة ، فذبح له شاة فقال ائتنى بأخبث مضغتين منها ، فجاء باللسان والقلب . فقال له : أمرتك أن تأتينى بأطيبها مضغتين فأتيتنى باللسان والقلب ، وأمرتك أن تأتينى بأخبثها مضغتين فأتيتنى باللسان والقلب ، فقال له : إنه ليس بأطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا .

وأخبرنا عبد الله بن حامد بإسناده عن محمد بن عجلان قال : قال لقمان الحكيم : ليس مال كصحة ، ولا نعيم كطيب نفس .

وأخبرنا عبد الله بإسناده عن أبى هريرة قال : مر رجل بلقمان والناس مجتمعون عليه ، فقال له : ألست العبد الأسود الذى كنتَ راعيا بموضع كذا وكذا ؟ قال بلى ، قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وترك مالا يعنينى .

أخبرنى الحسين بن محمد عن أبيه ، قال : قال لقمان : ضرب الوالد لولده كالماء للزرع . وعن عبد الله بن دينار أن لقمان قدم من سفر ، فتلقاه غلامه فى الطريق فقال له : ما فعل أبى ؟ قال مات ، قال الحمد لله ملكت أمرى ، قال فما فعلت امرأتى ؟ قال ماتت ، قال جُدد فراشى ، قال ما فعلت أختى ؟ قال ماتت ، قال سترت عورتى ، قال ما فعل أخى ؟ قال مات ، قال انقطع ظهرى .

أخبرنا الحسين بن الحسن بن محمد بإسناده عن شقيق قال : قيل للقمان أى الناس أشر ؟ قال : الذى لايبالى أن يراه الناس مسيئا . وقيل للقمان : ما أقبح وجهك ! قال : تعيب بهذا على النقش أوعلى الناقش ؟ .

وروى المحاربىّ عن سفيان الثورىّ قال : قال لقمان لا بنه : إن الدنيا بحر عميق قد غرق فيها ناس كثيرون ، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله ، وليكن حشوها إيمانك بالله ، وشراعها التوكل على الله ، فلعلك تنجو وما أظنك ناجيا ؛ يا بنى كيف لا يخاف الناس مايوعدون ، وهم فى كل يوم ينقصون ؟! يا بنى خذ من الدنيا بلغة ولا تدخلن فيها دخولا فتضر فيها بآخرتك ، ولا ترفضها فتكون عيالا على الناس ، وصم صياما يقطع شهوتك ولا تصم صياما يمنعك عن الصلاة ، فإن الصلاة عند الله أعظم من الصوم . يا بنى لا تتعلم العلم لتباهى به العلماء أوتمارى به السفهاء أو ترائىَ به فى المجالس ، ولا تترك العلم زهادة فيه ، ورغبة فى الجهالة . يا بنى اختر المجالس على عينك ، فإن رأيت قوما يذكرون الله فاجلس إليهم ، فإنك إن تك عالما ينفعك علمك ويزيدوك علما ، وإن تكن مستأهلا

يعلموك ، ولعل الله أن يطالعهم برحمته فتعمك معهم ، وإذا رأيت قوما لا يذكرون الله فلا تجلس إليهم ، فإنك إن تكن عالما لا ينفعهم علمك ، وإن تكن جاهلا يزيدوك جهلا ، فلعل الله يطالعهم بالعقوبة فتعمك . يابنى لا تضع برك إلا عند راعيه ، كما ليس بين الكبش والذئب خلة ، كذلك ليس بين البارّ والفاجر خلة ، ومن يُحِب المراء يشتم ، ومن يدخل مداخل السوء يتهم ، ومن يقارن قرين السوء لا يسلم ، ومن لا يملك لسانه يندم ؛ يابنى كن عبدا للأخيار ولا تكن خليلا للأشرار . يابنى كن أمينا تكن غنيا ، ولا تر الناس أنك تخشى الله وقلبك فاجر ؛ يا بنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ولا تجادلهم فيمنعوك حديثهم ، وألطف بهم فى السؤال إذ تركوك ، ولاتعجزهم فيملوك . يا بنى لا تطلب من الأمر مدبرا ولا ترفض منه مقبلا ، فإن ذلك يفل الرأى ويزرى بالعقل . يا بنى إن تأدبت صغيرا انتفعت كبيرا . يا بنى إذا سافرت فلا تأمن على دابتك فإن ذلك سريع فى إدبارها ، وليس ذلك من فعل الحكماء إلا أن تكون فى محل يمكنك فيه التمدد ، وإذا قربت من المنزل فانزل عن دابتك وسر ، ثم ابدأ بعلفها قبل نفسك ، وإياك والسفر فى أول الليل ، وعليك بالتعريس والإدلاج من نصف الليل إلى آخره ، وسافر بسيفك وخُفك وعمامتك وكسائك وسقائك وإبرتك وخيوطك ومخرزك ، وتزود من الأدوية ما تنتفع به أنت ومن معك ، وكن لأصحابك موافقا موافقا إلا فى معصية الله . يابنى إياك والتقنع فإنه بالنهار شهرة وبالليل ريبة . يا بنى لا تأمر الناس بالبر وتنسى نفسك ، فيكون مثلك مثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه . يابنى لا تحقرن من الأمور صغارها إن الصغار غدا تصير كبارا . يابنى إياك والكذب فإنه يفسد دينك وينقص عند الناس مروءتك ، فعند ذلك يذهب حياؤك وبهاؤك جاهك وتهان ، ولا يسمع منك إذا حدثت ، ولا تصدّق إذا قلت ، ولا خير فى العيش إذا كان هكذا . يا بنى إياك وسوء الخلق والضجر وقلة الصبر ، فلا يستقيم لك على هذه الخصال صاحب ، ولا يزال لك من الناس عليها مجانب ، وألزم نفسك التودد فى أمورك والصبر على مرارات الأحوال ، وحسن مع جميع الناس خلقك ، فإن من حسن خلقه وأظهر بشره وبسطه حظى عند الأبرار وأحبه الأخيار وجانبه الفجار ؛ يا بنى لا تعلق نفسك بالهموم ولا تشغل قلبك بالأحزان ، وإياك والطمع وارض بالقضاء ، واقنع بما قسم الله لك يصف عيشك وتسرّ نفسك وتستلذ حياتك ؛ و إن أردت أن يجمع لك غنى الدنيا فاقطع طمعك عما فى أيدى الناس ، فإنه ما بلغ الأنبياء والصديقون ما بلغوا إلا بقطع طمعهم عما فى أيدى الناس . يا بنى إن متاع الدنيا قليل وعمرك فيها قليل من قليل ، وقد بقى قليل من قليل القليل . يا بنى اجعل معروفك فى أهله ولا تضعه فى غير أهله ، فتخسره فى الدنيا وتحرم ثوابه فى الآخرة ، وكن مقتصدا ولا تكن مبذرا ، ولا تمسك المال تقتيرا ولا تعطه تبذيرا : يا بنى الزم الحكمة تكرم بها وأعزها تعزّبها ، وسيد أخلاق الحكمة دين الله عز وجل . يا بنى للحاسد ثلاث علامات : يغتاب

صاحبه إن غاب ، ويتملق إذا شهد ، ويشمت فيه بالمصيبة . تمّ خبر لقمان الحكيم وما وصى لابنه أنعم ، والله أعلم .

مجلس : فى قصة بلوقيا

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله الجزرقىّ ، بإسناده عن عبد الله بن سلام الإسرائيلى قال : كان فى بنى إسرائيل رجل يقال له أوشيا ، وكان من علمائهم وكان كثير المال وكان إماما لبنى إسرائيل ، وكان قد عرف نعت النبىّ عليه الصلاة والسلام وأمته فى التوراة ، فخبأه وكتم عنهم ، وكان له ابن يقال له بلوقيا خليفة أبيه فى بنى إسرائيل ، وكان ذلك بعد سليمان ، فلما مات والده أوشيا وبقى بلوقيا والإمامة والقضاء فى يده ، فتش يوما خزائن والده فوجد فيها تابوتا من حديد مقفلا بقفل من حديد ، فسأل الخزان عن ذلك فقالوا لا ندرى ، فاحتال على القفل حتى فكه ، فإذا فيه صندوق من خشب الساج ، ففكه فإذا فيه أوراق فيها نعت النبى صلى الله عليه وسلم وأمته مختومة بالمسك ، ففكها وقرأ ما فيها على بنى إسرائيل ثم إنه قال : الويل لك ياأبت من الله فيما كتبت وكتمت من الحق عن بنى إسرائيل ، فرده إلى أهله ، فقال بنو إسرائيل : يا بلوقيا لولا أنك إمامنا وكبيرنا لنبشنا قبره وأخرجناه منه وأحرقناه بالنار ، فقال : ياقوم لا ضير إنما تبع حظ نفسه وخسر دينه ودنياه ، فألحقوا نعت النبى صلى الله عليه وسلم وأمته بالتوراة . قال : وكانت أم بلوقيا من الأحياء ، فاستأذنها فى الخروج إلى بلاد الشام ، وكانوا يومئذ ببلاد مصر ، فقالت له : وما تصنع بالشام ؟ فقال : أسأل عن محمد وأمته ، فلعل الله تعالى أن يرزقنى الدخول فى دينه ، فأذنت له ، فبرز بلوقيا ليدخل بلاد الشام ، فبينما هو يسير إذانتهى إلى جزيرة من جزائر البحر ، فإذا هو بحيات كأمثال الإبل عظما وفى الطول ما شاء الله ، وهنّ يقلن : لا إله إلا الله محمد رسول الله ؛ فلما رأينه قلن له : أيها الخلق المخلوق من أنت وما اسمك ؟ فقال : اسمى بلوقيا وأنا من بنى إسرائيل ، فقلن: وما إسرائيل ؟ قال من ولد آدم ، فقلن سمعنا باسم آدم ولم نسمع باسم إسرائيل ، قال فقال لهنّ بلوقيا : أيتها الحيات من أنتن ؟ فقلن نحن من حيات جهنم ونحن نعذب الكفار فيها يوم القيامة . قال بلوقيا : وما تصنعن ههنا ، وكيف تعرفن محمدا ؟ فقلن : إن جهنم تفور وتزفر فى كل سنة مرتين فتلقينا إلى ههنا ، ثم نعود إليها ، فشدة الحر من حرها فى الصيف ، وشدة البرد من بردها فى الشتاء ، وليس فى جهنم درك من دركاتها ولا باب من أبوابها ولا سرادق من سرادقاتها إلا وقد كتب الله عليه : لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أجل ذلك عرفنا محمدا صلى الله عليه عليه وسلم ؛ قال بلوقيا : أيتها الحيات هل فى جهنم مثلكن أو أكبر منكن ؟ فقلن : إن فى جهنم حيات تدخل إحدانا فى أنف إحداهن وتخرج من فيها ولا تشعر بها لعظمها . قال : فسلم بلوقيا عليهن ومضى ، حتى أتى جزيرة أخرى ، فإذا هو بحيات كأمثال

الجذوع والسوارى ، وعلى متن إحداهن حية صغيرة صفراء كلما مشت اجتمعت الحيات حولها ، فإذا نفخت صرن تحت الأرض خوفا منها ؛ قال : فلما رأيتها ورأتنى قالت : أيها الخلق المخلوق من أنت وما اسمك ؟ قلت اسمى بلوقيا وأنا من بنى إسرائيل من ولد إبراهيم الخليل ، فأخبرينى أيتها الحية من أنت ؟ قالت : أنا موكلة بالحيات واسمى تمليخا ولولا أنى موكلة بهن لقتلن بنى آدم كلهم فى يوم واحد ، ولكنى إذا صفَرت صفرة واحدة وسمعن صوتى دخلن تحت الأرض ، ولكن يا بلوقيا إن لقيتَ محمدا صلى الله عليه وسلم فأقرئه منى السلام . ثم مضى بلوقيا إلى بلاد الشام ، فأتى بيت المقدس وكان بها حبر من أحبارهم يسمى عفان الحبر ، فأتاه فسلم عليه فقال له : يا بلوقيا ليس هذا زمان محمد ولا زمان أمته ، بينك وبينه قرون وسنون ، ثم قال عفان الحبر : يابلوقيا أرنى موضع الحية التى اسمها تمليخا ، فإن قدرت أن أصيدها رجوت أن أنال معك ملكا عظيما وتحيا حياة طيبة إلى أنْ يبعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم فتدخل فى دينه ، فمن حرص بلوقيا على الدخول فى دين محمد صلى الله عليه وسلم قال : أنا أريك المكان ، فقام عفان وأخذ تابوتا من حديد وعمل فيه قدحين من فضة فى أحدهما خمر وفى الآخر لبن ، ثم سارا جميعا حتى انتهيا إلى موضع الحية ، ففتحا باب التابوت وتنحيا ، فجاءت الحية تبغى الرائحة ، فدخلت التابوت فشربت اللبن والخمر فسكرت ونامت ، فقام عفان ودب إلى التابوت دبيبا خفيفا ، فأغلق عليها باب التابوت وحصنه وأخذها ومرا جميعا ، فلم يمرا بشجرة ولا نبت إلا كلمهما بإذن الله تعالى ، فمرا بشجرة يقال لها القرمل ، فقالت : يا عفان من يأخذنى ويقطعنى ويدقنى ويعصر مائى ودهنى ويطلى به قدميه فإنه يخوض البحار السبعة ، فلا تبتل قدماه ولا يغرق ، فقال عفان : إياك له طلبت ، ثم إنه قطع تلك الشجرة فدقها وعصر ماءها وأخرج دهنها وجعله فى كوز ، ثم خلى عن الحية فطارت بين السماء والأرض وهى تقول : يا بنى آدم ما أجرأكم على ربكم ولن تصلوا إلى ما تريدون . قال : فذهبت الحية وسار عفان وبلوقيا إلى البحر ، فطليا أقدامهما ثم دخلا فى اليم ومشيا فى الماء كأنما كانا يمشيان على الأرض حتى قطعا البحر الأول ثم الثانى ، فإذا هما بجبل فى وسط البحر ليس بعال ولا متدان ، ترابه كالمسك ، عليه غمام أبيض وفيه كهف ، وفى الكهف سرير من ذهب ، وعلى السرير شاب مستلق على قفاه ذو فروة ، واضع يده اليمنى على صدره ، والشمال على بطنه كالنائم وليس بنائم وهو ميت ، وعلى رأسه تنين وخاتمه بالشمال ، وكان هذا سليمان بن داود عليهما السلام ، وكان ملكه فى خاتمه ، وكان خاتمه من ذهب وفصه من ياقوت أحمر مربع مكتوب عليه أربعة أسطر ، فى كل سطر اسم الله الأعظم ، وكان عند عفان علم من الكتاب ، فقال بلوقيا : من هذا الميت يا عفان ؟ فقال : هذا سليمان بن داود نريد أن نأخذ خاتمه ونملك ملكه ونرجو الحياة إلى أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم

فقال بلوقيا : أليس قد سأل ربه ؟ فقال رب (هَبْ لى مُلْكاً لا يَنْبَغى لأحَدٍ مِن بَعْدِى) فأعطاه إياه على ما سأل ، ولا ينال ملك سليمان إلى يوم القيامة لدعائه ؟ فقال عفان : يا بلوقيا اسكت إن الله معنا ومعنا اسم الله الأعظم ، ولكن أنت يا بلوقيا اقرإ التوراة ، فتقدم عفان لينزع الخاتم من يد سليمان من أصبعه ، فقال التنين : ما أجراك على ربك ، إن غلبتنا بأسماء الله تعالى ، فنحن نغلبك بقدرة الله تعالى . قال : فكلما نفخ التنين ذكر بلوقيا اسم الله تعالى ، فلم تعمل نفخات التنين فيهما شيئا ، ودنا عفان من السرير لينزع الخاتم من أصبعه ، فاشتغل بلوقيا بالنظر إلى نزول جبريل عليه السلام من السماء ، فلما نزل صاح بهما صيحة ارتجت الأرض والجبال وتزلزلت منها ، فاختلطت مياه البحار وهاجت والتطمت حتى صار كل عذب مالحا من شدة صيحته ، وسقط عفان على وجهه وسقط بلوقيا على وجهه ، ونفخ التنين فخرج من بطنه شعلة كأنها البرق الخاطف ، واحترق عفان وعادت نفخته فى البحر ، فما مرت النفخة بشىء إلا أحرقته ولا بماء إلا سخنته وأغلته . وإن بلوقيا لما رأى العذاب ذكر اسم الله الأعظم فلم ينله مكروه . ثم تراءى جبريل عليه السلام فى صورة رجل فقال له : يا بن آدم ما أجراك على الله ، فقال له بلوقيا : من أنت يرحمك الله ؟ فقال له : أنا جبريل أمين رب العالمين ، فقال بلوقيا : يا جبريل إنما خرجت حبا لمحمد صلى الله عليه وسلم ودينه ولم أقصد الخطأ ولم أتعمده . قال فبذلك نجوتَ. ثم صعد جبريل عليه السلام إلى السماء ومضى بلوقيا فطلى قدميه بذلك الدهن فضلّ الطريق الذى جاء منه وأخذ فى طريق أخرى ، فسار ومضى ستة أبحر ووقع فى السابع ، فإذا هو بجزيرة من ذهب حشيشها الورس والزعفران ، وأشجارها الزيتون والنخل والرمان ، فقال بلوقيا : ما أشبه هذا المكان بالجنة على ما وُصِفت . قال : فدنا بلوقيا من بعض الشجر فتناول من ثمرها ، فقالت الشجرة : يا خاطئ يا بن الخاطئ لا تأخذ منى شيئا ، فبقى متعجبا ، وإذا بحذاء الشجرة قوم يتراكضون وبأيديهم سيوف مسلولة ، وهم يتناوشون بعضهم بعضا بالضرب والطعن ؛ فلما رأوا بلوقيا أحاطوا به وأحدقوا من ورائه وهموا به سوءا ، فذكر بلوقيا اسم الله ، فتعجبوا منه وهابوه وأغمدوا سيوفهم ، وقالوا بأجمعهم : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ثم قالوا له : من أنت يا عبد الله ؟ فقال : أنا من بنى آدم ، فقالوا : ما اسمك ؟ قال : اسمى بلوقيا وأنا من بنى إسرائيل ، فقالوا : نعرف آدم ولا نعرف إسرائيل ، فما الذى أوقعك إلينا ؟ فقال : إنى خرجت فى طلب نبى يسمى محمدا صلى الله عليه وسلم ، وإنى قد ضللت الطريق الذى أردته ، ورأيت من الأهوال كذا وكذا، فقالوا : يابلوقيا نحن من الجن المؤمنين ، ونحن مع ملائكة الله فى السماء ، ثم نزلنا إلى الأرض وقاتلنا كفرة الجن ، ونحن ههنا مقيمون نغزوهم ونجاهدهم إلى يوم القيامة ، ولسنا نموت إلى يوم القيامة وأنت تصير معنا ؛ فقال بلوقيا لملك الجن وكان اسمه صخرا : يا صخر

أخبرنى عن خلق الجن كيف كان ؟ قال : لما خلق الله تعالى جهنم خلق لها سبعة أبواب وسبعة ألسنة ، وخلق منها خلقين : خلقا فى سمائه سماه جبليت ، وخلقا فى أرضه سماه تمليت . فأما جبليت فإنه خلق فى صورة أسد ، وتمليت فى صورة ذئب ، وجعل الأسد ذكرا والذئب أنثى ، وجعل طول كل واحد منهما مسيرة خمس مئة عام ، وجعل ذنب الذئب بمنزلة ذنب العقرب ، وذنب الأسد بمنزلة ذنب الحية ، وأمرهما أن ينتفضا فى النار انتفاضة فسقط من ذنب الذئب عقرب ، ومن ذنب الأسد حية ، فحيات جهنم وعقاربها من ذلك ، ثم أمرهما أن يتناكحا ، فحملت الذئب من الأسد ، فولدت سبع بنين وسبع بنات ، فأوحى الله إليهم أن يزوجوا البنين من البنات ، كما أمر آدم ، فستة من البنين أطاعوا وواحد لم يطع ولم يتزوج ، فلعنه أبوه وهو إبليس ، وكان اسمه الحارث وكنيته أبو مرة . فهذا أول خلق الجانّ يا بلوقيا ، وإن دوابنا لاتثبت مع الإنس ، ولكننى أجلل فرسى وأبرقعه حتى لايعرف من راكبه ، وأركب عليه على اسم الله تعالى ، فإذا انتهيت إلى أقصى أعمالى على ساحل بحر كذا وكذا فإذا أنت بشيخ وشاب ومشايخ معهما ، فإنك ستلقاهما هناك ، فادفع الفرس إليهما وامش فى حفظ الله راشدا . فركب بلوقيا على ذلك الفرس حتى انتهى إليهم فسلم على الشيخ والشاب ونزل عن الفرس ودفعها إليهما ، وكان قد فصل من عند ملك الجن عند الغداة وبلغ إليهما نصف النهار ، فقالا له يا بلوقيا : منذ كم فارقت الملك ؟ قال : فارقته من غدوة ، قالا : ما أسرع ما جئت قد أتعبت فرسنا ، فقال بلوقيا : ما مددت إليه يدا ولا حركت عليه رجلا ولم أركضه ركضا ، قالا بلى ، ولكن فرسنا أحس بك وبمنزلتك وثقلك فطار ما بين السماء والأرض ليريح نفسه منك ، فكم تراه جاب بك ؟ قال : خمس فراسخ أو أكثر ، قالا : بل جاب بك فى هذه المدة مسيرة مئة وعشرين سنة ، وكان يطير بك بين السماء والأرض حول الدنيا دون قاف وأنت لاتعلم . قال : فحلوا عنه السرج واللجام والبرقع ، فاذا العرق يقطر ويسيل من كل شعرة منه ، وله جناحان انقضا وتكسرا من كثرة الطيران والدوران والإعياء والكلال . قال بلوقيا : هذا والله لعجيب ، فقالوا : عجائب الله لاتنقضى ثم سلم عليهما ، فمضى فركب اليم ، فبينما هو يسير إذ رأى ملكا إحدى يديه بالمشرق والأخرى بالمغرب وهو يقول : لاإله إلا الله محمد رسول الله ، فسلم عليه بلوقيا ، فقال له الملك : من أنت أيها الخلق المخلوق ؟ قال : أنا بلوقيا ، وأنا من بنى إسرائيل من ولد آدم ، ثم قال له بلوقيا : أيها الملك ما اسمك ؟ قال : اسمى يوحاييل ، وأنا ملك موكل بظلمة الليل وضوء النهار ، قال : فما بال يديك مبسوطتين ؟ قال : فى يدى اليمنى ضوء النهار ، وفى اليد اليسرى ظلمة الليل ، ولو سبق النهار الليل لأضاءت السموات والأرض ولم يكن الليل أبدا ؛ ولو سبقت الظلمة النور لأظلمت السموات والأرض ولم يكن ضوء أبدا ، وبين يدىّ لوح معلق فيه سطران : سطر أبيض وسطر أسود ، فإذا رأيت السواد ينقص نقصت الظلمة ، وإذا رأيت السواد يزداد زادت الظلمة ، وإذا رأيت السطر الأبيض

يزداد زدت النهار ، وإذا انتقص نقصت ، فلذلك الليل فى الشتاء أطول من النهار ، والنهار أقصر ؛ وفى الصيف النهار أطول والليل أقصر . ثم سلم بلوقيا ومضى ، فإذا هو بملك آخر قائم يده اليمنى فى السماء ، ويده اليسرى فى الأرض ، وقدماه تحت الثرى وهو يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فسلم عليه بلوقيا ، فقال له الملك : ممن أنت وما اسمك ؟ قال : اسمى بلوقيا ، وأنا من بنى إسرائيل ، وإسرائيل من ولد آدم ، ثم قال بلوقيا : أيها الملك ما اسمك ؟ قال : مخاييل ، قال : فما بالى أرى يمينك فى السماء وشمالك فى الماء ؟ قال : أحبس الريح بيمينى والماء بشمالى ، ولو رفعت شمالى عن الماء لزخرت البحار كلها فى ساعة واحدة ، وتلاطمت بإذن الله وأغرقت الدنيا ومن عليها ، ويدى اليمنى فى الهواء أحبس الريح عن ولد آدم ، لأن فى السماء ريحا تسمى الهائمة ، ولو أرسلتها لنسفت من فى السماء ومن فى الأرض . قال : فسلم بلوقيا ومضى ، فإذا هو بأربعة من الملائكة أحدهم رأسه كرأس الثور ، والآخر رأسه كرأس النسر ، والثالث رأسه كرأس الأسد ، والرابع رأسه كرأس الإنسان . فأما الملك الذى رأسه كرأس الثور فإنه يقول : اللهم ارحم البهائم ولا تعذبها ، وارفع عنها برد الشتاء وحر الصيف ، واجعل فى قلوب بنى آدم لها الرأفة والرحمة ، كيلا يكيدوهن ولا يكلفوهن فوق طاقتهن ، واجعلنى من أهل شفاعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . وأما الذى رأسه كرأس النسر فيقول : اللهم ارحم الطيور وارفع عنها برد الشتاء وحر الصيف ، واجعلنى من أهل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . وأما الذى رأسه كرأس الأسد فيقول : اللهم ارحم السباع ولا تعذبها وادفع عنها حر الصيف وبرد الشتاء ، واجعلنى من أهل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . وأما الذى رأسه كرأس الإنسان فانه يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اللهم ارحم المسلمين ولا تعذبهم ، وادفع عنهم النار ، واجعلنى من أهل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . ومضى بلوقيا حتى انتهى إلى جبل قاف ، فإذا هو بملك قائم على جبل قاف ، وإن جبل قاف محيط بالدنيا من ياقوتة خضراء ، وذلك قوله تعالى (قٓ والقُرآنِ المَجِيدِ) فسلم بلوقيا على الملك ، فقال له الملك : من أنت ؟ قال أنا بلوقيا وأنا من بنى إسرائيل من ولد آدم ، فقال له الملك : وأين تريد ؟ قال : خرجت فى طلب نبي من العرب يقال له محمد ولست أرى أثره ولا أدرى بأى بلاد أنا ؟ فقال له الملك : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، قد أمرنا بالصلاة على محمد ، فقال بلوقيا : أيها الملك ما اسمك ؟ قال : اسمى حزقيائيل ، قال : وما تصنع ههنا ؟ قال : أنا أمين الله على جبل قاف ، وفى يده وتر ، مرة يعقده ومرة يحله ، وعروق الأرض كلها مشدودة عليه والوتر فى كفه ، قال : فإذا أراد الله أن يضيق على عباده أمرنى أن أمد الوتر وأعقده وأوثق عروق الأرض فتضيق الدنيا على العباد ؛ وإذا أراد الله أن يوسع عليهم أمرنى أن أرخى الوتر ، فأفتق عروق الأرض فتتسع الدنيا على العباد ؛ وإذا أراد الله أن يخوف قوما

أمرنى أن أحرك سروق تلك الأرض ، فمن أجل ذلك موضع يهتز وموضع لايهتز ، وموضع يتزلزل وموضع لايتزلزل ؛ قال بلوقيا : أيها الملك ما وراء قاف ؟ قال : وراء قاف أربعون دنيا غير الدنيا التى جئت منها ، فى كل دنيا أربع مئة ألف باب ، فى كل باب أربع مئة ألف ضعف مثل الدنيا التى جئت منها ، وليست فيها ظلمة بل كلها نور أرضها ذهب ، عليها حجب من نور ، وسكانها الملائكة ، لا يعرفون آدم ولا إبليس ولا جهنم وهم يقولون : لاإله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بذلك أُلهموا ، ولذلك خلقوا وبه أمروا إلى يوم القيامة ، قال بلوقيا : فما وراءهم أيها الملك ؟ قال : حُجُب ووراء الحجب علم الله وقدرته ، قال بلوقيا : أخبرنى أيها الملَك على أى شىء هذا الجبل موضوع ؟ قال : بين قرنى ثور واسمه بهموت ، وهو أبيض رأسه بالشرق ومؤخره بالمغرب ، بين قرنيه مسيرة ثلاثين ألف سنة ، وهو ساجد لربه تعالى على صخرة بيضاء ، قال بلوقيا : أيها الملك كم الأرضون وكم البحار ؟ قال : الأرضون سبع والبحار سبع ، قال : فجهنم أين هى ؟ قال : تحت الأرض السابعة ، فسلم عليه بلوقيا ومضى حتى انتهى إلى حجاب طرفه فى السماء وأسفله فى الماء عليه باب مقفل وعلى القفل خاتم من نور ، وعلى الباب ملكان : أحدهما رأسه كرأس الثور ، والآخر رأسه كرأس الكبش وبدنه كبدن الثور ، وهما يقولان : لاإله إلا الله محمد رسول الله ، فسلم عليهما بلوقيا ، فردا عليه السلام وقالا لبلوقيا : أيها الخلق المخلوق ممن أنت وما اسمك ؟ قال : اسمى بلوقيا وأنا من بنى إسرائيل من ولد آدم ، فقالا : لاإله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه أسماء ما عرفناها ، قال : كيف تعرفون محمدا وما تعرفون آدم ومحمد من نسله ؟ فقالا هكذا خلقنا وبهذا أمرنا ، ولم نسمع باسم آدم وإسرائيل ، فقال بلوقيا : افتحا لى الباب حتى أجوز ، فقالا : لانحسن فتحه ، وإن لله ملكا فى السماء اسمه جبريل عسى أن يقدر على فتحه ، فدعا بلوقيا ربه . قال : فأمر الله تعالى جبريل فنزل إليه وفتح له ، ثم قال له : يا بن آدم ما أجرأك على الله . ثم جاز بلوقيا حتى انتهى إلى بحرين : بحر مالح ، وبحر عذب ، فرأى بينهما حاجزا ، وفى البحر المالح جبلا من ذهب ، وفى البحر العذب جبلا من فضة ، وبينهما ملك على صورة النخلة ، ومعه ملائكة على تلك الصورة ، فسلم عليهم بلوقيا فردوا عليه السلام ، وقالوا : من أنت ؟ فأخبرهم بقصته ، ثم قال لهم بلوقيا : من أنتم ؟ قالوا : نحن أمناء الله على هذين البحرين لايلتقيان ولا يبغيان ، فقال لهم بلوقيا : ما هذا الجبل الأحمر ؟ قالوا : هذا كنز الله فى الأرض ، فكل ذهب يظهر فى الأرض من هذا الجبل الأحمر ، وكل ماء فى الدنيا من ماء عذب أو ملح إنما هو من ماء هذين البحرين ، وماؤهما إنما يجىء من تحت العرش من قبل أن يخلق الله الملائكة والجبل الأبيض من فضة ، وهو كنز الله ، وكل فضة فى الدنيا ومعدن من فضة فمن عروق هذا الجبل ، ثم سلم بلوقيا ومضى حتى انتهى إلى بحر عظيم ، فإذا هو بحيتان كثيرة عظيمة قد اجتمعت وحوت عظيم

يقضى بين الحيتان ، فلما نظر إلى بلوقيا قال : لاإله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فسلم عليه بلوقيا ثم قال له : من أنت ؟ فأخبره بحاله ، وأنه خرج يطلب النبى صلى الله عليه وسلم ، فرد عليه السلام ثم قال له : يا بلوقيا إن لقيت محمدا فأقرئه منى السلام ، فقال بلوقيا : نعم إن شاء الله تعالى ، ثم إنه قال : أيتها الحيتان إنى جائع عطشان ، وماء هذا البحر مالح ، وما أجد ما آكل وما أشرب ، قال فقال الحوت الأعظم : يا بلوقيا سأطعمك طعاما إذا أكلته تسير أربعين سنة لاتعيا ولا تنام ولا تجوع ولا تعطش ، فأطعمه ذلك الحوت قرصا أبيض فأكله ومضى حتى بلغ العمران ، ومن قبل أن يبلغه رأى شابا يجرى على الماء كأنه البدر ، فقال له بلوقيا : من أنت ؟ فقال : سل الذى خلقى ، فسار بلوقيا يوما وليلة ، فإذا هو بآخر يمر على الماء ضوءه كضوء القمر ، فقال له بلوقيا : من أنت ؟ قال : سل الذى خلقى ، فسار بلوقيا يوما وليلة ، فإذا هو بثالث كأنه القمر يلوح فى آخر الشمس ، فقال له بلوقيا : أنشدك الله إلا ما وقفت علىّ ، فوقف وقال لبلوقيا : لماذا تستحلفنى ؟ قال : خشيت أن تفوتنى كما صدر من أصحابك الماضين ، ثم قال له : من كان الأول ؟ قال : إسرافيل صاحب الصور ، والثانى ميكائيل صاحب المطر وأرزاق العباد ، والثالث جبريل أمين الله تعالى ، فقال له بلوقيا : فماذا تصنعون فى هذا اليم ؟ قال : حية من حيات البحر قد آذت سكانه ، فدعوْا عليها فاستجاب الله دعاءهم ، وإنا أمرنا أن نسوقها إلى جهنم ليعذب الله بها الكفار يوم القيامة ، قال بلوقيا : كم طولها وكم عرضها ؟ قال : طولها مسيرة ثلاثين سنة ، وعرضها مسيرة عشرين سنة ، فقال بلوقيا : أيكون فى جهنم مثل هذه الحية أو أكبر منها ؟ قال : نعم إن فى جهنم من الحيات ما تدخل هذه الحية فى أنف إحداهن ولا تشعر بها ، وتخرج من فيها ولا تشعر بها من عظم خلقها . قال فسلم بلوقيا ومضى إلى جزيرة أخرى ، فإذا هو بغلام أبيض أمرد بين قبرين ، فسلم عليه بلوقيا وقال له : يا شاب من أنت وما اسمك ؟ قال : اسمى صالح ، قال : فما هذان القبران ؟ قال : أحدهما قبر أبى والآخر قبر أمى ، وكانا صالحين فماتا ههنا وأنا عند قبرهما حتى أموت ، فسلم عليه بلوقيا ومضى حتى انتهى إلى جزيرة ، فإذا هو بشجرة عظيمة عليها طائر واقف ، رأسه من ذهب وعيناه من ياقوت ومنقاره من لؤلؤ ويداه من زعفران وقوائمه من زمرد ، وإذا مائدة موضوعة تحت الشجرة وعليها طعام وحوت مشوىّ ، فسلم عليه بلوقيا ، فرد الطائر عليه السلام ، فقال له بلوقيا : من أنت أيها الطائر ؟ قال : أنا من طيور الجنة ، وإن الله تعالى قد بعثنى إلى آدم بهذه المائدة لما أُهبط من الجنة ، وإنى كنت معه حين لقى حواء وأباح الله له الأكل ، وأنا ههنا من لدن ذلك الوقت ، فكل غريب وعابر سبيل من عباد الله الصالحين يمر بها يأكل منها ، وأنا أمين الله عليها إلى يوم القيامة ، فقال بلوقيا : ولا تتغير ولا تنقص ؟ فقال : طعام الجنة لايتغير ولا ينقص ، قال بلوقيا :

أفآ كل منها ؟ قال : كل ، فأكل حاجته ثم قال له : أيها الطائر وهل معك أحد ؟ فقال معى أبو العباس يأتينى أحيانا ، قال : ومن أبو العباس ؟ قال : الخضر عليه السلام ، فلما ذكر الخضر إذا به أقبل وعليه ثياب بيض ، فما خطا خطوة إلا نبت الحشيش تحت قدميه : قال : فسلم على بلوقيا وسأله عن حاله ، فقال بلوقيا : طالت غيبتى وأريد الرجوع إلى أمى ، فقال الخضر : بينك وبين أمك مسيرة خمس مئة عام ، فأنا أردك إليها فى مسيرة خمس مئة شهر . فقال الطائر : إن كان بينك وبينها مسيرة خمس مئة سنة ، فأنا أردك إليها فى مسيرة خمس مئة يوم ، فقال الخضر عليه السلام : فأنا أردك إليها فى ساعة واحدة ، ثم قال : غمض عينيك فغمضهما ، ثم قال له : افتح عينيك ففتحهما ، فإذا هو جالس عند أمه ، فسألها من جاء بى إليك ؟ قالت : طير أبيض يطير بك بين السماء والأرض فوضعك قدامى : ثم إن بلوقيا حدث بنى إسرائيل بما رأى من العجائب والأخبار ، فأثبتوها وكتبوها إلى يومنا هذا ، فهذا ما كان من حديث بلوقيا ، وما رأى من العجائب فى البحر والبر سهلا وجبلا والله أعلم .

مجلس : فى ذكر قصة ذى القرنين عليه السلام

قال الله تعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا) .

باب فى نسبه ولقبه

قال أكثر أهل السير : هو الإسكندر بن فيلبش بن بطريوس بن هرمس بن هردوس ابن منطون بن رومى بن لطين بن يونان بن يافث ، ويقال نسبه ينتهى إلى العيص بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام . وزعم بعض القدماء أن الإسكندر هو أخو دارا ابن دارا ، وذلك أن دارا الأكبر بن بهمن بن اسفنديار بن يستاسف كان تزوج أم إسكندر وكانت بنت ملك الروم ، وكان اسمها هلانة ، وإنها حملت إلى زوجها دارا الأكبر فوجد منها رائحة كريهة ، فأمر أن يحتال فى زوال ذلك منها ، فاجتمع رأى أهل المعرفة فى مداواتها على شجرة يقال لها سندروس ، فطبخت لها وغسلت بمائها فأذهب ذلك كثيرا من نتنها ومن عرقها ولم يذهب ذلك كله ، فانتهت نفسه عنها لبقية نتنها وعافها فردها على أهلها وقد علقت منه ، فولدت له فى أهلها غلاما فسمته باسمه واسم الشجرة التى غسلت بمائها سكندروس فهذا أصل اسمه ، ثم خففت فقيل إسكندر ، وكنى بذى القرنين .

واختلفوا فى سبب تسميته بذلك ، فقال بعضهم : سمى بذلك لأنه ملك الروم وفارس ، وقيل لأنه كان فى مقدم رأسه شبه القرنين من لحم ، وقيل لأنه رأى فى المنام كأنه أخذ بقرنى الشمس ، وكان تأويل رؤياه أنه طاف المشرق والمغرب ، وقيل لأنه دعا قومه إلى التوحيد فضربوه على قرنه الأيمن ، ثم دعاهم إلى التوحيد فضربوه على قرنه الأيسر :

وقيل لأنه كان له ذؤابتان حسنتان ، والذؤابة تسمى قرنا ، وقيل لأنه كان كريم الطرفين ، من أهل بيت شرف من قبل أبيه وأمه . وقيل لأنه كان انقرض فى وقته قرنان من الناس وهو حى ، وقيل لأنه كان إذا حارب قاتل بيديه وركابه جميعا ، وقيل لأنه أعطى علم الظاهر والباطن ، وقيل لأنه دخل النور والظلمة ، والله أعلم .

باب فى ذكر بدء أمره وسبب استكمال ملكه

قال الله تعالى (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا) وقال قوم : كان فيلبش اليونانى أبو الإسكندر ملك اليونانيين . فلما مات ملك بعده الإسكندر . وقال آخرون : إن الإسكندر أخو دارا الأصغر ، وكان أبو هلانة جد الإسكندر لأمه ملكا من ملوك الروم . فلما مات صار الملك لابن بنته الإسكندر ، وكانت ملوك الروم يؤدون الإتاوة جميعا إلى ملوك الفرس ، وكانت الإتاوة التى كان أبو الإسكندر يؤديها إلى ملوك الفرس بيضة من ذهب . فلما ملك الإسكندر وكان رجلا ذا عزيمة وقوة وملك ، غزا ملوك الروم فقهرهم واستجمع له ملك الروم ، ثم غزا بعض ملوك العرب ، فظفر بهم ، فآنس بذلك من نفسه القوة ، فاستعصى على دارا الأصغر ملك فارس ، فامتنع من حمل من كان أبوه يحمله إليه من الخراج والإتاوة عن نفسه وعن ملك الروم ، فكتب إليه دارا بن دارا بقصة الخراج والإتاوة عن نفسه وعن ملك الروم ، فأجابه الإسكندر : إنى قد ذبحت تلك الدجاجة التى قد كانت تبيض ذلك البيض وأكلتُ لحمها ، فلما وصل إليه الكتاب بذلك سخط عليه وكتب إليه يؤنبه بسوء صنيعه فى امتناعه عن حمل الخراج إليه ، وبعث إليه بصولجان وكرة وقفيزَىْ سمسم ، وأعلمه فيما كتب به إليه : أنك صبى وأنه ينبغى لك أن تلعب بالصولجان والكرة التى بعثت بهما إليك ، ولا تتقلد الملك ولا تتلبس به ولا تستعصى ، وإلا بعثت إليك من يأتى بك فى وثاق ، ولو كانت جنودك بعدد حب السمسم الذى بعثت به إليك . فبعث إليه الإسكندر فى جواب ذلك : إنى قد فهمت ما كتبت وقد نظرت ما ذكرت فى كتابك من إرسال الصولجان والكرة ، وضممت الكرة إلى الصولجان ، وشبهت الكرة بأرضك ، وإنى محتو على ملكك وأضيفه إلى ملكى ، وأضيف بلادك إلى بلادى ؛ وإنى نظرت إلى السمسم الذى بعثته إلى كنظرى إلى الصولجان والكرة ، وبعث إلى دارا مع كتابه صرة من خردل ؛ وأعلمه فى الجواب إنما بعثه إليك بذلك لأن جنودى مثل ذلك . فلما وصل إلى دارا بن دارا جواب الإسكندر جمع جنوده وتأهب لمحاربة الإسكندر ، وإن الإسكندر أيضا تأهب للقائه ونادى فى عسكره بالرحيل وسار نحو بلاد دارا ، فالتقيا بناحية خراسان مما يلى الخزر واقتتلا أشد القتال وصارت الدائرة على جند دارا ، فعرض له فارسان من قرابته وأهل بيته وثقته ، وقبل

إن أحدهما كان صنيحته ، فطعناه فأردياه عن مركبه ، وأراد بطعنهما إياه الحظوة عند الإسكندر والوسيلة إليه وأن الإسكندر نادى أن يؤخذ دارا أسيرا ولا يقتل ، فأخبر بشأن دارا ، فأسرع حتى وقف عليه فرآه يجود بنفسه ، فنزل إليه وجلس عند رأسه وأخبره أنه لم يهمّ قط بقتله ، وإن الذى أصابه لم يكن قط برأيه وإنما غدر به ثقاته ، ثم قال له : سلنى عما بدا لك فأسعفك به ، فقال له دارا : إن لى إليك حاجتين : إحداهما أن تنتقم لى من الرجلين اللذين فتكا بى ، وسماهما وبلادهما . والثانية : أن تتزوج ابنتى روشنك ، فأجابه إلى الحاجتين وأمر بصلب الرجلين وأن ينادى عليهما : هذا جزاء من اجترأ على ملكه وغشّ أهل بلده . وتزوج ابنته روشنك ، وكان ملك دارا أربع عشرة سنة . فلما قتل اجتمع ملك الروم وكان قبل الإسكندر متفرقا ، وتفرق ملك فارس ، وكان قبل الإسكندر مجتمعا .

باب فى ذكر الحوادث التى كانت فى أيام ذى القرنين بعد قتل دارا ووصف مسيره إلى البلاد والآفاق

قالت العلماء بأخبار القدماء : لما قتل الإسكندر دارا ملك البلاد ودانت له العباد ، فهدم ما كان فى بلاد الفرس من بيوت النيران ، وما كان بأرض الهند من بيوت الأوثان ، وقتل الموابذة وأحرق كتبهم ودعا الناس إلى الإسلام والتوحيد .

قال المرتضى فى سبب إحراق كتبهم : إن المجوس جعلوا حروف كتبهم من الذهب المضروب بمسامير الذهب على جلود الثيران ، فبلغ عددها اثنى عشر ألفا فأحرقوها لحصول ذلك الذهب وبنى اثنتا عشرة مدينة منها ثلاثة مدائن بخراسان هراة ومرو وسمرقند ، ومدينة بأرض أصفهان بنيت على مثال الجنة ، ومدينة بأرض اليونان يقال لها هيلاقوس ، ومدينة بأرض بابل لزوجته روشنك بنت دارا ، ومدينة الإسكندرية . ثم إنه رأى فى منامه أنه أخذ بقرنى الشمس ، ورأى فى منامه أنه يسير إلى آفاق الأرض شرقا وغربا .

واختلف العلماء فى نبوته ؛ فروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا أدرى أكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ نَبِيًّا أمْ لاَ » فلو صح الحديث لكان الخوض فى هذه المسئلة تكلفا ، ثم اختلفوا بعدُ فيه ، فقال قوم لم يكن نبيا وإنما كان عبدا صالحا وملكا عادلا فاضلا ، وقال آخرون : بل كان نبيا غير مرسل . والصحيح إن شاء الله أنه كان نبيا غير مرسل ، لما روى وهب وغيره من أهل الكتب قالوا : كان ذو القرنين رجلا من الروم ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره وكان اسمه الإسكندر . ويقال : كان اسمه عباسا وكان عبدا صالحا ، فلما استحكم ملكه واجتمع أمره أوحى الله تعالى إليه : ياذا القرنين إنى قد بعثتك إلى جميع الخلائق ما بين الخافقين وجعلتك حجتى عليهم وهذا تأويل رؤياك ، وإنى باعثك إلى أمم الأرض كلهم وهم سبع أمم مختلفة ألسنتهم : منهم أمتان بينهما عرض

الأرض ، وأمتان بينهما طول الأرض ، وثلاث أمم فى وسط الأرض وهم الإنس والجن ويأجوج ومأجوج . فأما الأمتان اللتان بينهما طول الأرض ، فأمة عند مغرب الشمس يقال لها : ناسك ، وأمة أخرى بحيالها يقال لها : منسك ، وهى عند مطلع الشمس . وأما الأمتان اللتان بينهما عرض الأرض ، فأمة فى قطر الأرض الأيمن يقال لها : هاويل ، والأخرى بحيالها فى قطر الأرض الأيسر يقال لها : تاويل . فلما قال الله تعالى له ذلك قال ذو القرنين : إلهى إنك قد ندبتنى إلى أمر عظيم لا يقدر عليه إلا أنت فأخبرنى عن هذه الأمم التى قد بعثتنى إليها بأى قوة أكابرهم ، وبأى جمع وحيلة أكاثرهم ، وبأى صبر أقاسيهم ، وبأى لسان أناطقهم ، وكيف لى بأن أفقه لغاتهم ، وبأى سمع أسمع أقوالهم ، وبأى بصر أنقدهم ، وبأى حجة أخاصمهم ، وبأى عقل أعقل عنهم ، وبأى قلب وحكمة أدبر أمرهم ، وبأى قسط أعدل بينهم ، وبأى حلم أصابرهم ، وبأى معرفة أفصل بينهم ، وبأى علم أتقن أمورهم ، وبأى يد أسطو عليهم ، وبأى رجل أطؤهم ، وبأى طاقة أحصيهم ، وبأى جند أقاتلهم ، وبأى رفق أؤلفهم ، وليس عندى يا إلهى شىء مما ذكرت يقوم لهم ويقوينى عليهم وأنت الرءوف الرحيم ، لا تكلف نفسا إلا وسعها ، ولا تحملها فوق طاقتها ولا تشقيها بل أنت ترحمها ، فقال الله تعالى : سأطوقك ما حملتك وأشرح لك سمعك وصدرك فتسمع وتعى كلّ شىء ، وأشرح لك فهمك فتفقه كلّ شىء ، وأبسط لك لسانك فتنطق بكل شىء ، وأفتح لك بصرك فتنقد كل شىء ، وأحصى لك قوتك ، فلا يفوتك شىء ، وأشد لك عضدك فلا يهولنك شىء ، وأشد لك ركنك فلا يغلبك شىء ، وأشد لك قلبك فلا يفزعك شىء ، وأشد لك يديك فتسطو على كل شىء وأشد لك وطأك فتهلك كل شىء ، وألبسك الهيبة فلا يروعنك شىء ، وأسخر لك النور والظلمة وأجعلهما جندا من جنودك ؛ يهديك النور أمامك وتحوط بك الظلمة من ورائك . فلما قيل له ذلك حدثته نفسه بالمسير ، وألح عليه قومه بالمقام ، فلم يفعل وقال : لابد من طاعة الله تعالى ، ثم أمرهم أن يبنوا له مسجدا ، وأن يجعلوا طول المسجد أربع مئة ذراع ، وعرضه مئتى ذراع ، وعرض أساس حائطه أربعة وعشرين ذراعا ، وطوله فى السماء مئة ذراع ؛ وأمرهم أن ينصبوا فيه السوارى ، قالوا : كيف نصنع ؟ قال : إذا فرغتم من شأن الحيطان ، فاكبسوها بالتراب حتى يستوى الكبس مع حائط المسجد ، فإذا فرغتم فرضتم من الذهب على الموسر قدره وعلى المقتر قدره ، وقطعتموه مثل قلامة الظفر ثم خلطتموه بذلك الكبس ، وجعلتم خشبا من نحاس ووتدا من نحاس وصفائح من نحاس ، تذيبون ذلك وأنتم ممكنون من العمل كيف شئتم على أرض مستوية ، وجعلتم طول كل خشبة مئة ذراع وأربعة وعشرين ذراعا ومئتى ذراع فيما بين الحيطان ، لكل حائط اثنا عشر ذراعا ، ثم تدعون المساكين لنقل التراب ، فيسارعون إليه لما فيه من الذهب والفضة ، فمن حمل شيئا فهو له ، ففعلوا ذلك ، فأخرج المساكين ذلك التراب واستقر

السقف بما عليه واستغنى المساكين ، فكان جندهم أربعين ألفا ، فجعلهم أربعة أجناد فى كل جند عشرة آلاف ، ثم عرض جنده فوجدهم فيما قيل ألف ألف وأربع مئة ألف ، منهم من جنده ثمان مئة ألف ، ومن جند دارا ست مئة ألف ، ومن المساكين أربعون ألفا ، ثم انطلق يؤم الأمة التى عند مغرب الشمس ، فذلك قوله تعالى « حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ » أى ذات حمأ ، ومن قرأ حامية بألف من غير همز فمعناه حارة .

أخبرنا عبد الله بن حامد الأصفهانى بإسناده عن ابن عباس قال : أقرأنيها أبىّ بن كعب كما أقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عين حمئة . وقال ابن عباس : كنت جالسا عند معاوية إذ قرأ هذه الآية (وجدها تغرب فى عين حامية) فقلت ما نقرؤها إلا حمئة ، فقال معاوية لعبد الله بن عمر : كيف تقرؤها ؟ قال : أقرؤها كما قرأتها يا أمير المؤمنين ، قال ابن عباس : فأطلت الجدال معهما ، فأرسل معاوية إلى كعب ، فجاءه فقال له : أين تجد الشمس تغرب فى التوراة يا كعب ؟ قال : أما العربية فأنتم أعلم بها منى ، وأما الشمس فإنى أجدها فى التوراة تغرب فى ماء وطين ، وأنشدك ما تزداد به تبصرا ، وهو قول تبع :

قد كان ذو القرنين قبلى مسلما ... ملكا تدين له الملوك وتسجد
بلغ المشارق والمغارب يبتغى ... أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها ... فى عين ذى خُلُب وثَأْط حَرْمَد

فقال معاوية : ما الخلب يا كعب ؟ فقلت : الطين بكلامهم ، قال : فما الثأط ، قلت : الحمأة ، قال : وما الحرمد ؟ قلت : الأسود ، فدعا رجلا فقال : اكتب ما يقول.

فلما بلغ مغرب الشمس وجد عندها جمعا وعددا لا يحصيه إلا الله تعالى ، وقوة وبأسا لا يطيقه إلا الله تعالى ، ورأى ألسنة مختلفة وأهواء مشتبهة ، فذلك قوله تعالى « وَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا » يعنى ناسا . فلما رأى ذلك كاثرهم بالظلمة ، فضرب حولهم ثلاث عساكر منها ، فأحاط بهم من كل مكان حتى جمعهم فى مكان واحد ، ثم أخذ عليهم بالنور ، ودعاهم إلى الله تعالى وإلى عبادته ، فمنهم من آمن به ، ومنهم من صدّ عنه ، فعمد إلى الذين تولوا عنه ، فأدخل عليهم الظلمة ، فدخلت فى أفواههم وأنوفهم وآذانهم وأجوافهم ، ودخلت فى بيوتهم ودورهم ، وغشيتهم من فوقهم ومن تحتهم ومن كل جانب . فلما خوّفوا صاحوا وتحيروا فلما أشفقوا أن يهلكوا ضجوا بصوت واحد ، فكشفها عنهم وأخذهم عَنْوة ، فدخلوا فى دعوته ، فجاء من أهل المغرب أمم عظيمة ، فجعلهم جندا واحدا ثم انطلق بهم يقودهم والظلمة تسوقهم من خلفهم وتحرسهم ، والنور أمامه يقوده ويدله ، وهو يسير فى ناحية الأرض اليمنى وهو يريد الأمة التى فى قطر الأرض اليمين التى يقال لها هاويل ، وسخر الله له قلبه ويده ورأيه وعقله ونظره فلا يخطئْ إذا عمل عملا ، فانطلق يقود تلك الأمم وهى

تتبعه ، حتى إذا انتهى إلى بحر أو مخاضة هيأ سفنا من ألواح صغار مثل النعال ، فيلحمها فى ساعة ثم يحمل فيها جميع ما معه من تلك الأمم وتلك الجنود ، وإذا بلغ البحار والأنهار فتقها ، ثم يدفع إلى كل رجل منهم لوحا فلا يكترث بحمله ، فلم يزل ذلك دأبه حتى انتهى إلى هاويل ، ففعل فيها كفعله فى ناسك . فلما فرغ منها مضى على وجهه فى ناحية الأرض اليمنى حتى انتهى إلى منسك عند طلوع الشمس ، وجدها تطلع على قوم ، فعمل فيها وجند فيها جنودا كفعله فى الأمتين اللتين قبلها ، ثم كر مقبلا حتى أتى ناحية الأرض اليسرى وهو يريد تاويل ، وهى الأمة التى بحيال هاويل ، وهما متقابلتان بينهما عرض الأرض كله ، فلما بلغها عمل فيها وجند جنودا كفعله فيما قبلها ، فذلك قوله تعالى « حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا » وذلك أنهم كانوا فى مكان لايستقر عليه بناء ، وكانوا يكنون فى أسراب لهم حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى معايشهم وحروثهم .

وقال الحسن : كانت أرضهم أرضا لاتحتمل البناء ، وكانوا إذا طلعت الشمس عليهم دخلوا الماء ، فإذا ارتفعت عنهم خرجوا فرعَوْا كما ترعى البهائم . وقال ابن جريج : جاءهم مرة جيش للتفرج على طلوع الشمس ، فنهاه أهلها ، فقالوا : ما نبرح حتى تطلع الشمس فنراها ، ثم إنهم قالوا : ما هذه العظام ؟ فقالوا : هذه جيف قوم طلعت عليهم الشمس فماتوا ههنا . قال : فذهبوا هاربين فى الأرض . وقال الكلبيّ : هم أمة يقال لها منسك حفاة عراة عماة عن الحق . قال : وحدثنا عمرو بن مالك بن أمية قال : وجدت رجلا بسمرقند يحدث الناس وهم حوله مستمعون له مجتمعون ، فسألت بعض من سمع حديثه فأخبرنى أنه حدثهم عن القوم الذين تطلع عليهم الشمس قال : خرجت حتى جاوزت الصين ثم سألت عنهم ، فقيل لى إن بينك وبينهم يوما وليلة ، فاستأجرت رجلا ثم سرت بقية يومى وليلتى حتى صبحتهم ، فإذا أحدهم يفرش أذنه ويلتحف بالأخرى ، وكان صاحبى يُحسِن لسانهم ، فسألهم فقالوا له : إذًا تنظر كيف تطلع الشمس ، قال : فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة ، فغشى علىّ فوقعت ، فلما أفقت قمت وهم يمسحون علىّ بالدهن ، فلما طلعت الشمس على الماء ، إذا هى على الماء كهيئة الزيت ، وإذا طرف السماء كهيئة الفسطاط ، فلما ارتفعت أدخلونى سربا لهم أنا وصاحبى ، فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك ويطرحونه فى الشمس فينضج ، والله أعلم .

باب فى صفة سد ذى القرنين وما يتعلق به

قال الله تعالى « حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا » قالت العلماء بأخبار القدماء : لما فرغ ذوالقرنين من أمر الأمم الذين هم فى أطراف الأرض ، وطاف المشرق والمغرب عطف منها على الأمم التى فى وسط الأرض من الجن والإنس ويأجوج ومأجوج . فلما كان فى بعض الطريق مما يلى منقطع

الترك نحو المشرق قالت له أمة صالحة من الإنس : يا ذا القرنين إن بين هذين الجبلين خلقا من خلق الله ، ليس فيهم مشابهة من الإنس ، وهم أشباه البهائم يأكلون العشب ويفترسون الدواب والوحوش كما تفترسها السباع ، ويأكلون حشرات الأرض كلها من الحيات والعقارب ، وكل ذى روح مما خلق الله فى الأرض ، وليس لله خلق ينمون نماءهم ولا يزدادون كزيادتهم ، فإن أنت اطلعت على ما ينمو من نمائهم وزيادتهم فلا تشك أنهم سيملئون الأرض ويُخرجون أهلها منها ويظهرون عليها ويفسدون فيها ، وليست تمر بنا سنة منذ جاورناهم إلا ونحن نتوقع أن يطلع علينا أولهم من بين هذين الجبلين « فَهَلْ نَجْعَلُ لكَ خَرْجاً » أى جعلا وأجرا « عَلَى أنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وبينَهُمْ سَدّاً » حاجزا فلا يصلون إلينا ، فقال لهم ذو القرنين « ما مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى » أى قوانى عليه « خَيْرٌ » من خراجكم « فأعِينُونى بقُوَّةٍ أجْعَلْ بينَكُمْ وبينَهم رَدْماً » حاجزا كالحائط ، قالوا وما تلك القوة ؟ قال : فَعَلَة وصناع يحسنون البناء والعمل والآلة ، قالوا : وما تلك الآلة ؟ قال « آتُونى زُبَرَ الحَدِيدِ » أى قطعه ، واحدتها زبرة ، وآتونى النحاس ، فقالوا : من أين لنا من الحديد والنحاس ما يسع هذا العمل ؟ قال : سأدلكم على معادنهما ، قالوا : فبأى قوة نقطع الحديد والنحاس ؟ فاستخرج لهم معدنا آخر يقال له الساهون ، وهو أشد ما خلق الله فى الأرض بياضا ، وهو الذى قطع به سليمان أساطين بيت المقدس وصخوره وجواهره ، ثم إنه قاس ما بين الجبلين ، ثم أوقد على ما جمع من الحديد والنحاس النار ، وصنع منها زُبَرا مثل الصخور العظام ، ثم أذاب النحاس فجعله كالطين والملاط لتلك الصخور التى هى من الحديد ثم بنى . وكيفية بنائه على ما ذكر أهل السير أنه لما قاس ما بين الجبلين وجد ما بينهما مئة فرسخ ، فلما أنشأ فى عمله حفر له الأساس حتى بلغ الماء ثم جعل عرضه خمسين فرسخا ، ثم وضع الحطب بين الجبلين ثم نسج عليه الحديد ، ثم نسج الحطب على الحديد ، فلم يزل يجعل الحطب على الحديد والحديد على الحطب « حتَّى إذَا ساوَى بينَ الصَّدَفينِ » وهما الجبلان أمر بالنار فأرسلت فيه قال « انْفُخُوا » حتى جعل يفرغ القطر فيه ، وهو النحاس المذاب ، فجعلت النار تأكل الحطب ويصير النحاس مكان الحطب ، حتى لزم الحديد النحاس ، فصار كأنه برد حبرة من صفرة النحاس وحمرته ، وسواد الحديد وغبرته ، فصار سدا طويلا عظيما حصينا قال تعالى « فَما اسْطاعوا أنْ يَظْهَرُوه » أى يعلوه « وَما اسْتطاعُوا لهُ نَقْبا » .

قال قتادة : ذكر لنا أن رجلا قال : يا نبى الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج ، قال : انعته لى ، قال : كالبرد المحبّر : طريقة سوداء ، وطريقة حمراء ، فقال له : قد رأيته . ويقال إن موضع السد وراء زخرد بقرب مشرق الأرض ، بينه وبين الخزر مسيرة اثنين وسبعين

يوما . وذكر أن الواثق بالله أمير المؤمنين رأى فى المنام أن السد مفتوح فوجه سلاما الترجمان فى خمسين رجلا وأعطاه خمسة آلاف دينار ، وأعطى كل رجل من الخمسين خمسين ألف درهم ورزق سنة ، وأعطاه مائتى بغلة تحمل الزاد والماء ، وخرج من «سرّ من رأى» بكتاب الواثق بالله إلى إسحاق بن إسمعيل صاحب أرمينية وكان بتفليس ، وكتب له إسحاق إلى صاحب السرير ، وكتب له صاحب السرير إلى ملك اللان ، وكتب له ملك اللان إلى الأزالى طلجند فى بلاد شاه ملك الخزر ، فأقام عنده حتى أخذ معه خمسين رجلا أدلاء ، فساروا خمسة وعشرين يوما حتى انتهوا إلى أرض سوداء منتنة الريح ، وكانوا قد حملوا معهم شيئا يشمونه من الرائحة الذكية ، فساروا تسعة وعشرين يوما ، ثم سألوا عن سبب نتن الريح ما هو ؟ فقالوا : مات ههنا قوم ، ثم ساروا فى مدن خراب عشرين يوما ، فسألوا عن تلك المدن فقالوا : قد ظهر فيها يأجوج ومأجوج فخربوها ، ثم ساروا إلى حصون بالقرب من الجبل يتكلمون بالعربية والفارسية يقرءون القرآن ولهم مكاتب ومساجد ، فقالوا لنا : من هؤلاء القوم ؟ قلنا : رسل أمير المؤمنين ، فقالوا : ومن هو أمير المؤمنين ؟ قلنا من أولاد العباس ملك بالعراق ، فتعجبوا منه وقالوا : شيخ أو شاب ، وزعموا أنهم لم يبلغهم خبره ، ثم فارقوهم وساروا إلى جبل أملس ليس عليه خضرة ، وإذا جبل مقطوع بواد عرضه مائة وخمسون ذراعا ، وعضادتاه مبنيتان مقابلتا الجبل ، عرض كل عضادة خمسة وعشرون ذراعا مبنية بلبن من حديد مركبة فى نحاس فى سمك خمسين ذراعا ، وإذا وتد من حديد طرفاه على عضادتين طوله مئة وعشرون ذراعا قد ركب على العضادتين ، علو كل واحدة مقدار عشرة أذرع فى عرض خمسة أذرع ، فوق ذلك اللبن الحديد المغيب فى النحاس إلى رأس الجبل وارتفاعه مد البصر ، وفوق ذلك شرافات من حديد فى طرف كل شرافة قرنان مبنى بعضها إلى بعض ، منظومة كل واحدة فى صاحبتها ، فإذا باب له مصراعان منصوبان من حديد ، عرض كل باب خمسون ذراعا فى ارتفاع خمسين ذراعا ، قائمتاهما فى دورهما على قدر الدربند ، وعلى الباب قفل طوله سبعة أذرع فى غلظ ذراع ، وارتفاع القفل من الأرض خمسة وخمسون ذراعا ، وفوق القفل مقدار خمسة أذرع غلق وعلى الغلق مفتاح طوله ذراع ونصف معلق فى سلسلة طولها ثمانية أذرع فى استدارة أربعة أشبار ، والحلقة التى فى السلسلة مثل حلقة المنجنيق ، وعرض عتبة الباب عشرة أذرع فى طول مائة ذراع سوى ما فى العضادتين ، والظاهر منها خمسة أذرع ، وهذا كله بذراع السواد ، ورئيس تلك الحصون يركب كل جمعة فى عشرة فوارس مع كل فارس مرزبة من حديد وزن كل واحدة خمسون منّا ، فيضرب القفل بالمرزبات كل يوم ثلاث ضربات ليسمع من وراء الباب الصوت ، فيعلموا أن هناك حفظة ، ويعلم هؤلاء أن أولئك لم يحدثوا فى الباب حدثا ، فإذا ضربوا أصغوا إليه بآذانهم فيسمعون من داخل دويا ، وبالقرب من هذا الجبل حصن كبير عظيم عشرة فراسخ فى مسيرة مئة فرسخ ، لأنها عشرة فى عشرة ،

ومع الباب حصنان طول كل واحد منهما مئتا ذراع فى مئتى ذراع ، وعلى باب هذين الحصنين صخرتان ، وبين الحصنين ماء عين عذب، فى أحد الحصنين آلة البناء التى بنى بها السد من قدور الحديد ومغارف من حديد ، وهناك بعض اللبن من الحديد قد التزق بعضه ببعض من الصدإ ، واللبنة ذراع ونصف فى عرض شبر ، وسألنا هل وراء ذلك أحد من أهل يأجوج ومأجوج ؟ فذكروا أنهم رأوا منهم عدة فوق الشرف ، فهبت ريح سوداء فألقتهم إلى جانبهم ، وكان مقدار الرجل فى رأى العين شبرا ونصفا . قال : فلما انصرفنا أخذ بنا الأدلاء على نواحى خراسان فعدلنا إليها ، فوقعنا إلى القرب من سمرقند على سبعة فراسخ ، وكان أصحاب الحصن ثم زودونا الطعام ، ثم سرنا إلى عبد الله بن طاهر فوصلنا بمئة ألف درهم ، ووصل كل رجل كان معى بخمس مئة درهم ، وأجرى على كل فارس خمسة دراهم ، وعلى كل راجل ثلاثة دراهم كل يوم حتى صرنا إلى الرى ورجعنا إلى « سرمن رأى » بعد ثمانية وعشرين شهرا ، والله أعلم .

باب فى دخول ذى القرنين الظلمات مما يلى القطب الشمالى لطلب عين الحياة

روى عن علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال : كان ذو القرنين قد ملك مابين المشرق والمغرب ،وكان له خليل من الملائكة اسمه رفائيل يأتيه ويزوره ، فبينما هما ذات يوم يتحدثان إذ قال ذو القرنين : يارفائيل حدثنى عن عبادتكم فى السماء ، فبكى وقال : ياذا القرنين وما عبادتكم عند عبادتنا ؟ إن فى السماء من الملائكة من هو قائم لايجلس أبدا ، ومن هو ساجد لايرفع رأسه أبدا ، ومن هو راكع لايستوى قائما أبدا يقولون : سبحان القدوس رب الملائكة والروح ، ربنا ما عبدناك حق عبادتك ؛ فبكى ذو القرنين بكاء شديدا ثم قال : إنى أحب أن أعيش فأبلغ من عبادة ربى حق عبادته ، فقال رفائيل : أو تحب ذلك يا ذا القرنين ؟ قال نعم ، قال رفائيل : فإن لله عينا فى الأرض تسمى عين الحياة ، فمما منّ الله عز وجل أن من يشرب منها شربة لايموت أبدا حتى يكون هو الذى يسأل ربه الموت ، فقال له ذوالقرنين : هل تعلمون أنتم موضع تلك العين ؟ فقال لا ، غير أنا نتحدث فى السماء أن لله فى الأرض ظلمة لايطؤها إنس ولا جان ، فنحن نظن أن تلك العين فى تلك الظلمة ، فجمع ذو القرنين علماء أهل الأرض وأهل دراسة الكتب وآثار النبوة ، فقال لهم : أخبرونى هل وجدتم فيما قرأتم من كتب الله تعالى وما جاءكم من الأحاديث ، وسألتم من كان قبلكم من العلماء أن الله وضع فى الأرض عينا سماها عين الحياة ؟ فقالت العلماء لا ، فقال عالم من العلماء : إنى قرأت وصية آدم عليه السلام فوجدت فيها أن الله خلق فى الأرض ظلمة لم يطأها إنس ولا جان ، ووضع فيها عين الخلد ، فقال ذوالقرنين : أين وجدتها ؟ قال : وجدتها فى الأرض التى على قرن الشمس ، فبعث إليها ذوالقرنين وحشد إليها الفقهاء والأشراف من الناس والملوك ، ثم صار يطلب مغرب الشمس

فسار اثنتى عشرة سنة إلى آن بلغ طرف الظلمة ، فإذا هى مثل الدخان وليست كظلمة الليل ، فعسكر هنالك ثم جمع علماء عسكره فقال : إنى أريد أن أسلك هذه الظلمة ، فقالت العلماء أيها الملك إن من كان قبلك من الملوك والأنبياء لم يطئوا هذه الأرض فلا تطأها ، فإنا نخاف أن ينفتح عليك أمر تكرهه ويكون فيه فساد الأرض ومن عليها ، فقال : لابد من أن أسلكها ، فقالوا : أيها الملك كف عن هذه الظلمة ولا تطلبها ، فإنا لو نعلم أنك إن طلبتها ظفرت بما تريد ولم يسخط الله علينا لاتبعناك ولكنا نخاف من الله تعالى فسادا فى الأرض ومن عليها ، فقال ذو القرنين : لابد من أن أسلكها ، فقالت العلماء : شأنك بها ، فقال ذو القرنين : أى الدواب بالليل أبصر ؟ قالوا الخيل ، قال : وأى الخيل بالليل أبصر ؟ قالوا الإناث ، قال : وأى الإناث أبصر ؟ قالوا البكارى ، قال : فأرسل ذو القرنين فجمع له ستة آلاف فرس أنثى أبكارا ، ثم انتخب من عسكره أهل الجلد والعقل ستة آلاف رجل ، فدفع لكل رجل منهم فرسا ، وعقد راية للخضر عليه السلام وجعل مقدمته فى ألفين ، وبقى ذو القرنين فى أربعة آلاف رجل ، وقال ذو القرنين لبقية عسكره : لاتبرحوا من معسكركم هذا إلى اثنتى عشرة سنة ، فإن نحن رجعنا إليكم وإلا فارجعوا إلى بلادكم ، فقال الخضر : أيها الملك إنا نسلك الظلمة ولا ندرى كم السير فيها ولا يبصر بعضنا بعضا ، وكيف نصنع بالضلال إذا أصابنا ، فدفع ذو القرنين إلى الخضر عليه السلام خرزة حمراء وقال له : حيث يصيبكم الضلال فاطرح هذه فى الأرض فإذا صاحت فليرجع إليها أهل الضلال أين صاحت . قال : فسار الخضر بين يدى ذى القرنين يرتحل الخضر ويحط ذو القرنين ، فبينما الخضر عليه السلام يسير إذ عرض له واد ، فظن الخضر أن العين فى الوادى ، وألقى فى قلبه ذلك ، فقام على شفير الوادى ومكث طويلا ، ثم أجابته الخرزة فطلب صوتها ، فانتهى إليها فإذا هى على جانب العين ، فنزع الخضر ثيابه ثم دخل العين ، فإذا ماؤها أشد بياضا من اللبن وأحلى من الشهد ، فشرب واغتسل وتوضأ ولبس ثيابه ، ثم إنه رمى الخرزة نحو أصحابه ، فوقعت وصاحت ، فرجع الخضر إلى صوتها وإلى أصحابه ، فركب وقال لأصحابه : سيروا على اسم الله . وإن ذا القرنين مر فأخطأ الوادى ، فسلكوا تلك الظلمة فى أربعين يوما ، ثم إنهم خرجوا إلى ضوء ليس كضوء شمس ولا قمر ، والأرض حمراء رملة خشخاشية ، فإذا هم بقصر مبنى فى تلك الأرض طوله فرسخ فى فرسخ عليه ، فنزل ذو القرنين بعسكره ، ثم إنه خرج وحده حتى دخل القصر ، فإذا حديدة قد وضع طرفاها على جانب القصر من ههنا وههنا ، وإذا طائر أسود يشبه الخطاف مزموما بأنفه إلى الحديدة معلقا بين السماء والأرض . فلما سمع الطائر خشخشة ذى القرنين قال : من هذا ؟ قال : أنا ذو القرنين ، فقال الطائر : يا ذا القرنين ما كفاك ما وراءك حتى وصلت إلىّ ؟ ثم قال : يا ذا القرنين حدثنى ، فقال سل ، فقال : هل كثر بناء الجص والآجر فى الأرض ؟ قال نعم ، فانتفض الطائر انتفاضة ثم انتفخ فبلغ ثلث الحديدة ؛ ثم قال :

يا ذا القرنين : هل كثرت شهادة الزور فى الأرض ؟ قال نعم ، قال : فانتفض الطائر ثم انتفخ حتى ملأ الحديدة وسد ما بين جدران القصر بحيث رأى ذوالقرنين ذلك ففرق فرقا شديدا ، فقال الطائر : لاتخف حدثنى ، قال سل ، قال : هل ترك الناس شهادة أن لاإله إلا الله بعد ؟ قال لا ، فانضم الطائر إلى ثلثه ؛ ثم قال : يا ذا القرنين هل ترك الناس غسل الجنابة بعد ؟ قال لا ، فعاد الطائر كما كان ؛ ثم قال : يا ذا القرنين اسلك هذه الدرج درجة درجة إلى أعلى القصر ، فسلكها ذوالقرنين وهو خائف وجل لايدرى على ما يهجم حتى استوى على صدر الدرج ، فإذا سطح ممدود عليه صورة رجل شاب قائم وعليه ثياب بيض رافعا وجهه إلى السماء واضعا يده على فيه . فلما سمع خشخشة ذى القرنين قال : من هذا ؟ قال : أنا ذوالقرنين ، قال : يا ذا القرنين إن الساعة قد قربت وإنى منتظر أمر ربى يأمرنى أن أنفخ فى الصور ، ثم إن صاحب الصور أخذ شيئا من بين يديه كأنه حجر ، فقال : يا ذا القرنين خذ هذا فإن شبع هذا شبعت ، وإن جاع هذا جعت ، فأخذ ذوالقرنين الحجر ونزل حتى أتى إلى أصحابه ، فحدثهم بأمر الطائر وما قاله له وما أورده عليه وما قال له صاحب الصور ، ثم جمع علماء عسكره وقال : أخبرونى ما هذا الحجر وما أمره ؟ فقالوا : أيها الملك أخبرنا ما قال لك صاحب الصور ؟ فقال ذوالقرنين إنه قال : إن شبع هذا شبعت وإن جاع جعت ، فوضعت العلماء ذلك الحجر فى كفة الميزان وأخذوا حجرا مثله ووضعوه فى الكفة الأخرى ، ثم رفعوا الميزان ، فإذا الذى جاء به ذوالقرنين أثقل ، فوضعوا معه آخر ورفعوا الميزان ، فإذا الذى جاء به ذوالقرنين أثقل ، فوضعوا معه آخر ، ورفعوا الميزان ، وإذا الذى جاء به ذو القرنين أثقل ، فلم يزالوا يضعون حجرا بعد حجر ، حتى وضعوا ألف حجر ، ثم رفعوا الميزان ، فمال بالألف جميعا ، فقالت العلماء : انقطع علمنا دون هذا ، لانعرف أسحر هذا أم علم لانعلمه ؟ فقال الخضر عليه السلام وكان واقفا : أنا أعلم علمه ، فأخذ الخضر عليه السلام الميزان بيده ، ثم أخذ الحجر الذى جاء به ذوالقرنين فوضعه فى إحدى الكفتين وأخذ حجرا من تلك الحجارة فوضعه فى الكفة الأخرى ثم أخذ كفا من تراب فوضعه على الحجر الذى جاء به ذوالقرنين ثم رفع الميزان فاستوى ، فخرت العلماء سجدا لله تعالى وقالوا : سبحان الله هذا علم لم يبلغه علمنا ، والله لقد وضعنا معه ألف حجر فما استقل به ، فقال الخضر عليه السلام : أيها الملك إن سلطان الله عز وجل قاهر لخلقه وأمره نافذ فيهم وحكمه جار عليهم ، وإن الله ابتلى خلقه بعضهم ببعض ، فابتلى العالم بالعالم ، والجاهل بالجاهل ، والجاهل بالعالم ، والعالم بالجاهل ، وإنه ابتلانى بك وابتلاك بى ، فقال ذوالقرنين : صدقت ، فأخبرنى ما هذا الحجر ؟ فقال الخضر : أيها الملك هذا مثل ضربه لك صاحب الصور إن الله تعالى مكن لك فى الأرض فأعطاك منها مالم يعط أحدا من خلقه ، وأوطأك منها مالم يوطئ لأحد من خلقه فلم تشبع ، وآتيت

نفسك شرهها حتى بلغت من سلطان الله ما لم يطأه إنس ولا جان ، فهذا مثل ضربه لك صاحب الصور : ابن آدم لايشبع أبدا حتى يُحثَى عليه التراب ولا يملأ جوفه إلا التراب، فبكى ذو القرنين ثم قال : صدقت ياخضر فى ضرب هذا المثل ، لاجرم لاطلبت أثرا فى البلاد بعد مسيرى هذا حتى أموت ، ثم إنه انصرف راجعا حتى إذا كان فى وسط الظلمة وطئ الوادى الذى فيه الزبرجد ، فقال من معه لما سمعوا خشخشة تحت حوافر دوابهم : ما هذا الذى تحتنا أيها الملك ؟ فقال ذو القرنين : خذوا منه ، فإن من أخذ منه ندم ومن تركه ندم ، فنهم من أخذ منه شيئا ومنهم من تركه ، فلما خرجوا من الظلمة ونظروه إذا هو زبرجد ، فندم الآخذ والتارك . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رَحِمَ اللهُ أخى ذَا القَرْنَيْنِ لَوْ ظَفِرَ بِوَادِى الزَّبَرْجَدِ فى مَبْدَإِ أَمْرِهِ ما تَرَكَ مِنْهُ شَيْئًا حَتّى كانَ يُخْرِجُهُ إلى النَّاسِ ، لأنَّهُ كانَ رَاغِبًا فى الدُّنْيا ، ولكِنَّهُ ظَفِرَ وَهُوَ زَاهِدٌ فى الدُّنْيا لاحاجَةَ لَهُ فِيها » . ثم إنه رجع إلى العراق وملك ملوك الطوائف كلها، ومات فى طريقه قبل وصوله بشهر .

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : إنه رجع إلى دومة الجندل وكانت منزله ، فأقام بها حتى مات . قالوا : وكان عمره ستا وثلاثين سنة ، وكان ملكه سبع عشرة سنة ، وكان قبل دارا فى أول السنة الثالثة من ملكه ، فلما مات حمل إلى أمه بالإسكندرية ودفن هناك . قالوا : فلما مات الإسكندر عرض الملك على ابنه اسكندروس من بعده فأبى واختار النسك والعبادة ، فملكت اليونانية عليهم فيما قيل بطليموس بن لوسوع ، وكان ملكه ثمانيا وثلاثين سنة ؛ وكانت المملكة فى حياة الإسكندر وبعد وفاته إلى أن تحول الملك إلى الروم والمضاض واليونانية ولبنى إسرائيل بيت المقدس ونواحيها الديانة والرياسة على غير وجه الملك إلى أن خرب بلادهم الفرس والروم وطردوهم عنها بعد قتل يحيى بن زكريا عليهما السلام ، والله أعلم .

مجلس : فى قصة زكريا وابنه يحيى ومريم وعيسى عليهم السلام

وهو مجلس يشتمل على أبواب كثيرة

قال محمد بن إسحاق وغيره من أهل الأخبار : عبرت بنوإسرائيل بعد مرجعهم من أرض بابل إلى بيت المقدس وبلاد الشام وانتظام أمورهم ، ولم يزالوا يحدثون الأحداث ويعود الله عليهم بفضله ورحمته ، ويبعث فيهم الرسل (ففريقا يكذّبون وفريقا يقتلون) كما قال الله تعالى ، حتى كان ممن بعث فيهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى ؛ وكانوا من آل بيت داود عليه السلام .

نسب زكريا عليه السلام

هو زكريا بن بَرَخيا بن عدٍّ وبن مسلم بن صدوق بن يحسان بن داود بن سليمان بن مسلم ابن صديقة بن ناحور بن سلوم بن بهفاساط بن أبيا بن رحيم ، بن سليمان بن داود عليه السلام

باب فى ذكر مولد مريم عليها السلام وخبر تحريرها

قال الله تعالى (إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا) الآيات . قال المفسرون : هى حنة بنت فاقوذ جدة عيسى عليه السلام . وعمران ، قال ابن عباس : هو عمران بن ماثان ، وليس بعمران أبى موسى إذ بينهما ألف وثمان مئة سنة . وكانت بنو ماثان رءوس بنى إسرائيل وأحبارهم وملوكهم . وقال ابن إسحاق : هو عمران بن ساهم بن أمور بن ميشان بن حزقيل بن أحريف بن بؤم بن عزازيا بن أمصيا بن ناوس بن نوثا بن بارض بن يهوشا فاط بن رادم بن أبيا بن رحيعم بن سليمان بن داود عليه السلام .

وكانت القصة فى ذلك أن زكريا بن بَرَخيا وعمران بن ماثان كانا متزوجين بأختين : إحداهما عند زكريا بن بَرَخيا وهى إيشاع بنت فاقوذ أم يحيى ؛ وكانت الأخرى عند عمران وهى حنة بنت فاقوذ أم مريم ، وكان قد أمسك عن حنة الولد حتى أيست وعجزت ، وكانوا أهل بيت من الله بمكان ، فبينما هى فى ظل شجرة إذ نظرت طائرا يطعم فرخا ، فتحركت عند ذلك شهوتها للولد ، ودعت الله تعالى أن يهب لها ولدا وقالت : اللهم لك علىّ إن رزقتنى ولدا أن أتصدق به على بيت المقدس ، فيكون من سدنته وخدمه نذرا وشكرا ، فحملت بمريم عليها السلام ، فحررت ما فى بطنها ولم تعلم ما هو ، فقالت (رَبِّ إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا) أى عتيقا عن الدنيا وأشغالها خالصا لله تعالى وخادما لبيتك المقدس حبسا عليه مفرّغا لعبادة الله ولخدمته ، فتقبل منى الكائن إنك أنت السميع العليم .

قالوا : وكان المحرّر إذا حرر ونذر جعل المحرر والمنذور فى الكنيسة يقوم عليها ويكنسها ويخدمها ولا يبرح عنها حتى يبلغ الحلم ، فإذا بلغ خيرّ بين أن يقيم وبين أن يذهب حيث شاء ، وإن أراد أن يخرج بعد التخيير استأذن رفقاءه من السدنة ليكون خروجه على علم منهم ، ولم يكن أحد من بنى إسرائيل وعلمائهم إلا من فى نسله محرر لبيت المقدس ، ولم يكن محررا إلا الغلمان ، وكانت الجارية لاتكلف ذلك ولاتصلح ، لما يصيبها من الحيض والأذى ، فحررت أم مريم ما فى بطنها . فلما فعلت ذلك قال لها زوجها عمران : ويحك ماذا صنعت ؟ أرأيت إن كان مافى بطنك أنثى ، والأنثى عورة لاتصلح لذلك ، فوقعا جميعا فى هم من ذلك ، فهلك عمران وحنة حامل بمريم ؛ فلما وضعتها إذا هى جارية ، فقالت حنة وكانت ترجو أن يكون غلاما اعتذارا إلى الله تعالى (رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى) أى فى خدمة الكنيسة والعبادة فيها

لعورتها وضعفها وما يعتريها من الحيض والنفاس والأذى (وإنى سَمَّيْتُها مَرْيَمَ) وهى بلغتهم العابدة والخادمة ، وكانت مريم عليها السلام أجمل النساء وأمثلهن فى وقتها .

أخبرنى الحسن بن محمد بإسناده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «حَسْبُكَ مِنْ نِساءِ العالَمِينَ أرْبَعٌ : مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرانَ ، وآسِيَةُ امْرأةُ فِرْعَوْنَ ، وخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِد ، وفاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ » (وإنى أُعِيذُها) أى أجيرها وأمنعها بك (وذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ) .

أخبرنا عبد الله بن حامد بإسناده ، وأخبرنا أبو سهيل أحمد بن محمد بن هارون بإسناده عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما مِنْ مَوْلُودٍ إلاَّ والشَّيْطانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ فَيَسْتَهِلُّ صارِخاً مِنْ مَسِّ الشَّيْطانِ إلاَّ مَرْيَمَ وابْنَها » ثم يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم (وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) .

وأخبرنا شعيب بن محمد بإسناده عن قتادة قال : كل آدمى يطعن الشيطان فى جنبه حين يولد إلا عيسى وأمه عليهما السلام جعل بينهما حجاب وأصابت الطعنة الحجاب ولم ينفذ إليهما منه شىء . قال : وذكروا لنا أنهما كانا لايصيبان من الذنوب كما يصيبه سائر بنى آدم ، قال الله تعالى (فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ) الهاء راجعة إلى النذيرة : أى فتقبل الله النذيرة : أى مريم من حنة (وأنْبَتَها نَباتاً حَسَناً) يعنى سوّى خلقها من غير زيادة ولا نقصان ، فكانت تنبت فى المدة اليسيرة كما ينبت المولود فى المدة الطويلة : وقال ابن جريج : وأنبتها ربها فى غذائها ورزقها نباتا حسنا حتى تمت امرأة بالغة .

قالوا : فلما ولدت مريم أخذتها أمها حنة ، فلفتها فى خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار أبناء هارون وهم يومئذ ثلاثون فى بيت المقدس كما يلى الحجبة أمر الكعبة ، فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة ، فتنافس فيها الأحبار لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم ، فقال لهم زكريا : أنا أحق بها منكم ، لأن عندى خالتها ، فقالت له الأحبار : لاتفعل ذلك ، فإنها لو تركت لأحق الناس وأقربهم إليها لتركت لأمها التى ولدتها ، ولكنا نقترع عليها ، فتكون عند من خرج سهمه ، فاتفقوا على ذلك ، ثم انطلقوا وكانوا تسعة عشر رجلا إلى نهر جار . قال السدى : هو نهر الأردُنّ ، فألقوا أقلامهم : أى سهامهم وقيل أقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة فى الماء ، فارتفع قلم زكريا فوق الماء وانحدرت أقلامهم ورسبت فى الماء ، قاله ابن إسحاق وجماعة . وقال السدى : بل ثبت قلم زكريا فوق الماء كأنه فى طين ، وجرت أقلامهم مع جريان الماء فذهب الماء بها ، فسهمهم وقرعهم زكريا عليه السلام ، وكان رأس الأحبار ونبيهم ، فذلك قوله تعالى (وكَفَّلَها زَكَرِيَّا) ضمها إلى نفسه وقام بأمرها . وقال ابن إسحاق : فلما كفلها زكريا ضمها إلى خالتها أم يحيى ، واسترضع لها ، حتى إذا نشأت وبلغت مبالغ النساء بنى لها محرابا : أى غرفة فى المسجد ،

وجعل بابه إلى وسطها ، لا يُرْقَى إليها إلا بسلم مثل باب الكعبة ، فلا يصعد إليها غيره ، وكان يأتيها بطعامها وشرابها ودهنها فى كل يوم ، وكان زكريا عليه السلام إذا خرج أغلق عليها بابها ، فإذا دخل عليها غرفتها (وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً) أى فاكهة فى غير حينها ، فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف ، فيقول لها (أَنَّى لَكِ هَـٰذَا ؟) فتقول (هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ) من قطف الجنة . قال الحسن : يجد عندها قوتها ، وكان رزقها يأتيها من الجنة ، فيقول لها زكريا : من أين لك هذا ؛ فتقول : هو من عند الله ؛ قال الحسن : وكانت وهى صغيرة يأتيها رزقها .

وقال محمد بن إسحاق : ثم أصابت بنى إسرائيل أزمة وهى على ذلك من حالها ، ثم ضعف زكريا عن حملها ، فخرج إلى بنى إسرائيل وقال : يا بنى إسرائيل تعلمون والله إنى لقد كبرت وضعفت عن حمل ابنة عمران ، فأيكم يكفلها بعدى ؟ فقالوا : والله لقد جهدنا وأصابنا من الجهد ما ترى ، فتدافعوها بينهم ، ثم لم يجدوا من يحملها ، فتقارعوا عليها بالأقلام ، فخرج السهم على رجل صالح نجار من بنى إسرائيل يقال له : يوسف بن يعقوب بن ماثان ، وكان ابن عم مريم ، فحملها . قال : فعرفت مريم فى وجهه شدة مئونة ذلك عليه ، فقالت له : يا يوسف أحسن الظن بالله ، فإن الله سيرزقنا ، فجعل يوسف يُرْزَق لمكانها منه ، فيأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها ، فإذا أدخله عليها وهى فى الكنيسة أنماه الله تعالى وكثره ، فيدخل إليها زكريا فيرى عندها فضلا من الرزق ليس بقدر ما يأتيها به يوسف ، فيقول لها (يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـٰذَا ؟ قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ) .

أخبرنا عبد الله بن حامد بإسناده عن جابر بن عبد الله : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام أياما لم يَطْعَم طعاما حتى شق ذلك عليه ، فطاف فى منازل أزواجه فلم يصب فى بيت أحد منهن شيئا ، فأتى فاطمة رضى الله عنها فقال : يا بُنَيَّةُ هَلْ عِنْدَكِ شَىْءٌ آكُلُ فإنى جائعٌ ؟ فقالت : لا والله بأبى أنت وأمى . فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وبضعة لحم ، فأخذته منها ووضعته فى جفنة وغطت عليه وقالت : لأوثرنّ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسى ومن عندى ، وكانوا جميعا محتاجين إلى شَبعة من طعام ، فبعثت حسنا وحسينا إلى جدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرجع إليها ، فقالت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، قد أتانا الله بشىء فخبأته لك ، قال : فَهَلُمِّى بِهِ ، فأتى به ، فكشف عن الجفنة فاذا هى مملوءة خبزا ولحما ، فلما نظرت إليه بهتت وعرفت أنها من بركة الله ، فحمدت الله تعالى وصلت على نبيه ، فقال عليه الصلاة والسلام : مِنْ أَيْنَ لَكِ هَـٰذَا يا بُنَيَّةُ ؟ قالت : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، فحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : الحَمْدُ للهِ

الّذى جعلكِ شبيهةً بسيّدةِ نساءِ بنى إسرائيلَ ، فإنّها كانتْ إذا رزقها اللهُ رزقا حسنا فسُئلتْ عنهُ (قالتْ : هُوَ مِنْ عندِ اللهِ إنّ اللهَ يرزقُ منْ يشاءُ بغيرِ حسابٍ) فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علىّ رضى الله عنه فأتى فأكل الرسول وعلى وفاطمة والحسن والحسين وجميع أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم جميعا حتى شبعوا وبقيت الجفنة كما هى . قالت فاطمة رضى الله عنها : وأوسعت منها على جميع جيرانى ، وجعل الله فيها بركة وخيرا كثيرا » وكان أصل الجفنة رغيفين وبضعة لحم ، والباقى بركة من الله تعالى .

باب فى مولد يحيى بن زكريا عليه السلام

قال الله تعالى (هُنالكَ دعا زكريّا ربّهُ قالَ ربِّ هبْ لى منْ لدُنْكَ ذريةً طيّبةً إنّكَ سميعُ الدُّعاءِ) قالت العلماء بأخبار الأنبياء : لما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم الفاكهة فى غير حينها قال : إن الذى قدر على أن يؤتى مريم بالفاكهة فى غير حينها من غير سبب ولا فعل أحد، لقادر على أن يصلح زوجتى ويهب لى ولدا على الكبر ، فطمع فى الولد وكان أهل بيته قد انقرضوا وزكريا قد شاخ وأيس من الولد ، فهنالك : أى فعند ذلك دعا ربه زكريا (قال رب هب لى) أى أعطنى (من لدنك ذرية طيبة) نسلا تقيا صالحا رضيا (إنّكَ سميعُ الدُّعاءِ . فنادتْهُ الملائكةُ) يعنى جبريل، وذلك أن زكريا كان الحبر الكبير الذى يقرب القُرْبان ويفتح باب المذبح فلا يدخل أحد حتى يأذن له بالدخول ، فبينما هو فى محرابه عند المذبح قائم يصلى والناس ينتظرون أن يأذن لهم بالدخول ، إذا هو برجل شابّ عليه ثياب بيض ، ففزع منه ، فناداه وهو جبريل عليه السلام (يا زكريّا إنّ اللهَ يُبشّركَ بيحيى) .

واختلفوا لم سُمى يحيى ؟ قال ابن عباس : لأن الله تعالى أحيا به عقر أمه . وقال قتادة وغيره : لأن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان والنبوة . وقال الحسن بن الفضل : لأن الله تعالى أحياه بالطاعة ، حتى لم يتغير ولم يهمّ بمعصية ، دليله ما أخبرنى به الحسن بن فتحويه بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما منْ أحدٍ يلْقى اللهَ عزّ وجلّ إلاّ قدْ همّ بخطيئةٍ أوْ عملها إلاّ يحيى بنَ زكريّا ، فإنّهُ لمْ يهمّ ولمْ يعملْ » . قال الأستاذ : وكان شيخنا أبو القاسم الجنيد يقول : سمى بذلك لأنه استشهد ، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم « منْ هوانِ الدُّنْيا على اللهِ أنّ يحيى بنَ زكريّاءَ قتلتْهُ امْرأةٌ » . قال : وسمعت أبا منصور الحمشاوىّ يقول : قال عمر بن عبد الله المقدسىّ : أوحى الله إلى إبراهيم الخليل عليه السلام أن قل ليسارة ، وكان اسمها كذلك : إنى مخرج منكما عبدا لا يهم بمعصيتى اسمه حىّ ، فهى

لى من اسمك حرفا ، فوهبت له أول حرف من حروف اسمها الياء، فصار يحيى ، وصار اسمها سارة. (مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ) يعني : عيسى عليه السلام، فسمى كلمة لأن الله تعالى قال له من غير أب : كن فكان، فوقع عليه اسم الكلمة لأنه بها وجد ، ويحيى أول من آمن بعيسى وصدقه ، وذلك أن أمه كانت حاملة به ، فاستقبلتها مريم وقد حملت بعيسى ، فقالت لها أم يحيى : يا مريم أحامل أنت ؟ فقالت لماذا تقولين هذا ؟ قالت : إنى أرى ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك ، فذلك تصديقه له وإيمانه به ، وكان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر ، وذلك أن مولد يحيى كان قبل مولد عيسى بستة أشهر ، ثم قتل يحيى قبل أن يرفع عيسى إلى السماء وسنذكره . قال سعيد بن المسيب : (وَسَيِّداً) السيد: الفقيه العالم. وقال سعيد بن جبير : السيد الذى يطيع ربه عز وجل . وقال الضحاك : السيد الحسن الخلق . وقال عكرمة : الذى لايغضب . وقال سفيان : الذى لايحسد (وَحَصُوراً) قال ابن عباس وابن مسعود وغيرهما : هو الذى لايأتى النساء ولا يقربهن ، فعول بمعنى فاعل: يعنى أنه حصر نفسه عن الشهوات. وقال ابن المسيب والضحاك: هو العِنِّين الذى لاباءة له . ودليل هذا التأويل ما أخبرنى به ابن فتحويه بإسناده عن أبى صالح عن أبى هريرة . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَلْقَى اللهَ بِذَنْبٍ قَدْ أَذْنَبَهُ يُعَذِّبُهُ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ أَوْ يَرْحَمُهُ إِلاَّ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا فَإِنَّهُ كَانَ سَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ، ثم أومأ النبى صلى الله عليه وسلم إلى قذاة من الأرض فأخذها ، قال : وكَانَ ذَكَرُهُ مِثْلَ هَذِهِ القَذَاةِ » . وقال المدنىّ : الحصور الذى لايدخل فى اللعب ولا الأباطيل .

قالوا : فلما نادى جبريل زكريا بالبشارة قال : رب ، أى ياسيدى، قاله لجبريل، هذا قول أكثر المفسرين . وقال الحسن بن الفضل : إنما قال زكريا : يا رب لله لا لجبريل (أَنَّى يَكُونُ لِى غُلامٌ) من أين يكون لى ولد (وَقَدْ بَلَغَنِىَ الكِبَرُ وامْرَأَتِى عاقِرٌ) لاتلد عقيم .

قال الكلبىّ : كان زكريا يوم بشر بالولد ابن اثنتين وتسعين سنة ، وقيل تسع وتسعين سنة وروى الضحاك عن ابن عباس قال : كان زكريا ابن عشرين ومئة سنة ، وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة ، فأجيب (كَذلِكَ اللهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ) فإن قيل لم أنكر زكريا ذلك وسأل الآية بعد ما بشرته الملائكة ، أكان ذلك شكاً فى وحيه ، أم إنكارا لقدرته ؟ وهذا لايجوز أن يوصف به أهل الإيمان، فكيف الأنبياء ؟ فالجواب عنه ما قاله عكرمة والسدىّ : أن زكريا لما سمع نداء الملائكة جاءه الشيطان فقال : يا زكريا إن الصوت الذى سمعت ليس من الله وإنما هو صوت الشيطان يسخرُ بك ، ولو كان من الله لأوحاه إليك خفية كما ناديته خفية ، وكما يوحى إليك فى سائر الأمور ، فقال ذلك دفعا للوسوسة . وفيه

جواب آخر ، وهو أنه لم يشكّ فى الولد، وإنما شك فى كيفيته والوجه الذى يكون منه الولد فقال (أنَّى يكون لى وَلَدٌ) أى كيف يكون لى ولد؟ أتجعلنى وامرأتى شابين أم تَرزُقه، كذا على كبرنا ، أم تَرزُقنى من امرأة غيرها من النساء ؟ فقال ذلك متخبرا لامنكرا ، وهذا قول الحسن (قالَ رَبِّ اجْعَلْ لى آيَةً قالَ آيَتُكَ أنْ لا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أيَّامٍ) وتقبل بكليتك على عبادتى وطاعتى ، لأنه حبس لسانه عن الكلام ، ولكنه نهى عنه، يدل عليه قوله تعالى (واذكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بالعَشِيِّ والإبْكارِ) هذا قول قوم من أهل العلم . وقال آخرون : عقل لسانه عن الكلام عقوبة لسؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه ، ولم يقدر على الكلام ثلاثة أيام إلا رَمْزًا : أى إشارة وعلى هذا أكثر المفسرين . وقال عطاء : أراد به صوم ثلاثة أيام،لأنهم كانوا إذا صاموا لم يتكلموا إلا رمزا، فولد يحيى بن زكريا عليهما السلام . وفى بعض الأخبار أنه لما ولد يحيى رفع إلى السماء فتغذى بأنهار الجنة حتى فُطِم ، ثم أنزل إلى أبيه وكان يضىء البيت لنوره وحسن وجهه وجماله .

باب فى صفته وحليته عليه السلام

قال كعب الأحبار : كان يحيى بن زكريا نبيا حسن الوجه والصورة ، لين الجناح قليل الشعر قصير الأصابع طويل الأنف مقرون الحاجبين رقيق الصوت كثير الغَيرة قويا فى طاعة الله تعالى ، وقد ساد الناس فى عبادة الله وطاعته .

فصل : فى نبوته وسيرته وذكر زهده وجهده

قال الله تعالى (يا يَحْيَى خُذِ الكِتابَ بِقُوَّةٍ وآتَيْناهُ الحُكْمَ صَبِيًّا) . قيل إن يحيى قال له أترابه من الصبيان : يا يحيى اذهب بنا نلعب ، فقال لهم : ما لِلّعب خلقت ؟ وقال آخرون : إنه نبئ صغيرا ، فكان يعظ الناس ويقف لهم فى أعيادهم وجمعهم ويدعوهم إلى الله تعالى ، ثم ساح ودخل الشام يدعو الناس ، ولما بعثه الله تعالى إلى بنى إسرائيل وأمره أن يأمرهم بخمس خصال ، وضرب لكل خصلة منها مثلا ، أمرهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا،وقال: مثل الشرك كمثل رجل اشترى عبيدا من خالص ماله ثم أسكنهم دارا له ودفع لهم مالا يتجرون فيه، ويأكل كل واحد منهم ما يكفيه،ثم يؤدون إليه فضل الربح فعمد العبيد إلى فضل الربح فدفعوه إلى عدو سيدهم وأمرهم بالصلاة،فقال: إن مثل المصلى كمثل رجل استأذن على ملك فأذن له ودخل عليه،فأقبل الملك عليه بوجهه ليسمع مقالته ويقضى حاجته،فلما دخل عليه الرجل التفت يمينا وشمالا ولم يهتم بحاجته،فأعرض الملك عنه ولم يقض حاجته . وأمرهم بالصدقة وقال : مثلها كمثل رجل أسره العدو ، فاشترى منه نفسه بثمن معلوم ، فجعل يعمل فى بلادهم ويؤدى إليهم من كسبه القليل والكثير حتى أوفى ثمنه فأعتق ،

وأمرهم بذكره عز وجل وقال مثل الذكر مثل قوم لهم حصن ولهم عدو، فإذا اقبل عليهم عدوّهم دخلوا حصنهم فلم يقدر عليهم ، كذلك من ذكر الله تعالى لايقدر عليه الشيطان ، وأمرهم بالصيام وقال : مثله كمثل الجنة لاتدع عدوه يصل إليه وتستره .

وأما سيرته فروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « كَانَ مِنْ زُهْدِ يَحْيَى أَنَّهُ أَتَى بَيْتَ المَقْدِسِ ، فَنَظَرَ إلى المُجْتَهِدِينَ مِنَ الأَحْبَارِ والرُّهْبَانِ وَعَلَيهِمْ مَدَارِعُ الشَّعْرِ والصُّوفِ وَبَرَانِسُ الصُّوفِ ، وإذَا هُمْ قَدْ خَرَقُوا تَرَاقِيَهُمْ وَسَلَكُوا فِيهَا السَّلَاسِلَ وشَدُّوا بِهَا إلى سَوَارِى المَسْجِدِ ، فَلَمَّا نَظَرَ إلى ذَلِكَ أَتَى أُمَّهُ فقالَ : يا أُمَّاه انْسُجِى لى مِدْرَعَةً مِنْ شَعْرٍ وبُرْنُسًا مِنْ صُوفٍ حَتَّى آتِىَ إلى بَيْتِ المَقْدِسِ وأَعْبُدَ اللهَ تَعالى مَعَ الأَحْبارِ والرُّهْبانِ ، فقالَتْ لَهُ أُمُّهُ : حَتَّى يأتِىَ نَبِىُّ اللهِ زَكَرِيَّا عليهِ السَّلامُ فأُؤامِرُهُ فى ذلكَ ، فلَمَّا دَخَلَ زَكَرِيَّا أَخْبَرَتْهُ بِمَا قالَ لهَا يَحْيَى ، فقالَ لهُ زَكَرِيَّا : يا بُنَىَّ ما يَدْعُوكَ إلى هذَا وإنَّمَا أَنْتَ صَبِىٌّ صَغِيرٌ ، فقالَ لهُ : يا أَبَتِ أما رأيْتَ مَنْ هُوَ أصْغَرُ مِنِّى ذَاقَ المَوْتَ قالَ بَلَى ، فقالَ لأُمِّهِ انْسُجِى لَنا مِدْرَعَةً مِنَ الشَّعْرِ وبُرْنُسا مِنَ الصُّوفِ ، ففَعَلَتْ فتَدَرَّعَ بالمِدْرَعَةِ عَلَى بَدَنِهِ وَوَضَعَ البُرْنُسَ عَلى رأسِهِ ، ثُمَّ أَتَى بَيْتَ المَقْدِسِ وأَقْبَلَ يَتَعَبَّدُ اللهَ مَعَ الأَحْبارِ والرُّهْبانِ حَتَّى أَكَلَتْ مِدْرَعَةُ الشَّعْرِ لَحْمَهُ ، فنَظَرَ ذاتَ يَوْمٍ إلى ما قَدْ نَحَلَ مِنْ جِسْمِهِ فَبَكَى ، فأَوْحَى اللهُ تعالى إليْهِ : يا يَحْيَى أتَبْكِى عَلَى ما قَدْ نَحَلَ مِنْ جِسْمِكَ ؟ وعِزَّتِى وَجَلالِى لَوِ اطَّلَعْتَ عَلى النَّارِ اطِّلاعَةً لَتَدَرَّعْتَ مَدَارِعَ الحَدِيدِ فَضْلاً عَنِ المُسُوحِ ، فَبَكَى يَحْيَى حَتَّى أَكَلَ الدَّمْعُ لَحْمَ خَدَّيْهِ وَبَدَتْ لِلنَّاظِرِينَ أَضْرَاسُهُ ، فَبَلَغَ ذلكَ أُمَّهُ فدَخَلَتْ عليهِ وأَقْبَلَ زَكَرِيَّا واجْتَمَعَ الأَحْبارُ والرُّهْبانُ فقالَ زَكَرِيَّا لابْنِهِ يَحْيَى : ما يَدْعُوكَ لِهذَا يا بُنَىَّ إنَّمَا سَأَلْتُ رَبِّى أَنْ يَهَبَكَ لى لِتَقَرَّ بِكَ عَيْنِى ، قالَ أَنْتَ أَمَرْتَنِى بذلكَ يا أَبَتِ ، قالَ وَمَتَى ؟ قالَ أَلَسْتَ القائِلَ : إنَّ بَيْنَ الجَنَّةِ والنَّارِ عَقَبَةً كَئُودًا لايَقْطَعُها إلاَّ البَاكُونَ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تعالى ؟ قالَ : بَلَى ، قالَ فَجِدَّ واجْتَهِدْ وَقامَ فَنَفَضَ مِدْرَعَتَهُ فأَخَذَتْهُ أُمُّهُ فقالَتْ : أَتَأْذَنُ لى يا بُنَىَّ أَنْ أَتَّخِذَ لكَ قِطْعَتَيْنِ مِنْ لِبْدٍ يُوارِيانِ أَضْرَاسَكَ وَيُنَشِّفانِ دُمُوعَكَ ، فَقالَ لَها : شَأْنَكِ . فاتَّخَذَتْ لَهُ قِطْعَتَىْ لِبْدٍ يُوارِيانِ أَضْرَاسَهُ وَيُنَشِّفانِ دُمُوعَهُ فَبَكَى حَتَّى ابْتَلَّتَا مِنْ دُمُوعِ عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ أَخَذَهُما فَعَصَرَهُما ، فَتَحَدَّرَتِ الدُّمُوعُ مِنْ بينِ أصابِعِهِ ، فَنَظَرَ زَكَرِيَّا إلى ابْنِهِ

وإلى دُمُوعِهِ ، فَرَفَعَ رأسَهُ إلى السَّماءِ وَقالَ : اللَّهُمَّ إنَّ هَذَا ابْنِى وَهٰذِهِ دُمُوعُ عَيْنَيْهِ وأنْتَ أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » .

وكان زكريا إذا أراد أن يعظ بنى إسرائيل التفت يمينا وشمالا ، فإذا رأى يحيى لم يذكر جنة ولا نارا ، فجلس يوما يعظ بنى إسرائيل وأقبل يحيى قد لف رأسه بعباءة وجلس فى غُمار القوم ، فالتفت زكريا يمينا وشمالا فلم ير يحيى ، فأنشأيقول : حدثنى حبيبى جبريل عن الله عز وجل أن فى جهنم جبلا يقال له السكران ، فى أصل ذلك الجبل واد يقال له الغضبان ، خلق لغضب الرحمن تبارك وتعالى ، فى ذلك الوادى جبٌ قامته مئة عام ، فى ذلك الجب توابيت من نار ، فى تلك التوابيت صناديق من نار وثياب من نار وأغلال من نار ، فرفع يحيى رأسه وقال : واغفلتاه عن السكران وعن غضب الرحمن ، ثم خرج هائما على وجهه ، فقام زكريا من مجلسه ودخل على أم يحيى فقال لها : يا أم يحيى قومى فاطلبى يحيى فإنى قد تخوفت أن لا نراه إلا وقد ذاق الموت ، فقامت وخرجت فى طلبه ، فمرت بفتيان من بنى إسرائيل فقالوا لها : يا أم يحيى أين تريدين ؟ قالت : أطلب ولدى يحيى ، ذُكِرت النار بين يديه فهام على وجهه ، فمضت أم يحيى والفتية معها حتى مرت براعى غنم . فقالت : ياراعى ، هل رأيت شابا من صفته كذا وكذا ؟ قال : لعلك تطلبين يحيى بن زكريا ؟ قالت نعم ذلك ولدى ذكرت النار بين يديه فهام على وجهه ، فقال : تركته على عقبة كذا ناقعا قدميه فى الماء رافعا بصره إلى السماء يقول : وعزتك يا مولاى لا أذوق بارد الشراب حتى أنظر إلى منزلتى منك ، فأقبلت أمه ، فلما رأته دنت منه ، فأخذت برأسه فوضعته بين يديها وناشدته بالله أن ينطلق معها إلى المنزل ، فانطلق معها إلى المنزل فقالت له : هل لك أن تخلع مِدْرَعتك الشعر وتلبس مدرعتك الصوف فإنه ألين ؟ ففعل ثم إنها طبخت له عدسا فأكل واستوفى فذهب به النوم فلم يقم لصلاته ، فنودى فى منامه : يا يحيى أردت دارا خيرا من دارى وجوارا خيرا من جوارى ، فاستيقظ وقام وقال : رب أقل عثرتى ، وعزتك لاأستظل بظل سوى بيت المقدس، ثم قال لأمه : ناولينى مدرعة الشعر ، فقد علمت أنكما ستوردانى المهالك ، فتقدمت إليه أمه ودفعت إليه المِدْرعة وتعلقت به ، فقال لها زكريا : يا أم يحيى دعيه ، فإن ولدى قد كشف له عن قناع غفلته ولن ينتفع بالعيش ، فقام يحيى فلبس مدرعته ووضع البرنس على رأسه ، ثم أتى بيت المقدس ، فجعل يعبد الله مع الأحبار والرهبان حتى كان من أمره ما كان ، والله أعلم .

باب فى مقتله عليه السلام

اختلف العلماء فى سبب قتله، فقال : كان يحيى عليه السلام فى زمن ملك من ملوك بنى إسرائيل ، وكان له امرأة وهى ابنة ملك صيدا ، وكانت قتالة للأنبياء والصالحين ، وكانت عاهرة تبرز للناس ، وكان يحيى يزجرها عن ذلك، ويقول لها: لاتبرزى كاشفة

وجهك ، وكان كثيرا ما يقول لها : مكتوب فى التوراة : إن الزناة يوقفون يوم القيامة وريحهم أنتن من الجيف ، فأمرت بيحي فسجن ، وكان قد حبس رجل من أبناء الملوك ، وكان كثيرا ما يختلف إليها بالليل ، فعلم بها وبه يحي فزجره ، فبلغ ذلك امرأة الملك ، فجملت بنتا لها واستقبلت بها زوجها ، فقال لها : لم فعلت ذلك ؟ فقالت : وجب لها عليك حق ، فقال : سلى ما شئت ، فقالت : البنت استوهبت منك أهل الحبس أصنع بهم ما شئت ، فظن أبوها أنها ترحمهم وتسرّوحهم ، فقال أبوها : قد فعلت فأمرت أمها بأهل السجن فعرضوا عليها ، فلما مر بها يحي أمرت به فذبح ، وأخذت رأسه فى طَشْت ، ثم حملت الطشْت إلى أبيها بأمر أمها وقالت : أيها الملك إنى قد ذبحت لك ذبيحة من أعظم ما وجدته ، ولو كان مثله ألف لذبحتهم لك ، قال : وما هو ؟ قالت : يحي بن زكريا ، فقال : هلكت وأهلكت أبويك ، فغيّر الله ما بهم من النعم ، وسلط عليهم عدوا ، فذبح البنت وأبويها ، وسلط عليهم الكلاب والسباع حتى أكلتهم .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان عيسى بن مريم ويحي بن زكريا فى اثنى عشر من الحواريين يعلمون الناس . قال : وكان مما نهوهم عنه نكاح بنت الأخ ، وكانت لملكهم بنت أخ تعجبه يريد أن يتزوجها ، وكان لها فى كل يوم حاجة عنده يقضيها لها ، فلما بلغ أمها أنه ينهى عن نكاح بنت الأخ قالت لابنتها : إذا دخلت على الملك فسألك عن حاجتك فقولى : حاجتى أن تذبح يحي بن زكريا ، فلما دخلت عليه سألها عن حاجتها ، فقالت : حاجتى أن تذبح يحي بن زكريا ، فقال : سلى غير هذا ، فقالت : ما أسألك إلا هذا ، فلما أبت عليه دعا يحي بن زكريا ودعا بطشت ، فذبحه فيه ، فنبذت من دمه قطرة ، فلم تزل تغلى حتى بعث الله عز وجل بختنصر عليهم ، فجاءت عجوز من بنى إسرائيل ، فدلته على ذلك الدم ، فألقى الله فى قلبه أن يقتل على ذلك الدم سبعين ألفا منهم على سنّ واحد ليسكن ، فقتلهم فسكن .

وقال السدىّ بإسناده : كان ملك بنى إسرائيل يكرم يحي بن زكريا ويدنى مجلسه ويستشيره فى أمره ولا يقطع أمرا دونه ، وأنه هوِىَ أن يتزوج ابنة امرأة له ، فسأل عن ذلك يحي فنهاه عنه وقال : لست أرضاها لك ، فبلغ ذلك أمها فحقدت على يحي حين نهاه أن يتزوج ابنتها ، فعمدت إلى ابنتها حين جلس الملك على شرابه فألبستها ثيابا رقاقا حمرا وطيبتها وألبستها من الحلى وألبستها فوق ذلك كساء أسود وأرسلتها إلى الملك ، وأمرتها أن تسقيه وأن تتعرض له ، فإذا راودها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ما تسأله ، فإذا أعطاها ذلك سألته أن يأتيها برأس يحي بن زكريا فى طشت ، ففعلت ذلك وجعلت تسقيه وتتعرض له ، فلما أخذ منه الشراب راودها عن نفسها ، فقالت : لا أفعل حتى تعطينى ما أسألك ، قال : وما تسألينى ؟ قالت : أن تبعث إلىّ برأس يحي بن زكريا فى هذا الطشت ، قال : ويحك سلينى غير هذا ، قالت : ما أسألك إلا هذا ، فلما أبت عليه بعث إليه فأتى برأسه

والرأس يتكلم حتى وضع بين يديه وهو يقول : لا تحل لك . فلما أصبح إذا دمه يغلى فأمر بتراب فألقى عليه ، فارتفع الدم فوقه ، فلم يزل يغلى ويلقى عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو مع ذلك يغلى ، وذكر الحديث الطويل الذى فى قصة سنحاريب وبختنصر كما قدمنا ذكره فى أخبار بختنصر .

وقالت علماء النصارى : الذى قتل يحيى ملك من ملوك بنى إسرائيل يقال له هيرودس بسبب امرأة يقال لها هردويا كانت امرأة أخ له يقال له فيلقوس عشقها فوافقته على الفجور ، فنهاه يحيى وأعلمه أنها لاتحل له ، فسألت المرأة هيرودس أن يأتيها برأس يحيى ، فلما فعل ذلك سقط فى يديه وجزع جزعا شديدا .

قال كعب الأحبار : كان يحيى من أجمل الناس وجها وأحسنهم فى زمانه ، فأحبته امرأة الملك الذى كان فى زمانه حبا شديدا ، فأرسلت إليه تراوده عن نفسه ، فأرسل إليها أنه لاعلم له بالنساء والملك أحق أن يطأ فراشه ؛ فلما انتهى إليها الرسول غضبت غضبا شديدا وقالت : كيف لى أن أقتله ولا يخبر الناس أنى قد راودته ، فلم تزل بالملك حتى وهب لها يحيى بن زكريا ، فأرسلت إليه وهو قائم يصلى فى بيت المقدس فى محراب داود من يضرب عنقه ويأخذ رأسه ؛ فلما أخذوا رأس يحيى خسف الله بها وبأهلها الأرض عقوبة لها بقتلها يحيى عليه السلام .

ذكر مقتل زكريا عليه السلام

قال كعب الأحبار : فلما سمع زكريا أن ابنه يحيى قتل وخُسِف بالقوم انطلق هاربا فى الأرض حتى دخل بستانا عند بيت المقدس فيه الأشجار ، فنادته شجرة يا نبى الله إلى ههنا ، فلما أتاها انفتقت له الشجرة ودخل زكريا فى وسطها ، فانطلق إبليس لعنه الله حتى أخذ بطرف ردائه فأخرجه من الشجرة ليصدقوه إذا أخبرهم ، فلذلك تصنع اليهود الخيوط فى أطراف أرديتهم لايدرون لما أمروا بذلك ، وأخذ الملك وأهله يلتمسون زكريا فاستقبلهم إبليس لعنه الله تعالى فقال لهم : ما تلتمسون ؟ قالوا : نلتمس زكريا ، فقال إبليس : إنه دخل فى هذه الشجرة ، قالوا : لانصدقك ، قال : فإنى إن أريتكم علامة تصدقونى بها ؟ قالو : فأرنا إياها ، فأراهم طرف ردائه ، فأخذوا المناشير وضربوا الشجرة فنشروها نصفين فسلط عليهم أخبث أهل الأرض علِـجا مجوسيا فانتقم الله به من بنى إسرائيل بدم يحيى وزكريا فقتل عظماء بنى إسرائيل ، وسبى منهم مئة وسبعين ألفا .

وقيل إن السبب فى قتل زكريا أن إبليس جاء إلى مجالس بنى إسرائيل فقذف بمريم زكريا وقال : ما أحبلها أحد غير زكريا ، وهو الذى كان يدخل عليها ، فطلبوا زكريا فهرب واتبعه سفهاؤهم وأشرارهم ، فسلك واديا كبير الأشجار ، فتشبه له الشيطان فى صورة راع فقال : يا زكريا قد أدركوك فادع الله أن يفتح لك هذه الشجرة ، ففعل ذلك فانفتحت له ،

فدخل فيها ، وأخرج إبليس هدب ردائه منها ، فرت بنو إسرائيل بالشيطان فقالوا : يا راعى هل رأيت رجلا ههنا من صفته كذا وكذا ؟ قال : نعم سحر هذه الشجرة فانفتحت له فدخل فيها ، وهذا هدب ردائه ، فقطعوا الشجرة مع زكريا وفلقوها فلقتين بالمنشار طولا ، فبعث الله الملائكة ، فغسلوا زكريا وصلوا عليه ودفنوه . وفى الخبر «إن الشمس بكت على يحيى أربعين صباحا ، وكان بكاؤها أن طلعت وغربت حمراء». ويروى «إن يحيى سيد الشهداء يوم القيامة وقائدهم إلى الجنة » والله أعلم .

مجلس : فى مولد عيسى عليه السلام

وفى حمل مريم بعيسى عليهما السلام ، وما يتصل به

قال الله تعالى (وَاذْكُرْ فى الكتابِ مَرْيَمَ إذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مكاناً شَرْقِياً) قالت العلماء بأخبار الأنبياء : لما مضى من حمل عيسى عليه السلام ثلاثة أيام ومريم يومئذ بنت خمس عشرة سنة ، وقيل بنت ثلاث عشرة سنة ، وكان مع مريم فى المسجد من المحررين ابن عم لها، يقال له يوسف النجار ، وكان رجلا حليما نجارا يتصدق بعمل يديه ، وكان يوسف ومريم يليان خدمة الكنيسة ، وكانت مريم إذا نفد ماؤها وماء يوسف أخذ كل واحد منهما قلته ، وانطلق إلى المغارة التى فيها الماء فيستقيان منه ثم يرجعان إلى الكنيسة فلما كان اليوم الذى لقيها فيه جبريل عليه السلام وكان أطول يوم فى السنة وأشده حرًا نفد ماؤها ، فقالت : ألا تذهب بنا يا يوسف فنستقى ؟ فقال : إن عندى لفضلا من ماء أكتفى به يومى هذا إلى غد ، قالت : ولكنى والله ما عندى ماء ، فأخذت قلتها ثم انطلقت وحدها حتى دخلت المغارة ، فوجدت عندها جبريل عليه السلام قد مثله الله لها بشرا سويا ، فقال لها : يا مريم إن الله قد بعثنى إليك (لِأَهَبَ لكِ غُلاماً زَكِياً) ، قالت : إِنى أَعُوذُ بالرَّحمن مِنْكَ إنْ كُنْتَ تَقِياً) أى مؤمنا مطيعا . قال علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه : علمت أن التقىّ ذو رحمة وخشية، وهى تحسبه رجلا من بنى آدم . قال عكرمة : وكان جبريل عرض لها فى صورة رجل شاب أمرد مضىء الوجه جعد الشعر سوىّ الخلق . قالت الحكماء : إنما أرسله الله تعالى فى صورة البشر لتثبت مريم عليها وتقدر على استماع كلامه ، ولو نزل على صورته التى هو عليها لفزعت ونفرت منه ولم تقدر على استماع كلامه. فلما استعاذت منه مريم (قالَ إنَّما أنا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لكِ غُلاماً زَكِياً قالَتْ أَنَّى يَكونُ لى غُلامٌ ولَمْ يَمْسَسْنى بَشَرٌ ولَمْ أَكُ بَغِياً . قالَ كذلكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ) . . . الآية، فلما قال لها ذلك استسلمت لقضاء الله، فنفخ فى جيب درعها ، وكانت قد وضعته عنها ، فلما انصرف عنها لبست مريم درعها، وحملت بعيسى عليه السلام ، ثم ملأت قلتها وانصرفت إلى المسجد .

وقال السدىّ وعكرمة : إن مريم عليها السلام كانت تكون فى المسجد ما دامت طاهرة فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها حتى إذا طهرت عادت إلى المسجد ، فبينما هى تغتسل من الحيض ، وقد اتخذت مكانا شرقيا : أى مشرقا ، لأنه كان فى الشتاء فى أقصر يوم فى السنة .

قال الحسن : إنما اتخذت النصارى المشرق قبلة ، لأن مريم انتبذت مكانا شرقيا (فاتَّخَذَتْ) فضربت (مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً) أى سترا . وقال مقاتل : جعلت الجبل بينها وبين قومها ، فبينما هى كذلك فى تلك الحالة إذ عرض لها جبريل وبشرها بعيسى ونفخ فى جيب درعها . قال وهب : فلما اشتملت على عيسى كان معها ذوقرابة لها يقال له يوسف النجار ، وكانا منطلقين إلى المسجد الذى عند جبل صِهْيون ، وكان ذلك المسجد يومئذ من أعظم مساجدهم ، وكانت مريم ويوسف النجار يخدمان ذلك المسجد ، وكان لخدمته فضل عظيم ، وكانا يليان معالجته بأنفسهما وتجميره وتطهيره ، وكان لايعلم فى زمانهما أشد اجتهادا وعبادة منهما ، وكان أول من أنكر حملها ابن عمها وصاحبها يوسف النجار ؛ فلما رأى الذى بها استعظمه واستفظعه ولم يدر ماذا يصنع من أمرها ؟ وكلما أراد أن يتهمها ذكر صلاحها وعبادتها وبراءتها ، وأنها لم تغب عنه ساعة واحدة ، وإذا أراد أن يبرئها رأى الذى ظهر بها من الحمل ، فلما اشتد ذلك عليه كلمها ، فكان أول كلامه إياها أن قال لها : إنه قد وقع فى نفسى من أمرك شىء وقد حرصت على أن أكتمه فغلبنى ذلك ورأيت أن الكلام فيه أشفى لصدرى ، فقالت له : قل قولا جميلا ، قال لها : أخبرينى يامريم هل نبت زرع بغير بذر؟ قالت : نعم ، قال : فهل نبتت شجرة بغير غيث ؟ قالت : نعم ، قال : فهل يكون ولد من غير ذكر ؟ قالت : ألم تعلم أن الله عز وجل أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر ، والبذر إنما يكون من الزرع الذى أنبته من غير بذر ، ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجر من غير غيث ، وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر بعد ما خلق الله كل واحد منهما على حدة ، أو تقول إن الله لايقدر أن ينبت الشجر حتى استعان بالماء ، ولولا ذلك لم يقدر على إنباته ؟ قال يوسف لها : لاأقول هذا ، ولكنى أقول : إن الله تعالى يقدر على ما يشاء يقول للشىء كن فيكون ، فقالت له مريم : ألم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى ؟ قال بلى . فلما قالت له ذلك وقع فى نفسه أن الذى بها شىء من أمر الله تعالى ، وأنه لا يسعه أن يسألها عنه ، وذلك لما رأى من كتمانها لذلك ، ثم تولى يوسف خدمة المسجد وكفاها كل عمل كانت تعمل فيه لما رأى من رقة جسمها واصفرار لونها وكلف وجهها ونتوء بطنها وضعف قوتها ، وكان جبل صِهْيون على باب بيت المقدس .

وسمعت من الثقات أن قبر داود عليه السلام فيه ، وثم كنيسة مشرفة على عين السلوان ، وسألت بعض الرهبان فقال : هذا صهيون والكنيسة التى خدمت فيها مريم ويوسف هذه ،

وقد أفصح فيها عيسى ودعا الخلق إلى الله تعالى ، ثم نقل من هذه إلى القُمامة ، وهى كنيسة عظيمة داخل بيت المقدس يدّعون أن عيسى عليه السلام لما قُتل دفن فيها ، وبعد ثلاثة أيام عُرج به إلى السماء فلا ينقطع أبد الدهر منها وأنه ينزل فيها ، والله أعلم .

باب فى ذكر ميلاده عليه السلام

قالوا : فلما أثقلت مريم ودنا نِفاسها أوحى الله تعالى إليها أن مسجد بيت المقدس بيت من بيوت الله تعالى الذى طهر ورفع ليذكر فيه اسمه ، فابرزى إلى موضع تأوين فيه ، فتحولت مريم إلى بيت خالتها أخت أمها أم يحيى ، فلما دخلت عليها قامت أم يحيى واستقبلتها فالتزمتها ، فقالت امرأة زكريا : يا مريم أشعرت أنى حبلى ؟ قالت مريم : وأنت أيضا شعرت أنى حبلى ؟ قالت امرأة زكريا : فإنى أجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك ، فذلك قوله تعالى (مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ) فلما وافت بيت خالتها أوحى الله إليها أنك إن ولدت بين أظهر قومك عيروك وقذفوك وقتلوك وولدك ، فاظعُنى من عندهم : أى فاخرجى . وقال الكلبىّ : قيل لابن عمها يوسف : إن مريم حملت من الزنا ، الآن يقتلها الملك وكانت قد سميت له ، فهرب بها يوسف فاحتملها على حمار له ليس بينها وبين الإكاف شىء ، فانطلق بها يوسف حتى إذا كان قريبا من أرض مصر فى منقطع بلاد قومها ، أدرك مريم النفاس ، فألجأها إلى أصل نخلة يابسة ، وذلك فى زمن الشتاء .

قال الكلبىّ : لما كان يوسف ببعض الطريق أراد قتلها ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال له : إنه من روح القدس فلا تقتلها . واختلف العلماء فى مدة حمل مريم عليها السلام ووقت وضعها عيسى عليه السلام ، فقال بعضهم : كان مقدار حملها تسعة أشهر كحمل سائر النساء ، وقيل ثمانية أشهر ، وكان ذلك آية أخرى ، لأنه لم يعش مولود لثمانية أشهر غير عيسى ، وقيل ستة أشهر ، وقيل ثلاث ساعات ، وقيل ساعة واحدة . وقال ابن عباس : ما هو إلا أن حملت ووضعت ، ولم يكن بين الحمل والوضع والانتباذ إلا ساعة واحدة ، لأن الله تعالى لم يذكر بينهما فصلا ، قال الله عز وجل (فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً) أى بعيدا من قومها . وقال مقاتل : حملته أمه فى ساعة ، وصُوِّر فى ساعة ، ووضع فى ساعة حين زالت الشمس من يومها ، وهى بنت عشرين سنة ، وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى .

قالوا : فلما اشتد بها المخاض التجأت إلى النخلة ، وكانت نخلة يابسة ليس لها سعف ولا كُرانيف ولا عروق ، فاحتوشتها الملائكة ، وكانوا صفوفا محدقين بها : أى محيطين بها ، وكانت تلك النخلة فى موضع يقال له بيت لحم ، فقالت حين اشتد الأمر (يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً) أى جيفة ملقاة ، فنوديت (أَنْ لَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً

جَنِيًّا) فذلك قوله تعالى (فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَنْ لَا تَحْزَنِي) من قرأ بكسر الميم والتاء فهو جبريل عليه السلام ناداها من سفح الجبل ، ومن قرأ بفتح الميم والتاء فهو عيسى عليه السلام لما خرج من بطن أمه ، ناداها وكلمها بإذن الله تعالى . قالوا : فلما ولدت عيسى أجرى الله لها نهرا من ماء عذب بارد إذا شربت منه ، وفاتر إذا استعملته ، فذلك قوله تعالى (قد جعل ربك تحتك سَرِيًّا) وهو النهر الصغير . قال ابن عباس : ضرب عيسى ، وقيل جبريل عليه السلام برجله الأرض ، فظهر الماء ، وحييت تلك النخلة بعد يبسها ، فتدلت غصونها وأورقت وأثمرت وأرطبت ، وقيل لها (هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ) أى حركيه (تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا) غضا طريا . قال الربيع بن خيثم : ما للنفساء عندى خير من الرطب ، ولا للمريض خير من العسل . وقال عمرو بن ميمون : ما أدرى للمرأة إذا عسرت عليها ولادتها خيرا من الرطب ، وقرأ هذه الآية . قالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمضغ التمر ويحنك به أولاد الصحابة حين يولدون. وقال بعض البلغاء فى وصف التمر : علة الصغير ونهلة الكبير : ثم إن يوسف النجار عمد إلى حطب فجعله كالحظيرة حواليها بالقرب منها إذ قد أضرّ بها البرد ، ثم أشعل لها نارا لتصطلى بها ثم كسر لها سبع جوزات كانت فى خرجه فأطعمها إياها ، فن أجل ذلك توقد النصارى النار ليلة الميلاد وتلعب بالجوز .

قال وهب : فلما ولد عليه السلام أصبحت الأصنام كلها بكل أرض منكوسة على رءوسها ، ففزعت الشياطين ولم يدروا لم ذلك ، فساروا مسرعين حتى جاءوا إلى إبليس لعنه الله وغضب عليه ، وهو على عرش له فى لجة خضراء يتمثل بالعرش يوم كان على الماء ، فأتوه وقد خلت ست ساعات من النهار ، فلما رأى إبليس اجتماعهم فزع من ذلك ولم يرهم جميعا منذ فرقهم قبل تلك الساعة ، وإنما كان يراهم أشتاتا ، فسألهم فأخبروه أنه حدث فى الأرض حدث ، فأصبحت الأصنام كلها منكوسة على رءوسها ، ولم يكن شىء أعون على هلاك بنى آدم منها ، لأنهم كانوا يدخلون فى أجوافها فتكلمهم وتدبر أمرهم ، فيظنون أنها هى التى تكلمهم ، فلما أصابها هذا الحدث صغرها فى أعين الناس وأذلها ، وقد خشينا أن لا يعبدوها بعد هذا . واعلم أنا لم نكن نأتيك حتى أحصينا الأرض وقلبنا البحار وكل شىء ، فلم نزد بما أردنا إلا جهلا ، فقال لهم إبليس : فما يكون إلا أمر عظيم فكونوا مكانكم ، فطار إبليس عند ذلك ولبث عنهم ثلاث ساعات ، فر فيهن بالمكان الذى ولد فيه عيسى ، فلما رأى الملائكة محدقين بذلك المكان علم أن ذلك الحدث فيه ، فأراد إبليس لعنه الله أن يأتيه من فوقه . قال : فإذا رءوس الملائكة ومناكبهم إلى السماء ، ثم أراد أن يأتيه من تحت الأرض فإذا أقدام الملائكة راسية ، فأراد أن يدخل من بينهم فمنعوه عن ذلك يدل عليه حديث النبى صلى الله عليه وسلم « كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَطْعُنُ الشَّيْطَانُ فِى جَنْبَيْهِ

بأُصْبُعِهِ حِينَ يُولَدُ ، إلاَّ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، حَجَبَهُ اللهُ تعالى عَنْهُ ، فَذَهَبَ يَطْعَنُ فَطَعَنَ فِى الحِجَابِ . قال وهب : فذهب إبليس لعنه الله إلى أصحابه فقال لهم : ما جئتكم حتى أحصيت الأرض كلها مشرقها ومغربها وبرها وبحرها والخافقين والجو الأعلى ، وكل هذا بلغته فى ثلاث ساعات ، ثم أخبرهم بمولد عيسى وقال : ما اشتملت قبله رحم أنثى على ولد إلا بعلمى ، ولا وضعته إلا وأنا حاضرها ، وإنى لأرجو أن يضل به أكثر ممن يهتدى به ، وما كان نبيّ أشد علىّ وعليكم من هذا المولود ، ثم إنه خرج قوم فى تلك الليلة يؤمونه من أجل نجم طلع ، كانوا من قبل يتحدثون أن مطلع ذلك النجم من علامات مولود فى كتاب دانيال ، فخرجوا يريدونه ومعهم الذهب والمر واللبان فمرّوا بملك من ملوك الشام فسألهم أين تريدون؟فأخبروه بذلك . قال فما بال المرّ والذهب واللبان أهديتموه بهذه الأشياء ؟ قالوا : تلك أمثاله ، لأن الذهب سيد المتاع كله ، وكذلك هذا النبى صلى الله عليه وسلم سيد أهل زمانه ، ولأن المرّ يجبر به الكسر والجرح ، وكذلك هذا النبىّ صلى الله عليه وسلم يشفى الله به كل سقيم ومريض ، ولأن اللبان دخانه يدخل السماء ولا يدخلها دخان غيره ، وكذلك هذا النبىّ صلى الله عليه وسلم يرفعه الله إلى السماء ولا يرفع فى زمانه أحد غيره ؛ فلما قالوا ذلك لذلك الملك حدّث نفسه بقتله فقال لهم : اذهبوا فإذا علمتم بمكانه فأعلمونى بذلك ، فإنى راغب فى مثل ما رغبتم فيه من أمره ، فانطلقوا حتى قدموا على مريم ، ودفعوا ما كان معهم من الهدية إليها عليها السلام ، وأرادوا أن يرجعوا إلى ذلك الملك ليعلموه بمكانه فلقيهم ملك وقال لهم : لاترجعوا إليه ولا تعلموه بمكانه ، فانه إنما أراد قتله ، فانصرفوا فى طريق آخر . وقال مجاهد : قالت مريم عليها السلام : كنت إذا خلوت مع عيسى عليه السلام حدثنى وحدثته ، فإذا شغلنى عنه إنسان سبح فى بطنى وأنا أسمع ، والله أعلم .

باب فى رجوع مريم بابنها عيسى بعد ولادتها إياه إلى جماعة قومها من بيت لحم

قال : ثم إن جماعة من قومها لما هيأ الله تعالى لأمته مريم عليها السلام أمرها ويسر الله لها أسباب ولادتها ، قال : كلى يا مريم من الرطب واشربى من الماء العذب وقرّى عينا وطيبى نفسا (فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أَحَدًا) فسألك عن ولدك أو لامك عليه (فَقُولِى إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا) أى صمتا ، وكذلك هو فى قراءة ابن مسعود وأنس ، وذلك أنهم كانوا إذا صاموا أمسكوا عن الطعام والشراب والكلام (فَلَنْ أُكَلِّمَ اليَوْمَ إِنْسِيًّا فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ) . قال الكلبى : احتمل يوسف النجار مريم وعيسى إلى غار فأدخلهما فيه أربعين يوما حتى تعالت من نفاسها ، ثم جاء بها ، فأتت مريم تحمله بعد أربعين يوما ، فكلمها عيسى فى الطريق فقال : يا أماه أبشرى فإنى عبد الله ومسيحه ، فلما دخلت على أهلها ومعها الصبى بكوا وحزنوا ، وكانوا أهل بيت صالحين فقالوا (يَا مَرْيَمُ لَقَدْ

جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا) : فظيعا عظيما (يَا أُخْتَ هَارُونَ) قال قتادة : كان هارون رجلا صالحا من أتقياء بنى إسرائيل وليس بهارون أخى موسى ، وذكروا أنه تبع جنازته يوم مات أربعون ألفا من بنى إسرائيل ، كلهم يسمى هارون . وقال وهب : كان هارون من أفسق بنى إسرائيل وأظهرهم فسادا فشبهوها به (مَا كَانَ أَبُوكِ) عمران (امْرَأَ سَوْءٍ ، وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا) أى زانية ، فمن أين لك هذا الولد ؟ فأشارت لهم مريم إلى عيسى أن كلموه ، فغضبوا وقالوا (كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِى الْمَهْدِ صَبِيًّا ؟) قال وهب : فأتاها زكريا عليه السلام عند مناظرتها اليهود ، وقال لعيسى : انطق بحجتك إن كنت أمرت بها ، فقال عند ذلك عيسى عليه السلام ، وهو ابن أربعين يوما (إِنِّى عَبْدُ اللهِ آتَانِىَ الْكِتَابَ) . الآية ، فأقرّ على نفسه بالعبودية أول ما تكلم تكذيبا للنصارى وإلزاما للحجة عليهم . قال عمرو بن ميمون : إن مريم لما أتت قومها بعيسى أخذوا الحجارة وأرادوا أن يرجموها ، فلما تكلم عيسى تركوها ، قالوا : ثم لم يتكلم بشىء بعدها حتى كان بمنزلة غيره من الصبيان ، والله أعلم .

باب فى ذكر خروج مريم وعيسى عليهما السلام إلى مصر

قال الله تعالى (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) . قالوا : كان مولد عيسى بعد مضىّ اثنتين وأربعين سنة من ملك أغسطوس وإحدى وخمسين سنة مضت من ملك الأشكانيين ملوك الطوائف ، وكانت المملكة فى ذلك الوقت لملوك الطوائف ، وكانت الرياسة فى الشام ونواحيها لقيصر ملك الروم ، وكان الملك عليها من قبل قيصر هردوس ؛ فلما عرف هردوس ملك بنى إسرائيل خبر المسيح قصد قتله ، وذلك أنهم نظروا إلى نجم قد طلع ، فعرفوا ذلك بحساب عندهم فى كتاب لهم ، فبعث الله ملكا إلى يوسف النجار وأخبره بما أراد هردوس وأمره أن يهرب بالغلام وأمه إلى مصر ، وأوحى الله إلى مريم أن الحَقِى بمصر ، فإن هردوس إن ظفر بابنك قتله ، فإذا مات هردوس فارجعى إلى بلادك ، فاحتمل يوسف مريم وابنها على حمار له حتى ورد أرض مصر ، وهى الربوة التى قال الله تعالى (وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) .

ذكر أبو إسحاق الثعلبى فى التفسير (ذات قرار ومعين) قال عبد الله بن سلام : هى دمشق . وقال أبو هريرة : هى الرملة . وقال قتادة وكعب : هى بيت المقدس . وقال كعب هى أقرب الأرض إلى السماء . وقال أبو زيد : هى مصر . وقال الضحاك : هى غوطة دمشق . وقال أبو العالية : هى إيلياء . وقال القزاز : الأرض المستوية ، والمعين : الماء الطاهر . فأقامت مريم بمصر اثنتى عشرة سنة تغزل الكتان وتلتقط السنبل فى أثر الحصادين ، وكانت تلتقط السنبل والمهد فى منكبها والوعاء الذى فيه السنبل فى منكبها الآخر ، حتى تم لعيسى اثنتا عشرة سنة .

ورُوى عن محمد بن علىّ الباقر رضى الله عنه أنه قال : لما ولد عيسى كان ابن يوم كأنه ابن شهر . فلما كان ابن تسعة أشهر أخذت والدته بيده وجاءت به إلى الكتاب وأقعدته بين يدى المؤدب ، فقال له المؤدب : قل بسم الله الرحمن الرحيم ، فقالها عيسى ، فقال المؤدب : قل أبجد ، فرفع عيسى عليه السلام رأسه ، فقال له : هل تدرى ما أبجد ؟ فعلاه بالقضيب ليضربه ، فقال : يا مؤدب لاتضربنى إن كنت تدرى ، وإلا فاسألنى حتى أفسر لك ، فقال له المؤدب : فسره لى ، فقال عيسى : الألف : لاإله إلا الله ، والباء : بهجة الله ، والجيم : جلال الله ، والدال : دين الله ؛ هوَّز ، الهاء : هى جهنم وهى الهاوية ، والواو : ويل لأهل النار ، والزاى : زفير أهل جهنم . حطى : حطت الخطايا عن المستغفرين . كلمن : كلام الله غير مخلوق ولا مبدل لكلماته . سعفص : صاع بصاع والجزاء بالجزاء . قرشت : تقرشهم حين تحشرهم : أى تجمعهم . فقال المؤدب لأمه : أيتها المرأة خذى ابنك فقد علم ولا حاجة له إلى المؤدب .

أخبرنا الحسين بن محمد بن الحسين المفسر بإسناده عن أبى سعيد الخدرىّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنَّ عيسَى أرْسَلَتْهُ أُمُّهُ لِيَتَعَلَّمَ ، فقالَ لهُ المُعَلِّمُ قُلْ : باسْمِ اللهِ ، فقَالَ عِيسَى : وَما باسْمِ اللهِ ؟ قالَ المُعَلِّمُ : ما أدْرِى ، قالَ عِيسَى : البَاءُ : بَهاءُ اللهِ ، والسِّينُ : سَناءُ اللهِ ، والمِيمُ مَمْلَكَتُهُ جَلَّ وَعَلا » . والله أعلم .

باب فى صفة عيسى وحليته عليه السلام

قال كعب الأحبار : كان عيسى بن مريم رجلا أحمر مائلا إلى البياض ما هو ، سبط الرأس ولم يدهن رأسه قط ، وكان عيسى يمشى حافيا ، ولم يتخذ بيتا ولا حلية ولا متاعا ولا ثيابا ولا رزقا إلا قوت يومه ، وكان حيثما غابت الشمس صف قدميه وصلى حتى يصبح ، وكان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ، وكان يخبر قومه بما يأكلون فى بيوتهم وما يدخرون لغد ، وكان يمشى على وجه الماء فى البحر ، وكان أشعث الرأس صغير الوجه زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة حريصا على عبادة الله ، وكان سيَّاحا فى الأرض حتى طلبته اليهود وأرادوا قتله ، فرفعه الله إلى السماء ، والله أعلم .

باب فى ذكر الآيات والمعجزات
التى ظهرت لعيسى عليه السلام فى صباه إلى أن نبئ

قال وهب : كان أول آية رآها الناس من عيسى أن أمه كانت نازلة فى دار دهقان من أرض مصر ، أنزلها بها يوسف النجار حين ذهب بها إلى مصر ، وكانت دار ذلك الدهقان تأوى إليها المساكين ، فسُرق للدهقان مال من خزانته ، فلم يتهم المساكين ، فحزنت مريم لمصيبة ذلك الدهقان ؛ فلما رأى عيسى حزن أمه لمصيبة صاحب ضيافتها قال لها :

يا أماه أتحبين ان أدله على ماله؟ قالت نعم يا بنىّ، قال لها: قولى له يجمع المساكين فى داره، فقالت مريم للدهقان ذلك، فجمع له المساكين، فلما اجتمعوا عمد إلى رجلين منهم: أحدهما أعمى والآخر مقعد، فحمل المقعد على عاتق الأعمى وقال له قم به، فقال الأعمى: أنا أضعف عن ذلك، فقال له عيسى: كيف قويت على ذلك البارحة؟ فلما سمعوه يقول ذلك ضربوا الأعمى حتى قام، فلما استقل قائما هوى المقعد إلى كوة الخزانة، فقال عيسى للدهقان: هكذا احتالا على مالك البارحة، لأن الأعمى استعان بقوته والمقعد بعينيه، فقال الأعمى والمقعد: صدق والله، فردّا على الدهقان ماله كله، فأخذه الدهقان ووضعه فى خزانته وقال: يا مريم خذى نصفه، فقالت: إنى لم أخلق لذلك، قال الدهقان: فأعطيه لابنك، قالت: هو أعظم منى شأنا؛ ثم لم يلبث الدهقان أن أعرس لابن له، فصنع له عيدا، فجمع عليه أهل مصر كلهم، فكان يطعمهم شهرين، فلما انقضى ذلك زاره قوم من أهل الشام ولم يعلم الدهقان بهم حتى نزلوا به وليس عنده يومئذ شراب؛ فلما رأى عيسى اهتمامه بذلك دخل بيتا من بيوت الدهقان فيه صفان من جرار، فأمرّ عيسى يده على أفواهها وهو يمشى، فكلما أمر يده على جرة امتلأت شرابا، حتى أتى عيسى على آخرها، وهو يومئذ ابن اثنتى عشرة سنة.

آية أخرى: قال السدىّ: كان عيسى عليه السلام إذا كان فى الكتاب يحدث الصبيان بما يصنع آباؤهم، ويقول للغلام: انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا، ورفعوا لك كذا وكذا، وهم يأكلون كذا وكذا، فينطلق الصبىّ إلى أهله فيبكى عليهم حتى يعطوه ذلك الشىء، فيقولون له: من أخبرك بهذا؟ فيقول: عيسى، فحبسوا عنه صبيانهم وقالوا: لاتلعبوا مع هذا الساحر، فجمعوهم فى بيت، فجاء عيسى يطلبهم؟ فقالوا له: ليسوا ههنا، فقال لهم: فما فى هذا البيت؟ قالوا خنازير، قال: كذلك يكونون، ففتح عنهم فإذا هم خنازير، ففشا ذلك فى الناس، فهمت به بنو إسرائيل، فلما خافت عليه أمه حملته على حمار لها، وخرجت هاربة إلى مصر.

آية أخرى: قال السدىّ: لما خرج عيسى وأمه عليهما السلام يسيحان فى الأرض إذ تركا بنى إسرائيل ونزلا فى قرية على رجل فأضافهما وأحسن إليهما، وكان ملك ذلك الوقت جبارا عنيدا، فجاء ذلك الرجل يوما مهمّا حزينا، فدخل منزله ومريم عند امرأته، فقالت لها مريم: ما شأن زوجك أراه حزينا؟ فقالت لها: لاتسأليني، فقالت أخبرينى لعل الله يفرج كربته على يدى، فقالت: إن لنا ملكا يجعل على كل رجل منا نوبة يطعمه ويسقيه الخمر هو وجنوده، فإن لم يفعل عاقبه، واليوم يومنا وليس عندنا سعة؟ قالت: فقولى له لايهتم بشىء فإنه قد أحسن إلينا، وإنى آمر ابنى أن يدعو له فيكفى ذلك، ثم قالت مريم لعيسى، فقال: إن فعلت ذلك يقع شر، قالت: فلا نبالى لأنه أحسن إلينا وأكرمنا، قال عيسى: فقولى له إذا اقترب ذلك: فاملأ قدورك وخوابيك ماء ثم أعلمنى؛ ففعل ذلك

فدعا عيسى ، فتحول ماء القدر لحما ومرقا وماء الخوابى خمرا لم ير الناس مثله قط ، فلما جاء الملك أكل ، فلما شرب سأل من أين هذا الخمر ؟ قال له من أرض كذا وكذا ، قال الملك : فإن خمرى قد أتى بها من تلك الأرض وليست مثل هذه ، فقال له من أرض أخرى ، فلما خلط على الملك وشبه عليه قال : أخبرنى عن الحق ، قال : فأنا أخبرك ، عندى غلام ما سأل الله شيئا إلا أعطاه إياه ، وإنه دعا الله تعالى فجعل الماء خمرا ، وكان للملك ابن يريد أن يستخلفه فمات قبل ذلك بأيام ، وكان أحب الخلق إليه ، فقال الملك : إن رجلا دعا الله حتى جعل الماء خمرا ، ليستجاب له حتى يحيىَ ابنى ، فدعا عيسى وكلمه فى ذلك ، فقال له عيسى : لاتفعل لأنه إن عاش وقع شر ، فقال الملك : لاأبالى بعد أن أراه ، قال عيسى : إن أحييته تتركونى أنا وأمى نذهب حيث نشاء ؟ قال نعم ، فدعا الله تعالى فعاش الغلام ، فلما رآه أهل مملكته قد عاش تبادروا بالسلاح ، وقالوا : أكلنا هذا حتى إذا دنا موته يريد أن يستخلف ابنه علينا ، فيأكلنا كما أكلنا أبوه ، فاقتتلوا وذهب عيسى وأمه .

آية أخرى : قال وهب : بينما عيسى يلعب مع الصبيان إذ وثب غلام على صبى فوكزه برجله فقتله ، فألقاه بين يدى عيسى وهو ملطخ بالدم ، فاطلع الناس عليه ، فاتهموه به ، فأخذوه وانطلقوا به إلى قاضى مصر ، فقالوا له : هذا قتل هذا ، فسأله القاضى ، فقال عيسى : لاأدرى من قتله ، وما أنا بصاحبه ؟ فأرادوا أن يبطشوا بعيسى عليه السلام ، فقال لهم : ائتونى بالغلام ، فقالوا له : ما تريد منه ؟ قال : أريد أن أسأله من قتله ؟ قالوا : وكيف يكلمك وهو ميت ؟ فأخذوه وأتوا به إلى مقتل الغلام ، فأقبل عيسى على الدعاء فأحياه الله تعالى ، فقال له عيسى : من قتلك ؟ قال : قتلنى فلان ، على الذى قتله ، فقال بنو إسرائيل مَنْ هذا ؟ قال : هذا عيسى بن مريم ، قالوا : فن هذا الذى معه ؟ قال : قاضى بنى إسرائيل ، ثم مات الغلام من ساعته ، فرجع عيسى إلى أمه وتبعه خلق كثير من الناس فقالت له أمه يا بنى ألم أنهك عن هذا ؟ فقال : إن الله حافظنا وهو أرحم الراحمين .

آية أخرى : قال عطاء : سلمت مريم عيسى بعد ما أخرجته من الكتاب إلى أعمال شتى ، فكان آخر ما دفعته إلى الصباغين ، فدفعته إلى رئيسهم ليتعلم منه ، فاجتمع عنده ثياب مختلفات ، فعرض للرجل سفر ، فقال لعيسى إنك قد تعلمت هذه الحرفة وأنا خارج فى سفَر لاأرجع إلى عشرة أيام ، وهذه ثياب مختلفات الألوان ، وقد علمت كل واحد منها على اللون الذى يصنع به ، فأحب أن تكون فارغا منها وقت قدومى ، ثم خرج فطبخ عيسى عليه السلام جُبًّا واحدا على لون واحد ، وأدخل فيه جميع الثياب ، وقال لها : كونى بإذن الله تعالى على ما أريد منك ، فقدم الصباغ والثياب كلها فى جب واحد ، فقال : يا عيسى ما فعلت ؟ قال : فرغت منها ، قال : أين هى ؟ قال فى الجب ، فقال كلها ؟ قال نعم ؟ قال كيف تكون كلها فى جب واحد ، لقد أفسدت تلك الثياب ؟ قال قم فانظر ، فقام فأخرج عيسى ثوبا أصفر وثوبا أخضر وثوبا أحمر إلى أن أخرجها على الألوان التى

أرادها ، فجعل الصباغ يتعجب وعلم أن ذلك من الله عز وجل ، فقال الصباغ للناس : تعالوا انظروا إلى ما فعل عيسى عليه السلام ، فآمن به هو وأصحابه ، وهم الحواريون ، والله عز وجل أعلم .

باب فى ذكر رجوع مريم وعيسى عليهما السلام إلى بلادهما بعد موت هردوس

قال وهب : لما مات هردوس الملك بعد اثنتى عشرة سنة من مولد عيسى عليه السلام أوحى الله تعالى إلى مريم يخبرها بموت هردوس ويأمرها بالرجوع مع ابن عمها يوسف النجار إلى الشام ، فرجع عيسى وأمه عليهما السلام وسكنا فى جبل الخليل فى قرية يقال لها ناصرة ، وبها سميت النصارى ، وكان عيسى يتعلم فى الساعة علم يوم ، وفى اليوم علم شهر وفى الشهر علم سنة . فلما تم له ثلاثون سنة أوحى الله تعالى إليه أن يبرز للناس ويدعوهم إلى الله ويضرب لهم الأمثال ، ويداوى المرضى والزَّمْنَى والعميان والمجانين ، ويقمع الشياطين ويزجرهم ويذلهم ، وكانوا يموتون من خوفه ، ففعل ما أمره به ، فأحبه الناس ومالوا إليه واستأنسوا به وكثرت أتباعه وعلا ذكره ، وربما اجتمع عليه من المرضَى والزمنى فى الساعة الواحدة خمسون ألفا ، فمن أطاق منهم أن يمشى إليه مشى إليه ، ومن لم يطق وصل إليه عيسى عليه السلام ، وإنما كان يداويهم بالدعاء بشرط الإيمان .

ودعاؤه الذى كان يشفى به المرضى ويحيى به الموتى : اللهم أنت إله من فى السماء وإله من فى الأرض ، لا إله فيهما غيرك ، وأنت جبار من فى السموات ، وجبار من فى الأرض ، لاجبار فيهما غيرك وأنت ملك من فى السموات وملك من فى الأرض لاملك فيهما غيرك ، وأنت حكم من فى السموات وحكم من فى الأرض لاحكم فيهما غيرك ، قدرتك فى الأرض كقدرتك فى السماء ، وسلطانك فى الأرض كسلطانك فى السماء ، أسألك بأسمائك الكرام ، إنك على كل شىء قدير .

باب فى قصة الحواريين عليهم السلام

قال الله تعالى (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنهُمُ الكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ ؟ قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ). وقال الله عز وجل (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحَوَارِيِّينَ) : أى ألهمتهم ووفقتهم (أَنْ آمِنُوا بِى وَبِرسولى قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) اعلم أن الحواريين كانوا أصفياء عيسى بن مريم وأولياءه وأرضياءه وأنصاره ووزراءه ، وكانوا اثنى عشر رجلا ، وأسماؤهم : شمعون الصفا المسمى بطرس ، وأندراوس أخوه ، ويعقوب بن زَبْدى ، ويحيى أخوه ، وفيلبس ، وبرتولوماوس ، وتوما ، ومتى العشار ، ويعقوب بن حلفا ، ولَبَّا الذى يدعى تداوس ، وشمعون القانوىّ ، ويهوذا الإسخربوطىّ عليهم السلام .

واختلف العلماء فيهم لم سموا بذلك ؟ قال ابن عباس : كانوا صيادين يصطادون السمك فمر بهم عيسى ، فقال لهم : ما تصنعون ؟ فقالوا : نصطاد السمك ، فقال لهم : ألا تمشون معي حتى نصطاد الناس ؟ قالوا: وكيف ذلك؟ قال : ندعو إلى الله ، قالوا : ومن أنت ؟ قال : أنا عيسى بن مريم عبد الله ورسوله ، قالوا : فهل يكون أحد من الأنبياء فوقك ؟ قال : نعم النبي العربيّ ، فاتبعه أولئك وآمنوا به وانطلقوا معه . وقال السدى: كانوا ملاحين ؛ وقال ابن أرطاة : كانوا قصارين سموا بذلك لأنهم كانوا يحورون الثياب : أى يبيضونها ؛

أخبرنا ابن فتحويه بإسناده عن مصعب قال : الحواريون اثنا عشر رجلا اتبعوا عيسى فكانوا إذا جاعوا قالوا : يا روح الله جعنا ، فيضرب بيده إلى الأرض سهلا كان أو جبلا فيخرج لكل إنسان رغيفان ، فيأكلهما ، وإذا عطشوا قالوا : يا روح الله عطشنا ، فيضرب الأرض سهلا كان أو جبلا ، فيخرج الماء فيشربون؛ فقالوا: يا روح الله من أفضل منا: إذا شئنا أطعمتنا وإذا شئنا أسقيتنا وآمنا بك واتبعناك ؟ قال : أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه . قال : فصاروا يعملون الثياب بالكراء . قال ابن عون : صنع ملك من الملوك طعاما ، فدعا الناس إليه ، وكان عيسى على قصعة ، فكانت القصعة لاتنقص ، فقال له الملك : من أنت ؟ قال : أنا عيسى بن مريم، قال الملك: إنى أترك ملكى وأتبعك، فانطلق بمن اتبعه منهم ، وهم الحواريون، وقيل هو الصباغ وأصحابه ، وقد مضت القصة :

قال الضحاك : سموا حواريين لصفاء قلوبهم . وقال عبد الله بن المبارك : سموا حواريين لأنهم كانوا نُورانيين عليهم أثر العبادة ونورها وبياضها وبهاؤها . وأصل الحور عند العرب شدة البياض ، ومنه الأحور والحور . وقال الحسن : الحواريون الأنصار . وقال قتادة : هم الذين تصلح لهم الخلافة . وقال النضر بن شميل : الحوارى خاصة الرجل ومن يستعين به فيما ينوبه . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم « لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوارِيٌّ وَحَوارِيّ الزُّبَيْرُ » . فهؤلاء حواريو عيسى بن مريم عليه السلام . فأما حواريو هذه الأمة فأخبرنا الحسين بن محمد الدينورى بإسناده عن سفيان بن معمر أن قتادة قال: إن الحواريّين كلهم من قريش وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وحمزة وجعفر وأبو عبيدة بن الجراح وعثمان ابن مظعون وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوّام رضى الله عنهم أجمعين .

ذكر خصائص عيسى عليه السلام والمعجزات التى ظهرت على يديه بعد مبعثه إلى أن رفع صلوات الله وسلامه عليه

منها تأييده إياه بروح القدس ، قال عزمن قائل (وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ) ونظيرها فى سورة المائدة (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ) .

واختلفوا فيه ، فقال الربيع بن أنس : هو الروح الذى نفخ فيه الروح ، أضافه سبحانه إلى نفسه تكريما وتخصيصا نحو بيت الله ، وناقة الله. والقُدْس هو الله تعالى ،يدل عليه قوله تعالى (وَرُوحٌ مِنْهُ ـ فنفخْنا فيه مِنْ رُوحِنا). وقال آخرون: أراد بالقُدْس الطهارة أى الروح الطاهر ، وسمى عيسى عليه السلام روحا لأنه لم تتضمنه أصلاب الفحول ، ولم تشتمل عليه أرحام الطوامث ، إنما كان أمرا من الله تعالى . قال السدىّ وكعب : روح القدس جبريل، وتأييد عيسى بجبريل عليهما السلام،هو أنه كان قرينه ورفيقه يعينه ويسير معه حيثما سار إلى أن صعد به إلى السماء . وقال سعيد بن جبير وعبيد بن عمير : هو اسم الله الأعظم ، وبه كان يحيي الموتى ، ويرى الناس تلك العجائب .

ومنها تعليم الله إياه الإنجيل والتوراة ، وكان يقرؤهما من حفظه كما قال الله تعالى (وإذْ علَّمْتُكَ الكتاب) أى الخطّ . قيل الخط عشرة أجزاء ، فتسعة منها لعيسى والحكمة والتوراة والإنجيل .

ومنها خلقه الطير من الطين، كما قال الله تعالى مُخبرا عنه (أَنّى قَدْ جِئْتُكُمْ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أنى أخلُقُ لكمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فأنفُخُ فيهِ فيَكُونُ طَيْرًا بإذْنِ اللهِ) وقالَ تَعالى (وإذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بإذْنِى) فكان يصور من الطين كهيئة الطير ، ثم ينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله، ولم يخلق غير الخُفَّاش ، وإنما خُصَّ بالخفاش لأنه أكمل الطير خلقا فيكون أبلغ فى القدرة ، لأن له ثديا وأسنانا ويلد ويحيض ويطير .

قال وهب : كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه ، فإذا غاب عنهم سقط ميتا ، ليتميز فعل الخلق عن فعل الله تعالى ، وليعلم أن الكمال لله عز وجل .

ومنها إبراء الأكمه والأبرص، كما قال الله (وتُبْرِئُ الأكْمَهَ والأبْرَصَ بإذْنِى)، والأبرص: الذى به وَضَح، والأكمه الذى ولد أعمى ولم ير ضوءا قطُّ ، ولم يكن فى الإسلام أكمه غير قتادة ، وإنما خص هذين لأنهما أعييا الأطباء ، وكان الغالب على زمان عيسى الطبّ ، فأراهم المعجزة من جنس ذلك .

ويروَى أن عيسى عليه السلام مر بدير فيه عُميان فقال : ما هؤلاء ؟ فقيل : هؤلاء قوم طَلبوا القضاء فطمسوا أعينهم بأيديهم ، فقال لهم : ما دعاكم إلى هذا ؟ قالوا : خفنا عاقبة القضاء ، فصنعنا بأنفسنا ما ترى ، فقال: أنتم العلماء والحكماء والأحبار والأفاضل امسحوا أعينكم بأيديكم وقولوا باسم الله ، ففعلوا ذلك فإذا هم جميعا قيام ينظرون .

ومنها إحياؤه الموتى بإذن الله تعالى ، قال الله (وإذْ تُخْرِجُ المَوتى بإذْنِى) وأحيا منهم أمواتا منهم العاذر ، وكان صديقا له ، فأرسلت أخته إلى عيسى إن أخاك العاذر يموت فأته ، وكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيام ، فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام

فقالوا لأخته : انطلقى بنا إلى قبره ، فانطلقت معهم إلى قبره وهو فى صخرة مطبقة ، فقال عيسى : اللهم رب السموات السبع والأرضين السبع ، إنك أرسلتنى إلى بنى إسرائيل أدعوهم إلى دينك ، وأخبرتهم أنى أحيى الموتى بإذنك، فأحى العاذر ، فقام العاذر وخرج من قبره وبقى وولد له .

ومنها ابن العجوز ، وكانت القصة فيه أن عيسى مر فى سياحته ومعه الحواريون بمدينة ، فقال : إن فى هذه المدينة كنزا ، فمن يذهب يستخرجه لنا ؟ فقالوا : يا روح الله لايدخل هذه القرية أحد غريب إلا قتلوه ، فقال لهم عيسى : مكانكم حتى أعود إليكم ، فمضى حتى دخل المدينة ، فوقف على باب فقال : السلام عليكم يا أهل الدار غريب أطعموه ، فقالت له امرأة عجوز : أما ترضى أن أدعك لاأذهب بك إلى الوالى حتى تقول أطعمونى ، فبينما عيسى بالباب إذ أقبل الفتى ابن العجوز ، فقال له عيسى : أضفنى ليلتك هذه ، فقال له الفتى مثل مقالة العجوز ، فقال له عيسى أما إنك لوفعلت ذلك زوّجتك بنت الملك ، فقال له الفتى : إما أن تكون مجنونا وإما أن تكون عيسى بن مريم ، قال : أنا عيسى ، فأضافه وبات عنده ؛ فلما أصبح قال له اغد وادخل على الملك وقل له : جئت أخطب ابنتك ، فإنه سيأمر بضربك وإخراجك ، فمضى الفتى حتى دخل على الملك فقال له : جئت إليك أخطب ابنتك ، فأمر بضربه فضرب وأخرج ؛ فرجع الفتى إلى عيسى فأخبره الخبر ، فقال : إذا كان غد فاذهب إليه واخطب ابنته ، فإنه ينالك بدون ذلك ، ففعل الفتى ما أمره عيسى ، فضربه دون ذلك الضرب الأول ، فرجع إلى عيسى فأخبره ، فقال : ارجع إليه ، فإنه سوف يقول لك : أنا أزوجك إياها على حكمى ، وحكمى قصر من ذهب وفضة ، وما فيه من ذهب وفضة وزبرجد ، فقل له أفعل ذلك ، فإذا بعث معك أحدا فاخرج به ، فإنك سوف تجده ، فلا تحدث فيه شيئا ؛ ثم إنه دخل على الملك فخطب ، فقال تصدُقها بحكمى ، فقال : وما حكمك ؟ فحكم بالذى سماه عيسى ، فقال نعم رضيت ، ابعث من يقبض ذلك ، فبعث معه رجالا فسلم إليهم ما سأله الملك ، فتعجب الناس من ذلك ، فسلم إليه الملك ابنته ، فتعجب الفتى من ذلك وقال : يا روح الله تقدر على مثل هذا وأنت على مثل هذه الحالة ؟ فقال له عيسى : إنى آثرت ما يبقى على ما يفنى ، فقال الفتى : أنا أيضا أدعه وأصحبك ، فتخلى عن الدنيا واتبع عيسى ، فأخذ عيسى بيده وأتى به أصحابه وقال لهم : هذا الكنز الذى قلت لكم ، فكان معه ابن العجوز إلى أن مات ومرّ به وهو ميت على سرير ، فدعا الله عيسى فجلس على سريره ، ونزل من على أعناق الرجال ولبس الثياب وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله ، فبقى وولد له .

ومنها ابنة العشار ، رجل كان يأخذ العشر ، قيل له : أتحيها وقد ماتت بالأمس ؟ فدعا الله عزّ وجلّ فعاشت وبقيت وولد لها .

ومنها سام بن نوح ، قال له الحواريون وهو يصف لهم سفينة نوح : لو بعثت لنا من شهد السفينة فينعت لنا ذلك ؟ فقام وأتى تلاً ، فضرب بيده وأخذ قبضة من تراب وقال : هذا قبر سام بن نوح إن شئتم أحييته لكم ، قالوا نعم ، فدعا الله باسمه الأعظم وضرب التلّ بعصاه وقال : احى بإذن الله ، فخرج سام بن نوح من قبره وقد شاب نصف رأسه فقال : أقد قامت القيامة ؟ قال : لا ، ولكنى دعوتك باسم الله الأعظم . قال : ولم يكونوا يشيبون فى ذلك الزمان ، وكان سام قد عاش خمس مئة سنة وهو شاب ، ثم أخبرهم بخبر السفينة ، فقال له عيسى مت ، قال : بشرط أن يعيذنى الله من سكرات الموت ، فدعا الله عيسى عليه السلام ففعل ذلك ، وقد ذكر هذا الخبر فى قصة نوح عليه السلام .

ومنها عزير عليه السلام ، قالوا لعيسى عليه السلام : أحيه وإلا أحرقناك بالنار ، وجمعوا له حطبا كثيرا من حطب الكرم ، وكانوا فى ذلك الوقت يدفنون موتاهم فى صناديق من حجارة مطبقة ، فوجدوا قبر عزير مكتوبا على ظهره اسمه ، فعالجوه ليفتحوه فلم يقدروا أن يخرجوه من قبره ، فرجعوا إلى عيسى فأخبروه ، فناولهم إناء فيه ماء وقال لهم : انضحوا قبره بهذا الماء ، ففعلوا ، فانفتح الطبق فأتوا به عيسى وهو فى أكفانه والأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، ثم إنه نزع ثيابه عنه ، ثم جعل ينضح على جسده الماء ولحمه وشعره ينبت ، ثم قال : احى يا عزير بإذن الله تعالى ، فإذا هو جالس ، وكل ذلك تراه أعينهم ؛ فقالوا : يا عزير ما تشهد لهذا الرجل ؟ يعنون عيسى ، فقال : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فقالوا : يا عيسى ادع لنا ربك يبقيه لنا ليكون بين أظهرنا حيا ، فقال عيسى : ردوه إلى قبره ، فردوه إلى قبره فعاد ميتا ، فآمن بعيسى بن مريم من آمن وعاند من عاند . قال الكلبىّ : كان عيسى يحيى الموتى بياحىّ يا قيوم .

ومنها إخباره عليه السلام عن الغيوب ، قال الله عز وجل إخبارا عنه (وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ) قال الكلبىّ : لما أبرأ عيسى الأكمه والأبرص وأحيا الموتى ، قالوا : هذا ساحر ، ولكن أخبرنا بما نأكل وبما ندخر ، فكان يخبر الرجل بما يأكل فى غدائه وبما يأكل فى عشائه .

ومنها مشيه عليه السلام على الماء ؛ يروى أنه خرج فى بعض سياحته ومعه رجل من أصحابه قصير ، وكان كثير اللزوم لعيسى ، فلما انتهى عيسى إلى البحر قال : باسم الله بصحة ويقين فمشى على وجه الماء ؛ فقال الرجل القصير : باسم الله بصحة ويقين ، فمشى على وجه الماء ، فداخله العجب فقال : هذا عيسى روح الله يمشى على الماء ، وأنا أمشى على الماء ، قال : فانغمس فى الماء فاستغاث بعيسى ، فتناوله عيسى من الماء وأخرجه ، وقال له : ما قلت يا قصير ، فأخبره بما خامر خاطره ، فقال له عيسى : لقد وضعت نفسك فى غير الموضع الذى وضعك الله فيه ، فمقتك الله على ما قلتَ ، فتب إلى الله مما قلت ، فتاب الرجل وعاد إلى مرتبته التى وضعه الله فيها ، فاتقوا الله ولا يحسد بعضكم بعضا .

وحدثنا الإمام أبو منصور الحمشاوىّ بإسناده عن معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لَوْ عَرَفْتُمُ اللهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ لَعَلِمْتُمُ العِلْمَ الَّذى لَيسَ بَعْدَهُ جَهْلٌ ، وَمَا بَلَغَ ذلكَ أَحَدٌ قَطُّ ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال : ولا أنا ، قالوا : يا رسول الله قد بلغنا أن عيسى بن مريم مشى على الماء ؟ قال نعَمْ ، وَلَوِ ازْدَادَ خَوْفاً وَيَقِيناً لمَشَى عَلَى الهَوَاءِ ، قالوا : يا رسول الله ما كنا نرى أن الرسل تقصّر ، فقال : إنّ اللهَ تَعالى أَبْلَغُ شأْناً مِنْ أَنْ يَبْلُغَ أَحَدٌ شأْنَهُ » .

ذكر حديث جامع فى هذا الباب

قال وهب : خرج عيسى عليه السلام يسيح فى الأرض فصحبه يهودىّ ، وكان مع ذلك اليهودىّ رغيفان ومع عيسى رغيف ، فقال له عيسى : تشاركنى فى طعامك ؟ قال اليهودىّ نعم ، فلما رأى أنه ليس مع عيسى إلا رغيف واحد ندم ، فقام عيسى إلى الصلاة فذهب صاحبه وأكل رغيفا ، فلما قضى عيسى صلاته قدّما طعامهما ، فقال لصاحبه : أين الرغيف الآخر ؟ فقال : ما كان إلا رغيف واحد ، فأكل عيسى رغيفا وصاحبه رغيفا ، ثم انطلقا فجاءا إلى شجرة ، فقال عيسى لصاحبه : لو أنا بتنا تحت هذه الشجرة حتى نصبح ؟ فقال افعل ، فباتا ثم أصبحا منطلقين ، فلقيا أعمى ، فقال له : أرأيت إن أنا عالجتك حتى يرد الله عليك بصرك فهل تشكره؟ قال نعم ، فمسّ عيسى بصره ودعا الله له فإذا هو صحيح ، فقال عيسى لليهودىّ : بالذى أراك الأعمى بصيرا كم كان معك من رغيف ؟ فقال : والله ما كان إلا رغيف واحد ، فسكت عيسى عنه ، ومرّا فإذا هما بمقعد ، فقال له عيسى : أرأيت إن عالجتك فعافاك الله فهل تشكره ؟ قال نعم ، قال : فدعا الله تعالى عيسى فإذا هو صحيح قائم على رجليه ، فقال صاحب عيسى : ما رأيت مثل هذا قط ، فقال له عيسى بالذى أراك الأعمى بصيرا والمقعد صحيحا من صاحب الرغيف الثالث ؟ فحلف له ما كان معه إلا رغيف واحد ، فسكت عيسى عنه ، فانطلقا حتى انتهيا إلى نهر عجاج ، فقال عيسى : لا أرى جسرا ولا سفينة فخذ بحجزتى من ورائى ، وضع قدمك موضع قدمى ، ففعل فمشيا على الماء ، فقال له عيسى : بالذى أراك أمر الأعمى والمقعد وسخر لك الماء ، مَنْ صاحب الرغيف الثالث ؟ فقال : والله ما كان إلا رغيف واحد ، فسكت عيسى ؛ ثم انطلقا فإذا هما بظباء ترعى ، فدعا عيسى بظبى فذبحه وشوى منه بعضا وأكلاه ، ثم ضرب عيسى بقية الظبى بعصاه وقال : قم بإذن الله عز وجل ، فإذا الظبى يعدو ، فقال الرجل : سبحان الله ، فقال عيسى : بالذى أراك هذه الآية مَنْ صاحب الرغيف الآخر ؟ فقال : ما كان إلا رغيف واحد ، فمرا بصاحب بقر ، فنادى عيسى : يا صاحب البقر اجزُر لنا من بقرك هذه عِجلا ، فقال ابعث صاحبك اليهودىّ يأخذه ، فانطلق اليهودى

فجاء به وذبحه وشواه صاحب البقر ينظر إليه ، فقال عيسى : كل ولا تكسر عظما ؛ فلما فرغوا قذف بعظامه فى جلده ثم ضربه بعصاه وقال له : قم بإذن الله ، فقام العجل وله خُوار ، فقال له عيسى : يا صاحب البقر خذ عجلك ، قال : ويحك من أنت ؟ قال : أنا عيسى بن مريم ، قال : عيسى السحار ، ثم فر منه ؛ فقال عيسى لصاحبه بالذى أحيا العجل كم كان معك من رغيف ؟ فقال : ما كان معى إلا رغيف واحد ؛ فسكت ومضيا حتى دخلا قرية ، فنزل عيسى فى أسفلها واليهودىّ فى أعلاها ، فأخذ اليهودىّ عصا عيسى وقال: أنا الآن أبرئُ المرضى وأحيي الموتى . قال: وكان ملك تلك القرية مريضا مُدْنَفا ، فانطلق اليهودى ونادى من يبتغى طبيبا حتى أتى باب الملك فأخبر بوجعه، فقال : أدخلونى عليه فأنا أبرئه ، وإن رأيتموه قد مات فأنا أحييه ، فقيل له : إن وجع الملك قد أعيا الأطباء قبلك ، وليس من طبيب يداويه ولا يشفيه إلا صلبه ، فقال أدخلونى عليه ، فأدخل عليه فضرب الملك بعصاه فمات ، فجعل يضرب الملك بالعصا وهو ميت ويقول : قم بإذن الله فلم يقم ، فأخذ ليصلب، فبلغ ذلك عيسى ، فأقبل عليه وقد رُفِـع على الخشبة ، فقال لهم عيسى : أرأيتم لو أحييت لكم الملك، هل تتركون لى صاحبى؟ قالوا نعم ، فدعا الله عز وجل فأحياه وقام، فأنزل اليهودىّ من فوق الخشبة، فقال يا عيسى أنت أعظم الناس علىّ منة، والله لا أفارقك أبدا ؛ فقال له عيسى : أنشدك الله الذى أحيا الظبى والعجل بعد ما أكلناهما وأحيا هذا بعد ما مات ، وأنزلك من على الجذع بعد ما صلبك كم كان معك من رغيف ؟ قال : فحلف بهذا كله وقال : والله ما كان معى إلا رغيف واحد ، فقال عيسى لابأس؛ فانطلقا حتى أتيا قرية عظيمة خَرِبة فيها كنز : ثلاث لَبِنات من ذهب قد حفرتها السباع والدواب ، فقال الرجل لعيسى : هذا المال لك ، فقال عيسى : أجل واحدة لى وواحدة لك وواحدة للذى أكل الرغيف الثالث ، فقال اليهودى لعيسى : أنا صاحب الرغيف الثالث أكلته وأنت تصلى ، فقال عيسى : هى لك كلها ، فانطلق عيسى وتركه ينظر وهو لايستطيع أن يحمل منهن واحدة لثقلها عليه ، فقال له عيسى : دعه فإن له أهلا يهلكون عليه ، فجعلت نفس اليهودىّ تتطلع إلى المال ويكره أن يعصى عيسى ويعجزه حمل المال، فانطلق مع عيسى ، فبينما هو كذلك إذ مر بالمال ثلاثة نفر فأتوا عليه ، فقال اثنان منهما لصاحبهما الثالث : انطلق إلى بعض هذه القرى فأتنا بطعام وشراب ودوابّ نحمل عليها هذا المال ، فلما ذهب صاحبهما قال أحدهما للآخر هل لك أن نقتله إذا رجع ونقتسم المال بيننا ؟ قال نعم ، وقال الذى ذهب فى نفسه : أنا أجعل فى الطعام سما ، فإذا أكلاه ماتا ويصير المال كله لى ، ففعل ذلك ، فلما رجع إليهما ووصل قتلاه ثم أكلا الطعام الذى جاء به إليهما فماتا ، وإن عيسى عليه السلام مر به وهم حوله مقتولون ، فقال : لاإله إلا الله هكذا تصنع الدنيا بأهلها ، ثم إن عيسى أحياهم بإذن الله تعالى ، فاعتبروا ومروا ولم يأخذوا من المال شيئا ، فتطلعت نفس اليهودىّ صاحب عيسى إلى المال ، فقال : أعطنى المال ،

فقال عيسى : خذه لك ، فهو حظك فى الدنيا والآخرة ، فلما ذهب ليحمله خُسِف به الأرض ، فانطلق عيسى عليه السلام .

ومنها نزول المائدة . قال الله تعالى (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ؟ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) الآية .

واختلف العلماء فى صفة نزول المائدة وكيفيتها وما كان عليها ، فروى قتادة عن جابر عن عمار بن ياسر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : نزلت المائدة عليها خبز ولحم ، وذلك أنهم سألوا عيسى طعاما يأكلون منه ولا ينفد ، قال : فقال لهم إنى فاعل ذلك ، وإنها مقيمة لكم مالم تخبئوا أو تخونوا ، فإن فعلتم ذلك عذبتم . قال : فما مضى يومهم حتى خانوا وخبئوا . وفى بعض الروايات أن بعضهم سرق منها وقال : لعلها لاتنزل أبدا ، فرفعت ومسخوا قردة وخنازير . وقال ابن عباس : قال عيسى لبنى إسرائيل : صوموا ثلاثين يوما ، ثم سلوا الله ما شئتم يعطيكموه ، فصاموا ثلاثين يوما . فلما فرغوا قالوا : ياعيسى إنا إن عملنا لأحد فقضينا عمله ، أطعمنا طعاما ، وإنا صمنا وجعنا ، فادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء ، فلبس عيسى المسوح وافترش الرماد ، ثم دعا الله تعالى فقال (اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ)...الآية ، فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات ووضعتها بين أيديهم ، فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم . وروى عطاء بن السائب وغيره : أنه كانت المائدة إذا وضعت لبنى اسرائيل اختلفت عليها الأيدى ، فيها كل الطعام إلا اللحم . وقال عطية العوفى : نزلت سمكة من السماء فيها طعم كل شىء . وقال قتادة : كانت المائدة تنزل من السماء وعليها ثمر من ثمار الجنة ، وكانت تنزل عليهم بكرة وعشية حيث كانوا كالمن والسلوى لبنى إسرائيل . وقال وهب : أنزل الله قرصة من شعير وحيتانا ، فقيل لوهب : ما كان ذلك يغنى عنهم من شىء ؟ قال بلى ولكن الله ضاعف لهم البركة ، فكان قوم يأكلون ثم يخرجون ، ويجىء آخرون فيأكلون ، حتى أكلوا بأجمعهم وفضل . وقال كعب الأحبار : نزلت مائدة من السماء منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل طعام إلا اللحم . وقال مقاتل والكلبىّ : استجاب الله لعيسى عليه السلام فقال : إنى منزلها عليكم كما سألتنى ، فمن أكل من ذلك الطعام ثم لم يؤمن جعلته مثلا ولعنة وعبرة لمن بعدهم ، قالوا قد رضينا ، فدعا شمعون الصفار وكان أفضل الحواريين فقال : هل معك طعام ؟ فقال : معى سمكتان صغيرتان وستة أرغفة ، فقال علىّ بها ، فقطعها عيسى قطعا صغارا وقال : اقعدوا فى روضة وترافقوا رفاقا كل رفقة عشرة ، ثم قام عيسى ودعا الله تعالى فاستجاب له وأنزل فيها البركة فصار خبزا صحاحا وسمكا صحاحا ، ثم قام عيسى يمشى ، فجعل يلقى

فى كل رفقة ما حملت أصابعه ، ثم قال : كلوا باسم الله ، فجعل الطعام يكثر حتى بلغ ركبهم ، فأكلوا ما شاء الله وفضل والناس خمسة آلاف ونيف ، وقال الناس جميعا : شهدنا أنك عبد الله ورسوله ، ثم سألوه مرة أخرى ، فأنزل الله خمسة أرغفة وسمكتين ، فصنع بهما ما صنع فى المرة الأولى ، فلما رجعوا إلى قُراهم ونشروا هذا الحديث ضحك منهم من لم يشهد وقال : ويحكم إنما سحر أعينكم فمن أراد الله به الخير ثبته على بصيرة ومن أراد فتنته رجع إلى كفره ، فسخوا قردة وخنازير ليس منهم صبىّ ولا امرأة ، فمكثوا كذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا ، وكذلك كل ممسوخ . ويروى عن عطاء بن أبى رباح عن سلمان الفارسىّ أنه قال : والله ما تبع عيسى من المساوى ولا انتهر يتيما ولا قهقه ضحكا ولا ذب ذبابا عن وجهه ولا أخذ على أنفه مرتين شيئا قط ولا عبث قط . ولما سأله الحواريون أن ينزل عليهم الموائد صنوفا . قال (اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء) الآية (وارْزُقْنا) عليها طعاما نأكل (وأنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين غمامة من فوقها وغمامة من تحتها ، وهم ينظرون إليها وهى تهوى منقضة حتى سقطت بين أيديهم ، فبكى عيسى وقال اللهم اجعلنى من الشاكرين ، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة وهم ينظرون إليها ، فنظروا إلى شىء لم يروا مثله قط ولم يجدوا ريحا أطيب من رائحة ذلك ، فقال عيسى لهم أحسنكم عملا يكشف عنها ويذكر اسم الله ويأكل منها ، فقال شمعون الصفا رأس الحواريين : أنت أولى بذلك منا ، فقام عيسى وتوضأ وصلى صلاة طويلة وبكى كثيرا ، ثم كشف المنديل عنها وقال : باسم الله خير الرازقين ، فإذا هو بسمكة مشوية ليس عليها فلوس ولا شوك فيها ، تسيل سيلانا من الدسم ، وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل ، وحواليها من أنواع البقول ماخلا الكراث ، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثانى عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد ، فقال شمعون : ياروح الله أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة ؟ فقال عيسى عليه السلام : ليس ما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة ، ولكن افتعله الله بالقدرة الغالبة ، كلوا مما سألتم يمددكم ويزدكم من فضله . قالوا : ياروح الله لو أرتينا من هذه الآية آية أخرى ؟ فقال عيسى : ياسمكة احيى بإذن الله ، فاضطربت السمكة وعاد عليها فلوسها وشوكها ففزعوا منها ، فقال عيسى : ما لكم تسألون أشياء إذا أعطيتموها كرهتموها ، ثم قال : فما أخوفنى عليكم أن تعذبوا ، ياسمكة عودى كما كنت بإذن الله . فعادت السمكة مشوية كما كانت ، قالوا : ياروح الله كن أول من يأكل منها ثم نأكل نحن ، فقال عيسى : معاذ الله أن آكل منها ، ولكن يأكل منها من سألها ، فخافوا أن يأكلوا منها ، فدعا لها عيسى أهل الفاقة والمرضى وأهل البرص والجُذام والمبتلَين وقال : كلوا من رزق الله ولكم الهناء ولغيركم البلاء .

فأكلوا منها وصدر عنها ألف وثلاثُ مئة رجل وامرأة من فقير وزمِن ومريض ومبتلى كلهم شبْعان يتجشأ ، ثم نظر عيسى إلى السمكة ، فإذا هى كهيئتها حين نزلت من السماء ، ثم طارت المائدة صُعُدا وهم ينظرون إليها حتى توارت عنهم ، فلم يأكل منها يومئذ مريض إلا برئ ، ولا زمن إلا صح ، ولا مبتلًى إلا عوفى ، ولا فقير إلا استغنى ولم يزل غنيا حتى مات ، وندم الحواريون ومن لم يأكل ، وكانت إذا نزلت اجتمعت الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء يزدحمون عليها ، فلبثت أربعين صباحا تنزل ضُحى ، فلا تزال منصوبة يؤكل منها حتى إذا فاء الفىء طارت صعدا وهم ينظرون حتى تغيب عنهم ؛ وكانت تنزل غِبًّا ، تنزل يوما ولا تنزل يوما كناقة ثمود ، فأوحى الله إلى عيسى أن اجعل مائدتى ورزقى للفقراء دون الأغنياء ، فعظم ذلك على الأغنياء حتى شكوا وشككوا الناس فيها ، فقالوا : أترون المائدة تنزل من السماء حقا ؟ فقال لهم عيسى . هلكتم فشمِّروا لعذاب الله ، فأوحى الله تعالى إلى عيسى إنى شرطت على المكذبين شرطين أن من كفر بعد نزولها عذبته عذابا لاأعذبه أحدا من العالمين ، فقال عيسى عليه السلام (إنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وإنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فإنَّكَ أنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) فسخ منهم ثلاثُ مئة وثلاثون رجلا باتوا من ليلتهم على الفرش مع نسائهم فى ديارهم ، فأصبحوا خنازير يسعون فى الطرقات والكناسات ، ويأكلون القاذورات فى الحشوش ؛ فلما رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى بن مريم ، فبكوا وبكى على الممسوخين أهلوهم ؛ فلما أبصرت الخنازير عيسى بكت وجعلت تطوف به ، فجعل عيسى يدعوهم بأسمائهم واحدا بعد واحد فيبكون ويشيرون برءوسهم ولا يقدرون على الكلام ، فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا .

ومنها ما روى أن عيسى عليه السلام مر على رجل جالس عند قبر وكان يكثر المرور به فيجده جالسا ، فقال : يا عبد الله أراك تكثر الجلوس عند هذا القبر ، فقال : يا روح الله ، هذه امرأة لى كان من جمالها وموافقتها كيت وكيت ولى عندها وديعة ، قال : أفتحب أن أدعو الله فيحييها لك ؟ قال نعم ، فتوضأ عيسى وصلى ركعتين ودعا الله عز وجل فإذا أسود قد خرج من القبر كأنه جِذْع محترق ، فقال له من أنت؟ فقال : يا رسول الله أنا رجل فى عذاب منذ أربعين سنة ، فلما كنت فى هذه الساعة قيل لى أجب فأجبت ، ثم قال : يا رسول الله قد مر علىَّ من أليم العذاب ما إن ردنى الله إلى الدنيا أعطيته عهدا أن لاأعصيه أبدا ، فادع الله لى ، فرق له قلب عيسى عليه السلام ودعا الله عز وجل ، ثم قال له امض فمضى ، فقال صاحب القبر : يا رسول الله لقد غلطت بالقبر إنما قبرها هذا ، فدعا الله عيسى عليه السلام ، فخرجت من ذلك القبر امرأة شابة جميلة ، فقال له عيسى : أتعرفها ؟ قال نعم هذه امرأتى ، فدعا الله عيسى حتى ردها عليه ، فأخذ الرجل بيدها حتى انتهيا إلى شجرة فنام تحتها ووضع رأسه فى حجرها ، فمر بها ابن الملك ، فنظرها ونظرت إليه

وأعجب كل واحد منهما بصاحبه ، فأشار إليها فوضعت رأس زوجها عن حجرها واتبعت الفتى ، فاستيقظ زوجها فتفقدها فلم يجدها ، فطلبها فدلّ عليها ، فتعلق بها وقال امرأتى ، فقال الفتى : هى جاريتى ، فبينما هم كذلك ، إذ طلع عيسى عليه السلام ، فقال الرجل : هذا عيسى ، ثم قص عليه القصة ، فقال لها عيسى : ما تقولين ؟ قالت : أنا جارية هذا ، ولا أعرف هذا ، فقال لها عيسى : ردى علينا ما أعطيناك ، قالت قد فعلت ، فسقطت مكانها ميتة ، فقال عيسى : هل رأيتم أعجب من هذا ؟ رجل أماته الله كافرا ، ثم بعثه فآمن ، وهل رأيتم امرأة أماتها الله مؤمنة ، ثم أحياها فكفرت .

ومنها رفعه إلى السماء إذ قال الله (يَا عِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) الآية (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا المَسِيحَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ ، وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ) . . . إلى قوله تعالى (بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) .

روى الكلبىّ عن أبى صالح عن ابن عباس أن عيسى عليه السلام استقبل رهطا من اليهود ، فلما رأوه قالوا : قد جاء الساحر ابن الساحر الفاعل ابن الفاعلة فقذفوه وأمه ، فلما رأى ذلك عيسى دعا عليهم فقال : اللهم أنت ربى وأنا من روحك خرجت وبكلمتك خلقت ولم آتهم من تلقاء نفسى ، اللهمّ العن من سبنى وسب أمى ، فاستجاب الله دعاءه ومسخ الذين سبوه وأمه خنازير ؛ فلما رأى ذلك رأس اليهود وأميرهم فزع لذلك وخاف دعوته ، فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى ، فاجتمعوا عليه ذات يوم وجعلوا يسألونه ، فقال : يا معاشر اليهود إن الله يبغضكم ، فغضبوا من مقالته غضبا شديدا وثاروا عليه ليقتلوه ، فبعث الله تعالى إليه جبريل عليه السلام فأدخله خَوْخة وواراه فى سقفها ، ورفعه الله تعالى من رَوْزَنته ، فأمر رأس اليهود رجلا من أصحابه يقال له فلطيانوس أن يدخل الخوخة فيقتله ، فلما دخل فلطيانوس لم ير عيسى ، فأبطأ عليهم فظنوا أنه يقاتله فيها ، فألقى الله عليه شبه عيسى ؛ فلما خرج ظنوا أنه عيسى ، فقتلوه وصلبوه .

وقال وهب : إن عيسى لما أعلمه الله تعالى أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه ، فدعا الحواريين وصنع لهم طعاما وقال : احضرونى الليلة ، فلى إليكم حاجة ، فلما اجتمعوا إليه من الليل عشاهم وقام يخدمهم ؛ فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضيهم ويمسح أيديهم بثيابه فتعاظموا ذلك وتكارهوه ، فقال : ألا من رد علىّ شيئا مما أصنع فليس منى ولا أنا منه ، فأقروه حتى إذا فرغ من ذلك قال لهم : أنا ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدى إلا ليكون لكم بى أسوة ، وإنكم ترون أنى خيركم ، فلا يتعاظم بعضكم على بعض ، وليبذلنّ بعضكم نفسه لبعض ، كما بذلت نفسى لكم ، وأما الحاجة التى استعنتكم عليها ، فتدعون الله لى ، وتجتهدون فى الدعاء

أن يؤخر أجلى ، فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أرسل الله عليهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء . فجعل يوقظهم ويقول : سبحان الله ما تصبرون فى ليلة واحدة وتعينوننى فيها ؟ فقالوا : والله ماندرى مالنا ، لقد كنا نسهر فنكثر السهر وما نطيق الليلة سهرا ومانريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه ، فقال : يذهب الراعى وتبقى الغنم ، وجعل يأتى بكلام مثل هذا : يعنى نفسه ، ثم قال : ليكفرنّ بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات ، وليبيعنّنى أحدكم بدراهم يسيرة ، وليأكلنّ ثمنى ؛ فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه ، فأخذوا شمعون أحد الحواريين ، فقالوا هذا من أصحابه ، فجحد وقال : ما أنا من أصحابه فتركوه ، ثم أخذوا آخر فجحده كذلك ، ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه ذلك ، فلما أصبح أتى أحد الحواريين أولئك اليهود فقال لهم : ما تجعلون لى إن دللتكم عليه ؟ فجعلوا له ثلاثين درهما ، فأخذها ودلهم عليه ، وكان شُبِّهَ لهم قبل ذلك ، فأخذوه واستوثقوا منه وربطوه بالحبل ، وجعلوا يقودونه ويقولون : أنت كنت تحيي الموتى وتبرئ الأكمه والأبرص ، أفلا تفك نفسك من هذا الحبل ، ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك ، ثم إنهم نصبوا له خشبة ليصلبوه عليها ، فلما أتوا به إلى الخشبة ليصلبوه أظلمت الأرض ، وأرسل الله الملائكة فحالوا بينهم وبين عيسى ، وألقى شبه عيسى على الذى دلهم عليه واسمه يهوذا ، فصلبوه مكانه وهم يظنون أنه عيسى ، وتوفى الله عيسى ثلاث ساعات ثم رفعه إلى السماء ، فذلك قوله تعالى (إنى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إلىَّ ومُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذينَ كَفَرُوا) . فلما صلب الذى هو شبه عيسى جاءت مريم أم عيسى وامرأة كان عيسى دعا لها وأبرأها من الجنون تبكيان عند المصلوب ، فأتاهما عيسى وقال : على من تبكيان ؟ فقالتا عليك ، فقال إن الله تعالى رفعنى فلم يصبنى إلا خير ، وإنّ هذا شخص شُبِّه لهم .

وقال مقاتل : إن اليهود وكلوا بعيسى رجلا يكون عليه رقيبا يدور معه حيثما دار ، فصعد عيسى الجبل ، فجاءه الملك فرفعه إلى السماء وألقى الله تعالى شبه عيسى على الرقيب فظن اليهود أنه عيسى فأخذوه ، وكان يقول لهم : إنى لست عيسى ، إنى فلان بن فلان فلم يصدقوه وقتلوه وصلبوه . قال قتادة : ذكر لنا أن نبىّ الله عيسى قال لأصحابه : أيكم يُقذف عليه شبهى فإنه مقتول ؟ فقال رجل من القوم : أنا يا نبىّ الله ، فقتل ذلك الرجل ومنع الله عيسى ورفعه إليه ، وقيل إن الذى شبه بعيسى وصلب مكانه رجل إسرائيلى يسمى أيشوع بن فنديرا[1] ، والله أعلم .

ذكر نزول عيسى من السماء بعد رفعه بسبعة أيام

قال وهب وغيره من أهل الكتب : لما رفع الله عيسى عليه السلام لبث فى السماء سبعة أيام ثم قال الله له : إن أعداءك اليهود أعجلوك عن العهد إلى أصحابك ، فانزل عليهم وأوصهم واهبط على مريم المجدلانية ، فإنه لم يبك عليك أحد بكاءها ، ولم يحزن عليك أحد حزنها ،

---

(١) فى الأصل : أشيوع بن قنديرا . والتصويب عن تاريخ الطبرى (١ – ٢ : ٧٤١ طبعة أوربة) .

فانزل عليها وأخبرها أنها أول من تلحق بك ، وأمرها أن تجمع لك الحواريين فتبثهم فى الأرض دعاة إلى الله تعالى .

وكانت قصة مريم المجدلانية أنها كانت من بنى إسرائيل فى قرية من قرى أنطاكية يقال لها مَجْدَلان ، وكانت امرأة صالحة وكانت تستحاض فلا تطهر ، فخطبها أشراف بنى إسرائيل امتنعت ، فظنوا أنها ترفعت بنفسها عنهم ، ولم يكن ذلك ترفعا وإنما أرادت إخفاء علتها عنهم ؛ فلما سمعت بمجىء عيسى عليه السلام وبما كان يشفى الله على يديه من المرضى والزَّمْنَى أقبلت إليه رجاء الشفاء ، فلما رأت عيسى وما ألبسه الله من الهيبة استحيت وانصرفت إلى ورائه ووضعت يدها على ظهره ، فقال عيسى : لقد مسنى ذو عاهة بنية حسنة ، ولقد أعطاه الله ما رجاه وطهره بطهارتى ، فأذهب الله عنها ما بها وبرأت وطهرت. فلما أمر الله عيسى بالنزول عليها بعد سبعة أيام من رفعه هبط عليها ، فاشتعل الجبل حين هبط نورا ، فجمعت له الحواريين ، فبثهم فى الأرض دعاة إلى الله ، ثم رفعه الله وكساه الريش وألبسه النور وقطع منه شهوة المطعم والمشرب ، فهو يطير مع الملائكة حول العرش ، فكان إنسيا ملكيا أرضيا سماويا ، وتفرق الحواريون حيث أمرهم ، فتلك الليلة التى أهبط فيها هى الليلة التى تزخرفها النصارى . قالوا فوجه بطرس إلى رومية ، وأندراوس ومتى إلى الأرض التى يأكل أهلها الناس ، وتوما وليا إلى أرض المشرق ، وفيلبس ويهوذا إلى القيروان وإفريقية ويحيى إلى أفسوس قرية أصحاب الكهف ، واليعقوبيين إلى أورشليم وهى إيلياء أرض بيت المقدس ، وبرتولوماوس إلى الأعرابية وهى أرض الحجاز ، وشمعون إلى أرض بربر ، فأصبح كل واحد من الحواريين الذين بعثهم يحدّث بلغة من أرسله عيسى إليهم .

قال ابن إسحاق : ثم عمد اليهود إلى بقية الحواريين أصحاب عيسى يشمسونهم ويعذبونهم ويطوفون بهم ، فسمع ذلك ملك الروم ، وكان صاحب وثن ، فقيل له إن رجلا كان فى هؤلاء الناس الذين تحت يدك من بنى إسرائيل عدوا عليه فقتلوه ، وكان يخبرهم أنه رسول الله ، وقد أحيا لهم الموتى وأبرأ لهم الأسقام ، وخلق لهم من الطين كهيئة الطير ونفخ فيه فكان طائرا باذن الله ، وأخبرهم بالغيب وأراهم العجائب . فقال ملك الروم : فما منعكم أن تذكروا لى من أمره ؟ فوالله لو علمت لخليت بينه وبينهم ، ثم إنه بعث إلى الحواريين فانتزعهم من أيديهم ، فلما أتوه سألهم عن دين عيسى فأخبروه خبره ، فبايعهم على دينه واستنزل شبه عيسى والخشبة التى صلب عليها فأكرمها وصانها لما مسها منه ، وغزا بنى إسرائيل فقتل منهم خلقا كثيرا ، فمن هناك كانت أصل النصرانية فى الروم .

وقال أهل التوراة : حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة ، وولدت عيسى ببيت لحم من أرض أورشليم لمضى خمس وستين سنة من غلبة الإسكندر على بابل ولإحدى وخمسين سنة مضت من ملك الإسكانيين ، وأوحى الله إليه على رأس ثلاثين سنة ، ورفعه

من بيت المقدس إليه ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، فكانت نبوته ثلاث سنين ، وعاشت أمه مريم بعد رفعه ست سنين ، والله أعلم .

ذكر وفاة مريم ابنة عمران عليهما السلام

قال وهب : لما أراد الله تعالى أن يرفع عيسى عليه السلام آخى بين الحواريين ، فأمر رجلين منهم يقال لأحدهما شمعون الصفا ، والآخر يحيى أن يلتزما أمه ولا يفارقاها ، فانطلقا ومعهما مريم إلى ماروت ملك الروم يدعونه إلى الله تعالى ، وقد بعث الله تعالى إليه قبل ذلك يونس عليه السلام ، فلما أتوه أمر بشمعون وأندراوس فقتلا وصلبا منكسين ، وهربت مريم ويحيى ، حتى إذا كانا فى بعض الطريق لحقهما الطلب فخافا ، فانشقت لهما الأرض فغابا فيها ، وأقبل ماروت ملك الروم وأصحابه ، فحفروا ذلك الموضع فلم يجدوا شيئا ، فردوا التراب على حاله وعلموا أنه أمر من الله تعالى ، فسأل ملك الروم عن حال عيسى فأخبروه به فأسلم كما ذكرنا ، والله أعلم .

ذكر نزول عيسى عليه السلام من السماء فى المرة الثانية فى آخر الزمان

قال الله تعالى « وإنَّهُ لَعِلْمٌ للسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا » الآية . وقيل للحسين بن الفضل : هل تجد نزول عيسى عليه السلام فى القرآن ؟ قال نعم ، قوله « وكَهْلاً » وهو لم يكن بكهل فى الدنيا ، وإنما معناه وكهلا بعد نزوله من السماء .

أخبرنا أبو صالح شعيب بن محمد البيهقىّ باسناده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأنبياءُ إخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ أمَّهاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ ، وإنى أوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيهِما السَّلامُ ، لأنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِى وبينَهُ نَبِىٌّ ، ويُوشِكُ أنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلاً ، وإنَّهُ نازِلٌ على أمَّتِى وَخَلِيفَتِى عَلَيهِمْ ، فإذا رأيْتُمُوهُ فاعْرِفُوهُ فإنَّهُ رَجُلٌ مَرْبُوعُ الخَلْقِ ؛ إلى الحُمْرَةِ والبَياضِ ، سَبْطُ الشَّعْرِ ، كأنَّ رأسَهُ يَقْطُرُ ولَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ ، يَنْزِلُ بَيْنَ مُخَصَّرَتَيْنِ ؛ فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ وَيَضَعُ الجِزْيَةَ وَيَقْبِضُ المَالَ وَيُهِلُّ مِنَ الرَّوْحاءِ حاجًّا أوْ مُعْتَمِرًا أوْ مُلَبِّيًا بِهِما جَمِيعا ، وَيُقاتِلُ النَّاسَ على الإسْلامِ حَتَّى يَهْلِكَ فى زَمانِهِ المِلَلُ كُلُّها غَيرَ الإسْلامِ ، وَتَكُونُ السَّجْدَةُ وَاحِدَةً للهِ رَبِّ العالَمِينَ ، وَيُهْلِكُ اللهُ فى زَمانِهِ مَسِيحَ الضَّلالَةِ الكَذَّابَ الدَّجَّالَ وَتَقَعُ الأَمَنَةُ فى الأرْضِ حَتَّى تَرْتَعَ الأُسُودُ مَعَ الإبِلِ والنُّمُورُ مَعَ البَقَرِ والذِّئابُ مَعَ الغَنَمِ ، وَتَلْعَبُ الصِّبْيانُ بالحَيَّاتِ فَلا يَضُرُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، ثُمَّ يَلْبَثُ فى الأرْضِ أرْبَعِينَ سَنَةً ، وَيَتَزَوَّجُ وَيُولَدُ لَه ، ثُمَّ يُتَوَفَّى وَيُصَلِّى عَلَيْهِ المُسْلِمُونَ

ويدفنونه فى المدينة بجنب عمر ، اقرءوا إن شئتم « وإنْ مِنْ أهلِ الكتابِ إلا ليُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ويومَ القيامةِ يكونُ عليهم شهيدًا » أى قبل موت عيسى ، يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات » .

وأخبرنا محمد بن القاسم الفارسى بإسناده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أهبطَ اللهُ المسيحَ عيسى يعيشُ فى هذهِ الأمّةِ ما يعيشُ ، ثُمّ يموتُ فى مدينتى هذهِ ويُدفنُ إلى جانبِ قبرِ عمرَ ، فطوبى لأبى بكرٍ وعمرَ ، يُحشرانِ بَيْنَ نبيَّيْنِ » .

وأخبرنى أبى قال حدثنى الحسين بن أحمد بن محمد بن على بإسناده عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيفَ يُهلكُ اللهُ أمّةً أنا فى أوّلها وعيسى فى آخرِها ، والمهْدِىَ مِنْ أهلِ بَيْتِى فى وسَطِها » .

باب فى قصة الرسل الثلاثة الذين بعثهم عيسى عليه السلام إلى أنطاكية وذلك فى أيام ملوك الطوائف

قال الله تعالى « واضرِبْ لهمْ مثلاً أصحابَ القريةِ إذْ جاءَها المُرْسَلونَ » يعنى رسل عيسى عليه السلام « إذْ أرْسَلْنا إليهمُ اثْنَيْنِ » ، واختلفوا فى اسميهما . فقال ابن إسحاق : فاروص وروماص ؛ وقال وهب : يحيى ويونس ؛ وقال مقاتل : يومان ومالوس ؛ وقال كعب : صادق وصدوق « فكذّبوهُما فعزّزْنا بثالثٍ » أى فقوينا برسول ثالث ، وهو شمعون الصفا رأس الحواريين فى قول أكثر المفسرين ؛ وقال كعب : اسمه شلوم ؛ وقال مقاتل : سمعان .

قالت العلماء بأخبار الأنبياء : بعث عيسى عليه السلام رسولين من الحواريين إلى مدينة أنطاكية ، فلما قربا من المدينة أتيا شيخا يرعى غنيمات له ، وهو حبيب النجار صاحب يس ، فسلما عليه فقال : من أنتما ؟ قالا : رسولا عيسى عليه السلام يدعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن ، قال : أمعكما آية ؟ قالا نعم ، نحن نبرئ المريض ونشفى الأكمه والأبرص بإذن الله ، فقال الشيخ : إن لى ابنا مريضا صاحب فراش منذ سنين ، قالا : فانطلق بنا إلى منزلك فنطلع على حاله ، فأتى بهما إلى منزله ، فلما نظرا إلى ولد الشيخ وهو فى تلك الحالة قربا إليه ودعوا له ومسحاه بيديهما ، فقام فى الوقت بإذن الله صحيحا ، ففشا الخبر فى المدينة ، وشفى الله على يديهما كثيرا من المرضى ، وكان فى مدينة أنطاكية فرعون من الفراعنة يعبد الأصنام يقال له سلاحين . وقال وهب : اسمه أبطيحيس وكان من ملوك الروم . قالوا : فانتهى الخبر إلى الملك ، فدعاهما إليه وقال لهما : من أنتما ؟ قالا : رسولا عيسى ، قال : وما آيتكما ؟ قالا : نبرئ الأكمه والأبرص ونشفى المرضى بإذن الله تعالى :

قال : وفيم جئتما ؟ قالا : جئنا ندعوك من عبادة ما لايسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر ، قال الملك : أوَلنا إله سوى آلهتنا ؟ قالا نعم ، قال من ؟ قالا : من أوجدك بعد عدمك وآلهتَك ، قال : قوما حتى أنظر فى أمركما ، فتبعهما الناس فأخذوهما وضربوهما فى السوق .

وقال وهب : بعث عيسى بهذين الرسولين إلى أنطاكية فأتياها ، فلم يصلا إلى ملكها وطالت مدة مقامهما ، فخرج الملك ذات يوم ، فكبرا وذكرا الله تعالى ، فغضب الملك فأمر بهما فحبسا ، وجلد كل واحد منهما مِئة جلدة ، قالوا : فلما كُذِّب الرسولان وضربا ، بعث عيسى رأس الحواريين شمعونَ الصفا على أثرهما لينصرهما ، فدخل شمعون البلد متنكرا ، فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به ، فرفعوا خبره إلى الملك ، فدعاه ورضى عشرته وأنس به وأكرمه ، ثم قال له ذات يوم : أيها الملك إنه بلغنى أنك حبست رجلين فى السجن وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك ، فهل كلمتهما وسمعت قولهما ؟ فقال : حال الغضب بينى وبين ذلك ، قال : فان رأى الملك دعاهما حتى نطلع على ما عندهما ، فدعاهما الملك ، فلما حضرا بين يديه قال لشمعون استخبرهما ، فقال شمعون لهما : من أرسلكما إلى ههنا ؟ قالا : الذى خلق كل شىء ، فقال لهما شمعون : فصفاه وأوجزا ، فقالا : إنه يفعل مايشاء ويحكم ما يريد ، قال شمعون : وما آيتكما ؟ قالا : ماتتمناه : نبرئ الأكمه والأبرص ، ونشفى المرضى والزمنى بإذن الله . قال : فأمر الملك فجىء بغلام مطموس العينين موضع عينيه كالجبهة ، فما زالا يدعوان الله تعالى حتى انشق موضع البصر ، فأخذا بندقتين من الطين فوضعاهما فى حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما ، فعجب الملك ، فقال شمعون للملك : إن أنت سألت إلهك حتى يصنع لك صنيعا مثل هذا فيكون لك الشرف ولإلهك ، فقال الملك : ليس لى عنك سر ، اعلم أن إلهنا الذى نعبده لايسمع ولا يبصر ولايضر ولا ينفع ، وكان شمعون إذا دخل الملك على الصنم يدخل لدخوله ويصلى كثيرا ويتضرع حتى ظنوا أنه على ملتهم ، فقال الملك للرسولين : إن إلهكما الذى تعبدانه يقدر على إحياء الميت ؟ قالا : إلهنا يقدر على كل شىء ، فقال الملك : إن ههنا ميتا قد مات منذ سبعة أيام وهو ابن الدهقان ، وأنا أخرته فلم أدفنه حتى يرجع أبوه وكان أبوه غائبا ، فجاءوا بالميت وقد تغير وأروح ، فجعلا يدعوان ربهما علانية وجعل شمعون يدعو سرا ، فقام الميت وقال لهم : إنى قد متّ منذ سبعة أيام مشركا ، فأدخلت فى سبعة أودية من النار ، وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا بالله ، ثم قال : إن أبواب السماء فتحت لى فرأيت شابا حسن الوجه يتشفع لهؤلاء الثلاثة ، فقال الملك : ومن الثلاثة ؟ فقال : شمعون وهذان وأشار إلى صاحبيه ، فتعجب الملك ، فلما علم شمعون أن قولهم قد أثر فى الملك أخبر بالحال ودعاه ، فآمن قوم وكان الملك ممن آمن وكفر آخرون .

وقال كعب ووهب : بل كفر الملك وأجمع هو وقومه على قتل الرسل ، فبلغ ذلك حبيب ابن مرى صاحب يس .

وقال ابن عباس ومقاتل : اسمه حبيب بن إسرائيل النجار . قال وهب : وكان سقيما قد أثر فيه الجذام ، وكان منزله عند أقصى باب من أبواب مدينة أنطاكية ، وكان مؤمنا ذا صدقة ، يجمع كسبه إذا أمضى ، فيقسمه نصفين يطعم عياله نصفا ، ويتصدق بالنصف الآخر ، فلما بلغه أن قومه قد قصدوا قتل الرسل جاءهم ، وكان قبل ذلك يكتم إيمانه ويعبد ربه فى غار ، فلما أتاه خبر الرسل أظهر دينه وذكر قومه ودعاهم إلى طاعة الله تعالى كما أخبر الله تعالى فى كتابه وذلك قوله تعالى (وَجاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى) إلى قوله (مُهْتَدُونَ) فقال له قومه : أو أنت مخالف لديننا ومتابع دين هؤلاء الرسل ومؤمن بإلههم ؟ فقال (وَمالِىَ لاأَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) إلى قوله (إِنِّى آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ) فلما قال لهم ذلك وثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه ولم يكن أحد يدفع عنه . وقال عبد الله بن مسعود : وطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبه من دبره . وقال السدى : كانوا يرمونه بالحجارة وهو يقول : اللهم اهد قومى حتى قطعوه وقتلوه .

وقال الحسن : خرقوا خرقا فى حلقه وعلقوه فى سور المدينة ودفنوه فى سوق أنطاكية ، فأوجب الله له الجنة ، فذلك قوله تعالى (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ) فلما أفضى إلى جنة الله وكرامته (قالَ يا لَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ) قالوا : فلما قتل حبيب غضب الله عليهم وعجل لهم النقمة ، وأمر جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا عن آخرهم ، فذلك قوله تعالى (وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ) على غيرهم من كفار الأمم (إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ) أى ميتون .

أخبرنا أبو بكر الحمشاوى بإسناده عن ابن أبى ليلى عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سُبَّاقُ الأُمَمِ ثَلاثَةٌ لَمْ يَكْفُرُوا بِاللهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ : حِزْقِيلُ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَحَبِيبٌ النَّجَّارُ مُؤْمِنُ آلِ يَس ، وعَلِىُّ بْنُ أَبِى طالِبٍ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، وَهُوَ أَفْضَلُهُمْ » .

قصة يونس بن متى عليه السلام

قيل متى أمه ، ولم ينسب أحد من الأنبياء إلى أمه إلا عيسى بن مريم ويونس بن متى عليهما السلام ، وهو الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه « لايَنْبَغِى لأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ أَنا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى » قال الله تعالى (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ

مُغاضِباً) الآيات . قالت العلماء بأخبار القدماء : كان يونس رجلا صالحا يتعبد فى جبل ، وكان فى قرية من قرى الموصل يقال لها نِينوى ، وكان قومه يعبدون الأصنام ، فبعث الله إليهم يونس بن متّى عليه السلام بالنهى عن الكفر والأمر بالتوحيد ، وكان يونس عليه السلام رجلا صالحا لايصبر على الناس فلحق بالجبل يعبد الله تعالى فيه ، وكان حسن القراءة يستمع لقراءته الوحش كما كان لداود فى زمانه ، وكان يُعتريه حدّة ، ولذلك نُهِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون مثله لخفة وعجلة ظهرت منه ، قال الله تعالى (فاصْبِرْ كما صَبَرَ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) وقال تعالى (ولا تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ) لأنه كان قليل الصبر على قومه والمداراة لهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كانَ يُونُسُ بْنُ مَتّى فِيهِ عَجَلَةٌ وَخِفَّةٌ ، فَلَمَّا حُمِّلَ أَعْبَاءَ النُّبُوَّةِ تَفَسَّخَ تَحْتَها تَفَسُّخَ الرُّبَعِ تَحْتَ الحِمْلِ الثَّقِيلِ ، ولذلكَ السَّبَبِ ذَهَبَ مُغَاضِباً » .

واختلف العلماء فى صفة مغاضبته وسبب ذلك ووقته ، فقال قوم : ذهب مغاضبا لقومه ، وهى رواية الضحاك والعوفىّ عن ابن عباس قال : كان يونس بن متّى وقومه يسكنون فلسطين ، فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة أسباط ونصفا وبقى سبطان ونصف ، وكانوا اثنى عشر سبطا فيهم النبوة والملك ، فأوحى الله تعالى إلى شعياء النبى أن سر إلى حزقيا الملك وقل له يوجه نبيا قويا أمينا ، فإنى ألقى الخوف فى قلوب أولئك الأسباط حتى يرسلوا معه بنى إسرائيل ، فقال له الملك : فمن ترى ؟ وكان فى مملكته خمسة من الأنبياء ، فقال : يونس فإنه قوىّ أمين ، فدعا الملك يونس وأمره أن يخرج ، فقال له يونس : هل أمرك الوحى باخراجى ؟ قال لا ، قال : هل سمانى لك ؟ قال لا ، فقال : ههنا غيرى أنبياء أقوياء أمناء ، فألحوا عليه فخرج مغاضبا للنبىّ والملك ولقومه ، فأتى بحر الروم وكان من أمره ما كان . وقال الحسن البصرىّ : إنما غاضب ربه من أجل أنه أمره بالمسير إلى قومه لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه ، فسأل ربه أن ينظره ليتأهب للشخوص إليهم ، فقال له : الأمر أسرع من ذلك ولم ينظره ، حتى سأل أن ينظر إلى أن يأخذ نعله يلبسها ، فقيل له نحو القول الأول ، وكان رجلا فى خلقه ضيق ، فقال : أعجلنى ربى أن آخذ نعلى فذهب مغاضبا . وروى شهر بن حوشب عن ابن عباس قال : أتى جبريل يونس عليه السلام فقال له : انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم إن لم يتوبوا ، قال له : ألتمس دابة ؟ قال : الأمر أعجل من ذلك ، فغضب وانطلق إلى البحر فركب سفينة فكان من أمره ما كان . فعلى هذه الأقوال كانت رسالة يونس بعد نجاته من بطن الحوت . قال ابن عباس : إنما كانت رسالة يونس بعد أن نبذه الحوت ، ودليل هذا القول أن الله تعالى ذكر قصة يونس فى سورة الصافات ثم عقبها بقوله (وأَرْسَلْناهُ إلى مائةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) وقال آخرون : بل كانت قصة الحوت بعد دعاء قومه وتبليغه الرسالة وإنما ذهب عن قومه ،

مغاضبا لربه إذ كشف عنهم العذاب بعد ما أوعدهم به ، وذلك أنه كره أن يكون بين قوم قد جرّبوا عليه الكذب والخلف فيما أوعدهم ، ولم يعلم السبب الذى رفع به عنهم العذاب والهلاك فخرج مغاضبا ، قال : والله لاأرجع إليهم كذابا أبدا ، أوعدتهم العذاب فى يوم ولم يأتهم . وفى بعض الأخبار : أن قومه كان من عادتهم أن يقتلوا من جربوا عليه الكذب فلما لم يأتهم العذاب للميعاد الذى أوعدهم خشى أن يقتلوه فغضب وقال : كيف أرجع إلى قومى وقد أخلفتهم الوعد ، ولم يعلم سبب صرف العذاب عنهم لأنه كان قد خرج من بين أظهرهم لنزول العذاب . قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : بعث الله يونس بن متى إلى قومه وهو ابن ثلاثين سنة ، فأقام فيهم يدعوهم إلى الله تعالى ثلاثا وثلاثين سنة ، فلم يؤمن به إلا رجلان : أحدهما روبيل وكان عالما حكيما ، والآخر تنوخا وكان عابدا زاهدا.

قال ابن عباس وابن مسعود وغيرهما : لما أيس من إيمان قومه دعا عليهم ، فقيل له : ما أسرع مادعوت على قومك! ارجع إليهم فادعهم أربعين ليلة أخرى، فإن أجابوك وإلا فإنى مرسل عليهم العذاب ، فرجع ودعاهم سبعا وثلاثين ليلة فلم يجيبوه ، فقام خطيبا فيهم وقال : إنى محذركم العذاب إلى ثلاثة أيام إن لم تؤمنوا ، ثم قال لهم : إن آية ذلك أن تتغير ألوانكم ، فلما أصبحوا تغيرت ألوانهم ، فقالوا لبعضهم : قد نزل بكم ما قال يونس وإنا لم نجرب عليه كذبا، فانظروا فإن بات فيكم الليلة فائتمنوا من العذاب، وإن لم يبت فيكم فاعلموا أن العذاب مصبحكم ؛ فلما كان ليلة الأربعين ورأى يونس تغير ألوانهم علم أن العذاب نازل بهم فخرج من بين أظهرهم ، فلما أصبحوا تغشاهم العذاب . قال سعيد ابن جبير : كما يغشى التراب القبر إذا دخل فيه صاحبه . وقال مقاتل : كان العذاب فوق رءوسهم قدر ميل . وقال ابن عباس: قدر ثلثى ميل . وقال وهب : أغيمت السماء غيما أسود هائلا تدخن دخانا شديدا ، فهبط حتى غشى مدينتهم واسودّت أسطحتهم ؛ فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك والعذاب ، فطلبوا نبيهم يونس فلم يجدوه ، فقذف الله فى قلوبهم التوبة وألهمهم الرجوع إليه ، فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابّهم ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة لله ، وأخلصوا النية وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدوابّ والأنعام ، فحنّ بعضها إلى بعض ، وعلت أصواتهم واختلط حنينهم وعجوا وتضرعوا إلى الله وقالوا آمنا بما جاء به يونس ، فرحمهم ربهم واستجاب دعوتهم وقبل توبتهم وكشف عنهم العذاب بعد ما أظلهم وذلك يوم عاشوراء ، وقيل كان يوم الأربعاء للنصف من شوّال . قال ابن مسعود : وبلغ من توبة أهل نينوى أن ترادّوا المظالم بينهم حتى إن الرجل ليأتى إلى الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيقتلعه ويرده .

وروى صالح المرىّ عن عمران الجونىّ عن أبى خالد قال : لما غشى قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم ، فقالوا له : قد نزل بنا العذاب فما ترى ؟ قال : قولوا ياحىّ حين لاحى ، ياحى حين تحى الموتى لا إله إلا أنت، فقالوها فكشف الله عنهم

العذاب وسعوا إلى حين كما قال تعالى (فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ) أى فلم تكن قرية آمنت ، وضع التحضيض موضع النفي لأن فيه ضربا من الجحد ، (فَنَفَعَها إيمانُها) فى وقت اليأس عند معاينة العذاب (إلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا) نفعهم إيمانهم فى ذلك الوقت لما علم الله من صدقهم (كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الخِزْيِ فى الحَياةِ الدُّنْيا ومَتَّعْناهُمْ إلى حِينٍ) قالوا : وكان يونس قد خرج من بين أظهرهم وقام ينتظر العذاب والهلاك لقومه فلم ير شيئا ، وكان من كذب ولم يكن له بينة قتل ، قال يونس : كيف أرجع إلى قومى وقد كذبتهم فانطلق معاتبا ربه مغاضبا قومه ، فأتى البحر كما قال تعالى (وَذَا النُّونِ إذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) أى أن لن نقضى عليه العقوبة ، تقول العرب : قدر الله الشيء يقدره تقديرا ، وقدره يقدره قدرا ، وقد قرئ بهما جميعا فى قوله تعالى (نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ المَوْتَ) وقوله تعالى (والَّذى قَدَّرَ فَهَدَى) هذا قول أكثر المفسرين . وقال عطاء : معناه فظن أن لن نضيق عليه الحبس من قول الله تعالى (اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ) أى ويضيق ، وقوله تعالى (وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ) .

قال ابن زيد : هو استفهام معناه : أفظن أن لن نقدر عليه ؟ وقال الحسن : معناه فظن أن يعجز ربه فلا يقدر عليه ؟ قال : وبلغنى أن يونس لما أصاب الذنب انطلق مغاضبا ربه ، فاستزله الشيطان حتى ظن أن لن نقدر عليه ، وكان له سلف وعبادة ، فأبى الله أن يدعه للشيطان ، فلما أتى يونس البحر إذا قوم يركبون سفينة فحملوه بغير أجرة ، فلما دخلها احتبست السفينة ووقفت والسفن تسير يمينا وشمالا ، فقال الملاحون : إن فيها عبدا آبقا من سيده ، وهذا رسم السفينة إذا كان فيها آبق لم تجر ، فاقترعوا فوقعت القرعة على يونس ، فقال : أنا الآبق ، فقالوا تلقى فى الماء ، فاقترعوا ثانيا وثالثا فخرجت القرعة على يونس ، فزجَّ نفسه فى الماء ، فذلك قوله تعالى (فساهَمَ فَكانَ مِنَ المُدْحَضِينَ) .

فلما وقع فى الماء وكل الله به حوتا فابتلعه ، وأوحى الله تعالى إلى الحوت : إنى لم أجعله لك رزقا ، بل جعلناك له حرزا ومسكنا ، فخذه ولا تكسر له عظما ولا تخدش له لحما ، وابتلع الحوت حوت آخر ، فأهوى به إلى مسكنه فى البحر فالتقمه حوت آخر وانطلق به من ذلك المكان حتى مر به على الأُبُلة ، ثم مر به على دجلة ، ثم انطلق به إلى نينوى ، ويقال إن الله تعالى رقق له جلد الحوت حتى كان يرى جميع ما فى البحر . فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حِسًا ، فقال فى نفسه ما هذا ؟ فأوحى الله تعالى إليه وهو فى بطن الحوت : إن هذا تسبيح دواب البحر ، فسبح وهو فى بطن الحوت ، فسمعت الملائكة تسبيحه ، فقالوا : ربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا معروفا بأرض مجهولة ؟ قال : ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر ، فقالوا : العبد الصالح الذى كان يصعد

لك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح ؟ قال نعم ، قال : فشفعوا له عند ذلك ، وهو قوله تعالى (فَنَادَىٰ فِى الظُّلُمَاتِ أَنْ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ) . قال ابن عباس : ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت (سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) .

وروى سعيد بن المسيب عن سعد بن مالك قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «اسْمُ اللهِ الَّذِى إِذَا دُعِىَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى دَعْوَةُ يُونُسَ بْنِ مَتَّى ، فقلت : يا رسول الله هى ليونس بن متى خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ فقال َهِىَ لِيُونُسَ خَاصَّةً وَلِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً إِذَا دَعَوْا بِهَا ، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ تَعَالَى (فَنَادَىٰ فِى الظُّلُمَاتِ) إلى قوله (وَكَذَٰلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ) » فلما دعا به يونس وشفعت له الملائكة أمر الله الحوت فقذفه إلى ساحل نينوى كما قال الله تعالى (فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ) أى بوجه الأرض (وَهُوَ سَقِيمٌ) أى عليل ضعيف كالفرخ المُمَعَّط .

واختلفوا فى مدة مكث يونس فى بطن الحوت ، فقال مقاتل : ثلاثة أيام ؛ وقال عطاء : سبعة أيام ؛ وقال الضحاك : عشرين يوما ؛ وقال السدىّ والكلبىّ : أربعين يوما .

فلما أخرجه الله من بطن الحوت أنبت له شجرة من يقطين وهو القرع ، فجعل يستظل بها ، ووكل الله به وعلة تختلف إليه فيشرب منها لبنا ، فذلك قوله تعالى (وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ) أى عنده (شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ) قالوا : فيبست الشجرة فبكى عليها ، فأوحى الله إليه : أتبكى على شجرة يبست ولا تبكى على مائة ألف أو يزيدون أردتَ أن أهلكهم . ثم ذهب يونس ، فإذا هو بغلام يرعى غنما ، فقال : من أين أنت يا غلام ؟ قال : أنا من قوم يونس ، فقال له : إذا رجعت إليهم فقل لهم إنك لقيت يونس ، فقال الغلام : إن كنت يونس فأنت تعلم أنه إن لم يكن لى بينة قتلت ، فمن يشهد لى ؟ فقال يونس : تشهد لك هذه البقعة وهذه الشجرة وهذه الشاة ، وأشار إلى شاة من غنمه ، فقال له الغلام فرهم ، قال لهم يونس : إذا جاءكم هذا الغلام فاشهدوا له ، قالوا نعم ، فرجع الغلام إلى قومه ثم قال للملك : إنى قد لقيت يونس ، وإنه يقرأ عليكم السلام ، فأمر الملك بقتله وقال كذبت ، فقال : إن لى بينة ، فأرسلوا معى أحدا يشهد ، فأرسلوا معه رجالا ، فأتى البقعة والشجرة والشاة وقال : أنشدكم بالله هل أشهدكم يونس ؟ قالوا نعم ، فرجع القوم مذعورين وقالوا للملك : شهدت له الشجرة والأرض والشاة ، فأخذ الملك بيد الغلام وأجلسه فى مجلسه وقال : أنت أحق بهذا المكان منى ، قال : فأقام لهم أمرهم ذلك الغلام أربعين سنة ، ثم إنهم خرجوا يلتمسون يونس فوجدوه ففرحوا به وآمنوا به ، فأقام لهم أمرهم .

يروى أن يونس عليه السلام مضى من عندهم فنزل قرية ليلا ، فأضافه رجل ، وكان ذلك الرجل قد عمل كثيرا من الفخار ، فأوحى الله إليه : يا يونس مر صاحب هذا الفخار

أن يكسر تلك الفخارات ، فقال له يونس ذلك ، فلما سمع منه ذلك شتمه وقال : شيء عملته بيدي أعيش منه وأتمتع بثمنه أنا وعيالى تأمرنى بكسره ؟ فبكى يونس ، فأوحى الله إليه : هذا عمل فخارا من طين لم تطب نفسه بكسره ، وأنت طبت نفسا ووطنها على هلاك مائة ألف أو يزيدون من عبادى ، فمضى يونس وهبط واديا .

قال : فلما شهدت الشجرة والأرض والشاة للغلام ، وكانت الشاة التى كانت مع الغلام قالت لهم : إن أردتم يونس فاهبطوا الوادى ، فهبطوا فإذا هم بيونس ، فانكبوا على رجليه يقبلونهما وسألوه أن يدخل معهم المدينة فقال : لاحاجة لى فى مدينتكم ، فبكوا وألحوا عليه فأجابهم للدخول ، فأتى بعجلة من فضة وأجلس عليها ، فتمثل له جبريل عليه السلام على سبابته وهو ينادى : هذا مجلس الجبارين ، فوثب يونس عن العجلة وجعل يمشى حتى دخل معهم المدينة ، فمكث مع أهله وولده أربعين ليلة ، ثم خرج سائحا وخرج الملك معه ، وصير الغلام الراعى ملكا لتلك المدينة كما ذكرنا ، فلم يزالا سائحين يعبدان الله تعالى حتى ماتا عليهما السلام ، وكانت نبوة يونس فى زمان ملوك الطوائف ، والله أعلم .

باب فى قصة أصحاب الكهف

قال الله تعالى (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا) اختلف العلماء فى الرقيم ، قال النعمان بن بشير الأنصارىّ : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الرقيم قال « إنَّ ثَلاثَةَ نَفَرٍ خَرَجُوا يَرْتَادُونَ لأَهْلِيهِمْ فَبَيْنَمَا هُمْ يَمْشُونَ إذْ أَصَابَتْهُمُ السَّمَاءُ ، فَأَوَوْا إلَى الْكَهْفِ ، فَانْحَطَّتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ عَلَيهِمْ فَانْطَبَقَتْ على بَابِ الْكَهْفِ فَأَوْصَدَتْهُ عَلَيهِمْ ، فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : كُلٌّ مِنْكُمْ يَذْكُرُ أَحْسَنَ عَمَلٍ عَمِلَهُ فَلَعَلَّ اللهَ يَرْحَمُنَا ، فقالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : قَدْ عَمِلْتُ مَرَّةً حَسَنَةً ، كَانَ لِى أُجَرَاءُ يَعْمَلُونَ عَمَلاً لِى ، فَاسْتَأْجَرْتُ كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ بِأُجْرَةٍ مَعْلُومَةٍ ، فجاءَ رَجُلٌ مِنْهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَسَطَ النَّهَارِ فاسْتَأْجَرْتُهُ بِشَطْرِ أَصْحَابِهِ ، فَعَمِلَ فى بَقِيَّةِ نَهَارِهِ كَعَمَلِ رَجُلٍ مِنْهُمْ نَهَارَهُ كُلَّهُ ، فَرَأَيْتُ عَلَىَّ مِنَ الإكْرَامِ أَنْ لاأَنْقُصَهُ شَيْئًا مِمَّا اسْتَأْجَرْتُ بِهِ أَصْحَابَهُ لَمَّا اجْتَهَدَ فى عَمَلِهِ ، فقالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : أَتُعْطِى هَذَا مِثْلَ مَا أَعْطَيْتَنِى وَلَمْ يَعْمَلْ إلاَّ نِصْفَ النَّهَارِ ؟ فَقُلْتُ لَهُ : يَا عَبْدَ اللهِ ، لَمْ أَبْخَسْكَ شَيْئًا مِنْ شَرْطِكَ ، إنَّمَا هُوَ مَالِى أَحْكُمُ فِيهِ بِمَا شِئْتُ ، قالَ فَغَضِبَ وَذَهَبَ وَتَرَكَ أُجْرَتَهُ ، فَوَضَعْتُ حَقَّهُ فى جَانِبٍ مِنَ الْبَيْتِ مَا شَاءَ اللهُ ، ثُمَّ مَرَّ بِى بَعْدَ ذَلِكَ بَقَرٌ فَاشْتَرَيْتُ بِهِ فَنَمَّيْتُهُ فَبَلَغَتْ مَاشَاءَ اللهُ ، فَمَرَّ بِى بَعْدَ ذَلِكَ شَيْخٌ ضَعِيفٌ

لا أعرفه فقال لى : إنّ لى عندك حقّاً ، فقلت له اذكره لى حتى أعرفه ، قال فذكره ، فقلت له : إيّاك أبغى وهذا حقّك وعرضتها عليه ، فقال يا عبد الله لاتسخر بى إن لم تتصدّق علىّ فأعطنى حقّى ، فقلت والله ما أسخر ، إنّ هذا الحقّك ومالى فيه شىء ، فدفعتها إليه ؛ اللّهمّ إن كنت فعلت هذا لوجهك الكريم فافرج عنّا ، فانصدع الجبل حتى أبصروا الضوء . وقال الآخر : قد عملت حسنة : مرّة كان لى فضل مال وأصاب النّاس شدّة ، فجاءتنى امرأة تطلب منى معروفا ، فقلت والله ما هو دون نفسك ، فأبت علىّ وذهبت ثم إنها رجعت فذكّرتنى بالله فأبيت عليها وقلت والله ما هو دون نفسك ، فأبت علىّ وذهبت وذكرت ذلك لزوجها ، فقال لها زوجها أعطيه نفسك وأغنيى عيالك ، فرجعت إلىّ تنشدنى بالله فأبيت عليها وقلت والله ما هو دون نفسك ، فلمّا رأت ذلك أسلمت إلىّ نفسها ، فلمّا كشفتها وهممت بها ارتعدت من تحتى ، فقلت لها : ما شأنك ؟ فقالت إنى أخاف الله ربّ العالمين ، فقلت لها : خفتيه فى الشدّة ولم أخفه فى الرّخاء فتركتها وأعطيتها ما تحبّ بما كشفتها ؛ اللّهمّ إن كنت فعلت هذا لوجهك الكريم فافرج عنّا ، فانصدع الجبل حتى تعارفنا . وقال الآخر : قد عملت حسنة : مرّة كان لى أبوان كبيران ، وكان لى غنم ، فكنت أطعم أبوىّ وأسقيهما ثم أرجع إلى غنمى ، قال فأصابنى يوما غيث فحبسنى حتى أمسيت فأتيت أهلى وأخذت محلبى فحلبت غنمى وتركتها قائمة مكانها ومضيت إلى أبوىّ فوجدتهما قد ناما ، فشقّ علىّ أن أوقظهما وشقّ علىّ أن أترك غنمى ، فما برحت جالساً ومحلبى فى يدى حتى أيقظهما الصبح فسقيتهما ؛ اللّهمّ إن كنت فعلت ذلك لوجهك الكريم فافرج عنّا ما نحن فيه . قال النعمان : لكأنى أسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كأنّ الجبل طبق ففرج الله عنهم فخرجوا » .

وقال ابن عباس : الرقيم واد بين غطفان وأيلة دون فلسطين ، وهو الوادى الذى فيه أصحاب الكهف . قال كعب : هى قريتهم . وقال سعيد بن جبير وغيره من أئمة الأخبار : الرقيم : لوح من حجارة ، وقيل من رصاص كتبوا فيه أسماء أهل الكهف وقصتهم ثم جعلوه فى صندوق ووضعوه على باب الكهف ، ثم ذكر الله خبر أصحاب الكهف فقال (إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربّنا آتنا من لدنك رحمة) . قال أهل التفسير وأصحاب

التواريخ : كان أمر أصحاب الكهف فى أيام ملوك الطوائف بين عسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام .

وأما قصتهم ، فيقال : لما ولى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخلافة أتاه قوم من أحبار اليهود ، فقالوا ياعمر أنت ولى الأمر بعد محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه ، وإنا نريد أن نسألك عن خصال إن أخبرتنا بها علمنا أن الإسلام حق ، وأن محمدا كان نبيا ، وإن لم تخبرنا علمنا أن الإسلام باطل وأن محمدا لم يكن نبيا ، فقال عمر : سلوا عما بدا لكم ، قالوا : أخبرنا عن أقفال السموات ما هى ، وعن مفاتيح السموات ماهى ، وأخبرنا عن قبر سار بصاحبه ماهو ؛ وأخبرنا عمن أنذر قومه لاهو من الجن ولا هو من الإنس ، وأخبرنا عن خمسة أشياء مشوا على وجه الأرض ولم يخلقوا فى الأرحام ، وأخبرنا ما يقول الدرّاج فى صياحه ، وما يقول الديك فى صراخه ، وما يقول الفرس فى صهيله ، وما يقول الضفدع فى نقيقه ، وما يقول الحمار فى نهيقه ، وما يقول القنبر فى صفيره ؟ قال : فنكس عمر رأسه فى الأرض ثم قال: لاعيب بعمر إذا سئل عما لايعلم أن يقول لأعلم ، وأن يسأل عما لايعلم ، فوثبت اليهود وقالوا : نشهد أن محمدا لم يكن نبيا وأن الإسلام باطل ، فوثب سلمان الفارسىّ وقال لليهود قفوا قليلا ، ثم توجه نحو علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه حتى دخل عليه ، فقال يا أبا الحسن : أغث الإسلام ، فقال وما ذاك ؟ فأخبره الخبر ، فأقبل يرفل فى بردة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما نظر إليه عمر وثب قائما فاعتنقه وقال : يا أبا الحسن أنت لكل معضلة وشدة تدعى ، فدعا على كرم الله وجهه اليهود فقال سلوا عما بدا لكم ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم علمنى ألف باب من العلم ، فتشعب لى من كل باب ألف باب ، فسألوه عنها ؛ فقال على كرم الله وجهه : إن لى عليكم شريطة إذا أخبرتكم كما فى توراتكم دخلتم فى ديننا وآمنتم ؟ فقالوا نعم ، فقال سلوا عن خصلة خصلة ، قالوا : أخبرنا عن أقفال السموات ما هى ؟ قال : أقفال السموات الشرك بالله ، لأن العبد والأمة إذا كانا مشركين لم يرتفع لهما عمل ؛ قالوا : فأخبرنا عن مفاتيح السموات ما هى ؟ قال : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . قال : فجعل بعضهم ينظر إلى بعض ويقولون : صدق الفتى ؛ قالوا : فأخبرنا عن قبر سار بصاحبه فقال : ذلك الحوت الذى التقم يونس بن متى فسار به فى البحار السبعة ؛ فقالوا : أخبرنا عمن أنذر قومه لاهو من الجن ولا من الإنس ؟ قال : هى نملة سليمان بن داود قالت (يا أيها النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) قالوا : فأخبرنا عسة مشوا خمن فى الأرض ولم يخلقوا فى الأرحام ؟ قال : ذلكم آدم وحواء وناقة صالح وكبش إبراهيم وعصا موسى ؛ قالوا : فأخبرنا ما يقول الدرّاج فى صياحه ؟ قال : يقول الرحمن على العرش استوى ؛ قالوا : فأخبرنا ما يقول الديك فى صراخه ؟ قال :

يقول اذكروا الله يا غافلون ؛ قالوا : أخبرنا ما يقول الفرس فى صهيله ؟ قال : يقول إذا مشى المؤمنون إلى الكافرين للجهاد اللهم انصر عبادك المؤمنين على الكافرين ؛ قالوا فأخبرنا ما يقول الحمار فى نهيقه ؟ قال يقول : لعن الله العشار ، وينهق فى أعين الشياطين ؛ قالوا : فأخبرنا ما يقول الضفدع فى نقيقه ؟ قال : يقول سبحان ربى المعبود المسبح فى لجج البحار ؛ قالوا : فأخبرنا ما يقول القنبر فى صفيره ؟ قال : يقول اللهم العن مبغضى محمد وآل محمد ، وكان اليهود ثلاثة نفر قال اثنان منهم نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ووثب الحبر الثالث فقال : ياعلى ، لقد وقع فى قلوب أصحابى ما وقع من الإيمان والتصديق وقد بقى خلة واحدة أسألك عنها ، فقال : سل عما بدا لك ، فقال : أخبرنى عن قوم فى أول الزمان ماتوا ثلاثمئة وتسع سنين ، ثم أحياهم الله فما كان من قصتهم ؟ قال على رضى الله عنه : يا يهودى هؤلاء أصحاب الكهف ، وقد أنزل الله على نبينا قرآنا فيه قصتهم ، وإن شئت قرأت عليك قصتهم ، فقال : ما أكثر ماقد سمعنا قراءتكم ، إن كنت عالما فأخبرنى بأسمائهم وأسماء آبائهم وأسماء مدينتهم واسم ملكهم واسم كلبهم واسم جبلهم واسم كهفهم وقصتهم من أولها إلى آخرها ، فاحتبى علىّ كرم الله وجهه ببردة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : يا أخا العرب حدثنى حبيبى محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان بأرض رومية مدينة يقال لها أفسوس ويقال هى طرسوس ، وكان اسمها فى الجاهلية أنسوس ، فلما جاء الإسلام سموها طرسوس . قال : وكان لهم ملك صالح فمات ملكهم وانتشر أمرهم ، فسمع بهم ملك من ملوك فارس يقال له دقيانوس وكان جبارا كافرا ، فأقبل فى عساكره حتى دخل أفسوس ، فاتخذها دار ملكه وبنى فيها قصرا ، فوثب اليهودىّ وقال : إن كنت عالما فصف لى ذلك القصر ومجالسه ، فقال : يا أخا اليهود ابتنى فيها قصرا من الرخام طوله فرسخ فى عرض فرسخ ، واتخذ فيه أربعة آلاف أسطوانة من الذهب ، وألف قنديل من الذهب لها سلاسل من اللجين تسرج فى كل ليلة بالأدهان الطيبة ، واتخذ لشرقىّ المجلس مئة وثمانين كوة ، ولغربيه كذلك ، وكانت الشمس من حين تطلع إلى حين تغيب تدور فى المجلس كيفما دارت ، واتخذ فيه سريرا من الذهب طوله ثمانون ذراعا فى عرض أربعين ذراعا مرصعا بالجوهر ، ونصب على يمين السرير ثمانين كرسيا من الذهب ، فأجلس عليها بطارقته ، واتخذ أيضا ثمانين كرسيا من الذهب عن يساره فأجلس عليها هراقلته ، ثم جلس هو على السرير ووضع التاج على رأسه ، فوثب اليهودىّ وقال : يا علىّ إن كنت عالما فأخبرنى مم كان تاجه ؟ فقال : يا أخا اليهود كان تاجه من الذهب السبيك له تسعة أركان على كل ركن لؤلؤة تضىء كما يضىء المصباح فى الليلة الظلماء ، واتخذ خمسين غلاما من أبناء البطارقة ، فمنطقهم بمناطق من الديباج الأحمر ، وسرولهم بسراويل القزّ الأخضر ، وتوجهم ودملجهم وخلخلهم وأعطاهم عمد الذهب وأقامهم على رأسه ، واصطنع ستة غلمة من أولاد العلماء وجعلهم وزراءه ، فما يقطع أمرا دونهم ، وأقام منهم ثلاثة عن يمينه

وثلاثة عن يساره ؛ فوثب اليهودىّ وقال : ياعلىّ إن كنت صادقا فأخبرنى ما كانت أسماء الستة ؟ فقال على كرم الله وجهه : حدثنى حبيبى محمد صلى الله عليه وسلم أن الذين كانوا عن يمينه أسماؤهم تمليخا ومكسلمينا ، ومحسلمينا . وأما الذين كانوا على يساره فر طليوس وكشطوس وسادنيوس ، وكان يستشيرهم فى جميع أموره ، وكان إذا جلس كل يوم فى صحن داره واجتمع الناس عنده دخل من باب الدار ثلاثة غلمة فى يد أحدهم جام من الذهب مملوء من المسك ، وفى يد الثانى جام من فضة مملوء من ماء الورد ، وعلى يد الثالث طائر فيصيح به فيطير الطائر حتى يقع فى جام ماء الورد فيتمرغ فيه فينشف مافيه بريشه وجناحيه ثم يصيح به الثانى فيطير فيقع فى جام المسك فيتمرغ فيه ، فينشف مافيه بريشه وجناحيه ، ثم يصيح به الثالث فيطير فيقع على تاج الملك ، فينفض ريشه وجناحيه على رأس الملك بما فيه من المسك وماء الورد ، فمكث الملك فى ملكه ثلاثين سنة من غير أن يصيبه صداع ولا وجع ولا حمى ولا لعاب ولا بصاق ولا مخاط ؛ فلما رأى ذلك من نفسه عتا وطغى وتجبر واستعصى وادعى الربوبية من دون الله تعالى ، ودعا إليه وجوه قومه ، فكلّ من أجابه أعطاه وحباه وكساه وخلع عليه ، ومن لم يجبه ويتابعه قتله ، فأجابوه بأجمعهم ، فأقاموا فى ملكه زمانا يعبدونه من دون الله تعالى ؛ فبينما هو ذات يوم جالس فى عيد له على سريره والتاج على رأسه إذ أتى بعض بطارقته فأخبره أن عساكر الفرس قد غشيته يريدون قتله فاغتم لذلك غما شديدا حتى سقط التاج عن رأسه وسقط هو عن سريره ، فنظر أحد فتيته الثلاثة الذين كانوا عن يمينه إلى ذلك وكان عاقلا يقال له تمليخا ، فتفكر وتذكر فى نفسه وقال : لو كان دقيانوس هذا إلها كما يزعم لما حزن ولما كان ينام ولما كان يبول ويتغوّط وليست هذه الأفعال من صفات الإله ، وكانت الفتية الستة يكونون كل يوم عند واحد منهم ، وكان ذلك اليوم نوبة تمليخا ، فاجتمعوا عنده فأكلوا وشربوا ولم يأكل تمليخا ولم يشرب ، فقالوا : يا تمليخا مالك لاتأكل ولا تشرب ؟ فقال : يا إخوتى وقع فى قلبى شىء منعنى عن الطعام والشراب والمنام ، فقالوا : وما هو يا تمليخا ؟ فقال : أطلت فكرى فى هذه السماء فقلت من رفعها سقفا محفوظا بلا علاقة من فوقها ولا دعامة من تحتها ، ومن أجرى فيها شمسها وقمرها ، ومن زينها بالنجوم ؟ ثم أطلت فكرى فى هذه الأرض من سطحها على ظهر اليم الزاخر ، ومن حبسها وربطها بالجبال الرواسى لئلا تميد ؟ ثم أطلت فكرى فى نفسى ، فقلت من أخرجنى جنينا من بطن أمى ، ومن غذانى وربانى ، إن لهذا صانعا ومدبرا سوى دقيانوس الملك ؟ فانكب الفتية على رجليه يقبلونهما وقالوا : يا تمليخا لقد وقع فى قلوبنا ما وقع فى قلبك فأشر علينا ، فقال : يا إخوتى ما أجد لى ولكم حيلة إلا الهرب من هذا الجبار إلى ملك السموات والأرض ، فقالوا : الرأى ما رأيت ، فوثب تمليخا فابتاع تمرا بثلاثة دراهم ، وصرها فى ردائه وركبوا خيولهم وخرجوا ؛ فلما ساروا قدر ثلاثة أميال من المدينة قال لهم تمليخا : يا إخوتاه قد ذهب عنا ملك الدنيا وزال عنا أمره

فانزلوا عن خيولكم وامشوا على أرجلكم ، لعل الله يجعل لكم من أمركم فرجا ومخرجا .
فنزلوا عن خيولهم ومشوا على أرجلهم سبع فراسخ حتى صارت أرجلهم تقطر دما لأنهم
لم يعتادوا المشى على أقدامهم ، فاستقبلهم رجل راع ، فقالوا : أيها الراعى أعندك شربة
ماء أو لبن ؟ فقال : عندى ما تحبون ولكنى أرى وجوهكم وجوه الملوك وما أظنكم إلا هرابا
فأخبرونى بقصتكم ، فقالوا : يا هذا إنا دخلنا فى دين لايحل لنا الكذب أفينجينا الصدق ؟
قال نعم ، فأخبروه بقصتهم ، فانكبّ الراعى على أرجلهم يقبلها ويقول : قد وقع فى قلبى
ما وقع فى قلوبكم ، فقفوا لى هنا حتى أردّ الأغنام إلى أربابها وأعود إليكم ، فوقفوا له
فردها وأقبل يسعى ، فتبعه كلب له ؛ فوثب اليهودىّ قائما وقال : يا علىّ إن كنت عالما
فأخبرنى ما كان لون الكلب واسمه ؟ فقال : يا أخا اليهود حدثنى حبيبى محمد صلى الله عليه
وسلم أن الكلب كان أبلق بسواد ، وكان اسمه قطمير .

قال الأستاذ : اختلف العلماء فى لون كلب أصحاب الكهف ، فقال ابن عباس : كان
أنمر ؛ وقال مقاتل : كان أصفر ؛ وقال محمد بن كعب : كان من شدة حمرته وصفرته
يضرب إلى الحمرة ؛ وقال الكلبىّ : لونه كالثلج ، وقيل لون الهرة ، وقيل لون السماء .

واختلفوا فى اسمه أيضا ، فروى عن علىّ كرم الله وجهه أن اسمه ريّان . وقال ابن عباس
كان اسمه قطمير ، وهى إحدى الروايات عن علىّ ؛ وقال شعيب الجبائىّ : كان اسمه حمرا ؛
وقال الأوزاعىّ : نتوى ؛ وقال مجاهد : قنطوريا ؛ وقال عبد الله بن سلام : بطيط ؛
وقال كعب : كان أصهب واسمه تفنى .

وأخبرنا ابن فتحويه بإسناده عن أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه أن اسم كلبهم كان
قطمور ، وقيل قطفير . أخبرنى أبو على الزهرى باسناده عن ابن عباس فى قوله تعالى
(مَايَعْلَمُهُمْ إلاَّ قَلِيلٌ) قال : أنا من أولئك القليل هم : مكسلمينا وتمليخا ومرطليوس
وبينوس وساونوس ودانوس وكشطوس وهو الراعى ، والكلب اسمه قطمير ، كلب أنمر
فوق القلطىّ ودون الكركىّ . وقال محمد بن إسحاق : القلطى : الكلب الصغير ، وقال : مابقى
بنيسابور محدّث إلا كتب عنى هذا الحديث ، وكتبه أبو عمرو الجبرىّ عنى .

رجعنا إلى الحديث . قال : فلما نظر الفتية إلى الكلب قال بعضهم لبعض : إنا نخاف
أن يفضحنا هذا الكلب بنبيحه ، فألحوا عليه طردا بالحجارة ، فلما نظر إليهم الكلب وقد
ألحوا عليه بالحجارة والطرد أقعى على رجليه وتمطى وقال بلسان طلق ذلك : يا قوم
لم تطردوننى وأنا أشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، دعونى أحرسكم من عدوكم ،
وأتقرب بذلك إلى الله سبحانه وتعالى ، فتركوه ومضوا ، فصعد بهم الراعى جبلا وانحط
بهم على كهف ؛ فوثب اليهودىّ وقال : يا علىّ ما اسم ذلك الجبل وما اسم الكهف ؟
قال أمير المؤمنين : يا أخا اليهود اسم الجبل ناجلوس ، واسم الكهف الوصيد وقيل خيرم .
رجعنا إلى الحديث . قال : وإذا بفناء الكهف أشجار مثمرة وعين غزيرة ، فأكلوا من

الثمار وشربوا من الماء وجنهم الليل ، فأووا إلى الكهف وربض الكلب على باب الكهف ومدّ يديه عليه، وأمر الله ملك الموت بقبض أرواحهم ، ووكل الله تعالى بكل رجل منهم ملكين يقلبانه من ذات اليمين إلى ذات الشمال ، ومن ذات الشمال إلى ذات اليمين .

قال ابن عباس : كانوا يقلبون فى السنة مرة ، لئلا تأكل الأرض لحومهم ، ويقال إن يوم عاشوراء كان يوم تقلبهم . قال أبو هريرة : كان لهم فى كل سنة تقليبتان .

رجعنا إلى الحديث . قال : وأوحى الله تعالى إلى الشمس فكانت (تَزَّاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ)إذا طلعت (وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ) . فلما رجع الملك دقيانوس من عيده سأل عن الفتية، فقيل له: إنهم اتخذوا إلها غيرك، وخرجوا هاربين منك، فركب فى ثمانين ألف فارس وجعل يقفو آثارهم ، حتى صعد الجبل وشارف الكهف ، فنظر إليهم مضطجعين فظن أنهم نيام ، فقال لأصحابه : لوأردت أن أعاقبهم بشىء ماعاقبتهم بأكثر مما عاقبوا به أنفسهم ، فائتونى بالبنائين ، فأتى بهم ، فرمّوا عليهم باب الكهف بالجبس والحجارة ، ثم قال لأصحابه ، قولوا لهم يقولوا لإلههم الذى فى السماء إن كانوا صادقين يخرجهم من هذا الموضع . فمكثوا ثلثمائة وتسع سنين ، فنفخ الله فيهم الروح وهبوا من رقدتهم لما بزغت الشمس ، فقال بعضهم لبعض : لقد غفلنا هذه الليلة عن عبادة الله تعالى ، قوموا بنا إلى العين ، فإذا بالعين قد غارت ، والأشجار قد جفت ، فقال بعضهم لبعض : إنا من أمرنا هذا لفى عجب ، مثل هذه العين قد غارت فى ليلة واحدة ! ومثل هذه الأشجار قد جفت فى ليلة واحدة ! فألقى الله عليهم الجوع ، فقالوا : أيكم يذهب بورقكم هذه إلى المدينة فليأتنا منها بطعام، ولينظر أن لايكون من الطعام الذى يعجن بشحم الخنازير، وذلك قوله تعالى (فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا) أى أحلّ وأجود وأطيب ، فقال لهم تمليخا : يا إخوتى لايأتيكم أحد بالطعام غيرى، ولكن أيها الراعى، ادفع إلىّ ثيابك وخذ ثيابى ، فلبس ثياب الراعى ومر، وكان يمر بمواضع لايعرفها وطريق ينكرها حتى أتى باب المدينة ، فإذا عليه علم أخضر مكتوب عليه : لاإله إلا الله عيسى روح الله، صلى الله على نبينا وعليه وسلم، فطفق الفتى ينظر إليه ويمسح عينيه ويقول أرانى نائما ؛ فلما طال عليه ذلك دخل المدينة ، فمر بأقوام يقرءون الإنجيل ، واستقبله أقوام لايعرفهم حتى انتهى إلى السوق ، فإذا هو بخباز ، فقال له : يا خباز ما اسم مدينتكم هذه ؟ قال : أفسوس ، قال : وما اسم ملككم ؟ قال : عبد الرحمن ، قال : تمليخا إن كنت صادقا فإن أمرى عجيب ، ادفع إلىّ بهذه الدراهم طعاما ، وكانت دراهم ذلك الزمان الأول ثقالا كبارا ، فعجب الخباز من تلك الدراهم ؛ فوثب اليهودىّ وقال : يا علىّ إن كنت عالما فأخبرنى كم كان وزن الدرهم منها ؟ فقال : يا أخا اليهود أخبرنى حبيبى محمد صلى الله عليه وسلم أن وزن كل درهم منها عشرة دراهم

وثلثا درهم ، فقال له الخباز : يا هذا إنك قد أصبت كنزا ، فأعطني بعضه ، وإلا ذهبت بك إلى الملك ، فقال تمليخا : ما أصبت كنزا ، وإنما هذا من ثمن تمر بعته بثلاثة دراهم منذ ثلاثة أيام ، وقد خرجت من هذه المدينة وهم يعبدون دقيانوس الملك ، فغضب الخباز وقال : ألا ترضى إن أصبت كنزا أن تعطيني بعضه ، حتى تذكر رجلا جبارا كان يدّعى الربوبية قد مات منذ ثلثمائة سنة وتسخر بي ؟ ثم أمسكه واجتمع الناس ، ثم إنهم أتوا به إلى الملك ، وكان عاقلا عادلا ، فقال لهم : ما قصة هذا الفتى ؟ قالوا : أصاب كنزا ، فقال له الملك لا تخف فإن نبينا عيسى عليه السلام أمرنا أن لا نأخذ من الكنوز إلا خمسها ، فادفع إلىّ خمس هذا الكنز وامض سالما ، فقال أيها الملك تثبت فى أمرى ، ما أصبت كنزا ، وإنما أنا من أهل هذه المدينة ، فقال له : أنت من أهلها ؟ قال : نعم ، قال : أفتعرف فيها أحدا ؟ قال نعم ، قال : سمّ لنا ، فسمى له نحوا من ألف رجل فلم يعرفوا منهم رجلا واحدا ؛ قالوا : يا هذا ما نعرف هذه الأسماء ، وليست هى من أسماء أهل زماننا ، ولكن هل لك فى هذه المدينة دار ؟ فقال نعم أيها الملك ، فابعث معى أحدا ، فبعث معه الملك جماعة حتى أتى بهم دارا أرفع دار فى المدينة ، وقال : هذه دارى ، ثم قرع الباب فخرج لهم شيخ كبير قد استرخى حاجباه من الكبر على عينيه ، وهو فزع مرعوب مذعور ، فقال : أيها الناس ما بالكم ؟ فقال له رسول الملك : إن هذا الغلام يزعم أن هذه الدار داره ، فغضب الشيخ والتفت إلى تمليخا وتبينه وقال له : ما اسمك ؟ قال : تمليخا بن فلسطين ، فقال الشيخ : أعد علىّ ، فأعاد عليه ، فانكبّ الشيخ على يديه ورجليه يقبلهما وقال : هذا جدّى ورب الكعبة ، وهو أحد الفتية الذين هربوا من دقيانوس الملك الجبار إلى جبار السموات والأرض ، ولقد كان عيسى عليه السلام أخبرنا بقصتهم وأنهم سيحيون ، فأنهى ذلك إلى الملك ، فركب الملك وأتى إليهم وحضرهم ؛ فلما رأى الملك تمليخا نزل عن فرسه وحمل تمليخا على عاتقه ، فجعل الناس يقبلون يديه ورجليه ويقولون له : يا تمليخا ما فُعِل بأصحابك ؟ فأخبرهم أنهم فى الكهف وكانت المدينة قد وليها رجلان ، ملك مسلم ، وملك نصرانى ، فركبا فى أصحابهما وأخذا تمليخا ؛ فلما صاروا قريبا من الكهف قال لهم تمليخا : يا قوم إنى أخاف أن إخوتى يحسون بوقع حوافر الخيل والدواب وصلصلة اللجم والسلاح ، فيظنون أن دقيانوس قد غشيهم فيموتون جميعا ، فقفوا قليلا حتى أدخل إليهم فأخبرهم ، فوقف الناس ودخل عليهم تمليخا ، فوثب إليه الفتية واعتنقوه وقالوا : الحمد لله الذى نجاك من دقيانوس ، فقال : دعونى منكم ومن دقيانوس (كَمْ لَبِثْتُمْ ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) قال : بل لبثتم ثلثمائة وتسع سنين ، وقد مات دقيانوس وانقرض قرن بعد قرن ، وآمن أهل المدينة بالله العظيم ، وقد جاءوكم ، فقالوا له : يا تمليخا تريد أن تصيرنا فتنة للعالمين ؟ قال : فماذا تريدون ؟ قالوا : ارفع يديك ونرفع أيدينا ، فرفعوا أيديهم وقالوا : اللهم بحق ما أريتنا من العجائب

فى أنفسنا إلا قبضت أرواحنا ولم يطلع علينا أحد ، فأمر الله ملك الموت فقبض أرواحهم وطمس الله باب الكهف ، وأقبل الملكان يطوفان حول الكهف سبعة أيام فلا يجدان له بابا ولا منفذا ولا مسلكا ، فأيقنا حينئذ بلطيف صنع الله الكريم ، وأن أحوالهم كانت عبرة أراهم الله إياها ، فقال المسلم : على دينى ماتوا ، أنا أبنى على باب الكهف مسجدا ، وقال النصرانىّ : بل ماتوا على دينى ، فأنا أبنى على باب الكهف ديرا ، فاقتتل الملكان ، فغلب المسلم النصرانىّ ، فبنى على باب الكهف مسجدا ، فذلك قوله تعالى (قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا على أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عليهِمْ مَسْجِدًا) وذلك يا يهودىّ ما كان من قصتهم . ثم قال علىّ كرم الله وجهه لليهودىّ : سألتك بالله يا يهودى أوافق هذا ما فى توراتكم ؟ فقال اليهودى : ما زدت حرفا ولا نقصت حرفا يا أبا الحسن ، لاتسمنى يهوديا فإنى أشهد أن لاإله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وأنك أعلم هذه الأمة .

وقال عبيد بن عمير : كان أصحاب الكهف فتيانا مطوقين مسورين ذوى ذوائب ، وكان معهم كلب صيدهم ، فخرجوا فى عيد لهم عظيم فى زىّ وموكب ، وأخرجوا معهم آلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله ، فقذف الله فى قلوبهم الإيمان ، وكان أحدهم وزير الملك ، فآمنوا وأخفى كل واحد منهم الإيمان عن صاحبه ، فقالوا فى أنفسهم من غير أن يظهر بعضهم لبعض : نخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لئلا يصيبنا عقاب بجرمهم ، فخرج شاب منهم حتى انتهى إلى ظل شجرة فجلس فيه ، ثم خرج آخر فرآه جالسا وحده ، فرجا أن يكون على مثل أمره من غير أن يظهر ذلك فجلس إليه ثم خرج الآخرون فجاءوا فجلسوا إليهم واجتمعوا ، فقال بعضهم لبعض : ماجمعكم وكل واحد يكتم عن صاحبه إيمانه مخافة على نفسه ، ثم قالوا لبعضهم : ليخرج كلّ فتيين منكم فيخلوا ثم ليفش كلّ واحد منكم أمره إلى صاحبه ، فخرج فتيان منهم فتواقفا ثم تكلما ، فذكر كل واحد منهما أمره لصاحبه ، فأقبلا وهما مستبشران إلى أصحابهما فقالا : قد اتفقنا على أمر واحد وإذا هم جميعا على الإيمان ، وإذا كهف فى الجبل قريب منهم ، فقال بعضهم لبعض : (فَأْوُوا إلى الكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا) فدخلوا الكهف ومعهم كلب صيدهم ، فناموا ثلاث مئة وتسع سنين . قال : وفقدهم قومهم فطلبوهم ، فعمى الله عليهم آثارهم وكهفهم ؛ فلما لم يقدروا عليهم كتبوا أسماءهم وأنسابهم وكتبوا فى لوح فلان وفلان أبناء ملوكنا ، فقدناهم فى يوم كذا فى شهر كذا من سنة كذا فى مملكة فلان بن فلان ، ووضعوا اللوح فى خزانة الملك وقالوا : ليكونن لهذا شأن ، ومات ذلك الملك وجاء قرن بعد قرن .

وأخبرنا الحسن بن الحسين الثقفى بإسناده عن أبى جعفر الباقر قال : كان أصحاب الكهف صيارفة .

وقال وهب بن منبه : جاء حوارىّ من أصحاب عيسى عليه السلام إلى مدينة أصحاب الكهف ، فأراد أن يدخلها ، فقيل له إن على بابها صنما لايدخلها أحد إلا سجد له ، فكره أن يدخلها ، فأتى إلى حمام قريب من تلك المدينة وأجر نفسه من الحمامىّ وكان يعمل فيه ؛ فرأى صاحب الحمام فى حمامه البركة ودرَّ عليه الرزق ، فجعل يقوم عليه وتعلق به فتية من أهل المدينة ، فجعل يخبرهم خبر السماء والأرض وخبر الآخرة حتى آمنوا به وصدّقوه ، وكانوا على مثل حاله فى حسن الهيئة ، وكان يشرط على صاحب الحمام أن الليل لى لايحول بينى وبينه أحد، فيصلى، فكان على ذلك الحال حتى أتى ابن الملك الحمام بامرأة، فدخل بها الحمام ، فعيّره بها الحوارى وقال له : أنت ابن الملك وتدخل مع هذه ؟ فاستحيا ابن الملك وذهب ، ثم رجع مرة أخرى ، فقال له مثل ذلك ، فسبه وانتهره ولم يلتفت إليه ، ثم إنهما دخلا فماتا جميعا فى الحمام ، فأتى الملك وقيل له : قتل صاحب الحمام ابنك ، فالتمس فلم يقدر عليه ، فقال من كان يصحبه ؟ فسموا الفتية ، فالتمسوا فخرجوا من المدينة ، فروا بصاحب لهم فى زرع ،وهو على مثل إيمانهم، فذكروا أنهم التُمِسوا ، فانطلق معهم ومعه كلبه حتى آواهم الليل إلى الكهف ، فدخلوا وقالوا : نبيت ههنا الليلة ثم نصبح إن شاء الله تعالى فترون رأيكم ، فضرب الله على آذانهم ، فخرج الملك فى أصحابه يطلبونهم حتى وجدوهم قد دخلوا الكهف ، وكان كلما أراد الرجل منهم أن يدخل الكهف أرعب ، فلم يطق أحد أن يدخله ، فقال قائل : أليس لو كنت قدرت عليهم قتلتهم ؟ قال: بلى، قال : فابن عليهم باب الكهف واتركهم فيه يموتوا عطشا وجوعا ، ففعل ذلك . قال وهب : فتركهم بعد ما سدوا عليهم باب الكهف ومضى زمان بعد زمان ، ثم إن راعيا أدركه المطر عند باب الكهف ، فقال : لوفتحت باب هذا الكهف فأدخلت فيه غنمى من المطر ؟ فلم يزل يعالجه حتى فتح الباب ورد الله إليهم أرواحهم من الغد حين أصبحوا .

وقال محمد بن إسحاق: مَرِج أهل الإنجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت فيهم الملوك حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت ، وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكون بعبادة الله تعالى وتوحيده ، فكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له دقيانوس كان عبد الأصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه فى ذلك ممن أقام على دين المسيح ، وكان ينزل قرى الروم ، فلا يترك فى قرية نزلها أحدا يدين بدين المسيح إلا قتله ، حتى نزل مدينة أصحاب الكهف وهى أفسوس؛ فلما نزلها كَبُر ذلك على أهل الإيمان فاستخفوا منه وهربوا فى كل ناحية ، وكان دقيانوس قد أمر حين دخلها أن يتتبع أهل الإيمان فيجمعوا إليه ، واتخذ شرطا من كفار أهلها وجعلوا يتتبعون أهل الإيمان فى أماكنهم فيخرجونهم إلى دقيانوس ، فيقدمهم إلى الجامع الذى يذبح فيه للطواغيت ، فيخيرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان والذبح للطواغيت ؛ فمن القوم من يرغب فى الحياة ، ومنهم من يأبى أن يعبد غير الله

سبحانه وتعالى فيقتل . فلما رأى ذلك أهل الشدة فى الإيمان بالله جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب والقتل فيقتلون ثم يقطعون ، ويربط ما قطع من أجسامهم على سور المدينة من نواحيها كلها ، وعلى كل باب من أبوابها حتى عظمت الفتنة على أهل الإيمان ، فمنهم من أقرّ فترك ، ومنهم من صلب على دينه وقتل . فلما رأى ذلك الفتية حزنوا حزنا شديدا ، فقاموا وصلوا واشتغلوا بالتسبيح والتقديس والدعاء ، وكانوا من أشراف الروم ، وكانوا ثمانية نفر ، فبكوا وتضرعوا وجعلوا يقولون (رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً) ربنا اكشف عن عبادك المؤمنين الفتنة وارفع عنهم هذا البلاء ، وأنعم على عبادك الذين آمنوا بك . فبينما هم على ذلك إذ أدركهم الشرط ، وكانوا قد دخلوا فى مصلى لهم ، فوجدوهم سجودا على وجوههم يبكون ويتضرعون إلى الله تعالى ويسألونه أن ينجيهم من دقيانوس وفتنته ؛ فلما رآهم أولئك الكفرة قالوا لهم : ما خلفكم عن أمر الملك انطلقوا إليه ، ثم خرجوا من عندهم ورفعوا أمرهم إلى دقيانوس ، فقالوا : نجمع الجميع وهؤلاء الفتية من أهل بيتك يسخرون منك ويعصونك ؟ فلما سمع ذلك أتى بهم تفيض أعينهم من الدمع معفرة وجوههم فى التراب ، فقال : ما منعكم أن تشهدوا الذبح للآلهة التى نعبدها فى الأرض ، وأن تجعلوا أنفسكم كغيركم ؟ ثم إنهم خيروا إما أن يذبحوا لآلهتهم كما ذبح غيرهم من الناس، وإما أن يقتلهم الملك ، فقال مكسلمينا وكان أكبرهم : إن لنا إلها ملأ السموات والأرض عظمة لن ندعو من دونه إلها أبدا ، ولن نقرّ بهذا الذى تدعونا إليه أبدا ، ولكنا نعبد ربنا الذى له التحميد والتكبير والتسبيح والتقديس من أنفسنا خالصا أبدا ، إياه نعبد وإياه نسأل النجاة والخير ؛ وأما الطواغيت فلن نعبدها أبدا ، فاصنع بنا ما بدا لك ، ثم قال أصحاب مكسلمينا لدقيانوس مثل ما قال له . فلما قالوا له ذلك أمر بهم فنزع ملبوسا كان عليهم من ملبوس عظمائهم ثم قال لهم : إنكم إذا فعلتم ما فعلتم فإنى سأؤخركم وأتفرّغ لكم وأنجز لكم ما أوعدتكم من العقوبة ، وما ينبغى أن أعجل لكم ذلك لأنى أراكم شبابا حديثة أسنانكم ، فلا أحب أن أهلككم حتى أجعل لكم أجلا فتراجعوا فيه عقولكم، ثم أمر بحلية كانت معهم من ذهب وفضة فنزعت عنهم ، ثم أمر بهم فأخرجوا من عنده ، وانطلق دقيانوس إلى مدينة سوى مدينتهم التى هم بها قريبة منهم لبعض أموره . فلما رأى الفتية أن دقيانوس قد خرج من مدينتهم بادروا قدومه وخافوا إذا قدم مدينتهم أن يذكرهم ، فأتمروا أن يأخذ كل رجل منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقى ، ثم ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة فى جبل يقال له ناجلوس فيسكنون فيه ويعبدون الله تعالى ، حتى إذا قدم دقيانوس أتوه فقاموا بين يديه فيصنع بهم ما يشاء . فلما قال ذلك بعضهم لبعض ، عمد كل فتى منهم إلى بيت أبيه وأخذ نفقة فتصدقوا منها وانطلقوا بما بقى معهم من نفقتهم ، واتبعهم كلب

كان لأحدهم حتى أتوا ذلك الكهف فلبثوا فيه . وقال ابن عباس : هربوا ليلا من دقيانوس وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب على دينهم . وقال كعب : مروا بكلب فتبعهم ، فطردوه فنبح عليهم ، ففعلوا ذلك مرارا ، فقال لهم الكلب : ما تريدون منى لا تخشوا جانبى فإنى أحب أحباب الله فناموا حتى أحرسكم .

رجعنا إلى حديث ابن إسحاق : فلبثوا فى ذلك الكهف ليس لهم عمل إلا الصلاة والصيام والتسبيح ، وجعلوا نفقتهم إلى فتى يقال له تمليخا ، فكان يبتاع لهم من المدينة طعامهم سرًا وكان من أجلدهم وأجملهم ، فكان تمليخا يصنع ذلك ، فإذا دخل المدينة يضع ثيابا كانت عليه حسانا ويأخذ ثيابا كثياب المساكين الذين يستطعمون فيها ، ثم يأخذ درهما فينطلق إلى المدينة فيشترى طعاما وشرابا ويتسمع ويتجسس لهم الخبر هل يذكرونهم بشىء ، ثم يرجع إلى أصحابه ، فلبثوا كذلك ما لبثوا ، ثم قدم دقيانوس المدينة ، فأمر العظماء فذبحوا للطواغيت ، ففزع من ذلك أهل الإيمان ، وكان تمليخا بالمدينة يشترى طعاما ، فرجع إلى أصحابه وهو يبكى ومعه طعام ، فأخبرهم أن دقيانوس دخل المدينة ، وأنهم قد ذكروا والتمسوا مع عظماء المدينة ليذبحوا للطواغيت . فلما أخبرهم بذلك فزعوا ووقعوا سجدا يدعون الله تعالى ويتضرعون إليه ويتعوذون به من الفتنة ، ثم إن تمليخا قال لهم : يا إخوتاه ارفعوا رءوسكم فاطعموا منه وتوكلوا على ربكم ، فرفعوا رءوسهم وأعينهم تفيض من الدمع حزنا على أنفسهم فطعموا منه وذلك عند غروب الشمس ، ثم جلسوا يتحدثون ويتدارسون ويذكر بعضهم بعضا ، فبينما هم كذلك إذ ضرب الله على آذانهم فى الكهف ، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد بباب الكهف ، فأصابه ما أصابهم . فلما كان من الغد تفقدهم دقيانوس والتمسهم فلم يجدهم ، فقال لبعض قومه : لقد ساءنى شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد كانوا يحسبون أنى غضبان عليهم بجهلهم ماجهلوا من أمرى ، فإنى لا أغضب عليهم إن تابوا وعبدوا آلهتى ، فقال عظماء المدينة : ما أنت بحقيق أن ترحم قوما مردة عصاة مقيمين على ظلمهم ومعصيتهم ، قد كنت أجلت لهم أجلا ولو شاءوا لرجعوا فى ذلك الأجل ولكنهم لم يتوبوا ، فلما قالوا له ذلك غضب غضبا شديدا ، ثم أرسل إلى آبائهم فسألهم عنهم وقال : أخبرونى عن أبنائكم المردة الذين عصونى ، فقالوا : أما نحن فلم نعصك ولا تقتلنا بقوم مردة وإنهم خالفونا وانطلقوا إلى جبل يسمى ناجلوس ، فلما قالوا له ذلك خلى سبيلهم وجعل لا يدرى ما يصنع بالفتية ، فألقى الله فى نفسه أن يأمر بالكهف فيسد عليهم ، وأراد الله أن يكرمهم ويجعلهم آية لأمة تستخلف بعدهم ، وأن يبين لهم (أن السَّاعَةَ آتيةٌ لا رَيْبَ فيها وأنَّ الله يَبْعَثُ مَنْ فى القُبُورِ) فأمر دقيانوس بالكهف أن يسد وقال : دعوهم كما هم فى الكهف يموتون جوعا وعطشا ، وليكن كهفهم الذى اختاروه قبرا لهم ، وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون ما يصنع بهم ، وقد توفى الله أرواحهم وفاة النوم

وكلبهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد بباب الكهف وقد غشيه ما غشيهم ، يقلبون ذات اليمين وذات الشمال .

قال ثم إن رجلين مؤمنين كانا فى بيت الملك دقيانوس يكتمان إيمانهما اسم أحدهما تندروس والآخر روباس ، ائتمرا أن يكتبا شأن الفتية وأنسابهم وخبرهم فى لوح من رصاص ويجعلاه فى تابوت من نحاس ويجعلا التابوت فى البنيان وقالا : لعل الله أن يطلع على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل يوم القيامة ، فيعلم من فتح عليهم خبرهم حين يقرأ هذا اللوح ، ففعلا ذلك وبنيا عليه . فبقى دقيانوس ما بقى ومات قومه ومات قرون بعده كثيرة ، وخلفت الملوك بعد الملوك ، ثم ملك أهل تلك البلاد رجل صالح يقال له تندوسيس ؛ فلما ملك بقى فى ملكه ثمانية وثمانين سنة ، فتحزّب الناس فى ملكه أحزابا ، منهم من يؤمن بالله العظيم ويعلم أن الساعة حق ، ومنهم من يكذب بها ، فكبر ذلك على الملك الصالح ، فشكا إلى الله وتضرع إليه وحزن حزنا شديدا لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق وأنهم يقولون : لاحياة إلا الحياة الدنيا ، وإنما تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد ، وأما الجسد فيأكله التراب ونسوا ما فى الكتاب ، فجعل الملك تندوسيس يرسل إلى من كان يظن فيه خيرا ، وإنهم كانوا أئمة الحق ، فجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا أن يحولوا الناس عن الحق وملة الحواريين ؛ فلما رأى الملك الصالح ذلك دخل بيته فأغلقه عليه ولبس مسحا وجعل تحته رمادا ، فدأب ليله ونهاره يتضرع إلى الله تعالى ويبكى مما يرى فيه الناس ويقول : أى رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية ، ثم إن الرحمن الرحيم جل وعز الذى يكره اختلاف العباد أراد أن يظهر لهم الفتية أصحاب الكهف ، ويبين للناس شأنهم فيجعلهم آية وحجة عليهم ليعلموا أن الساعة آتية لاريب فيها، وأنه يستجيب لعبده الصالح تندوسيس وأنه يتم نعمته عليه ولا ينزع منه ملكه ولا الإيمان الذى أعطاه ، وأن لايعبد إلا الله ولا يشرك به شيئا ، وأن يجمع من كان تبدّد من المؤمنين ، فألقى الله فى نفس رجل من أهل ذلك البلد الذى به الكهف ، وكان اسم ذلك الرجل أولياس أن يهدم ذلك البنيان الذى على فم الكهف ، فيبنى به حظيرة لغنمه ، فاستأجر عاملين ، فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان بها تلك الحظيرة حتى نزعا ما على فم الكهف وفتحا عليهم باب الكهف وحجبهم الله عن الناس ، فيزعمون أن أشجع من يريد أن ينظر إليهم يدخل من باب الكهف ثم يتقدم حتى يرى كلبهم نائما ؛ فلما نزعت الحجارة وفتح باب الكهف أذن الله تعالى ذو القدرة والعظمة والسلطان محيى الموتى للفتية أن يجلسوا بين ظهرانى الكهف ، فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة أنفسهم ، فسلم بعضهم على بعض حتى كأنما استيقظوا من ساعتهم التى كانوا يستيقظون منها إذا أصبحوا من ليلتهم التى يبيتون بها ؛ ثم إنهم قاموا إلى الصلاة فصلوا كالذى كانوا يفعلون ، لايرون فى وجوههم ولا أبشارهم

ولا ألوانهم شيئا ينكرونه ، إنما هم كهيئتهم حين رقدوا ، يرون أن ملكهم دقيانوس فى طلبهم . فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقاتهم : بين لنا ما الذى قال الناس فى شأننا عشية أمس عند هذا الجبار ، وهم يظنون أنهم رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون ، وقد خيل لهم أنهم قد ناموا كأطول ما كانوا ينامون فى الليلة التى أصبحوا بها حتى تساءلوا بينهم ، فقال بعضهم لبعض : (كَمْ لَبِثْتُمْ ؟قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ) وكل ذلك فى أنفسهم يسير ، فقال لهم تمليخا : التمستم فى المدينة لتذبحوا للطواغيت أو تقتلوا ، قالوا : فما شاء الله بعد ذلك فعل ، فقال مكسلمينا : يا إخوتاه اعلموا أنكم ملاقو الله فلا تكفروا بعد إيمانكم إذا دعاكم غدا ، ثم قالوا : يا تمليخا انطلق إلى المدينة فتسمع ما يقال عنا بها اليوم وتلطف ولا تشعرن بك أحدا ، وابتغ لنا طعاما وائتنا به ، وزدنا على الطعام الذى جئتنا به أمس فانه كان قليلا وقد أصبحنا جياعا ، ففعل تمليخا كما كان يفعل ، ووضع ثيابه وأخذ الثياب التى كان يتنكر فيها ، ثم أخذ وَرِقا من نفقتهم التى كانت معهم التى ضربت بطابع دقيانوس وكانت كخفاف الربع ، فانطلق تمليخا خارجا ؛ فلما مر بباب الكهف رأى حجارة منزوعة عن باب الكهف فتعجب منها ، ثم مر حتى أتى باب المدينة مستخفيا بعيدا عن الطريق تخوفا أن يراه أحد من أهلها فيعرفه ، فيذهب به إلى دقيانوس الجبار ، ولا يشعر العبد الصالح أن دقيانوس وأهله قد هلكوا قبل ذلك بثلاث مئة سنة ؛ فلما رأى تمليخا باب المدينة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة لأهل الإيمان ، فلما رآها عجب وجعل ينظر إليها مستخفيا ، فنظر يمينا وشمالا ، ثم إنه ترك ذلك الباب وتحول إلى باب آخر من أبوابها ، فنظر فرأى مثل ذلك ، فجعل يتخيل له أن المدينة ليست بالتى كان يعرف ، ورأى ناسا كثيرين محدثين لم يكونوا قبل ذلك ، فجعل يمشى ويتعجب ويخيل إليه أنه حيران ، ثم إنه رجع إلى الباب الذى أتى منه ، فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول : ليت شعرى ، أما هذه عشية أمس كان المسلمون يخفون هذه العلامة ويستخفون بها ، وأما اليوم فإنها ظاهرة لعلى حالم ، ثم يرى أنه لم ينم ، فأخذ كساءه وجعله على رأسه ، ثم دخل المدينة فجعل يمشى بين أظهر أهل سوقها ، وهو يسمع ناسا يحلفون باسم عيسى بن مريم ، فزاده فرَقا ورأى أنه حيران ، فقام مسندا ظهره إلى جدران المدينة وهو يقول فى نفسه : والله ما أدرى ما هذا ، أما عشية أمس فليس على الأرض أحد يذكر عيسى إلا قتل ، وأما الغداة فأسمع كل إنسان يذكر عيسى ولا يخشى ، ثم قال فى نفسه : لعل هذه المدينة ليست بالمدينة التى أعرفها ، فانى أسمع كلام أهلها ولا أعرف واحدا منهم ، والله ما أعلم مدينة بقرب مدينتنا ، فقام كالحيران لا يتوجه وجها ، ثم إنه لقى فتى من أهل المدينة ، فقال له : ما اسم هذه المدينة يا فتى ؟ فقال : أفسوس ، فقال فى نفسه : لعل بى مسا أو أمرا أذهب عقلى ، والله يحق لى أن أبادر

الخروج منها قبل أن يصيبنى شر فأهلك. هذا ما يحدث به تمليخا أصحابه حتى يبين لهم ما هم فيه ، ثم أفاق وقال : والله لو عجلت الخروج من المدينة قبل أن يفطن بى لكان أكيس لى ، فدنا من الذين يبيعون الطعام ، ثم أخرج الورق التى كانت معه فأعطاها رجلا منهم وقال : يا عبد الله بعنى بهذه طعاما ، فأخذها الرجل ونظر إلى ضرب الورِق ونقشها فتعجب منها ثم طرحها إلى رجل من أصحابه ، فنظر إليها ، ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل إلى رجل فيتعجبون منها ، ثم جعلوا يتشاورون ويقول بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد أصاب كنزا فى الأرض منذ زمان طويل ، فلما رآهم يتشاورون من أجله فرق فرقا شديدا ، فجعل يرتعد ويظن أنهم قد فطنوا به وعرفوه ، وأنهم إنما يريدون أن يذهبوا به إلى ملكهم دقيانوس . قال : وجعل أناس آخرون يأتونه ويتعرفونه ، فقال لهم وهو شديد الفرَق : انفصلوا قد أخذتم ورقى فأمسكتموها فلا حاجة لى فى طعامكم ، فقالوا : يا فتى من أنت وما شأنك ؟ والله لقد وجدت كنزا من كنوز الأولين ، فأنت تريد أن تخفيه منا انطلق معنا وأرنا مكانه وشاركنا فيه نخف عليك ما وجدت ، فإنك إن لم تفعل نأت السلطان ونسلمك إليه . فلما سمع قولهم عجب فى نفسه ثم قال : قد وقعت فى كل شىء كنت أحذر منه ، ثم قالوا : والله يا فتى إنك لاتستطيع أن تكتم ما وجدت ، ولا تظن فى نفسك أن سنخفى عليك ، فتحير فى نفسه وليس يدرى ما يقول لهم وما يرجع إليهم ؟ وفرق حتى مايخبرهم بشىء ؛ فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساءه وطوقوه فى عنقه ، ثم جعلوا يقودونه فى سكك المدينة مكبلا حتى سمع به من فيها ، وقيل أُخِذ رجل عنده كنز ، فاجتمع عليه أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم وجعلوا ينظرون إليه ويقولون : والله ما هذا الفتى من أهل هذه المدينة وما رأيناه فيها قط وما نعرفه ، فجعل تمليخا ما يدرى ما يقول لهم مع مايسمع منهم . فلما اجتمع عليه أهل المدينة فرِق ولم يتكلم ، ولو قال إنه من أهل المدينة لم يصدق ، وكان مستيقنا أن أباه وإخوته فى المدينة ، وأن حسبه فى أهل المدينة من عظماء أهلها وأنهم سيأتونه إذا سمعوا ، وقد استيقن أنه فى عشية أمس كان يعرف كثيرا من أهلها ، وأنه لايعرف اليوم من أهلها أحدا ؛ فبينما هو قائم كالحيران ينتظر متى يأتيه بعض أهله فيخلصه من أيديهم ، فبينما هو كذلك إذ قد اختطفوه وانطلقوا به إلى رئيسى المدينة ومدبريها وهما رجلان صالحان اسم أحدهما أرموس واسم الآخر أسطيوس ؛ فلما انطلقوا به ظن تمليخا أنهم انطلقوا به إلى دقيانوس الملك ، فجعل يلتفت يمينا وشمالا ، وجعل الناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون والحيران ، فجعل تمليخا يبكى ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم إله السموات والأرض أفرغ علىّ اليوم صبرا ، وأولج معى روحا منك تؤيدنى به عند هذا الجبار ، وجعل يبكى ويقول فى نفسه : فرق بينى وبين إخوتى يا ليتهم يعلمون ما لقيت فيأتونى فنقوم جميعا بين يدى هذا الجبار فإنا قد توافقنا لنكوننّ معا

لانكفر بالله ولا نفترق فى موت ولاحياة أبدا ، يا ليت شعرى ماهو فاعل بى ، هل هو قاتلى أم لا ؟ هذا ما حدث به تمليخا أصحابه عن نفسه حين رجع إليهم . فانتهى به إلى الرجلين الصالحين أرموس وأسطيوس . فلما علم تمليخا أنه لم يذهب إلى دقيانوس أفاق وسكن ما به فأخذ أرموس واسطيوس الورق ونظرا إليها وعجبا منها ، ثم قال أحدهما : أين الكنز الذى وجدت يا فتى ؟ فقال : ما وجدت كنزا ، وإنما هذه الورق ورق آبائى ونقش هذه المدينة وضربها ، ولكن والله ما أدرى ما شأنى وما أدرى ما أقول لكم ؟ فقال أحدهما : من أنت ؟ فقال له : تمليخا ، قال : فن أبوك ومن يعرفك بها ؟ فأنبأهم باسم أبيه ، فلم يجدوا أحدا يعرفه ، فقال له أحدهما : أنت رجل كذاب لاتنبئنا بالحق ، فلم يدر تمليخا ما يقول غير أنه نكس بصره إلى الأرض ، فقال بعض من حضر : هذا رجل مجنون ، وقال بعضهم : ليس بمجنون ولكنه يحمق نفسه عمدا لكى ينفلت منكم ، فقام أحدهما ونظر إليه نظرا شديدا وقال له : أتظن أنا نرسلك ونصدقك بأن هذا مال أبيك ، ولضرب هذه الورق ونقشها أكثر من ثلاث مئة سنة وأنت غلام شاب تظن أن تأفكنا وتسخر بنا ونحن شُمْط كما ترى وحولك سراة هذه المدينة وولاة أمرها وخزائن هذه البلدة بأيدينا ، وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار ؟ لأعذبنك عذابا شديدا ، ثم أوثقنك حتى تعرفنى هذا الكنز الذى وجدت ، فلما قال له ذلك قال له تمليخا : أنبئونى عن شىء أسألكم عنه ، فإن فعلتم صدقتكم عما عندى ، فقالوا سل لا نكتمك شيئا ، قال ما فعل بالملك دقيانوس ؟ قالوا : ليس نعرف اليوم على وجه الأرض ملكا يسمى دقيانوس ، ولم يكن إلا ملكا قد هلك منذ دهر طويل وهلك بعده قرون كثيرة ، فقال له تمليخا : فوالله ما أجد من الناس أحدا يصدقنى على ما أقول ، لقد كنا فتية وإن الملك دقيانوس أكرهنا على عبادة الأصنام والذبح للطواغيت ، فهربنا منه عشية أمس فبتنا ، فلما انتهينا خرجت لأشترى لأصحابى طعاما وأتجسس الأخبار فإذا أنا كما ترون ، فانطلقوا معى إلى الكهف الذى فى جبل ناجلوس أريكم أصحابى ، فلما سمع أرموس ما يقول تمليخا قال : ياقوم لعل هذه آية من آيات الله جعلها لكم عبرة على يد هذا الفتى ، فانطلقوا بنا معه يرينا أصحابه ، فانطلق معه أرموس وأسطيوس وانطلق معهم أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكهف لينظروا إليهم . وكان الفتية أصحاب الكهف ظنوا أن تمليخا قد احتبس عنهم لأنه لم يأتهم بطعامهم وشرابهم فى القدر الذى كان يأتى فيه ، فظنوا أنه قد أخذ وذهب به إلى دقيانوس . فبينما هم يظنون ذلك ويتخوفون إذ سمعوا الأصوات وجلبة الخيل مصعدة عندهم ، فظنوا أنهم رسل الجبار وأنه بعث إليهم ليؤتى بهم ، فقاموا حين سمعوا ذلك إلى الصلاة وسلم بعضهم على بعض ، ثم قالوا : انطلقوا بنا نأت أخانا تمليخا فإنه الآن بين يدى دقيانوس ينتظر متى نأتيه ، فبينما هما يقولون ذلك وهم جلوس بين ظهرانى الكهف لم يشعروا إلا وأرموس وأصحابه وقوف على باب الكهف

وقد سبقهم تمليخا ، فدخل عليهم وهو يبكى ؛ فلما رأوه يبكى بكوا معه ، ثم إنهم سألوه عن شأنه فأخبرهم بخبره وقص عليهم الحديث كله ، فعرفوا عند ذلك أنهم كانوا نياما بأمر الله ذلك الزمان كله ، وإنما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقا للبعث، وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها ، ثم دخل على أثر تمليخا أرموس فرأى تابوتا من نحاس مختوما بخاتم من فضة فقام بباب الكهف ثم دعا رجالا من عظماء أهل المدينة ، ففتحوا التابوت فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوبا فيهما : إن مكسلمينا وتمليخا ومرطونس وكشطونش ودايسوس وتكريوس وبطيونس كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس الجبار مخافة أن يفتنهم ، فدخلوا هذا الكهف ، فلما علم مكانهم ملكهم أمر بالكهف فسدّ عليهم بالحجارة ، وإنا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلم من بعدهم إن عثر عليهم ، فلما قرءوا عجبوا وحمدوا الله تعالى الذى أراهم آية البعث فيهم ، ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه ، ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوسا وجوههم مشرقة لم تبل ثيابهم ، فخرّ أرموس وأصحابه سجودا وحمدوا الله الذى أراهم آية من آياته ، ثم كلم بعضهم بعضا وأنبأهم الفتية عن الذى لقوا من ملكهم دقيانوس ، ثم إن أرموس وأصحابه بعثوا إلى ملكهم الصالح تندوسيس فاعجل لعلك تنظر آية من آيات الله تعالى قد أظهرها الله فى ملكك ، فاعجل إلى فتية بعثهم الله ، وقد كان توفاهم منذ أكثر من ثلاث مئة سنة ؛ فلما أتاه الخبر قام من السدة التى كان عليها ، وقال : أحمدك اللهم رب السموات والأرض ، تطولت علىّ ورحمتنى برحمتك ، فلم تطفئ النور الذى جعلته لآبائى وللعبد الصالح فسطيطوس الملك . فلما نبأ به أهل المدينة ركبوا إليه وساروا معه حتى أتوا الكهف . فلما رأى الفتية تندوسيس الملك ومن معه فرحوا به وخرّوا سجدا لله على وجوههم ، وقام تندوسيس قدامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الأرض يسبحون الله ويحمدونه . ثم إن الفتية قالت لتندوسيس : نستودعك الله ونقرأ عليك السلام وحفظك الله وحفظ ملكك وأعاذك من شر الجن والإنس ؛ فبينما الملك قائم إذ رجعوا إلى مضاجعهم فناموا ، وتوفى الله أرواحهم وقام الملك إليهم فجعل ثيابه عليهم ، وأمر أن يجعل لكل رجل منهم تابوت من ذهب . فلما أمسوا أتوه فى المنام فقالوا : إنا لم نخلق من ذهب ولا من فضة ، ولكنا خلقنا من تراب فإلى التراب نصير ، فاتركنا كما كنا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله منه ، فأمر الملك حينئذ بتوابيت من ساج فجعلوا فيها وحجبهم الله حين خرجوا عندهم بالرعب ، فلم يقدر أحد أن يدخل عليهم ، وأمر الملك فجعل على باب الكهف مسجدا يصلى فيه ، وجعل لهم عيدا عظيما ، وأمر أن يؤتى كل سنة . وقيل إنهم لما أتوا باب الكهف قال تمليخا : دعونى أدخل على أصحابى فأبشرهم ، فدخل عليهم وقبض الله روحه وأرواحهم وعمى عليهم مكانهم فلم يهتدوا إليه كما ذكر على بن أبى طالب كرم الله وجهه . فهذا خبر أصحاب الكهف .

ويروى « أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل ربه أن يراهم ، فقال : : إنك لن تراهم فى دار الدنيا ، ولكن ابعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوهم رسالتك ويدعوهم إلى الإيمان بك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : كَيْفَ أَبْعَثُهُمْ ؟ قال : ابسط كساءك وأجلس على طرف من أطرافه أبا بكر ، وعلى الثانى عمر ، وعلى الثالث عليّ ابن أبى طالب كرم الله وجهه ، وعلى الرابع أبا ذر ، ثم ادع الريح الرخاء المسخرة لسليمان ابن داود، فان الله أمرها أن تطيعك ، ففعل النبي عليه الصلاة والسلام ما أمره به، فحملتهم الريح [١] حتى انطلقت بهم إلى باب الكهف ؛ فلما دنوا من باب الكهف قلعوا منه حجرا ، فقام الكلب حين أبصر الضوء وهرّ وحمل عليهم ؛ فلما رآهم حرك رأسه وبصبص بذنبه وأومأ برأسه أن ادخلوا الكهف ، فدخلوا وقالوا : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد الله عليهم أرواحهم ، فقاموا بأجمعهم وقالوا : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فقالوا : إن نبى الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليكم السلام ، فقالوا : وعلى محمد رسول الله السلام ما دامت السموات والأرض ، وعليكم بما بلغتم ، ثم إنهم جلسوا بأجمعهم يتحدثون، فآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وقبلوا دين الإسلام وقالوا : أقرئوا محمدا صلى الله عليه وسلم منا السلام ؛ ثم إنهم أخذوا مضاجعهم وصاروا إلى رقدتهم إلى آخر الزمان عند خروج المهدى، فيقال إن المهدى يسلم عليهم فيحييهم الله تعالى له، ثم إنهم يرجعون إلى رقدتهم فلا يقومون إلى يوم القيامة ؛ ثم جلس كل واحد منهم على مكانه وحملتهم الريح الرخاء ، فهبط جبريل عليه السلام فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بما كان منهم ؛ فلما أتوا النبي صلى الله عليه وسلم قال : كَيْفَ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَمَا الَّذِى أَجَابُوكُمْ ؟ فقالوا : يا رسول الله دخلنا عليهم وسلمنا عليهم ، فقاموا فردوا السلام بأجمعهم ، وبلغناهم رسالتك فأجابوا وأنابوا ، وشهدوا أنك رسول الله حقا ، وحمدوا الله على ما أكرمهم بخروجك وتوجيه رسلك إليهم ، وهم يقرءون عليك السلام ، فقال عليه الصلاة والسلام : اللَّهُمَّ لاتُفَرِّقْ بَيْنِى وَبَيْنَ أَصْهَارِى وأَحبَّائى واغْفِرْ لِمَنْ أَحَبَّنِى وأَحَبَّ أَهْلَ بَيْتِى وأَحَبَّ أُمَّتِى وأَحَبَّ أَصْحَابى » .

مجلس : فى ذكر جرجيس عليه السلام

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الضبيّ بإسناده عن وهب بن منبه اليمانى قال : كان فى الموصل ملك يقال له زادانه ، وكان قد ملك الشام كلها ودان له أهلها ، وكان جبارا

(١) قوله فحملتهم الريح الخ : هذا معارض لقوله تعالى (ربّ هب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى) فليتنبه .

عاتيا ، وكان يعبد صنما يقال له أفلون ، وكان جرجيس عبدا صالحا من أهل فلسطين قد أدرك بقايا من حواريي عيسى بن مريم عليه السلام ، وكان تاجرا كثير المال عظيم الصدقة ، وكان لايأمن ولاية المشركين عليه ، مخافة أن يفتنوه عن دينه ، فخرج يوما يريد ملك الموصل ومعه مال يريد أن يهديه إليه لئلا يجعل لأحد من تلك الملوك سلطانا عليه دونه ، فجاءه وقد برز فى مجلس له ، وأمر بصنمه أفلون فنصب والناس يعرضون عليه ، وهو يعذب من خالفه بأنواع العذاب ، وقد أوقد نارا عظيمة ، فمن لم يسجد لأفلون ألقى فى تلك النار ؛ فلما رأى جرجيس عليه السلام ما يصنع فزع منه وهاله وأعظمه ، وحدَّث نفسه بجهاده ، وألقى الله فى نفسه بغضه ومجاهدته ، فعمد إلى المال الذى أراد أن يهديه له ، فقسمه فى أهل ملته حتى لم يبق منه شىء ، وكره أن يجاهده بالمال وأحب أن يلى ذلك بنفسه ، فأقبل عليه وقال له : اعلم أنك عبد مملوك لاتملك لنفسك شيئا ولا لغيرك ، وأن لك ربا هو الذى يملكك وغيرك ، وهو الذى خلقك ورزقك ويحييك ويميتك ويضرك وينفعك ، وإذا قال لشىء كن يكون ، وإنك إنما عمدت إلى خلق من خلقه أصم لايسمع ولا يبصر ولا ينطق ولا يغنى عنك شيئا من الله ، فزينته بالذهب والفضة وجعلته فتنة للناس ثم عبدته من دون الله ، فكان من جواب الملك له أن سأله عن حاله وأمره ومن هو ومن أين هو ؟ فقال جرجيس : أنا عبد الله وابن عبده وابن أمته ، أذل عباده وأفقرهم إليه ، من التراب خلقت وإليه أصير ، فقال له الملك : لو كان ربك الذى تزعم كما تقول لرؤى أثره عليك كما رؤى أثرى على من حولى ومن هو فى طاعتى ، فأجابه جرجيس بتحميد الله وتعظيم أمره ، ثم قال له : أتعدل أفلون الأصم الأبكم الذى لايغنى عنك شيئا برب العالمين الذى قامت السموات والأرض بأمره ؟ أم تعدل طرقليا وما نال بولايتك فانه عظيم قومك بما نال إلياس من ولاية الله تعالى ، فإن إلياس كان فى بدء أمره آدميا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق فأكرمه الله تعالى حتى أنبت له الريش وكساه النور فصار إنسيا ملكيا سماويا أرضيا يطير مع الملائكة ؟ أم تعدل مخلطيس وما نال بولايتك فإنه عظيم قومك بالمسيح بن مريم ، وما نال بولاية الله تعالى ، فإن الله تعالى فضله على رجال العالمين ، وجعله وأمه آية للمعتبرين ؟ أم تعدل هذه الروح الطيبة التى اختارها الله بكلمته وفضلها على إمائه وما نالت بولاية الله بأربيل وما نالت بولايتك ، فإنها كانت من شيعتك وعلى ملتك فأسلمها الله مع عظيم ملكها حتى اقتحمت عليها الكلاب فى بيتها ، فانتهشت لحمها وولغت فى دمها وقطعت الضباع أوصالها فقال له الملك : إنك لتحدثنا بشىء ليس لنا به علم ، فأتنا بالرجلين اللذين ذكرتهما حتى أنظر إليهما ، فإنى أنكر أن يكون هذا من أمر البشر ، فقال له جرجيس : إنما جاءك الإنكار من قِبَل الغرة بالله تعالى ، وأما الرجلان فلن تراهما ولن يرياك إلا أن تعمل بعملهما فتنزل منازلهما ، فقال له الملك : أما نحن فقد أعذرنا إليك وتبين لنا كذبك ، لأنك فخرت

بأمور عجزت عنها ولم تأت بتصديقها . ثم إن الملك خير جرجيس بين العذاب وبين السجود لأفلون ، فقال جرجيس : إن كان أفلون هو الذى رفع السماء ووضع الأرض فقد أصبت ونصحت لى ، وإلا فاخسأ أيها النجس الملعون . فلما سمعها الملك غضب وشتمه وسبّ إلهه ، وأمر بخشبة فنصبت له وجعل عليها أمشاط الحديد فخدش بها جسده حتى تقطع لحمه وجلده وعروقه ونضح عليه فى خلال ذلك بالخلّ والخردل ، فحفظه الله من ذلك الألم والهلاك ؛ فلما رأى الملك أن ذلك لم يقتله أمر بستة مسامير من حديد ، فأحميت حتى جعلت نارا ، فسمر بها رأسه حتى سال دماغه ، فحفظ من الألم والهلاك . فلما رأى ذلك أنه لم يقتله أمر بحوض من نحاس فأوقد عليه حتى إذا جعله نارا أمر به فأدخل فى جوفه وأطبق عليه ، فلم يزل فيه حتى برد حره ؛ فلما رأى ذلك لم يقتله دعا به ، فقال له : ياجرجيس أما تجد ألم هذا العذاب الذى تعذب به ؟ فقال : إن ربى الذى أخبرتك به حمل العذاب عنى وصبرنى لأحتج عليك ؛ فلما قال له ذلك أيقن بالشر وخافه على نفسه وملكه ، وأجمع رأيه على أن يخلده فى السجن ، فقال له الملأ من قومه : إنك إن تركته طليقا فى السجن يكلم الناس أوشك أن يميل بهم عليك ، ولكن مر له بعذاب فى السجن فيشغله عن كلام الناس ، فأمر به فبطح على وجهه ثم أوتده فى يديه ورجليه أربعة أوتاد من حديد فى كل ركن منها وتد ، وأمر بأسطوانة من رخام فوضعت على ظهره ، ثم إنه حمل على تلك الأسطوانة ثمانية عشر رجلا ، فظل يومه ذلك موتدا تحت الحجر ؛ فلما أدركه الليل أرسل الله تعالى إليه ملكا ، وذلك أول ما أيده الله تعالى بالملائكة وأول ما جاءه الوحى ، فقلع عنه الحجر ونزع الأوتاد من يديه ورجليه وأطعمه وسقاه وبشره بالنصر ؛ فلما أصبح أخرجه من السجن ثم قال له : الحق بعدوك فجاهده فى الله حق جهاده ، فإن الله يقول لك اصبر وأبشر فانى قد ابتليتك بعدوى هذا سبع سنين يعذبك ويقتلك فيهن أربع مرات ، وفى كل ذلك أردّ إليك روحك ، فإذا كان فى القتلة الرابعة نقلت روحك وأوفيتك أجرك . فلم يشعروا إلا وقد وقف جرجيس على رءوسهم يدعوهم إلى الله تعالى ، فقال له الملك : يا جرجيس من أخرجك من السجن ؟ فقال : أخرجنى الذى سلطانه فوق سلطانك : فلما قال له ذلك ملئ غيظا ودعا بأصناف العذاب حتى لم يخل منها شيئا ؛ فلما رآها جرجيس أوجس فى نفسه خيفة وجزعا ، ثم أقبل على نفسه يعاتبها بأعلى صوته وهم يسمعون . فلما فرغ من عتابه قال لهم الملك : مدوه بين خشبتين ، فمدوه ، ثم إنهم وضعوا سيفا على مفرق رأسه فنشروه حتى سقط بين رجليه وصار جزءين ، ثم عمدوا إلى أجزائه فقطعوها قطعا ودعوا له سبعة أسود ضارية كانت له فى جب ، وكانت صنفا من أصناف عذابه فرموا بجسده إليها ، فلما هوى نحوها أمرها الله عز وجل فخضعت برءوسها وأعناقها وقامت على براثنها تقيه الألم ، فظل يومه ذلك ميتا ، وكانت أول موتة ماتها . فلما أدركه

الليل جمع الله له جسده الذى قطعوه وضمّ بعضه إلى بعض حتى سواه ، ثم ردّ الله إليه روحه ، وأرسل الله له ملكا فأخرجه من قعر الجب فأطعمه وسقاه وبشره بالنصر ؛ فلما أصبحوا قال له الملك : ياجرجيس ، قال لبيك ، قال له : اعلم أن القدرة التى خلق الله بها آدم هى التى أخرجتك من قعر الجب ، اخرج فالحق بعدوك وجاهده فى الله حق جهاده ومت موت الصابرين ، فلم يشعر الملك وأصحابه إلا وقد أقبل جرجيس وهم عكوف على عيد لهم قد صنعوه فرحا بموت جرجيس ، فلما نظروا إلى جرجيس مقبلا . قال الملك : ما أشبه هذا الرجل بجرجيس ، فقالوا : كأنه هو . فقال الملك : ليس هو حقا ألا ترون إلى سكون ريحه وقلة هيبته ، فقال جرجيس : بل هو أنا فبئس القوم أنتم قتلتم ومثلتم ، فأحيانى الله تعالى بقدرته ، فهلموا إلى الرب العظيم الذى أراكم ما أراكم ؛ فلما قال لهم ذلك أقبل بعضهم إلى بعض وقالوا : ساحر سحر أعينكم ،فجمعوا له من كان ببلاد الملك من السحرة ، فلما جاء السحرة قال الملك لكبيرهم : اعرض علىّ من كبير سحرك ما يسرّ عينى ، فقال : ادع لى بثور من البقر ، فلما أتى به نفث فى إحدى أذنيه فانشقت باثنتين ، ثم نفخ فى الأذن الأخرى فإذا هو ثوران ، ثم دعا ببذر فحرث وبذر ونبت الزرع وحصد ثم داس وذرّى وطحن وعجن وخبز ، كل ذلك فى ساعة واحدة وهم يرون ، فقال له الملك : هل تقدر أن تمسخ لى جرجيس دابة ، فقال الساحر : أى دابة تطلب أمسخه لك كلبا ؟ فقال الساحر ادع لى بقدح من ماء ؛ فلما أتى بالقدح نفث فيه الساحر ، ثم قال للملك اعزم عليه أن يشربه ، فشربه جرجيس حتى أتى على آخره ، فلما فرغ منه قال له الساحر : ماذا تجد ؟ قال : ما أجد إلا خيرا كنت قد عطشت فعطف الله لى بهذا الشراب وقوانى به عليكم ، فلما قال ذلك أقبل الساحر على الملك وقال له : اعلم أيها الملك أنك لو كنت تقايس رجلا مثلك إذا لكنت غلبته ، ولكنك تقايس جبار السموات والأرض وهو الملك الذى لايرام . وقد كانت امرأة مسكينة من أهل الشام قد سمعت بجرجيس وما يصنع من الأعاجيب ، فأتته وهو فى أشد ما فيه من البلاء ، فقالت له : يا جرجيس أنا امرأة مسكينة ولم يكن لى مال إلا ثوران كنت أحرث عليهما فماتا ، فجئتك لترحمنى وتدعو الله أن يحيى لى ثورىّ ، فلما سمع كلامها ذرفت عيناه ، ثم دعا الله أن يحيى لها ثوريها ، ثم إنه أعطاها عصا وقال لها : اذهبى إلى ثوريك فاقرعيهما بهذه العصا وقولى لهما احييا بإذن الله تعالى ، فقالت له : يا جرجيس إن ثورىّ قد ماتا منذ سبعة أيام ومزقهما السباع ، وبينى وبينهما أيام ، فقال لها لو لم تجدى منهما إلا شيئا يسيرا وقرعتيه بالعصا فإنهما يقومان بإذن الله تعالى ، فانطلقت المرأة حتى أتت مصرعهما ، وكان أول شىء بدا لها من ثوريها ذقن أحدهما وشعر أذنى الآخر ، فجمعت أحدهما إلى الآخر وقرعتهما بالعصا وقالت كما أمرها ، فقام الثوران بإذن الله تعالى وعملت عليهما حتى جاءهم الخبر بذلك . فلما قال الساحر للملك ما قال ،

قال رجل من أصحاب الملك وكان أعظمهم عند الملك إنكم قد وضعتم أمر هذا الرجل على السحر ، وإنكم قد عذبتموه فلم يصل إليه عذابكم ، وقتلتموه فلم يمت ، فهل رأيتم ساحرا يدرأ عن نفسه الموت أو أحيا ميتا قط ؟ فقالوا له : إن كلامك لكلام رجل قد صبأ إليه فلعله استهواك إليه ، فقال : آمنت بالله وأشهد أنى برىء مما تعتقدون ، فقام إليه الملك وأصحابه بالخناجر فقتلوه . فلما رأى القوم ذلك اتبع جرجيس أربعة آلاف آمنوا ، فعمد إليهم الملك ، فلم يزل يعذبهم بألوان العذاب حتى أفناهم . فلما فرغ منهم قال لجرجيس : هلا دعوت ربك فأحيا لك أصحابك هؤلاء الذين قتلوا بجريرتك ، فقال جرجيس : ما خلى بينى وبينهم حتى حانت آجالهم ، فقال له رجل من عظمائهم يقال له مخليطس : إنك زعمت يا جرجيس أن إلهك هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وإنى سائلك أمرا إن فعلته آمنت بك وصدقتك وكفيتك ، نحن قوم حولنا أربعة عشر كرسيا ، وهذه مائدة بيننا عليها أقداح وصحاف من أشجار شتى ، فادع ربك ينشىء هذه الكراسىّ والأوانى كما بدأها أول مرة ، تعود خضراء فيعرف كل عود منها أنبوبته وورقه وزهره ، فقال له جرجيس : لقد سألت أمرا عزيزا علىّ وعليك وإنه على الله لهين ، فدعا الله عز وجل ، فما برحوا من مكانهم حتى اخضرت تلك الكراسى والأوانى كلها ، وساخت عروقها وتلبست باللحم وتشعبت وأورقت وأزهرت وأثمرت ، فلما نظروا إلى ذلك انتدبَ لهم مخليطسُ الذى تمنى عليه ما تمنى ، فقال : أنا أعذب لكم هذا الساحر عذابا يبطل به كيده ، ثم إنه عمد إلى نحاس فصنع منه صورة ثور له جوف واسع ، ثم حشاها نفطا ورصاصا وكبريتا وزرنيخا ، ثم أدخل جرجيس مع الحشو فى جوفها ، ثم أوقد على الصورة حتى التهب وذاب كلّ شىء فيها ، واختلط جرجيس فى جوفها . فلما مات جرجيس أرسل الله ريحا عاصفا فملأت السماء سحابا أسود فيه رعد وبرق وصواعق ، وأرسل الله إعصارا ملأت بلادهم عجاجا وقتاما حتى اسودّ ما بين السماء والأرض ، فمكثوا أياما متحيرين فى تلك الظلمة لايفصلون بين الليل والنهار ، وأرسل الله ميكائيل فاحتمل الصورة التى فيها جرجيس حتى إذا أقلها ضرب بها الأرض ، ففزع من روعها أهل الشام ، فخرجوا لوجوههم صاعقين ،وانكسرت الصورة فخرج منها جرجيس حيا . فلما وقف يكلمهم انكشفت الظلمة وأسفر ما بين السماء والأرض ورجعت إليهم أنفسهم ، فقال له رجل يقال له طوفليا : لا ندرى ياجرجيس إن كنت أنت تصنع هذه الأعاجيب أم ربك ؟ فإن كان ربك هو الذى يصنع فادعه يحيى لنا موتانا التى فى هذه القبور ، فإن فيها أمواتا منهم من نعرفه ومنهم من لا نعرفه . فقال له جرجيس : لقد علمت أن ما يصفح الله عنكم هذا الصفح ويريكم هذه الأعاجيب إلا لتكون عليكم حجة فتستوجبوا بها غضبه ، ثم إنه أمر بالقبور فنبشت وهى عظام رفات ، وأقبل جرجيس على الدعاء ، فما برحوا من مكانهم حتى

نظروا إلى سبعة عشر إنسانا، تسعة رجال، وخمس نسوة، وثلاثة صبية، وإذا فيهم شيخ كبير فقال له جرجيس : يا شيخ ما اسمك ؟ فقال : يا جرجيس اسمى توبيل ، قال : متى مت ؟ قال : زمان كذا وكذا ، فحسبوا فإذا هو قد مات منذ أربع مئة عام ؛ فلما نظر الملك وأصحابه إلى ما فعل قالوا : ما بقى من أصناف العذاب شىء إلا وقد عذبتموه به إلا الجوع والعطش فعذبوه بهما ، فعمدوا إلى بيت عجوز كبيرة فقيرة كان لها ابن أعمى أصم أبكم مقعد ، فحصروه فى بيتها ، وكانوا لايوصلون له من عند أحد طعاما ولا شرابا ؛ فلما بلغ به الجوع قال للعجوز : هل عندك من طعام أوشراب ؟ فقالت لا والذى يُحْلَف به ماعهدنا الطعام منذ كذا وكذا، وسأخرج ألتمس لك شيئا، فقال لها جرجيس: هل تعرفين الله تعالى؟ قالت نعم ، قال إياه تعبدين ؟ قالت لا ، فدعاها إلى الله فصدقته ، ثم إنها انطلقت تطلب له شيئا ، وكان فى بيتها دعامة من خشب يابسة تحمل خشب البيت ، فأقبل على الدعاء فاخضرّت تلك الدعامة وأنبتت له كل فاكهة تؤكل أو تعرَف حتى كان مما أنبتت اللوبيا واللياز وهو مثل البردى يكون بالشام ، وظهر للدعامة فرع من فوق البيت أظله من فوقه ، فأقبلت العجوز وهو فيما شاء يأكل رغدا ؛ فلما رأت الذى حدث فى بيتها من بعدها قالت : آمنت بالذى أطعمك فى بيت الجوع ، فادع هذا الرب العظيم أن يشفى ابنى ، فقال لها : أدنيه منى ، فأدنته فبصق فى عينيه فأبصر ، ونفث فى أذنيه فسمع ، فقالت له : أطلق لسانه ورجليه رحمك الله ، فقال لها : أخريه فإن له يوما عظيما . وكان الملك قد خرج يوما يسير فى مدينته إذ وقع بصره على الشجرة ، فقال : إنى أرى شجرة بمكان ما كنت أعرفها به ، فقالوا له : إن تلك الشجرة نبتت لذلك الساحر الذى أردت أن تعذبه بالجوع ، فهو فيما يشاء يأكل وقد شبع منها وأشبع العجوز الكبيرة الفقيرة وشفى لها ابنها، فأمر الملك بالبيت فهُدم وبالشجرة أن تقطع ؛ فلما هموا بقطعها أيبس الله الشجرة وردها كما كانت أول مرة فتركوها ، وأمر بجرجيس فبطح على وجهه وأوتد له أربعة أوتاد ، وأمر بعجل فأوقر أسطوانا ، وجعل فى أسفل العجل خناجر وشفارا ، ثم أمر بأربعين ثورا فنهضت بالعجل نهضة واحدة وجرجيس تحتها ، فانقطع ثلاث قطع ، فأمر بقطعة أن تحرق فألقيت فى النار حتى عادت رمادا ، فبعث بذلك الرماد وبعث معه رجالا فذرّوه فى البحر ، فما برحوا عن مكانهم حتى سمعوا صوتا من السماء : يابحر ، إن الله يأمرك أن تحفظ ما فيك من هذا الجسد الطيب ، فانى أريد أن أعيده كما كان،ثم أرسل الله الرياح فأخرجته من البحر ثم جمعته حتى صار الرماد صُبْرة واحدة كهيئته قبل أن يذرّى ، وخرج منه جرجيس مغبرا ينفض رأسه ، فرجعوا ورجع جرجيس ، وأخبروا الملك خبر الصوت الذى سمعوه والريح الذى جمعته ؛ فقال له الملك : ياجرجيس هل لك فيما هو خير لى ولك مما نحن فيه ، ولولا أن يقول الناس إنك غلبتنى وقهرتنى لا تبعتك وآمنت بك ، ولكن اسجد لأفلون سجدة

واحدة ، واذبح له شاة واحدة ، ثم إنى أفعل لك ما يسرك ، فقال له نعم مهما شئت فعلت فأدخلنى على صنمك ، ففرح الملك بقوله وقام إليه وقبل يديه ورجليه ورأسه وقال له : أعزم عليك أن تظل هذا اليوم ولا تبيت هذه الليلة إلا فى بيتى وعلى فراشى وفى كرامتى حتى تستريح ويذهب عنك وصب العذاب ويرى الناس كرامتك علىّ فأخلى له بيته ، فظل فيه جرجيس حتى إذا أدركه الليل قام يصلى ويقرأ الزبور ، وكان أحسن الناس صوتا ؛ فلما سمعته امرأة الملك استجابت له ، فلم يشعر إلا وهى خلفه تبكى ، فدعاها جرجيس إلى الإيمان ، فآمنت به وأمرها فكتمت إيمانها ؛ فلما أن أصبح الصبح غدا به إلى بيت الأصنام ليسجد لها ، فلما سمعت العجوز بذلك خرجت تحمل ابنها على عاتقها توبخ جرجيس والناس مشتغلون عنها ؛ فلما دخل جرجيس بيت الأصنام ودخل الناس معه نظروا وإذا بالعجوز وابنها على عاتقها أقرب الناس إليه مقاما ؛ فلما رآها جرجيس دعا ابن العجوز باسمه فنطق وأجابه ولم يكن يتكلم قبل ذلك قط ، ثم اقتحم عن عاتق أمه يمشى على رجليه ولم يكن يطأ الأرض قبل ذلك بقدميه قط ؛ فلما وقف بين يدى جرجيس قال له : اذهب فادع لى هذه الأصنام ، وهى يومئذ سبعون صنما على منابر من ذهب وهم يعبدونها ويعبدون معها الشمس والقمر ، فقال له الغلام : كيف أدعو الأصنام ؟ فقال له : قل لها إن جرجيس يسألك ويعزم عليك بالذى خلقك إلا ما أجبتيه ، فلما قال لها الغلام ذلك أقبلت تتدحرج إلى جرجيس ، فلما انتهت إليه ركض الأرض برجله فخسف بها وبمنابرها ، وخرج إبليس لعنه الله من جوف صنم منها هاربا فرَقا من الخسف ؛ فلما مر بجرجيس أخذ بناصيته فخضع له ، وكلمه جرجيس فقال له جرجيس : أخبرنى أيها الروح النجسة والخلق الملعون ما الذى يحملك على أن تهلك نفسك وتهلك الناس معك وأنت تعلم أنك وجندك تصيرون إلى جهنم ؟ فقال له إبليس لعنه الله : لو خيرت بين ما أشرقت عليه الشمس وبين ما أظلم عليه الليل ، وبين هلكة واحد من بنى آدم وضلالته لاخترت هلكته على ذلك كله ، وإنه ليقع لى من الشهوة واللذة فى ذلك مثل جميع ما يتلذذ به جميع الخلق ، ألم تعلم ياجرجيس أن الله تعالى أسجد لأبيك آدم جميع الملائكة فسجدوا له كلهم وامتنعت من السجود وقلت أنا خير منه . قال : فلما قال هذا خلى سبيله جرجيس ، فما دخل إبليس من يومئذ فى جوف صنم ولا يدخله بعدها فيما يذكرون أبدا . فقال الملك : يا جرجيس غررتنى وخدعتنى وأهلكت آلهتى ، فقال جرجيس : إنما فعلت ذلك لتعتبر ، ولتعلم أنها لو كانت آلهة لامتنعت منى ، فكيف ثقتك ويلك بآلهة لم تمنع نفسها منى ، وإنما أنا مخلوق ضعيف لاأملك إلا ما ملكنى ربى ؛ فلما قال هذا جرجيس أقبلت امرأة الملك وكلمتهم وكشفت لهم عن إيمانها ، وعددت لهم أفعال جرجيس والعبر التى أراهم الله تعالى إياها ، وقالت لهم : ما تنتظرون من هذا الرجل إلا دعوة فيخسف بكم الأرض كما خسف بأصنامكم ، الله الله أيها القوم فى أنفسكم ، فقال لها الملك : ويحك يا أسكندرة ما أسرع ما أضلك هذا الساحر

فى ليلة واحدة وأنا أقاسيه منذ سبع سنين فلم يظفر منى بشئ؟ فقالت له : أما رأيت الله كيف يظفره بك ويسلطه عليك فيكون له الفلاح والحجة عليك فى كل موطن؟ فلما سمع كلامها أمر بها الملك عند ذلك فحملت على خشبة جرجيس التى كان علق عليها وجعلت عليها الأمشاط التى جعلت على جرجيس ، فلما آلمها قالت : ادع ربك يا جرجيس فيخفف عنى ، فإنى قد آلمنى العذاب ، فقال لها : انظرى فوقك ، فلما نظرت ضحكت فقال لها الملك : ما الذى يضحكك؟ قالت : أرى ملكين فوق معهما تاج من حلى الجنة ، ينتظران به خروج روحى ، فلما خرجت روحها زيناها بذلك التاج ثم صعدا بها إلى الجنة فلما قبض الله روحها أقبل جرجيس على الدعاء وقال : اللهم أنت أكرمتنى بهذا البلاء لتعطينى منازل الشهداء، فهذا آخر أيامى الذى كنت وعدتنى فيه الراحة من بلاء الدنيا؛ اللهم إنى أسألك أن لاتقبض روحى ولا أزول من مكانى هذا حتى تنزل بهؤلاء المتكبرين من سطواتك ونقمتك ما لاقبل لهم به حتى تشفى به صدرى وتقر به عينى ، فإنهم ظلمونى وعذبونى فيك ؛ اللهم وأسألك أن لايدعو بعدى داع فى بلاء وكرب فيذكرنى وينشدك باسمى إلا فرجت عنه ورحمته وأجبته وشفعتنى فيه . فلما فرغ من هذا الدعاء أمطر الله عليهم نارا ، فلما رأوا ذلك عمدوا إليه فضربوه بالسيوف غيظا من شدة الحريق ليعطيه الله بالقتلة الرابعة ما وعده ، ثم احترقت المدينة بجميع ما فيها وصارت رمادا ، فحملها الله من وجه الأرض وجعل عاليها سافلها ، فمكثت زمانا من الدهر يخرج من تحتها نار ودخان منتن لايشمه أحد إلا سقم سقما شديدا ، وكان جميع من آمن بجرجيس وقتل معه أربعة وثلاثين ألفا وامرأة الملك . قال الأستاذ : وكانت قصة جرجيس فى أيام ملوك الطوائف والله أعلم .

باب فى قصة شمسون النبى عليه السلام

قال الله تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ القَدْرِ) إلى قوله تعالى (خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ). أخبرنا أبوعمرو العراقى بإسناده عن ابن أبى نجيح «أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر رجلا من بنى إسرائيل لبس السلاح فى سبيل الله ألف شهر ، فتعجب المسلمون من ذلك ، فأنزل الله تعالى «إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، ومآأدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر -» التى ليس الرجل فيها السلاح فى سبيل الله تعالى .

أخبرنا عبد الله الضبىّ بإسناده عن وهب بن منبه: أن رجلا من أهل قرية من قرى الروم يقال له شمسون بن مسوح كان فيهم مسلما من أهل الإنجيل. وكانت أمه قد جعلته نذيرا ، وكان قومه أهل أوثان يعبدونها من دون الله ، وكان منزله منها على خمسة أميال ، وكان يغزوهم وحده ويجاهدهم فى الله ، فيقتل منهم ويسبى ويصيب الأموال ، وكان إذا قاتلهم لقيهم بالحجفة لايلقاهم بغيرها ، وكان إذا قاتلهم وقاتلوه فتعب وعطش انفجر له

من الحجر ماء عذب فيشرب منه حتى يروى ، وكان قد أعطى قوّة فى البطش ، وكان لايوثقه حديد ولا غيره ، فجاهدهم فى الله ألف شهر يصيب منهم حاجته ولا يقدرون منه على شىء ، فاحتالوا عليه وقالوا لانأتيه إلا من قِبَل امرأته، فجعلوا لها جُعلا على ذلك، فأجابتهم وقالت : أنا أوثقه لكم فأعطوها حبلا وثيقا وقالوا لها : إذا نام فأوثقى يديه إلى عنقه حتى نأتيه فنأخذه ؛ فلما نام أوثقت يديه إلى عنقه بذلك الحبل ؛ فلما انتبه من نومه جذبه بيده فوقع من عنقه ، فقال لها : لم فعلتِ ذلك؟ فقالت له : أجرب به قوتك ما رأيت مثلك قط ، فأرسلت إليهم وقالت لهم : إنى قد ربطته بالحبل فلم يغن عنه شيئا ، فأرسلوا إليها بجامعة من حديد ، وقالوا لها : إذا نام فاجعليها فى عنقه ، فلما نام جعلتها فى عنقه ثم أحكمتها ؛ فلما هبّ جذبها فوقعت من عنقه ويده ، فقال لها : لم فعلت هذا ؟ قالت : أجرب به قوتك ما رأيت مثلك قط ، فهل فى الأرض شىء يغلبك ؟ قال لا إلا شىء واحد قالت : وما هو ؟ قال : ما أنا بمخبرك به ؛ فلم تزل تسأله عن ذلك وكان ذا شعر طويل كثير فقال لها : ويحك إن أمى كانت أخبرتنى ألا يغلبنى شىء أبدا ، ولا يغلبنى إلا شعرى ؛ فلما نام أوثقت يده إلى عنقه بشعر رأسه ، فأوثقه ذلك ، فبعثت إلى القوم فجاءوا وأخذوه ، فجدعوا أنفه وأذنيه ، وفقئوا عينيه ، وأوقفوه للناس بين ظهرانى المدينة ، وكانت مدينة ذات أساطين ، وكان ملكهم قد أشرف عليها هو والناس لينظروا إلى شمسون ومايصنع به ، فدعا الله شمسون حين مثلوا به وأوقفوه على الناس أن يسلطه عليهم ، فأمر أن يأخذ بعمودين من عمد المدينة التى عليها الملك والناس معه فيجذبهما جميعا ، فجذبهما فانهارت المدينة بمن فيها ، فهلكوا فيها هدما وهلكت أيضا امرأته معهم ، ورد الله تعالى عليه بصره وما أصابوا من جسده تاما وعاد كما كان ، وكانت قصة شمسون فى أيام ملوك الطوائف . **والله أعلم** .

باب فى قصة أصحاب الأخدود

قال الله تعالى (قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الوَقُودِ) الآيات . روى عطاء عن ابن عباس أنه كان بنجران ملك من ملوك حمير يقال له يوسف ذو نواس بن شرحبيل ، فى الفترة قبل مولد النبى صلى الله عليه وسلم بسبعين سنة ، وكان له ساحر حاذق ، فلما كبر قال للملك : إنى قد كبرت فابعث لى غلاما أعلمه السحر ، فبعث إليه غلاما يقال له عبد الله بن السامرىّ يعلمه السحرى ، فكره الغلام ذلك ولم يجد بدًّا من طاعة الملك وطاعة أبيه ، فجعل يتخلف عن الساحر ، وكان فى طريقه راهب حسن القراءة حسن الصوت ، فقعد الغلام عنده وسمع كلامه فأعجبه ، وكان يبطئُ عند الراهب ويأتى المعلم فيضربه ويقول له ما الذى حبسك ، وإذا انقلب إلى أبيه يجلس عند الراهب فيضربه أبوه ويقول له ما أبطأك ؟ فشكا الغلام ذلك إلى الراهب ، فقال له الراهب : إذا أتيت المعلم فقل له حبسنى أبى ، وإذا أتيت أباك فقل حبسنى المعلم . وكان فى تلك البلاد حية عظيمة قد قطعت الطريق على الناس فر بها الغلام ورماها بحجر وقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر

فاقتلها ، فلما رماها قتلها ، فأتى الراهب وأخبره ، فقال له الراهب : أنت قتلتها ؟ قال نعم ، قال : إن لك لشأنا ، وقد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى ، فإذا ابتليت فلا تدل علىّ ، فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويشفى المرضى ؛ وكان للملك ابن عم مكفوف البصر فسمع بالغلام وقتله الحية ، فجاءه مع قائد وقال له : أنت قتلت الحية ؟ قال لا ، قال فمن قتلها ؟ قال الله تعالى، قال : فمن الله ؟ قال رب السموات والأرض ومابينهما ، ورب الشمس والقمر والليل والنهار والدنيا والآخرة ، قال : إن كنت صادقا فادع الله أن يرد علىّ بصرى ، فقال له الغلام : أرأيت إن رد الله عليك بصرك تؤمن بالله ؟ قال نعم ، قال : اللهم إن كان صادقا فاردد عليه بصره ، فرجع إلى منزله بلا قائد ، ثم دخل على الملك ، فلما رآه تعجب منه وقال له: من فعل هذا بك ؟ فقال: الله ، قال : ومن الله ؟ قال رب السموات والأرض ، فقال له الملك : أخبرنى من علمك هذا ، فأبى؟ فلم يزل يعذبه حتى دله على الغلام ، فجيء بالغلام ، فقال له الملك : يا بنىّ قد بلغ من سحرك هذا ؟ فقال له الغلام : إنى لاأشفى أحدا وإنما يشفى الله ، فلم يزل يعذبه حتى دله على الراهب ، فجيء بالراهب فقيل له ارجع عن دينك فأبى ،فدعا بالمنشار ووضعه فى مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقتين، ثم جيء بابن عمّ الملك،فقيل له ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار فشقه مثل ذلك ؛ ثم التفت إلى الغلام وقال له ارجع عن دينك فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه وقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا واصعدوا به إلى ذروة الجبل فان رجع عن دينه وإلا فاطرحوه ، فذهبوا به إلى الجبل ، فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فسقطوا وهلكوا ، ثم جاء الغلام يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ فقال كفانيهم الله ، فغاظ الملك ذلك،فدفعه إلى نفر من أصحابه وقال لهم : اذهبوا به فى قُرْقور وهى السفينة واطرحوه فى البحر ولججوا به فيه ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه فى البحر وغرقوه ، فذهبوا به إلى البحر ، فقال الغلام : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله ، فقال الملك : اقتلوه بالسيف ، فنبا السيف عنه ، وفشا خبره فى الأرض وعرفه الناس وعظموه وعلموا أنه هو وأصحابه على الحق، ثم إن الغلام قال للملك : إنك لاتقدر على قتلى إلا أن تفعل ما آمرك به ، فقال وما هو ؟ قال : تجمع أهل مملكتك وأنت على سريرك فتصلبنى على جذع وترمينى بسهم وتقول : باسم الله رب الغلام ، ففعل الملك ذلك ثم رماه وقال: باسم الله فأصابه فى صدغه،فوضع يده عليه ومات ، فقال الناس :لاإله إلا الله آمنا بدين عبد الله بن السامرىّ ولا دين إلا دينه . فلما آمن الناس برب العالمين ربّ الغلام ، قيل للملك : قد والله نزل بك ما كنت تحذر ، فغضب الملك وأغلق أبواب المدينة ، وأخذ أفواه

السكك وخد أخدودا وملأه نارا ، ثم عرض الناس عليه رجلا رجلا ، فمن رجع عن الإسلام تركه ، ومن لم يرجع ألقاه فى الأخدود فاحترق ، وكانت امرأة قد أسلمت فيمن أسلم ولها أولاد ثلاثة أحدهم رضيع ، فقال لها الملك : أترجعين عن دينك وإلا ألقيتك أنت وأولادك فى النار ؟ فأبت ، فأخذ ابنها الأكبر فألقى فى النار ، ثم أخذ الأوسط وقال لها : ارجعى عن دينك ، فأبت ، فألقى أيضا فى النار ، ثم أخذ الرضيع وقال لها : ارجعى ، فأبت ، فأمر بإلقائه فى النار فهمت المرأة بالرجوع ، فقال لها الصبى الصغير : يا أماه لاترجعى عن الإسلام فإنك على الحق ولا بأس عليك، فألقى الصبى فى النار وأمه على أثره، وقد روى هذا بنحو ما ذكرنا مرفوعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أخبرنا أبوالقاسم الحسن بن محمد بن الحسين بن جعفر المذكور بإسناده عن صهيب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل معناه « وَقَدْ تَكَلَّمَ سِتَّةٌ فى المَهْدِ : شَاهِدُ يُوسُفَ الصِّدِّيقِ عليه السَّلامُ ، وابنُ ماشِطَةِ بِنْتِ فِرْعَوْنَ وَيَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا وَعِيسَى بْنُ مَرْيَمَ وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ الرَّاهِبِ ، وَصَاحِبُ الأُخْدُودِ » .

وقال سعيد بن المسيب : كنا عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذ ورد عليه كتاب أنهم وجدوا ذلك الغلام بنجْران وهو واضع يده على صدغه ، فكلما مدت يده عادت إلى الصدغ ، فكتب إليهم عمر : واروه حيث وجدتموه . وقال مقاتل : كان أصحاب الأخاديد ثلاثة : واحد بنجران اليمن ، وآخر بالشام ، وآخر بفارس ، حرقوا بالنار ، أما الذى بالشام فأنطاخيوس الرومى أحرق قوما من المؤمنين ، وأما الذى بفارس فهو بختنصر .

وكانت قصته ما أخبرنا عبد الله بن حامد بإسناده عن ابن أروج قال : لما هزم المسلمون أهل الإسفندهار وانصرفوا جاءهم نعى عمر ، فاجتمعوا وقالوا : أى شىء نجرى على المجوس من الأحكام ، فإنهم ليسوا بأهل كتاب وليسوا من مشركى العرب ؟ فقال على كرم الله وجهه : بل هم أهل كتاب وكانوا متمسكين بكتابهم ، وكانت الخمرة قد أحلت لهم ، فتناولها ملك من ملوكهم ، فغلبت على عقله فتناول أخته فوقع عليها ، فلما ذهب عنه السكر ندم وقال لها : ويحك ! ما هذا الذى أتيت وما المخرج منه ؟ فقالت : المخرج منه : أنك تخطب الناس فتقول : أيها الناس إن الله قد أحل لكم نكاح الأخوات إذا ذهب هذا فى الناس تناسوا حرمته عليهم ، فقام فيهم خطيبا فقال : أيها الناس إن الله قد أحل لكم نكاح الأخوات ، فقال الناس بأجمعهم : معاذ الله أن نؤمن بهذا ، ما جاءنا بهذا نبى ولا أنزل علينا فى كتاب فرجع إلى أخته وقال : ويحك ! إن الناس قد أبوا علىَّ ، فقالت : أبسط فيهم السوط ، فأبوا أن يقروا ، فقال لها : إن الناس قد أبوا ، قالت : فجرد فيهم السيف ، فأبوا أن يقروا ، قالت : فخُدَّ لهم الأخدود ، ثم اعرضهم عليه ، فمن تابعك خلِّ عنه ، ومن أبى فاقذفه فى النار . فخدَّ الأخدود وأوقد فيه النيران وعرض أهل مملكته على ذلك ، فمن أبى

قذفه فى النار ، ومن أجاب خلى سبيله ، فأنزل الله تعالى فيهم (قُتِلَ أَصْحابُ الأُخْدُودِ) . . . إلى قوله تعالى (عَذَابَ الحَرِيقِ) .

وأما الذى فى اليمن فهو يوسف ذونواس بن شرحبيل بن تبع بن يشرخ الحميرىّ ، وقد ذكرنا قصته . وذكر محمد بن إسحاق بن بشار عن وهب بن منبه : أن رجلا كان بقى على دين عيسى فوقع إلى نجران ، فدعاهم فأجابوه ، فخيرهم ذونواس بين النار أو اليهودية ، فأبوا عليه ، فأحرق منهم اثنى عشر ألفا . وقال مقاتل : إنما قذف فى النار يومئذ سبعة وسبعين إنسانا ؟ وقال الكلبىّ : كان أصحاب الأخدود سبعين ألفا ، فلما قذفوا المؤمنين فى النار خرجت النار إلى أعلى شفير الأخدود فأحرقتهم ، وارتفعت النار فوقهم اثنى عشر ذراعا ، ونجا ذونواس ، فسلط الله عليهم إرياطا الحبشى حتى غلب على اليمن ، فخرج هاربا ، فاقتحم البحر فأغرقه الله فيه ، وفيه يقول عمرو بن معديكرب :

أتوعدنى كأنك ذو رُعَيْنٍ	بأنعم عيشة أو ذو نواس
وقدما كان قبلك فى نعيم	وملك ثابت فى الناس راسى
فقد تم عهده من عهد عاد	عظيم قاهر الجبروت قاسى
فأمسى أهله بادوا وأمسى	ينقل فى أناس من أناس

(باب فى قصة أصحاب الفيل)

وبيان ما فيها من الفضل والشرف . لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

قال الله تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الفِيلِ) إلى آخر السورة . قال محمد بن اسحاق بن يسار : كان من حديث أصحاب الفيل ما ذكر بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس وعمن بقى من علماء اليمن وغيرهم : أن ملكا من ملوك حمير يقال له زرعة ذونواس ، كان قد تهود واجتمع معه حمير على ذلك ، إلا ما كان من أهل نجران فإنهم كانوا على دين النصرانية على حكم الإنجيل ، ولهم رأس يقال له عبد الله بن السامر ، فدعاهم إلى اليهودية ، فأبوا فخيرهم ، فاختاروا القتل ، فخدّلهم الأخدود وصنف لهم أصناف القتل ، فمنهم من قتل صبرا ، ومنهم من ألقى فى النار ، إلا رجلا من أهل سبأ يقال له دوس بن ثعلبان ، فذهب على فرس له يركض حتى أعجزهم فى الرمل ، فأتى قيصر فذكر له ما بلغ منهم واستنصره ، فقال له : بعدت بلادك عنا ولكنى أكتب لك إلى ملك الحبشة فانه على ديننا فينصرك ، فكتب له إلى النجاشى بأمر بنصره ، فلما قدم على النجاشى بعث معه رجلا من الحبشة يقال له إرياط . فلما بعثه قال له : إن دخلت اليمن فاقتل ثلث رجالها ، وأخرب ثلث بلادها ، وابعث إلى بثلث سباياها ، فلما دخلها ناوشهم القتال فتفرقوا على ذى نواس واقتحم به فرسه فاستعرض

به البحر فهلكا جميعا ، فكان آخر العهد به ، ودخلها إرياط فعمل بما أمره النجاشىّ »
فقال ذوجدن الحميرىّ فيما أصاب أهل اليمن :

دعينى لاأبا لك لم تطيقى	لحاك الله قد أنزفت ريقى
بذا عزف القيان إذا انتشينا	إذا نسقى من الخمر الرحيق
وشرب الخمر ليس علىّ عارا	إذا لم يشكنى فيها رفيقى
وإن الموت لاينهاه ناه	ولوشرب الشفاء من النشوق
ولا مترهب فى أسطوان	يناطح جلده بيض الأنوق
وغمدان الذى نبئت عنه	بنوه ممسكا فى رأس نيق
لمهمه وأسفله حروث	وجر الموجل اللثق الزليق
مصابيح السليط يلحن فيه	إذا يمسى كرمضان البروق
فأصبح بعد جدته رمادا	وغير حسنه لهب الحريق
ونخلته التى غرست إليه	يكاد البسر يهصر بالعذوق
وأسلم ذو نواس مستبينا	وحذر قومه ضنك المضيق

قال : فأقام إرياط باليمن وكتب إليه النجاشى أن اثبت بجندك ومن معك ، فأقام حينا ؛ ثم إن أبرهة بن الصباح ساخطه فى أمر الحبشة حتى انصدعوا صدعين ، فكانت معه طائفة ، ومع أبرهة طائفة ، ثم تزاحفا ، فلما دنا بعضهم من بعض أرسل أبرهة إلى أرياط إنك لن تصنع شيئا فلاتلق الحبشة بعضها على بعض، ولكن اخرج إلىّ فأينا قتل صاحبه انضم إليه الجند ، فأرسل إليه إنك قد أنصفت ؛ ثم إنهما خرجا وكان أرياط جسيما عظيما وسيما فى يده حربة ، وكان أبرهة رجلا قصيرا حاذرا حليما ، وكان ذا دين فى النصرانية وكان خلف أبرهة . وزيرله يقال له عتودة ؛ فلما دنوا رفع إرياط الحربة فضرب بها رأس أبرهة فوقعت على جبينه فشرمت عينه وجبينه وأنفه وشفته ، فلذلك سمى أبرهة الأشرم ؛ فلما رأى عتودة ذلك حمل على إرياط فقتله ، فاجتمع الجيش على أبرهة ، فبلغ النجاشىّ ما صنع أبرهة فغضب عليه ، وحلف لايدع أبرهة حتى يجز ناصيته ويطأ بلاده ، ثم إنه كتب إلى أبرهة : إنك عدوت على أميرى فقتلته بغير أمرى ، وكان أبرهة رجلا ماردا ؛ فلما بلغه قول النجاشىّ حلق رأسه وملأ جرابا من تراب أرضه وكتب إلى النجاشىّ : أيها الملك إنما كان إرياط عبدك وأنا عبدك اختلفنا فى أمرك ، وكنت باعلم أمر الحبشة وأسوس له ، وكنت أردته أن يعتزل فأبى فقتلته ، وقد بلغنى الذى حلف عليه الملك وقد حلقت رأسى وبعثت به إليك وملأت جرابا من تراب أرضى وبعثته إليك ليطأه الملك فيبرّ قسمه ؛ فلما انتهى إليه ذلك رضى عنه وأقره على عمله وكتب إليه : بأن اثبت بمن معك من الجند . ثم إن أبرهة بنى كنيسة بصنعاء يقال لها القُلَّيْس ، ثم إنه كتب إلى النجاشىّ : إنى قد بنيت لك

بصنعاء كنيسة لم يبن الملك مثلها قط ، ولست منتهيا حتى أصرف إليها حج العرب . فسمع بذلك رجل من بنى مالك بن كنانة، فخرج إلى القُلَّيْس فدخلها ليلا ، فقذر فيها تهاونا بها وتغضبا للكعبة ، فبلغ ذلك أبرهة ، ويقال إنه أتاها ناظرا إليها فدخلها فوجد العذرة فيها ؟ فقال : من اجترأ على هذا ؟ فقيل فعل هذا رجل من العرب من أهل ذلك البيت الذى يحجونه ، سمع بالذى قلت فصنع هذا ، فحلف أبرهة عند ذلك ليسيرنّ إلى الكعبة حتى يهدمها ، فخرج سائرا من الحبشة إلى مكة وأخرج معه الفيل ، فبلغ ذلك العرب فأعظموه وفُظِعوا به ،ورأوا جهاده حقا عليهم ، فخرج ملك من ملوك حمير يقال له ذو نفر بمن أطاعه من قومه،فقاتله ، فهزمه وأُخِذ ذو نفر فأتى به أبرهة ، فقال له : أيها الملك لاتقتلنى فإن استبقاءك لى خير لك من قتلى ، فاستحياه وأوثقه،وكان أبرهة رجلا حليما،ثم خرج سائرا حتّى إذا دنا من ديار خثعم خرج إليه نفيل بن حبيب الخثعمىّ فى قبيلتى خثعم ، وهما شهران وناهش ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن ، فقاتلوه فهزمهم وأخذ نفيلا أسيرا ، فقال له أيها الملك إنى دليلك بأرض العرب فلا تقتلنى ، وها أنا أنادى على قومى بالسمع والطاعة لك فاستبقاه وخرج معه يدله ، حتّى إذا مر بالطائف فخرج إليه مسعود بن مغيث الثقفىّ فى رجال من ثقيف ، وقال له : أيها الملك إنما نحن عبيدك فليس لك عندنا خلاف ، وليس بيننا هذا الذى تريد ، يعنى به اللات ، إنما تريد البيت الذى بمكة ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه ، فبعثوا أبا رغال مولاهم، فخرجوا حتّى إذا كانوا بالمغمَّس مات أبو رغال فهو الذى ترجم قبره العرب ، وبعث أبرهة من المغمَّس رجلا من الحبشة يقال له الأسود ابن مقصود على مقدمة خيله ، فجمع إليه أموالا ، وأصاب لعبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم مئتى بعير ؛ ثم إن أبرهة بعث حناطة الحميرىّ إلى أهل مكة سفيرا ، فقال له : سل عن شريفها ثم أبلغه أنى لم آت لقتال إنما جئت لأهدم هذا البيت ، فانطلق حناطة حتّى دخل مكة ، فلقى عبد المطلب بن هاشم ، فقال له : إن الملك أرسلنى إليك لأخبرك أنه لم يأت لقتال إلا أن تقاتلوه ، إنما أتى لهدم هذا البيت ثم الانصراف عنكم ، فقال عبد المطلب : سنخلىّ بينه وبين ما جاء له ، فإن هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، فإن يمنعه فهو بيته وحرمه ، وإن يخلّ بينه وبين ذلك فهو كذلك ، فوالله ما لنا به قوة . قال : فانطلق معى إلى الملك ، فزعم بعض العلماء أنه أردفه على بغلة له كان راكبا عليها ، وركب معه بعض بنيه حتّى قدم المعسكر ، وكان ذونفر صديقا لعبد المطلب فأتاه فقال له : يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال : ما غناء رجل أسير لايأمن من أن يقتل بكرة أو عشية ، ولكنى سأبعث لك إلى أنيس سائس الفيل فإنه صديق لى ، فأسأله أن يصنع لك عند الملك ما استطاع إليه من الخير ، ويعظم منزلتك وحظك عنده ؛ قال : فأرسل إلى أنيس فأتاه ، فقال له : إن هذا سيد قريش صاحب عير مكة ، يعطى ويطعم الناس من السهل والجبل والوحش والطير فى رءوس الجبال ؛ وقد أصاب له الملك

منى بعير ، فإن استطعت أن تنفعه عنده فانفعه فإنه صديق لى ، وإنى أحب ما يصل إليه من الخير . ثم إن أنيسا دخل على أبرهة هو وعبد المطلب ، فقال له : أيها الملك هذا سيد قريش وصاحب عير مكة الذى يطعم الناس فى السهل والجبل والطير والوحش فى رءوس الجبال ، وقد جاءنا غير ناصب لك حربا ولا يخالف عليك ، يستأذن عليك وأنا أحب أن تأذن له فيكلمك ، فأذن له ، وكان عبد المطلب رجلا جسيما وسيما ؛ فلما دخل عليه جلس بين يديه ، فأقامه وأجلسه معه على السرير ثم قال لترجمانه : قل له ما حاجتك ؟ فقال له الترجمان ذلك ، فقال له عبد المطلب : حاجتى أن يرد علىّ مِئتىْ بعير أصابها لى ، فقال أبرهة لترجمانه: قل له لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ولقد زهدت فيك الآن ، فقال له ولم ؟ قال : حيث جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك لأهدمه لم تكلمنى فيه وتكلمنى فى مئتى بعير أصبتها ؟ فقال له عبد المطلب : قل له أنا ربّ هذه الإبل ، ولهذا البيت رب سيمنعه منك ، قال : ما كان ليمنعه منى ، فقال له : أنت وذاك ، ثم أمر له بإبله فردّت عليه . قال محمد بن إسحاق : وكان فيما يزعم بعض أهل العلم أن عبد المطلب قد ذهب إلى أبرهة بعمرو بن معديكرب بن الديل بن بكر بن عبد مناف بن كنانة ، وهو يومئذ سيد بنى كنانة وخويلد بن واثلة الهذلىّ وهو يومئذ سيد هذيل، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة ، على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت ، فأبى أن يرجع .

قال : فلما ردت الإبل على عبد المطلب ، رجع فأخبر قريشا الخبر ، وأمرهم أن يتفرّقوا فى الشعاب ويتحرّزوا فى رءوس الجبال تخوفاً عليهم من مَعَرَّة الجيش إذا دخل، ففعلوا ذلك ، ثم أتى عبد المطلب إلى الكعبة فأخذ حلقة الباب وجعل يقول :

يا رب لاأرجو لهم سواكا ... يا رب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا ... فامنعهم أن يخربوا قراكا

وقال أيضا :

لاهـمّ إنّ المرء يمـنع ، حله فامنع رحالك
وانصر على آل الصليـب وعابديه اليوم آلك
لايغلـبن صليبهـم ومحالهـم أبدا محالك
جرّوا جموعَ بلادهم والفيلَ كى يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم جهلا وما رقبوا جلالك
إن كنت تاركهم وكعـبتنا فأمر ما بدا لك

ثم إن عبد المطلب ترك الحلقة وتوجه فى بعض الوجوه مع قومه ، وأصبح أبرهة بالمغمّس وقد تهيأ لدخول مكة وعبّى جيشه وهيأ فيله ، وكان اسم الفيل محمودا ، وكان من قبل النجاشىّ بعثه إلى أبرهة ، وكان فيلا لم ير مثله فى الأرض عظما وقوة وجسما . وقال الكلبىّ : لم يكن عندهم إلا ذلك الفيل الواحد ، فلذلك قال الله تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ

بِأَصْحابِ الفِيلِ) : وقال الضحاك : كانت الفيلة كثيرة ، ويقال كان معه اثنا عشر فيلا ، وإنما وحد (١) على هذا التأويل لوفاق رءوس الآى ، ويقال نسبهم إلى الفيل الأعظم قال : فأقبل نفيل إلى الفيل الأعظم فأخذ بأذنه وقال : ابرك محمود ، أو ارجع راشدا من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام ، فبرك الفيل ، فبعثوه فأبى أن يقوم ، فضربوه بالمعول فى رأسه فأبى ، فأدخلوا محاجنهم تحت مراقه ومرافقه ورفعوه ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعا إلى اليمن فقام يهرول ، ثم وجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ثم وجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، فصرفوه إلى الحرم فبرك وأبى أن يقوم ، ثم إن نفيلا خرج من عندهم وصعد فى الجبل وأرسل الله تعالى طيرا من البحر كأمثال الخطاطيف مع كل طير منهم ثلاثة أحجار : حجران فى رجليه ، وحجر فى منقاره أمثال الحمص والعدس ؛ فلما غشيت القوم أرسلتها عليهم فلم تصل تلك الحجارة أحدا إلا هلك ، وليس كل القوم أصابت ، فذلك قوله تعالى (طَيْرًا أبابِيلَ) أى متفرقة من ههنا وههنا ، قال ابن عباس : كان له خراطيم كخراطيم الطيور وأكف كأكف الكلاب . وقال عكرمة كان لها رءوس كرءوس السباع ولم تر قبل ذلك ولا بعده . وقال الربيع : لها أنياب كأنياب السباع . وقال سعيد بن جبير : طير خضر لها مناقير صفر . وقال أبو الجوزاء أنشأها الله فى الهواء فى ذلك الوقت (تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ - أى سنككل (٢) . قال ابن مسعود : صاحت الطيور ورمتهم بالحجارة وبعث الله ريحا فضربت الحجارة فزادتها قوة ، فما وقع منها حجر على جنب رجل إلا خرج من الجانب الآخر ، وإذا وقع على رأس رجل خرج من دبره (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ) أى كزرع قد أكل حبه وبقى تبنه : فلما رأت الحبشة ذلك خرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى جاءوا منه ، ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق ، فقال نفيل بن حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمه :

أين المفـرّ والإله الطالبْ والأشرم المغلوب غير الغالبْ

وقال أيضا فى ذلك :

ألا حييت عنا يا ردينا نَعِمناكم مع الإصباح عينا
ردينـة لو رأيت ولن تريه لدى جنب المحصب ما رأينا
إذن لعذرتنى وحمدت أمرى ولم تأسَىْ على ما فات بينا
حمدت الله إذ عاينت طـيرا وخفت حجارة ترمى علينا
وكل القوم يسأل عن نفيل كأن علىَّ للحبشان دينا

وذكر زياد عن عبد الله بن عمر أن طير الأبابيل كانوا أقبلوا من قبل البحر لرجال

---

(١) (قوله وإنما وحد الخ) المراد أن الإفراد فى الآية على هذا القول لوفاق رءوس الآى .
(٢) (قوله أى سنككل) لفظ فارسى ، معربه : سجيل .

لهند ، ترميهم بحجارة أصغرها مثل رءوس الرجال وأكبرها كالإبل البُزْل ، مارمت أصابت رما أصابت قتلت ، ونفيل ينظر إليهم من بعض تلك الجبال ، وقد خرج القوم وصاح بعضهم على بعض ، فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون على كل منهل ، وبعث الله تعالى على أبرهة داء فى جسده فجعل تتساقط أنامله كلما سقطت أنملة أتبعتها أنملة وقيح ودم ، فانتهى إلى صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فيما بقى من أصحابه ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ثم هلك .

وزعم مقاتل بن سليمان أن السبب الذى جر حديث أصحاب الفيل هو أن فئة من قريش خرجوا تجارا إلى أرض النجاشى ، فساروا حتى دنوا من ساحل البحر ، وفى سندها حِقف من أحقافها به بِيعة للنصارى تسميها قريش الهيكل ، ويسميها النجاشى وأهل أرضه الماسرخسان ، فنزل القوم فى سندها ، فجمعوا حطبا وأججوا نارا واشتووا لحما ؛ فلما ارتحلوا تركوا النار كما هى فى يوم صائف ، فعجت الرياح فاضطرم الهيكل نارا ، وانطلق الصريخ إلى النجاشى فأخبروه ، فأسف عند ذلك غضبا للبيعة ، فبعث أبرهة لهدم الكعبة ، وكان بمكة يومئذ أبو مسعود الثقفى ، وكان مكفوف البصر يصيف بالطائف ويشتوى بمكة ، وكان رجلا نبيها نبيلا عاقلا ، وكان لعبد المطلب خليلا ، فقال عبد المطلب : يا أبا مسعود : هذا يوم لا نستغنى فيه عن رأيك ، فما رأيك ؟ فقال أبو مسعود لعبد المطلب : اعمد إلى مئة من الإبل فاجعلها هديا لله تعالى ، وقلدها نعلا وأثبتها فى الحرم ، لعل بعض هؤلاء السودان يعقر منها فيغضب رب هذا البيت ، فيأخذهم ، ففعل ذلك عبد المطلب ، فعمد القوم إلى تلك الإبل فحملوا عليها وعقروا بعضها ، وجعل عبد المطلب يدعو ، فقال أبو مسعود : إن لهذا البيت ربا سيمنعه ، فقد نزل تبع ملك اليمن بصحراء هذا البيت ، وأراد هدمه فمنعه الله وابتلاه وأظلم عليه ثلاثة أيام ؛ فلما رأى ذلك تبع كساه القَباطىّ البيض وعظمه ونحر له جُزُرا . ثم قال أبو مسعود لعبد المطلب : انظر إلى بحر اليمن هل ترى شيئا ؟ فقال : أرى طيرا بيضا نشأت من جانب البحر وحلقت على رءوسنا ، فقال له : هل تعرفها ؟ فقال عبد المطلب : والله ما أعرفها ما هى بنجدية ولا تهامية ولا عربية ولا شآمية ، وإنها تطير بأرضنا غير مؤنسة ؛ قال : ما قدرها ؟ قال : أمثال اليعاسيب فى مناقيرها حصى كأنها حصى الحَذْف قد أقبلت كالليل المظلم يتبع بعضها بعضا ، أمام كل فرقة طير يقودها أحمر المنقار أسود الرأس طويل العنق ، فجاءت حتى إذا حاذت عسكر القوم ركدت فوق رءوسهم ؛ فلما توافت الرجال كلها بحيالهم أهالت الطير ما فى مناقيرها على من تحتها مكتوب على كل حجر اسم صاحبه ، ثم إنها رجعت من حيث جاءت . فلما أصبح عبد المطلب وأبو مسعود انحطا من ذروة الجبل ، فمشيا ربوة فلم يؤنسا أحدا ، ثم إنهما مشيا فلم يسمعا حسًا ، فقالا لبعضهما : بات القوم سامدين فأصبحوا نياما ؛ فلما دنوا من معسكر الفيل فإذا هم خامدون ، وكان الحجر ينزل على بيضة أحدهم فيفجرها ويقطع

فى دماغه ويخرق الفيل والدابة ويغيب الحجر فى الأرض من شدة وقعه ؛ ثم إن عبد المطلب أخذ فأسا وحفر حتى أعمق فى الأرض فملأها من الذهب الأحمر والجوهر الجيد ، ثم حفر لصاحبه حفرة فملأها ، ثم قال لأبى مسعود : هات خاتمك وأخيرك فاختر ، فإن شئت أخذت حفرتى ، وإن شئت أخذت حفرتك ، وإن شئت فهما لك معا ؛ فقال له أبومسعود اختر لى على نفسك ؛ فقال عبد المطلب : إنى جعلت أجود المتاع فى حفرتى فهو لك ، ثم جلس كل واحد منهما على حفرته ، ونادى عبد المطلب فى الناس فرجعوا وأصابوا من فضلها حتى ضاقوا بذلك ذرعا ، وساد عبد المطلب بذلك على قريش وأعطته الرياسة ، فلم يزل أبومسعود وعبد المطلب غنيين من ذلك المال إلى أن ماتا .

وقال الواقدىّ بأسانيده : غزا النجاشى إرياط فى أربعة آلاف إلى اليمن فغلب عليها ، فأكره الملوك واستذل الفقراء ، فقام رجل من الحبشة يقال له أبرهة الأشرم أبويكسوم ، فدعا إلى طاعته فأجابوه ، فقتل إرياط وغلب على اليمن ، فرأى الناس يتجهزون أيام الموسم للحج ، فسأل أين تذهب الناس ؟ فقيل : يحجون بيت الله بمكة ، قال فما هو ؟ قالوا من حجر ، قال فما كسوته ؟ قالوا ما يأتى من ههنا من الوصائل ، فقال : والمسيح لأبنينّ خيرا منه ، فبنى لهم بيتا بالرخام الأبيض والأسود والأحمر والأصفر ، وحلاه بالذهب والفضة وحفه بالجواهر ، وجعل له أبوابا عليها صفائح الذهب ومسامير الذهب ، ورصعها بالجواهر وجعل فيها ياقوتة حمراء وجعل لها حجابا ، وكان يوقد بالمَنْدل ويلطخ جدرانه بالمسك حتى تغيب الجواهر ، وأمر الناس بحجه ، فحجه كثير من قبائل العرب سنين ، ومكث فيه رجال يتعبدون ويتنسكون ، فأمهل نفيل الخثعمىّ حتى كان ليلة من الليالى لم ير أحدا يتحرك فجاءه بعذرة فلطخ بها قبلته وألقى فيه الجيف ، فأخبر أبرهة بذلك ، فغضب أبرهة غضبا شديدا وقال : إنما فعلت العرب ذلك غيظا لأجل بيتهم ، ثم إنه قال لأنقضنه حجرا حجرا . ثم إنه كتب إلى النجاشىّ يخبره بذلك ، ويسأله أن يبعث إليه بفيله محمود ، وكان فيله لم ير مثله فى الأرض عظما وجسما وقوة ، فبعثه إليه ، فغزا البيت كما ذكرنا إلى أن قال : أقبلت الطير من البحر أبابيل ، مع كل طير ثلاثة أحجار : حجران فى رجليه ، وحجر فى منقاره ، فقذفت الحجارة عليهم لاتصيب شيئا إلا هشّمته ، وبعث الله سيلا أتى عليهم ، فذهب بهم إلى البحر ، فألقاهم فيه ، وولى أبرهة ومن معه هاربا ، فجعل أبرهة يسقط عضوا عضوا حتى مات . وأما محمود فيل النجاشى فربض ولم يشجع على الحرم فنجا ؛ وأما الفيلة الأخر فتشجعت فحصبت وهلكت ، وهو أول وقت رؤى عليه الجدرى والحصبة .

وقال أمية بن أبى الصلت فى ذلك :

إنّ آيات ربنا بيّنات ... ما يمارى بهنّ إلا الكفور

حبس الفيل بالمغمّس حتى ... ظلّ يحبو كأنه معقور

حوله من رجال كندة فتيا ... ن مصاليت فى الحروب صقور

غادروه وقد تولوا سراعا   كلهم عظم ساقه مكسور

وقال الكلبىّ : لما أهلكهم الله بالحجارة لم يفلت منهم إلا أبرهة الأشرم بن يكسوم ، فسار وطائر يطير فوقه ، ولم يشعر به حتى دخل على النجاشىّ ، فأخبره بما أصابهم ، فما استتم كلامه حتى رماه الطائر فسقط ميتا ، فأرى الله النجاشىّ كيف كان هلاك أصحابه ،

وقال الواقدىّ : كان أبرهة جد النجاشى الذى كان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وآمن به . واختلفوا فى تاريخ عام الفيل ، فقال مقاتل : كان أمر الفيل قبل مولد النبى صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة . وقال عبيد بن عمير والكلبىّ : كان قبل مولده بثلاث وعشرين سنة . وقال آخرون : كانت قصة الفيل فى العام الذى ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعلى هذا أكثر العلماء وهو الصحيح ، يدل عليه ما أخبرنا أبو بكر الجوزقى قال : حدثنا عبد العزيز بن أبى ثابت ، حدثنا الزبير بن موسى عن أبى الجوزاء قال : سمعت عبد الملك بن مروان يقول لغياث بن أُشَيْم الكنانى : يا غياث أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر منى وأنا أسنّ منه ، ولد رسول الله عليه الصلاة والسلام عام الفيل ووقفت بى أمى على روث الفيل . ويدل عليه أيضا ما روى أن عائشة رضى الله عنها قالت : رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان .

فلما كفى الله أمر أصحاب الفيل عظمت العرب قريشا وقالوا : هم أهل الله ، وإن الله قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم .

والله عز وجلّ أعلم وأحكم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل. آمين .

بحمد الله وحسن توفيقه ، والصلاة والسلام على النبىّ وآله وصحبه . تمت الطبعة الرابعة لكتاب :

قصص الأنبياء ، المسمى عرائس المجالس

لأبى إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابورىّ ، المعروف بالثعلبىّ

مصححا بمعرفة لجنة من العلماء برياسة الشيخ : أحمد سعد على

القاهرة فى { ٦ ذى القعدة ١٣٧٤ هـ
٢٧ يونيو ١٩٥٥ م }

ملاحظ المطبعة
محمد أمين عمران

مدير المطبعة
رستم مصطفى الحلبى

فهرس

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

